

كتاب

المسير والسير

تأليف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

المتوفى سنة ٢٥٠ هـ

وضع حواشيه

محمد باسل عيون السود

تقديم

للحقنا الفهارس العامة في آخر الكتاب

المجلد الأول

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

مستغربات محمديت بيروت



دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة

Copyright

All rights reserved ©
Tous droits réservés ©

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو
مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

Exclusive rights by ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signé par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الثانية

٢٠٠٢ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠ / ١١ / ١٢ / ١٣ (+٩٦١ ٥)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Beirut - Lebanon

Raml Al-Zarif, Bohtry Str., Melkart Bldg. 1st Floor

Head office

Aramoun - Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Beyrouth - Liban

Raml Al-Zarif, Rue Bohtry, Imm. Melkart, 1er Étage

Administration général

Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

B.P.: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-2243-6



9 782745 112243 8

<http://www.al-ilmiyah.com/>

e-mail: sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

مقدمة

الحمد لله وحده لا شريك له، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم، وبعد؛ فكتاب الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ هو من الكتب التي كتب لها البقاء والذیوع والانتشار قديماً وحديثاً.

وقد طبع الكتاب غير ما مرة، وتولى خدمته غير واحد من أهل العلم، بيد أنه - على تعدد طبعاته، وجلالة بعض من خدمه - يحتاج إلى طبعة علمية محققة، ففيه ما فيه من نقصان وتحريف ليس منه.

وقد أفدت من جهود من تقدمني في خدمة هذا الكتاب، وحرصت على تخريج ما فيه من آيات وأحاديث وأخبار وأشعار وأمثال، وعلى ربطه بكتب الجاحظ الأخرى: البيان والتبيين؛ والبخلاء؛ والرسائل؛ والبرصان والعرجان.

وقدمت للكتاب بمقدمة عرفت فيها بالجاحظ وكتابه، اقتضبتها لأن ناشري كتبه قد كتبوا لها مقدمات وافية ضافية.

وبعد أرجو أن يكون التوفيق قد حالفني في إخراج الكتاب على نحو يرضاه العلماء، والله أسأل أن يهدينا للحق وإلى ما فيه مرضاته.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دمشق ١٩/٤/١٩٩٨م.

محمد باسل عيون السود

حياته:

من المتفق عليه أن ولادته كانت سنة (١٤٨ هـ) وأقتطف سيرة حياته الموجزة من شذرات الذهب ٢/ ١٢١-١٢٢ [سنة خمسين ومائتين.

وفيها [توفي] عمرو بن بحر الجاحظ أبو عثمان البصري المعتزلي، وإليه تنسب الفرقة الجاحظية من المعتزلة، صنف الكثير في الفنون. كان بحراً من بحور العلم؛ رأساً في الكلام والاعتزال، وعاش تسعين سنة؛ وقيل بقي إلى سنة خمس وخمسين.

أخذ عن القاضي أبي يوسف وثمامة بن أشرس وأبي إسحاق النظام. قال في المغني: عمرو بن بحر الجاحظ المتكلم صاحب الكتب. قال ثعلب: ليس بثقة ولا مأمون؛ انتهى. وقال غيره: أحسن تأليفه وأوسعها فائدة كتاب الحيوان وكتاب البيان والتبيين، وكان مشوّه الخلق، استدعاه المتوكل لتأديب ولده؛ فلما رآه رده وأجازه؛ وفلج في آخر عمره، فكان يطلي نصفه بالصندل والكافور لفرط الحرارة ونصفه الآخر لو قرض بالمقاريض ما أحس به لفرط البرودة، وسمي جاحظاً لجحوظ عينيه؛ أي لنتوثهما. وكان موته بسقوط مجلدات العلم عليه].

مضمون الكتاب وقيمه:

يوهم العنوان الذي وسم به الكتاب أنه مقصور على الحيوان، إلا أن الكتاب يتضمن علوماً ومعارف أكبر من العنوان، فقد أطنب المؤلف في ذكر آي القرآن الكريم، وحديث نبينا محمد ﷺ، وفيه صورة للعصر العباسي وما انطوى عليه من ثقافة متشعبة الأطراف، وعادات كانت سائدة حينذاك، كما تحدث فيه عن الأمراض التي تعترض الإنسان والحيوان؛ وطرق علاجها، وتطرق إلى المسائل الكلامية التي عرف بها المعتزلة، وتحدث عن خصائص كثيرة من البلدان، وعرض لبعض قضايا التاريخ.

كل هذه الأنواع من العلوم كانت تتخللها الفكاهة التي بثها الجاحظ بين الفينة والأخرى، مما جعل كتابه بغية كل قارئ، فإن أراد الشعر وجده من أغنى الكتب الحافلة بالشعر، وإن أراد معرفة معلومات دقيقة عن البشر أو أحد الحيوانات وجد ضالته في تضاعيف هذا الكتاب.

وإن أراد الاطلاع على ما قالته العرب من أمثال وجد الكمّ الوافر منها، وإن حثته نفسه على مطالعة فكاهة وجدها مبثوثة في صفحات متعددة من هذا الكتاب الضخم، وهذا ما يجعل كتاب الحيوان مجموعة كتب ضمها كتاب واحد .

عملي في الكتاب :

قسم الجاحظ كتابه إلى عدة أبواب، وهي أبواب طويلة، يكاد يصل عدد صفحات بعضها إلى حوالي مئتي صفحة، ولما رأيت الأمر كذلك رأيت أن أحافظ على تقسيمه، وإشفاق هذا التقسيم بعناوين فرعية تعطي فكرة عن مضمون الفقرة، واقتبست العناوين من مضمون كلام الجاحظ؛ وجعلتها بين قوسين معكوفتين، كما جعلت لها رقماً متسلسلاً؛ كنت أحيل إليه إذا تكرر شيء من هذه الفقرة في موضع آخر من الكتاب، وتركت العناوين التي وضعها الجاحظ بدون أقواس أو أرقام، وجعلتها في منتصف الصفحة، لتمييزها عن العناوين التي استحدثتها .

وقد تبين لي أن الكتاب بكافة طبعاته يعتره السقط والخلل، فأضفت إليه ما وجدته ساقطاً؛ وسددت الثلم الذي اكتنف المتن، وكان من أهم المصادر التي أعانتي في استدراك السقط كتاب « ثمار القلوب » للثعالبي، وحضرت ما أضفته بين قوسين .

وخرجت الآيات والأحاديث والأقوال والآثار، وقدمت تخريجاً وافياً للأشعار والأمثال والأخبار، فلم أدع قولاً أو أثراً أو مثلاً أو بيتاً من الشعر إلا نقبت عنه في المظان المتوفرة، وهو جهد جشميني الكثير من العناء الذي رافقه الصبر والروية للتحقق مما أكتب .

ويتضح حجم الجهد الذي بذلته في سبيل إخراج هذا الكتاب من خلال الحواشي التي ذيلت بها متن الكتاب، ومن خلال المصادر التي أشفعتها بنهاية الكتاب .

وبعد .. فأرجو أن أكون قد أصببت المراد من عملي هذا .

محمد باسل عيون السود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه ثقّني

١ - [مؤلفات الجاحظ والرد على من عابها]

جَنَّبِكَ اللَّهُ الشُّبُهَةَ، وَعَصَمَكَ مِنَ الْحَيْرَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَعْرِفَةِ نَسْبًا،
وَبَيْنَ الصَّدَقِ سَبَبًا، وَحَبَّبَ إِلَيْكَ التَّثَبُّتَ، وَزَيَّنَ فِي عَيْنِكَ الْإِنْصَافَ، وَأَذَاكَ حَلَاوَةَ
التَّقْوَى، وَأَشْعَرَ قَلْبَكَ عِزَّ الْحَقِّ، وَأَوْدَعَ صَدْرَكَ بَرْدَ الْيَقِينِ وَطَرَدَ عَنْكَ ذُلَّ الْيَأْسِ،
وَعَرَّفَكَ مَا فِي الْبَاطِلِ مِنَ الذَّلَّةِ، وَمَا فِي الْجَهْلِ مِنَ الْقَلَّةِ.

ولعمري لقد كان غيرُ هذا الدعاء أصوبَ في أمرِك، وأدلَّ على مقدارِ وزنك،
وعلى الحال التي وضعتَ نفسك فيها، ووسمتَ عرضك بها، ورضيتها لديك حظًّا،
ولمروءتك شكلاً، فقد انتهى إليَّ ميلك على أبي إسحاق، وحملك عليه، وطعنك
على معبد، وتنقصك له في الذي كان جرى بينهما في مساوي الديك ومحاسنه،
وفي ذكر منافع الكلب ومضاره، والذي خرجاً إليه من استقصاء ذلك وجمعه، ومن
تبعه ونظمه، ومن الموازنة بينهما، والحكم فيهما. ثم عبتني بكتاب حيل
للصوص^(١)، وكتاب غش الصناعات، وعبتني بكتاب المُلح والطرف^(٢)، وما حرّم من
النوادير وبرد، وما عاد بارده حاراً لفرط برده حتى أمتع بأكثر من إمتاع الحار، وعبتني
بكتاب احتجاجات البخلاء، ومناقضتهم للسّمحاء، والقول في الفرق بين الصدق إذا
كان ضاراً في العاجل، والكذب إذا كان نافعاً في الآجل، ولم جعل الصدق أبداً
محموداً، والكذب أبداً مذموماً، والفرق بين الغيرة وإضاعة الحرمة، وبين الإفراط في
الحمية والأنفة، وبين التقصير في حفظ حق الحرمة، وقلة الاكتراث لسوء القالة، وهل
الغيرة اكتساب وعادة، أم بعض ما يعرض من جهة الديانة، ولبعض التزيّد فيه

(١) ذكره بروكلمان في تاريخه ١١٩/٣. وفيه: «حكاية عثمان الخياط في اللصوص: موصل ٢٦٤.

وذكر الجاحظ: كتاب حيل سراق الليل وكتاب حيل النهار، في كتاب البخلاء ٤؛ وذكره التنوخي

١٩٦/٢ بعنوان: كتاب اللصوص، والبغداد في الفرق بين الفرق ١٦٢ بعنوان حيل اللصوص».

(٢) بروكلمان ١٢٦/٣، رقم (١٠٠).

والتحسّن به، أو يكون ذلك في طباع الحرّية، وحقّيقة الجوهريّة، ما كانت العقولُ سليمة، والآفات منفيّة والأخلاقُ معتدلة.

وعبّنتي بكتاب الصُّرْحَاءِ وَالهُجْنَاءِ^(١)، ومفاخرة السُّودانِ وَالحمرانِ^(٢)، وموازنة ما بين حقِّ الخفّولة والعمومة^(٣)، وعبّنتي بكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعنان^(٤)، وأقسام فضول الصناعات، ومراتب التجارات^(٥)؛ وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء^(٦)، وفرق ما بين الذكور والإناث، وفي أيّ موضع يغلبن ويفضّلن، وفي أيّ موضع يكنّ المغلوبات والمفضولات، ونصيب أيّهما في الولد أوفر، وفي أيّ موضع يكون حقّهنّ أوجب، وأيّ عملٍ هو بهنّ أليق، وأيّ صناعةٍ هنّ فيها أبلغ.

وعبّنتي بكتاب القحطانيّة وكتاب العدنانيّة في الردّ على القحطانيّة^(٧)، وزعمت أنّي تجاوزتُ الحميّة إلى حدّ العصبيّة، وأنّي لم أصل إلى تفضيل العدنانيّة إلاّ بتنقّص القحطانيّة، وعبّنتي بكتاب العرب والموالي^(٨)، وزعمت أنّي بخستُ المواليَ حقوقهم، كما أنّي أعطيتُ العربَ ما ليس لهم. وعبّنتي بكتاب العرب والعجم، وزعمت أنّ القولَ في فرق ما بين العرب والعجم^(٩)، هو القولُ في فرق ما بين الموالي والعرب، ونسبتني إلى التكرار والترداد، وإلى التكثير، والجهل بما في المُعاد من الخطّط، وحَمَلِ الناسِ المؤمن.

وعبّنتي بكتاب الأصنام^(١٠)، وبذكر اعتلالات الهند لها، وسبب عبادة العرب إيّاها، وكيف اختلفا في جهة العلة مع اتّفاقهما على جملة الديانة، وكيف صار عبادة البِدَدَةِ^(١١) والتمسّكون بعبادة الأوثان المنحوتة، والأصنام المنجورة، أشدّ الديّانين

(١) بروكلمان ١٢٣/٣، رقم (٤٥).

(٢) بروكلمان ١٢٤/٣، رقم (٥٦).

(٣) بروكلمان ١٢٤/٣، رقم (٦١).

(٤) بروكلمان ١٢٥/٣، رقم (٨٠).

(٥) بروكلمان ١٢٤/٣، رقم (٦٢)، (٦٤).

(٦) رسائل الجاحظ ٣/٣٧ (١) ١٥٩ بعنوان «النساء».

(٧) بروكلمان ١٢٢/٣، رقم (٢٧).

(٨) بروكلمان ١٢٢/٣، رقم (٢٨).

(٩) بروكلمان ١٢٢/٣، رقم (٢٩).

(١٠) بروكلمان ١٢١/٣، رقم (١).

(١١) البددة: جمع بُدْ، وهو الصنم. أو بيت الأصنام والتصاوير. وهو إعراب «بت» بالفارسية. اللسان:

إلْفًا لما دانوا به، وشغفًا بما تعبّدوا له، وأظهَرَهُم جدًّا، وأشدَّهُم على من خالفهم ضغنًا، وبما دانوا ضنًّا، وما الفرق بين البُدِّ والوثن، وما الفرق بين الوثن والصنم، وما الفرق بين الدُّمية والجثة، ولم صوِّروا في محاريبهم وبيوت عباداتهم، صوِّرَ عظمائهم ورجال دعوتهم، ولم تأنقوا في التصوير، وتجوّدوا^(١) في إقامة التركيب، وبالغوا في التحسين والتفخيم، وكيف كانت أوليَّة تلك العبادات، وكيف اقترفت تلك النحل، ومن أيّ شكل كانت خُدَع تلك السدنة^(٢)، وكيف لم يزلوا أكثر الاصنافِ عددًا، وكيف شمل ذلك المذهب الاجناسَ المختلفة.

وعبّنتي بكتاب المعادن^(٣)، والقول في جواهر الأرض، وفي اختلاف اجناس الفلزِّ والإخبار عن ذائبها وجامدها، ومخلوقها ومصنوعها، وكيف يسرع الانقلاب إلى بعضها، ويبطئ عن بعضها، وكيف صار بعض الألوان يصبغ ولا يصبغ، وبعضها يَنْصَبُغُ ولا يصبغ، وبعضها يصبغ وينصبغ، وما القول في الإكسير والتلطيف.

وعبّنتي بكتاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس^(٤)، وكتاب فرق ما بين الجن والإنس^(٥)، وفرق ما بين الملائكة والجن^(٦)، وكيف القول في معرفة الهدهد واستطاعة العفريت^(٧)، وفي الذي كان عنده علم من الكتاب^(٨)، وما ذلك العلم، وما تاويل قولهم: كان عنده اسم الله الأعظم^(٩).

وعبّنتي بكتاب الأوفاق والرياضات^(١٠)، وما القول في الارزاق والإنفاقات

(١) تجوّدوا: فعلوا الجيّد.

(٢) السدنة: جمع سادن، وهو خادم الكعبة وبيت الاصنام. اللسان: سدن ١٣/٢٠٦.

(٣) بروكلمان ٣/١٢٥، رقم (٧٩).

(٤) بروكلمان ٣/١٢٢، رقم (٣٠).

(٥) بروكلمان ٣/١٢١، رقم (٢).

(٦) بروكلمان ٣/١٢١، رقم (٣).

(٧) معرفة الهدهد، إشارة إلى قوله تعالى ﴿وجفتك من سبا يخبر يقين﴾ [النمل: ٢٢]. واستطاعة العفريت؛ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قال عفريت من الجن أنا آتيتك به قبل أن تقوم من مقامك﴾ [النمل: ٣٩]، ويقصد عرش بلقيس.

(٨) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ [النمل: ٤٠]. والقائل هو آصف كاتب سليمان، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم. انظر تفسير ابن كثير ٣/٣٧٦.

(٩) ذكر ابن كثير ٣/٢٧٦ أن تاويل قوله هو: «يا ذا الجلال والإكرام. وقال الزهري: قال: يا إلهنا وإله كل شيء واحد لا إله إلا أنت، اثنتي بعرشها».

(١٠) بروكلمان ٣/١٢٣، رقم (٣٦).

وكيف أسباب التثمير والترقيح، وكيف يجتلب التجار الحرفاء، وكيف الاحتيال للودائع، وكيف التسبب إلى الوصايا، وما الذي يوجب لهم حسن التعديل، ويصرف إليهم باب حسن الظن، وكيف ذكرنا غش الصناعات والتجارات^(١)، وكيف التسبب إلى تعرف ما قد ستروا وكشف ما موهوا؛ وكيف الاحتراس منه والسلامة من أهله. وعبتني برسائلي^(٢)، وبكل ما كتبت به إلى إخواني وخُلطائي، من مزح وجد، ومن إفصاح وتعريض، ومن تغافل وتوقيف، ومن هجاء لا يزال ميسمه باقياً، ومديح لا يزال أثره نامياً ومن ملح تضحك، ومواعظ تُبكي.

وعبتني برسائلي الهاشميات^(٣)، واحتجاجي فيها، واستقصائي معانيها، وتصويري لها في أحسن صورة، وإظهارها لها في أتم حلية، وزعمت أنني قد خرجت بذلك من حد المعتزلة إلى حد الزيدية، ومن حد الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه، إلى حد السرف والإفراط فيه. وزعمت أن مقالة الزيدية خطبة مقالة الرافضة، وأن مقالة الرافضة خطبة مقالة الغالية^(٤). وزعمت أن في أصل القضية والذي جرت عليه العادة. أن كل كبير فأولهُ صغير، وأن كل كثير فإنما هو قليل جُمع من قليل، وأنشدت قول الراجز: [من الرجز]

قد يلحق الصغير بالجليل وإنما القرم من الأفيل
وسحق النخل من الفسيل^(٥)

وأنشدت قول الشاعر: [من الرجز]

رب كبير هاجه صغير وفي البُحور تفرق البحور^(٦)

وقلت: وقال يزيد بن الحكم: [من م. الكامل]

فاعلم بُني فإنه بالعلم ينتفع العليم^(٧)

(١) بروكلمان ١٢٤/٣، رقم (٦٣).

(٢) رسائل الجاحظ: ٢٢٧/١ في الجد والهزل، ٢٧٩/١ في نفي التشبيه، ٣٠٩/١ «الفتيا»، ٣/٢ «في النابتة».

(٣) بروكلمان ١٢٦/٣، رقم (١٩١).

(٤) رسائل الجاحظ ٣١١/٤ - ٣٢٤.

(٥) الرجز بلا نسبة في المحاسن والأضداد، والجمهرة ٨٤٨، ومروج الذهب ١٩١/٣.

(٦) البيت من بحر الرجز؛ أو البحر السريع، وهو بلا نسبة في المحاسن والأضداد.

(٧) البيتان في شرح الحماسة للمرزوقي ١١٩٠ - ١١٩٧.

إِنَّ الْأُمُورَ دَقِيقُهَا مِمَّا يَهِيحُ لَهُ الْعَظِيمُ

وقلت: وقال الآخر: [من المديد]

صار جِدًّا ما مزحتَ به رَبُّ جِدِّ سَاقِهِ اللَّعِبُ^(١)

وانشدت قول الآخر: [من الكامل]

مَا تَنْظُرُونَ بِحَقِّ وَرْدَةٍ فِيكُمْ تُقْضَى الْأُمُورُ وَرَهْطُ وَرْدَةٍ غُيِّبُ^(٢)
قَدْ يَبْعَثُ الْأَمْرَ الْكَبِيرَ صَغِيرُهُ حَتَّى تَظِلَّ لَهُ الدَّمَاءُ تَصَبَّبُ

وقالت كَبْشَةُ بِنْتُ مَعْدٍ يَكْرِبُ: [من الطويل]

جَدَعْتُمْ بَعِيدَ اللَّهِ أَنْفَ قَوْمِهِ بَنِي مَازِنٍ أَنْ سَبَّ رَاعِي الْمَحْزَمِ^(٣)

وقال الآخر: [من السريع]

أَيَّةُ نَارٍ قَدَحَ الْقَادِحُ وَآيَ جِدِّ بَلَغَ الْمَازِحُ^(٤)

وتقول العرب: «العَصَا مِنَ الْعُصْيَةِ، وَلَا تَلِدُ الْحَيَّةُ إِلَّا حَيَّةً»^(٥).

وعبتَ كتابي في خُلُقِ الْقُرْآنِ^(٦)، كما عبتَ كتابي في الرَّدِّ عَلَى الْمَشَبَّهَةِ^(٧)؛
وَعَبْتُ كِتَابِي فِي الْقَوْلِ فِي أَصُولِ الْفِتْيَا وَالْأَحْكَامِ^(٨)، كما عبتَ كتابي في الاحتجاج
لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه^(٩). وعبتَ معارضتي للزَيْدِيَّةِ وَتَفْضِيلِي
الاعتزالَ عَلَى كُلِّ نِحْلَةٍ^(١٠)، كما عبتَ كتابي في الوعد والوعيد^(١١)، وكتابي على

(١) البيت لأبي نواس في ديوانه ٢٣٩.

(٢) البيتان لطرفة بن العبد في ديوانه ١١؛ والشعر والشعراء ٩٠، ووردة هي أمه؛ وكان أبو طرفة مات وطرفة صغيرة، فأبى أعمامه أن يقسموا ماله، وظلموا حقاً لأمه.

(٣) البيت من قصيدة في ستة أبيات في نوادر القالي ١٩٠؛ والخزانة ٧٧/٣ (بولاق)؛ وشرح الحماسة للتبريزي ١١٧/١؛ والأغاني ٢٣٠/١٥.

(٤) البيت لأبي نواس في ديوانه ٦١٨؛ والبيان والتبيين ١٩٨/٣.

(٥) المثل في المستقصى ٣٩٠/٢؛ ومجمع الأمثال ٢٥٩/٢.

(٦) بروكلمان ١٢١/٣، رقم (٤).

(٧) رسائل الجاحظ ٤/٥ - ١٨.

(٨) رسائل الجاحظ ١/٣٠٩ - ٣١٩.

(٩) بروكلمان ١٢١/٣، رقم (٥).

(١٠) بروكلمان ١٢١/٣، رقم (١١).

(١١) بروكلمان ١٢٣/٣، رقم (٣٧).

النصارى واليهود^(١) ثم عبت جملة كتبى في المعرفة والتمست تهجينها بكل حيلة، وصغرت من شأنها، وحططت من قدرها، واعترضت على ناسخها والمنتفعين بها، فعبت كتاب الجوابات^(٢)، وكتاب المسائل^(٣)، وكتاب أصحاب الإلهام^(٤)، وكتاب الحجّة في تثبيت النبوة^(٥)، وكتاب الأخبار، ثم عبت إنكارى بصيرة غنام المرتد^(٦)، وبصيرة كلّ جاحد وملحد، وتفريقي بين اعتراض الغمّر^(٧)، وبين استبصار المحقّ، وعبت كتاب الردّ على الجهميّة في الإدراك^(٨). وفي قولهم في الجهالات. وكتاب الفرق ما بين النبىّ والمنتبى^(٩). والفرق ما بين الحيل والمخاريق^(١٠). وبين الحقائق الظاهرة والأعلام الباهرة. ثمّ قصدت إلى كتابى هذا بالتصغير لقدره والتهجين لنظمه، والاعتراض على لفظه، والتحقيق لمعانيه، فزريت على نحتّه وسبكه، كما زريت على معناه ولفظه، ثمّ طعنت في الغرض الذي إليه نزعنا، والغاية التي إليها قصدنا. على أنه كتاب معناه أنبه من اسمه، وحقيقته أتق من لفظه، وهو كتاب يحتاج إليه المتوسط العامى، كما يحتاج إليه العالم الخاصى، ويحتاج إليه الرّيبض كما يحتاج إليه الحاذق: أما الرّيبض فللتعلم والدربة، وللترتيب والرياضة، وللتمرين وتمكين العادة، إذ كان جليله يتقدم دقيقه، وإذا كانت مقدّماته مرتبةً وطبقات معانيه منزلة. وأما الحاذق فللكفاية المؤنة، لأن كلّ من التقط كتاباً جامعاً، وباباً من أمّهات العلم مجموعاً، كان له غنمه، وعلى مؤلفه غرّمه، وكان له نفعه، وعلى صاحبه كدّه، مع تعرّضه لمطاعن البُغاة، ولاعتراض المنافسين، ومع عرضة عقله المكدود على العقول الفارغة، ومعانيه على الجهابذة، وتحكيمه فيه المتأولين والحسدة. ومتى ظفر بمثله صاحب علم، أو هجم عليه طالب فقه، وهو وادع رافه، ونشيط جام، ومؤلفه متعب مكدود، فقد كُفي مؤونة جمعه وخزنه، وطلبه وتبعه، وأغناه

(١) رسائل الجاحظ ٣/٣٠١-٣٠١.

(٢) رسائل الجاحظ ٤/٤٧-٦٧، وبروكلمان ٣/١٢٦، رقم (٩٢).

(٣) رسائل الجاحظ ٤/٤٧-٦٧.

(٤) بروكلمان ٣/١٢١، رقم (٧).

(٥) رسائل الجاحظ ٣/٢٢١-٢٨١.

(٦) بروكلمان ٣/١٢١، رقم (١٧). وفيه: «غنام المرتد الذي أحرق بالنار سنة ٢٣٤...»

(٧) الغمز: الذي لم يجرب الأمور. (اللسان: غمر ٥/٣١).

(٨) بروكلمان ٣/١٢١، رقم (٨).

(٩) بروكلمان ٣/١٢١، رقم (٩).

(١٠) بروكلمان ٣/١٢١، رقم (١٠).

ذلك عن طول التفكير، واستفاد العمر وفلَّ الحدُّ، وأدركَ أقصى حاجته وهو مجتمعُ القُوَّة. وعلى أن له عند ذلك أن يجعلَ هُجومه عليه من التوفيق، وظَفَره به باباً من التسديد.

وهذا كتابٌ تستوي فيه رغبةُ الأمم، وتتشابه فيه العُربُ والعجم، لانه وإن كانَ عربيًّا أعرابياً، وإسلامياً جماعياً، فقد أخذَ من طُرفِ الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة، وأشركَ بين علم الكتاب والسنة، وبين وجدان الحاسة، وإحساس الغريزة. ويشتهيهِ الفتيان كما تشتهيهِ الشيوخ، ويشتهيهِ الفاتكُ كما يشتهيهِ الناسك، ويشتهيهِ اللاعبُ ذو اللهُو كما يشتهيهِ المجدُّ ذو الحزم، ويشتهيهِ الغفْلُ كما يشتهيهِ الأريب، ويشتهيهِ الغيبيُّ كما يشتهيهِ الفطن.

وعبّنتي بحكاية قول العثمانيَّة والضَّراريَّة^(١)، وأنت تسمعي أقول في أوَّل كتابي: وقالت العثمانية والضَّراريَّة، كما سمعتني أقول: قالت الرافضة والزيدية^(٢)، فحكمت عليَّ بالنصب لحكايتي قول العثمانية، فهلاً حكمت عليَّ بالتشيع لحكايتي قول الرافضة!! وهلا كنتُ عندك من الغالية لحكايتي حجج الغالية، كما كنتُ عندك من الناصبة لحكايتي قول الناصبة!! وقد حكينا في كتابنا قولَ الإباضية والصفورية، كما حكينا قولَ الأزارقة والزيدية. وعلى هذه الأركان الأربعة بُنيت الخارجية، وكلُّ اسمٍ سواها فإنما هو فرعٌ ونتيجةٌ، واشتقاقٌ منها، ومحمولٌ عليها. وإلّا كنّا عندك من الخارجية، كما صرنا عندك من الضَّراريَّة والناصبية. فكيف رضيتُ بأن تكون أسرع من الشيعة، أسرع إلى إعراض الناس من الخارجية، اللهم إلا أن تكون وجدت حكايتي عن العثمانية والضَّراريَّة أشبع وأجمع، وأتم وأحكم، وأجود صنعة، وأبعد غاية. ورأيتني قد وهنت حق أوليائك، بقدر ما قويتُ باطل أعدائك! ولو كان ذلك كذلك، لكان شاهدك من الكتاب حاضراً، وبرهانك على ما ادعيت واضحاً.

وعبّنتي بكتاب العباسية^(٣)، فهلاً عبّنتي بحكاية مقالة من أبي وجوب الإمامة، ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعموا أن ترك الناس سُدَى بلا قيم أَرْدُ عليهم، وهملًا بلا راع أريح لهم، وأجدراً أن يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل، وغنيمة الآجل، وأن تركهم نشرًا لا نظام لهم، أبعد من المفساد، وأجمع لهم على المرشد!! بل ليس ذلك بك، ولكنه بهرك ما سمعت، وملاً صدرك الذي قرأت، وأبعلك

(١) رسائل الجاحظ ٤/١٩-٤٥.

(٢) رسائل الجاحظ ٤/٣١١-٣٢٤.

(٣) بروكلمان ٣/١١٤، رقم (١٧).

وأبْطَرَك، فلم تتَّجِهْ للحجَّةِ وهي لك معرُضَةٌ، ولم تعرِفْ المقاتل وهي لك بادية، ولم تعرِفْ بابَ المخرج إذ جهلتَ بابَ المدخل، ولم تعرِفْ المصادر إذ جهلتَ الموارد.

رأيتَ أنَّ سبَّ الأولياءِ أشفى لدائك، وأبلغ في شفاء سقمك، ورأيتَ أنَّ إرسالَ اللسانِ أحضرُّ لذَّةً، وأبعدُ من النَّصبِ، ومن إطالةِ الفكرةِ ومن الاختلافِ إلى أربابِ هذه الصناعة.

ولو كنتَ فطنتَ لعجزك، ووصلتَ نقصك بتمامِ غيرك، واستكفيتَ من هو موقوفٌ على كفايةِ مثلك، وحبَّيسٌ على تقويمِ أشباهك كان ذلك أزينَ في العاجلِ. وأحقُّ بالمشوبةِ في الآجلِ، وكنتَ إنَّ أخطأتك الغنيمَةُ لم تُخطك السلامة، وقد سلِّمَ عليك المخالفُ بقدر ما ابتلي به منك الموافق. وعلى أنه لم يبتلَ منك إلا بقدر ما ألزمتَه من مُؤنةِ تثقيفك، والتشاغلِ بتقويمك. وهل كنتَ في ذلك إلا كما قال العربي:

« هَلْ يَضُرُّ السَّحَابَ نَبَاحُ الكلابِ »^(١)، وإلا كما قال الشاعر: [من الرمل]

هل يَضُرُّ البحرَ أمسى زأخراً أن رَمَى فيه غُلامٌ بحجرٍ^(٢)

وهل حالنا في ذلك إلا كما قال الشاعر: [من الكامل]

ما ضرَّ تغلبَ وائلُ أهجوتها أم بُلَّتْ حيثُ تناطحَ البحرانِ^(٣)

وكما قال حسانُ بنُ ثابت: [من الخفيف]

ما أبالي أنبَّ بالحزنِ تيسٌ أم لحاني بظهرِ غيبٍ لقيمٍ^(٤)

وما أشكُ أنكَ قد جعلتَ طولَ إعراضنا عنك مَطبِيةً لك، ووجهتَ حلمنا عنك إلى الخوفِ منك، وقد قال زُفر بنُ الحارثِ لبعضِ مَنْ لم ير حقَّ الصَّفحِ، فجعل العفوَّ سبباً إلى سوء القول: [من الطويل]

فإنَّ عدتَ وَاللَّهِ الذي فوقَ عرشِهِ منحتك مسنون الغرارينِ أزرَقاً^(٥)

فإنَّ دواءَ الجهلِ أن تُضربَ الطُّلى وأن يُغمسَ العريضُ حتى يغرقاً

(١) من الأمثال؛ وتمتته: «ولا الصخر تفليل الزجاج»، والمثل في مجمع الأمثال ٢/٤٠٨؛ ٢/٢١٥، والدرة الفاخرة ٢/٤٣٢، والمستقصى ٢/٢٧٢.

(٢) البيت بلا نسبة في البيان ٣/٢٤٨، وأخبار أبي تمام ٤٦.

(٣) البيت للفرزدق في ديوانه ٨٨٢، والخزانة ٢/٥٠١ (بولاق)، والبيان ٣/٤٨، وأخبار أبي تمام ٤٩.

(٤) ديوان حسان ٤٣٤. نب: صاح؛ ونبيب التيس يكون عند وثوبه للسفاد. والحزن: ما غلظ من الأرض.

(٥) البيتان في البيان ٤/٥٦ لزفر بن الحارث.

وقال الأول: [من الكامل]

وضغائنِ دَاوَيْتُهَا بَضغَائِنِ
حَتَّى شَفَيْتُ وَبِالْحُقُودِ حُقُودَا

وقال الآخر: [من البسيط]

وما نَفَى عَنكَ قوماً أَنْتَ خَائِفُهُمْ
فَأَقْعَسُ إِذَا حَدَبُوا وَاحَدَبُ إِذَا قَعَسُوا
كَمَثَلِ وَقَمَكِ جُهَالاً بِجُهَالِ (١)
وَوَازِنِ الشَّرِّ مَثَقِلاً بِمَثَقَالِ
فإنَّا وإن لم يكن عندنا سِنَانُ زُفْرَ بِنِ الحارثِ، ولا معارضةٌ هُوَلاءِ الشَّرِّ بالشَّرِّ،
والجهلُ بالجهلِ، والحدُّ بالحدِّ، فإن عندِي ما قال المسعودي: [من الطويل]

فمُسّاً ترابِ الأَرْضِ مِنْهُ خُلِقْتُمَا
ولا تَأْنِفَا أَنْ تَرْجِعَا فَتَسْلُمَا
فَلَوْ شِئْتُ أَدْلَى فِيكُمَا غَيْرِ وَاحِدِ
فَإِنِ أَنَا لَمْ أَمُرْ وَلَمْ أَنَّهُ عَنكُمَا
وفيه المعادُ والمصيرُ إلى الحشرِ (٢)
فما كَسَى الأَفْوَاحَ شَرّاً مِنَ الكَبِيرِ
عِلَانِيَةً أَوْ قَالَ عِنْدِي فِي السَّرِّ
ضَحِكْتُ لَهُ كَيْمًا يَلْجُ وَيَسْتَشْرِي

وقال النمر بن تولب: [من الطويل]

جَزَى اللَّهُ عَنِّي جَمْرَةَ ابْنَةِ نَوْفَلِ
بِما خَبَرْتُ عَنِّي الوُشَاةَ لِيَكْذِبُوا
جَزَاءَ مُغْلٍ بِالأَمَانَةِ كاذِبِ (٣)
عَلِيٍّ وَقَدْ أَوْلَيْتُهَا فِي النَوَائِبِ

يقول: أخرجتُ خَبَرَهَا، فخرج إلى من أحبُّ أن يعابَ عندها.

ولو شئتُ أَنْ نَعَارِضَكَ لَعَارِضِنَاكَ فِي القَوْلِ بِما هُوَ أَقْبَحُ أَثْراً وَأَبْقَى وَسْماً،
وأصْدَقُ قَيْلاً، وأَعْدَلُ شَاهِداً. وليس كُلُّ مَنْ تَرَكَ المَعَارِضَةَ فَقَدْ صَفَحَ، كما أَنَّهُ لَيْسَ
مِنْ عَارِضٍ فَقَدْ انْتَصَرَ، وَقَدْ قالَ الشاعِرُ قولاً، إن فَهَمْتَهُ فَقَدْ كَفَيْتُنَا مُؤَوَّنَةَ المَعَارِضَةَ،
وكفَيْتَ نَفْسَكَ لِرُومِ العارِ، وهو قولُه: [من السريع]

إِنْ كُنْتَ لا تَرَهَّبُ ذَمِّي لِمَا تَعْرِفُ مِنْ صَفْحِي عَنِ الجاهِلِ (٤)

(١) البيتان بلا نسبة في البيان ٣/٣٣٤، ومجالس ثعلب ٤٢٣، والروض الأنف ١/١٧٠.

(٢) الأبيات في الأغاني ٩/١٤٥، وأمالِي المَرْتَضَى ٢/٦٠، ومجالس ثعلب ١٤، ورسائل الجاحظ ٣٥٥/١.

(٣) البيتان في ديوان النمر بن تولب ٣٣٢، والأغاني ٢٢/٢٧٦، وعيون الأخبار ٣/١٤، والبيت الأول في اللسان (غلل)، والتاج (جمر؛ غلل)، والمقاييس ٤/٣٧٦، وتهذيب اللغة ١٦/٩٢. والمغل: من الإغلال؛ وهو الخيانة.

(٤) الأبيات للعتابي أو ابن قنبر في الأغاني ١٤/١٦٦، وللعنابي في رسائل الجاحظ ١/٣٥٥، =

فاخشَ سُكُوتِي إِذْ أَنَا مَنْصَتٌ فَيُكَلِّمُكَ لِمَسْمُوعِ خَنَا الْقَائِلِ
فَالسَّامِعُ الذَّمُّ شَرِيكٌ لَهُ وَمُطْعَمُ الْمَاكُولِ كَالْآكَلِ
مِقَالَةُ السُّوءِ إِلَى أَهْلِهَا أَسْرَعُ مِنْ مُنْحَدِرِ سَائِلِ
وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذَمِّهِ ذَمُّهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ
فَلَا تَهْجُ إِنِّ كُنْتَ ذَا إِرْبَةٍ حَرْبَ أَخِي التَّجْرِبَةَ الْعَاقِلِ
فَإِنَّ ذَا الْعَقْلِ إِذَا هَجَّتْهُ هَجَّتْ بِهِ ذَا خَيْلِ خَابِلِ
تُبْصِرُ فِي عَاجِلِ شِدَاتِهِ عَلَيْكَ غِبُّ الضَّرْرِ الْآجِلِ

وقد يقال: إِنَّ العَفْوَ يُفْسِدُ مِنَ اللُّثْمِ بِقَدْرِ إِصْلَاحِهِ مِنَ الكَرِيمِ، وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ: [مِن البَسِيطِ]

وَالعَفْوُ عِنْدَ لَبِيبِ القَوْمِ مَوْعِظَةٌ وَبَعْضُهُ لِسَفِيهِ القَوْمِ تَدْرِيبٌ

٢ - [لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى]

فَإِنَّ كُنَّا أَسَانًا فِي هَذَا التَّقْرِيعِ وَالتَّوْقِيفِ، فَالَّذِي لَمْ يَأْخُذْ فِينَا بِحُكْمِ القُرْآنِ وَلَا بِأَدَبِ الرِّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَمْ يَفْزَعْ إِلَى مَا فِي الفِطْنِ الصَّحِيحَةِ، وَإِلَى مَا تَوَجَّهَ المَقَابِيسُ المَطْرِدَةُ، وَالأَمْثَالُ المَضْرُوبَةُ، وَالأَشْعَارُ السَّائِرَةُ، أَوْلَى بِالإِسَاءَةِ وَأَحَقُّ بِاللَّائِمَةِ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (١). وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا يَجْنُ يَمِينُكَ عَلَى شِمَالِكَ».

وهذا حكمُ الله تعالى وآدابُ رسوله والذي أنزل به الكتابُ ودلَّ عليه من حُجَجِ العقولِ.

٣ - [المَفْقَأُ وَالمَعْمَى]

فَأَمَّا مَا قَالُوا فِي المِثْلِ المَضْرُوبِ «رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَأَنْسَلَّتْ» (٢)، وَأَمَّا قَوْلُ الشُّعْرَاءِ، وَذَمُّ الخُطْبَاءِ لِمَنْ أَخَذَ إِنْسَانًا بِذَنْبِ غَيْرِهِ، وَمَا ضَرَبُوا فِي ذَلِكَ مِنَ الأَمْثَالِ،

= - وَلكعب بن زهير في الخزانة ١٢/٤ (بولاق)، ولمحمد بن حازم الباهلي في ديوانه ٨١، والحماسة البصرية ٢/٢٦٠، والبيتان ٤ - ٥ بلا نسبة في عيون الأخبار ٢/٢٦٠.

(١) ١٦٤: الأنعام/٦.

(٢) المثل في مجمع الأمثال ١/٢٨٦، والمستقصى ٢/١٠٣، وفصل المقال ٩٢، والأمثال لابن سلام ٧٣.

كقول النابغة حيث يقول في شعره: [من الطويل]

وكَلَّفْتَنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ كَذِي العُرْيُكُوِيْ غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعٌ (١)
وكانوا إذا أصاب إبلهم العُرُ (٢) كَوُوا السليمَ ليدفعه عن السقيم، فاسقموا
الصحيحَ من غير أن يُبرثوا السقيم .

وكانوا إذا كثرت إبلُ أحدهم فَبَلَّغَتْ الألف، فقَوُوا عَيْنَ الفحل، فإن زادت الإبلُ
على الألف فقَوُوا العينَ الأخرى، وذلك المفقأ والمعْمى اللذان سمعتَ في
أشعارهم (٣).

قال الفرزدق: [من الوافر]

غلبتكَ بالمفقئ والمعنى وبيتِ المُحتبِّي والخافقات (٤)
وكانوا يزعمون أن المفقأ يطرد عنها العين والسواف (٥) والغارة، فقال الأول:
[من الطويل]

فقاتُ لها عَيْنَ الفَحِيلِ عِيَافَةٌ وفيهن رَعْلَاءُ المسامعِ والحامي (٦)
الرعلاء: التي تشقُّ أذنها وتترك مدلاةً، لكرمها.

٤ - [ذبح العتيرة]

وكانوا يقولون في موضع الكفارة والأمنية، كقول الرجل: إذا بلغت إبلي كذا
وكذا وكذلك غنمي، ذَبَحْتُ عند الأوثان كذا وكذا عتيرة (٧). والعتيرة من نُسُكِ
الرَّجْبِيَّةِ والجمع عتائر - والعتائر من الظباء - فإذا بلغت إبلُ أحدهم أو غنمه ذلك

(١) ديوان النابغة الذبياني ٣٧، واللسان والتاج (عرر)، والمستقصى ٢١٧/٢، ومجمع الأمثال
١٥٨/٢.

(٢) العُرُ: قروح تخرج بالإبل متفرقة في مشافرها وقوائمها، يسيل منها مثل الماء الأصفر. (اللسان:
عرر ٣٥٥/٤).

(٣) انظر كتاب البرصان والعرجان ٢٦٧، ٢٦٩، والفاضل ٨٥.

(٤) البيت في ديوان الفرزدق ١/١١٠، واللسان (فقا، عمى، عنا)، والتاج (خفق، عنى)، وتهذيب
اللغة ٣/٢١٣؛ ٩/٣٣٢، وكتاب العين ٢/٢٥٣.

(٥) السواف: مرض الإبل. (اللسان سوف ٩/١٦٦).

(٦) البيت دون نسبة في البيان ٣/٩٦، واللسان (حمى)، والتاج (حمي)، والمخصص ٧/١٥٦،
والفاضل للمبرد ٨٥.

(٧) الفاضل ٨٥.

العدد، استعمل التأويل وقال: إنما قلتُ إنني أذبحُ كذا وكذا شاة، والظباء شاء كما أن الغنم شاء، فيجعل ذلك القربان شاء كلاً مما يصيد من الظباء، فلذلك يقول الجارثُ ابن حِلْزَةَ اليشْكُريُّ: [من الخفيف]

عَنَّا باطلاً وظُلماً كما تُع
تُرَعْنُ حَجْرَةَ الرَّبِيضِ الظُّبَاءِ^(١)

بعد أن قال:

أَمْ عَلَيْنَا جُنَاحُ كِنْدَةَ أَنْ يَغُ
نَمَ غَارِيَهُمْ وَمِنَّا الْجَزَاءُ

٥ - [إمساك البقر عن شرب الماء]

وكانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب، إما لكدر الماء، أو لقلّة العطش، ضربوا الثور ليقتحم الماء، لأنّ البقر تتبّعه كما تتبّع الشوّل الفحل، وكما تتبّع أتنّ الوحش الحمار. فقال في ذلك عوفُ بن الخرع: [من الوافر]

تَمَنَّتْ طِيئُ جَهْلًا وَجُبْنًا وَقَدْ خَالَيْتُهُمْ فَأَبَوْا خَلَائِي^(٢)

هَجَوْنِي أَنْ هَجَوْتُ جِبَالَ سَلَمَى كَضْرَبِ الثُّورِ لِلْبَقْرِ الظَّمَاءِ

وقال في ذلك أنس بن مدرّكة في قتله سُلَيْكَ بن السُّلَكَةِ: [من البسيط]

إِنِّي وَقَتْلِي سُلَيْكًا ثُمَّ أَعْقَلُهُ كَالثُّورِ يُضْرَبُ لَمَّا عَافَتْ الْبَقْرُ^(٣)

أَنْفَتُ لِلْمَرَّةِ إِذْ نِيكَتْ حَلِيلَتُهُ وَأَنْ يُشَدَّ عَلَيَّ وَجَعَائِهَا الثُّفْرُ

وقال الهَيَّبَانُ الفهميُّ: [من الطويل]

كَمَا ضُرِبَ الْيَعْسُوبُ أَنْ عَافَ بَاقِرٌ وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتْ الْمَاءَ بَاقِرُ

ولمّا كان الثور أميرَ البقر، وهي تطيعه كطاعة إناث النحل لليعسوب، سمّاه

باسم أمير النحل.

(١) البيت في ديوان الحارث بن حلزة ٣٦، واللسان (حجر، عتر، عنن)، والتاج (عتر، عنن)، والخصائص ٣/٣٠٧، وديوان الأدب ٢/١٥٦، والمخصص ١٣/١٨.

(٢) البيتان لعوف بن عطية بن الخرع في الفاضل ٨٦. والشاعر من فرسان العرب الجاهليين، انظر معجم الشعراء ١٢٥ والمفضليات ٣٢٧.

(٣) البيتان لأنس بن مدرّكة في الأغاني ٢٠/٣٨٧، وشرح الحماسة للتبريزي ٢/١٩٣، واللسان (ثور؛ وجع)، والبيت الأول في الدرر ٤/٩٣، والمقاصد النحوية ٤/٣٩٩، وبلا نسبة في شذور الذهب ٤٠٦ والهمع ٢/١٧، والبيت الثاني في المخصص ١٦/٤٤، وتهذيب اللغة ٣/٥١.

وكانوا يزعمون أن الجن هي التي تصدُّ الثيران عن الماء حتى تُمسِكَ البقر عن الشرب حتى تهلك، وقال في ذلك الأعشى: [من الطويل]

فإني وما كلِّفتموني - وربكم -
لكالثور والجنِّي يضربُ ظهره
وما ذنبه أن عافت الماء باقرًا
وأعلم من أمسى أعق وأحرباً^(١)
وما ذنبه أن عافت الماء مشرباً
وما إن تعاف الماء إلا ليضرباً

كأنه قال: إذا كان يضربُ أبدأ لأنها عافت الماء، فكأنها إنما عافت الماء ليضرب.

وقال يحيى بن منصور الذهلي في ذلك: [من الطويل]

لكالثور والجنِّي يضربُ وجهه
وقال نهشل بن حرّي: [من الوافر]
وتغرم دارم وهم براء^(٢)
كذاب الثور يضرب بالهراوى
وكيف تكلف الشعرى سهيلاً
وما ذنبه إن كانت الجن ظالمه
أنترك عارض وبنو عدي

٦ - [ذنب العطر]

وقال أبو نُؤيرة بن الحصين، حين أخذه الحكم بن أيوب بذنب العطر: [من الطويل]

أبا يوسف لو كنت تعلم طاعتي
ولا ساق سراق العرافة صالح
ونصحي إذن ما بعثني بالمحلق^(٣)
بني ولا كلِّفت ذنب العطر

وقال خدّاش بن زهير حين أخذ بدماء بني محارب: [من الطويل]

أكلِّف قتلى معشر لست منهم
ولا دارهم داري ولا نصرهم نصري

(١) ديوان الأعشى ١٦٥، والبيت الأول في اللسان والتاج (عق)، والثاني في اللسان والتاج (ثور)، والثالث في اللسان (ثور)، والمقاييس ١/٢٧٨، ٣٩٦.

(٢) الأبيات في ديوان نهشل بن حرّي ص ٨٥، وحماسة البحترى ٢٢٢، والأول والثاني في المستقصى ٢٠٥/٢.

(٣) البيتان في البخلاء ١٥٢.

أَكْلَفُ قَتَلَى الْعَيْصِ عَيْصِ شُوَاحِطٍ وَذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ تُثَفَّ لَهُ قَدْرِي^(١)

وقال الآخر: [من الطويل]

إِذَا عَرَكْتَ عِجْلُ بِنَا ذَنْبَ طِيءٍ عَرَكْنَا بَتِيمَ اللَّاتِ ذَنْبَ بَنِي عِجْلٍ

٧ - [جناية اليهودي]

ولما وجد اليهوديُّ أخا حنبض الضبابي في منزله فخصَّاه فمات، وأخذ حنبض بني عبس بجناية اليهوديِّ، قال قيس بن زهير: أتأخذنا بذنب غيرنا، وتسالنا العقل والقاتلُ يهوديُّ من أهل تيماء؟ فقال: والله أن لو قتلته الريح، لوديتُموه! فقال قيس لبني عبس: الموتُ في بني ذُبَيَانَ خَيْرٌ من الحَيَاةِ في بني عامر! ثم أنشأ يقول: [من الطويل]

أَكْلَفُ ذَا الْخُصِيِّينَ إِنْ كَانَ ظَالِمًا وَإِنْ كُنْتُ مَظْلُومًا وَإِنْ كُنْتُ شَاطِنًا^(٢)
خِصَاهُ امْرُؤٌ مِنْ آلِ تَيْمَاءَ طَائِرٍ وَلَا يَعْدُمُ الْإِنْسِيَّ وَالْجَنُّ كَائِنًا
فَهَلَّا بَنِي ذُبَيَانَ - أُمِّكَ هَابِلٌ - رَهْنَتْ بِفَيْفِ الرِّيحِ إِنْ كُنْتَ رَاهِنًا^(٣)
إِذَا قُلْتُ قَدْ أَفَلْتُ مِنْ شَرِّ حَنْبِضٍ أَتَانِي بِأُخْرَى شَرِّهِ مُتَبَاطِنًا
فَقَدْ جَعَلْتَ أَكْبَادُنَا تَجْتَوِيكُمْ كَمَا تَجْتَوِي سَوْقَ الْعِضَاهِ الْكَرَازِنَ^(٤)

٨ - [قتل لقمان بن عاد لنسائه وابنته]

ولما قتل لقمان بن عاد ابنته - وهي صُحْرُ أَخْتُ لَقِيمٍ - قال حين قتلها^(٥):
أَلَسْتُ امْرَأَةً! وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ كَانَ تَزُوجَ عِدَّةَ نِسَاءٍ، كُلُّهُنَّ حُنَّةٌ فِي أَنْفُسِهِنَّ، فَلَمَّا قَتَلَ
أُخْرَاهُنَّ وَنَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ، كَانَ أَوَّلَ مَنْ تَلَقَّاهُ صُحْرُ ابْنَتِهِ، فَوَثَبَ عَلَيْهَا فَقَتَلَهَا وَقَالَ:

(١) البيت بلا نسبة في أساس البلاغة (أثف).

(٢) الأبيات لقيس بن زهير في ديوانه ٣٨.

(٣) فيف الريح: موضع بأعلى نجد، وهو من أيام العرب، قام به بنو مذحج على بني عامر. انظر أيام العرب في الجاهلية ١٣٢، والعقد الفريد ٣/٣٥٩.

(٤) الكرزن: الفاس الكبير.

(٥) انظر خير لقمان ونسائه في مصارع العشاق ١/٧٦، وذم الهوى ٣٧٦-٣٧٨، وأخبار النساء ١١٣،

وتعليق من أمالي ابن دريد ١٠٧ (١) ١٠٨، وتزيين الأسواق ٢٩٠، ومجمع الأمثال ٢/٢٤٦، وجمهرة الأمثال ٢/٢٦١.

وأنت أيضاً امرأة أو كان قد ابتلي بأن أخته كانت مُحَمَّقة وكذلك كان زوجها، فقالت لإحدى نساء لقمان: هذه ليلة طهرتي وهي ليلتك، فدعيني أنام في مضجعك، فإن لقمان رجلٌ مُنْجِب، فعسى أن يقع عليّ فأنجب. فوقع على أخته فحملت بلقيم. فهو قول النمر بن تولب: [من المتقارب]

لقيمُ بنُ لقمانَ من أخته فكان ابنُ أختٍ له وابنما^(١)
لياليَ حمقٍ فاستحصنتُ عليه فغرُّ بها مُظلمًا
فاحبلكها رجلٌ مُحَكِّمٌ فجاءت به رجلاً مُحَكِّمًا

فضربت العربُ في ذلك المثلَ بقتل لقمان ابنته صُحرًا، فقال خُفافُ بنُ نَدْبَةَ في ذلك: [من الوافر]

وعباسُ يُدبُ لي المنايا وما أذنبتُ إلا ذنْبَ صُحر^(٢)

وقال في ذلك ابنُ أُذَيْنَةَ: [من الطويل]

أتجمَعُ تَهِيَمًا بليلى إذا نأتُ وهجرانها ظلمًا كما ظلمتُ صُحر^(٣)

وقال الحارثُ بنُ عُبَاد: [من الخفيف]

قربًا مربوطَ النعامِ مِنِّي لَقَعَتْ حربٌ وائلٍ عن حِيال^(٤)
لم أكنُ من جُنَاتِهَا عَلِمَ اللدُّ هُ وإنِّي بحرُّها اليومَ صالِي

وقال الشاعر، وأظنه ابنُ المَقْفَع: [من المتقارب]

فلا تَلُمِ المرءَ في شأنِهِ فربَّ ملومٍ ولمْ يذنبِ^(٥)

وقال آخر: [من الطويل]

لعلُّ له عُذْرًا وأنتَ تَلُومُ وكم لائمٍ قد لأمَ وهو ملِيم

(١) ديوان النمر بن تولب ٣٨٣، والبيان ١/١٨٤، وشرح شواهد المغني ٨٠ (١) ١٨١، ومجمع الامثال ٢/٣٨٩، والتاج (حمق).

(٢) البيت في ديوان خفاف بن ندبة ٤٧١، والفاضل ٨٦، ومجمع الامثال ٢/٢٦٤، والمستقصى ٨٧/٢. وعباس هو: العباس بن مرداس السلمي (١٨هـ)، شاعر فارس؛ أسلم قبل فتح مكة (الاعلام ٤/٣٩).

(٣) البيت في الفاضل ٨٦.

(٤) البيتان في الاغاني ٥/٤٧، وذيل أمالي القالي ٢٦.

(٥) البيت لابن المقفع في البيان ١/٣٦٤.

وقال بعض العرب، في قتل بعض الملوك^(١) لِسِنْمَارِ الرومي؛ فإنه لما علا الخورنق ورأى بُنياناً لم ير مثله، ورأى في ذلك المستشرف، وخاف إن هو استبقاه أن يموت فيبني مثل ذلك البنيان لرجلٍ آخر من الملوك، رمى به من فوق القصر، فقال في ذلك الكلبي في شيء كان بينه وبين بعض الملوك: [من الطويل]

جَزَانِي جَزَاهُ اللَّهُ شَرَّ جَزَائِهِ جَزَاءَ سِنْمَارٍ وَمَا كَانَ ذَا ذَنْبٍ^(٢)
سَوَى رَصِّهِ الْبُنْيَانَ سَبْعِينَ حَجَّةً يُعَلِّي عَلَيْهِ بِالْقِرَامِيدِ وَالسَّكْبِ
فَلَمَّا رَأَى الْبُنْيَانَ تَمَّ سُحُوقَهُ وَأَضَّ كَمِثْلِ الطُّودِ ذِي الْبَاذِخِ الصَّعْبِ
وظَنَّ سِنْمَارًا بِهِ كُلَّ حَبْوَةٍ وَفَازَ لَدَيْهِ بِالْمُودَةِ وَالقُرْبِ
فَقَالَ اقْدِفُوا بِالْعِلْجِ مِنْ رَأْسِ شَاهِقٍ فَذَاكَ لَعَمْرَ اللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ الْخَطْبِ

وجاء المسلمون، يروي خلف عن سلف، وتابع عن سابق، وآخر عن أول، أنهم لم يختلفوا في عيب قول زياد: «لأخذن الولي بالولي، والسمي بالسمي، والجار بالجار»، ولم يختلفوا في لعن شاعرهم حيث يقول: [من الوافر]

إِذَا أَخَذَ الْبَرِيءُ بغيرِ ذَنْبٍ تَجَنَّبَ مَا يُحَاذِرُهُ السَّقِيمُ

قال: وقيل لعمر بن عبید: إن فلاناً لما قدم رجلاً ليضرب عنقه، فقيل له: إنه مجنون! فقال: لولا أن المجنون يلد عاقلاً لخلت سبيله. قال: فقال عمرو: ما خلق الله النار إلا بالحق!

ولما قالت التغلبيّة للجحاف، في وقعة البشر^(٣): فض الله فاك وأعماك، وأطال

(١) «الخورنق قصر كان بظهر الحيرة، وقد اختلفوا في بانيه؛ فقال الهيثم بن عدي: الذي أمر ببناء الخورنق النعمان بن امرئ القيس... وقال ابن الكلبي: صاحب الخورنق بهرام جور بن يزدجرد» معجم البلدان: ٤٠١/٢ - ٤٠٢ «خورنق». وجاء في مروج الذهب ٢/٢٢٣ أن الذي بناه النعمان بن المنذر. وانظر معجم الأمثال ١/١٥٩، والمستقصى ٢/٥٢، وجمهرة الأمثال ١/٢٩٧.

(٢) الأبيات في ثمار القلوب ١٠٩ لشراحيل الكلبي، وفي أمالي ابن الشجري ١/١٠٢ لعبد العزى بن امرئ القيس، وبلا نسبة في معجم البلدان (خورنق)، والسقط ١/٤٠٥، والأغاني ٢/١٤٥، والخزانة ١/٢٩٤، والاختيارين ٧١٣.

(٣) انظر الأغاني ١٢/١٩٨ - ٢٠٨، ومعجم البلدان «٤٢٦/١: بشر» وسبب ذلك أن بني تغلب قتلت عمير بن حباب السلمي. فاستعدى الجحاف السلمي قومه على بني تغلب. وورد قول التغلبيّة في البيان ١/٤٠١. ونسب القول إلى الحمراء بنت ضمرة وعمرو بن هند في الأغاني ٢٢/١٩٣.

سُهَاذِكْ، وَأَقْلُّ رُقَادِكْ، فَوَاللَّهِ إِنْ قَتَلْتَ إِلَّا نِسَاءَ أَعَالِيهِنَّ تُدِيٌّ، وَأَسَافِلُهُنَّ دُمِي!! فَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ: لَوْلَا أَنْ تَلَدَ هَذِهِ مِثْلَهَا لَخَلَّيْتُ سَبِيلَهَا! فَبَلَغَ ذَلِكَ الْحَسَنَ فَقَالَ: أَمَّا الْجَحَافُ فَجَذْوَةٌ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ.

قال: وذمَّ رجلٌ عندَ الأحنفِ بنِ قيسِ الكَمَاءَةَ بالسَّمَنِ، فقال عند ذلك الأحنف: «رُبُّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ»^(١).

فِيهِذِهِ السَّيْرَةِ سَرْتِ فِينَا.

وما أحسنَ ما قال سعيدُ بنُ عبدِ الرحمن: [من الطويل]

وإنَّ امرأَ أَمْسَى وَأَصْبَحَ سَالِماً مِنْ النَّاسِ إِلَّا مَا جَنَى لَسَعِيدُ^(٢)

١٠ - [اهتمام العلماء بالملح والفكاهات]

وقلت: وما بالُ أهلِ العلمِ والنظرِ، وأصحابِ الفكرِ والعِبَرِ، وأربابِ النَّحْلِ، والعلماءِ وأهلِ البصرِ بمخارجِ المِلَلِ، وورثةِ الأنبياءِ، وأعوانِ الخلفاءِ، يكتُبونَ كتبَ الظُّرْفَاءِ والمُلْحَاءِ، وكُتُبِ الفُرَاغِ والخُلْعَاءِ، وكتبَ الملاهي والفكاهاتِ، وكتبَ أصحابِ الخصوماتِ، وكتبَ أصحابِ المراءِ، وكتبَ أصحابِ العصبيةِ وحميةِ الجاهليةِ!! الأتَّهْمُ لَا يَحَاسِبُونَ أَنفُسَهُمْ، وَلَا يُوَاظِنُونَ بَيْنَ مَا عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ، وَلَا يَخَافُونَ تَصَفُّحَ الْعُلَمَاءِ، وَلَا لَائِمَةَ الْأَرْبَاءِ، وَشَفَّ الْأَكْفَاءِ، وَمَشْنَأَةَ^(٣) الْجُلَسَاءِ!؟

فَهَلَّا أَمْسَكَتَ - يَرْحَمُكَ اللَّهُ - عَنْ عَيْبِهَا وَالطَّعْنِ عَلَيْهَا، وَعَنْ الْمَشْوَرَةِ وَالْمَوْعِظَةِ، وَعَنْ تَخْوِيفِ مَا فِي سَوْءِ الْعَاقِبَةِ، إِلَى أَنْ تَبْلُغَ حَالَ الْعُلَمَاءِ، وَمَرَاتِبَ الْأَكْفَاءِ!؟

فَأَمَّا كِتَابُنَا هَذَا، فَسِنْدُكُرُ جُمْلَةِ الْمَذَاهِبِ فِيهِ، وَسَنَاتِي بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى التَّفْسِيرِ، وَلَعَلَّ رَأْيِكَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَتَحَوَّلَ، وَقَوْلِكَ أَنْ يَتَبَدَّلَ، فَتُثْبِتَ أَوْ تَكُونَ قَدْ أَخَذْتَ مِنَ التَّوَقُّفِ بِنَصِيْبِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

(١) مجمع الأمثال ١/٣٠٥، وجمهرة الأمثال ١/٤٧٤، والمستقصى ٢/٩٩، وفصل المقال ٧٣. والبيان ٢/٣٤٤، ٣٦٤، والبخلاء ١٨٧.

(٢) البيت لسعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت في البيان ١/٣٦٤، ولحسان بن ثابت في ديوانه ١٩٨، وعيون الأخبار ٢/١٢.

(٣) الشنف والمشنأة: البغض.

١١ - [أقسام الكائنات]

وأقول^(١): إنَّ العالمَ بما فيه من الأجسام على ثلاثة أنحاء: مُتَّفَقٌ، ومختلف، ومتضادٌّ؛ وكلُّها في جملة القولِ جمادٌ ونامٌ. وكان حقيقة القول في الأجسام من هذه القسمة، أن يقال: نامٌ وغيرُ نامٍ. ولو أنَّ الحكماءَ وضعُوا لكلِّ ما ليس بنامٍ اسماً، كما وضعُوا للنامي اسماً، لاتبَعنا أثرَهُمْ؛ وإنما ننتهي إلى حيثُ انتهوا. وما أكثرُ ما تكونُ دلالة قولهم جماد، كدلالة قولهم موات. وقد يفتَرقان في مواضع بعض الافتراق. وإذا أخرجت من العالمِ الأفلاكَ والبروجَ والنجومَ والشمسَ والقمرَ، وجدتها غيرَ نامية، ولم تجدْهم يسمون شيئاً منها بجمادٍ ولا موات، وليس لأنها تتحرَّكُ من تلقاءِ أنفسِها لم تُسمَّ مواتاً ولا جماداً.

وناسٌ يجعلونها مدبرة غير مدبرة، ويجعلونها مسخرة غير مسخرة، ويجعلونها أحياً من الحيوان؛ إذ كان الحيوانُ إنَّما يحيا بإحيائها له، وبما تُعطيه وتُعيِّره. وإنما هذا منهم رأي، والأمرُ في هذا كلُّه على خلافهم، ونحن في هذا الموضع إنَّما نعبِّرُ عن لُغتنا، وليس في لُغتنا إلا ما ذكرنا.

والناسُ يسمون الأرضَ جماداً، وربما يجعلونها مواتاً إذا كانت لم تُنبِتْ قديماً، وهي موات الأرض، وذلك كقولهم: «مَنْ أَحْيَا أَرْضاً مَوَاتاً فَهِيَ لَهُ»^(٢).

وهم لا يجعلون الماءَ والنارَ والهواءَ، جماداً ولا مواتاً، ولا يسمونها حيواناً ما دامت كذلك، وإن كانت لا تضاف إلى النماء والحس.

والأرضُ هي أحدُ الأركان الأربعة، التي هي الماءُ والأرضُ والهواءُ والنارُ، والاسمان لا يتعاوران عندهم إلا الأرض.

١٢ - [تقسيم النامي]

ثمَّ النامي على قسمين: حيوان ونبات، والحيوان على أربعة أقسام: شيءٌ يمشي، وشيء يطير، وشيء يسبح، وشيء ينساح^(٣). إلا أنَّ كلَّ طائرٍ يمشي، وليس الذي يمشي ولا يطير يسمى طائراً. والنوع الذي يمشي على أربعة أقسام: ناس، وبهائم، وسباع، وحشرات. على أنَّ الحشرات راجعة في المعنى إلى مشاكلة طباع

(١) ورد القول في مروج الذهب ١٢٣/٢ منسوباً إلى حكماء الهند.

(٢) النهاية في غريب الحديث ٣٧٠/٤.

(٣) ينساح: يمشي على بطنه. ومنه الحية.

البهائم والسباع. إلا أننا في هذا كله نتبع الأسماء القائمة المعروفة، البائئات بأنفسها، المتميزات عند سامعيها، من أهل هذه اللغة وأصحاب هذا اللسان، وإنما نُفرد ما أفرّدوا، ونَجْمَع ما جَمَعوا.

١٣ - [تقسيم الطير]

والطيرُ كلُّ سَبْعٍ وبَهيمَةٍ وَهَمَجٍ. والسباعُ من الطير على ضَرَبَيْنِ: فمنها العتاقُ والاحرارُ والجوارحُ، ومنها البغاثُ وهو كلُّ ما عَظَمَ من الطير: سبعاً كان أو بهيمة، إذا لم يكن من ذواتِ السلاحِ والمخالبِ المعقَّفة، كالنُسُورِ والرَّخَمِ والغِرْيَانِ، وما أشبهها من لُغَامِ السباعِ.

ثم الخشاشُ، وهو ما لَطَفَ جَرْمُهُ وصَغُرَ شَخْصُهُ، وكان عديمَ السلاحِ ولا يكون كالزُرْقِ^(١) واليُؤْيُؤِ^(٢) والبادنجان^(٣).

فأما الهَمَجُ فليس من الطير، ولكنه مَأْ يَطِيرُ. والهَمَجُ فيما يَطِيرُ، كالحشراتِ فيما يمشي.

والحياتُ من الحشرات، وأيُّ سَبْعٍ أَدخَلَ في معنى السَّبْعِيَّةِ مِنَ الأفاعي والشعابين؟ ولكن ليس ذلك من أسمائها، وإن كانت من ذوات الأنيابِ وأكالةِ اللُحومِ وأعداءِ الإنسِ وَجَمِيعِ البهائمِ، ولذلك تَأْكَلُهَا الأوعالُ والخنازيرُ والقنَافذُ والعقبانُ والشاهمُرك^(٤) والسنانيرُ، وغير ذلك من البهائمِ، والسباعِ. فَمَنْ جَعَلَ الحياتِ سَباعاً، وسماها بذلك عندَ بعضِ القولِ والسببِ فقدَ أَصابَ، ومن جَعَلَ ذلك لها كالأسمِ الذي هو العلامةُ كالكَلْبِ والذئبِ والأسدِ فقدَ أَخْطَأَ.

ومن سباعِ الطيرِ شَكْلٌ يكونُ سِلاحَهُ المِخْالبُ كالعُقَابِ وما أشبهها، وشيءٌ يكونُ سِلاحَهُ المِناقيرُ كالنُسُورِ والرَّخَمِ والغِرْيَانِ، وإنما جعلناها سباعاً لأنها أَكَلَةُ لُحومِ.

ومن بهائمِ الطيرِ ما يكونُ سِلاحَهُ المِناقيرُ كالكَرَّاكِيِّ وما أشبهها، ومنه ما

(١) الزُّرْقُ: طائر بين البازي والباشق؛ يُصَاد به. وقال الفراء: هو البازي الأبيض (اللسان ١٤٠/١٠ زرق).

(٢) اليُؤْيُؤُ: طائر يشبه الباشق؛ من الجوارح، (اللسان ٢٠٢/١ يأي).

(٣) البادنجان: هو طائر اسمه أبو جرادة. يسميه أهل العراق «البادنجان»؛ ويسميه أهل الشام «البصير» حياة الحيوان ٣١٩/١.

(٤) الشاهمرك: الفتى من الدجاج، قبل أن يبيض بأهام قلائل، وكنيته أبو يعلى. وهو معرب الشاه مرغ، ومعناه ملك الطير. حياة الحيوان ٥٩٤/١.

يكون سلاحه الاسنان كالبوم والوطواط وما أشبهها، ومنه ما يكون سلاحه الصياصي كالديكة، ومنه ما يكون سلاحه السلح^(١) كالحباري^(٢) والثعلب أيضاً كذلك.

والسبع من الطير: ما اكل اللحم خالصاً، والبهيمة: ما اكلت الحب خالصاً. وفي الفن الذي يجمعها من الخلق المركب والطبع المشترك، كلام سناتي عليه في موضعه إن شاء الله تعالى.

والمشترك عندهم كالعصفور؛ فإنه ليس بذئ مخلب معقف ولا منسر^(٣) وهو يلقط الحب، وهو مع هذا يصيد النمل إذا طار، ويصيد الجراد، ويأكل اللحم، ولا يزق فراخه كما تزق الحمام، بل يلقمها كما تلقم السباع من الطير فراخها. وأشباه العصافير من المشترك كثير، وسندكر ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

وليس كل ما طار بجناحين فهو من الطير؛ قد يطير الجعلان^(٤) والجحل^(٥) واليعاسيب والذباب والزنابير والجراد والنمل والفراس والبعوض والأرضة والنحل وغير ذلك، ولا يسمي بالطير. وقد يقال ذلك لها عند بعض الذكر والسبب. وقد يسمون الدجاج طيراً ولا يسمون بذلك الجراد، والجراد أطير، والمثل المضروب به أشهر^(٦)، والملائكة تطير، ولها أجنحة وليست من الطير. وجعفر بن أبي طالب ذو جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء، وليس جعفر من الطير.

واسم طائر يقع على ثلاثة أشياء: صورة، وطبيعة، وجناح. وليس بالريش والقوادم والأباهر والخوافي^(٧)، يسمي طائراً، ولا بعدهم يسقط ذلك عنه. ألا ترى أن

(١) السلح: النجو. «اللسان: سلح ٤٨٧/٢».

(٢) الحباري: طائر طويل العنق رمادي اللون، من أشد الطير طيراناً. وقد جعل الله تعالى سلحها سلاحاً لها. «حياة الحيوان ١/٣٢١».

(٣) المنسر: منقار الطير الجراح.

(٤) الجعلان: جمع جعل، دوية تعض البهائم في فروجها فتهرب، وهي أكبر من الخنفساء، شديدة السواد؛ في بطنها حمرة. لها جناحان لا يكادان يريان إلا إذا طارت. «حياة الحيوان ١/٢٧٧-٢٧٨».

(٥) الجحل: الحباري. وقيل هو الحرياء، وقيل الجعل، وقيل هو الضب الكبير المسن، وقيل هو اليعسوب العظيم كالجراد إذا سقط لا يضم جناحه. «حياة الحيوان ١/٢٦١».

(٦) من الأمثال: «أطير من الجراد»، والمثل في مجمع الأمثال ١/٤٤١ والمستقصى ١/٢٣٠ وجمهرة الأمثال ٢/١٣.

(٧) القوادم: ريش في مقدم جناح الطائر. والخوافي: ريش يختفي إذا ضم الطائر جناحيه، والأباهر: ريش قصير.

الخفَّاشَ والوَطواطَ من الطير، وإن كانا أمرطَيْنِ ليس لهما ريشٌ ولا زَعَبٌ ولا شَكِيرٌ ولا قَصَبٌ^(١) وهما مشهوران بالحمل والولادة، وبالرُّضاع، وبظهور حَجَمِ الآذان، وبكثرة الأسنان. والنعامَةُ ذاتُ ريشٍ ومِنقارٍ وبَيْضٍ وجَنَاحين، وليست من الطير.

وليس أيضاً كلُّ عائمٍ سمكة، وإن كان مناسباً للسمك في كثير من معانيه. إلا تَرَى أن في الماء كُلِّبَ الماء، وعَنْزَ الماء، وخَنْزيرَ الماء؛ وفيه الرُّقُّ^(٢) والسُّلْحَفَةُ، وفيه الضَّفْدَعُ وفيه السرطان، والبَيْنَبُ^(٣)، والتَّمساحُ والدُّخَسُ^(٤) والدُّلْفَيْنِ واللُّخْمُ^(٥) والبُنْبُكُ^(٦)، وغير ذلك من الأصناف. والكوسجُ والد اللُّخْمُ، وليس للكوسجِ أبٌ يُعرَفُ. وعامةٌ ذا يعيش في الماء، ويبيت خارجاً من الماء، ويبيض في الشطِّ وبَيْضٌ بيضاً له صُفْرَةٌ، وقِيضٌ وغَرِقِيٌّ، وهو مع ذلك ممَّا يكون في الماء مع السمك.

١٤ - [تقسيم الحيوان]

ثمَّ لا يخرج الحيوان بعد ذلك في لغة العرب من فصيحٍ وأعجم، كذلك يقال في الجملة، كما يقال الصامت لما لا يصنع صمناً قطُّ ولا يجوز عليه خلافه، والناطق لما لم يتكلَّم قطُّ، فيحملون ما يرغون، ويشغون، وينهقون، ويصهلون، ويشحجون، ويخورون، ويبنغون، ويعوي، وينبح، ويترقون، ويضعفون، ويهدرون، ويصفرن، ويصوِّصون، ويقوقون، وينعبن، ويزارن، وينزبن، ويكشون، ويعج^(٧)، على نطق الإنسان إذا جمع بعضه على بعض. ولذلك أشباهه، كالذكور والإناث إذا اجتمعا، وكالغير التي تسمى لطيمة، وكالظعن؛ فإنَّ هذه الأشياء إذا وجد بعضها إلى بعض، أو أخذ بعضها من بعض،

(١) الزغب: ريش قصير. والشكير: صغار الريش بين كبارها. القصب: صغار الريش.

(٢) الرق: ضرب من دواب الماء يشبه التمساح، والرق أيضاً: العظيم من السلاحف. (حياة الحيوان ٥٢٧/١).

(٣) البينيب على وزن فيعيل: سمك بحري. (حياة الحيوان ٢٢٩/١).

(٤) الدخس: ضرب من السمك؛ وهو الدلفين. (حياة الحيوان ٤٧٦/١).

(٥) اللخم: ضرب من السمك الضخم؛ يقال له الكوسج، وهو القرش. (حياة الحيوان ٣٠٥/٢).

(٦) البنبك: دابة كالدلفين، أو سمك يقطع الرجل نصفين فيبلعه. «القاموس المحيط: بنك».

(٧) الرغاء للإبل، والثغاء للغنم، والنهيق للحمير، والسهيل للخيل، والشحيج للبعال، والخوار للثيران، والبعغام للظباء؛ وللإبل إذا قطعت صوتها ولم تمدّه، والعواء للذئب، والنباح للكلاب، والزقاة للديكة، والضغاء للكلب إذا جاع، والهدير للإبل والحمام، والصفير للنسور، والصوصاة للعقرب والفارة، والقوقاة للدجاج، والنعيب للغربان، والزئير للأسد، والنزيب للظباء، والكشيش للأفاعي؛ وللإبل بعد الهدير، والعجيج للبعير. «فقه اللغة للثعالبي ٢٠٩-٢١٢».

سُمِّيَتْ بِأَنبِيَةِ النُّوعَيْنِ ذَكَرًا، وَبِاقْوَاهُمَا. وَالْفَصِيحُ هُوَ الْإِنْسَانُ، وَالْأَعْجَمُ كُلُّ ذِي صَوْتٍ لَا يَفْهَمُ إِرَادَتَهُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ جِنْسِهِ. وَلِعَمْرِي إِنْ فَهَمْنَا عَنِ الْفَرَسِ وَالْحِمَارِ وَالْكَلْبِ وَالسَّنَّورِ وَالْبَعِيرِ، كَثِيرًا مِنْ إِرَادَتِهِ وَحَوَائِجِهِ وَقَصُورِهِ، كَمَا نَفْهَمُ إِرَادَةَ الصَّبِيِّ فِي مَهْدِهِ وَنَعْلَمُ - وَهُوَ مِنْ جَلِيلِ الْعِلْمِ - أَنْ بَكَاءَهُ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ضَحْكُهُ. وَحَمْحَمَةُ الْفَرَسِ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْمُخْلَاةِ، عَلَى خِلَافِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ حَمْحَمَتُهُ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْحِجْرِ، وَدُعَاءُ الْهَيْرَةِ الْهَرِّ خِلَافُ دُعَائِهَا لَوْلَدِهَا، وَهَذَا كَثِيرٌ.

وَالْإِنْسَانُ فَصِيحٌ، وَإِنْ عَبَّرَ عَنْ نَفْسِهِ بِالْفَارْسِيَّةِ أَوْ بِالْهِنْدِيَّةِ أَوْ بِالرُّومِيَّةِ، وَلَيْسَ الْعَرَبِيُّ أَسْوَأَ فَهْمًا لَطَمَطَمَةً^(١) الرُّومِيُّ مِنَ الرُّومِيِّ لِبَيَانِ لِسَانِ الْعَرَبِيِّ. فَكُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ يُقَالُ لَهُ فَصِيحٌ، فَإِذَا قَالُوا: فَصِيحٌ وَأَعْجَمٌ، فَهَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ فِي قَوْلِهِمْ أَعْجَمٌ، وَإِذَا قَالُوا الْعَرَبُ وَالْعَجَمُ وَلَمْ يَلْفِظُوا بِفَصِيحٍ وَأَعْجَمٍ، فَلَيْسَ هَذَا الْمَعْنَى يَرِيدُونَ، إِنَّمَا يَعْنُونَ أَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَأَنَّ الْعَرَبَ لَا تَفْهَمُ عَنْهُ. وَقَالَ كَثِيرٌ: [مِنْ الطَّوِيلِ]

فَبُورِكَ مَا أَعْطَى ابْنَ لَيْلَى بِنِيَّةٍ وَصَامَتْ مَا أَعْطَى ابْنَ لَيْلَى وَنَاطِقُهُ

وَيُقَالُ «جَاءَ بِمَا صَاىَ وَصَمَتْ»^(٢). فَالصَّامَتُ مِثْلُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَقَوْلُهُ صَاىَ يَعْنِي الْحَيَوَانَ كُلَّهُ، وَمَعْنَاهُ نَطَقَ وَسَكَتَ؛ فَالصَّامَتُ فِي كُلِّ شَيْءٍ سِوَى الْحَيَوَانَ.

وَوَجَدْنَا كَوْنَ الْعَالَمِ بِمَا فِيهِ حِكْمَةٌ، وَوَجَدْنَا الْحِكْمَةَ عَلَى ضَرْبَيْنِ: شَيْءٌ جُعِلَ حِكْمَةً وَهُوَ لَا يَعْقِلُ الْحِكْمَةَ وَلَا عَاقِبَةَ الْحِكْمَةِ، وَشَيْءٌ جُعِلَ حِكْمَةً وَهُوَ يَعْقِلُ الْحِكْمَةَ وَعَاقِبَةَ الْحِكْمَةِ. فَاسْتَوَى بِذَلِكَ الشَّيْءِ الْعَاقِلُ وَغَيْرَ الْعَاقِلِ فِي جِهَةِ الدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ حِكْمَةٌ؛ وَاخْتَلَفَا مِنْ جِهَةِ أَنَّ أَحَدَهُمَا دَلِيلٌ لَا يَسْتَدَلُّ، وَالْآخَرُ دَلِيلٌ يَسْتَدَلُّ، فَكُلُّ مُسْتَدَلٍّ دَلِيلٌ وَلَيْسَ كُلُّ دَلِيلٍ مُسْتَدَلًّا، فَشَارَكَ كُلُّ حَيَوَانَ سِوَى الْإِنْسَانِ، جَمِيعَ الْجَمَادِ فِي الدَّلَالَةِ، وَفِي عَدَمِ الِاسْتِدْلَالِ، وَاجْتَمَعَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ كَانَ دَلِيلًا مُسْتَدَلًّا.

ثُمَّ جُعِلَ لِلْمُسْتَدَلِّ سَبَبٌ يَدُلُّ بِهِ عَلَى وَجْهِ اسْتِدْلَالِهِ، وَوُجُوهُ مَا نَتَجَّ لَهُ الِاسْتِدْلَالُ، وَسَمَّوْا ذَلِكَ بَيَانًا.

(١) الطمطمطة: العجمة. ورجل طمطم، أي في لسانه عجمة لا يفصح. (اللسان: طم ١٢/٣٧١).

(٢) مجمع الأمثال ١/٢٧٩، والمستقصى ٢/٤٢، وجمهرة الأمثال ١/٣٢٠، والأمثال لابن سلام

وجُعِلَ البيانُ على أربعة أقسام: لفظ، وخط، وعقد^(١)، وإشارة، وجُعِلَ بيانُ الدليل الذي لا يستدلُّ تَمَكِينُهُ المستدلُّ من نفسه، واقتياده كلُّ من فكَّر فيه إلى معرفة ما استخزنَ من البرهان، وحُشِيَ من الدلالة، وأودع من عَجيب الحكمة. فالأجسامُ الخرسُ الصامتة، ناطقةٌ من جهة الدلالة، ومُعَرَّبَةٌ من جهة صحَّة الشهادة، على أن الذي فيها من التدبير والحكمة، مخبرٌ لمن استخبره، وناطقٌ لمن استنطقه، كما خبر الهزأل وكُسوف اللون، عن سوء الحال، وكما ينطق السَّمَنُ وحُسْنُ النُّضرة، عن حسن الحال. وقد قال الشاعر وهو نصيب: [من الطويل]

فعاَجُوا فائتُوا بالذي أنتَ أهله ولو سكتوا أثنتُ عليك الحقائق^(٢)

وقال آخر: [من الوافر]

مَتَى تَكُ في عدوٍّ أو صديقٍ تُخَبِّرُكَ العيونُ عن القلوبِ

وقد قال العُكْلِيُّ في صِدْقِ شَمِّ الذئبِ وفي شدةِ حسه واسترواحه: [من الرجز]

يَسْتَخْبِرُ الرِّيحَ إِذَا لَمْ يَسْمَعْ بِمِثْلِ مِقْرَاعِ الصِّفَا المَوْعِ^(٣)

وقال عنتره، هو يصف نَعِيبَ غُرَابٍ: [من الكامل]

حَرِقَ الجَنَاحَ كَأَنَّ لَحْيِي رَأْسَهُ جَلَمَانَ بِالْأَخْبَارِ هَشٌّ مُوَكِّعٌ^(٤)

وقال الفضل بن عيسى بن أبان في قصصه: سَلَّ الأَرْضَ، فقل: مَنْ شَقَّ أَنهَارَكَ،

وغَرَسَ أَشْجَارَكَ، وَجَنَى ثِمَارَكَ؛ فَإِنْ لَمْ تَجِبْكَ حِوَارًا، أَجَابَتْكَ عِتَابًا.

فموضوعُ الجسمِ ونصبتَه، دليلٌ على ما فيه وداعيةٌ إليه، ومنبهةٌ عليه. فالجمادُ

الأبكمُ الأخرسُ من هذا الوجه، قد شارك في البيان الإنسان الحيُّ الناطق. فمَنْ جَعَلَ

أقسامَ البيانِ خمسة، فقد ذهبَ أيضاً مذهباً له جوازٌ في اللُّغة، وشاهدٌ في العقل.

فهذا أحدُ قِسْمِي الحكمة، وأحدُ مَعْنِييَ ما استخزنها اللهُ تعالى من الوديعَة.

(١) ذكر البغدادي في خزائنه ١٤٧/٣ (بولاق): «العقد نوع من الحساب يكون بأصابع اليدين؛ يقال

له: حساب اليد. وقد ورد منه في الحديث «وعقد عقد تسعين» وانظر البيان ٧٦/١.

(٢) البيت لنصيب في ديوانه ٥٩، والأغاني ٣٣٧/١، والخزانة ٢٩٦/٥ «هارون»، وشذور الذهب ٣٨ واللسان (حدث).

(٣) الرجز لأبي الرديني العكلي في البيان ٨٢/١، والبرصان ١٩٣، والخزانة ١٠٥/٣، وبلا نسبة في اللسان والتاج (مخر، قرع)، وديوان الأدب ٣١١/١.

(٤) البيت لعنترة في ديوانه ٤٨، والبيان ٨٢/١، واللسان (حرق، بين)، والتاج (بين)، وبلا نسبة في أساس البلاغة (حرق)، والمخصص ٧٣/١.

والقسمة الأخرى ما أودع صدور صنوف سائر الحيوان، من ضروب المعارف، وفطرها عليه من غريب الهدايات، وسخر حناجرها له من ضروب النغم الموزونة، والأصوات الملحنة، والمخارج الشجية، والأغاني المطربة؛ فقد يقال إن جميع أصواتها معدلة، وموزونة موقعة، ثم الذي سهل لها من الرفق العجيب في الصنعة، مما ذلله الله تعالى لمناقيرها وأكفها، وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ما هياً لها من الآلة، وكيف أعطى كثيراً منها من الحس اللطيف، والصنعة البديعة، من غير تأديب وثقيف، ومن غير تقويم وتلقين، ومن غير تدريج وتمرين، فبلغت بعفوها وبمقدار قوى فطرتها، من البديهة والارتجال، ومن الابتداء والاقتضاب، ما لا يقدر عليه حدائق رجال الرأي، وفلاسفة علماء البشر، بيد ولا آلة. بل لا يبلغ ذلك من الناس أكملهم خصالاً وأتمهم خلالاً، لا من جهة الاقتضاب والارتجال ولا من جهة التعسف والاقتدار، ولا من جهة التقدم فيه، والتأني فيه، والتأني له. والترتيب لمقدماته، وتمكين الأسباب المعينة عليه. فصار جهد الإنسان الثاقب الحس، الجامع القوى، المتصرف في الوجوه، المقدم في الأمور، يعجز عن عفو كثير منها. وهو ينظر إلى ضروب ما يجيء منها، كما أعطيت العنكبوت، وكما أعطيت السرفة^(١)، وكما علم النحل، بل وعرف التنوط من بديع المعرفة، ومن غريب الصنعة، في غير ذلك من أصناف الخلق. ثم لم يوجب لهم العجز في أنفسهم في أكثر ذلك، إلا بما قوي عليه الهمج والخشاش وصغار الحشرات، ثم جعل الإنسان ذا العقل والتمكين، والاستطاعة والتصريف، وذا التكلف والتجربة، وذا التأني والمنافسة، وصاحب الفهم والمسابقة، والمتبصر شأن العاقبة، متى أحسن شيئاً كان كل شيء دونه في الغموض عليه أسهل، وجعل سائر الحيوان، وإن كان يحسن أحدها ما لا يحسن أحذق الناس متى أحسن شيئاً عجبياً، لم يمكنه أن يحسن ما هو أقرب منه في الظن، وأسهل منه في الرأي، بل لا يحسن ما هو أقرب منه في الحقيقة. فلا الإنسان جعل نفسه كذلك، ولا شيء من الحيوان اختار ذلك، فأحسن هذه الأجناس بلا تعلم، ما يمتنع على الإنسان وإن تعلم، فصار لا يحاوله؛ إذ كان لا يطمع فيه، ولا يحسدها؛ إذا لا يؤمل اللحاق بها. ثم جعل تعالى وعز، هاتين الحكمتين بإزاء عيون الناظرين، وتجاه أسماع المعترين، ثم حث على التفكير

(١) السرفة: الارضة. (حياة الحيوان ١/٥٥٥).

والاعتبار، وعلى الاتعاظ والازدجار، وعلى التعرف والتبيين، وعلى التوقف والتذكر، فجعلها مذكرةً منبهة، وجعل الفطر تُنشئ الخواطر، وتجولُ بأهلها في المذاهب. ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١).

١٧ - [مزج الهزل بالجد في الكتاب]

وهذا كتابٌ موعظةٌ وتعريفٌ وتفقهٌ وتنبيه. وأراك قد عبته قبل أن تقفَ على حدوده، وتتفكرَ في فصوله، وتعتبرَ آخره بأوله، ومصادره بموارده، وقد غلظتَ فيه بعضُ ما رأيتَ في أثنائه من مزج لا تعرف معناه، ومن بطالةٍ لم تطلعَ على غورها؛ ولم تدرِ لم اجتلبت، ولا لأيِّ علةٍ تُكلِّفت، وأيِّ شيءٍ أُريغَ بها، ولايِّ جدٍ احتملَ ذلك الهزل، ولايِّ رياضةٍ تُجسِّمتُ تلكَ البطالة؛ ولم تدرِ أنَّ المزاحَ جدٌ إذا اجتلبَ ليكونَ علةً للجدِّ، وأنَّ البطالةَ وقارٌ ورزانة، إذا تُكلِّفت لتلك العافية. ولما قال الخليلُ بن أحمد: لا يصلُ أحدٌ من علم النحو إلى ما يحتاجُ إليه. حتى يتعلَّم ما لا يحتاجُ إليه، قال أبو شمر: إذا كان لا يتوصَّلُ إلى ما يحتاجُ إليه إلا بما لا يحتاجُ إليه، فقد صار ما لا يحتاجُ إليه يُحتاجُ إليه (٢). وذلك مثل كتابنا هذا؛ لأنَّه إنَّ حملنا جميعَ من يتكلَّف قراءة هذا الكتاب على مُرِّ الحق، وصُعوبة الجدِّ، وثقل المؤونة، وحلية الوقار، لم يصبر عليه مع طولِه إلا من تجرَّدَ للعلم، وفهم معناه، وذاق من ثمرته، واستشعر قلبه من عزِّه، ونال سروره على حسب ما يُورث الطولُ من الكدِّ، والكثرةُ من السامة. وما أكثرَ من يُقَاد إلى حظِّه بالسواجير (٣)، وبالسوق العنيف، وبالإخافة الشديدة.

١٨ - [وصف الكتاب]

ثم لم أركَ رضيتَ بالطعن على كلِّ كتابٍ لي بعينه، حتى تجاوزتَ ذلك إلى أنْ عبثتَ وضعَ الكتبِ كيفما دارتَ بها الحال، وكيفَ تصرفتَ بها الوجوه. وقد كنتُ أعجبُ من عيبك البعضَ بلا علم، حتى عبثتَ الكلَّ بلا علم، ثم تجاوزتَ ذلك إلى التشنيع، ثم تجاوزتَ ذلك إلى نصب الحربِ فعبثتَ الكتابَ؛ ونعم الذخر والعقدة (٤) هو، ونعم الجليس والعدة، ونعم النشرة والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم

(١) ١٤: المؤمنون/٢٣.

(٢) ربيع الأبرار ٤/١٣٧.

(٣) الساجور: الخشبة التي توضع في عنق الكلب. (اللسان: سجر). وانظر البيان ٣/٥٠، ٦٣.

(٤) العقدة: كل شيء يستوثق الرجل به لنفسه، ويعتمد عليه. ومنه «في عقده ضعف»، أي في رأيه

ونظره في مصالحي نفسه. (اللسان: عقد).

الأنيس لساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربية ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والنزير. والكتاب وعاءٌ مليءٌ علماً، وظرفٌ حشبيٌّ ظرفاً، وإناءٌ شحِنٌ مزاحاً وجداً؛ إن شئتَ كان أبينَ من سحبانٍ وائلٍ، وإن شئتَ كان أعيا من باقلٍ، وإن شئتَ ضحككتَ من نوادره، وإن شئتَ عَجبتَ من غرائبِ فرائده، وإن شئتَ ألهتكَ طرائفه، وإن شئتَ أشجنتَ مواعظه. ومَن لك بواعظٍ مله، وبزاجرٍ مغرٍ، ويناسكٍ فاتك، وبناطقٍ أخرس، وبياردٍ حارٍ. وفي الباردِ الحارُّ يقولُ الحسنُ بن هانئٍ: [من المنسرح]

قُلْ لزهيرٍ إذا انتحى وشدا أقلُّ أو أكثرُ فأنتَ مهذارُ^(١)
سَخنتَ من شِدَّةِ البرودةِ حـ حتى صرَّتَ عندي كأنك النارُ
لا يعجبُ السامعونَ من صفتي كذلك الثلجُ باردٌ حارُ

ومَن لك بطبيبٍ أعرابيٍّ، ومَن لك بروميٍّ هنديٍّ، وبفارسيٍّ يونانيٍّ، وبقديمٍ مولدٍ، وبميتٍ ممتعٍ، ومَن لك بشيءٍ يجمعُ لك الأولَ والآخِرَ، والناقصَ والوافرَ، والخفيَّ والظاهرَ، والشاهدَ والغائبَ، والرفيعَ والوضيعَ، والعثَّ والسمينَ، والشكلَ وخلافه، والجنسَ وضده.

وبعد: فمتى رأيتَ بستاناً يُحملُ في رُدن^(٢)، وروضةً تُقلُّ في حجرٍ، وناطقاً ينطقُ عن الموتى، ويُترجمُ عن الأحياء!! ومَن لك بمؤنسٍ لا ينامُ إلا بنومك، ولا ينطقُ إلا بما تهوى؟ آمنُ من الأرض، وأكتمُ للسرِّ من صاحبِ السرِّ، وأحفظُ للوديعةِ من أربابِ الوديعةِ، وأحفظُ لما استُحفظُ من الآدميينَ، ومن الأعرابِ المعربينَ، بل من الصُّبيانِ قبلَ اعتراضِ الاشتغالِ، ومن العُميانِ قبلَ التمتعِ بتمييزِ الأشخاصِ، حينَ العنايةِ تامَّةٍ لم تنقصَ، والأذهانُ فارغةٌ لم تنقسِمَ، والإرادةُ وافيةٌ لم تتشعبَ، والطِّينةُ ليّنةٌ، فهي أقبلُ ما تكونُ للطبائعِ، والقضيبُ رطبٌ، فهو أقربُ ما يكونُ من العلوقِ، حينَ هذه الخصالُ لم يخلُقْ جديدها، ولم يُوهنْ غرْبها، ولم تتفرَّقْ قواها، وكانت كما قال الشاعر: [من الطويل]

أتاني هواها قبل أن أعرفَ الهوى فصادفَ قلباً خالياً فتمكنا^(٣)

(١) الأبيات في ديوان أبي نواس ٥٤٥، وعيون الأخبار ٧/٢، والعقد الفريد ٧٥/٦. ورواية صدر البيت الأول في ديوانه: (قل لزهير إذا اتكا وشدا).

(٢) الردن: أصل الكم. وقيل هو الكم كله. (اللسان: ردن).

(٣) البيت لمجنون ليلي في ديوانه ٢٨٢، والبيان ٤٢/٢، وليزيد بن الطثرية في ديوانه ١٠٩، والحماسة لابن الشجري ١٤٥، ولعمربن أبي ربيعة في عيون الأخبار ٩/٣.

وقال عبدة بن الطبيب: [من الكامل]

لا تأمنوا قوماً يشبُّ صبيهم بين القوابلِ بالعداوةِ ينشعُ^(١)

ومن كلامهم: التعلُّمُ في الصغر كالنقشِ في الحجر. وقد قال جرَّانُ العودِ: [من

الوافر]

تُرْكَنَ برجلة الروحاءِ حتَّى كَوَحِي في الحِجَارَةِ أو وُشُومِ
تنكَّرتِ الديارُ على البصيرِ بأيدي الرومِ باقيةِ النُّورِ

وقال آخر، وهو صالح بن عبد القدوس: [من السريع]

وإنَّ من أدبته في الصَّبِي كالعُودِ يُسْقَى الماءَ في غرْسِه
حتَّى تراه مُورِقاً ناضِراً بعدَ الذي قد كان في يَبْسِه

وقال آخر: [من الطويل]

يُقُومُ من ميلِ الغلامِ المؤدَّبِ ولا يَنْفَعُ التَّاديبُ والرَّأسُ أشيبُ

وقال آخر: [من الكامل]

وتَلُومُ عِرْسِكَ بعدَ ما هَرِمَتْ وَمِنَ العَناءِ رِياضَةُ الهَرَمِ^(٢)

وقد قال ذو الرِّمَّة ليعسى بن عمر: اكتب شعري؛ فالكتابُ أحبُّ إليَّ من الحفظ. لأنَّ الأعرابيَّ ينسى الكلمةَ وقد سهر في طلبها ليلته، فيضعُ في موضعها كلمةً في وزنها، ثم ينشدها الناس، والكتاب لا ينسى ولا يبدنُ كلاماً بكلام.

وعبتَ الكتاب، ولا أعلمُ جاراً أبرَّ، ولا خليطاً أنصفَ، ولا رفيقاً أطوعَ، ولا معلماً أخضعَ، ولا صاحباً أظهرَ كفايةً، ولا أقلَّ جنائيةً، ولا أقلَّ إملالاً وإبراماً، ولا أحفلَ أخلاقاً، ولا أقلَّ خلافاً وإجراماً، ولا أقلَّ غيبةً، ولا أبعدَ من عَضِيهه^(٣)، ولا أكثرَ أعجوبةً وتصرفاً، ولا أقلَّ تصلفاً وتكلفاً، ولا أبعدَ من مراءٍ، ولا أتركَّ لشغَبٍ، ولا أزهدَ في جدالٍ، ولا أكفَّ عن قتالٍ، من كتاب. ولا أعلمُ قريناً أحسنَ موافاةً، ولا أعجلَ مكافاةً، ولا أحضرَّ معونةً، ولا أخفَّ مؤونةً، ولا شجرةً أطولَ عمراً، ولا أجمعَ

(١) البيت في ديوان عبدة بن الطبيب ٤٧، والمفضليات ١٤٧، وأساس البلاغة (نشع)، وبهجة المجالس ٧٢٤.

(٢) عجز البيت من الأمثال في مجمع الأمثال ٣٠١/٢، وجمهرة الأمثال ٢٧٩/٢، والمستقصى ٢٤٩/٢، وفصل المقال ١٨٢، والأمثال لابن سلام ١٢١، والبيت لمالك بن دينار في المصادر السابقة، ومجمع البلاغة ٦٣/١.

(٣) العضية: السحر. (اللسان: عضة).

أمراً، ولا أطيّب ثمره، ولا أقرب مُجتنى، ولا أسرع إدراكاً، ولا أوجد في كلِّ إبانٍ، من كتاب. ولا أعلمُ نتاجاً في حداثة سنه وقرب ميلاده، ورخص ثمنه، وإمكان وجوده، يجمعُ من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الحكم الرفيعة، والمذاهب القويمة، والتجارب الحكيمة، ومن الإخبار عن القرون الماضية، والبلاد المتنازحة، والأمثال السائرة، والأمم البائدة، ما يجمعُ لك الكتاب. قال الله عزَّ وجلَّ لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (١) فوصف نفسه، تبارك وتعالى، بأن علمه بالقلم، كما وصف نفسه بالكرم، واعتدَّ بذلك في نعمه العظام، وفي أياديه الجسام. وقد قالوا: «القلمُ أحدُ اللسانين»، وقالوا: «كلُّ مَنْ عَرَفَ النِّعْمَةَ فِي بَيَانِ اللِّسَانِ، كَانَ بِفَضْلِ النِّعْمَةِ فِي بَيَانِ القَلَمِ أَعْرَفَ». ثمَّ جعلَ هذا الأمرَ قرآناً، ثمَّ جعله في أوَّل التنزيلِ ومستفتح الكتاب.

١٩ - [حاجة بعض الناس إلى بعض]

ثمَّ اعلم، رحمك الله تعالى، أنَّ حاجةَ بعض الناس إلى بعض، صفةٌ لازمةٌ في طبائعهم، وخلقَةٌ قائمةٌ في جواهرهم، وثابتةٌ لا تُزِيلُهُم، ومُحِيطَةٌ بجماعتهم، ومشملةٌ على أديانهم وأقصاهم، وحاجتُهُم إلى ما غاب عنهم - ممَّا يُعِيشُهُمْ ويُحْيِيهِمْ، ويمسك بأرماقهم، ويصلحُ بالهم، ويجمعُ شملهم، وإلى التعاونِ في دركِ ذلك، والتوازرِ عليه - كحاجتِهِم إلى التعاونِ على معرفة ما يضرُّهم، والتوازرِ على ما يحتاجون من الارتفاق بأموهم التي لم تَغِبْ عنهم، فحاجةُ الغائبِ موصولةٌ بحاجةِ الشاهد، لاحتياجِ الأدنى إلى معرفةِ الأقصى، واحتياجِ الأقصى إلى معرفةِ الأدنى، معانٍ متضمنةٌ، وأسبابٌ متصلة، وحبالٌ منعقدة. وجعل حاجتنا إلى معرفة أخبار مَنْ كان قبلنا، كحاجة من كان قبلنا إلى أخبار مَنْ كان قبلهم، وحاجة من يَكُونُ بعدنا إلى أخبارنا؛ ولذلك تقدَّمت في كتب الله البشارات بالرُّسل، ولم يسخر لهم جميع خلقه، إلاَّ وهم يحتاجون إلى الارتفاق بجميع خلقه. وجعل الحاجةَ حاجتين: إحداهما قوامٌ وقوت، والأخرى لذَّةٌ وإمتاع وازديادٌ في الآلة، وفي كلِّ ما أجدلَ النفوس، وجمع لهم العتاد. وذلك المقدارُ من جميع الصنِّفَيْنِ وفق لكثرة حاجاتهم وشهواتهم، وعلى قدر اتساع معرفتهم وبعْد غورهم، وعلى قدر احتمال طبع البشرية وفطرة الإنسانية. ثم لم يقطع الزيادة إلا لعجز خلقهم عن احتمالها، ولم يجز أن يفرق

(١) ٣: العلق ٩٦.

بينهم وبين العجز، إلا بعدم الأعيان، إذ كان العجزُ صفةً من صفاتِ الخلق، ونعتاً من نَعوتِ العبيد .

لم يخلق الله تعالى أحداً يستطيعُ بلوغَ حاجته بنفسه دونَ الاستعانة بغير من سخرَ له، فأدناهم مسخرٌ لأقصاهم، وأجلُّهم ميسرٌ لأدقِّهم . وعلى ذلك أحوَجَ الملوكُ إلى السُّوقَةِ في باب، وأحوَجَ السُّوقَةُ إلى الملوكِ في باب، وكذلك الغنيُّ والفقيرُ، والعبدُ وسيِّدُهُ . ثُمَّ جَعَلَ اللهُ تعالى كلَّ شيءٍ لِلإنسانِ حَوَلاً، وفي يَدِهِ مُدَلِّلاً مُيسِراً إِمَّا بالاحتِيالِ له والتلَطُّفِ في إراغته واستمالته، وإِمَّا بالصَّوْلَةِ عليه، والفتكِ به، وإِمَّا أَنْ يَأْتِيَهُ سَهْواً ورهواً . على أَنَّ الإنسانَ لولا حاجتُهُ إليها، لما احتالَ لها، ولا صالَ عليها . إلا أَنَّ الحاجةَ تَفْتَرِقُ في الجنسِ والجهةِ والجِبِلَّةِ، وفي الحظِّ والتقديرِ .

ثمَّ تَعَبَّدَ الإنسانُ بالتفكيرِ فيها، والنظرِ في أُمُورِها، والاعتبارِ بما يَرى، ووَصَلَ بينَ عقولِهِم وبينَ معرفةِ تلكِ الحُكْمِ الشريفةِ، وتلكِ الحاجاتِ اللازمةِ، بالنظرِ والتفكيرِ، وبالتنقيبِ والتنقييرِ، والتثبتِ والتوقُّفِ؛ ووَصَلَ معارفِهِم بمواقِعِ حاجاتِهِم إليها، وتشاعرِهِم بمواضعِ الحُكْمِ فيها بالبيانِ عنها .

٢٠ - [آلة البيان]

وهو البيانُ الذي جعله اللهُ تعالى سبباً فيما بينهم، ومعبراً عن حقائقِ حاجاتهم، ومعرفاً لمواضعِ سدِّ الخَلَّةِ ورفعِ الشبهةِ، ومداواةِ الحيرةِ، ولأنَّ أكثرَ الناسِ عن الناسِ أفهمُ منهم عن الأشباحِ الماثلةِ، والأجسامِ الجامدةِ، والأجرامِ الساكنةِ، التي لا يُتَعَرَّفُ ما فيها من دَقائِقِ الحُكْمَةِ وكُنُوزِ الآدابِ، وينابيعِ العلمِ، إلا بالعقلِ الثاقبِ اللطيفِ، وبالنظرِ التامِّ النافذِ، وبالأداةِ الكاملةِ، وبالأَسبابِ الوافرةِ، والصبرِ على مكروهِ الفكرِ، والاحتراسِ من وُجوهِ الخُدَعِ . والتحفُّظِ من دواعيِ الهوى؛ ولأنَّ الشَّكْلَ أفهمُ عن شكلِهِ، وأسكَنُ إليه وأصَبُّ به . وذلك موجودٌ في أجناسِ البهائمِ، وضروبِ السباعِ . والصبيُّ عن الصبيِّ أفهمُ له، وله آلفٌ وإليه أنزعُ، وكذلك العالمُ والعالمُ، والجاهلُ والجاهلُ، وقال اللهُ عزَّ وجلَّ لَنبيِّهِ عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَكُوِّجَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ﴾ (١) لِأَنَّ الإنسانَ عن الإنسانِ أفهمُ، وطباعُهُ بطباعِهِ آتس؛ وعلى قدرِ ذلك يكونُ موقعُ ما يسمعُ منه .

ثمَّ لم يرضَ لهم من البنيانِ بصنِفٍ واحدٍ، بل جَمَعَ ذلك ولم يفرِّقْ، وكثُرَ ولم

(١) : ٩ الأنعام / ٦ .

يقلل، وأظهرَ ولم يُخفِ، وجعل آلة البيان التي بها يتعارفون معانيهم، والترجمان الذي إليه يرجعون عند اختلافهم؛ في أربعة أشياء؛ وفي خصلة خامسة؛ وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعة في جهاتها، فقد تُبدل بجنسها الذي وضعت له وصُرفت إليه، وهذه الخصال هي: اللفظ، والخط، والإشارة، والعقد؛ والخصلة الخامسة ما أوجد من صحة الدلالة، وصدق الشهادة ووضوح البرهان، في الأجرام الجامدة والصامتة، والساكنة التي لا تتبين ولا تحس، ولا تفهم ولا تتحرك إلا بداخل يدخل عليها، أو عند ممسك خلّي عنها، بعد أن كان تقييده لها.

ثم قسم الأقسام ورتب المحسوسات، وحصل الموجودات، فجعل اللفظ للسامع، وجعل الإشارة للناظر، وأشرك الناظر واللامس في معرفة العقد، إلا بما فضل الله به نصيب الناظر في ذلك على قدر نصيب اللامس. وجعل الخط دليلاً على ما غاب من حوائجه عنه، وسبباً موصولاً بينه وبين أعوانه؛ وجعله خازناً لما لا يأمن نسيانه، ممّا قد أحصاه وحفظه، وأتقنه وجمعه، وتكلف الإحاطة به؛ ولم يجعل للشام والذائق نصيباً.

٢١ - [خطوط الهند]

ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثير والبسيط، ولبطلت معرفة التضاعيف، ولعدموا الإحاطة بالباورات وباورات الباورات، ولو أدركوا ذلك كما أدركوه إلا بعد أن تغلظ المؤونة، وتنتقض المنة، ولصاروا في حال معجزة وحسور، وإلى حال مضيعة وكلال حد، مع التشاغل بأمور لولا فقد هذه الدلالة لكان أريح لهم، وأرد عليهم، أن يُصرف ذلك الشغل في أبواب منافع الدين والدنيا.

٢٢ - [نفع الحساب]

ونفع الحساب معلوم، والخلة في موضع فقدته معروفة. قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾^(١). ثم قال: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾^(٢). وبالبيان عرف الناس القرآن. وقال الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا، وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ، لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾^(٣)

(١) ٤: الرحمن / ٥٥.

(٢) ٥: الرحمن / ٥٥.

(٣) ٥: يونس / ١٠.

فأجرى الحساب مُجرى البيان بالقرآن. وبحُساب منازل القمر، عرّفنا حالات المدّ والجزر، وكيف تكون الزيادة في الأهلة وأنصاف الشهور، وكيف يكون النقصان في خلال ذلك، وكيف تلك المراتب وتلك الأقدار.

٢٣ - [فضل الكتابة]

ولولا الكتبُ المدوّنة والأخبار المخلّدة، والحكم المخطوطة التي تُحصنُ الحسابَ وغيرَ الحساب، لبطل أكثر العلم، ولغلب سلطانُ النسيان سلطانَ الذكر، ولما كان للناس مفرغٌ إلى موضع استذكار. ولو تمّ ذلك لحرمنا أكثر النفع؛ إذ كنا قد علمنا أن مقدار حفظ الناس لعواجل حاجاتهم وأوائلها، لا يبلغ من ذلك مبلغاً مذكوراً ولا يُغني فيه غناء محموداً. ولو كُلفَ عامةٌ من يطلب العلمَ ويصطنعُ الكتب، ألا يزال حافظاً لفهرست كتبه لأعجزه ذلك، ولكُلفَ شططاً، وكشغله ذلك عن كثيرٍ ممّا هو أولى به. وفهمك لمعاني كلام الناس، ينقطع قبل انقطاع فهم عين الصوت مجرداً، وأبعدُ فهمك لصوت صاحبك ومُعاملِك والمعاون لك، ما كان صياحاً صرفاً، وصوتاً مصمتاً ونداءً خالصاً، ولا يكون ذلك إلا وهو بعيدٌ من المفاهمة، وعُطلٌ من الدلالة. فجعل اللفظ لأقرب الحاجات، والصوت لأنفس من ذلك قليلاً، والكتاب للنازح من الحاجات. فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها: رَفَعُ الحواجب، وكسرُ الأجناف، وليُّ الشفاه وتحريك الأعناق، وقبضُ جلدة الوجه؛ وأبعدُها أن تلوى بثوبٍ على مقطع جبل، تُجاهَ عينِ الناظر، ثم ينقطع عملها ويدرس أثرها، ويموت ذكرها، ويصير بعدُ كل شيء فضل عن انتهاء مدى الصوت ومنتهى الطرف، إلى الحاجة وإلى التفاهم بالخطوط والكتب. فأی نفع أعظم، وأي مرفقٍ أعون من الخط، والحال فيه كما ذكرنا!! وليس للتعقّد حظُّ الإشارة في بُعد الغاية.

٢٤ - [فضل القلم واللسان]

فلذلك وضع الله عزّ وجلّ القلم في المكان الرفيع، ونوّه بذكره في المنصب الشريف حين قال ﴿يَنْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾^(١) فأقسمَ بالقلم كما أقسم بما يُحطُّ بالقلم؛ إذ كان اللسان لا يتعاطى شأوه، ولا يشقُّ غباره ولا يجري في حلبته، ولا يتكلف بُعدَ غايته. لكن لما أن كانت حاجات الناس بالحضرة^(٢) أكثر من حاجاتهم

(١) ١: القلم/٦٨

(٢) الحضرة والحضر والحاضرة: خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف. وسميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار. (اللسان: حضر).

في سائر الأماكن، وكانت الحاجةُ إلى بيان اللسان حاجةً دائمةً واکدةً، وراهنةً ثابتةً، وكانت الحاجةُ إلى بيان القلم أمراً يكونُ في الغيبةِ وعند النائبةِ، إلا ما خُصَّت به الدواوين؛ فإن لسانَ القلم هناك أبسطُ، وأثره أعمُّ، فلذلك قدّموا اللسانَ على القلم.

٢٥ - [فضل اليد]

فاللسانُ الآن إنما هو في منافع اليدِ والمرافق التي فيها، والحاجات التي تبلّغها. فمن ذلك حظُّها وقسطُها من منافع الإشارةِ، ثم نصيبُها في تقويم القلم، ثم حظُّها في التصوير، ثم حظُّها في الصناعات، ثم حظُّها في العقد، ثم حظُّها في الدَّفْع عن النفس، ثم حظُّها في إيصال الطعام والشراب إلى الفم، ثم التوضُّؤ والامتساح، ثم انتقاد الدنانير والدراهم ولُبس الثياب، وفي الدفع عن النفس، وأصناف الرَّمي، وأصناف الضرب، وأصناف الطعن، ثم النُقْر بالعود وتحريك الوتر؛ ولولا ذلك لبطل الضربُ كُلُّه أو عامتُه. وكيف لا يكون ذلك كذلك ولها ضربُ الطبل والدَّف، وتحريكُ الصفاقتين^(١)، وتحريك مخارق خروق المزامير، وما في ذلك من الإطلاق والحبس. ولو لم يكن في اليدِ إلا إمساكُ العنان والرِّمام والخِطام، لكان من أعظم الحفظ.

وقد اضطربوا في الحكم بين العقد والإشارة، ولولا أن مغزانا في هذا الكتاب سوى هذا الباب، لقد كان هذا ممّا أحبُّ أن يعرفه إخواننا وخطاؤنا. فلا ينبغي لنا أيضاً أن نأخذ في هذا الباب من الكلام، إلا بعد الفراغ ممّا هو أولى بنا منه، إذ كنتَ لم تنازعني، ولم تعبْ كتبي، من طريق فضل ما بين العقد والإشارة، ولا في تمييز ما بين اللفظ وبينهما، وإنما قصدنا بكلامنا إلى الإخبار عن فضيلة الكتاب.

٢٦ - [فضل الكتاب]

والكتابُ هو الذي يودّي إلى الناس كتبَ الدين، وحسابَ الدواوين مع خفة نقله، وصغر حجمه؛ صامتٌ ما أسكته، وبلغ ما استنطقته. ومن لك بمسامر لا يبتدك في حال شغلِك، ويدعوك في أوقات نشاطك، ولا يُحوجك إلى التجمل له والتدّم منه. ومن لك بزائرٍ إن شئتَ جعلَ زيارته غباً، ووروده خمساً، وإن شئتَ لزمك لزوم ظلِّك، وكان منك مكان بعضك.

(١) يبدو أنها آلة موسيقية، تتألف من قرصين؛ يُضرب أحدهما بالآخر، كما تفعل الراقصات.

والقلم مكتفٍ بنفسه، لا يحتاج إلى ما عند غيره؛ ولا بدَّ لبيان اللسان من أمور: منها إشارة اليد، ولولا الإشارة لَمَا فهموا عنك خاصَّ الخاصِّ إذا كان أخصَّ الخاصِّ قد يدخل في باب العامِّ، إلاَّ أنه أدنى طبقاته؛ وليس يكتفي خاصَّ الخاصِّ باللفظ عمَّا أذاه، كما اكتفى عامُّ العامِّ والطبقاتُ التي بينه وبين أخصَّ الخاصِّ.

والكتابُ هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغيرك، والرفيق الذي لا يملكك، والمستميح الذي لا يستريثك^(١)، والجارُّ الذي لا يستبطنك، والصاحبُ الذي لا يريد استخراجَ ما عندك بالملق، ولا يعاملُك بالمكر، ولا يخدعك بالنفاق، ولا يحتالُ لك بالكذب. والكتابُ هو الذي إن نظرتَ فيه أطالَ إمتاعك، وشحذَ طباغك، وبسطَ لسانك، وجوَّدَ بنانك، وفخَّمَ ألفاظك، وبجَّحَ^(٢) نفسك، وعمَّرَ صدرك، ومنحك تعظيمَ العوامِّ وصدأفةَ الملوك، وعرفتَ به في شهر، ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهر، مع السلامة من الغرم، ومن كدَّ الطلب، ومن الوقوف بباب المكتسب بالتعليم، ومن الجلوس بين يدي من أنت أفضلُ منه خلقاً، وأكرمُ منه عرقاً، ومع السلامة من مجالسة البغضاء ومقارنة الأغبياء.

والكتابُ هو الذي يطيعك بالليل كطاعته بالنهار، ويطيعك في السفر كطاعته في الحضر، ولا يعتلُّ بنوم، ولا يعتريه كلالُ السهر. وهو المعلمُ الذي إن افتقرتَ إليه لم يُخفرك^(٣)، وإن قطعتَ عنه المادةَ لم يقطعَ عنك الفائدة، وإن عزلتَ لم يدعُ طاعتك، وإن هبت ريحُ أعاديك لم ينقلبَ عليك، ومتى كنتَ منه متعلقاً بسبب أو معتصماً بأدنى حبل، كان لك فيه غنى من غيره، ولم تضطرَّك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء. ولو لم يكن من فضله عليك، وإحسانه إليك، إلاَّ منعه لك من الجلوس على بابك، والنظر إلى المارة بك، مع ما في ذلك من التعرُّض للحقوق التي تلزم، ومن فضول النظر، ومن عادة الخوض فيما لا يعنك، ومن ملابسة صغار الناس، وحضور ألفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسدة، وأخلاقهم الرديئة، وجهالاتهم المذمومة، لكان في ذلك السلامة، ثم الغنيمة، وإحراز الأصل، مع استفادة الفرع. ولو لم يكن في ذلك إلاَّ أنه يشغلك عن سُخف المني وعن اعتياد الراحة، وعن اللعب، وكلُّ ما أشبه اللعب، لقد كان على صاحبه أسبغ النعمة وأعظم المنَّة.

(١) استرث: استبطن. (اللسان: ريث).

(٢) بجَّح: فرَّح. (اللسان: بجح).

(٣) الخفرك: شدة الحياء. (اللسان: خفر).

وقد علمنا أن أفضل ما يقطع به الفُراعُ نهارهم، وأصحابُ الفكاهات ساعات ليلهم، الكتاب. وهو الشيء الذي لا يرى لهم فيه مع النيل أثرٌ في ازدياد تجربةٍ ولا عقلٍ ولا مروءة، ولا في صونِ عرض، ولا في إصلاحِ دين، ولا في تسمير مال، ولا في ربِّ صنّيعة^(١) ولا في ابتداء إنعام.

٢٧ - [أقوال لبعض العلماء في فضل الكتاب]

وقال أبو عبيدة، قال المهلبُ لبنيه في وصيته: يا بني لا تقوموا في الأسواقِ إلا على زرادٍ أو وراقٍ^(٢).

وحدثني صديقٌ لي قال: قرأتُ على شيخٍ شاميٍّ كتاباً فيه من مآثر غطفان فقال: «ذهبَت المكارمُ إلا من الكتب»^(٣).

وسمعتُ الحسن اللؤلؤي يقول: غبرتُ^(٤) أربعين عاماً ما قلتُ^(٥) ولا بتُّ ولا اتكأتُ إلا والكتابُ موضوعٌ على صدري.

وقال ابن الجهم: إذا غشيتني النعاس في غير وقت نوم - وبمس الشيء النومُ الفاضلُ عن الحاجة - قال: فإذا اعتراني ذلك تناولتُ كتاباً من كتب الحكم، فأجدُ اهتزازي للفوائد، والأريحية التي تعتريني عند الظفر ببعض الحاجة، والذي يغشى قلبي من سرور الاستبانة وعزّ التبيين أشدَّ إيقاظاً من نهيق الحمير وهدّة الهدم.

وقال ابن الجهم: إذا استحسنتُ الكتابَ واستجدتُه، ورجوتُ منه الفائدة ورأيتُ ذلك فيه -- فلو تراني وأنا ساعةً بعد ساعةٍ أنظرُ كم بقي من ورقه مخافةً استنفاده، وانقطاع المادّة من قلبه، وإن كان المصحفُ عظيمَ الحجم كثيرَ الورق، كثيرَ العدد - فقد تمَّ عيشي وكَمَلَّ سروري.

وذكر العتبي كتاباً لبعض القدماء فقال: لولا طولُه وكثرةُ ورقه لنسخته. فقال

(١) ربّ الصنّيعة: تمهدها.

(٢) الزراد: صانع الدروع. (اللسان: زرد). والمهلب يوصي بنيه بذلك لاستكمال صناعة الجنديّة. إذ لا يلبق بالجنود الوقوف في أسواق العطارين والصاغة. انظر التعابي الحربية لابن منكلي، الورقة ٧١.

(٣) ورد القول في كتاب البخلاء ١٧٦.

(٤) غبرتُ: مكثتُ.

(٥) قلتُ: من القيلولة، وهي النوم عند الظهيرة.

ابن الجهم: لكنني ما رغبني فيه إلا الذي زهدك فيه؛ وما قرأت قط كتاباً كبيراً فأخلاني من فائدة، وما أحصي كم قرأت من صغار الكتب فخرجت منها كما دخلت.

وقال العتبي ذات يوم لابن الجهم: ألا تتعجب من فلان!! نَظَر في كتاب الإقليدس مع جارية سَلَمويه في يومٍ واحد، وساعة واحدة، فقد فرغت الجارية من الكتاب وهو بعد لم يُحكَم مقالة واحدة، على أنه حرٌّ مخير، وتلك أمة مقصورة، وهو أحرص على قراءة الكتاب من سَلَمويه على تعليم جارية. قال ابن الجهم: قد كنت أظن أنه لم يفهم منه شكلاً واحداً، وأراك تزعم أنه قد فرغ من مقالة!! قال العتبي: وكيف ظننت به هذا الظن، وهو رجل ذو لسانٍ وأدب؟ قال: لأنني سمعته يقول لابنه: كم أنفقت على كتاب كذا؟ قال: أنفقت عليه كذا، قال: إنما رغبني في العلم أنني ظننت أنني أنفق عليه قليلاً وأكتسب كثيراً، فأما إذا صرت أنفق الكثير، وليس في يدي إلا المواعيد، فإنني لا أريد العلم بشيء!!

٢٨ - [الإنفاق على الكتب]

فالإنسان لا يعلم حتى يكثُر سماعه، ولا بُد من أن تكون كتبه أكثر من سَماعه؛ ولا يعلم، ولا يجمع العلم، ولا يُختلف إليه، حتى يكون الإنفاق عليه من ماله، ألدَّ عنده من الإنفاق من مال عدوه. ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب، ألدَّ عنده من إنفاق عشاق القيان، والمستهترين بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغاً رضيعاً. وليس ينتفع بإنفاقه، حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله، وحتى يؤمل في العلم ما يؤمل الأعرابي في فرسه.

٢٩ - [مغلاة الزنادقة بتحسين كتبهم]

وقال إبراهيم بن السندي مرة: وددت أن الزنادقة لم يكونوا حرصاء على المغلاة بالورق النقي الأبيض، وعلى تخيير الحبر الأسود المشرق البراق، وعلى استجدادة الخط والإرغاب لمن يخط، فإنني لم أر كورق كتبهم ورقاً، ولا كالخطوط التي فيها خطأ. وإذا غرمت مالا عظيماً - مع حبي للمال وبغض الغرم - كان سخاء النفس بالإنفاق على الكتب، دليلاً على تعظيم العلم، وتعظيم العلم دليل على شرف النفس، وعلى السلامة من سُكر الآفات. قلت لإبراهيم: إن إنفاق الزنادقة على تحصيل الكتب، كإنفاق النصارى على البيع، ولو كانت كتب الزنادقة كتب حكم وكتب

فلسفة، وكتبَ مقاييسَ وسُننٍ وتبئينٍ وتبيين، أو لو كانت كتبهم كتباً تُعرّف الناسَ أبوابَ الصناعات، أو سُبُلَ التكبُّب والتجارات، أو كتبَ ارتفاعات ورياضات، أو بعض ما يتعاطاه الناسُ من الفطن والآداب - وإن كان ذلك لا يقرب من غنى ولا يبعد من مائثم - لكانوا ممن قد يجوز أن يُظنَّ بهم تعظيمُ البيان، والرغبةُ في التبئين، ولكنهم ذهبوا فيها مذهبَ الديانة، وعلى طريقِ تعظيمِ الملة، فإنما إنفاقهم في ذلك، كإنفاق المجوس على بيت النار، وكإنفاق النصارى على صُلبان الذهب، أو كإنفاق الهند على سدنة البددة^(١). ولو كانوا أرادوا العلمَ لكان العلمُ لهم مُعرضاً، وكتبُ الحكمة لهم مبدولةً، والطرقُ إليها سهلةً معروفة. فما بالهم لا يصنعون ذلك إلا بكتب دياناتهم، كما يزخرفُ النصارى بيوتَ عباداتهم! ولو كان هذا المعنى مستحسنًا عند المسلمين، أو كانوا يرون أن ذلك داعيةٌ إلى العبادة، وباعثةٌ على الخشوع، لبلغوا في ذلك بعفوفهم، ما لا تبلغه النصارى بغاية الجهد.

٣٠ - [مسجد دمشق]

وقد رأيتُ مسجدَ دمشق، حين استجاز هذا السبيل ملكٌ من ملوكها، ومَن رآه فقد علم أن أحداً لا يرومه، وأن الرومَ لا تسخوا أنفسهم به، فلماً قام عمرُ بنُ عبد العزيز، جلَّه بالجلال، وغطَّاه بالكرابيس^(٢)، وطبخَ سلاسلَ القناديل حتى ذهب عنها ذلك التلألؤُ والبريق؛ وذهب إلى أن ذلك الصنيعُ مجانبٌ لسنة الإسلام، وأن ذلك الحُسنَ الرائعَ والمحاسنَ الدقاقَ، مَذهلةٌ للقلوب، ومَشغلةٌ دونَ الخشوع، وأن البالَ لا يكون مجتمعاً وهناك شيء يفرقه ويعترض عليه.

٣١ - [مضمون كتب الزنادقة]

والذي يدلُّ على ما قلنا، أنه ليس في كتبهم مثلُ سائر، ولا خبرٌ طريف، ولا صنعةٌ أدب، ولا حكمةٌ غريبة، ولا فلسفةٌ، ولا مسألةٌ كلامية، ولا تعريفُ صناعة، ولا استخراجُ آله، ولا تعليمُ فلاحه، ولا تدبيرُ حرب، ولا مقارعة عن دين، ولا مناقضة عن نحلة، وجلُّ ما فيها ذكرُ النور والظلمة، وتناكحُ الشياطين، وتسافدُ العفاريت، وذكرُ الصنديد، والتهويلُ بعمود السنخ، والإخبار عن شقلون، وعن الهامة والهمامة. وكلُّه هذرٌ وعيٌّ وخُرافة، وسُخريةٌ وتكذُّب، لا ترى فيه موعظةً حسنة، ولا حديثاً مُونقاً،

(١) البددة: جمع بد، وهو الصنم، والبد هو «بوذا» عند الهنود.

(٢) الكرابيس: جمع كراباس، وهو ثوب من القطن (اللسان: كريس).

ولا تدبيرَ معاشٍ، ولا سياسةَ عامة، ولا ترتيبَ خاصَّة. فأيُّ كتابٍ أجهلُّ، وأيُّ تدبيرٍ أفسدُ من كتابٍ يوجبُ على الناسِ الإطاعة، والبخوعَ^(١) بالديانة، لا على جهة الاستبصار والمحبة، وليس فيه صلاحُ معاشٍ ولا تصحيحُ دينٍ؟! والناسُ لا يحبُّون إلا ديناً أو دنيا: فأمَّا الدنيا فإقامةُ سوقها وإحضارُ نفعها. وأمَّا الدينُ فأقلُّ ما يُطمع في استجابة العامة، واستمالة الخاصة، أن يَصوَّرَ في صورةٍ مغلَّطة، ويموِّهَ تمويهَ الدِّينارِ البهْرَجِ، والدرهمِ الزائفِ الذي لا يغلطُ فيه الكثير، ويعرفُ حقيقته القليل. فليس إنفاقهم عليها من حيثُ ظننت. وكلُّ دينٍ يكونُ أظهرَ اختلافاً وأكثرَ فساداً، يحتاج من الترفيع والتمويه، ومن الاحتشاد له والتغليظ فيه إلى أكثر. وقد علمنا أن النصرانيةَ أشدُّ انتشاراً من اليهوديةَ تعبداً، فعلى حسب ذلك يكونُ تزيدهم في توكيده، واحتفالهم في إظهار تعليمه.

٣٢ - [فضل التعلم]

وقال بعضهم: كنتُ عندَ بعضِ العلماء، فكنتُ أكتبُ عنه بعضاً وأدعُ بعضاً، فقال لي: اكتبُ كلَّ ما تسمعُ، فإنَّ أخسَّ ما تسمعُ خيرٌ من مكانه أبيض.

وقال الخليل بن أحمد: تكثُرُ من العلم لتعرف، وتقلُّ منه لتحفظ.

وقال أبو إسحاق: القليل والكثير للكتب، والقليلُ وحده للصدر.

وأُشَدُّ قول ابنِ يسير^(٢): [من المتقارب]

أما لو أعني كلَّ ما أسمعُ	وأحفظُ من ذاك ما أجمعُ
ولم أستفدْ غيرَ ما قد جمعتُ	ت لَقِيلَ هو العالمِ المصقَعُ
ولكنَّ نفسي إلى كلِّ نو	ع من العلم تسمعه تنزعُ
فلا أنا أحفظُ ما قد جمعتُ	تُ ولا أنا من جمعه أشبعُ
وأحصِرُ بالعيِّ في مجلسي	وعلمي في الكُتُبِ مستودعُ
فمن يكُ في علمه هكذا	يكنُّ دهره القهقرى يرجعُ
إذا لم تكن حافِظاً واعياً	فجمعك للكتب لا ينفعُ

٣٣ - [التخصص بضرور من العلم]

وقال أبو إسحاق: كلَّفَ ابنُ يسيرِ الكتبَ ما ليس عليها. إن الكتبَ لا تحيي

(١) البخوع: التذلل والخضوع. (اللسان: بخع).

(٢) الأبيات في ديوان محمد بن يسير الرياشي ٩١، وسمط اللآلي ١/٥١٤-٥١٥.

الموتى، ولا نحولُ الأحقَّ عاقلاً، ولا البليدَ ذكياً، ولكنَّ الطبيعةَ إذا كان فيها أدنى قَبُول، فالكتبُ تشحَدُ وتفتق، وتُرهِف وتَسْفِي. ومن أرادَ أن يعلمَ كلَّ شيء، فينبغي لأهله أن يداووه! فإنَّ ذلكَ إنما تصوَّرَ له بشيءٍ اغتراه!! فَمَنْ كان ذكياً حافظاً فليقصدِ إلى شيئين، وإلى ثلاثة أشياء، ولا ينزعِ عن الدرسِ والمطارحةِ، ولا يدعُ أن يمرَّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه، ما قدَّرَ عليه من سائرِ الأصنافِ، فيكونَ عالماً بخواصِّ. ويكونَ غيرَ غفلٍ من سائرِ ما يجري فيه الناسُ ويخوضون فيه. ومن كان مع الدرسِ لا يحفظ شيئاً، إلا نسيَ ما هو أكثرُ منه، فهو من الحفظِ من أفواه الرجالِ أبعد.

٣٤ - [جمع الكتب وفضلها]

وحدثني موسى بن يحيى قال: ما كان في خزانة كتب يحيى، وفي بيت مدرسه كتابٌ إلا وله ثلاثُ نسخ.

وقال أبو عمرو بن العلاء: ما دخلتُ على رجلٍ قطُّ ولا مررتُ ببابه، فرأيتُهُ ينظرُ في دفترٍ وجليسهُ فارغُ اليد، إلا اعتقدتُ أنه أفضلُ منه وأعقل.

وقال أبو عمرو بن العلاء: قيل لنا يوماً: إنَّ في دار فلان ناساً قد اجتمعوا على سوءة، وهم جلوسٌ على خميرة لهم، وعندهم طنبورٌ. فتسورنا عليهم في جماعة من رجالِ الحي، فإذا فتى جالسٌ في وسط الدار، وأصحابه حوله، وإذا هم بيضُ اللحي، وإذا هو يقرأ عليهم دفترًا فيه شعر. فقال الذي سعى بهم: السوءة في ذلك البيت، وإن دخلتموه عثرتم عليها! فقلت: والله لا أكشفُ فتى أصحابه شيوخ، وفي يده دفترٌ علم، ولو كان في ثوبه دم يحيى بن زكرياء!!

وأنشد رجلٌ يونسَ النحويَّ: [من البسيط]

استودعَ العلمَ قرطاساً فضيعةً فبيئسَ مستودعَ العلمِ القراطيسُ^(١)

قال، فقال يونس: قاتله الله، ما أشدَّ ضنانتَه بالعلم، وأحسنَ صيانتَه له، إنَّ علمك من روحك، ومالك من بدنك، فضعه منك بمكان الروح، وضع مالك بمكان البدن!!

وقيل لابن داحة - وأخرج كتاب أبي الشمقمق، وإذا هو في جلود كوفية،

(١) البيت بلا نسبة في أساس البلاغة واللسان والتاج (ودع).

وَدَقَّتَيْنِ طَائِفَتَيْنِ، بَخْطٌ عَجِيبٌ - فَقِيلَ لَهُ: لَقَدْ أُضِيعَ مِنْ تَجَوُّدٍ بِشَعْرِ أَبِي الشَّمَقْمَقِ! فَقَالَ: لَا جَرْمَ وَاللَّهِ!! إِنَّ الْعِلْمَ لِيُعْطِيكُمْ عَلَى حِسَابِ مَا تَعْطُونَهُ، وَلَوْ اسْتَطَعْتُ أَنْ أُوَدِعَهُ سُودَاءَ قَلْبِي، أَوْ أَجْعَلَهُ مَحْفُوظًا عَلَى نَازِرِي، لَفَعَلْتُ.

وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَى إِسْحَاقَ بْنِ سَلِيمَانَ فِي إِمْرَتِهِ، فَرَأَيْتُ السَّمَاطِينَ وَالرِّجَالَ مُثَوَّلًا كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرَ، وَرَأَيْتُ فَرَشَتَهُ وَبَزَّتَهُ؛ ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ مَعزُولٌ، وَإِذَا هُوَ فِي بَيْتِ كِتَابِهِ، وَحِوَالِيهِ الْأَسْفَاطُ وَالرُّقُوقُ، وَالْقِمَاطِرُ وَالِدِفَاتِرُ وَالْمَسَاطِرُ وَالْمَحَابِرُ، فَمَا رَأَيْتُهُ قَطُّ أَفْخَمَ وَلَا أَنْبَلَ، وَلَا أَهْيَبَ وَلَا أَجْزَلَ مِنْهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ لِأَنَّهُ جَمَعَ مَعَ الْمَهَابَةِ الْمَحَبَّةَ، وَمَعَ الْفَخَامَةِ الْحَلَاوَةَ، وَمَعَ السُّودَدِ الْحِكْمَةَ.

وَقَالَ ابْنُ دَاخَةَ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، لَا يَجَالِسُ النَّاسَ، وَيَنْزِلُ مَقْبُرَةً مِنَ الْمَقَابِرِ، وَكَانَ لَا يَكَادُ يُرَى إِلَّا وَفِي يَدِهِ كِتَابٌ يَقْرُؤُهُ. فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، وَعَنْ نَزْوِلِهِ الْمَقْبُرَةَ فَقَالَ: لَمْ أَرِ أَوْعَظَ مِنْ قَبْرِ، وَلَا أَمْنَعُ مِنْ كِتَابٍ، وَلَا أَسْلَمَ مِنَ الْوَحْدَةِ، فَقِيلَ لَهُ: قَدْ جَاءَ فِي الْوَحْدَةِ مَا جَاءَ! فَقَالَ: مَا أَفْسَدَهَا لِلْجَاهِلِ وَأَصْلَحَهَا لِلْعَاقِلِ!

٣٥ - [ضروب من الخطوط ومنفعتها]

وَضُرُوبٌ مِنَ الْخُطُوطِ بَعْدَ ذَلِكَ، تَدُلُّ عَلَى قَدْرِ مَنْفَعَةِ الْخَطِّ. قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١) وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ فِي صُحُفٍ مُكْرَمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ (٢) وَقَالَ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ (٣) وَقَالَ ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ (٤) وَقَالَ ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (٥).

وَلَوْ لَمْ تَكْتُبْ أَعْمَالَهُمْ لَكَانَتْ مَحْفُوظَةً لَا يَدْخُلُ ذَلِكَ الْحِفْظَ نَسِيَانٌ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى وَعَزَّ، عَلِمَ أَنَّ كِتَابَ الْمَحْفُوظِ وَنَسَخَهُ، أَوْ كَدُّ وَابْلُغُ فِي الْإِنْذَارِ وَالتَّحْذِيرِ، وَأَهْيَبُ فِي الصَّدُورِ.

(١) ٩٤: الانفطار/ ٨٢.

(٢) ١٣: عبس/ ٨٠.

(٣) ١٩: الحاقة/ ٦٩.

(٤) ٢٥: الحاقة/ ٦٩.

(٥) ١٤: الإسراء/ ١٧.

وخط آخر، وهو خطُّ الحازي والعرَّاف^(١) والزَّاجِر. وكان فيهم حليس الخطَّاط
 الأَسديّ، ولذلك قال شاعرهم في هجائهم: [من الطويل]
 فأنتم عَضَارِيطُ الخَمِيسِ إِذَا غَزَوْا غَنَاؤَكُم تَلْكَ الأَخَاطِيطُ فِي التُّرْبِ^(٢)
 وَخُطُوطٌ أُخْرَى، تَكُونُ مُسْتَرَاحاً لِلأَسِيرِ والمَهْمُومِ والمَفْكَرِ، كما يَعتَري
 المَفْكَرُ مِن قَرَعِ السَّنِّ، والغَضْبَانِ مِن تَصْفِيقِ الأَيْدِ وَتَجْحِيظِ العَيْنِ. وَقَالَ تَابُطَ شَرَّأ:
 [من البسيط]

لَتَقْرَعَنَّ عَلَيَّ السَّنَّ مِن نَدَمٍ إِذَا تَذَكَّرْتَ يَوْمًا بَعْضَ أَخْلَاقِي^(٣)

وَفِي خَطِّ الحَزِينِ فِي الأَرْضِ يَقُولُ ذُو الرِّمَّةِ: [من الطويل]
 عَشِيَّةً مَالِي حِيلَةٌ غَيْرَ أَنَّنِي بَلَقْتُ الحَصَى وَالخَطَّ فِي الدَّارِ مُوَلِّعٌ^(٤)
 أُخِطُّ وَأَمَحُو الخَطَّ ثُمَّ أُعِيدُهُ بَكْفِي والغَرِبَانُ فِي الدَّارِ وَقَعُ
 وَذَكَرَ النَّابِغَةُ صَنِيعَ النِّسَاءِ، وَفَزَعَهُنَّ إِلَى ذَلِكَ، إِذَا سُبِينَ وَاعْتَرَبْنَ وَفَكَرْنَ، فَقَالَ:
 [من الطويل]

وَيَخْطُبُنَ بِالعِيدَانِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ وَيَخْبَانُ رُمَانَ الثُّدِيِّ النُّوَاهِدِ^(٥)
 وَقَدْ يَفْرَعُ إِلَى ذَلِكَ الخَجَلُ وَالمَتَعَلَّلُ، كَمَا يَفْرَعُ إِلَيْهِ المَهْمُومُ وَهُوَ قَوْلُ القَاسِمِ
 ابْنِ أُمِيَّةِ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ: [من الكامل]
 لَا يَنْقَرُونَ الأَرْضَ عِنْدَ سُؤْلِهِمْ لَتَلْمَسُ العِلَّاتُ بِالعِيدَانِ^(٦)
 بَلْ يَبْسُطُونَ وَجُوهَهُمْ فَتَرَى لَهَا عِنْدَ اللِّقَاءِ كَأَحْسَنِ الأَلْوَانِ
 وَقَالَ الحَارِثُ بْنُ الكِنْدِيِّ، وَذَكَرَ رَجُلًا سَأَلَهُ حَاجَةً فَاعْتَرَاهُ العَبْثُ بِأَسْنَانِهِ،
 فَقَالَ: [من الوافر]

وَأَضَ بَكْفِهِ يَحْتَكُ ضِرْسًا يُرِينَا أَنَّهُ وَجَعٌ بِضِرْسِ

- (١) الحازي: الكاهن. (اللسان: حزا). العرَّاف: الطبيب أو الكاهن. (اللسان: عرف).
 (٢) البيت بلا نسبة في المخصص ٢٠٨/١٣، وهو لأبي نواس في ديوانه ٥١١، وروايته فيه:
 فأنتم عطاريس الخميس إذا غزا غذاؤكم تلك الأخطيط في التراب
 (٣) البيت في ديوان تابط شرأ ١٤٤، والمفضليات ٣١.
 (٤) البيتان في ديوان ذي الرمة ٧٢٠-٧٢١، والتاج (خطط)، والمخصص ٢٠٧/١٣.
 (٥) ديوان النابغة الذبياني ١٣٩، وروايته:

يُخَطِّطُنَ بِالعِيدَانِ فِي كُلِّ مَقْعَدٍ

- (٦) البيتان للقاسم بن أمية في الوحشيات ٢٦١، والحماسة البصرية ١/١٣٤، ومعجم الشعراء ٢١٣،
 ولأمية بن أبي الصلت في ديوانه ٥٠٠-٥٠١، وبلا نسبة في عيون الأخبار ٣/١٥٢، ومجالس
 ثعلب ٣٤٤.

وربما اعترى هؤلاء عدُّ الحصى، إذا كانوا في موضع حصى، ولم يكونوا في موضع تراب، وهو قول امرئ القيس: [من الطويل]

ظَلَلْتُ رِدَائِي فَوْقَ رَأْسِي قَاعِدًا أَعَدُّ الحَصَى مَا تَنْقُضِي حَسْرَاتِي^(١)

وقال أمية بن أبي الصلت: [من الخفيف]

نَهْرًا جَارِيًا وَبَيْتًا عَلِيًّا يَعْتَرِي المَعْتَفِينَ فَضْلُ نَدَاكَ^(٢)

فِي تَرَاحٍ مِنَ المَكَارِمِ جَزَلٍ لَمْ تَعْلَلْهُمْ بِلَقْطِ حَصَاكَ

وقال الآخر، وهو يصف امرأة قُتِلَ زوجها، فهي محزونة تُلَقِّطُ الحصى: [من

الطويل]

وَبِيضَاءَ مَكْسَالٍ كَأَنَّ وَشَاحَهَا عَلَى أُمَّ أَحْوَى المُقَلَّتَيْنِ حَذُولِ

عَقَلْتُ لَهَا مِنْ زَوْجِهَا عَدَدَ الحَصَى مَعَ الصُّبْحِ، أَوْ فِي جُنْحِ كُلِّ أَصِيلِ

يقول: لم أعطها عقلاً عن زوجها، ولم أورثها إلا الهم الذي دعاها إلى لقط الحصى. يخبر أنه لمنعته، لا يوصل منه إلى عقل ولا قود.

٣٦ - [أقوال الشعراء في الخط]

ومما قالوا في الخط، ما أنشدنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي قال: قال

المقنع الكندي^(٣) في قصيدة له مدح فيها الوليد بن يزيد: [من الكامل]

كَالِخَطِّ فِي كُتُبِ الغَلامِ أَجَادَهُ بِمَدَادِهِ، وَأَسَدٌ مِنَ أَقلامِهِ

قَلَمٌ كَخُرطومِ الحِمامَةِ مائِلٌ مُسْتَحْفَظٌ لِلعِلمِ مِنَ عَلامِهِ

يَسِمُ الحِروفَ إِذَا يَشَاءُ بِنِشاءِها لِبِيانِها بِالنَّقْطِ مِنَ أرسامِهِ

مِنْ صُوفَةِ نَفْثِ المِدادِ سُخامِهِ حَتَّى تَغَيَّرَ لَوْنُها بِسُخامِهِ

يَحْفَى فَيُقْصَمُ مِنَ شَعيرةِ أَنفِهِ كَقِلامَةِ الأُظْفُورِ مِنَ قِلامِهِ

وَبأنفِهِ شَقٌّ تِلاءَمُ فَاسْتَوَى سَقِي المِدادِ، فَزادَ فِي تِلاءَمِهِ

مُسْتَعجِمٌ وَهُوَ الفَصيحُ بِكُلِّ ما نَطَقَ اللِّسانُ بِهِ عَلَيِ اسْتِعامِهِ

(١) ديوان امرئ القيس ٧٨.

(٢) ديوان أمية بن أبي الصلت ٤٢٩.

(٣) ديوان المقنع الكندي ٢١٢.

وله تراجمةٌ بالسنة لهم
ما خطَّ من شيء به كتابه
وهجاؤه قاف ولام بعدها
ثم قال:

تبيان ما يتلون من ترجمته
ما إن يبوخُ به على استكثامه
ميم معلقةً بأسفل لأمه

قالت لجارتها الغزِيلُ. إذ رأته
قد كان أبيضَ فاعتراه أذمةٌ
كم من بُوزِلٍ عامها مهريّة
وهبَ الوليدُ برحلهَا وزمامها
وقويرحٍ عتدَ أعدَّ لِنِيهِ
وهبَ الوليدُ بسرَّجها ولجامها
أهدى المقنَّعَ للوليدِ قصيدةً
وله المآثرُ في قریشِ كلِّها

وجهَ المقنَّع من وراء لثامه
فالعينُ تُنكره من أدهيمامه
سُرحَ اليدين ومن بُوزِلٍ عامه
وكذاك ذاك برحله، وزمامه
لبن اللُّفُوحِ فعادَ ملاءَ حزامه
وكذاك ذاك بسرَّجه، ولجامه
كالسيفِ أُرهِفَ حدُّه بحسامه
وله الخِلافةُ بعد موتِ هشامه

وقال الحسن بن جماعة الجذامي في الخط: [من الطويل]

إليكِ بسريّ باتَ يرقلُ عالمٌ
بصيرٌ بما يوحى إليه وما له
كأنَّ ضميرَ القلبِ باحِ بسره
له ريقةٌ من غيرِ فرثٍ تمدّه

أصمُّ الصدى مُحروِفُ السنِّ طائعٌ (١)
لسانٌ ولا أذنٌ بها هو سامعٌ
لديه، إذا ما حثَّحتَهُ الأصابعُ
ولا من ضلوعٍ صَفَّقَتها الأضالعُ

وقال الطائي، يمدح محمد بن عبد الملك الزيات: [من الطويل]

وما برحتُ صوراً إليك نوازعاً
لكَ القلمُ الأعلى الذي بشباته
لكَ الخلواتُ اللاءُ لولا نجيبها
لُعابُ الأفاعي القاتلاتُ لُعابه
له ريقةٌ طلٌّ ولكنَّ وقعها
فصيحٌ إذا استنطقته وهو راكبٌ
إذا ما امتطى الخمسَ اللطَّافَ وأفرغت
أطاعته أطرافُ القنا وتقوَّضتُ

أعنتها مُذُ راسلتك الرسائلُ
يُصابُ من الأمرِ الكليِّ والمفاصلُ
لما احتفلت للملكِ تلكَ المحافلُ
وأرئى الجنى اشتارته أيدٍ عواسلُ
بآثارها في الشرقِ والغربِ وابلُ
وأعجمُ إن خاطبته وهو راجلُ
عليه شعابُ الفكرِ وهي حوافلُ
لنجواه تقويضَ الخيامِ الجحافلُ

(١) الصدى: رجع الصوت، يريد: أن القلم ينطق في الورق دون أن يبدو صدى صوته.

إذا استغزر الذهن الجليّ وأقبلتْ
وقد رفته الخنصران وسدّدتْ
رأيتَ جليلاً شأنه وهو مرهفٌ
أرى ابنَ أبي مروانَ أمّا لقاؤه
أعاليه في القرطاس وهي أسافلُ
ثلاثَ نواحيه الثلاثُ الأناملُ
ضنى وسميناً خطبه وهو ناحلُ
فدانٍ وأمّا الحكمُ فيه فعادلُ

وقد ذكر البُحْثريُّ في كلمةٍ له، بعض كهولِ العسكر، ومن أنبلِ أبناءِ كتابهم
الجلّةِ فقال: [من الكامل]

وإذا دجتْ أقلامه ثم انتحتْ
برقتْ مصابيحُ الدجى في كتبه

٣٧ - [تدوين الكتابات القديمة]

وكانوا يجعلون الكتاب حفراً في الصخور، ونقشاً في الحجارة، وخلقة مركبةً
في البُنيان، فربّما كان الكتابُ هو الناتئ، وربّما كان الكتابُ هو الحفر، إذا كان
تاريخاً لأمرٍ جسيم، أو عهداً لأمرٍ عظيم، أو موعظةً يُرتجى نفعها، أو إحياءَ شرفٍ
يريدون تخليد ذكره، أو تطويل مدته، كما كتبوا على قُبّةِ غمّدان^(١)، وعلى بابِ
القَيْرُوان، وعلى بابِ سَمَرْقند^(٢)، وعلى عمودِ مأرب، وعلى ركنِ المشقَر^(٣)، وعلى
الأبلىقِ القَرْد^(٤)، وعلى بابِ الرها^(٥)، يعمدُون إلى الأماكن المشهورة، والمواضع
المذكورة، فيضعون الخطَّ في أبعادِ المواضع من الدُّثور، وأمنعها من الدروس،
وأجدرَ أن يراها من مرّ بها، ولا تُنسى على وجه الدهر.

٣٨ - [فضل الخطوط]

وأقول: لولا الخطوطُ لبطلتِ العهودُ والشروطُ والسجّلاتُ والصكّاك، وكلُّ

-
- (١) غمدان: قصر بين صنعاء وطبوة، واختلف في اسم بانيه، فقيل: بناه ليشْرَحُ بن يحصب، وقيل:
بناه النبي سليمان لبلقيس. معجم البلدان ٤/ ٢١٠.
- (٢) سمرقند: بلدة عظيمة خلف نهر جيحون، وذكر الأصمعي أنه مكتوب على باب سمرقند
بالحميرية مقدار المسافات بين سمرقند وغيرها من المدن. معجم البلدان ٣/ ٢٤٦ - ٢٥٠.
- (٣) المشقر: حصن بين نجران والبحرين؛ يقال إنه من بناء طسم. وقيل: هو حصن بالبحرين قبل
مدينة هجر. معجم البلدان ٥/ ١٣٤.
- (٤) الأبلىق: هو حصن السموءل بن عادياء اليهودي، مشرف على تيماء بين الحجاز والشام، على رابية
من تراب. معجم البلدان ١/ ٧٥.
- (٥) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام، فيها كنيسة مكتوب على ركن من أركانها «أشد
العذاب تطاول الأعمار في ظل الإقتار». معجم البلدان ٣/ ١٠٦.

إِطْعَامٍ، وَكُلُّ إِتْفَاقٍ، وَكُلُّ أَمَانٍ، وَكُلُّ عَهْدٍ وَعَقْدٍ، وَكُلُّ جَوَارٍ وَحَلْفٍ. وَلِتَعْظِيمِ ذَلِكَ، وَالثِّقَةِ بِهِ وَالِاسْتِنَادِ إِلَيْهِ، كَانُوا يَدْعُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَنْ يَكْتُبُ لَهُمْ ذِكْرَ الْحَلْفِ وَالْهُدْنَةِ، تَعْظِيمًا لِلأَمْرِ، وَتَبْعِيدًا مِنَ النِّسْيَانِ، وَلِذَلِكَ قَالَ الْحَارِثُ بْنُ حِلْزَةَ، فِي شَأْنِ بَكْرِ وَتَغْلِبَ: [مِنَ الْخَفِيفِ]

وَادْكُرُوا حِلْفَ ذِي الْمَجَازِ وَمَا قَدْ دَمَّ فِيهِ الْعَهْدُ وَالْكَفْلَاءُ^(١)

حَذَرَ الْجَوْرِ وَالتَّعَدِّيِّ، وَهَلْ يَنْدُ قَضَى مَا فِي الْمَهَارِقِ الْأَهْوَاءِ!

والمهاريق، ليس يراد بها الصُّحُفُ والكتب، ولا يقال للكتب مهاريق حتى تكون كتب دين، أو كتب عهدٍ وميثاقٍ، وأمان.

٣٩ - [الرقوم والخطوط]

وليس بين الرُّقُومِ والخطوطِ فَرْقٌ، ولولا الرقوم لهلك أصحابُ البزِّ والغزول، وأصحابُ الساجِّ وعمامة المتاجر، وليس بين الوُسُومِ التي تكون على الحافر كَلَّةً والخفِّ كَلَّةً والظِّلْفِ كَلَّةً، وبين الرقومِ فرق، ولا بين العقود والرقومِ فرق، ولا بين الخطوط والرقومِ كَلَّةً فرق، وكلُّها خطوط، وكلها كتابٌ، أو في معنى الخطِّ والكتاب، ولا بين الحروفِ المجموعةِ والمصوِّرةِ من الصوتِ المقطَّعِ في الهواء، ومن الحروفِ المجموعةِ المصوِّرةِ من السوادِ في القرطاسِ فرق.

٤٠ - [اللسان والقلم]

واللسان: يصنع في جُوبَةِ الفمِّ وهوائه الذي في جوفِ الفمِّ وفي خارجه، وفي لُهاة، وباطنِ أسنانه، مثل ما يصنع القلمُ في المدادِ واللَّيْقَةِ والهواءِ والقرطاسِ، وكلُّها صورٌ وعلاماتٌ وخَلَقٌ موائل، ودلالات، فيعرف منها ما كان في تلك الصورِ لكثرةِ ترددها على الأسماع، ويعرف منها ما كان مصوِّراً من تلك الألوان لطول تكرارها على الأبصار، كما استدلُّوا بالضَّحْكِ على السرور، وبالبكاءِ على الألم. وعلى مثل ذلك عرفوا معاني الصوت، وضروبَ صورِ الإشارات، وصورِ جميعِ الهيئات، وكما عرف المجنون لُقبه، والكلبَ اسمه. وعلى مثل ذلك فهم الصبيُّ الزجرَ والإغراء، ووعى المجنون الوعيدَ والتهدُّدَ، وبمثل ذلك اشتدَّ حُضْرُ الدابةِ مع رفع الصوت، حتى

(١) البيتان من معلقته في شرح القصائد السبع ٤٧٨؛ وشرح القصائد العشر ٣٩٢؛ والبيان والتبيين ٧/٣؛ واللسان (جوز).

إذا رأى سائسَه حمحم . وإذا رأى الحمامَ القِيمَ عليه انحطَّ للقطِّ الحبِّ، قبل أن يُلقيَ له ما يلقطه . ولولا الوسومُ ونُقوشُ الخواتم، لدخل على الأموالِ الخللُ الكثير، وعلى خزائنِ الناسِ الضررُ الشديد .

٤١ - [تخليد العرب والعجم لمآثرها]

وليس في الأرض أمةٌ بها طرُق^(١) أو لها مُسكَّة، ولا جيلٌ لهم قبضٌ وبسط، إلا ولهم خطٌّ . فأما أصحاب الملك والمملكة، والسلطان والجباية، والديانة والعبادة، فهناك الكتابُ المتقن، والحساب المحكم، ولا يخرج الخطُّ من الجزم والمسند المنمنم والسمنون كيف كان، قال ذلك الهيثمُ بن عدي، وابن الكلبي .

قال: فكلُّ أمةٍ تعتمدُ في استبقاءِ مآثرها، وتحصين مناقبها، على ضربٍ من الضروب، وشكلٍ من الأشكال .

وكانت العربُ في جاهليَّتها تحتال في تخليدها، بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون، والكلام المقفَّى، وكان ذلك هو ديوانها . وعلى أن الشعرُ يُفيد فضيلةَ البيان، على الشاعر الراغب، والمادح، وفضيلةَ المأثرة، على السيِّد المرغوب إليه، والممدوح به . وذهبت العجمُ على أن تقيِّد مآثرها بالبُنيان، فبنوا مثلَ كردِ بيداد، وبنى أردشير بيضاءِ إصطخر^(٢) . وبيضاء المدائن، والحَضْر، والمدن والحصون، والقناطر والجسور، والنواويس^(٣)، قال: ثمَّ إنَّ العربَ أحبَّت أن تشارك العجمَ في البناء، وتنفرد بالشعر، فبنوا عُمدان، وكعبةَ نجران^(٤)، وقصرَ مارد، وقصر مارب، وقصر شعوب^(٥) والأبلىق الفرد، وفيه وفي مارد، قالوا «تمرَّد ماردٌ وعزَّ الأبلىق»^(٦) وغير ذلك من البُنيان، قال: ولذلك لم تكن الفرسُ تبيح شريفَ البُنيان، كما لا تبيح شريفَ الأسماء، إلا لأهل البيوتات، كصنيعهم في النواويس والحمامات

(١) الطرق: القوة. اللسان: طرق ٢٢٣/١٠ .

(٢) إصطخر من أعيان مدن فارس وكورها، ومن مشهور مدنها البيضاء . (البلدان ١/٢١١)، وسميت البيضاء لأن لها قلعة تبيِّن من بعد؛ ويرى بياضها . (البلدان: ١/٥٢٩) .

(٣) النواويس: جمع ناووس؛ وهي مقابر النصارى . اللسان: نوس .

(٤) كعبة نجران: بيعة بناها بنو عبد المدان بن الديان الحارثي؛ على بناء الكعبة؛ وعظموها مضاهاة للكعبة . وكان فيها أساقفة معتمون . البلدان: ٥/٢٦٨ .

(٥) شعوب: قصر باليمن معروف بالارتفاع . البلدان: ٣/٣٥٠ .

(٦) مجمع الأمثال ١/١٢٦، وجمهرة الأمثال ١/٢٥٧، والمستقصى ٢/٣٢، وفصل المقال ١٣٠، ٤٩٣، والدررة الفاخرة ١/٣٠١ .

والقباب الخضِر، والشَّرْف على حيطان الدار، وكالعَقْد على الدَّهْلِيز وما أشبه ذلك، فقال بعض من حضر: «كُتِبَ الحكماء وما دَوَّنت العلماء من صنوف البلاغات والصناعات، والآداب والأرفاق^(١)، من القرون السابقة والأمم الخالية، ومن له بقیةٌ ومن لا بقیة له، أبقى ذكراً وأرفعُ قدرًا وأكثرُ ردًّا، لأنَّ الحكمةَ أنفعُ لمن ورثها، من جهة الانتفاع بها، وأحسنُ في الأحداث، لمن أحبُّ الذكر الجميل».

٤٢ - [طمس آثار الأمم السالفة]

والكتبُ بذلك أولى من بُنيان الحجارة وحيطان المدر؛ لأنَّ من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم، وأن يُميتوا ذكرَ أعدائهم، فقد هدموا بذلك السبب أكثرَ المدن وأكثرَ الحصون، كذلك كانوا أيامَ العجمِ وأيامَ الجاهليَّة. وعلى ذلك هم في أيام الإسلام، كما هدم عثمانُ صومعةَ عُمدان، وكما هدم الآطام^(٢) التي كانت بالمدينة، وكما هدم زيادٌ كلَّ قصرٍ ومصنَّعٍ كان لابن عامر، وكما هدم أصحابنا بناءَ مدن الشامات^(٣) لبني مروان.

٤٣ - [تاريخ الشعر العربي]

وأما الشعرُ فحديثُ الميلاد، صغير السنِّ، أوَّلُ من نَهَجَ سبيلَه، وسهَّلَ الطريقَ إليه: امرؤ القيس بن حُجر، ومُهَلِّهْل بن ربيعة. وكُتِبَ أرسطاطاليس، ومعلِّمه أفلاطون، ثم بطليموس، وديمقراطس، وفلان وفلان، قبلَ بدءِ الشعرِ بالدهور قبلَ الدهور، والأحقاب قبلَ الأحقاب.

ويدلُّ على حداثة الشعر، قولُ امرئ القيس بن حُجر: [من المنسرح]

إنَّ بني عوفٍ ابتنوا حسناً ضيَّعه الدُّخْلُون إذ غَدَرُوا^(٤)
أدوا إلى جارهم خفارتَه ولم يَضِعْ بالمَغِيبِ مَنْ نَصَرُوا^(٥)

(١) الأرفاق: جمع رفق، وهو ما استعين به. اللسان: رفق.

(٢) الآطام: جمع أطم. وهو كل بيت مربع مسطح، وقيل: هو حصن مبني بحجارة، أو أبنية مرتفعة كالحصون. اللسان: أطم.

(٣) الشامات: كورة كبيرة من نواحي نيسابور، اجتاز بها عبد الله بن عامر بن كريز، فرأى هناك سباخاً فقال: ما هذه الشامات؟ فسميت بذلك. وفيها ما يزيد على «٣٠٠» قرية. (البلدان ٣/٣١١)، وقيل: الشامات خمس، فلسطين ومدينتها بيت المقدس، والأردن ومدينتها طبرية، والغوطة ومدينتها دمشق، وحمص، وقنسرين ومدينتها حلب. (العقد الفريد ٦/٢٥١-٢٥٢).

(٤) ديوان امرئ القيس ١٣٢-١٣٣.

(٥) الخفارة: الذمة والعهد.

لا حَمِيرِيٌّ وَفِي وَلَا عُدَسٌ وَلَا اسْتَعْيِرَ يَحْكُمُهَا الثُّفْرُ
لَكِنْ عَوِيرٌ وَفِي بَدْمَتِهِ لَا قِصْرَ عَابَهُ وَلَا عَوْرٌ

فانظُرْ، كم كان عمرُ زُرارةَ! وكم كان بين موت زُرارةَ ومولد النبي عليه الصلاة والسلام؟! فإذا استظهرنا الشعرَ، وجدنا له - إلى أن جاء الله بالإسلام - خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام.

قال: وفضيلة الشعر مقصورة على العرب، وعلى من تكلم بلسان العرب.

٤٤ - [صعوبة ترجمة الشعر]

والشعر لا يُستطاع أن يترجم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حوّل تقطّع نظمه وبطلَ وزنه، وذهب حسنه وسقطَ موضعُ التعجب، لا كالكلام المنثور. والكلام المنثور المبتدأ على ذلك أحسن وأوقع من المنثور الذي تحوّل من موزون الشعر.

قال: وجميع الأمم يحتاجون إلى الحكم في الدين، والحكم في الصناعات، وإلى كل ما أقام لهم المعاش وبوّ لهم أبواب الفطن، وعرفهم وجوه المرافق؛ حديثهم كقديمهم، وأسودهم كأحمرهم، وبعيدهم كقريبهم؛ والحاجة إلى ذلك شاملة لهم.

وقد نُقلت كتبُ الهند، وترجمت حكم اليونانية، وحوّلت آدابُ الفرس، فبعضها ازدادَ حسناً، وبعضها ما انتقص شيئاً، ولو حوّلت حكمة العرب، لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن، مع أنهم لو حوّلوها لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكره العجم في كتبهم، التي وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم، وقد نُقلت هذه الكتب من أمة إلى أمة، ومن قرن إلى قرن، ومن لسان إلى لسان، حتى انتهت إلينا، وكنا آخر مَنْ ورثها ونظر فيها. فقد صحَّ أن الكتب أبلغ في تقييد المآثر، من البنيان والشعر.

ثم قال بعض مَنْ ينصر الشعر ويحوطه ويحتج له: إنَّ التَّرجُمان لا يؤدِّي أبداً ما قال الحكيم، على خصائص معانيه، وحقائق مذاهبه ودقائق اختصاراته، وخفيات حدوده، ولا يقدر أن يوفيهما حقوقها، ويؤدِّي الأمانة فيها، ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على الجري، وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها، والإخبار عنها على حقها وصدقها، إلا أن يكون في العلم بمعانيها، واستعمال تصاريف ألفاظها، وتأويلات مخارجها، ومثل مؤلف الكتاب وواضعه، فمتى كان رحمه الله تعالى ابنُ

البطريق، وابن ناعمة، وابن قُرّة، وابن فهيرز، وثيفيل، وابن وهيلي، وابن المقفّع، مثل
أرسطاطاليس؟! ومتى كان خالدٌ مثل أفلاطون؟!]

٤٥ - [شرائط الترجمان]

ولا بدّ للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في وزن علمه في نفس
المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها، حتى يكون
فيهما سواءً وغاية. ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم بلسانين، علمنا أنه قد أدخل
الضيم عليهما، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها، وتعرض
عليها. وكيف يكون تمكّن اللسان منهما مجتمعين فيه، كتمكّنه إذا انفرد
بالواحدة، وإنما له قوة واحدة، فإن تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليهما،
وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين، وعلى حساب ذلك تكون الترجمة لجميع
اللغات. وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق، والعلماء به أقل، كان أشدّ على
المترجم، وأجدر أن يخطئ فيه. ولن تجد البتّة مترجماً يفي بواحد من هؤلاء
العلماء.

هذا قولنا في كتب الهندسة. والتنجيم، والحساب، واللحون، فكيف لو كانت
هذه الكتب كتب دين وإخبار عن الله - عز وجل - بما يجوز عليه ممّا لا يجوز عليه،
حتى يريد أن يتكلم على تصحيح المعاني في الطبائع، ويكون ذلك معقوداً
بالتوحيد، ويتكلم في وجوه الإخبار واحتمالاته للوجوه، ويكون ذلك متضمناً بما
يجوز على الله تعالى، ممّا لا يجوز، وبما يجوز على الناس ممّا لا يجوز، وحتى
يعلم مستقرّ العام والخاص، والمقابلات التي تلقى الأخبار العامية المخرّج فيجعلها
خاصية. وحتى يعرف من الخبر ما يخصه الخبر الذي هو أثر، ممّا يخصه الخبر الذي
هو قرآن، وما يخصه العقل مما تخصه العادة أو الحال الرادة له عن العموم، وحتى
يعرف ما يكون من الخبر صدقاً أو كذباً، وما لا يجوز أن يسمّى بصدق ولا كذب؛
وحتى يعرف اسم الصدق والكذب، وعلى كم معنى يشتمل ويجتمع، وعند فقد أي
معنى ينقلب ذلك الاسم، وكذلك معرفة المحال من الصحيح، وأي شيء تأويل
المحال؛ وهل يسمّى المحال كذباً أم لا يجوز ذلك، وأي القولين أفحش: المحال أم
الكذب، وفي أي موضع يكون المحال أفضع، والكذب أشنع؛ وحتى يعرف المثل
والبديع، والوحي والكناية، وفصل ما بين الخطل والهذر، والمقصور والمبسوط
والاختصار، وحتى يعرف أبنية الكلام، وعادات القوم، وأسباب تفاهمهم، والذي

ذكرنا قليلٌ من كثير. ومتى لم يعرف ذلك المترجم أخطأ في تأويل كلام الدين. والخطأ في الدين أضرُّ من الخطأ في الرياضة والصناعة، والفلسفة والكيمياء، وفي بعض المعيشة التي يعيش بها بنو آدم.

وإذا كان المترجم الذي قد ترجم لا يكمل لذلك، أخطأ على قدر نقصانه من الكمال. وما علم المترجم بالدليل عن شبه الدليل؟ وما علمه بالأخبار النجومية؟ وما علمه بالحدود الخفية؟ وما علمه بإصلاح سقطات الكلام، وأسقاط الناسخين للكتب؟ وما علمه ببعض الخطرفة لبعض المقدمات؟ وقد علمنا أن المقدمات لا بد أن تكون اضطرارية، ولا بد أن تكون مرتبة، وكالخيط الممدود. وابن البطريق وابن قرّة لا يفهمان هذا موصوفاً منزلاً، ومرتباً مفصلاً، من معلّم رقيق، ومن حاذق طب فكيف بكتاب قد تداولته اللغات واختلاف الأقلام، وأجناس خطوط الملل والأمم؟!

ولو كان الحاذق بلسان اليونانيين يرمي إلى الحاذق بلسان العربية، ثم كان العربي مقصراً عن مقدار بلاغة اليوناني، لم يجد المعنى والناقل التقصير، ولم يجد اليوناني الذي لم يرض بمقدار بلاغته في لسان العربية بدأً من الاغتفار والتجاوز، ثم يصير إلى ما يعرض من الآفات لأصناف الناسخين، وذلك أن نسخته لا يعدّمها الخطأ، ثم ينسخ له من تلك النسخة من يزيده من الخطأ الذي يجده في النسخة. ثم لا ينقص منه؛ ثم يعارض بذلك من يترك ذلك المقدار من الخطأ على حاله، إذا كان ليس من طاقته إصلاح السقط الذي لا يجده في نسخته.

٤٦ - [تحريف الكتب]

ولربّما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيحاً، أو كلمة ساقطة، فيكون إنشاء عشر ورقات من حرّ اللفظ وشريف المعاني، أيسر عليه من إتمام ذلك النقص، حتى يرده إلى موضعه من اتصال الكلام، فكيف يطيق ذلك المعرض المستأجر. والحكيم نفسه قد أعجزه هذا الباب! وأعجب من ذلك أنه يأخذ بأمرين: قد أصلح الفاسد وزاد الصالح صلاحاً. ثم يصير هذا الكتاب بعد ذلك نسخة لإنسان آخر، فيسير فيه الوراق الثاني سيرة الوراق الأول؛ ولا يزال الكتاب تتداوله الأيدي الجانية، والأعراض المفسدة، حتى يصير غلطاً صرفاً، وكذباً مصمّماً، فما ظنكم بكتاب تتعاقبه المترجمون بالإفساد، وتتوارره الخطاط بشر من ذلك أو بمثله، كتاب متقادّم الميلاد، دهرى الصنعة! (١).

(١) رجل دهري: مَسِينٌ نسب إلى الدهر. اللسان: دهر ٤/ ٢٩٣.

٤٧ - [بين أنصار الكتب وأنصار الشعر]

قالوا: فكيف تكون هذه الكتب أنفع لأهلها من الشعر المقفى؟

قال الآخر: إذا كان الأمر على ما قلت، والشأن على ما نزلتم، أليس معلوماً أنّ شيئاً هذه بقيته وفضلته وسوره وصبايته، وهذا مظهر حاله على شدة الضيم، وثبات قوته على ذلك الفساد وتداول النقص، حري بالتعظيم، وحقيق بالفضيل على البنيان، والتقديم على شعرٍ إن هو حوّل تهاقت، ونفعه مقصور على أهله، وهو يعدّ من الأدب المقصور، وليس بالمبسوط، ومن المنافع الاصطلاحية وليست بحقيقة بيّنة، وكل شيء في العالم من الصناعات والأرفاق والآلات، فهي موجودات في هذه الكتب دون الأشعار، وها هنا كتبٌ هي بيننا وبينكم، مثل كتاب أفليدس، ومثل كتاب جالينوس، ومثل المجسطي، مما تولاه الحجاج، وكتبٌ كثيرة لا تحصى فيها بلاغٌ للناس، وإن كانت مختلفة ومنقوصة مظلومة ومغيّرة، فالباقي كافٍ شافٍ، والغائب منها كان تكميلاً لتسلط الطبائع الكاملة.

فأما فضيلة الشعر فعلى ما حكينا، ومنتهى نفعه إلى حيث انتهى بنا القول.

وحسبك ما في أيدي الناس من كتب الحساب، والطب، والمنطق، والهندسة، ومعرفة اللّحون، والفلاحة، والتجارة، وأبواب الأصباغ، والعطر، والأطعمة، والآلات. وهم أتوكم بالحكمة، وبالمنفعة التي في الحمامات وفي الأصرطلابات^(١) والقرسطونات^(٢) وآلات معرفة الساعات، وصنعة الزجاج والفُسيفساء، والأسرنج^(٣) والزنجفور^(٤) واللازورد^(٥) والأشربة، والأنبيجات^(٦)، والأيارجات^(٧) ولكم المينا،

(١) الأصرطلاب: مقياس للنجوم؛ وهو باليونانية أصرطلابون. وأصطر: النجم، لابون: المرأة. انظر مفاتيح العلوم للخوارزمي ١٣٤، مادة (لوب).

(٢) القرسطون: القبان. انظر النزهة المبهجة للأنطاكي ١٥/١.

(٣) الأسرنج: أسرب يحرق، ويشب عليه النار حتى يحمر. مفاتيح العلوم ١٤٩.

(٤) الزنجفور: صبغ معروف، وهو أحمر يكتب به ويصنغ، قوته كقوة الإسفيداج، وهو معدني ومصنوع، أما المعدني: فهو استحالة شيء من الكبريت إلى معدن الزئبق، وأما المصنوع فأنواع. انظر التاج ٤٥٨/١١ (زن ج ر ف).

(٥) اللازورد: حجر فيه عيون براقه؛ يتخذ منها خرز. مفاتيح العلوم ١٤٨.

(٦) الأنبيجات: جمع أنبيج. وهو حمل شجر بالهند يربب بالعسل على خلقة الخوج؛ محرّف الرأس، وهو لوانان: أحدهما ثمرته في مثل هيئة اللوز، وآخر في هيئة الإجاص، وطعمه كالموز. اللسان: نبيج ٣٧٢/٢.

(٧) الإيارجة: دواء معروف، وهو معجون مسهل للأخلاق. معرب إياره، وتفسيره: الدواء الإلهي. التاج ٢٩١/٦ (ي ر ج).

والنشادر والشَّبه^(١) وتعليق الحيطان والأساطين، وردُّ ما مال منها إلى التقويم. ولهم صبُّ الزردج^(٢)، واستخراج النَّشاستَج^(٣)، وتعليق الخيش، واتِّخاذ الجمَّازات، وعمل الحرَّاقات^(٤)، واستخراج شراب الداذي^(٥) وعمل الدبابات^(٦).

٤٨ - [فضل الحجاج فيما ابتدعه]

وكان الحجَّاجُ أوَّلَ مَنْ أُجْرِيَ فِي الْبَحْرِ السَّفْنِ الْمُقَيَّرَةِ الْمَسْمُورَةِ غَيْرَ الْمَخْرُزَةِ، وَالْمَدْهُونَةِ وَالْمَسْطُوحَةِ، وَغَيْرَ ذَوَاتِ الْجَوْجُو، وَكَانَ أوَّلَ مَنْ عَمِلَ الْمَحَامِلَ^(٧)، وَلِذَا قَالَ بَعْضُ رُجَّازِ الْأَكْرِيَاءِ: [مِنَ الرَّجَزِ]

أوَّلَ خَلَقِي عَمِلِ الْمَحَامِلَا أَخْرَأَهُ رَبِّي عَاجِلًا وَآجِلًا^(٨)

وقال آخر: [مِنَ الرَّجَزِ]

شَيْبَ أَصْدَاغِي فَهَنَّ بِيضُ مَحَامِلٌ لِقَدِّهَا نَقِيضُ^(٩)

وقال آخر: [مِنَ الرَّجَزِ]

شَيْبَ أَصْدَاغِي فَهَنَّ بِيضُ مَحَامِلٌ فِيهَا رِجَالُ قَبْضُ

لو يتكون سنة لم يفرضوا^(١٠)

(١) الشبه: ضرب من النحاس، يلقي عليه دواء فيصفر. اللسان: شبه ٥٠٥/١٣.

(٢) الزردج: اسم للعصفر، معرب عن زرده. التاج ١٢/٦ (زردج).

(٣) في اللسان ٣٢٥/١٥ (نشا): شيء يعمل به الفالودج، فارسي معرب، يقال له النشاستج، حذف شطره تخفيفاً، كما قالوا للمنازل: منا.

(٤) الحرقات: سفن فيها مرامي نيران يرمى بها العدو. التاج: حرق.

(٥) الداذي: شراب للفساق، وهو الخمر. التاج ٤٠٨/٩ (دوذ). وفي اللسان «دوذ»، والتاج «دوذ»: الداذي «الداذي» نبت، وقيل هو شيء له عنقود مستطيل، وحبه على شكل حب الشعير، يوضع منه مقدار رطل في الفرق فتعقب رائحته؛ ويجود إسكاره.

(٦) الدبابات: جمع دبابه، وهي نوع من البرج يجلس ضمنه الجنود المكلفون بمهاجمة أسوار موقع ما. معجم دوزي ٤٢١/١. وانظر رسائل الجاحظ ٦٨/١، ٢١٥/٣.

(٧) ورد هذا القول منسوباً لأبي الحسن في البيان والتبيين ٣٠٣/٢.

(٨) الرجز بلا نسبة في البيان ٣٠٤/٢؛ والتاج (حمل)؛ والجمهرة ٥٦٧؛ والبيت الأول في اللسان (حمل).

(٩) الرجز بلا نسبة في البيان ٣٠٤/٢؛ واللسان والتاج (نقض)؛ والجمهرة ٩١٠.

(١٠) الرجز لرجل من فقيم في اللسان (فرض)؛ ولضب العدو في التاج (فرض)، وبلا نسبة في الأساس (فرض).

وقال القوم: لولا ما عرفوكم من أبواب الحُمْلانات^(١) لم تعرفوا صنعة الشبّه، ولولا غَضَارُ الصين على وجه الأرض لم تعرفوا الغُضَار، على أنّ الذي عمَلْتُم ظاهرٌ فيه التوليد، منقوصُ المنفعة عن تمامِ الصِّينِيّ. وعلى أن الشبّه لم تستخرجوه، وإنّما ذلك من الأمور التي وقعت اتِّفاقاً، لسقوط الناطف^(٢) من يد الأجير في الصُّفْر الذائب، فحَفْتُم إفساده، فلمَّا رأيتم ما أعطاه من اللون عمَلْتُم في الزيادة والنقصان، وكذلك جميعُ ما تهيأ لكم، ولستم تخرُجون في ذلك من أحدِ أمرين: إمّا أن تكونوا استعملتم الاشتقاق من علم ما أورثوكم، وإمّا أن يكون ذلك تهيأً لكم من طريق الاتِّفاق!!

٤٩ - [الجمازات]

وقد علمتم أنّ أوّل شأنِ الجمّازات، أنّ أمّ جعفر أمرت الرّحّالين أن يزيدوا في سيرِ النجبية التي كانت عليها، وخافت فوتَ الرشيد، فلما حرّكت مشّت ضرباً من المشي، وصنوفاً من السير، فجَمَزت في خلال ذلك، ووافقت امرأةً تحسن الاختيار، وتفهم الأمور، فوجدت لذلك الجمز راحةً، ومع الراحة لذّة، فأمرتهم أن يسيروا بها في تلك السيرة، فما زالوا يقربون ويبعدون، ويخطئون ويصيبون، وهي في كلّ ذلك تصوبهم وتخطئهم على قدر ما عرفت، حتى شدّوا من معرفة ذلك ما شدّوا، ثمّ إنّها فرّغتهم لإتمام ذلك حتى تمّ واستوى. وكذلك لا يخلو جميعُ أمركم، من أن يكون اتِّفاقاً، أو اتِّباعَ أثر.

٥٠ - [الترغيب في اصطناع الكتاب]

ثم رجع بنا القولُ إلى الترغيب في اصطناع الكتاب، والاحتجاج على من زرى على واضع الكتب، فأقول^(٣): إنّ من شكر النعمة في معرفة مغاوي الناس ومراشدهم، ومضارهم ومنافعهم، أن يُحتملُ ثقلُ مؤونتهم في تقويمهم، وأن يتوخّى إرشادهم وإن جهلوا فضل ما يُسدّى إليهم، فلن يُصان العلمُ بمثل بذله، ولن تُستبقى النعمة فيه بمثل نشره، على أنّ قراءة الكتب أبلغُ في إرشادهم من تلاقحهم؛ إذ كان مع التلاقي يشتدُّ التصنع، ويكثرُ التظالم، وتُفرط العصبية، وتقوى الحمية، وعند المواجهة والمقابلة، يشتدُّ حبُّ الغلبة، وشهوةُ المباهاة والرياسة، مع الاستحياء من

(١) الحملان في اصطلاح الصاغة: ما يحمل على الدراهم من الغش. التاج (حمل).

(٢) الناطف: نوع من الحلواء، وهو القَبِيط، سمي بذلك لأنه يقطر قبل خثورته. التاج (نطف).

(٣) ورد قوله في كتاب الفتيا؛ ضمن رسائله ١/٣١٥.

الرجوع، والأنفة من الخضوع؛ وعن جميع ذلك تحدث الضغائن، ويظهر التباين. وإذا كانت القلوب على هذه الصفة وعلى هذه الهيئة، امتنعت من التعرف، وعميت عن مواضع الدلالة، وليست في الكتب علة تمنع من درك البغية، وإصابة الحجة، لأن المتوحد بدرسها، والمنفرد بفهم معانيها، لا يباهي نفسه ولا يغالب عقله، وقد عدم من له يباهي ومن أجله يغالب^(١).

٥١ - [الكتاب قد يفضل الكاتب]^(٢)

والكتاب قد يفضل صاحبه، ويتقدم مؤلفه، ويرجع قلمه على لسانه بأمور: منها أن الكتاب يُقرأ بكل مكان، ويظهر ما فيه على كل لسان، ويوجد مع كل زمان، على تفاوت ما بين الأعصار، وتباعد ما بين الأمصار، وذلك أمر يستحيل في واضع الكتاب، والمنازع في المسألة والجواب. ومناقلة اللسان وهدايته لا تجوزان مجلس صاحبه، ومبلغ صوته. وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه، ويذهب العقل ويبقى أثره. ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها، وخلّدت من عجيب حكمتها، ودوّنت من أنواع سيرها، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم، لما حسن حظنا من الحكمة، ولضعف سببنا إلى المعرفة. ولو لجأنا إلى قدر قوتنا، ومبلغ خواطرننا، ومنتهى تجاربنا لما تدرکه حواسنا، وتشاهده نفوسنا، لقلّت المعرفة، وسقطت الهمة، وارتفعت العزيمة، وعاد الرأي عقيماً، والخاطر فاسداً، ولكل الحد وتبدل العقل.

٥٢ - [أشرف الكتب]

وأكثر من كتبهم نفعاً، وأشرف منها خطراً، وأحسن موقفاً، كتب الله تعالى، فيها الهدى والرحمة، والإخبار عن كل حكمة، وتعريف كل سيئة وحسنة. وما زالت كتب الله تعالى في الألواح والصحف، والمهارق^(٣) والمصاحف. وقال الله عز وجل ﴿الْمَ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾^(٤). وقال ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٥). ويقال لأهل التوراة والإنجيل: أهل الكتاب.

(١) ورد هذا القول في رسائله ٢٩٦/٤، مع خلاف يسير.

(٢) انظر رسائل الجاحظ ٢٩٦/٤ - ٢٩٧.

(٣) المهارق: جمع مهرق، وهي الصحيفة البيضاء يكتب فيها، فارسي معرب. اللسان (هرق).

(٤) ١: البقرة/٢.

(٥) ٣٨: الأنعام/٦.

وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا، كسبيل من كان قبلنا فينا. على أننا وقد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا، كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا. فما ينتظر العالم بإظهار ما عنده، وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه، وقد أمكن القول وصلح الدهر وخوى نجم التقيّة^(١)، وهبت ريح العلماء، وكسد العي والجهل، وقامت سوق البيان والعلم!؟

وليس يجد الإنسان في كل حين إنساناً يدرّبه، ومقوماً يثقّفه. والصبر على إفهام الریض شديد، وصرف النفس عن مغالبة العالم أشد منه، والمتعلم يجد في كل مكان الكتاب عتيداً، وبما يحتاج إليه قائماً وما أكثر من فرط في التعليم أيام خمول ذكره، وأيام حدائة سنه!! ولولا جياذ الكتب وحسنها، ومبينها ومختصرها، لما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم، ونزعت إلى حب الأدب، وأنفت من حال الجهل، وأن تكون في غمار الحشو، ولدخل على هؤلاء من الخلل والمضرة، ومن الجهل وسوء الحال، وما عسى ألا يمكن الإخبار عن مقداره، إلا بالكلام الكثير، ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه: «تفقّهوا قبل أن تسودوا»^(٢).

٥٤ - [فائدة كتب أبي حنيفة]

وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن، ويجالس الفقهاء خمسين عاماً، وهو لا يعدّ فقيهاً، ولا يجعل قاضياً، فما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة، وأشبهه أبي حنيفة، ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين، حتى تمرّ ببابه فتظن أنه من باب بعض العمّال، وبالحرّ^(٣) ألا يمرّ عليه من الأيام إلا اليسير، حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار، أو بلد من البلدان.

٥٥ - [ضرورة تنقيح المؤلفات]

وينبغي لمن كتب كتاباً ألا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء، وكلهم عالم بالأمور، وكلهم متفرغ له، ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلاً، ولا يرضى بالرأي الفطير، فإن لابتداء الكتاب فتنة وعجبا، فإذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة،

(١) خوى النجم: اختفى. التقيّة: الحذر والخوف.

(٢) ورد حديث عمر في النهاية ٤١٨/٢، أي تعلموا العلم ما دمتم صغاراً.

(٣) الحر: الخليق.

وتراجعت الأخطا، وعادت النفس وافرة، أعاد النظر فيه، فَيَتَوَقَّفُ عند فصوله توقُّفٌ من يكونُ وزنُ طمعه في السلامة أنقصَ من وزنِ خوفه من العيب، ويتفهَّم معنى قول الشاعر: [من البسيط]

إِنَّ الْحَدِيثَ تَغَرُّ الْقَوْمِ خَلْوَتُهُ حَتَّى يَلِجَ بِهِمْ عِيٌّ وَإِكْثَارُ^(١)

ويقفُ عند قولهم في المثل: «كَلُّ مُجْرٍ فِي الْخَلَاءِ يُسْرٌ»^(٢) فيخاف أن يعتريه ما اعترى مَنْ أحرى فرسه وحده، أو خلا بعلمه عند فقد خصومه، وأهل المنزلة من أهل صناعته.

٥٦ - [الاستطراد في التأليف]

وليعلم أن صاحبَ القلم يعتريه ما يعترى المؤدِّبَ عند ضربه وعقابه، فما أكثر من يعزم على خمسة أسواط فيضرب مائة؟! لأنه ابتداء الضرب وهو ساكن الطباع، فأراه السكون أن الصواب في الإقلال، فلما ضرب تحرك دمه، فأشاع فيه الحرارة فزاد في غضبه، فأراه الغضب أن الرأي في الإكثار، وكذلك صاحب القلم؛ فما أكثر من يبتدئ الكتاب وهو يريد مقدارَ سطرين، فيكتب عشرة! والحفظ مع الإقلال أمكن، وهو مع الإكثار أبعد.

٥٧ - [مفاضلة بين الولد والكتاب]

واعلم أن العاقل إن لم يكن بالمتبِّع، فكثيراً ما يعتريه من ولده، أن يحسن في عينه منه المقبِّح في عين غيره، فليعلم أن لفظه أقرب نسباً منه من ابنه، وحركته أفسُّ به رَحماً من ولده، لأنَّ حركته شيءٌ أحدثه من نفسه وبذاته، ومن عين جوهره فصَّلت، ومن نفسه كانت؛ وإنما الوالد كالمخطئة يتمخَّطها، والنَّخامة يقذفها، ولا سواءٍ إخراجك من جزئك شيئاً لم يكن منك، وإظهارك حركةً لم تكن حتى كانت منك. ولذلك تجد فتنة الرجل بشعره، وفتنته بكلامه وكتبه، فوق فتنته بجميع نعمته.

٥٨ - [لغة الكتب]

وليس الكتابُ إلى شيءٍ أحوجَ منه إلى إفهام معانيه، حتى لا يحتاج السامع لما

(١) البيت لابن هرمة في ديوانه ١٢٤، والبيان ٢٠٣/١، ورسائل الجاحظ ٩٨/٤.

(٢) مجمع الأمثال ١٣٥/٢، والمستقصى ٢٢٩/٢، وفصل المقال ٢٠٣، والأمثال لابن سلام ١٣٦،

والبيان ٢٠٣/١، ورسائل الجاحظ ٣٤٢/١.

فيه من الروية، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشو، ويحطه من غريب الأعراب ووحشي الكلام، وليس له أن يهدبه جداً، وينقحه ويصفيه ويروقه، حتى لا ينطق إلا بلب اللب، وباللفظ الذي قد حذف فضوله، وأسقط زوائده، حتى عاد خالصاً لا شوب فيه؛ فإنه إن فعل ذلك، لم يفهم عنه إلا بأن يجدد لهم إفهاماً مراراً وتكراراً، لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام، وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم إلا بأن يعكس عليها ويؤخذ بها. ألا ترى أن كتاب المنطق الذي قد وسم بهذا الاسم، لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب، لما فهموا أكثره، وفي كتاب إقليدس كلام يدور، وهو عربي وقد صفي، ولو سمعه بعض الخطباء لما فهمه، ولا يمكن أن يفهمه من يريد تعليمه، لأنه يحتاج إلى أن يكون قد عرف جهة الأمر، وتعود اللفظ المنطقي الذي استخرج من جميع الكلام.

٥٩ - [قول صحار العبدى في الإيجاز]

قال معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، لصحار العبدى: ما الإيجاز؟ قال: أن تجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ. قال معاوية: أو كذلك تقول!! قال صحار: أقلني يا أمير المؤمنين! لا تخطئ ولا تبطئ^(١).

فلو أن سائلاً سألك عن الإيجاز، فقلت: لا تخطئ ولا تبطئ، وبحضرتك خالد بن صفوان، لما عرف بالبدية وعند أول وهلة، أن قولك «لا تخطئ» متضمن بالقول، وقولك «لا تبطئ» متضمن بالجواب. وهذا حديث كما ترى آثروه ورضوه، ولو أن قائلًا قال لبعضنا: ما الإيجاز؟ لظننت أنه يقول: الاختصار.

والإيجاز ليس يعنى به قلة عدد الحروف واللفظ، وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار فقد أوجز، وكذلك الإطالة، وإنما ينبغي له أن يحذف بقدر ما لا يكون سبباً لإغلاقه، ولا يردد وهو يكتفي في الإفهام بشطره، فما فضل عن المقدار فهو الخطل.

٦٠ - [صعوبة كتب الأخفش]

وقلت لأبي الحسن الأخفش: أنت أعلم الناس بالنحو، فلم لا تجعل كتبك

(١) ورد حديث صحار ومعاوية في البيان ١/٩٦. مع خلاف.

مفهومة كلها، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم؟! قال: أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله، وليست هي من كتب الدين، ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه، قلت حاجتهم إلي فيها، وإنما كانت غايتي المنالة، فأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم، لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا، وإنما قد كسبت في هذا التدبير، إذ كنت إلى التكبس ذهبت، ولكن ما بال إبراهيم النظام، وفلان وفلان، يكتبون الكتب لله بزعمهم، ثم يأخذها مثلي في مواقفته^(١)، وحسن نظره، وشدة عنايته، ولا يفهم أكثرها؟!

وأقول: لو أن يوسف السمتي، كتب هذه الشروط، أيام جلس سلمان بن ربيعة شهرين للقضاء، فلم يتقدم إليه رجُلان، والقلوب سليمة والحقوق على أهلها موقرة، لكان ذلك خطأ ولغوًا؛ ولو كتب في دهره شروط سلمان، لكان ذلك غرارةً ونقصاً، وجهلاً بالسياسة، وبما يصلح في كل دهر.

٦١ - [مواضع الاستطراد]

ووجدنا الناس إذا خطبوا في صلح بين العشائر أطالوا، وإذا أنشدوا الشعر بين السَّماطين في مديح الملوك أطالوا. وللإطالة موضعٌ وليس ذلك بخطئ، وللإقلال موضعٌ وليس ذلك من عجز.

ولولا أنني أتكل على أنك لا تملُّ بابَ القول في البعير حتى تخرج إلى الفيل، وفي الذرة حتى تخرج إلى البعوضة، وفي العقرب حتى تخرج إلى الحية، وفي الرجل حتى تخرج إلى المرأة، وفي الذبان والنحل حتى تخرج إلى الغربان والعقبان، وفي الكلب حتى تخرج إلى الديك، وفي الذئب حتى تخرج إلى السبع، وفي الظلف حتى تخرج إلى الحافر، وفي الحافر حتى تخرج إلى الخف، وفي الخف حتى تخرج إلى البرثن، وفي البرثن حتى تخرج إلى المخلب، وكذلك القول في الطير وعمامة الأصناف، لرأيت أن جملة الكتاب، وإن كثر عدد ورقه، أن ذلك ليس مما يملُّ، ويُعتدُّ عليّ فيه بالإطالة، لأنه وإن كان كتاباً واحداً فإنه كتب كثيرة، وكلُّ مصحف منها فهو أم على حدة، فإن أراد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأول حتى يهجم على الثاني، ولا الثاني حتى يهجم على الثالث، فهو أبداً مستفيدٌ ومستطرفٌ، وبعضه

(١) الموافقة: الجدل والخصومة.

يكون جَمَاماً لبعض، ولا يزالُ نشاطُه زائداً. ومتى خرج من آي القرآن صارَ إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ثم يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعر إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكمٍ عقليّة، ومقاييس سداد، ثم لا يترك هذا الباب؛ ولعلّه أن يكون أثقلَ، والملاّلُ إليه أسرع، حتّى يفضيَ به إلى مزجٍ وفكاهة، وإلى سُخْفٍ وخرَافة، ولست أراه سُخْفاً، إذ كنتُ إنما استعملتُ سيرة الحكماء، وآداب العلماء.

٦٢ - [مخاطبة القرآن للعرب وبني إسرائيل]

ورأينا الله تبارك وتعالى، إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلامَ مُخْرَجَ الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطبَ بني إسرائيل أو حكى عنهم، جعله مبسوطاً، وزاد في الكلام. فأصوبُ العمل اتّباعُ آثار العلماء، والاحتذاءُ على مثالِ القدماء، والأخذُ بما عليه الجماعة.

٦٣ - [شعر في صفة الكتب]

قال ابن يسير في صفة الكتب، في كلمة له ^(١): [من البسيط]

- | | |
|---|----------------------------------|
| ١- أقبَلْتُ أَهْرَبُ لا آلو مُبَاعِدَةً | في الأرض منهم فلم يُحصني الهربُ |
| ٢- بقصر أوسٍ فما والت خنادقُه | ولا النواويسُ فالماخورُ فالخربُ |
| ٣- فأَيُّما موئلاً منها اعتصمتُ به | فمن ورائي حثيثاً منهمُ الطلبُ |
| ٤- لَمَّا رأيتُ بآني لستُ معجزهمُ | فوتاً ولا هرباً، قرّبتُ أحتجبُ |
| ٥- فصرتُ في البيت مسروراً بهمُ جدلاً | جارَ البراءة لا شكوى ولا شغبُ |
| ٦- فرداً يحدثني الموتى وتنطقُ لي | عن علمٍ ما غاب عني منهمُ الكتبُ |
| ٧- هم مُؤنسون وألأف غنيتُ بهمُ | فليس لي في أنيسٍ غيرهمُ أربُ |
| ٨- لله من جلساءٍ لا جليسهمُ | ولا عشيرهمُ للسوء مرتقبُ |
| ٩- لا بادرات الأذى يخشى رفيقهمُ | ولا يلاقيه منهمُ منطقُ ذربُ |
| ١٠- أبقوا لنا حكماً تبقى منافعها | أخرى الليالي على الأيام وانشعبوا |
| ١١- فأَيُّما آدبٍ منهمُ مددتُ يدي | إليه فهو قريبٌ من يدي كَثَبُ |

(١) الأبيات في ديوان محمد بن يسير ص ٤٤-٤٦، والأبيات (٥، ٦، ٨، ١٠، ١٢، ١٥، ١٨) في بهجة المجالس للقرطبي ١/٥٢، والأبيات (٥، ١٣، ١٥) في ربيع الأبرار ٤/١٨٥، والأبيات (٤-٨) في مروج الذهب ٢/١٨٨.

- ١٢- إن شئتُ من مُحكَم الآثار يرفعُها
 ١٣- أو شئتُ من عَرَبٍ علماً بأولهم
 ١٤- أو شئتُ من سِيرِ الأملاكِ مِنْ عَجَمٍ
 ١٥- حتَّى كأنِّي قد شاهدتُ عصرهم
 ١٦- يا قاتلاً قصرتُ في العلمِ نُهَيْتُهُ
 ١٧- إنَّ الأوائلَ قد بانوا بعلمهم
 ١٨- ما ماتَ منا امرؤُ أبقيَ لنا أدباً

وقال أبو وجزة وهو يصف صحيفةً كُتِبَ له فيها بستينَ وسقاً: [من البسيط]
 راحتُ بستينَ وسقاً في حقيبتها ما إن رأيتُ قلوفاً قبلها حملتُ
 ما حملتُ حملها الأدنى ولا السدداً^(١) ستينَ وسقاً وما جابت به بلدأ
 وقال الراجز: [من الرجز]
 تَعَلَّمَنْ أَنْ الدَوَاةَ وَالقَلَمَ تَبَقَى وَيُفْنِي حَادِثُ الدَّهْرِ الغَنَمَ^(٢)
 يقول: كتابك الذي تكتبه عليّ يبقى فتأخذني به، وتذهب غنمي فيما
 يذهب.

٦٤ - [فضل الكتاب في نشر الأخبار]

ومما يدلُّ على نفع الكتاب، أنه لولا الكتابُ لم يجزُ أن يعلمَ أهل الرقة والموصل وبغداد وواسط، ما كان بالبصرة، وما يحدث بالكوفة في بياض يوم، حتَّى تكون الحادثة بالكوفة غدوة، فتعلمُ بها أهل البصرة قبل المساء.

وذلك مشهورٌ في الحمام الهدى، إذا جعلتُ برداً، قال الله جلَّ وعزَّ - وذكر سليمانَ وملكه الذي لم يؤت أحداً مثله - فقال ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ ﴾^(٣) إلى قوله: ﴿ أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾^(٣) فلم يلبث أن قال الهدهدُ ﴿ جئتُكَ مِنْ سِيبٍ نَبِيًّا يَقِينٍ. إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ، وَأَوْتَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾^(٣) قال سليمان ﴿ أَذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾^(٤) وقد

(١) الأغاني ١٢/١٤٣.

(٢) الرجز بلا نسبة في الجمهرة ٨٤٤. ورواية البيت الثاني في الجمهرة: (تبقى ويودي ما كتبت بالغنم).

(٣) سورة النمل، الآيات ٢٠ - ٢١ - ٢٢ - ٢٣.

(٤) النمل: ٢٨.

كان عنده من يبلغ الرسالة على تمامها، من عفریت، ومن بعض من عنده علم من الكتاب، فرأى أن الكتاب أبهى وأنبل، وأكرم وأفخم من الرسالة عن ظهر لسان، وإن أحاط بجميع ما في الكتاب. وقالت ملكة سبأ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكِ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾^(١). فهذا مما يدل على قدر اختيار الكتب.

٦٥ [تسخير الكتابة لأموال الدين والدنيا]

وقد يريد بعضُ الجلّة الكبار، وبعضُ الأدباء والحكماء، أن يدعو بعض من يجري مجراه في سلطان أو أدب، إلى مأذبة أو ندام^(٢)، أو خروج إلى متنزه، أو بعض ما يشبه ذلك، فلو شاء أن يبلغه الرسول إرادته ومعناه، لأصاب من يحسن الأداء، ويصدق في الإبلاغ، فيرى أن الكتاب في ذلك أسرى وأنبه وأبلغ.

ولو شاء النبي صلى الله عليه وسلم، ألا يكتب^(٣) الكتب إلى كسرى، وقيصر، والنجاشي، والمقوقس، وإلى ابني الجندى، وإلى العباهلة من حمير، وإلى هودّة بن علي، وإلى الملوك والعظماء، والسادة النجباء، لفعل، ولوجد المبلغ المعصوم من الخطأ والتبديل، ولكنه عليه الصلاة والسلام، علم أن الكتاب أشبه بتلك الحال، وأليق بتلك المراتب، وأبلغ في تعظيم ما حواه الكتاب.

ولو شاء الله أن يجعل البشارات على الألسنة بالمرسلين، ولم يودعها الكتب لفعل، ولكنه تعالى وعزّ، علم أن ذلك أتم وأكمل، وأجمع وأنبل.

وقد يكتب بعض من له مرتبة في سلطان أو ديانة، إلى بعض من يشاكله، أو يجري مجراه، فلا يرضى بالكتاب حتى يخزمه ويختمه، وربما لم يرض بذلك حتى يعنونه ويعظمه، قال الله جلّ وعزّ: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾^(٤) فذكر صحف موسى الموجودة، وصحف إبراهيم البائدة المعدومة. ليعرف الناس مقدار النفع، والمصلحة في الكتب.

٦٦ - [نظام التوريث عند فلاسفة اليونانية]

قالوا: وكانت فلاسفة اليونانية، تورث البنات العين، وتورث البنين الدين:

(١) ٢٩: النمل/٢٧.

(٢) الندام: مصدر نادمة، أي جالسة على الشراب.

(٣) رسائل الجاحظ ١/١٨٥، في رسالة فخر السودان على البيضان.

(٤) ٣٧: النجم/٥٣.

وكانت تصل العجز بالكفاية، والمؤونة بالكلفة. وكانت تقول: لا تورثوا الابن من المال، إلا ما يكون عوناً له على طلب المال، واغذوه بحلاوة العلم، واطبعوه على تعظيم الحكمة، ليصير جمع العلم أغلب عليه من جمع المال، وليرى أنه العدة والعتاد، وأنه أكرم مستفاد.

وكانوا يقولون: لا تورثوا الابن من المال إلا ما يسد الخلة، ويكون له عوناً على درك الفضول، إن كان لا بُدَّ من الفضول؛ فإنه إن كان فاسداً زادت تلك الفضول في فساده، وإن كان صالحاً كان فيما أورثتموه من العلم وبقيتهم له من الكفاية، ما يكسبه الحال، فإن الحال أفضل من المال، ولأنَّ المألَّ لم يزل تابعاً للحال. وقد لا يتبع الحال المال. وصاحب الفضول بعرض فساد، وعلى شفا إضاعة، مع تمام الحنكة، واجتماع القوة، فما ظنكم بها مع غرارة الحداثة، وسوء الاعتبار، وقلة التجربة.

وكانوا يقولون: خير ميراث ما أكسبك الأركان الأربعة، وأحاط بأصول المنفعة، وعجل لك حلاوة المحبة، وبقي لك الأحدثة الحسنة، وأعطاك عاجل الخير وآجله، وظاهره وباطنه.

وليس يجمع ذلك إلا كرامُ الكتب النفيسة، المشتملة على ينابيع العلم، والجامعة لكنوز الأدب، ومعرفة الصناعات، وفوائد الأرفاق، وحجج الدين الذي بصحته، وعند وضوح برهانه، تسكن النفوس، وتثلج الصدور. ويعود القلب معموراً، والعزُّ راسخاً، والأصل فسيحاً.

وهذه الكتب هي التي تزيد في العقل وتشحذه، وتداويه وتصلحه، وتهذبه. وتنفي الخبث عنه. وتفيدك العلم. وتصادق بينك وبين الحجَّة، وتعودك الأخذ بالثقة. وتجلب الحال. وتكسب المال.

٦٧ - [وراثه الكتب]

وراثه الكتب الشريفة، والأبواب الرفيعة، منبهة للمورث، وكنز عند الوارث، إلا أنه كنز لا تجب فيه الزكاة، ولا حقُّ السلطان. وإذا كانت الكنوز جامدة، ينقصها ما أخذ منها، كان ذلك الكنز مائعاً يزيد ما أخذ منه، ولا يزال بها المورث مذكوراً في الحكماء ومنوهاً باسمه في الأسماء، وإماماً متبوعاً وعلماً منصوباً، فلا يزال الوارث محفوظاً، ومن أجله محبوباً ممنوعاً، ولا تزال تلك المحبَّة نامية، ما كانت تلك

الفوائد قائمة، ولن تزال فوائدها موجودةً ما كانت الدار دار حاجة، ولن يزال من تعظيمها في القلوب أثر، ما كان من فوائدها على الناس أثر.

وقالوا: من ورثته كتاباً، وأودعته علماً، فقد ورثته ما يُغفل ولا يَسْتَعْلَمُ، وقد ورثته الضيعة التي لا تحتاج إلى إثارة، ولا إلى سقي، ولا إلى إسجال بإيغار^(١)، ولا إلى شرط، ولا تحتاج إلى أكار^(٢)، ولا إلى أن تُثار، وليس عليها عُشر، ولا للسلطان عليها خَرْج. وسواء أفدته علماً أو ورثته آلة علم، وسواء دَفَعُك إليه الكفاية، أو ما يجلب الكفاية. وإنما تجري الأمور وتتصرف الأفعال على قدر الإمكان، فمن لم يقدر إلا على دفع السبب، ولم يجب عليه إحضار المسبب، فكتب الآباء، تحبيب للأحياء، ومحي لذكر الموتى.

وقالوا: ومتى كان الأديب جامعاً بارعاً. وكانت موارثه كتباً بارعة، وآداباً جامعة، كان الولد أجدر أن يرى التعلُّم حظاً، وأجدر أن يسرع التعليم إليه، ويرى تركه خطأً. وأجدر أن يجري من الأدب على طريق قد أنهج له، ومنهاج قد وطئ له. وأجدر أن يسري إليه عرقٌ من نَجَله، وسقي من غرسه، وأجدر أن يجعل بدل الطلب للكسب، النظر في الكتب، فلا يأتي عليه من الأيام مقدارُ الشغل بجمع الكتب، والاختلاف في سماع العلم، إلا وقد بلغ بالكفاية وغاية الحاجة. وإنما تُفسد الكفاية من له تمت آتاه. وتوافت إليه أسبابه، فأما الحدّث الغرير، والمنقوص الفقير، فخير موارثه الكفاية إلى أن يبلغ التمام، ويكمل للطلب. فخير ميراث ورث كتب وعلم، وخير المورثين من أورث ما يجمع ولا يفرق،. ويبصر ولا يعمي. ويعطي ولا يأخذ. ويجود بالكلِّ دون البعض. ويدع لك الكنز الذي ليس للسلطان فيه حق. والركاز^(٣) الذي ليس للفقراء فيه نصيب، والنعمّة التي ليس للحاسد فيها حيلة. ولا للصوص فيها رغبة، وليس للخصم عليك فيه حجّة، ولا على الجار فيه مؤونة.

٦٨ - [أوجه تأليف كتب العلم]

وأما ديمقراط فإنه قال: ينبغي أن يعرف أنه لا بد من أن يكون لكلِّ كتابٍ علمٍ وضعه أحدٌ من الحكماء، ثمانية أوجه: منها الهمة، والمنفعة، والنسبة، والصحة، والصنف، والتأليف، والإسناد، والتدبير، فأولها أن تكون لصاحبه همة، وأن

(١) أسجل الأمر: أطلقه. الإيغار: الأرض التي ليس عليها خراج.

(٢) الأكار: الحرث أو الزراع.

(٣) الركاز: كنوز الجاهلية المدفونة تحت الأرض. النهاية ٢/٢٥٨.

يكون فيما وضع منفعة، وأن يكون له نسبة يُنسَب إليها، وأن يكون صحيحاً، وأن يكون على صنف من أصناف الكتب معروفاً به، وأن يكون مؤتلفاً من أجزاء خمسة، وأن يكون مسنداً إلى وجه من وجوه الحكمة، وأن يكون له تدبير موصوف.

فذكر أن أبقراط قد جمع هذه الثمانية الأوجه في هذا الكتاب، وهو كتابه الذي يسمى (أفوريسمو)، تفسيره كتاب الفصول.

٦٩ - [تشبيه الكلب بالخلق المركب]

وقولك: وما بلغ من قدر الكلب مع لؤم أصله، وخبث طبعه، وسقوط قدره، ومهانة نفسه، ومع قلّة خيره وكثرة شره، واجتماع الأمم كلّها على استسقاطه، واستسفاله، ومع ضربهم المثل في ذلك كلّ به، ومع حاله التي يعرف بها، ومن العجز عن صولة السباع واقتدارها، وعن تمنعها وتشرفها، وتوحّشها وقلّة إسماعها، وعن مسالمة البهائم وموادعتها، والتمكين من إقامة مصلحتها والانتفاع بها، إذ لم يكن في طبعها دفع السباع عن أنفسها، ولا الاحتيال لمعاشها، ولا المعرفة بالمواضع الحريزة من المواضع المخوفة، ولأنّ الكلب ليس بسبع تام، ولا بهيمة تامة، حتى كأنه من الخلق المركّب والطبائع الملقفة، والأخلاق المجتلبة، كالبعغل المتلون في أخلاقه، الكثير العيوب المتولّدة عن مزاجه.

٧٠ - [الطبائع الملقفة] (١)

وشرّ الطبائع ما تجاذبته الأعراف المتضادة. والأخلاق المتفاوتة، والعناصر المتباعدة، كالراعي من الحمام، الذي ذهب عنه هداية الحمام (٢)، وشكل هديره وسرعة طيرانه، وبطل عنه عمر الورشان، وقوّة جناحه وشدة عصبه، وحسن صوته، وشحو (٣) حلقه، وشكل لحونه، وشدة إطرابه، واحتماله لوقع البنادق وجرح المخالب، وفي الراعي أنّه مسرّولٍ مثقل، وحدث له عظمُ بدن، وثقل وزن لم يكن لأبيه ولا لأمه.

وكذلك البغل، خرج من بين حيوانين يلدان حيواناً مثلهما، ويعيش نتاجهما ويبقى بقاءهما، وهو لا يعيش له ولد وليس بعقيم، ولا يبقى للبعغلة ولد وليست

(١) انظر ما سيأتي في الفقرة ٩٩.

(٢) الراعي: هو من نتاج ما بين الورشان والحمام. انظر رسائل الجاحظ ٢/٢٩٧.

(٣) الشحو: الواسع. اللسان (شحو).

بعاقره، فلو كان البغل عقيماً، والبغلة عاقراً، لكان ذلك أزيدَ في قوتهما، وأتمَّ لشدتها، فمع البغل من الشَّبِقِ والنَّعْظِ ما ليس مع أبيه، ومع البغلة من السَّوسِ^(١)، وطلب السِّفادِ، ما ليس مع أمِّها. وذلك كُلُّهُ قدح في القوَّة، ونقص في البنية. وخرج غرموله أعظم من غراميل أعمامه وأخواله، فترك شبههما، ونزع إلى شيء ليس له في الأرض أصل، وخرج أطول عمراً من أبيه، وأصبرَ على الأثقال من أبيه.

أو كابن المذكَّرة من النساء، والمؤنث من الرجال، فإنه يكون أخبث نتاجاً من البغل، وأفسد أعراقاً من السَّمْع، وأكثر عيوباً من العسبار^(٢)، ومن كلِّ خلقٍ خلقٍ إذا تركب من ضدِّه، ومن كلِّ شجرة مُطعمَّة بخلاف^(٣).

وليس يعترِّي مثل ذلك الخِلاسيّ من الدجاج، ولا الورداني^(٤) من الحمام.

وكلُّ ضعف دخل على الخلقة، وكلِّ رقة عرضت للحيوان، فعلى قدر جنسه. وعلى وزن مقداره وتمكنه، يظهر العجزُ والعيب.

وزعم الأصمعيُّ، أنه لم يسبق الحلبه فرسٌ أهضم قط.

وقال محمد بن سلام: لم يسبق الحلبه أبلق قط ولا بلقاء.

والهداية في الحمام، والقوَّة على بعد الغاية^(٥). إنما هي للمصمَّته^(٦) من الخضر.

وزعموا أنَّ الشَّيات كُلُّها ضعف ونقص - والشَّيَّة: كلُّ لون دخل على لون - وقال الله جلَّ وعزَّ: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةً لَّا شِيَّةَ فِيهَا﴾^(٧).

وزعم عثمان بن الحكم أنَّ ابن المذكرة من المؤنث، يأخذ أسوأ خصال أبيه، وأردأ خصال أمه، فتجتمع فيه عظام الدواهي، وأعيان المساوي^(٨)، وأنَّه إذا خرج

(١) سَوِسْت البغلة: اغتلمت. انظر رسائل الجاحظ ٢/٣٢٠.

(٢) السمع: ولد الذئب من الضبع، والعسبار: ولد الضبع من الذئب. انظر رسائل الجاحظ ٢/٢٩٧. وسيذكر الجاحظ ذلك هنا ص ١١٩.

(٣) انظر رسائل الجاحظ ٢/٢٥٦.

(٤) الورداني: طائر متولد بين الورشان والحمام، وله غرابية لون. حياة الحيوان ٢/٤١٤.

(٥) الغاية: المسافة التي يقطعها حمام الزاجل.

(٦) المصمَّته: التي لا يخالط لونها لون آخر.

(٧) ٧١: البقرة/٢.

(٨) ورد قول عثمان بن الحكم في رسائل الجاحظ ٢/٢٥٦.

كذلك، لم ينجح فيه أدب، ولا يطمع في علاجه طبيب، وأنه رأى في دور ثقيف،
فتى اجتمعت فيه هذه الخصال، فما كان في الأرض يوم، إلا وهم يتحدثون عنه
بشيء، يصغر في جنبه أكبر ذنب كان يُنسب إليه!

وزعمت أن الكلب في ذلك كالخنثى، والذي هو لا ذكر ولا أنثى، أو
كالخصي الذي لما قطع منه ما صار به الذكر فحلاً، خرج من حد كمال الذكر
بفقدان الذكر، ولم يكمل لأن يصير أنثى، للغريزة الأصلية، وبقية الجوهرية.

وزعمت أنه يصير كالنبيد الذي يفسده إفراط الحر، فيخرجه من حد الخل،
ولا يدخله في حد النبيد.

وقال مرداس بن خدام: [من الطويل]

سَقِينَا عَقَالاً بِالثَّوِيَّةِ شَرِبَةً فمالت بلب الكاهلي عقال^(١)
فَقَلْتُ اصْطَبِحْهَا يَا عِقَالَ فَإِنَّمَا هي الخمر خيلنا لها بخيال
رَمَيْتُ بِأَمِّ الْخَلِّ حَبَّةَ قَلْبِهِ فلم ينتعش منها ثلاث ليال

فجعل الخمر أم الخل قد يتولد عنها. وقد يتولد عن الخل - إذ كان خمراً مرة
- الخمر.

وقال سعيد بن وهب: [من الكامل]

هَلَاءُ وَأَنْتِ بَمَاءٍ وَجْهَكَ تُشْتَهَى رَوَدَ الشَّبَابِ قَلِيلَ شَعْرِ الْعَارِضِ!
فَالآنَ حِينَ بَدَتْ بِخَدِّكَ لَحِيَةً ذَهَبَتْ بِمَلْحِكِ مِثْلِ كَفِّ الْقَابِضِ
مِثْلَ السَّلَافَةِ عَادَ خَمْرٌ عَصِيرُهَا بَعْدَ اللَّذَازَةِ خَلَّ خَمْرٍ حَامِضِ

ويصير أيضاً كالشعر الوسط، والغناء الوسط، والنادرة الفاترة، التي لم تخرج من
الحر إلى البرد فتضحك السن، ولم تخرج من البرد إلى الحر فتضحك السن.

(١) الثوية: موضع بالكوفة. معجم البلدان ٢/ ٨٧.

باب

ذكر ما يعتري الإنسان بعد الخصاء وكيف ما كان قبل الخصاء

قالوا: كلُّ ذي ریح مُنتنة ، وكُلُّ ذي دَفْرٍ وصُنَانٍ كَرِيه المِشْمَةِ، كالنَّسْر وما أشبهه، فَإِنَّهُ متى خُصِي نَقَصَ نَتْنُهُ وَذَهَبَ صُنَانُهُ، غَيْرَ الْإِنْسَانِ، فَإِنَّ الْخُصِيَّ يَكُونُ أَتْنَنَ، وَصُنَانُهُ أَحَدٌ، وَيَعْمُ أَيْضاً خَبَثُ الْعِرْقِ سَائِرِ جَسَدِهِ، حَتَّى لَتُوجَدَ لِأَجْسَادِهِمْ رَائِحَةٌ لَا تَكُونُ لغيرهم . فهذا هذا .

وكلُّ شيءٍ من الحيوان يُخْصِي فَإِنَّ عَظْمَهُ يَدُقُّ، فَإِذَا دَقَّ عَظْمُهُ اسْتَرَخَى لِحْمِهِ، وَتَبَرَّأَ مِنْ عَظْمِهِ، وَعَادَ رَخِصاً رَطْباً، بَعْدَ أَنْ كَانَ عَضَلاً صُلْباً، وَالْإِنْسَانُ إِذَا خُصِيَ طَالَ عَظْمُهُ وَعَرِضَ، فَخَالَفَ أَيْضاً جَمِيعَ الْحَيَوَانَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .

وتعرض للخصيان أيضاً طول أقدامٍ، واعوجاج في أصابع اليد، والتواء في أصابع الرِّجْلِ، وذلك من أوَّلِ طَعْنِهِمْ فِي السِّنِّ . وتعرض لهم سرعة التغيُّر والتبدُّل، وانقلاب من حدِّ الرطوبة والبضاضة وملاسة الجلد، وصفاء اللون ورقته، وكثرة الماء وبريقه، إلى التكرُّش والكمود، وإلى التقبُّض والتخدُّد، وإلى الهُزال، وسوء الحال . فهذا الباب يعرض للخصيان، ويعرض أيضاً لمعالجي النبات من الأكرة من أهل الزرع والنخل، لأنَّكَ ترى الخصيَّ وكانَّ السيفَ تلمع في لونه، وكانَّه مرآةً صينيَّةً، وكانَّه وذيلة مجلوة، وكانَّه جُمارةً رَطْبَةً، وكانَّه قضيبُ فضةٍ قد مسَّه ذهب، وكانَّه في وجناته الورد، ثم لا يلبثُ كذلك إلا نُسَيْفَاتٍ^(١) يسيرةً، حتى يذهبَ ذلك ذهاباً لا يعود، وإن كان ذا خِصْبٍ، وفي عيش رَعْدٍ، وفي فراغٍ بالٍ، وقَلَّةٍ نَصَبٍ .

٧١ - [طرائف عبد الأعلى القاص]

وكان من طرائف ما يأتي به عبد الأعلى القاص، قوله في الخصي، وكان لغلبة

١- النسيفات: المراد بها الوقت القليل.

السلامة عليه يُتوهَّم عليه الغفلة، وهو الذي ذكر الفقير مرة في قصصه فقال^(١):
الفقير مرقتة سُلقة، ورداؤه عِلقة، وجَرَدَقته فِلقة، وسمكته سِلقة، وإزاره خرقة^(٢).

قالوا: ثمَّ ذكر الخَصِيَّ فقال: إذا قُطعت خُصيته، قَويت شَهوته وسُخنت مَعِدته، ولانَتْ جِلدته، وانجردت شَعْرته، وأتسعت فَفَحته، وكثرت دمعته!!

وقالوا: الخصيُّ لا يصلع كما لا تصلع المرأة، وإذا قطع العضو الذي كان به فحلا تاماً، أخرجته ذلك من أكثر معاني الفحول وصفاتهم، وإذا أخرجته من ذلك الكمال، صيِّره كالبعول الذي ليس هو حماراً ولا فرساً، وتصير طباعه مقسومة على طباع الذكر والانثى، وربما لم يخلص له الخلق ولم يصف، حتى يصير كالخلق من أخلاق الرجال، أو يلحق بمثله من أخلاق النساء، ولكنه يقع ممزوجاً مركباً، فيخرج إلى أن يكون مذبذباً، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. وربما خرجت النتيجة وما يولده التركيب، عن مقدار معاني الأبوين، كما يجوز عمر البغل عمر أبويه، وكذلك ما عددنا في صدر هذا الكلام.

٧٢ - [طلب النسل]

وقالوا: وللإنسان قوى معروفة المقدار، وشهوات مصروفة في وجوه حاجات النفوس، مقسومة عليها. لا يجوز تعطيلها وترك استعمالها ما كانت النفوس قائمة بطبائعها ومزاجاتها وحاجاتها. وباب المنكح من أكبرها، وأقواها، وأعمها.

ويدخل في باب المنكح ما في طبائعهم من طلب الولد، وهو باب من أبوابهم عظيم؛ فمنهم من يطلبه للكثرة والنصرة، وللحاجة إلى العدد والقوة، ولذلك استلظت العربُ الرجال، وأغضت^(٣) على نسب المولود على فراش أبيه، وقد أحاط علمه بأنه من الزوج الأول. قال الأشهب بن رُميلة: [من البسيط]

قال الأقاربُ لا تفرُّكُ كثرتنا وأغن نفسك عنَّا أيها الرجل^(٤)

(١) ورد قول عبد الأعلى في البخلاء ١٠٦، عيون الأخبار ٤٦/٢.

(٢) (السُلقة): الجرادة، لعله يريد أنه يجتزئ من المرق بالقليل منه؛ حتى إنه ليكفيه مرق جرادة واحدة. و(العِلقة): شجر يبقى في الشتاء تتبلغ به الإبل حتى تدرك الربيع. (الفِلقة): الكسرة. (الجردقة): الرغيف. (الشِلقة): شيء على خلفة السمكة، صغير له رجلان عند ذنبه كرجل الضفدع، لا يدين له، يكون في أنهار البصرة.

(٣) أغضت: سكتت.

(٤) البيتان للأشهب بن رُميلة في ديوانه ٢٣٧، والبيان ٦٦/٣، وهما لنهشل بن حري في ديوانه ١١٨-١١٩، والوحشيات ١١٨.

عَلَّ بَنِيَّ يَشِدُّ اللَّهُ كَثْرَتَهُمْ وَالنَّبْعُ يَنْبِتُ قُضْبَانًا فَيَكْتَهَلُ

وقال الآخر: [من الرجز]

إِنَّ بَنِيَّ صَبِيَّةٌ صَفِيُّونَ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ رِبْعِيُونَ^(١)

يشكو كما ترى صِغَرَ البنين، وضعف الأسر.

وما أكثر ما يطلب الرجل الولدَ نفاسةً بماله على بني عمه، ولإشفاقه من أن تليه القضاة وترتع فيه الأمناء، فيصير ملكاً للأولياء، ويقضي به القاضي الذمام ويصطنع به الرجال.

وربما همَّ الرجلُ بطلب الولد لبقاء الذكر، وللرغبة في العقب، أو على جهة طلب الثواب في مباحة المشركين، والزيادة في عدد المسلمين، أو للكسب والكفاية، وللمدافعة والنصرة، وللامتناع، وبقاء نوع الإنسان، ولما طبع الله تعالى تعالى بني آدم عليه، من حبِّ الدُّرَّةِ وكثرة النسل، كما طبع الله تعالى الحمام والسنانير على ذلك، وإن كان إذا جاءه الولد زاد في همِّه ونصبه، وفي جُبْنِه وبخله، وقد قال النبي ﷺ: «الْوَلَدُ مَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ مَجْهَلَةٌ»^(٢) فيحتمل في الولد المؤمن المعروفة، والهموم الموجودة لغير شيء قصد له، وليس في ذلك أكثر من طلب الطباع، ونزوع النفس إلى ذلك.

وذكر أبو الأخرز الحِمَّاني غير العانة بخلاف ما عليه أصحابُ الزَّواج من الحيوان، فقال عند ذكر سيفاده: [من الرجز]

* لَا مَبْتَغِي الذَّرءَ وَلَا بِالْعَازِلِ *

لأنَّ الإنسانَ من بين الحيوان المَزْاوجِ، إذا كره الولدَ عزَلَ، والمزواج من أصناف الحيوانات إنما غايتها طلبُ الذَّرءِ والولد. لذلك سُخِّرَتْ، وله هيئت، لما أراد الله تعالى من إتمام حوائج الإنسان. والحمارُ لا يطلبُ الولدَ، فيكون إفراغُه في الاتان لذلك، ولا إذا كان لا يريد الولدَ عزَلَ كما يعزل الإنسان، غير أن غايته قضاء الشهوة فقط، ليس يخطُرُ على باله أن ذلك الماء يُخلَقُ منه شيء.

وروى ابن عون عن محمد بن سيرين عن عبدة قال: «ليس في البهائم شيء يعمل عمل قوم لوط إلا الحمار».

(١) الرجز لسعد بن مالك بن ضبيعة في اللسان والتاج (ربيع)، وللاشم الصيفي في التاج (صيف)،

وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٣٧١/٢، والجمهرة ٣١٧، والمقاييس ٣٢٦/٣ والمخصص ٣٠/١.

(٢) الحديث في النهاية ١٠٣/١، وغريب ابن الجوزي ١٨٢/١-١٨٣.

وعامةً اكتساب الرجال وإنفاقهم، وهمهم وتصنعهم، وتحسينهم لما يملكون،
 إنما هو مصروفٌ إلى النساء والأسباب المتعلقة بالنساء، ولو لم يكن إلا التَّمَنُّصُ
 والتطَيُّبُ والتطوُّسُ والتَّعْرُسُ^(١) والتخضُّبُ، والذي يُعدُّ لها من الطيب والصَّبْغِ،
 والحَلِيِّ، والكِسَاءِ، والفُرْشِ، والآنية، لكان في ذلك ما كفى. ولو لم يكن له إلا
 الاهتمامُ بحفظها وحراستها، وخوفُ العارِ من جنائتها والجنابة عليها، لكان في ذلك
 المؤنَّةُ العظيمة، والمشقة الشديدة.

٧٣ - [سبب شره الخصي]

فإذا بطل العضو الذي من أجله يكون اشتغالُ النفس بالأصناف الكثيرة، من
 اللذة والألم، فباطرارٍ أن تعلمَ أن تلك القوى لم تبطل من التركيب، ولم تعدمها
 الخلقة، وإنما سُدَّ دونها بسدٌّ، وأدخل عليها حجاب، فلا بدُّ لها إذا كانت موجودةً
 من عمل، لأنَّ عملَ كلِّ جوهرٍ لا يُعدم إلا بعدم ذاته، فإذا صرِّفت من وجه فاضت من
 وجه. ولا سيما إذا جمت ونازعت، ولا بدُّ إذا زخرت وغزرت، وطغت وطمَّت، من أن
 تفيض أو تفتح لنفسها باباً، وليس بعد المنكح بابٌ له موقعٌ كموقع المطعم، فاجتمعت
 تلك القوى التي كانت للمنكح وما يشتمل عليه باب المنكح، إلى القوة التي عنده
 للمطعم، فإذا اجتمعت القوتان في باب واحد كان أبلغ في حكمه، وأبعد غايةً في
 سبيله، ولذلك صار الخصيُّ أكلَ من أخيه لأمه وأبيه، وعلى قدر الاستمراء يكون
 هضمه، وعلى قدر حاجة طبعه وحركة نفسه والحرارة المتولدة عن الحركة يكون
 الاستمراء، لأن الشهوة من أمتن أبواب الاستمراء، والحركة من أعظم أبواب الحرارة.

٧٤ - [شدة نهم الإناث]

ودوامُ الأكل في الإناث أعمُّ منه في الذكور، وكذلك الحجرُ دون الفرس،
 وكذلك الرمكة دون البردُون، وكذلك النعجة دون الكبش، وكذلك النساءُ في
 البيوت دون الرجال. وما أشكُّ أن الرجلُ يأكلُ في المجلس الواحد ما لا تأكل المرأة،
 ولكنها تستوفي ذلك المقدار وتُرَبِّي عليه مقطوعاً غير منظوم، وهي بدوام ذلك منها،
 يكون حاصلُ طعامها أكثر. وهن يناسبن الصبيان في هذا الوجه، لأنَّ طبع الصبيِّ
 سريعُ الهضم، سريعُ الكلب، قصيرُ مدَّة الأكل، قليلُ مقدار الطعم، فللمرأة كثرةُ
 معاودتها، ثم تبين بكثرة مقدار المأكول. فيصير للخصي نصيبان: نصيبه من شبه

(١) التَّمَنُّصُ: نتف الشعر. التطوُّسُ: التزوين. التعرسُ: التودد.

النساء، ثم اجتماع قوى شهوتييه في بابٍ واحد، أعني شهوة المنكح التي تحولت، وشهوة المطعم.

قال، وقيل لبعض الأعراب: أي شيء أكل؟ قال: برذونة رغوثة^(١).

ولشدة نهم الإناث، صارت اللبوة أشدَّ عراًماً وأنزق، إذا طلبت الإنسان لتأكله، وكذلك صارت إناث الأجناس الصائدة أصيد، كالإناث من الكلاب والبزاة وما أشبه ذلك، وأحرص ما تكون عند ارتضاع جرائها من أطبائها، حتى صار ذلك منها سبباً للحرص والنهم في ذلك.

٧٥ - [صوت الخصي]

ويعرض له عند قطع ذلك العضو تغيير الصوت، حتى لا يخفى على من سمعه من غير أن يرى صاحبه أنه خصي، وإن كان الذي يخاطبه ويناقله الكلام أخاه أو ابن عمه، أو بعض أترابه من فحولة جنسه، وهذا المعنى يعرض لخصيان الصقالبة أكثر ممَّا يعرض للخراسانية، وللسودان من السنن والحبشان. وما أقل من تجده ناقصاً عن هذا المقدار، إلا وله بيضة أو عرق، فليس يحتاج في صحته تمييز ذلك، ولا في دقة الحس فيه، إلى حذق بقيافة، بل تجد ذلك شائعاً في طباع السفلة والغثراء^(٢)، وفي أجناس الصبيان والنساء.

٧٦ - [شعر الخصي]

ومتى خصي قبل الإنبات لم يُنبت، وإذا خصي بعد استحكام نبات الشعر في مواضعه، تساقط كله إلا شعر العانة، فإنه وإن نقص من غلظه ومقدار عدده فإن الباقي كثير. ولا يعرض ذلك لشعر الرأس، فإن شعر الرأس والحاجبين وأشعار العينين يكون مع الولادة، وإنما يعرض لما يتولد من فضول البدن.

وقد زعم ناس أن حكم شعر الرأس خلاف حكم أشعار العينين، وقد ذكرنا ذلك في موضعه من باب القول في الشعر، وهذه الخصال من أماكن شعر النساء والخصيان والفحولة فيه سواء، وإنما يعرض لسوى ذلك من الشعر الحادث الأصول، الزائد في النبات. ألا ترى أن المرأة لا تصلح، فناسبها الخصي من هذا الوجه، فإن

(١) رغوثة: مرضعة. والخبر في رسائل الجاحظ ٢/ ٣٤٠ «كتاب البغال» والبيان ٣/ ٢١٢.

(٢) الغثراء: سفلة الناس.

عرض له عارضٌ فإنما هو من القرع، لا من جهة النزع والجَلح، والجَلح والصلع^(١) وكذلك النساء في جميع ذلك .

والمرأة ربّما كان في قِصاصٍ مقاديرٍ شعرٍ رأسها ارتفاع، وليس ذلك بنزعٍ ولا جَلح، إذا لم يكن ذلك حادثاً يحدثه الطعنُ في السنّ .

وتكون مقاطعُ شعرٍ رأسه ومنتهى حدود قِصاصه، كمقاطع شعر المرأة ومنتهى قِصاصها، وليس شعرها كلما دنا من موضع الملاسة والانجراد يكون أرقاً حتى يقلُّ ويضمحلُّ، ولكنه ينبتُ في مقدار ذلك الجلد على نبات واحد، ثم ينقطع عند منتهاه انقطاعاً واحداً . والمرأة ربّما كانت سبلاءً، وتكون لها شعراتٌ رقيقة زَغَبِيَّةٌ كالعذار موصولاً بأصداغها، ولا يعرض ذلك للخِصْي إلا من علة في الخِصَاء، ولا يرى أبداً بعد مقطوع من صُدغِيه شيءٌ من الشَّعر، لا من رقيقه ولا من كثيفه .

٧٧ - [ذوات اللحي والشوارب]

وقد توجد المرأة ذات لحية . وقد رأيت ذلك، وأكثرُ ما رأيتُه في عجائزِ الدهاقين، وكذلك الغُيب^(٢) والشارب، وقد رأيت ذلك أيضاً . وهي ليست في رأي العين بخُنْثَى، بل نَجدها أنثى تامّة . إلا أن تكون لم تضرب في ذلك بالسبب الذي يقوى، حتى يظهر في غير ذلك المكان . ولا تعرض اللحي للنساء، إلا عند ارتفاع الحيض، وليس يعرض ذلك للخِصْي .

وقد ذكر أهلُ بغداد، أنه كان لابنة من بنات محمد بن راشد الخنّاق، لحيّة وافرة، وأنها دخلت مع نساءٍ متنقباتٍ إلى بعض الأعراس لتتري العرس وجلوة العروس، ففطنت لها امرأة فصاحت: رجلٌ واللّه! وأحال الخدم والنساء عليها بالضرب، فلم تكن لها حيلةٌ إلا الكشف عن فرجها . فنزعن عنها وقد كادت تموت .

ويفضل أيضاً الخِصْيُ المرأة في الانجراد والزعر، بأن تجد المرأة زبَاءً^(٣) الذراعين والساقين، وتجد ركب^(٤) المرأة في الشعر كأنه عانة الرجل، ويعرض لها الشعر في إبطينها وغير ذلك .

(١) في فقه اللغة للثعالبي ٦١: «إذا انحسر الشعر عن جانبي جبهته فهو أنزع . فإذا زاد قليلاً فهو أجلح، فإذا بلغ الانحسارُ نصف رأسه فهو أجلى وأجله . فإذا زاد فهو أصلع، والفرق بين القرع والصلع أن القرع ذهاب البشرة، والصلع ذهاب الشعر منها» .

(٢) الغيب: الجلد الذي تحت الحنك . اللسان: غيب ٦٣٧/١ .

(٣) الزبَاء: الكثير الشعر . اللسان: زب .

(٤) الركب: العانة، وقيل منبتها . وقيل: الركب: ظاهر الفرج؛ أو الفرج نفسه . اللسان: ركب

٤٣٣/١ - ٤٣٤ .

ولا يعرض للخصي ما يعرض للديك إذا خصي: أن يذبل غضروف عُرْفِه
ولحيته.

والخصاء ينقص من شدة الأسر، وينقص مبرم القوى، ويُرخي معاقِد العصب،
ويقرب من الهرم والبلَى.

٧٨ - [مشي الخصي]

ويعرض للخصي أن يشتدّ وقع رجله على أرض السطح، حتى لو تفقدت وقع
قدمه وقدم أخيه الفحل الذي هو أعبل^(١) منه لوجدت لوقعه ووطئه شيئاً لا تجده
لصاحبه. وكان العضو الذي كان يشدّ توتير النساء، ومعاقِد الوركين ومعاليق
العصب، كما بطل وذهب الذي كان يمسكه ويرفعه، فيخفّ لذلك وقع رجله، صار
كالذي لا يتماسك ولا يحمل بعضه بعضاً.

٧٩ - [أثر الخصاء في الذكاء]

ويعرض له أن أخوين صقلبيين من أمّ وأب، لو كان أحدهما توعم أخيه، أنه
متى خصي أحدهما خرج الخصي منهما أجود خدمة، وأفطن لأبواب المعاطاة
والمناولة، وهو لها أتقن وبها أليق، وتجده أيضاً أذكى عقلاً عند المخاطبة، فيخصّ
بذلك كلّه، ويبقى أخوه على غثارة^(٢) فطرته، وعلى غباوة غريزته، وعلى بلاهة
الصقلبيّة، وعلى سوء فهم العجميّة.

ويد الإنسان لا تكون أبداً إلا خرقاء، ولا تصير صناعاً ما لم تكن المعرفة ثقافاً
لها. واللسان لا يكون أبرأ، ذاهباً في طريق البيان، متصرفاً في الالفاظ، إلا بعد أن
تكون المعرفة متخلّلة به، منقلّة له، واضعة له في مواضع حقوقه، وعلى أماكن
حظوظه، وهو علّة له في الأماكن العميقة، ومصرفة له في المواضع المختلفة.

فأول ما صنع الخصاء بالصقلبيّ تركية عقله، وإرهاق حده، وشحد طبعه،
وتحريك نفسه. فلما عرف كانت حركته تابعة لمعرفته، وقوته على قدر ما هيّجه.

فأمّا نساء الصقالبة وصبيانهم، فليس إلى تحويل طبائعهم، ونقل خلقهم إلى
الفتنة الثاقبة، وإلى الحركة الموزونة، وإلى الخدمة الثابتة الواقعة بالموافقة، سبيل.

(١) أعبل: أضخم.

(٢) الأغثر: الاحمق.

وعلى حسب الجهل يكون الخُرْق، وعلى حسب المعرفة يكون الحذق. وهذا جملة القول في نسائهم، وعلى أنهم لا حظوظ لهم عند الخلوة، ولا نفاذ لهم في صناعة؛ إذ كن قد منعن فهم المعاطاة ومعرفة المناولة.

والخصيان مع جودة آلاتهم ووقارة طبائعهم في معرفة أبواب الخدمة. وفي استواء حالهم في باب المعاطاة، لم تر أحداً منهم قط نفاذ في صناعة تنسب إلى بعض المشقة، وتضاف إلى شيء من الحكمة، مما يعرف ببعد الروية، والغوص بإدامة الفكرة، إلا ما ذكروا من نفاذ ثقف في التحريك للأوتار، فإنه كان في ذلك مقدماً، وبه مذكوراً. إلا أن الخصي من صباه، يحسن صناعة الدابوق^(١). ويجيد دعاء الحمام الطوري^(٢). وما شئت من صغار الصناعات.

وقد زعم البصريون أن حديجاً الخصي، خادم المثنى بن زهير، كان يجاري المثنى في البصر بالحمام. وفي صحة الفراسة، وإتقان المعرفة، وجودة الرياضة. وسنذكر حاله في باب القول في الحمام إن شاء الله تعالى.

هذا قولهم فيمن خصي من الصقالبة. وملوكنا لعقول خصيان خراسان أحمد، وهم قليل، ولذلك لم نأت من أمرهم بشيء مشهور، وأمر مذكور.

٨٠ - [خصيان السند]

وأما السند، فلم يكن فيهم أيضاً من الخصيان إلا النفر الذين كان خصاهم موسى بن كعب، وقد رأيت أنا بعضهم، وزعم لي أنه خصي أربعة هو أحدهم، ورأيت الخصاء، قد جذبه إلى حب الحمام، وعمل التلك^(٣)، والهراش بالديوك، وهذا شيء لم يجبر منه على عرق، وإنما قاده إليه قطع ذلك العضو.

٨١ - [خصيان الحبشة والنوبة والسودان]

فأما الخصيان من الحبشان والنوبة وأصناف السودان، فإن الخصاء يأخذ منهم ولا يعطيهم، وينقصهم ولا يزيدهم، ويحطهم عن مقادير إخوانهم، كما يزيد الصقالبة عن مقادير إخوانهم، لأن الحبشي متى خصي سقطت نفسه، وثقلت حركته، وذهب نشاطه، ولا بد أن يعرض له فساد، لأنه متى استقصي جبابه لم

(١) الدابوق: غراء يصاد به الطير. التاج (دبق).

(٢) الحمام الطوري: الحمام الوحشي.

(٣) التلك: جمع تكة، وهي رباط السراويل.

يتماسك بوله، وسلّس مخرجه، واسترخى الممسك له، فإن هم لم يستقصوا جبابه، فإنما يدخل الرجل منزله من له نصف ذلك العضو. وعلى أنك لا تجد منهم خصباً أبداً، إلا وبسرته بجرّة^(١)، ونفخة شنيعة، وذلك عيب شديد، وهو ضرب من الفتق، مع قبّحه في العين، وشنّته في الذكّر. وكل ما قبّح في العين فهو مؤلم، وكل ما شنع في النفس فهو مؤذ. وما أكثر ما تجد فيهم الألطع^(٢)، وذلك فاش في باطن شفاههم. ومتى كانت الشفاه هُدلاً، وكانت المشافر منقلبة، كانت أظهر للطّغ، وهو ضرب من البرص. والبياض الذي يعرض لغراميل الخيل وخصاها، ضرب أيضاً من البرص، وربما عرّض مثل ذلك لحشفة قضيب المختون، إمّا لطّيع الحديد^(٣)، وإمّا لقرب عهده بالإحداد وسقي الماء، إلا أن ذلك لا يعدو مكانه.

وكلما عظمت الحشفة انبسط ذلك البياض على قدر الزيادة فيها، وإنما ذلك كالبياض الذي يعرض من حرّق النار وتشبيطها، وكالذي يعرض للصقالبية من التّعالج بالكوي^(٤). وربما اشتدّ بياضه حتى يفحش ويرديه، إلا أنه لا يفشو ولا ينتشر، إلا بقدر ما ينبسط مكانه، ويتحوّل صاحبه رجلاً، بعد أن كان صبيّاً. وليس كالذي يعرض من البلغم ومن المرّة. وبعض البرص يذهب حتى كأنه لم يكن، وبعضه لا يذهب ولا يقف، بل لا يزال يتفشّى ويتسع حتى ربّما سلخه، ولا يذهب إلا بأن يذهب به نبي، فيكون ذلك علامة له. ومن البهق الأبيض ما يكاد يلحق بالبرص، ولكن الذي هو أمره الذي ترون من كثرة برء الناس منه.

ثمّ الخصاء يكون على ضروب، ويكون في ضروب، فمن ذلك ما يعرض بعد الكبر للأحرار، كما يعرض للعبيد، وللعرب كما يعرض للعجم، كما خصّى بعض عبّاهلة اليمن علقمة بن سهل الخصي.

٨٢ - [علقمة الفحل وعلقمة الخصي]

وإنما قيل لعلقمة بن عبدة الفحل، حين وقع على هذا اسم الخصي. وكان عبداً صالحاً، وهو كان جنب الجدليل وداعراً^(٥)، الفحلين الكريمين، إلى عمان،

(١) البجرة: خروج السرة وغلظ أصلها. اللسان (بجر).

(٢) اللطع: ضرب من البرص، وهو يصيب بواطن شفاه الخصيان من الحبشان. انظر البرصان والعرجان ص ٤٠.

(٣) البرصان والعرجان ص ٤٠.

(٤) البرصان والعرجان ص ٣٩. وانظر في المصدر نفسه أسماء من اكتوتوا فبرصوا ص ٥٤ - ٥٥.

(٥) الجدليل: فحل للنعمان بن المنذر، والداعر: فحل منجب، جنبه: قاده.

وكان من نازليها. وهو كان أحدَ الشهودِ على قُدامةِ بنِ مَطْعُونِ في شربِ الخمرِ، وهو الذي قال لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «تَقَبَّلْ شَهَادَةَ الْخَصِيِّ؟» قال: «أما شهادتك فأقبلُ». وهو عَلْقَمَةُ بن سَهْلِ بنِ عمارَةَ، فلَمَّا سَمَوْهُ الْخَصِيَّ، قالوا لعلْقَمَةَ ابن عبدة: الفحل. وعلقمةُ الخصيِّ، الذي يقول: [من الطويل]

فلن يَعْدَمَ الباقون قَبراً لَجَثَّتِي ولن يَعْدَمَ الميراثُ مِنِّي المواليا^(١)
 حِراسٌ على ما كنتُ أَجمَعُ قَبْلَهُمْ هَنِيئاً لَهُمْ جَمْعِي وما كنتُ واليا
 ودَلَّيْتُ في زوراءَ ثُمَّتِ أَعْنَقُوا لشانِهِمْ قَدْ أَفْرَدُونِي وشانِيا
 فأصبحَ مالي من طريفٍ وتالِدٍ لغيري، وكانَ المالُ بالأمسِ ماليا

وكما عَرَضَ للدُّلالِ ونومَةَ الضُّحَى، مِنْ خِصاءِ عُثْمانَ بنِ حِيانَ المَرِّيِّ والي المدينة لهما. بكتابِ هشامِ بن عبد الملك^(٢).

٨٣ - [أثر تحريف كتاب هشام بن عبد الملك]

فَمِنْ بني مروان من يدَّعي أنَّ عاملَ المدينة صَحَّفَ، لأنه رأى في الكتاب: «أَحْصِ مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْمُخَنَّثِينَ» فقرأها: «أَخْصِ مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْمُخَنَّثِينَ». وذكر الهيثمُ عن الكاتب الذي تولَّى قراءة ذلك الكتاب، أَنَّهُ قال: وكيف يقولون ذلك ولقد كانت الخاء معجمةً بنقطة، كأنها سهيل أو تَمْرَةٌ صِيحانية^(٣)؟! فقال اليعقوبي: ما وجَّهَ كتابِ هشامٍ في إحصاءِ عددِ المُخَنَّثِينَ؟ وهذا لا معنى له، وما كان الكتابُ إلا بالخاء المعجمة دون الخاء المهمله.

وذكر عن مشايخ من أهل المدينة أنهم حكوا عنهما أنهما قالوا: الآن صِرْنَا نساءً بالحق!! كأنَّ الأمرَ لو كان إليهما لاختارا أن يكونا امرأتين! قال: وذكر أنهما

(١) الأبيات من قصيدة لمالك بن الريب في ذيل أمالي القاضي القالي ١٣٥، والخزانة ١٧٦/٢ - ١٨٠ (بولاق).

(٢) الخبر في الأغاني ٢٧٣/٤ - ٢٧٤، في فصل: «ذكر الدلال وقصته حين خصي». واسم الدلال: «ناقد»، وكنيته: أبو زيد، وهو مدني مولى بني فهم، وقيل: مولى عائشة بنت سعيد بن العاص. وفي الأغاني أن الخليفة الذي أرسل الكتاب هو سليمان بن عبد الملك.

(٣) الصيحاني: ضرب من تمر المدينة، أسود صلب الممضعة. وسمي صيحانياً لأن صيحان اسم كبش كان ربط إلى نخلة بالمدينة، فاثمرت تماًراً صيحانياً، فنسب إلى صيحان. اللسان: صيح ٥٢٢/٢. وفي الأغاني ٢٧٤/٤ «فرايت على الخاء نقطة كتمرة العجوة».

خرجا بالخصلتين من الخصاء والتخنيث، من فُتورِ الكلام ولين المفاصل والعظام، ومن التفكُّك والتثني، إلى مقدار لم يروا أحداً بلغه، لا من مخنثات النساء، ولا من مؤنثي الرجال.

٨٤ - [أبو همام السنوط]

وكما عرَضَ لأبي همام السنوط من امتلاخ اللُّحْمِ^(١) مذاكيره وخصييه، أصابه ذلك في البحر في بعض المغازي، فسقطت لحيته، ولقّب بالسنوط، وخرَجَ لذلك نهماً وشراً.

وقال ذات يوم: لو كان النخلُ بعضه لا يحمل إلا الرطب، وبعضه لا يحمل إلا التمر، وبعضه لا يحمل إلا المجزَع، وبعضه لا يحمل إلا البُسْر، وبعضه لا يحمل إلا الخلال، وكنا متى تناولنا من الشُمراخ بُسرةً، خلقَ الله مكانها بُسرتين، كما كان بذلك باس! ثم قال: استغفرُ الله! لو كنتُ تمنيتُ أن يكونَ بدل نواةِ التمر زُبدة كان أصوب!!

ومنه ما يعرض من جهة الأوجاع التي تعرض للمذاكير والخصيتين، حتى ربما امتلخهما طبيبٌ، وربما قطع إحداهما، وربما سقطتا جميعاً من تلقاء أنفسهما.

٨٥ - [نسل منزوع البيضة اليسرى]

والعوام يزعمون أن الولدَ إنما يكونُ من البيضة اليسرى^(٢). وقد زعمَ ناسٌ من أهل سليمان بن عليٍّ ومواليهم، أن ولدَ داود بن جعفر الخطيب المعتزلي، إنما وُلد له بعد أن نُرِعت بيضته اليسرى، لأمراً كان عرض له.

والخصيُّ الطيَّان. الذي كان في مسجد ابن رغبان، وُلد له غلام، وكان ليس له إلا البيضة اليمنى، فجاء أشبه به من الذباب بالذباب والغراب بالغراب، ولو أبصره أجهلُ خلقِ الله تعالى بفراصة، وأبعدهم من قيافة، ومن مخالطة النحاسين، أو من مجالسة الأعراب، لعلم أنه سُلأته وخلاصته، لا يحتاج فيه إلى مجرِّز المدلجي، ولا إلى ابن كريب الخزاعي.

(١) اللخم: ضرب من سمك البحر. (اللسان: لخم). وفي حياة الحيوان ٣٠٥/٢ «ضرب من السمك ضخم، يقال له الكوسج؛ وهو القرش».

(٢) البيان ٣٣٠/١.

ومن أهل الملل من يَخْصِي ابنه ويقفه على بيت العبادة، ويجعله سادناً، كصنيع الروم، إلا أنهم لا يُحدثون في القضيبي حدثاً، ولا يتعرضون إلا للأنثيين، كأنهم إنما كرهوا لأولادهم إحيال نسائهم ورواهبهم فقط!! فأما قضاء الوطر وبلوغ اللذة، فقد زعموا أنهم يبلغون من ذلك مبلغاً لا يبلغه الفحل، كأنهم يزعمون أنه يستقصي جميع ما عندها ويستجلبه، لقرط قوته على المطاولة.

وكلُّ خصاءٍ في الدنيا فإنما أصله من قِبَل الروم، ومن العجب أنهم نصارى، وهم يدعون من الرأفة والرحمة، ورقة القلب والكبد، ما لا يدعيه أحد من جميع الأصناف، وحسبك بالخصاء مثلاً! وحسبك بصنيع الخاصي قسوة! ولا جرم أنهم بعثوا على أنفسهم من الخصيان، من طلب الطوائل وتذكر الأحقاد، ما لم يظنوه عندهم، ولا خافوه من قبلهم، فلا هم ينزعون، ولا الخصيان ينكحون، لأن الرماية فيهم فاشية، وإن كان الخصي أسواراً^(١) بلغ منهم، وإن كان جمع مع الرماية الثروة، واتخذ بطرسوس، وأذنة الضياع واصطنع الرجال، واتخذ العقْد^(٢) المغلة فمضرة كل واحد منهم عليهم، تفي بمضرة قائد ضخم. ولم تر عداوة قط تجوز مقدار عداوتهم لهم، وهذا يدل على مقدار فرط الرغبة في النساء، وعلى شهوة شديدة للمباضعة، وعلى أنهم قد عرفوا مقدار ما فقدوا، وهذه خصلة كريمة مع طلب المثوبة، وحسن الأحداث.

فأما الصابئون، فإن العابد منهم ربما خصى نفسه. فهو في هذا الموضع قد تقدم الرومي، فيما أظهر من حسن النية، وانتحل من الديانة والعبادة، بخصاء الولد التام، وبإدخاله النقص على النسل، كما فعل ذلك أبو المبارك الصابي. وما زال خلفاؤنا وملوكنا يبعثون إليه، ويسمعون منه، ويسمر عندهم، للذي يجدونه عنده من الفهم والإفهام، وطرف الأخبار، ونوادير الكتب، وكان قد أربى على المائة، ولم أسمع قط بأغزل منه، وإن كان يصدق عن نفسه فما في الأرض أزنى منه.

(١) الأسوار: بالضم وبالكسر: قائد الفرس، وقيل: الجيد الرمي بالسهم، وقيل: هو الجيد الثبات على

ظهر الفرس، أو هو: الفارس من فرسان الفرس المقاتل. اللسان (سور ٤/ ٣٨٨).

(٢) العقْد: جمع عقدة، وهي الضيعة.

حدَّثني محمد بن عباد قال: سمعته يقول - وجرى ذكرُ النساءِ ومحلَّهن من قلوب الرجال، حتَّى زعموا أنَّ الرجلَ كلما كانَ عليهنَّ أحرصَ كانَ ذلكَ أدلَّ على تمامِ الفُحولةِ فيه، وكانَ أذهبَ له في الناحية التي هي في خلقتِه ومعناه وطبعه، إذ كانَ قد جُعِلَ رجلاً ولم يُجعلِ امرأةً - قال ابنُ عبادٍ، فقال لنا: ألسنتم تعلمون أنَّي قد أربيتُ على المائة، فينبغي لمن كانَ كذلكَ أن يكونَ وهنُ الكِبَرِ، ونفاذُ الذُّكْرِ، وموتُ الشهوةِ، وانقطاعُ ينبوعِ النطفةِ، قد أَماتَ حنينه إلى النساءِ وتفكيره في الغزلِ؟! قال: قلنا: صدقت. قال: وينبغي أن يكونَ مَنْ عودَ نفسه تركهنَّ مُدداً، وتخلَّى عنهنَّ سنينَ ودهراً، أن تكونَ العادةُ وتمارينُ الطبيعةِ، وتوطينُ النفسِ، قد حطَّ من ثقلِ منازعةِ الشهوةِ، ودواعي الباءةِ، وقد علمتم أنَّ العادةَ التي هي الطبيعةِ الثانيةِ، قد تستحكمُ ببعضِ عمدِ هَجْرٍ لملامسةِ النساءِ. قال: قلنا: صدقت. قال: وينبغي أن يكونَ مَنْ لم يذُقْ طعمَ الخلوةِ بهنَّ ولم يجالسهنَّ متبذلاتٍ، ولم يسمَعْ حديثهنَّ وخلايتهنَّ للقلوبِ، واستمالتهنَّ للأهواءِ، ولم يرهنَّ منكشفاتِ عارياتٍ، إذا تقدمَ له ذلكَ مع طولِ التَّركِ، ألا يكونَ بقيَ معه من دواعيهنَّ شيءٌ؟! قال: قلنا: صدقت. قال: وينبغي أن يكونَ لِمَنْ قد علمَ أنه محبوبٌ. وأنَّ سببه إلى خِلاطهنَّ محسومٌ، أن يكونَ اليأسُ من أمتنِ أسبابه إلى الزهدِ والسلوةِ. وإلى موتِ الخواطرِ. قال: قلنا: صدقت. قال: وينبغي أن يكونَ من دعاهُ الزُّهدُ في الدنيا، وفيما يحتويه النساءُ مع جمالهنَّ وفتنةِ النُّسَّاكِ بهنَّ، واتخاذِ الأنبياءِ لهنَّ، إلى أن خَصِيَ نفسه. ولم يُكرهه عليه أبٌ ولا عدوٌّ، ولا سبَّاه سابٌ، أن يكونَ مقدارُ ذلكَ الزهدِ هو المقدارِ الذي يُميتُ الذُّكْرَ لهنَّ، ويُسرِّي عنه ألمَ فقدِ وجودهنَّ، وينبغي لمن كانَ في إمكانه أن ينشئَ العزمَ ويختارَ الإرادةَ التي يصيرُ بها إلى قطعِ ذلكَ العضوِ الجامعِ لكبارِ اللذاتِ، وإلى ما فيه من الألمِ، ومع ما فيه من الخطرِ، وإلى ما فيه من المثلَّةِ والنَّقْصِ الداخِلِ على الخلقةِ، أن تكونَ الوسواسُ في هذا البابِ لا تعرَّوه، والدواعي لا تقرَّوه. قال: قلنا: صدقت. قال: وينبغي لِمَنْ سَخَتْ نفسه عن السُّكْنِ وعن الولدِ، وعن أن يكونَ مذكوراً بالعقبِ الصالحِ، أن يكونَ قد نسيَ هذا البابَ، إن كانَ قد مرَّ منه على ذُكْرِ. هذا وأنتم تعلمون أنَّي سَمَلْتُ عيني يومَ خَصَّيتُ نفسي، فقد نسيْتُ كيفيةَ الصُّورِ وكيفِ تَرُوعِ، وجَهَلتُ المرادَ منها، وكيفِ تُرادُ، أفما كانَ مَنْ كانَ كذلكَ حَرِيّاً أن تكونَ نفسه ساهيةً لاهيةً مشغولةً بالبابِ الذي أحتملَ له هذه المكاره؟! قال: قلنا: صدقت. قال: أو لو لم أكنُ هَرِمًا، ولم يكنْ ها هنا طولُ اجتنابِ.

وكانت الآلة قائمةً أليس في أنني لم أذُق حيواناً منذُ ثمانينَ سنة ولم تمتلِ عُروقي من الشرابِ مخافةَ الزيادة في الشهوة. والنقصان من العزم - أليس في ذلك ما يقطع الدواعي، ويُسكن الحركة إن هاجت؟! قال: قلنا: صدقت. قال: فإني بعدَ جميع ما وصفتُ لكم، لأسمعُ نعمةَ المرأةِ فأظنُّ مرةً أنّ كَبدي قد ذابت، وأظنُّ مرةً أنّها قد انصدعت، وأظنُّ مرةً أنّ عقلي قد اختلس، وربما اضطرب فُوادي عند ضحكٍ إحداهنَّ، حتّى أظنُّ أنّه قد خرجَ من فمي، فكيف ألومُ عليهنَّ غيري؟!

فإن كان - حفظك الله تعالى - قد صدقَ على نفسه في تلك الحال، بعد أن اجتمعت فيه هذه الخصال، فما ظنُّك بهذا قبل هذا الوقت بنحو ستين سنة أو سبعين سنة؟! وما ظنُّك به قبل الخصاء بساعة؟! وليس في الاستطاعة ولا في صفة الإمكان، أن يحتجز عن إرادة النساء، ومعه من الحاجة إليهنَّ والشهوة لهنَّ هذا المقدار! الله تعالى أرحمُ بخلقه، وأعدلُ على عباده، من أن يكلفهم هجرانَ شيءٍ، قد وصله بقلوبهم هذا الوصلَ، وأكّده هذا التأكيد.

وقد خصى نفسه من الصابئين رجالاً، قد عرفناهم بأسمائهم وأنسابهم، وصفاتهم وأحاديثهم. وفي الذي ذكرنا كفايةً إن شاء الله تعالى.

٨٩ - [استئذان عثمان بن مظعون في الخصاء]

وقد ذُكر أنّ عثمانَ بنَ مظعون، استأذَنَ النبي صلى الله عليه وسلم في السياحة فقال: «سِيَاحَةُ أُمَّتِي الْجَمَاعَةِ»^(١). واستأذَنَه في الخصاء فقال: «خِصَاءُ أُمَّتِي الصُّومِ، وَالصُّومِ وَجَاءُ»^(٢). فهذا خِصَاءُ الدِيَانَةِ.

٩٠ - [خصاء الجلب]

فأمّا من خصى الجلب^(٣) على جهة التجارة، فإنه يَجِبُ القُضيبُ، ويمتلخ الأنثيين، إلا أن تقلصت إحداهما من قُرطِ الفَرْعِ، فتصيرُ إلى موضعٍ لا يمكن رُدُّها إلا بعلاج طويل، فللبخاصي عند ذلك ظلمٌ لا يفي به ظلم، وظلم يربي على كلِّ ظلم، لأنّه عند ذلك لا يحفل بفوت المتقلص، ويقطع ما ظهر له، فإن برئ محبوب القُضيب أو ذأ بيضة واحدة، فقد تركه لا امرأة ولا رجلاً ولا خِصياً، وهو حينئذٍ ممن تخرُجُ لحيته، وممن لا يدعه الناسُ في دُورهم ومواضع الخُصوص من بيوتهم، فلا

(١) في النهاية ٤٣٣/٢ «سياحة هذه الأمة الصيام». ولم أجد الحديث كما ذكره الجاحظ.

(٢) أخرج البخاري في كتاب الصوم، الحديث ١٨٠٦: «من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء.»

(٣) الجلب: ما يجلب من خيل وسواها.

يكونُ مع الخَصِيانِ مَقْرَباً ومَكْرَماً، وَخَصِيْبَ العَيْشِ مَنْعَماً، ولا هو إِذا رُمِيَ به في الفحول، كان له ما للفحول من لَذَّةِ غَشِيانِ النِّساءِ، ومن لَذَّةِ النِّسْلِ والتمتَع بِشَمِ الأولادِ؛ فلم يَزَلْ عِنْدَ الفحولِ مَسْتَضَعِفاً مَحْتَقِراً، وَعِنْدَ الخَصِيانِ مَجْرَحاَ مَطْرَحاَ، فهو أَسوأَ حالاً من السَّدَمِ المَعْنَى^(١) فلا أَعْلَمُ قَتْلَهُ - إِذا كان القَتْلُ قَتْلَةً صَريحةَ مُريحة - إِلا أَصغَرَ عِنْدَ اللّهِ تَعالَى، وأَسهَلَ عَلى هذا المَظْلومِ من طَولِ التَّعذِيبِ. واللّهُ تَعالَى بِالمرْصادِ.

٩١ - [أنواع خصاء البهائم]

وأما خصاء البهائم، فمنه الرجاء، وهو أن يشدَّ عَصَبُ مجامعِ الخُصِيَةِ من أصلِ القُضيبِ، حتَّى إِذا نَدَرَتِ البَبيضةُ، وَجَحَظَتِ الخُصِيَةُ، وَجَأَها حتَّى يَرْضَها، فهي عِنْدَ ذلك تَذُبُّلٌ وتَنخِيفٌ، وتَدَوِيٌّ وتَسْتَدِقُّ، حتَّى تَذهَبَ قُوَّها، وتَنسَدُّ المِجاري إِليها، وَيَسري ذلك الفِسادُ إِلى مَوضعِ تَربيَةِ النُّطْفَةِ، فيمنَعُها من أن تَكثُرَ أو تَعذبَ أو تَحْثُرَ. ومنها ما يَكونُ بِالشَّدِّ والعَصَبِ، وشَدَّةِ التَّحْزِيقِ، والعَقْدِ بالخِيطِ الشَّدِيدِ الوَتِيرِ الشَّدِيدِ القَتْلِ، فَإِذا تَرَكَه عَلى ذلك عَمِلَ فِيهِ وَحزٌّ، أو أَكَلٌ وَمَنَعَهُ من أن يَجْزِيَ إِليه الغِذاءُ، فلا يَلبُثُ أن يَنقَطِعَ وَيَسْقَطَ.

ومنه الامتلاخ، وهو امتلاخ البيضتين.

٩٢ - [خصاء الناس]

فأما خصاء الناس، فإنَّ لِلخاصي حَديدَةً مَرهَفَةً مُحَمَّاةً، وهي الحاسمة، وهي القاطعة. قال أبو زيد: يقال خَصَيْتِ الدابةَ أَخَصِيها خِصاءً، وَوَجَّأَها أَجْؤُها وَجاءَ. وَيقال: بَرِئْتُ إِليكِ من الخِصاءِ أو الوِجاءِ، ولا يُقالُ ذلك إِلا لَمَّا كان قَريبَ العَهدِ لَم يَبْرأَ مِنْه، فَإِذا بَرِئَ لَم يُقالَ لَهُ.

وأما الخِصاءُ فهو أن يَسْلُ الخُصِيَتينِ، والوِجاءُ أن تَوجَّ العَرقُ والخِصِيَتانِ عَلى حالِهما. والمَعصوبُ مِنَ التَّيوسِ الَّذي تُعَصَّبُ خُصِيَتاهُ حتَّى تَسْقَطَا. والواحدُ مِنَ الخِصِيانِ خِصِيٌّ ومَخْصِيٌّ. وَيقالُ مَلَسْتُ الخِصِيَتينِ أَمَلَسُهما مَلْساً، وَمَتَنَّتُهما أَمَتَنَّتُهما مَتناً، وَذلكُ أن تَشقَّ عَنهما الصَّفَنَ فَتَسَلُّهُما بِعَروِقِهما. والصَّفَنُ: جِلْدَةُ الخُصِيَتينِ.

(١) السدم: الذي يرغب عن فعلته، فيحال بينه وبين ألافه، ويقيد إذا هاج، فيرعى حوالي الدار، وإن صال جعل له حجام يمنعه عن فتح فمه. اللسان: سدم.

والخصاءُ في أحداث البهائم، وفي الغنم خاصةً، يدع اللحمَ رخصاً وندياً عذباً، فإنَّ خصاه بعد الكبر، لم يقوَ خصاؤه - بعد استحكام القوة - على قلب طباعه. وأجود الخصاء ما كان في الصغرة، وهو يسمَّى بالفارسية ثربخت يُعنى بذلك أنه خصي رطباً. والخصيُّ من فحولها أحملٌ للشحم، لعدم الهيج والنَّعْظ، وخروج قواه مع ماء الفحلة. وكثرة السَّفاد تورث الضَّعْفَ والهزالَ في جميع الحيوان. وقد ذُكِرَ لمعاوية كثرة الجماع فقال: ما استهتر به أحدٌ إلا رأيت ذلك في منته (١).
والديك يُخصي ليرطب لحمه ويطيب ويحمل الشحم.

٩٤ - [خصاء العرب لفحولة الإبل]

وكانت العرب تُخصي فحولة الإبل لئلا يأكل بعضها بعضاً، وتستبقي ما كان أجودَ ضرباً، وأكثرَ نسلًا، وكلُّ ما كان مثنائاً وكان شاباً ولم يكن مذكاراً، وهم يسمون الإذكار المحقَّ الحقي. وما كان منها عيائاً طباقاً، فمنها ما يجعل السدم المعنى. وإذا كان الفحل لا يتخذ للضراب، شدوا ثيله شداً شديداً، وتركوه يهدر ويُقبقب في الهجمة. ولا يصل إليهنَّ وإن أردنه، فإذا طلبنَّ الفحلَ جيءَ لهنَّ بفحلٍ قعسري^(٢) ويقولون: «لقوة لاقت قبيساً!»^(٣). والقبيس من الجمال: السريع الإلقاح، واللَّقوة: السريعة القبول لماء الفحل.

وشكت امرأة زوجها. وأخبرت عن جهله بإتيان النساء. وعيَّه وعجزه. وأنه إذا سقط عليها أطبق صدره - والنساء يكرهنَّ وقوع صدور الرجال على صدورهن - فقالت: زوجي عيائاً طباقاً، وكلُّ داءٍ لهُ داءٌ^(٤)!! وقال الشاعر: [من الطويل]
طباقاً لم يشهدْ خصوماً ولم يقْدُ
ركاباً إلى أكواريها حينَ تعكف^(٥)

(١) الخبر في رسائل الجاحظ ٢/٣٠٤ «كتاب البغال»، والبيان ٢/٨١، وعيون الأخبار ٤/٩٦.

(٢) القعسري: الجمل الضخم الشديد. اللسان: قعسر ٥/١٠٩.

(٣) من الأمثال في مجمع الأمثال ٢/١٣١، وجمهرة الأمثال ٢/١٨٤، والمستقصى ٢/٢١٢، وفصل المقال ٢٦١، والأمثال لابن سلام ١٧٦.

(٤) هذا القول من حديث طويل روته عائشة عن إحدى عشرة امرأة، وأخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب حسن المعاشرة، الحديث ٤٨٩٣. وورد القول في البيان ١/١٠٩، وهو لام زرع في النهاية ٣/١١٤.

(٥) البيت لجميل بن معمر في ديوانه ١٣٨، واللسان (طبق)، والمقاييس ٣/٤٤٠، والمخصص ١٦/٧٣، وتهذيب اللغة ٩/١٠، وبلا نسبة في البيان ١/١١٠ وجمهرة اللغة ١٢٢٩.

٩٥ - [خصاء العرب للخيل]

وكانوا يَخْصُون الخيل لشبيهه بذلك، ولعلَّة صهيلها ليلة البَيَات، وإذا أكمنا الكُمَّاء أو كانوا هُرَّاباً.

٩٦ - [الخنذيد]

ويزعم من لا علم له، أنَّ الخنذيد في الخيل هو الخصي^(١). وكيف يكون ذلك كما قال، مع قول خُفَّاف بن نُدْبَة: [من الخفيف]

وخناذيد خصيةً وفُحولاً^(٢)

وقال بشرُّ بن أبي خَازم: [من الوافر]

وخنذيد تَرَى الغُرْمُولَ مِنْهُ كَطِيِّ البُرْدِ يَطْوِيهِ التَّجَارُ^(٣)

وليس هذا أرادَ بشرُّ، وإنَّما أرادَ زمانَ الغزو، والحال التي يعتري الخيل فيها هذا

المعنى، كما قال جد الأحييمر: [من مجزوء الكامل]

لا لا أعقُّ ولا أحوُّ ب ولا أُغِيرُ على مُضَرٍّ^(٤)

لكنَّما غزوي إذا ضجَّ المَطِيُّ من الدَّبَرِ

وإنَّما فخر بالغزو في ذلك الزمان.

وأما الخنذيد فهو الكريم التام، وربَّما وصفوا به الرجل. وقال كثير: [من الطويل]

على كل خنذيد الضُّحَى متمطرٌ وخَيْفَانَةٌ قد هدَّبَ الجريُّ آلها^(٥)

وقال القطامي: [من الطويل]

على كلِّ خنذيد السَّراةِ مُقلِّصٍ تخنَّتْ مِنْهُ لحمه المتكاوسُ^(٦)

(١) ورد القول في البيان ١١/٢.

(٢) صدر بيت وعجزه: «وبراذين كابيأت وأتناً». والبيت في ديوان خفاف ٥٣٧، وللبرجمي في البيان ١١/٢، وللنايعة الذبياني في ديوانه ١٧٠، وكتاب العين، ولخفاف بن عبد القيس في اللسان والتاج (خند)، وبلا نسبة في المخصص ١٦٥/٦، ٢٦٤/١٣، وتهذيب اللغة ٣٢٥/٧.

(٣) البيت في ديوان بشر ٧٦، واللسان والتاج (خند، غرمل)، والبيان ١١/٢، والأضداد ٤٩. وعجزه في الديوان: «كطي الزق علقه التجار»، والتجار: جمع تاجر.

(٤) البيت في البيان ٢٠٠/٣.

(٥) البيت في ديوانه ٨٢.

(٦) البيت في ديوان القطامي ١٥١. وروايته:

(على كل محبوبك السراة مقلص تخبب عنه لحمه المتكاوس)

المتكاوس: المتراكب.

ومن الدليل على أنَّهم ربما جعلوا الرجلَ إذا ما مدحوه خنذيذاً، قولُ بعضِ القيسيين، من قيس بن ثعلبة: [من الطويل]

دعوتُ بني سعدٍ إليَّ فشمَّرتُ خنذيذُ من سعدٍ طوالُ السواعدِ^(١)

٩٧ - [عبد الله بن الحارث وعبد الملك بن مروان]

وقال عبدُ الله بن الحارث، وكتب بها إلى عبدِ الملكِ بن مروان حينَ فارقَ مُصعباً: [من الطويل]

بأيِّ بلاءٍ أمْ بأيةِ علَّةٍ يُقدِّمُ قبلي مُسلمٌ والمهلبُ^(٢)
ويُدعى ابنُ منجوفٍ أمامي كأنَّهُ خَصِيٌّ دنا للماءِ من غيرِ مشرَبِ

فقلت ليونس: أقوى! فقال: الإقواءُ أحسنُ من هذا! قال: فلما أخذته قيسُ نصبوه، فجعلوا يرمونه بالنبل ويقولون: أذاتَ مغازل تَرى؟! يريدون بيت ابن الحرِّ: [من الطويل]

ألم تر قيساً - قيسَ عيلانَ - برقعت لِحاهَا وباعت نبلها بالمغازل^(٣)

فلما أتى مُصعبُ برأسه، قال لسويد: يا أبا المنهال! كيف ترى؟ قال: أيُّها الأمير! هو والله الذي أتى الماءَ من غيرِ مشرَبِ.

وقال أعشى همدان: [من الكامل]

وأبو بُرَيْدَةَ الذي حَدَّثَتْهُ فينا أذلُّ من الخَصِيِّ الدِّيَزجِ^(٤)

وتعرض للخصيِّ سرعةُ الدِّمعة، وذلك من عادةِ طبائعِ الصبيان ثم النساءِ، فإنَّهُ ليس بعدَ الصبيانِ أغزرُ دَمعةً من النساءِ، وكفالك بالشيوخ الهرمين.

٩٨ - [أخلاق الخصي]

ويعرض للخصيِّ العبثُ واللَّعبُ بالطير، وما أشبه ذلك من أخلاق النساءِ، وهو من أخلاق الصبيان أيضاً.

(١) البيت للقيسي في البيان ١٢/٢.

(٢) البيتان لعبيد الله بن الحر الجعفي في البرصان والعرجان ٣٢٧، وأشعار اللصوص ١٨٣. ورواية عجز البيت الثاني في أشعار اللصوص: (خصي أتى للماء والعيير يشرب).

(٣) البيت في أشعار اللصوص ٢٣٣، عن مخطوطة منتهى الطلب.

(٤) الديزج: في اللسان «الديزج: معرب ديزه، وهي لون بين لون». وفي مبادئ اللغة ١٢٠ «الأخضر: الأظخم؛ المسمى بالفارسية الديزج» وفي أدب الكاتب ١٤٣ «الأخضر: هو في كلام المعجم الديزج».

ويعرض له الشَّرَه عندَ الطعام، والبخل عليه، والشحُّ العامُّ في كلِّ شيءٍ، وذلك من أخلاق الصِّبيانِ ثمَّ النِّساءِ.

وقال الشاعر: [من الطويل]

كَأَنَّ أَبَا رُومَانَ قَيْسًا إِذَا غَدَا
لَهُ مَعْدَةٌ لَا يَشْتَكِي الدَّهْرَ ضَعْفَهَا
خَصِيٌّ بَرَاذِينٍ يُقَادُ رَهِيصُ
وَخَنْجَرَةٌ بِالدُّورِقِينَ قَمُوصُ

ويعرض للخصِيُّ سرعةُ الغضبِ والرضا، وذلك من أخلاق الصِّبيانِ والنِّساءِ. ويعرض له حبُّ النَّمِيمَةِ، وضيقُ الصدرِ بما أُودِعَ من السرِّ، وذلك من أخلاق الصِّبيانِ والنِّساءِ، ويعرض له دون أخيه لأُمَّه وأبيه، ودون ابن عمِّه وجميع رَهطه، البصرُ بالرُّقْعِ والوضْعِ، والكنسِ والرَّشِّ، والطَّرْحِ والبسْطِ، والصبرُ على الخدمة، وذلك يعرض للنِّساءِ. ويعرض له الصبرُ على الرُّكُوبِ، والقوَّةُ على كثرة الرُّكُضِ حتَّى يجاوز في ذلك رجالَ الأتراكِ وفرسانَ الخوارجِ. ومتى دَفَعَ إليه مَولاهُ دَابَّتَه ودخل إلى الصلاة، أو ليغتسل في الحمام، أو ليعودَ مريضاً، لم يترك أن يُجْرِيَ تلك الدَّابَّةَ ذاهباً وجائياً، إلى رجوع مَولاهُ إليه.

ويعرض له حبُّ الرميِّ بالنِّشابِ، للَّذي يدور في نفسه من حبِّ غزو الرُّومِ. ويعرض له حبُّ أن تَمْلِكَه الملوكة، على أَلَّا تَقِيمَ له إلَّا القوتَ، ويكونُ ذلك أحبَّ إليه من أن تملكه السُّوقَةُ، وإنَّ الحَقَّتَه بعيشِ الملوكة!!

ومن العجب أنَّهم مع خروجهم من شَطْرِ طبائع الرجال، إلى طبائع النساء، لا يعرض لهم التخنيث. وقد رأيت غيرَ واحدٍ من الأعرابِ مخنثاً متفكِّكاً، ومونثاً يسيلُ سيلاً، ورأيتُ عدَّةَ مجانينَ مخنثين، ورأيتُ ذلك في الرِّزجِ الأَفْحاحِ. وقد خَبَّرني من رأى كُرْدِيّاً مخنثاً، ولم أرَ خَصِيّاً قط مخنثاً، ولا سمعتُ به؛ ولا أدري كيف ذلك ولا أعرف المانع منه. ولو كان الأمرُ في ذلك إلى ظاهرِ الرأي، لَقَدَّ كان ينبغي لهم أن يكونَ ذلك فيهم عاماً!

ومما يزيدني في التعجب من هذا الباب، كثرةُ ما يعرض لهم من الحُلَاقِ^(١)، مع قَلَّةِ ما يعرض لهم من التخنيث، مع مفارقتهم لشطري معاني الرجال إلى شبه النساء. ويزعم كثير من الشيوخ المعمِّرين؛ وأهل التجربة المميِّزين، أنَّهم اختبروا

(١) الحلاق: فساد متاع الإنسان، فتعود حرارته إلى دبره. انظر اللسان: حلق ١٠/٦٥، ٦٦.

أعمارَ ضروبِ الناس، فوجدوا طولَ^(١) الأعمارِ في الخصيانِ أعمَّ منه في مثلِ أعدادهم من جميعِ أجناسِ الرجال، وأنهم تفقدوا أعمارَهم وأعمارَ إخوتهم وبني أعمامهم الذين لم يُخصَّوا، فوجدوا طولَ العُمُرِ في الخصيانِ أعمَّ، ولم يجدوا في عمومِ طوالِ العمرِ فيهم واحداً نادراً، كفلانِ وفلانِ من الفحولِ.

وزعموا أنهم لم يجدوا لطولِ أعمارِهِم علةً إلاَّ عَدَمَ النُّكاحِ، وقلةَ استفراغِ النُّطفِ لقوى أصلابهم.

قالوا: وكذلك لم نجدُ فيما يعايشُ الناسَ في دُورهم، من الخيلِ والإبلِ، والحَمِيرِ، والبقرِ، والغنمِ، والكلابِ، والدجاجِ، والحمامِ، والديكَةِ، والعصافيرِ، أطولِ أعماراً من البغالِ.

وكذلك قالوا: وجدنا أقلها أعماراً العصافيرِ. وليس ذلك إلاَّ لكثرةِ سفادِ العصافيرِ وقلةِ سفادِ البغالِ.

وجعل هؤلاء القومُ زيادةَ عمرِ البغلِ على عمرِ أبويه دليلاً على أن قولِ الناسِ: لا يعيشُ أحدٌ فوقِ عمرِ أبويه خطأ. وأولئك إنما عنوا الناسَ دونَ جميعِ الحيوانِ^(٢).

٩٩ - [النتاج المركب] (٣)

وقالوا: قد وجدنا غُرْمولَ البغلِ أطولَ من غُرْمولِ الحمارِ والفرسِ والبرذونِ، وهؤلاء أعمارُهُ وأحواله، فقد وجدنا بعضَ النتاجِ المركَّبِ، وبعضَ الفروعِ المستخرجة، أعظمَ من الأصلِ؛ ووجدنا الحمامَ الرَّاعبيَّ أعظمَ من الورشانِ الذي هو أبوه، ومن الحمامة التي هي أمه، ولم نجدَهُ أخذَ من عمرِ الورشانِ شيئاً، وخرجَ صَوْتُهُ من تقديرِ أصواتهما، كما خرجَ شحیحُ البغلِ من نهيقِ الحمارِ وصهيلِ الفرسِ. وخرجَ الرَّاعبيُّ مُسرولاً، ولم يكن ذلك في أبويه؛ وخرجَ مُثَقلاً سَيِّءَ الهدايةِ. وللورشانِ هداية، وإن كان دونَ الحمامِ؛ وجاءَ أعظمُ جُثَّةٍ من أبويه، ومقدارُ النَّفْسِ من ابتداءِ هَدْيِهِ إلى منقطعه، أضعافُ مقدارِ هَدْيِهِ أبويه.

وقوالجُ البُحْتِ إذا ضربت في إناثِ البُحْتِ، ولم يخرجِ الحوَارُ إلاَّ أذن^(٤) قصيرَ العُنُقِ، لا ينالُ كلاً ولا مَاءً إلاَّ بأن يُرفعا إليه، فيصيرُ - لمكانِ نُفْصانِ خلقه - جَزوراً لحمِ،

(١) انظر رسائل الجاحظ ٢/١٢٤، مفاخرة الجوارى والغلمان.

(٢) انظر كتاب البغال للجاحظ؛ ضمن رسائل الجاحظ ٢/٣٠٤، ٣٠٥.

(٣) انظر ما تقدم في الفقرة (٧٠).

(٤) الأذن من الدواب: الذي يدها قصيرتان؛ وعنقه قريب من الأرض. اللسان: دنن ١٣/١٥٩.

ولا يكون من اليعملات ولا من السابقة، ولو عألوه وكفوه مؤنة تكلف الماكول والمشروب، ثم بلغ إلي أن يصير جملاً يمكنه الضراب. وكذلك الأنثى التي هي الحائل إلى أن تصير ناقة؛ فلو ألحقها الفحل لجاها ولدها أقصر عنقاً من الفيل، الذي لو لم يجعل الله تعالى له خرطوماً يتناول به طعامه وشرايه، لمات جوعاً وهزلاً؛ وليس كذلك العراب. وإذا ضربت الفوالج في العراب جاءت هذه الجوامز والبخت الكريمة التي تجمع عامة خصال العراب وخصال البخت، فيكون ما يخرج التركيب من هذين الجنسيتين أكرم وأفخم وأنفس وأثمن. ومتى ضربت فحول العراب في إناث البخت جاءت هذه الإبل البهونية^(١) والصرصرانية^(٢) فتخرج أقبح منظراً من أبويها، وأشد أسراً من أبويها. وقال الراجز: [من الرجز]

* ولا بهوني من الأباغر *

وبعد؛ فإن هذه الشهيرة الخراسانية، يخرج لها أبدان فوق أبدان أمهاتها وآبائها من الخيل والبراذين، وتأخذ من عتق الخيل، ومن وثاجة^(٣) البراذين، وليس نتاجها كنتاج البرذون خالصاً والفرس خالصاً. وما أشبه قرابة الحمار بالرمكة والحجر، من قرابة الجمل الفالج البختي بقرابة القلوص الأعرابية.

١٠٠ - أطول الحمير أعماراً

ويقال إن الحمر الوحشية، وبخاصة الأخرية، أطول الحمير أعماراً وإنما هي من نتاج الأخر، فرس كان لأردشير بن بابك صار وحشياً فحمى عدة عانات فضرب فيها، فجاء أولاده منها أعظم من سائر الحمر وأحسن. وخرجت أعمارها عن أعمار الخيل وسائر الحمر - أعني حمر الوحش - فإن أعمارها تزيد على الأهلية مراراً عدة.

١٠١ - عير أبي سيارة

ولا يعرفون حماراً وحشياً عاش أكثر وعمر أطول من عير أبي سيارة عميلة بن أعزل؛ فإنهم لا يشكون أنه دقع عليه بأهل الموسم أربعين عاماً^(٤)!!

(١) البهونية من الإبل: ما بين الكرمانية والعربية، وهو دخيل في العربية. اللسان والتاج (بهن).

(٢) الصرصرانيات: بين البختي والعراب؛ أو الفوالج. اللسان (صرر).

(٣) الوثاجة: كثرة اللحم. اللسان: وثج ٣٩٦/٢.

(٤) الخبر في البيان ٣٠٧/١-٣٠٨، وبيع الأبرار ٤٠١/٥، ومروج الذهب ١٧٤/١. وفي كتب

الأمثال: «أصح من عير أبي سيارة» والمثل في مجمع الأمثال ٤١٠/١، والمستقصى ٢٠٥/١،

وفصل المقال ٥٠١، والأمثال لابن سلام ٣٧٣. وانظر ثمار القلوب ٢٩٥ (٥٥٣).

قال الأصمعيُّ: لم يكن عيراً وإنما كان أتاناً.

١٠٢ - [لهج ملوك فارس بالصيد]

وزعموا - وكذلك هو في كتبهم - أن ملوك فارس، كانت لهجة بالصيد؛ إلا أن بهرام جور هو المشهور بذلك في العوام.

وهم يزعمون أن فيروز بن قباذ الملك الفارسي، ألحَّ في طلب حمار أخدري^(١)؛ وقد ذُكر له ووُصف؛ فطاوَله عند طلبه والتماسه، وجدَّ في ذلك فلجَّ به عند طلبه الاغترام، وأخرجته الحفيظة إلى أن ألى الأ يأخذَه إلا أسراً، ولا يطاردَه إلا فرداً، فحمل فرسه عليه، فحطَّه في خَبَار^(٢) فجمع جَراميزه^(٣) وهو على فرسه ووثب؛ فإذا هو على ظهره؛ فقمصَّ به، فضم فخذيَه فحطَّم بعض أضلاعه، ثم أقبل به إلى معظم الناس، وهم وقوف ينظرون إليه وهو راكبه.

قالوا: وكان الملك منهم إذا أخذَ عيراً أخدرياً وغير ذلك؛ فإذا وجدَه فتياً وسمه باسمه وأرَّخ في اسمه يوم صيده وخلَّى سبيله، وكان كثيراً إذا ما صاده الملك الذي يقوم به بعده. سار فيه مثله تلك السيرة وخلَّى سبيله، فعرف آخرهم صنيع أولهم؛ وعرفوا مقدار مقادير أعمارها.

١٠٣ - [الحكمة في تخالف الميول]

ولولا أن ناساً من كلِّ جيل، وخصائص من كلِّ أمة، يلهجون ويكلّفون بتعرُّف معاني آخرين لدرست. ولعلَّ كثيراً من هؤلاء يُزري على أولئك، ويعجبُّ الناس من تفرُّغهم لما لا يجدي، وتركهم التشاغل بما يُجدي، فالذي حبَّب لهذا أن يرصد عمر حمار أو ورشَّان أو حيَّة أو ضبُّ، هو الذي حبَّب إلى الآخر أن يكون صياداً للأفاعي والحيَّات، يتتبَّعها ويطلبها في كلِّ واد وموضع وجبَلٍ للترياقات. وسخرَّ هذا ليكون سائس الأسدِ والفهود والنُّمور والبيور^(٤)، وترك من تلقاء نفسه أن يكون راعي غنم!!

(١) الاخدري: الحمار الوحشي. اللسان: خدر.

(٢) الخيار: الأرض الرخوة اللينة. اللسان: خبر.

(٣) يقال: ضم فلان إليه جراميزه: إذا رفع ما انتشر من ثيابه. اللسان: جرمز ٣١٨/٥.

(٤) البيور: جمع بَيْر، وهو ضرب من السباع، يقال إنه متولد من الزبرقان واللبوة. حياة الحيوان ١٥٩/١.

والذي فرَّق هذه الأقسام، وسخَّر هذه النفوسَ، وصَرَف هذه العقول لاستخراج هذه العلوم من مدافنها، وهذه المعاني من مخابئها، هو الذي سخَّر بَطْلِيمُوس مع مُلكه، وفلاناً وفلاناً للتفرُّغ للأُمور السماويَّة، ولرعاية النجوم واختلاف مَسِير الكواكب. وكلُّ ميسرٍ لِمَا خُلِقَ له، لتتمَّ النعمة وتكتملَّ المعرفة، وإنما تأبى التيسير للمعاصي.

فأمَّا الصناعاتُ فقد تقصُرُ الأسبابُ بعضَ الناسِ على أن يصير حائكاً، وتقصُرُ بعضُهُم على أن يكون صَيَّرَفِيًّا، فهي وإن قصرتَه على الحياكة، فلم تقصُرْه على خُلْفِ المواعيد وعلى إبدال الغزول، وعلى تشقيق العملِ دُونَ الإحكام والصدق وأداء الأمانة، ولم تقصُرِ الصيرفيَّ على التطفيف في الوزن والتغليط في الحساب، وعلى دسِّ المموه؛ تعالَى اللهُ عزَّ وجلَّ عن ذلك علواً كبيراً.

١٠٤ - [خضوع النتاج المركب للطبيعة]

ولو كان أمرُ النَّتاجِ وما يحدث بالتراكيب ويخرج من التزاويج، إلى تقدير الرأي وما هو أقرب إلى الظنِّ، لكانت الأظلاف تجري مجرى الحوافر والأخفاف. ألا ترى أنَّ قرابة الضأن من الماعز، كقرابة البخت من العراب، والخيل من الحمير !!

وسبيل نتائج الظلْف على خلاف ذلك؛ لأنَّ التيسر - على شدة غلْمته - لا يعرض للنعجة إلا بالقليل الذي لا يُذكر. وكذلك ما يحدث بينهما من الولد كذلك: إمَّا ألا يتمَّ خَلْقُه، وإمَّا ألا يعيش؛ وكذلك الكبشُ والعنزُ فضلاً عن أن يكون بينهما نتاج؛ لأنه قد يضرب الجنس في الجنس الذي لا يُلقحه، ولا يكون اللقاح إلا بعد ضراب. وطلب التيسر للنعجة قليل وأقلُّ من القليل، وكذلك الكبش للعنز، وأقلُّ من ذلك أن تتلاقح ولا يبقى ذلك الولد البتة.

وقد تجاسرَ ناسٌ على توليد أبوابٍ من هذا الشكل، فادَّعوا أموراً، ولم يحفلوا بالتقريع والتكذيب عند مسألة البرهان!!

١٠٥ - [الزرافة خلقٌ مركَّب] (١)

زعموا أنَّ الزرافة خلقٌ مركَّب من بين الناقة الوحشية وبين البقرة الوحشية، وبين الدُّيخ وهو ذكر الضباع؛ وذلك أنَّهم لَمَّا رأوا أنَّ اسمها بالفارسية (أشتر كاو

(١) انظر الفقرة (١١٧).

بلنك)؛ وتأويل «أشتر» بعير، وتأويل «كاو» بقرة، وتأويل «بلنك» الضبع؛ لأن الضباع عُرِج؛ كذلك الذكر والأنثى يكون بهما خُمَاع^(١)؛ كما عرض للذئب القزَل^(٢) - وكلُّ ذئب أقرَل - وكما أنَّ كلَّ غراب يحجل كما يحجل المقيّد من الناس؛ وكما أنَّ العصفورَ لا يمشي؛ ومشيه أن يجمعَ رجله أبدأً معاً في كلِّ حركة وسكون. وقولهم للزرافة أشتر كاو بلنك اسم فارسي، والفُرس تسمي الأشياء بالاشتقاق؛ كما تقول للنعام: اشتر مرغ، وكأنَّهم في التقدير قالوا: هو طائر وجمل؛ فلم نجد هذا الاسم أوجب أن تكون النعامُ نتاج ما بين الإبل والطير، ولكن القوم لما شبهوها بشيئين متقاربين؛ سمّوها بذينك الشيئين. وهم يسمون الشيء المرّ الحلو «تَرش شيرين» وهو في التفسير حلّو حامض. فجسّر القوم فوضعوا لتفسير اسم الزرافة حديثاً وجعلوا الخلقة ضرباً من التراكيب؛ فقالوا: قد يعرض الذئخ في تلك البلاد للناقة الوحشية فيسفدها، فتلقح بولدٍ يجيء خلقه ما بين خلق الناقة والضبع؛ فإن كان أنثى فقد يعرض لها الثور الوحشي فيضربها؛ فيصير الولد زرافة، وإن كان ولدُ الناقة ذكراً عرض للمهاة فالفحها فتلد زرافة. فمنهم من حجر البتة أن تكون الزرافة الأنثى تلقح من الزرافة الذكر، وزعموا أنَّ كلَّ زرافة في الأرض، فإنما هي من النتاج الذي ركّبوا؛ وزعموا أنَّ ذلك مشهورٌ في بلاد الحبشة، وأقاصي اليمن. وقال آخرون: ليس كلُّ خلقٍ مرَّكَّب لا ينسل ولا يبقى نجله ولا يتلاقح نسله، علي ما حكينا من شأن الورشان والرأعبي^(٣). وهؤلاء وما أشبههم يُفسدون العلم، ويتهمون الكتب، وتغرهم كثرةُ أتباعهم ممن تجده مستهتراً بسماع الغريب، ومُغرماً بالطرائف والبدائع. ولو أعطوا مع هذا الاستهتار نصيباً من الثبّت، وحظاً من التوقي، لسلمت الكتب من كثير من الفساد.

١٠٦ - [النتاج المركب في الطيور]

وأنا رأيتُ طائراً له صوتٌ غير حسن، فقال لي صاحب الطيور: إنّه من نتاج ما بين القمري^(٤) والفاخته^(٥).

(١) الخماع: العرج. اللسان: جمع.

(٢) القزل: العرج. اللسان: قزل.

(٣) انظر الفقرة (٩٩).

(٤) القمري: طائر صغير من الحمام، حسن الصوت. وسمي «القمري» نسبة إلى بلدة القمره بمصر. حياة الحيوان ٢/٢٢٢.

(٥) الفاخته: واحدة الفواخت؛ من ذوات الاطواق. (حياة الحيوان ٢/١٣٥). ومن العجب أن بيض القمارى يجعل تحت الفواخت، وبيض الفواخت تحت القمارى. حياة الحيوان ٢/٢٢٢.

وقنّاص الطير، ومَن يأتي كلُّ أوقة^(١) وغيضة في التماس الصيد، يزعمون أن أجناساً من الطير الأوابد والقواطع، تلتقي على المياه فتتسافد؛ وأنهم لا يزالون يرون أشكالاً لم يروها قط، فيقدرون أنها من تلاحح تلك المختلفة.

١٠٧ - [زعم بعض الأعراب في الحرباء]

وقال أبو زيد النحوي، وذكر عمن لقي من الأعراب أنهم زعموا أن ذكر أم حُبِين هو الحرباء. قال: وسمعت أعرابياً من قيس يقول لام حُبِين حُبِينة، والحُبِينة هو اسمها. قال: وقيس تسمي ذكر العظاءة العَضْرُوط.

وقال يحيى الأغر: سمعت أعرابياً يقول: لا خير في العظاءة، وإن كان ضباً مَكُوناً. قال: فإذا سأم أبرص، والورل، والوحر، والضب والحلكاء. كلها عنده عظاءة.

١٠٨ - [تسافد الثعلب والهرة الوحشية]

وزعم يحيى بن نُجَيْم أن الثعلب يسفد الهرة الوحشية، فيخرج بينهما ولدٌ. وأنشد قول حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه: [من المتقارب]

أبوك أبوك وأنت ابنه فبئس البني وبئس الأب^(٢)
وأملك سَوْدَاءُ نُوبِيَّةٌ كأن أناملها العنظب^(٣)
يبيت أبوك بها معرساً كما ساور الهرة الثعلب

وأنشد أبو عبيدة قول عبد الرحمن بن الحكم: [من الوافر]

الأبلىغُ مُعاوية بن حرب مُغلغلةٌ عن الرجل اليماني^(٤)
أتغضب أن يقال أبوك عَفٌّ وترضى أن يقال أبوك زَانِي

(١) الأوقة: هوة في الأرض؛ خليقة في بطون الأودية، وتكون في الرياض أحياناً. اللسان: أوق / ١٠ / ١٢.

(٢) الأبيات في ديوان حسان ص ١١٧.

(٣) العنظب: ذكر الجراد. والآنثى: عنظوبة. حياة الحيوان ٢ / ٨٦. ورواية الديوان «الحنظب». والحنظب: ذكر الجراد، أو الخنفساء. وقال حمزة الأصفهاني: من المركبات بين الثعلب والهرة الوحشية. حياة الحيوان ١ / ٣٨٠.

(٤) الأبيات لعبد الرحمن بن الحكم في الأغاني ١٣ / ٢٦٥ (دار الكتب)، الأغاني ١٢ / ٧١ (طبعة ساسي)، والخزانة ٢ / ٥١٨ (طبعة بولاق)، والأبيات في ديوان يزيد بن المفرغ ص ٢٣٠، ٢٣١. والأغاني ١٨ / ٢٦٥، ٢٧١ (دار الكتب)، ١٧ / ٥٧، ٧١ (ساسبي)، واللسان (عديس).

فاشهد أن رَحِمَكَ مِنْ قُرَيْشٍ كَرِحِمِ الْفِيلِ مِنْ وَكْدِ الْأَتَانِ
قال كيسان: ولاي شي قال:

كرحم الفيل من ولد الأتان

إنما كان ينبغي أن يقول: كَرِحِمِ الْفِيلِ مِنَ الْخَنْزِيرِ. قال أبو عبيدة: أرادها هو
التباعد بعينه؛ وأنت تريد ما هو أقرب.

١٠٩ - [زعم بعضهم في حيوان سفينة نوح]

وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار^(١): أن أهل سفينة نوح كانوا تأذوا
بالفأر، فعطس الأسد عطسة فرمى من منخريه بزوج سنانير، فلذلك السنور أشبه
شيء بالأسد. وسلح الفيل زوج خنازير؛ فلذلك الخنزير أشبه شيء بالفيل. قال
كيسان: فينبغي أن يكون ذلك السنور آدم السنانير، وتلك السنورة حواءها. قال أبو
عبيدة لكيسان: أولم تعلم أنت أن لكل جنس من الحيوان آدم وحواء؟! وضحك
فضحك القوم.

١١٠ - [نهم سعد القرقرة]

ولما رأى أبو قردودة سعد القرقرة، أكل عند النعمان مسلوخاً بعظامه قال: [من
البيسط]

بين النعام وبين الكلب منبته وفي الذئب له ظئر وأحوال

يقول: إن سعداً ضرب في أعراقه نجر النعام الذي يلتهم الجمر، ويلتقم
الحجارة، فيطفيئ الجمر ويميع الصخر، وضرب في أعراقه نجر الكلب الذي يرض كل
عظم. ولا يقبض عليه بكفه إلا هو واثق بفته، ولا يسيغه إلا وهو على ثقة من
استمائه. فأمأ الذئب فإنه لا يروم بفكيه شيئاً إلا ابتلعه بغير معاناة، عظماً كان أو
غيره، مصمتاً كان أو أجوف.

ولذلك قال الراجز: [من الراجز]

أطلس يخفي شخصه غباره في فمه شفرته وناره^(٢)

(١) ربيع الأبرار ٤٢٧/٥.

(٢) الراجز بلا نسبة في البيان ١٥٠/١، وديوان المعاني ١٣٤/٢، والأمال ١٢٩/٣.

فأبو قردودة لم يرد أن الذئب والكلب خالاه، وأن النعام نجله، وإنما قال ذلك على المثل والتشبيه، ولم يرد أن له ظئراً من الكلاب، وخالاً من الذئاب. وشبيه ذلك قول أمير المؤمنين المأمون لبعض الناس: يا نُطْفَ الخُمَارِين، ونزاع الطُّورورة، وأشباه الخُوولة.

وعلى شبيهه بذلك قال سلم بن قتيبة لبعض من ذكره، وهو عند سليمان بن علي: أيها الأمير، إن آل فلان أعلاجُ خلقِ الله وأوباشه، لثامُ عُدر، شرابون بأنثع^(١)، ثم هذا بعد في نفسه، نُطفةُ خُمَارٍ في رَحِمِ صَنَاجة^(٢).

١١١ - [زواج الأجناس المتباينة من الناس]

وقال لي أبو إسحاق: قال لي أبو العباس - وأبو العباس هذا كان ختن إبراهيم على أخته، وكان رجلاً يدين بالنجوم، ولا يقرُ بشيءٍ من الحوادث إلا بما يجري على الطباع. قال أبو إسحاق: وقال لي مرة: أتعرفُ موضعَ الحُظوةِ من خُلوةِ النساءِ؟. قُلْتُ: لا والله لا أعرفه. قال: بل اعلم أن لا يكونَ الحُظُّ إلا في نتاجِ شكلين متباينين، فالتقاؤهما هو الأكسير المؤدي إلى الخلاص: وهو أن تزوج بين هنديةٍ وخراسانيٍّ، فإنها لا تلد إلا الذهبَ الإبريز. ولكن احرس ولدها، إن كان الولد أنثى فاحذر عليها من شدة لواطِ رجال خراسان وزناء نساء الهند، واعلم أن شهوتها للرجال على قدرِ حُظوتها عندهم، واعلم أنها ستسحق النساء على أعراق الخراسانية، وتزني بالرجال على أعراق الهند، واعلم أنه مما يزيد في زناها ومساحتها معرفتها بالحُظوة عند الزناة، وبالحُظ عند السحاقات.

١١٢ - [زعمهم في الخلق المركب]

وقالوا في الخلق المركب ضروباً من الحقِّ والباطل، ومن الصدق والكذب. فمن الباطل زعمهم أن الشبوط ولد الزجر^(٣) من البني، وأن الشبوط لا يُخلق من الشبوط، وأنه كالبغل في تركيبه وإنساله. ورووا ذلك عن أبي واثلة إياس بن معاوية بن قرّة.

(١) في كتب الامثال: «شراب بانقع، والمثل في جمهرة الامثال ١/٥٤٠، والمستقصى ٢/١٣١، وفصل المقال ١٥٢، والامثال لابن سلام ١٠٥. والنقع: الماء المستنقع. والمثل يضرب لمن جرب الامور؛ أو للدهي المنكر.

(٢) في مجمع الامثال ٢/٣٥٨: «نطف السكارى في أرحام القيان».

(٣) الزجر: ضرب من السمك عظام، صغار الحرشف، يتكلم به أهل العراق. اللسان: زجر ٤/٣١٩.

وزعموا أنّ أمّ جعفر بنت جعفر بن المنصور، حصّرت في حوضٍ لها ضخمةٍ أو بركةٍ كبيرةٍ عدداً كثيراً من الزجر والبنيّ، وأنّها لم تخلطُ بهما غيرهما، فمات أكثره وبقيت بقيةٌ كانت الصميم في القوّة، وفي احتمال تغيّر المكان فلم تحمل البيض حيناً، ثمّ إنّها حملت بالشبابيط.

١١٣ - [مطر الضفادع والشبابيط]

وزعم حُرَيْثٌ أنّه كان بإيذج^(١)، فإذا سحابة دهماء طخياء تكاد تمسّ الأرض، وتكاد تمسّ قمم رؤوسهم، وأنّهم سمعوا فيها كأصوات المجانيق، وكهدير الفحول في الأشوال، ثمّ إنّها دَفَعَتْ بأشدّ مطر رُئي أو سُمِعَ به، حتى استسلموا للغرق، ثمّ اندفعت بالصفادع العظام^(٢)، ثمّ اندفعت بالشبابيط السّمان الخدال^(٣) فطبخوا واشتروا، وملّحوا وادّخروا^(٤).

١١٤ - [غرور أبي وائلة والخليل بن أحمد]

وروا عن أبي وائلة أنّه زعم أنّ من الدليل على أنّ الشبّوط كالبعغل، أنّ الناس لم يجدوا في طول ما أكلوا الشبابيط في جوفها بيضاً قطّ. فإن كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور بشدّة العقل، المنعوت بثقوب الفراسة ودقّة الفطنة صحيحاً، فما أعظم المصيبة علينا فيه، وما أخلق الخبر أن يكون صحيحاً، وذلك أنّي سمعتُ له كلاماً كثيراً من تصنيف الحيوان وأقسام الأجناس، يدلُّ على أنّ الرجل حين أحسن في أشياء وهمه العجب بنفسه أنّه لا يروم شيئاً فيمتنع عليه.

وغرّه من نفسه الذي غرّ الخليل بن أحمد، حين أحسن في النحو والعروض، فظنّ أنّه يحسن الكلام وتاليف اللّحون، فكتب فيهما كتابين لا يُشير بهما ولا يدلُّ عليهما إلاّ المرّة المحترقة، ولا يؤدّي إلى مثل ذلك إلاّ خدلان من الله تعالى، فإنّ الله عزّ وجلّ لا يعجزه شيء.

١١٥ - [بيض الشبّوط وتناسله]

والشبّوط - حفظك الله تعالى - جنسٌ كثيرٌ الذكور قليلٌ الإناث، فلا يكون إناثه

(١) إيذج: بلدة وكورة بين خوزستان وأصفهان. وقيل: هي بلدة من كور الأهواز وبلاد الخوز، وقيل:

من قرى سمرقند عند الجبل. معجم البلدان ١/ ٢٨٨.

(٢) انظر الفقرة (١٢٣).

(٣) الخدال: جمع خدلة، وهي العظيمة الممتلئة. اللسان: خدل.

(٤) ربيع الأبرار ٥/ ٤٤٠.

أيضاً يجمعن البيض، وإذا جمعن فلو جمعت بيضَ عشرٍ منهنَّ لَمَا كان كَشَطْرَ بَيْضِ بُنْيَةٍ واحدةٍ. وقد رأيتُ بَيْضَ الشَّبُوطِ وذَقْتُهُ للتعرفِ فوجدته غيرَ طائل، ولا مُعجِبٍ. وكلُّ صيَادٍ تسالهُ فهو يُنبئكَ أنْ له بيضاً، ولكنَّهُ إذا كانَ يكونُ ضعيفاً قليلاً، لأنَّ الشَّبَابِيطَ في أصلِ العددِ من أقلِّ السمكِ. وكذلك الجنسُ منه إذا كانت الأنثى منه مذكّاراً.

١١٦ - [مواطن الشبوط]

على أنَّه رُبَّ نهرٍ يكونُ أكثرُ سمكه الشَّبُوطِ، وذلك قليل، كنهْرِ رَامَهْرَمَزِ. والشَّبُوطُ لا يتربَّى في البحارِ، ولا يسكنُ إلَّا في الأوديةِ والأنهارِ، ويكره الماءَ المالحَ ويطلبُ الأعذبَ فالأعذبُ، ويكونُ في الماءِ الجاري، ولا يكونُ في الساكنِ. وسنذكر شأنه في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

١١٧ - [رد على ما زعموا في الزرافة]

ولم يصب أبو وائلة، وكذبوا على أمِّ جعفر^(١). فإذا قالوا في الزرافة ما قالوا^(٢) فلا تأمنهم على ما هو دونه. وإن كان من كذب على الموتى واستشهد الغيب أحذق، فصاحب الزرافة قد استعمل بعض هذه الحيلة، وصاحب الشَّبُوطِ يكذب على الأحياء، ويستشهد الحضور. وإن كان الذي دعا إلى القول في الزرافة أنهم جعلوا تركيب اسمه دليلاً على تركيب الخلق. فالجاموس بالفارسية كاوماش. وتأويله ضأنِّي بقرِي، لأنهم وجدوا فيه مشابهة الكبش وكثيراً من مشابهة الثور، وليس أن الكباش ضربت في البقر فجاءت بالجواميس.

١١٨ - [زعم الفرس في تقسيم الحيوان]

وزعم الفرس أن الحيوان كلُّه الذي يلد حيواناً مثله ممَّا يمشي على أربع قوائم، لا تخلو أجناسها من المعز والضأن. والجواميسُ عندهم ضأن البقر، والبُخْتُ عندهم ضأن الإبل، والبراذين عندهم ضأن الخيل.

١١٩ - [زعم في الإبل]

والناس يقولون في الإبل أقاويلٌ عجيبةٌ: فمنهم من يزعم أن فيها عرقاً من سفاد

(١) انظر الفقرة (١١٢).

(٢) انظر الفقرة (١٠٥).

الجنّ، وذهبوا إلى الحديث: أنهم إنما كرهوا الصلاة في أعطان الإبل لأنها خلقت من أعناق الشياطين^(١) فجعلوا المثل والمجاز على غير جهته. وقال ابن ميادة: [من الطويل]
 فلما أتاني ما تقول مُحارِبٌ تغنّت شياطين وجُنّ جنُونُها^(٢)
 قال الأصمعي الماثور من السيوف الذي يقال: إنّ الجنّ عملته^(٣).

١٢٠ - [القول في الشيطان]

وهم يسمون الكبير والخنزوانة والنعرة التي تضاف إلى أنف المتكبر شيطاناً، قال عمر: حتّى أنزع شيطانه، كما قال: «حتى أنزع النعرة التي في أنفه»^(٤). ويسمّون الحية إذا كانت داهية منها شيطاناً، وهو قولهم: شيطان الحماطة^(٥). قال الشاعر:
 [من الطويل]

تعالج مثنى حَضْرَمِيٌّ كأنه تَعَمَّجُ شَيْطَانٌ بِذِي خِرْوَعٍ قَفْرٍ^(٦)

شبه الزمام بالحية. وعلى مثل ذلك قال الشاعر: [من الطويل]

شناحية فيها شناح كأنها حباب بكف الشاؤ من أسطع حشر^(٧)

والحباب: الحية الذكر، وكذلك الأيم^(٨). وقد نهي عن الصلاة عند غيبوبة الشمس، وعند طلوع القرص إلى أن يتتام ذلك. وفي الحديث: «إنها تطلع بين قرني شيطان»^(٩).

(١) في النهاية ٣/٣١٣: «لا تصلوا في أعطان الإبل؛ لأنها خلقت من أعنان الشياطين». أي كانها من نواحي الشياطين في أخلاقها وطبائعها. وفي حديث آخر في النهاية ٣/٢٥٨: «صلوا في مرائب الغنم، ولا تصلوا في أعطان الإبل».

(٢) البيت في ديوان ابن ميادة ٢٣١، وأساس البلاغة (شطن).

(٣) ورد هذا القول في اللسان: ٩/٤ (نفر) دون ذكر الأصمعي.

(٤) الحديث في النهاية ٥/٨٠، وفيه: «النعرة: ذباب كبير أزرق، يتولع بالبعير، ويدخل أنفه فيركب رأسه، سميت بذلك لنعيرها؛ وهو صوتها، ثم استعيرت للنخوة والانفة: أي حتى أزيل نخوته.

(٥) في اللسان: حمط ٧/٢٧٧ «الحماط: يبيس الأفانئ تالفه الحيات. يقال: شيطان حماط... الواحدة حماطة، وقيل: الحماطة بلغة هذيل شجر عظام تنبت في بلادهم تالفها الحيات».

(٦) البيت بلا نسبة في اللسان (حبيب، عمج، خرع، شطن، ثنى) والتاج (حبيب، خرع، ثنى)، والمقاييس ٢/٢٨، ٣/١٤٨، ٤/١٣٧، والمجمل ٢/٣٠، والمخصص ٧/١١٠، ٨/١٠٩.

(٧) الشناحية من الإبل: الطويل الجسم. اللسان: شنح ٢/٥٠٠.

(٨) الأيم والأيم: الحية الأبيض اللطيف: اللسان: أيم ١٢/٤٠.

(٩) النهاية ٢/٤٧٥.

فللعرب أمثالٌ واشتقاقاتٌ وأبنية، وموضعُ كلامٍ يدلُّ عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضعٌ أُخرٌ، ولها حينئذٍ دلالاتٌ أُخرى، فمن لم يعرفها جهلٌ تأويل الكتاب والسنة، والشاهد والمثل، فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم، وليس هو من أهل هذا الشأن، هلك وأهلك .

وزعم ناسٌ أنَّ من الإبل وحشياً وكذلك الخيل، وقاسوا ذلك على الحمير والسنانير والحمام وغير ذلك، فزعموا أنَّ تلك الإبل تسكنُ أرضَ وبارٍ، لأنها غيرُ مسكونة، ولأنَّ الحيوانَ كُلُّما اشتدَّت وحشيتهُ كان للخلاء أطلب. قالوا: وربما خرجَ الجملُ منها لبعض ما يعرض، فيضرب في أدنى هجمةٍ من الإبل الأهلية. قالوا: فالمهريَّةُ من ذلك النتاج.

وقال آخرون: هذه الإبل الوحشية هي الحوش، وهي التي من بقايا إبل وبارٍ، فلما أهلكهم الله تعالى كما أهلك الأمم مثل عادٍ وثمودٍ والعمالقة وطسمٍ وجديسٍ وجاسم، بقيتْ إبلهم في أماكنهم التي لا يطورها إنسيٌّ فإن سقطَ إلى تلك الجيزة بعض الخلعاء، أو بعضٌ من أضلِّ الطريق حثت الجنُّ في وجهه، فإنَّ ألحَّ خبَلته، فضربتْ هذه الحوش في العمانية، فجاءت هذه المهريَّة، وهذه العسجدية التي تسمى الذهبية.

وأنشدني سعدان المكفوف عن أبي العميثل قول الراجز: [من الراجز]

ما ذمَّ إبلي عجمٌ ولا عربٌ جلودها مثل طواويس الذهب

وقال الآخر: [من الوافر]

إذا اصطككتُ بضيق حجرتهاها تلاقى العسجدية واللطم^(١)

والعسجد من أسماء الذهب.

(١) البيت لعامان (أو غامان) بن كعب بن عمرو بن سعد في اللسان (لطم)، والتاج (عسجد)، ولعامان في التاج (لطم)، وبلا نسبة في اللسان (عسجد)، والمخصص ١٣٢/٧. وفي اللسان: «وقال ابن بري: العسجدية التي تحمل الذهب، وقال: اللطم: جمع لطيمة؛ وهي العير التي تحمل المسك».

قالوا: وإنما سُميت صاحبةُ يزيد بن الطَّثْرِيَّة حَوْشِيَّةً على هذا المعنى^(١).

وقال رؤبة: [من الرجز]

* جرت رحانا من بلاد الحوش *^(٢)

١٢٣ - [رد على ما زعموا من مطر الضفادع والشبابيط]

وأما الذي زعم أنهم مطروا الشبوط^(٣)، فإنه لما ظنَّ أنَّ الضفادع التي تُصابُ بعَقِبِ المطر^(٤)، بحيث لا ماء ولا وحل ولا عين ولا شريعة - فإنهم ربَّما رأوها وسط الدوِّ والدهناء والصَّمَان^(٥) - ولم يشكَّ أنَّها كانت في السحاب وعلم أنَّها تكون في الأنهار ومنابع المياه، وليس ذلك من الذكر والأنثى، قاسَ على ذلك الظنَّ السمك، ثم جسرَ فجعلَ السمك شَبُوطاً. وتلك الضفادع إنما هي شيءٌ يُخلَقُ تلك الساعة، من طباع الماء والهواء والزمانِ وتلك التربة، على مقاديرٍ ومقابلات، وعلى ما أجرى الله تعالى عليه نشأة الخلق.

١٢٤ [امتناع التلاقح بين بعض الأجناس المتقاربة]

وقد تُعرف القرابة التي تكون في رأي العين بين الشكليين من الحيوان فلا يكون بينهما تسافدٌ ولا تلاقح، كالضان والمعز، وكالفأر والجُرذَان، فليس بالعجب في البقر والجواميس أن تكون كذلك. وقد رأينا الخلاسي^(٦) من الدجاج والديكة، وهو الذي تخلَّق من بين المولِّدات والهنديَّات، وهي تحمل اللحم والشحم.

وزعم لي مسعود بن عثمان، أنه أهدى إلى عمرو بن مسعدة، دجاجة ووزنَ فيها سبعة عشر رطلاً بعد طرح الأسقاط وإخراج الحشوة.

(١) سماها «حوشية» أيضاً المبرد في الكامل ٥٢٣/٢. وهي وحشية الجرمية. انظر ديوان يزيد بن الطثرية ١٧ - ١٩، وأعلام النساء ٢٧٥/٥ - ٢٧٦.

(٢) البيت في ديوان رؤبة ٧٨، واللسان والتاج (حوش)، والمقاييس ١١٩/٢، وتهذيب اللغة ١٤٢/٥، ومجمل اللغة ١٢٢/٢.

(٣) انظر الفقرة (١١٣).

(٤) ربيع الأبرار ٤٤٠/٥.

(٥) الدو: الفلاة الواسعة، وقيل: الأرض المستوية. (اللسان: دوا). الدهناء: سبعة أجبل من الرمل، من ديار بني تميم، بين مكة والبصرة (معجم البلدان ٤٩٣/٢). الصمان: أرض غليظة دون الجبل، كانت لبني حنظلة، والصمان متاخم للدهناء. والصمان جبل؛ أو بلد لبني تميم. والصمان: من نواحي الشام بظاهر البلقاء. (معجم البلدان ٤٢٣/٣).

(٦) الخلاسي من الديكة: بين الدجاج الهندية والفارسية. اللسان: خلس ٦٦/٦.

١٢٥ - [أثر زواج الأجناس المتباينة من الناس] (١)

ورأينا الخلاسي من الناس، وهو الذي يتخلق بين الحبشي والبيضاء، والعادة من هذا التركيب أنه يخرج أعظم من أبويه وأقوى من أصليه ومثمريه. ورأينا البيسري (٢) من الناس، وهو الذي يُخلق من بين البيض والهند، لا يخرج ذلك النتاج على مقدار ضخم الأبوين وقوتهما، ولكنه يجيء أحسن وأملح. وهم يسمون الماء إذا خالطته الملوحة بيسراً قياساً على هذا التركيب الذي حكينا عن البيض والهنديات، ورأينا الخلاسي من الكلاب، وهو الذي يُخلق بين السلوقي وكلب الراعي، ولا يكون ذلك من الزئني والقلطي (٣)، ومن كلاب الدور والحراس. وسنقول في السمع والعسبار، وفي غيرهما من الخلق المركب إن شاء الله تعالى.

١٢٦ - [أطول الناس أعماراً]

وذكروا أنهم وجدوا أطول أعمار الناس في ثلاثة مواضع: أولها سروحمير، ثم قرغانة، ثم اليمامة، وإن في الأعراب لأعماراً أطول، على أن لهم في ذلك كذباً كثيراً، والهند تُربي عليهم في هذا المعنى. هكذا يقول علماء العرب.

١٢٧ - [أثر النبيذ في عمر الإنسان]

وكان عثمان ماش ويزال وجذعان، يذكرون أنهم عدوا أربعين فتى من فتیان قريش وثقيف أعمار عام واحد فأحصوا عشرين من قريش، وعشرين من ثقيف، وتوخوا المتجاورين في المحلة والمتقاربين في الدور من الموقرين على النبيذ، والمقصورين على التنادم، وأنهم أهصوا مثل ذلك العدد وأشباه أولئك في السن ممن لا يذوق النبيذ ولا يعرف شراباً إلا الماء، فذكروا أنهم وجدوا بعد مرور دهر عامة من كان يشرب النبيذ حياً، ومن لا يشربه قد مات عامتهم، وكانوا قد بلغوا في السن. أما عثمان ويزال فكانا من المعمرين، وقد رأيتهما جميعاً ولم أسمع هذا منهما، وسنأتي على هذا الباب في موضعه من ذكر المعمرين، ونميز الصدق فيه من الكذب، وما يجوز وما لا يجوز إن شاء الله تعالى.

(١) انظر الفقرة (١١١).

(٢) البياسرة: جيل من السند يواجرون أنفسهم من أهل السفن لحرب عدوهم، ورجل بيسري.

اللسان: بسر ٤/٥٩.

(٣) الزئني: القصير القوائم. والقلطي: القصير جداً.

وما أكثر ما يعرض للخصيان البول في الفراش وغير ذلك، ولا سيما إذا بات أحدهم ممتكاً من النبيذ.

ويعرض لهم أيضاً حبُّ الشراب والإفراط في شهوته وشدة النهم.

ويعرض لهم أيضاً إيثار المخفس^(١) وحبُّ الصرْف، وذلك أيضاً ممَّا يعرض للنساء، والإفراط في شهوتهنَّ وشدة الهمة لهنَّ والغيرة عليهنَّ. ويحتلمون، ويجنبون ويغتسلون، ويرون الماء غير الرائق ولا الغليظ، الذي له ريح طلع الفُحَّال.

ويعرض للخصي شدة الاستخفاف بمن لم يكن ذا سلطان عظيم أو مال كثير أو جاه عريض، حتَّى ربَّما كان عند مولاه بعض من عسى أن يتقدَّم هؤلاء المذكورين الذين يكون الخصي كلفاً بهم وبتعظيمهم، ومُغرماً بخدمتهم، في الأدب والحسب، وفي بُعد الهمة وكرم الشئمة، فيعمد عند دخول ذلك الرجل الذي له السلطان والجاه والمال إلى متكا هذا الأديب الكريم، والحسيب الشريف، فينزعه من تحت مرفقه، غير محتفل بذلك ولا مكترث لما فيه، ويضعه له من غير أن يكون موضع المرافق بعيداً، أو كان ذلك ممَّا يفوت بعض الفوت، ويفعل ذلك وإن كان يعاشر هذا الأديب الكريم مولاه وهو على يقين أنه لا يرى ذلك الموسر وصاحب الجاه أبداً.

١٢٩ - [أقوال في خصاء الخيل]

وقد حرم بعضهم خصاء الخيل خاصة، وبعضهم زاد على ذلك حتَّى حرم خصاء البهائم. وقال بعضهم: إذا كان الخصاء إنمَّا اجتلبه فاعله أو تكلفه صاحبه على جهة التماس المنفعة، أو على طريق التجارة، فذلك جائز، وسبيله سبيل الميسم، فإن الميسم نار، وألمه يجوز كل ألم وقد رأينا إبلاً الصدقة موسومة، ووسمت العرب الخيل وجميع أصناف النعم في الإسلام، على مثل صنيعها في الجاهلية. وقد كانت القصواء ناقة النبي صلى الله عليه وسلم موسومة، وكذلك العضباء^(٢).

(١) المخفس: شراب سريع الإسكار. أو هو الشراب الكثير النبيذ والقليل الماء. اللسان: خفس. ٦٥/٦.

(٢) في أنساب الأشراف ٥١١ - ٥١٢ أن اسم ناقته عَلِيَّة القصواء، وتسمى الجدعاء والعضباء. والقصواء التي في أذنها قطع يسير؛ والعضباء مثلها.

وقال آخرون: الخصاء غيرُ شبيه بالميسم^(١)، لأنَّ في الخصاء من شدَّة الألم، ومن المثلة^(٢)، ومن قطع النُّسل، ومن إدخال النقصِ على الأعضاء، والنقصِ لموادِّ القوى، ما ليس في الميسم وغيره، وهو بقطع الآلية أشبهه، والسِّمةُ إنّما هي كذُّعة، والخصاءُ مجاوزٌ لكلِّ شديدة.

قال القوم: ولا بأسَ بقطع الآلية إذا منعت بثقلها أو عظمتها الشاة من اللحاق بالقطيع وخيف عليها من الذئب. وقطع الآلية في جواز العقول أشبه من الميسم، لأنَّ الميسم ليس للبعير فيه حظٌّ، وإنَّما الحظُّ فيه لربِّ المال، وقطع الآلية من شكل الختان، ومن شكل البَطِّ^(٣) والفصد^(٤)، ومن جنس الوجور والبيطرة، ومن جنس اللدود^(٥) والحجامة، ومن جنس الكي عند الحاجة، وقطع الجارحة إذا خيف عليها الأكلة.

قال الأولون: بل لعمرى إنَّ للإبل في السمات لأعظم المنافع، لأنها قد تشرب بسماتها ولا تُذاد عن الحوض إكراماً لأربابها، وقد تفضل فتؤوى، وتصاب في الهواشات^(٦) فترد.

قالوا: فإننا لا نسالكم إلا عن سمات الخيل والبغال والحمير والغنم. وبعدُ فكيف نستجيز أن نعْمها بالإحراق بالنار، لأمر عسى الأاحتاج إليه من ألف بعير واحد، ثم عسى الأاحتاج من جميع ذلك في جميع عمره إلا إلى شربة واحدة.

وقال القوم: إنّما المياسم في النعم السائمة كالرقوم في ثياب البزاز، ومتى ارتفعت الرقوم ومنعت المياسم، اختلطت الأموال، وإذا اختلطت أمكن فيها الظلم، والمظلومُ بأذل نفسه دون المعيشة والهزيمة.

(١) الميسم: المكواة أو الآلة التي يوسم بها الدواب. اللسان: وسم ٦٣٦/١٢.

(٢) المثلة: هو أن تنصب الدابة فترمى أو تقطع أطرافها وهي حية. اللسان: مثل ٦١٥/١١.

(٣) البط: شق الدملى. والمبطة: المبيض. اللسان: بطط ٢٦١/٧.

(٤) الفصد: شق العرق. وفصد الناقة: شق عرقها ليستخرج دمه فيشربه. اللسان: فصد.

(٥) الوجور: ما يصب بالمسقط من الدواء في أي الفم كان، واللدود: ما يصب في أحد شقي الفم.

اللسان: وجر ٢٧٩/٥.

(٦) الهواشات: الجماعات من الناس والإبل إذا جمعوها فاختلف بعضها ببعض. اللسان: هوش.

وقالوا: ليس قطع الآلية كالمجئمة وكالشيء المصبور، وقد نهيينا عن إحراق الهوام، وقيل لنا: لا تعذبوا بعذاب الله تعالى، والميسم نار، وقطع الآلية من شكل قطع العروق، وصاحب المجئمة يقدر أن يرمي - إن كان به تعلم الرماية - شيئاً لا يالم ولم يئن عن تغذيته، فما يرد الشيء المصبور من العذاب مردداً بوجه من الوجوه.

١٣٢ - [القول في نقص بعض أجزاء الحيوان أو نقضها أو إيلاها]

وقال آخرون: ليس لك أن تحدث في جميع الحيوان حدثاً من نقض أو نقص أو إيلام، لأنك لا تملك النشأة، ولا يمكنك التعويض له، فإذا أذن لك مالك العين، بل مخترعه ومنشئ ذاته والقادر على تعويضه، وهو الله عز وجل، حل لك من ذلك ما كان لا يحل. وليس لك في حجة العقل أن تصنع بها إلا ما كان به مصلحة، كعلاج الدبر والبيطرة.

وقال آخرون: لنا أن نصنع كل ما كان يصنع على عهد رسول الله ﷺ وبعده، مما لم يكن مدفوعاً عند بعضهم، إلا أن يكون نهياً ذلك البعض من جماعتهم، في طريق الخلاف والرد والمفارقة ولا يكون عندهم قولاً من الأقاويل، فإن ذلك في سبيل العلاج بعد أن كان المتكلف يعرف وجه الملام. والمذهب في ذلك معروف وإن كان خارجاً من ذلك الحد، فقد علمنا أنه أبيض من طريق التعبد والمحنة، كما جعل الله تعالى لنا ما أحل ذبحه من البهائم، وكما جعل لنا أن نقتل القمل والبراغيث والبعوض، وإن لم يكن منها إلا مقدار الأذى فقط. والقتل لا يكون قصاصاً من الأذى، ولكن لما أباح لنا خالق الشيء والقادر على تعويضه قتله، كان قتله أسوغ في العقل مع الأذى، من ذبح البهيمة مع السلامة من الأذى.

قال: وليس كل مؤذ ولا كل ذي أذى حكم الله تعالى فيه بإباحة القتل، والله عز وجل، بمقادير الأمور وبحكم المختلف والمتفق، والقليل من ذلك والكثير، أحكم وأعلم.

وقد أمر الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، بذبح إسحاق أو إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، فاطاع الوالد وطاوع الولد^(١).

(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الصافات: ١٠٢: ﴿يا بني إني أرى في المنام أنني أذبحك فانظر ماذا ترى. قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾. والذي أمر الله بذبحه هو

إسماعيل، وليس إسحاق. انظر تفسير ابن كثير ٤/ ١٦.

والجواب الماضي إنما هو قول من قال بالتعويض، وهو قول النظام. وأكثر المتكلمين يعترضون عليه فيه.

١٣٣ - [خصاء الإنسان]

ولا يزال - يرحمك الله تعالى - بعض الملحدين من المعاندين، أو بعض الموحدين من الأغبياء المنقوصين، قد طعن في ملك الخصي وبيعه وابتياعه، ويذكرون الخصي الذي كان المقوقس عظيم القبط أهدها إلى النبي ﷺ وعلى آله. مع مارية القبطية أم إبراهيم عليه السلام. قالوا: فقد ملك عليه الصلاة والسلام خصياً بعد أن عرفه وأحاط علمه بأنه خصي، وأنتم تزعمون أن الخصاء حرام، وأن من اشترى من الخاصي خصياً ثم زاد على قيمته وهو فحل، فقد أعان على الخصاء وحث عليه، ورغب فيه، وأنه من أفحش الظلم وأشد القسوة، وزعمتم أن من فعل ذلك فهو شريك الخاصي في الإثم، وأن حاله كحال المعروفين بالابتياع من اللصوص. وقتلتم: وكذلك من شهد القمار وهراس الكلاب، ونطاح الكباش وقتال الديوك، وأصحاب المجارحات وحرب الفتتين الضاليتين. وقتلتم: لأن هذه المواضع لو لم تحضرها النظارة لما عملوا تلك الأعمال، ولو فعلوها ما بلغوا مقدار الشطر، لغلبة الرياء والسُّمعة على قلوب الناس، فكذلك الخاصي، والمشتري، والمبتاع من المشتري، شركاء متعاونون، وخُلطاء مترادفون. وإذا كان المبتاع يزيد في السلعة لهذه العلة، والبائع يزيد في السوم لهذا السبب، وقد أقررتم بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد قبل له من المقوقس، كما قبل مارية، واستخدمه، وجرى عليه ملكه وأمره، فافهم - فهتمك الله تعالى - ما أنا مجيب به في هذه المسألة. والله الموفق، وعلى الله قصد السبيل.

أقول: قبل كل شيء لا يخلو هذا الحديث الذي روئتموه من أن يكون مرضي الإسناد. صحيح المخرج، أو يكون مسخوط الإسناد، فاسد المخرج. فإن كان مسخوطاً. فقد بطلت المسألة، وإن كان مرضياً، فقد علمنا أنه ليس في الحديث أنه قبله منه بعد أن علم أنه خصي، وعلى أن قبول الهدية خلاف الابتياع، لأن بائع الخصي إنما يحرم عليه التماس الزيادة، وكذلك المبتاع إنما يحرم عليه دفع الزيادة إذا كان لو سلم إليه بذلك الثمن فحلاً أجمل منه وأشب وأخدم منه لم يزد، والبائع أيضاً لا يستام بالفحل سومه بالخصي. وقبول الهدية، وقبول الهبة، وسبيل البيع والابتياع لا بأس به إذا كان على ما وصفنا، وإنما هدية الخصي كهدية الثوب والعطر، والدابة والفاكهة. ولأن الخصي لا يحرم ملكه ولا استخدام، بل لا يحل طرده ونفيه،

وَعَتَقَهُ جَائِزًا، وَجَوَّازُ الْعِتْقِ يُوجِبُ الْمَلِكَ . وَلَوْ بَاعَهُ الْمَالِكُ عَلَى غَيْرِ طَلْبِ الزِّيَادَةِ، أَوْ لَوْ تَابَ مِنَ الْخِصَاءِ أَوْ اسْتَحْلَهُ مِمَّا أَتَى إِلَيْهِ، لَمَّا حَرَّمَ عَلَى الْخَاصِيِّ نَفْسَهُ اسْتِخْدَامَهُ، وَالْخِصْيُ مَالٌ وَمَلِكٌ، وَاسْتِخْدَامُهُ حَسَنٌ جَمِيلٌ، وَلِأَنَّ خِصَاءَهُ إِيَّاهُ لَا يَعْتَقُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يُزِيلُ عَنْ مَلِكِهِ إِلَّا بِمِثْلِ مَا وَجَبَ بِهِ مَلِكُهُ .

وَأُخْرَى: أَنَّ فِي قَبُولِ هَدِيَّةِ ذَلِكَ الْمَلِكِ، وَتَلْقَى كِرَامَتِهِ بِالْإِكْرَامِ تَدْبِيرًا وَحِكْمَةً . فَقَدْ بَطَلَتِ الْمَسْأَلَةُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَمَا هُوَ أَهْلُهُ .

وَقَدْ رَوَاهُ مَعَ ذَلِكَ أَيْضًا: أَنَّ زَيْنَبَاعَةَ الْجُدَامِيَّ، خَصِيَّ عَبْدًا لَهُ^(١)، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَعْتَقَهُ عَلَيْهِ فِيمَا بَلَّغْنَا . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَرَبَّمَا سَأَلُوا عَنِ الشَّيْءِ وَلَيْسَ الْقَوْلُ فِيهِ يَقَعُ فِي نَسْقِ الْقَوْلِ فِي الْخِصْيِ، وَفِي الْخَلْقِ الْمُرَكَّبِ، وَلَكِنْ إِذْ قَدْ أَجَبْنَا فِي مَسْأَلَةِ كَلَامِيَّةٍ مِنْ مَسَائِلِ الطُّعْنِ فِي النَّبِوَّةِ، فَلَا بَأْسَ أَنْ نُضَيِّفَ إِلَيْهَا أُخْرَى، وَلَا سِيَّمًا إِذَا لَمْ تَطَّلُ فَتَزِيدَ فِي طُولِ الْكِتَابِ .

وَقَدْ لَا يَزَالُ الطَّاعِنُ يَقُولُ: قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَسِمُوا حُرُوبَ أَيَّامِ الْفِجَارِ بِالْفِجُورِ وَقَرِيشَ خَاصَّةً، إِلَّا أَنَّ الْقِتَالَ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ، فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ كَانَ عِنْدَهُمْ فَجُورًا، وَتِلْكَ حُرُوبٌ قَدْ شَهِدَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ، وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِ عَشَرَ سَنَةً، وَابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَنَةً يَكُونُ بِالْغَا^(٢)، وَقَالَ: «شَهِدْتُ الْفِجَارَ فَكُنْتُ أَنْبَلُ عَلَى عَمُومَتِي»^(٣) .

وَجَوَابُنَا فِي ذَلِكَ: أَنَّ بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ، طَالَبُوا أَهْلَ الْحَرَمِ مِنْ قَرِيشَ وَكِنَانَةَ، بِجَرِيرَةَ الْبَرَّاضِ بْنِ قَيْسٍ، فِي قَتْلِهِ عُرْوَةَ الرَّحَّالِ، وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ يُطَالِبُونَ مَنْ لَمْ يَجِنْ وَمَنْ لَمْ يَعاوُنْ، وَأَنَّ الْبَرَّاضِ بْنِ قَيْسٍ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ خَلِيعًا مَطْرُودًا، فَاتَّوَّهُمَ إِلَى حَرَمِهِمْ يُلْزِمُونَهُمْ ذَنْبَ غَيْرِهِمْ، فِدَافَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَعَنْ أَمْوَالِهِمْ، وَعَنْ ذُرَارِيهِمْ، وَالْفَاجِرُ لَا يَكُونُ الْمُسْعِيَّ عَلَيْهِ، وَلِذَلِكَ أَشْهَدَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذَلِكَ الْمَوْقِفَ، وَبِهِ نُصِرُوا كَمَا نُصِرَتِ الْعَرَبُ عَلَى فَارِسَ يَوْمَ ذِي قَارِ، بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَبِمَخْرَجِهِ . وَهَذَانِ جَوَابَانِ وَاضِحَانِ قَرِيبَانِ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَ .

(١) النهاية ٢٣٣/١ .

(٢) فِي أَنْسَابِ الْأَشْرَافِ ١٠٣ . أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ عَمْرُهُ عَشْرِينَ سَنَةً؛ أَوْ أَشْفَ مِنْهَا . وَمَنْ قَالَ إِنَّهُ كَانَ ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَنَةً فَقَدْ غَلَطَ .

(٣) النهاية ٤١٤/١ .

ثم رجَعَ بنا القولُ إلى ذكرِ محاسِنِ الخصيِّ ومساويه .

الخصيُّ يَنكحُ ويتَّخذُ الجوارِي ويشتدُّ شغفه بالنساء، وشغفُه به، وهو وإن كان محبوبَ العضو فإنَّه قد بقي له ما عسى أن يكون فيه من ذلك ما هو أعجبُ إليهنَّ . وقد يحتلم ويخرجُ منه عند الوطء ماءً، ولكنَّه قليلٌ متغيِّرُ الريح، رقيقٌ ضعيف . وهو يباشرُ بمشقة، ثم لا يمنعه من المعاودة الماءُ الذي يخرج منه إذ كان قليل المقدار لا يخرجُه من القوَّة إلى الضعف، مثل الذي يعتري من يخرج منه شيء يكون من إنسان، وهو أخثر، وأكثر، وأحدُّ ريحاً، وأصحُّ جوهرًا .

والخصيُّ يجتمع فيه أمنيَّةُ المرأة، وذلك أنَّها تبغض كلَّ سريع الإفاقة، بطيء الإفاقة، كما تكره كلَّ ثقيل الصدر^(١)، وخفيف العجز، والخصيُّ هو السريع الإفاقة، البطيء الإفاقة، المأمونُ الإلقاح، فتقيمُ المرأةُ معه، وهي آمنة العار الأكبر، فهذا أشدُّ لتوفير لذتها وشهوتها، وإذا ابتذلن الخيسان، وحقرن العبيد، وذهبت الهيبةُ من قلوبهنَّ، وتعظيمُ البعول، والتصنعُ لذوي الأقدار باجتلاب الحياء وتكلف الخجل، ظهر كلُّ شيء في قوى طبائعهنَّ وشهواتهنَّ، فأمكنها النَّخير والصباح، وأن تكون مرَّةً من فوق، ومرَّةً من أسفل، وسمحت النفسُ بمكنونها، وأظهرت أقصى ما عندها .

وقد تجد في النساء من تؤثر النساء، وتجد فيهن من تؤثر الرجال، وتجد فيهن من تؤثر الخصيان، وتجد فيهن من تجمع ولا تفرق، وتعم ولا تخص، وكذلك شأن الرجال في الرجال، وفي النساء والخصيان فالمرأة تنازع إلى الخصي لأنَّ أمره أستر وعاقبته أسلم، وتحرص عليه لأنه ممنوعٌ منها، ولأنَّ ذلك حرام عليها، فلها جاذبان: جاذبٌ حرص كما يحرض على الممنوع، وجاذبٌ آمن كما يُرغب في السلامة . وقال الأصمعي: قال يونس بن عبَّيد: لو أخذنا بالجزع لصبرنا^(٢) . قال الشاعر: [من البسيط]

وزادها كلفاً بالحبُّ أنْ منعتُ وحبُّ شيءٍ إلى الإنسان ما مُنعاً^(٣)

والحرصُ على الممنوع بابٌ لا يقدر على الاحتجاز منه، والاحتراس من خُدعه،

(١) مثل امرئ القيس .

(٢) البيان ١٣١/٣، وعميون الأخبار ٢/٢ .

(٣) البيت للأحوص في ديوانه ١٥٣، والحماسة الشجرية ٥٢١/١، وزهر الآداب ٤٠٦، ولمجنون ليلي في ديوانه ٢٠١، وبلا نسبة في عيون الأخبار ٥/٢، واللسان (حب)، والبخلاء ١٦١ .

إلا كلُّ مبرز في الفطنة ومتمهّل في العزيمة، طويل التجارب، فاضل العقل على قوَى الشهوات. وبئس الشيءُ القرينُ السوء. وقالوا: صاحب السوءِ قطعةٌ من النار.

وبابٌ من هذا الشكل، فيكم أعظم حاجةٍ إلى أن تعرفوه وتقفوا عنده، وهو ما يصنع الخبرُ السابق إلى السمع، ولا سيّما إذا صادفَ من السامع قلةً تجرية، فإن قرّن بين قلةً التجربة وقلةً التحفّظ، دخل ذلك الخبر السابق إلى مستقره دُخولاً سهلاً، وصادفَ موضعاً وطيباً، وطبيعةً قابلة، ونفساً ساكنة؛ ومتى صادفَ القلبَ كذلك، رسخ رسوخاً لا حيلة في إزالته. ومتى ألقى إلى الفتیان شيءٌ من أمور الفتيات، في وقت الغرارة، وعند غلبة الطبيعة، وشباب الشهوة، وقلة التشاغل؛ وكذلك متى ألقى إلى الفتیان شيءٌ من أمورهنّ وأمور العُلّمان، وهناك سُكر الشباب، فكذلك تكون حالهم. وإن الشطّار ليخلو أحدهم بالغلام الغرير فيقول له: لا يكون الغلام فتى أبداً حتّى يصادق فتى وإلا فهو تكش، والتكش عندهم الذي لم يؤدبه فتى ولم يخرجّه، فما الماءُ العذبُ البارد، بأسرع في طباع العطشان، من كلمته، إذا كان للغلام أدنى هوى في الفتوة، وأدنى داعيةٍ إلى المنالة. وكذلك إذا خلّت العجوز المدربة بالجارية الحدّثة كيف تخلبها. وأنشدنا: [من الخفيف]

فاتتها طبةٌ عالمةٌ تخلط الجدّ بأصناف اللعبِ
ترفع الصوت إذا لانت لها وتناهى عند سورات الغضبِ

وقال الشاعر فيما يشبه وقوع الخبر السابق إلى القلب: [من الكامل]

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحبُّ إلا للحبيب الأول^(١)
كم منزل في الأرض يالفه الفتى وحينئذ أبداً لأولٍ منزلٍ

وقال مجنون بني عامر: [من الطويل]

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكّنا^(٢)

١٣٥ - [ما يدعو إلى الفساد]

وبابٌ آخر ممّا يدعو إلى الفساد، وهو طول وقوع البصر على الإنسان الذي في طبعه أدنى قابل، وأدنى حركةٍ عند مثله. وطول التداني، وكثرة الرؤية هما أصل

(١) البيتان لأبي تمام في ديوان الصبابة ١٥.

(٢) البيت لمجنون ليلي في ديوانه ٢٨٢، والبيان ٤٢/٢، ولبيد بن الطثرية في ديوانه ١٠٩،

والحماسة الشجرية ١٤٥، ولعمر بن أبي ربيعة في عيون الأخبار ٩/٣. وتقدم في الفقرة (١٨).

البلاء، كما قيل لابنة الخُسّ: لم زَنيْتِ بعبدِكَ ولم تزني بحرٍّ، وما أغرَاكَ به؟ قالت: طُولُ السَّوَادِ، وقُرْبُ الوِسَادِ^(١).

ولو أن أقبَحَ النَّاسِ وجهاً، وأنتنهم ريحاً، وأظهرهم فقراً، وأسقطهم نفساً، وأوضعهم حسباً، قال لامرأة قد تمكَّنَ من كلامها، ومكنته من سمعها: واللَّه يا مولاتي وسيدتي، لقد أسهرت ليالي، وأرقت عيني، وشغلتنني عن مهمِّ أمري، فما أعقلُ أهلاً، ولا مالاً، ولا ولداً؛ لنقض طباعها، ولفسخ عقدها، ولو كانت أبرع الخلق جمالاً، وأكملهم كمالاً، وأملحهم ملحاً. فإن تهيأ مع ذلك من هذا المتعشِّق، أن تدمع عينه، احتاجت هذه المرأة أن يكون معها ورعٌ أم الدرداء، ومُعَاذَةُ العَدُوَّةِ، ورابعة القيسيَّة، والشجاء الخارجيَّة.

١٣٦ - [زهّد النَّاسِ فيما يملكونه ورجبتهم فيما ليس يملكونه]

وإنمَّا قال عمر بن الخطَّاب رضي الله تعالى عنه: «اضربوهنَّ بالعُرِّي»^(٢) لأنَّ الثيابَ هي المدعاةُ إلى الخروجِ في الأعراس، والقيامِ في المناحات، والظهورِ في الأعياد، ومتى كثر خروجُها لم يعدمها أن ترى من هو من شكلِ طبعها. ولو كان بعلمها أتمَّ حسناً، والذي رأت أنقصَ حسناً، لكان ما لا تملكه، أطرفَ ممَّا تملكه، ولكان ما لم تنله، ولم تستكثر منه، أشدَّ لها اشتغالاً وأشدَّ لها اجتذاباً. ولذلك قال الشاعر: [من الطويل]

وللعين ملهى بالتلاد ولم يقُدْ هوى النفس شيءٌ كاقتيادِ الطرائفِ

وقال سعيد بن مسلم: لأن يري حرمتي ألف رجل على حالٍ تكشف منها وهي لا تراهم، أحبُّ إليَّ من أن ترى حرمتي رجلاً واحداً غير منكشف.

وقال الأول: لا يضركُ حُسنٌ من لم تعرف؛ لأنك إذا أتبعتها بصرك، وقد نقضت طبعك، فعلمت أنك لا تصل إليها بنفسك ولا بكتابك ولا برسولك، كان الذي رأيت منها كالحلم، وكما يتصور للمتمني، فإذا انقضى ما هو فيه من المنى، ورجعت نفسه إلى مكانها الأول، لم يكن عليه من فقدها إلا مثلُ فقد ما رآه في النوم، أو مثلته له الأمانى.

(١) ورد قولها في البيان ١/٣٢٤، ومجالس ثعلب ٣٠٤، وربيع الأبرار ٣/١٥٨، وهو من الأمثال في مجمع الأمثال ٢/٩٣، والمستقصى ٢/١٩٥، وجمهرة الأمثال ٢/١١٤، ١٢٦.

(٢) عيون الأخبار ٤/٧٨. وانظر في مثل قوله ربيع الأبرار ٥/٢٨٢-٢٨٣.

١٣٧ - [عقيل بن علفة وبناته]

وقيل لعقيل بن علفة: لو زوجت بناتك فإن النساء لحم على وضمر إذا لم يكن غانيات!! قال: كلا، إنني أجيعهن فلا يأسرن، وأعريهن فلا يظهرن^(١)!! فوافقت إحدى كلمتيه قول النبي ﷺ ووافقت الأخرى قول عمر بن الخطاب؛ لأن النبي ﷺ قال: «الصوم وجاء»^(٢). وقال عمر: استعينوا عليهن بالعري. وقد جاء في الحديث: «وفروا أشعارهن فإن ترك الشعر مجفرة»^(٣). وقد أتينا على هذا الباب في الموضوع الذي ذكرنا فيه شأن الغيرة، وأول الفساد، وكيف ينبت، وكيف يُحصَد.

١٣٨ - [ميول الخصيان]

وقد رأيت غير خصي يتلوّط، ويطلب الغلمان في المواضع، ويخلو بهم ويأخذهم على جهة الصداقة، ويحمل في ذلك الحديد، ويقاتل دون السخول، ويتمشى مع الشطّار.

وقد كان في قطيعة الربيع خصيٌّ أثيرٌ عند مولاه، عظيم المنزلة عنده؛ وكان يثق به في ملك يمينه، وفي حرمة من بنت وزوجة وأخت، لا يخص شيئاً دون شيء، فأشرف ذات يوم على مرّبه له، وفي المرّبه غنمٌ صفايا، وقد شدّ يدي شاة وركبها من مؤخرها يكومها، فلماً أبصره برقٌ وبعل^(٤) وسقط في يديه، وهجم عليه أمرّ لو يكون رآه من خصيٍّ لعدو له كما فارق ذلك الهولُ أبداً قلبه، فكيف وإنما عاين الذي عاين فيمن كان يخلفه في نسائه من حرمة وملك يمينه. فبينما الرجل وهو واجم حزين، وهو ينظر إليه وقد تحرق عليه غيظاً إذ رقع الخصي رأسه، فلماً أثبت مولاه مرّ مسرعاً نحو باب الدار ليركب رأسه، وكان المولى أقرب إلى الباب منه، فسبقه إليه، وكان الموضوع الذي رآه منه موضعاً لا يُصعد إليه، فحدث لشقائه أمرّ لم يجد مولاه معه بدأ من صعوده، فلبث الخصي ساعة ينتفض من حُمى ركبته ثم فاض، ولم يُمس إلا وهو في القبر.

ولفرط إرادتهم النساء، وبالחסرة التي نالتهم، وبالأسف الذي دخلهم، أبغضوا

(١) عيون الاخبار ٤/ ٧٨، والاعاني ١٢/ ٢٥٩، وربيع الأبرار ٥/ ٢٨٣، وذيل الامالي ١٠٦.

(٢) النهاية ٥/ ١٥٢.

(٣) النهاية ١/ ٢٧٨، صوموا ووفروا أشعاركم فإنها مجفرة؛ أي مقطعة للنكاح، ونقص للماء.

(٤) بعل: دهن فلم يدر كيف يصنع. اللسان: بعل ١١/ ٥٩.

الفحول بأشدَّ من تباغُضِ الأعداءِ فيما بينهم، حتَّى ليس بين الحاسدِ الباغي وبين أصحابِ النِّعمِ المتظاهرة، ولا بين المآشي المعنى وبين راکبِ الهِمْلَاجِ الفاره^(١)، ولا بين ملوكِ صاروا سُوقةً، وبين سُوقةِ صاروا ملوكاً، ولا بين بني الأعمامِ مع وقوع التنافسِ، أو وقوع الحربِ، ولا بين الجيرانِ والمتشاكليين في الصناعاتِ، من الشنفِ والبغضاءِ، بقدرِ ما يلتحف عليه الخصيانُ للفحول.

وبُغضِ الخصيِّ للفحل من شكلِ بُغضِ الحاسدِ لذِي النعمة، وليس من شكلِ ما يولِّده التنافسُ وتلحُّقه الجناياتِ.

١٣٩ - [نسك طوائف من الناس] (٢)

ولرجالٍ كلُّ قنٍّ وضربٍ من الناس، ضربٌ من النسك، إذ لا بدُّ لأحدِهِم من النزوعِ، ومن تركِ طريقته الأولى: فنسكِ الخصيِّ غزو الرومِ، لما أن كانوا هم الذين خصَّوهم، ولزومُ أذنةِ الرِّباطِ بطرسوسَ وأشباهها. فظنَّ عند ذلك أهلُ الفِراسةِ أن سببَ ذلك إنما كان لأنَّ الرومِ لما كانوا هم الذين خصَّوهم، كانوا مغتاطين عليهم، وكانت متطلبيةً إلى التشفِّي منهم، فأخرج لهم حبُّ التشفِّي شدةَ الاعتزامِ على قتلهم، وعلى الإنفاقِ في كلِّ شيءٍ يبلغُ منهم. ونسكُ الخراسانيِّ أن يُحجَّ: ونسكُ البنوي^(٣) أن يدعَ الديوانَ. ونسكُ المغنيِّ: أن يُكثرَ التسبيحُ وهو يشربُ النبيذَ، والصلاةَ على النبي ﷺ، والصلاةَ في جماعة. ونسكُ الرافضيِّ: إظهارُ تركِ النبيذِ. ونسكُ السَّواديِّ تركُ شربِ المطبوخِ فقط. ونسكُ اليهوديِّ: إقامة السبتِ. ونسكُ المتكلِّمِ: التسرعُ إلى إكفارِ أهلِ المعاصي، وأن يرميَ الناسَ بالجبرِ، أو بالتعطيلِ، أو بالزندقةِ، يريد أن يوهم أموراً:

منها أن ذلك ليس إلا من تعظيمه للدين، والإغراق فيه، ومنها أن يقال: لو كان نطفاً، أو مرتاباً، أو مجتنحاً على بليةٍ، لما رمى الناسَ، ولرضي منهم بالسلامة، وما كان ليرميهم إلا للعرز الذي في قلبه، ولو كان هناك من ذلُّ الريبةِ شيءٍ لقطعه ذلك عن التعرُّضِ لهم، أو التنبيهِ على ما عسى إن حركهم له أن يتحرَّكوا. ولم نجد في المتكلِّمين أنطفَ ولا أكثرَ عيوباً، ممَّن يرمي خصومه بالكفر.

(١) الهملاج: البرذون، والهملاج: حسن سير الدابة في سرعة. (اللسان: هملج).

(٢) انظر الفقرة ١٧٣.

(٣) الأبناء: قوم من أبناء فارس، ارتهنوا باليمن، وغلب عليهم اسم الأبناء، والنسب إليهم أبناوي في لغة بني سعد. أو بنوي. اللسان: بني ٩١/١٤.

١٤٠ - [الجماز وجارية آل جعفر]

وكان أبو عبد الله الجمّاز، وهو محمد بن عمرو، يتعشّق جارية لآل جعفر يقال لها طُغَيان، وكان لهم خصيٌّ يحفظها إذا أرادت بيوت المغنّين، وكان الخصيُّ أشدَّ عشقاً لها من الجمّاز، وكان قد حال بينه وبين كلامها، والدنو منها، فقال الجمّاز وكان اسم الخادم سنّاناً: [من المجتث]

ما للمقيتِ سنّان وللظبياء والملاح
لبئسَ زانٍ خصيٌّ غازٍ بغير سلاح

وقال أيضاً فيه وفيها: [من المجتث]

نَفْسِي الفداءُ لظبيِّ يحبُّني وأُحِبُّهُ
من أجلِ ذاكِ سنّانٍ إذا رآني يَسْبُهُ
هَبُّهُ أجابَ سنّاناً يَنِيكُهُ أين زُبُهُ

وقال أيضاً فيهما: [من المجتث]

ظبيُّ سنّانُ شريكِي فيه فبئسَ الشريكُ
فلا يَنِيكُ سنّانُ ولا يدَعنا ننيكُ

١٤١ - [شعر في الخصاء]

وقال الباخريزيّ يذكرُ محاسنَ خِصالِ الخِصيان: [من الخفيف]
ونساء لمطمئنٌ مُقيمٌ ورجال إن كانت الأسفارُ

وقال حميد بن ثور يهجو امرأته: [من الطويل]

جُلْبَانَةٌ ورهاءِ تخصّي حمارها بفي من بغى خيراً إليها الجلامدُ^(١)

وقال مزرد بن ضرار: [من الطويل]

فجاءتُ كخاصي العيرِ لم تحلّ عاجةٌ ولا جاجةٌ منها تلوحُ على وشمّ^(٢)

(١) البيت في ديوان حميد بن ثور ٦٥، وأمالى القالي ١٤٦/٢، واللسان والتاج (جلب، جرب)، والمخصص ٢٧٨/١٣، وتهذيب اللغة ٩٤/١١. الجلبانة: الصخابة السيئة الخلق. الورهاء: الحمقاء.

(٢) البيت لأبي خراش الهذلي في شرح أشعار الهذليين ١٢٠١، واللسان (جوج، عوج)، والتاج (جوج، خضل)، وللهذلي في اللسان (خضل)، والتاج (عوج).

وقال عمرو الخاركي: [من الهزج]

إذا لأم على المرد
ولا والله ما أفـ
نصيح زاذني حرصاً^(١)
للع ما عمّرت أو أخصى

وقال آخر: [من الوافر]

رَمَاكَ اللَّهُ مِنْ أَيْرٍ بِأَفْعَى
جَزَاكَ اللَّهُ شَرًّا مِنْ رَفِيقِي
أَجْبِنَا فِي الْكَرْيَهَةِ حِينَ نَلْقَى
فَلَا وَاللَّهِ مَا أَمْسَى رَفِيقِي
ولا عافاك من جهد البلاء
إذا بلغت بي ركب النساء
وما تنفك تُنعظ في الخلاء
ولولا البول عوجل بالخصاء

وقال بعض عبد القيس: [من الكامل]

ما كان قحذم ابن واهصة الخصى
ومن انتكاس الدهر أن زوجتها
لو كان منذر إذ خطبت إليهم
يرجو المناكح في بني الجارود
ولكل دهر عثرة بجدود
حيًا لكان خصاك بالمغمود

وقال أبو عبيدة: حدّثني أبو الخطاب قال^(٢): كان عندنا رجلٌ أهدبٌ فسقط
في بئرٍ فذهبت حدبته وصار آدر فقبل له: كيف تجدك؟ فقال: الذي جاء شرٌّ من
الذي ذهب!

وأبو الحسن عن بعض رجاله قال: خرج معاوية ذات يومٍ يمشي ومعه خصبيٌّ
له، إذ دخل على ميسون ابنة بحدل وهي أم يزيد، فاستترت منه فقال: أتستترين منه،
وإنما هو مثل المرأة؟ قالت: أتري أن المثلة به تُحلُّ ما حرّم الله تعالى؟!

(١) البيتان في معجم الشعراء ٣٢.

(٢) الخبر في عيون الاخبار ٣/٤٨، ٤٨/٦٨، وهو في البرصان والمرجان ٢٦١ وقد رواه أبو الحسن.

ذكر ما جاء في خصاء الدواب

١٤٢ - [خصاء الدواب]

ذكر آدم بن سليمان عن الشعبي قال: قرأت كتاب عمر رضي الله تعالى عنه إلى سعد، ينهى عن حذف أذنان الخيل وأعرافها، وعن خصائها، ويأمره أن يجري من رأس المائتين. وهو أربعة فراسخ.

وسفيان الثوري عن عاصم بن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنه كان ينهى عن خصاء البهائم ويقول: هل الإنماء إلا في الذكور.

وشريك بن عبد الله، قال: أخبرني إبراهيم بن المهاجر، عن إبراهيم النخعي أن عمر رضي الله تعالى عنه نهى عن خصاء الخيل.

وسفيان الثوري عن إبراهيم بن المهاجر قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لبعض عماله: لا تجرين فرساً إلا من المائتين، ولا تخصين فرساً.

وقال: وسمعت نافعاً يقول: كان عبد الله بن عمر يكره خصاء الذكور من الإبل، والبقر، والغنم.

وعبيد الله بن عمر عن نافع: أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما كان يكره الخصاء ويقول: لا تقطعوا نامية خلق الله تعالى.

وعبد الله وأبو بكر ابنا نافع عن نافع قال: نهى رسول الله ﷺ عن أن تُخصى ذكور الخيل، والإبل، والبقر، والغنم، يقول: فيها نشأة الخلق، ولا تصلح الإناث إلا بالذكور.

ومحمد بن أبي ذئب قال: سألت الزهري: هل بخصاء البهائم بأس؟ قال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، أن رسول الله ﷺ وعلى آله الطاهرين، نهى عن صبر الروح. قال الزهري: والخصاء صبر شديد.

وأبو جعفر الرازي قال: حدثنا الربيع بن أنس، عن أنس بن مالك في قوله تعالى: ﴿وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ (١) قال: هو الخصاء.

وأبو جرير عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس نحوه.

(١) ١١٩: النساء / ٤. والاقوال التالية في تفسير هذه الآية وردت في تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٩.

أبو بكر الهذلي قال: سألت الحسنَ عن خِصَاءِ الدوابِ فقال: تسألني عن هذا؟ لعن الله من خَصَى الرجال.

أبو بكر الهذلي عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَلَا مُرْتَهُمَ فَلْيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ قال: خِصَاءُ الدوابِ. قال: وقال سعيد بن جبيرة: أخطأ عكرمة، هو دين الله.

نصر بن طريف قال: حدثنا قتادة عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿فَلْيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ قال: خِصَاءُ البهائم. فبلغ مجاهداً فقال: كَذَبَ هو دين الله.

فمن العجب أن الذي قال عكرمة هو الصواب، ولو كان هو الخطأ لما جاز لأحد أن يقول له: كذبت. والناسُ لا يضعون هذه الكلمة في موضع خطأ الرأي ممن يُظنُّ به الاجتهاد، وكان ممن له أن يقول. ولو أن إنساناً سمع قولَ الله تبارك وتعالى: ﴿فَلْيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ قال: إنما يعني الخِصَاءَ، لم يقبل ذلك منه؛ لأنَّ اللفظ ليست فيه دلالةٌ على شيءٍ دون شيءٍ، وإذا كان اللفظُ عاماً لم يكن لأحد أن يقصد به إلى شيءٍ بعينه إلا أن يكون النبي ﷺ قال ذلك مع تلاوة الآية، أو يكون جبريلُ عليه السلام قال ذلك للنبي ﷺ؛ لأنَّ الله تبارك وتعالى لا يضمر ولا ينوي، ولا يخصُّ ولا يعمُّ بالقصد؛ وإنما الدلالةُ في بنية الكلام نفسه، فصورة الكلام هو الإرادة وهو القصد، وليس بينه وبين الله تعالى عملٌ آخر كالذي يكون من الناس، تعالى الله عن قول المشبهة علواً كبيراً.

أبو جرير عن عمار بن أبي عمار أن ابن عباس قال في قوله تعالى: ﴿وَلَا مُرْتَهُمَ فَلْيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ قال: هو الخِصَاءُ.

وأبو جرير عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس مثله.

أبو داود النخعي، عن محمد بن سعيد عن عبادة بن نسي، عن إبراهيم بن محيريز قال: كان أحب الخيل إلى سلف المسلمين، في عهد عمر، وعثمان، ومعاوية، رضي الله تعالى عنهم، الخِصْبَانُ؛ فإنها أخفى للكمين والطلائع، وأبقى على الجهد.

أبو جرير قال: أخبرني ابن جريج عن عطاء أنه لم ير بأساً بخِصَاءِ الدوابِ.

وأبو جرير عن أيوب عن ابن سيرين، أنه لم يكن يرى بأساً بالخِصَاءِ، ويقول: لو تركت الفحولة لاكل بعضها بعضاً.

وعمر ويونس عن الحسن: أنه لم يكن يرى بأساً بخِصَاءِ الدوابِ.

سفيان بن عيينة عن ابن طاوس عن أبيه: أنه خَصَى بغيراً.

وسفيان بن عيينة عن مالك بن مغول عن عطاء، أنه سئل عن خصاء البغل فقال: إذا خفت عِضاضه.

١٤٣ - [أقوال في النتاج المركب]

وَلْتَصِلْ هَذَا الْكَلَامَ بِالْكَلامِ الَّذِي قَبْلَ هَذَا فِي الْخَلْقِ الْمَرْكَبِ وَفِي تَلَاوُحِ الْأَجْنَاسِ الْمَخْتَلِفَةِ. زَعَمُوا أَنَّ الْعَسْبَارَ وَلَدَ الضَّبْعِ مِنَ الذُّئْبِ، وَجَمَعَهُ عَسَابِرٌ. وَقَالَ الْكَمَيْتُ: [مَنْ مَجْزُوءَ الْكَامِلِ]

وَتَجَمَّعَ الْمَتَفَرِّقُونَ
نَ مِنَ الْفَرَاغِ الْعَسَابِرُ^(١)
يَرْمِيهِمْ بِأَنَّهُمْ أَخْلَاطٌ وَمُعْلَهْجُونَ.

وَزَعَمُوا أَنَّ السَّمْعَ وَلَدَ الذُّئْبِ مِنَ الضَّبْعِ، وَيَزَعْمُونَ أَنَّ السَّمْعَ كَالْحَيَّةِ لَا تَعْرِفُ الْعَلْلَ، وَلَا تَمُوتُ حَتَّى أَنْفِهَا، وَلَا تَمُوتُ إِلَّا بَعْرَضٍ يَعْرِضُ لَهَا. وَيَزَعْمُونَ أَنَّهُ لَا يَعْدُو شَيْءٌ كَعَدْوِ السَّمْعِ، وَأَنَّهُ أَسْرَعُ مِنَ الرِّيحِ وَالطَّيْرِ.

وقال سهم بن حنظلة يصف فرسه: [من البسيط]

فَاعْصِ الْعَوَازِلَ وَارْمِ اللَّيْلَ فِي عَرْضِ
بِذِي شَبِيبٍ يُقَاسِي لَيْلَهُ حَبَابًا^(٢)
كَالسَّمْعِ لَمْ يَنْقَبِ الْبَيْطَارُ سَرَّتَهُ
وَلَمْ يَدِجْهُ وَلَمْ يَغْمِزْ لَهُ عَصَبًا

وقال ابن كُنَاسَةَ يصف فرساً: [من الخفيف]

كَالْعَقَابِ الطَّلُوبِ يَضْرِبُهَا الطَّ
لٌ وَقَدْ صَوَّبَتْ عَلَى عَسْبَارِ

وقال سؤر الذئب: [من الخفيف]

هُوَ سَمِعٌ إِذَا تَمَطَّرَ شَيْئاً
وَعُقَابٌ يَحْتُثُّ عَسْبَارُ

يقول: إِذَا اشْتَدَّ هَرَبُ الْمَطْلُوبِ الْهَارِبِ مِنَ الطَّالِبِ الْجَادِّ، فَهُوَ أَحْتٌ لِلطَّالِبِ، وَإِذَا صَارَ كَذَلِكَ صَارَ الْمَطْلُوبُ حَيْنَئِذٍ فِي مَعْنَى مَنْ يَحْتُ الْطَلْبُ، إِذْ صَارَ إِفْرَاطَ سُرْعَتِهِ سَبَباً لِإِفْرَاطِ طَلْبِ الْعُقَابِ.

وقال تَابِطُ شَرَّاءُ، أَوْ أَبُو مُحَرَّرِ خَلْفِ بْنِ حَيَّانِ الْأَحْمَرِ: [من المديد]

مُسْبِلٌ بِالْحَيِّ أَحْوَى رِقْلُ
وَإِذَا يَعْدُو فَسَمِعٌ أَزَلُّ^(٣)

(١) ديوان الكميت ١/ ٢٢٨، واللسان والنتاج (عسبر)، والمخصص ٧٢/٨. الفرغل: ولد الضبع من الضبعان.

(٢) البيتان لسهم بن حنظلة في الوحشيات ٣٢ والأصمعيات ص ٥٤، ولكعب بن سعد في معجم الشعراء ٢٢٩، ولأحدهما في الحماسة البصرية ١/ ٨٣ وبلا نسبة في اللسان وأساس البلاغة والنتاج (نقب)، ولمرة بن محكان في اللسان والنتاج (نقب)، برواية مختلفة.

(٣) البيت لتابط شرأ في ديوانه ٦٤، وهو من قصيدة في شرح الحماسة للتبريزي ١/ ٣٤١-٣٤٧.

وإنما قال أزلّ وجعله عادياً ووصفه بذلك، لأنه ابن الذئب.

وقال الأصمعي: [من الرجز]

* يدير عيني لمظة عسبارَه *

وقال في موضع آخر: [من الرجز]

* كان منها طرفه استعارَه *

وقال آخر: [من الرجز]

* تلقى بها السّمع الأزلّ الأطلّسا *

وزعموا أنّ ولد الذئب من الكلبة الدّيسم، ورووا لبشارِ بنِ بُردٍ في ديسمِ العنزِيّ أنّه قال: [من الطويل]

أديسمُ يا ابنَ الذئبِ من نسلِ زارعٍ أتروِي هِجائي سادراً غيرَ مُقصرِ
زارع: اسم الكلب، يقال للكلاب أولاد زارعٍ.

١٤٤ - [زعم لأرسطو في النتاج المركب]

وزعم صاحب المنطق أنّ أصنافاً أُخرَ من السباع المتزاوجات المتلاقحات مع اختلاف الجنس والصورة، معروفة النتاج مثل الذئاب التي تسفد الكلاب في أرض رومية: قال: وتتولد أيضاً كلابٌ سلوقيةٌ من ثعالب وكلاب. قال: وبين الحيوان الذي يسمّى باليونانية طاغريس^(١) وبين الكلب، تحدث هذه الكلاب الهندية. قال: وليس يكون ذلك من الولادة الأولى.

قال أبو عثمان: عن بعض البصريين عن أصحابه قال: وزعموا أنّ نتاج الأولى يخرجُ صعباً وحشياً لا يلقن ولا يؤلف.

١٤٥ - [تلاقح السبع والكلبة]

وزعم لي بعضهم عن رجلٍ من أهل الكوفة من بني تميم أنّ الكلبة تعرض لهذا السبع حتى تلقح، ثم تعرض لمثله مراراً حتى يكون جرو البطن الثالث قليل الصعوبة يقبل التلقين، وأنهم يأخذون إناث الكلاب، ويريطونها في تلك البراري، فتجيء هذه السباع وتسفدُها، وليس في الأرض أنثى يُجتمَع على حبِّ سفادها، ولا ذكرٌ يجتمع له من النزوع إلى سفاد الأجناس المختلفة، أكثر في ذلك من الكلب والكلبة.

(١) نهاية الأرب ٢٥٦/٩.

قال: وإذا رَبَطُوا هذه الكلابَ الإناثَ في تلك البراري، فإن كانت هذه السباع هائجةً سَفَدَتْها، وإن لم يكن السبع هائجاً فالكلبة مأكولة. وقال أبو عدنان^(١): [من الطويل]

أيا باكي الأطلالِ في رَسْمِ دمنةٍ تَرُوْدُ بها عينُ المَهَا والجَاذِرُ
وعاناتُ جَوَّالٍ وهَيْقُ سَفْنَجٍ وسنداوة فضفاضة وحَضَاجِرُ^(٢)
وسَمْعٌ خَفِيٌّ الرِّزُّ ثَلْبٌ ودَوْبِلٌ وثُرْمَلَةٌ تعتاها وعَسَابِرُ^(٣)

وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل، وما نظنُّ بمثله أن يخلد على نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الامتحان، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء، وما عندنا في معرفة ما ادعى إلا هذا القول.

وأما الذين ذكروا في أشعارهم السَّمْعَ والعِسَابِرَ، فليس في ظاهر كلامهم دليلٌ على ما ادعى عليهم الناسُ من هذا التركيب المختلف، فأدبنا الذي قالوا وأمسكنا عن الشهادة، إذ لم نجد عليها بُرهاناً.

١٤٦ - [أولاد السُعلاة]

وللناس في هذا الضَرْبِ ضروبٌ من الدعوى، وعلماءُ السوء يُظهرون تجويزها وتحقيقتها، كالذي يدعون من أولاد السُعَالِي من الناس، كما ذكروا عن عمرو بن يربوع^(٤)، وكما يروي أبو زيد النحويُّ عن السُعلاة التي أقامت في بني تميم حتى وكّدت فيهم، فلماً رأت برقاً يلْمَعُ من شقِّ بلاد السُعَالِي، حنّت وطارَت إليهم، فقال شاعرهم: [من الوافر]

رأى بَرَقاً فأَوْضَعَ فَوْقَ بَكْرٍ فَلَا بِكَ ما أسألَ وما أغامأ^(٥)

(١) في البيان ٢٥٢/١ وما كان بالبصرة رجلاً أدرى بصنوف العلم، ولا أحسن بياناً من أبي الوزير، وأبي عدنان المعلمين. وله خبر في الأغاني ٢٢٧/١٤.

(٢) الهيق: الظليم لطوله، وذكر النعام. السفنج: الظليم الذكر السريع الخفيف. السنداوة: الذئبة. الفضفاضة: المكتنزة لحماً. حضاجر: اسم للضبع أو ولدها.

(٣) الرز: الصوت الخفي الذي تسمعه ولا تراه، يكون شديداً أو ضعيفاً. ثلب: معيب. دويل: ذكر الخنازير، أو الذئب العرم. الثرملة: من أسماء الثعالب.

(٤) حياة الحيوان ١/٥٥٥-٥٥٦.

(٥) البيت لعمرو بن يربوع في جمهرة اللغة ٩٦٣، ونوادير أبي زيد ١٤٦، وبلا نسبة في الخزانة ١٨/٢ (هارون)، وسر صناعة الإعراب ١/١٠٤، ١٤٤، وشرح المفصل ٣٤/٨، ١٠١/٩.

وأنشدني أن الجن طرقتوا بعضهم فقال: [من الوافر]

أتوا ناري فقلتُ منونَ أنتمُ فقالوا الجنُّ قلتُ عموا ظلاماً^(١)
فقلتُ إلى الطعام فقال منهم زعيمٌ نحسُّدُ الإنسَ الطعاما

ولم أعب الرواية، وإنما عبت الإيمان بها، والتوكيد لمعانيها. فما أكثر من يروي هذا الضرب على التعجب منه، وعلى أن يجعل الرواية له سبباً لتعريف الناس حق ذلك من باطله، وأبو زيد وأشباهه مأمونون على الناس؛ إلا أن كل من لم يكن متكلماً حاذقاً، وكان عند العلماء قدوة وإماماً، فما أقرب إفساده لهم من إفساد المتعمد لإفسادهم!

وأنشدوا في تثبيت أولاد السعلاة: [من الرجز]

تقول جمع من بوان ووتد وحسن أن كلفتني ما أجد
وكم تقل جيء بآبان أو أحد أو ولد السعلاة أو جرو الأسد
أو ملك الأعجام ماسوراً بقد

وقال آخر: [من الرجز]

يا قاتل الله بني السعلاة عمراً وقابوساً شرار النات^(٢)

١٤٧ - [ما زعموا في جرهم]

وذكروا أن جرهماً كان من نتاج ما بين الملائكة وبنات آدم، وكان الملك من الملائكة إذا عصى ربه في السماء أهبطه إلى الأرض في صورة رجل، وفي طبيعته، كما صنع بهاروت وماروت حين كان من شأنهما وشان الزهرة^(٣)، وهي أناهيد^(٤) ما

(١) البيتان لشمر بن الحارث في الخزانة ١٦٧/٦، واللسان والتاج (حسد)، ونوادر أبي زيد ١٢٣، والحامسة البصرية ٢٤٦/٢. وبلا نسبة في اللسان والتاج (أنس).

(٢) الرجز لعلي بن أرقم في النوادر ١٠٤، والجمهرة ٨٤٢، واللسان (نوت، سين، تا)، والتاج (كيت، نوت، عسل)، وبلا نسبة في الاشتقاق ٢٢٧، وفصل المقال ١٩٤، والإنصاف ١١٩، واللسان (أنس، مرس)، والخصائص ٥٣/٢، والامالي ٦٨/٢، والمخصص ٢٦/٣، ٢٨٣/١٣، واللسان (أنس، مرس)، والتاج (سين)، ورسائل الجاحظ ٣٧٤/٢، ومحاضرات الراغب ٢٨١/٢.

(٣) انظر تفصيل الخبر في تفسير ابن كثير ١٤٢/١ - ١٤٦، وكتب التفسير الأخرى في تفسير الآية ١٠٢ من سورة البقرة.

(٤) أناهيد: كلمة فارسية تعني الزهرة. مفاتيح العلوم ١٢٢. وسماها الإغريق فينوس، وتسمى عشتار، وتعني جميعها آلهة الحب.

كان، فلما عصى الله تعالى بعض الملائكة وأهبطه إلى الأرض في صورة رجل، تزوج أم جرهم فولدت له جرهما، ولذلك قال شاعرهم: [من الرجز]

لا هم إن جرهما عبادك الناس طرف وهم تلاكدا^(١)

١٤٨ - [ما زعموا في بلقيس وذي القرنين]

ومن هذا النسل ومن هذا التركيب والنجل كانت بلقيس ملكة سبأ^(٢)، وكذلك كان ذو القرنين كانت أمه فيرى آدمية وأبوه عبري من الملائكة. ولذلك لما سمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رجلاً ينادي: يا ذا القرنين، فقال: أفرغتم من أسماء الأنبياء فارتفعتم إلى أسماء الملائكة؟. وروى المختار بن أبي عبيد أن علياً كان إذا ذكر ذا القرنين قال: ذلك الملك الأموط.

١٤٩ - [زواج الإنس بالجن]

وزعموا أن التناكح والتلاطح قد يقع بين الجن والإنس^(٣)، لقوله تعالى: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾^(٤). وذلك أن الجنيات إنما تعرض لصرع رجال الإنس على جهة التعشق وطلب السفاد، وكذلك رجال الجن لنساء بني آدم، ولولا ذلك لعرض الرجال للرجال، والنساء للنساء، ونساؤهم للرجال والنساء.

ومن زعم أن الصرع من المرأة، ردّ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾^(٥) وقال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِئُنْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾^(٦). فلو كان الجان لا يفتض الآدميات، ولم يكن ذلك قط، وليس ذلك في تركيبه، كما قال الله تعالى هذا القول.

١٥٠ - [تركيب النسناس]

وزعموا أن النسناس تركيب ما بين الشق والإنسان. ويزعمون أن خلقاً من وراء

(١) البيت لعمر بن الحارث بن مضاخ الجرهمي في شرح القصائد السبع للأنباري ص ٢٥٥. وبلا

نسبة في حياة الحيوان ١/ ٥٥٦.

(٢) رسائل الجاحظ ٢/ ٣٧١ «كتاب البغال».

(٣) رسائل الجاحظ ٢/ ٣٧١ «كتاب البغال».

(٤) ٦٤: الإسراء/ ١٧.

(٥) ٢٧٥: البقرة/ ٢.

(٦) ٥٦، ٧٤: الرحمن/ ٥٥.

السدُّ تركيبٌ من النَّسْنَس، والناس، والشقُّ، ويأجوج ومأجوج. وذكروا عن الواق واق والدوال باي^(١) أنهم نتاجٌ ما بينَ بعضِ النَّباتِ والحيوان. وذكروا أنَّ أُمَّةً كانت في الأرض، فأمر الله تعالى الملائكة فاجلوههم؛ وإياهم عَنوا بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾^(٢). ولذلك قال الله عزَّ وجلَّ لآدم وحواء: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣). فهذا يدلُّ على أن ظالمًا وظلمًا قد كان في الأرض.

قال الاصمعيُّ - أو خلفٌ - في أرجوزة مشهورة، ذكرَ فيها طُولَ عمرِ الحَيَّةِ:

[من الرجز]

أَرْقَشُ إِنْ أَسْبَطَ أَوْ تَثْنَى حَسِبْتَ وَرَسًا خَالِطَ الْيَرْتَا^(٤)

خَالِطُهُ مِنْ هَاهُنَا وَهَنَا إِذَا تَرَاءَاهُ الْحَوَاةُ اسْتَنَّا^(٥)

قال: وكان يقال لتلك الأمة مهنا.

١٥١ - [زعم المجوس في بدء الخلق]

وزعم المجوس أنَّ الناسَ من ولد مهنة ومهنيئة، وأنَّهما تولدا فيما بين أرحام الأرضيين، ونظفتين ابتدرتا من عيني ابن هرْمَز حين قتله هرْمَز. وحماقات أصحاب الاثنين كثيرةٌ في هذا الباب. ولولا أنَّي أحببتُ أن تسمعَ نوعاً من الكلام، ومبلغُ الرأي، لتُحدثَ لله تعالى شكراً على السلامة، لما ذكرتُ كثيراً من هذا الجنس.

١٥٢ - [صديق إبليس وختنه]

وزعم ابن هيثم أنَّه رأى بالكوفة فتى من ولد عبد الله بن هلال الحميري، صديق إبليس وختنه، وأنَّهم كانوا لا يشكُّون أنَّ إبليسَ جدُّه من قبل أمهاته. وسنقولُ في ذلك بالذي يجبُ إن شاء الله تعالى. وصلِّة هذا الكلام تجيءُ بعد هذا إن شاء الله تعالى.

(١) الدوال باي: يطلق على جنس هندي يزعمون أن له أرجلاً دقيقة مرنة شبيهة بالسيور، فهو كسيح

يتحين فرصة العثور على المسافرين؛ ويلج عليهم ليحملوه. معجم استينجاس ٥٣٩.

(٢) ٣٠: البقرة/٢.

(٣) ٣٥: البقرة/٢، ١٩: الأعراف/٧.

(٤) البيت الثاني والثالث في الدرر ١/٢٤٢، وجمع الهوامع ١/٧٨ بلا نسبة.

الورس: نبت أصفر يكون باليمن، وهو صبخ. (اللسان: روس). اليرتا: الحناء. (اللسان: رتا).

(٥) استن: أسرع.

وقلت: ولو تمَّ للكلب معنى السبع وطباعه، لما أَلَفَ الإنسان، واستوحش من السبع، وكره الغياض، وألف الدُّور، واستوحشَ من البراري وجانب القفار، وألفَ المجالسَ والديار. ولو تمَّ له معنى البهيمة في الطبع والخلق والغذاء، لما أكل الحيوان، وكلب على الناس. نعم حتى رُبما كلبَ ووئبَ على صاحبه وكلبَ على أهله. وقد ذكر ذلك طرفه فقال: [من المنسرح]

كُنْتَ لَنَا وَالدهورَ آوَنَةً تَقْتُلُ حَالَ النَّعِيمِ بالبؤس (١)
ككلبِ طَسَمٍ وقد تَرَبَّبه يَعُلُّهُ بالحليبِ في الغلسِ
ظَلُّ عليه يوماً يُفْرِفِرُهُ إلَّا يَلْغُ في الدماءِ يَنْتَهِسِ

وقال حاجب بن دينار المازنيُّ في مثل ذلك: [من الطويل]
وكم من عدوُّ قد أعنتمْ عليكم بمالٍ وسُلطانٍ إذا سَلِمَ الحَبْلُ (٢)
كذي الكلبِ لَمَّا أسَمَنَ الكَلْبَ رابَهُ بإحدى الدَّواهي حينَ فارقَهُ الجهلُ

وقال عوف بن الأحوص: [من الطويل]
فإنِّي وقيساً كالمسمنِ كلبه تُخَدِّشُهُ أنيابه وأظافره

وأنشد ابن الأعرابي لبعضهم: [من الطويل]
وَهُمْ سَمَنُوا كلباً لِيَأْكُلَ بعضَهُمْ ولو ظَفَرُوا بالحزمِ ما سَمَنَ الكَلْبُ (٣)
وفي المثل: «سَمَنَ كَلْبِكَ يَا كُلُّكَ» (٤).

وكان رجلٌ من أهل الشام مع الحجَّاج بن يوسف، وكان يحضُرُ طعامه، فكتب إلى أهله يخبرُهُم بما هو فيه من الخِصْب، وأنه قد سَمِنَ فكتبت إليه امرأته: [من الطويل]
أُتْهِدِي لِي القِرطاسَ والخبزُ حاجتي وأنتَ على بابِ الأميرِ بَطِينُ (٥)

(١) الأبيات ليست في ديوان طرفه، وليس في ديوانه قافية السين، والبيتان الثاني والثالث في ثمار القلوب ٣١٤.

(٢) انظر البيان ١٨٣/٢.

(٣) البيت لمالك بن أسماء في ثمار القلوب ٣١٥، (٥٨٦)، وبلا نسبة في الفاخر ٧٠، وجمهرة الأمثال ٥٢٥/١.

(٤) المثل في مجمع الأمثال ٣٣٣/١، وفصل المقال ٤١٩ والفاخر ٧٠، وفصل المقال ٤١٩، ٤٨٩، والمستقصى ١٢١/٢، وجمهرة الأمثال ٥٢٥/١.

(٥) الأبيات مع الخبر في أمالي القالي ١٣٦/٢، والحماسة المغربية ١٣٩٥، وبهجة المجالس ٤٨/٢.

إِذَا غَيْبَتْ لَمْ تَذْكُرْ صَدِيقاً وَإِنْ تَقَمُّ فَانْتَ عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ ضَنْبِينَ
فانْتَ ككَلْبِ السَّوِّءِ فِي جُوعِ أَهْلِهِ فَيُهْزَلُ أَهْلُ الكَلْبِ وَهُوَ سَمِينٌ

وفي المثل: «سمن كلب في جوع أهله»، وذلك أنه عند السَّوْفِ (١) يصيب المال، والإخداج (٢) يعرض للثوق، يأكل الجيفَ فيسمن. وعلى أنه حارسٌ مُحْتَرَسٌ منه، ومؤنسٌ شديد الإيحاش من نفسه، وأليفٌ كثير الخيانة على إلفه. وإنما اقتنوه على أن يندرهم بموضع السارق، وتركوا طرده لينبهم على مكان المبيت. وهو أسرقٌ من كل سارق، وأدومٌ جنايةً من ذلك المبيت. ويدلُّ على أنه سروقٌ عندهم، قولُ الشاعر: [من الطويل]

أَفِي أَنْ سَرَى كَلْبٌ فَبَيْتٌ جُلَّةٌ وَجَبَّجَبَةٌ لِلوَطْبِ لِيَلِي تُطَلِقُ (٣)

فهو سراقٌ، وصاحب بيات، وهو نباشٌ، وأكلٌ لحوم الناس. ألا إنَّه يجمعُ سرقة الليل مع سرقة النهار، ثم لا تجده أبداً يمشي في خزانة، أو مطبخ، أو عرصة دار، أو في طريق، أو في براري، أو في ظهر جبل، أو في بطن وادٍ، إلا وخطمه في الأرض يتشمم ويستروح، وإن كانت الأرض بيضاء حصاءً ودويةً ملساءً، أو صخرة خلقاء؛ حرصاً وجشعاً، وشرهاً وطمعاً (٤). نعم حتى لا تجده أيضاً يرى كلباً إلا اشتمَّ استه، ولا يتشمم غيرها منه، ولا تراه يرمى بحجر أيضاً أبداً إلا رجع إليه فعضَّ عليه؛ لأنه لمَّا كان لا يكاد يأكل إلا شيئاً رموا به إليه صار ينسى لفرط شره وغلبة الجشع على طبعه، أن الرامي إنما أراد عقره أو قتله، فيظن لذلك أنه إنما أراد إطعامه والإحسان إليه. كذلك يخيل إليه فرط النهم وتوهمه غلبة الشره، ولكنه رمى بنفسه على الناس عجزاً ولؤماً، وفسولةً ونقصاً (٥)، وخاف السباع واستوحش من الصحارى.

ولمَّا سمعوا بعض المفسرين يقول في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ

(١) السواف: الموتان في الإبل.

(٢) أخذجت الناقة: أتت بولد ناقص.

(٣) البيت بلا نسبة في اللسان (جيب)، والاساس (وطب)، والجمهرة ١٧٣، ١٢١٣، وتهذيب اللغة

.٥١٣/١٠

(٤) نهاية الأرب ٩/٢٥٧.

(٥) الفسولة: الفتور في الامر.

مَعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١﴾ إِنَّ الْمَحْرُومَ هُوَ الْكَلْبُ (٢)؛ وَسَمِعُوا فِي الْمَثَلِ: «اصْنَعُوا الْمَعْرُوفَ وَلَوْ إِلَى الْكَلْبِ» (٣) عَطَفُوا عَلَيْهِ وَاتَّخَذُوهُ فِي الدُّورِ. وَعَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ سَفَلَتِهِمْ وَأَغْيَابِهِمْ، وَمَنْ قَلَّ تَقَرُّزُهُ وَكَثُرَ جَهْلُهُ، وَرَدَّ الْأَثَارُ إِمَامًا جَهْلًا وَإِمَامًا مَعَانِدَةً.

١٥٤ - [حوار في الديك]

وأما الديك فمن بهائم الطير وبغائها، ومن كلولها والعِيَالِ عَلَى أربابها، وليس من أحرارها ولا من عتاقها وجوارحها، ولا مما يطرب بصوته ويشجج بلحنه، كَالْقَمَارِيِّ وَالدَّبَاسِيِّ (٤) وَالشَّفَقَانِينِ (٥) وَالْوَرَاشِينِ وَالبَلَابِلِ وَالفَوَاخِتِ، وَلَا مِمَّا يُوتِقُ بِمَنْظَرِهِ وَيَمْتَعُ الْأَبْصَارَ حَسَنُهُ، كَالطَّوَاوِيسِ وَالتُّدَارِجِ (٦)، وَلَا مِمَّا يَعْجِبُ بِهَدَايَتِهِ وَيُعَقِدُ الذَّمَامَ بِإِلْفِهِ وَنِزَاعِهِ، وَشِدَّةِ أُنْسِهِ وَحَنِينِهِ، وَتُرِيدُهُ بِإِرَادَتِهِ لَكَ، وَتَعَطَّفَ عَلَيْهِ لِحَبِّهِ إِيَّاكَ، كَالْحَمَامِ، وَلَا هُوَ أَيْضًا مِنْ ذَوَاتِ الطَّيْرِانِ مِنْهَا، فَهُوَ طَائِرٌ لَا يَطِيرُ، وَبِهَيْمَةٌ لَا يَصِيدُ، وَلَا هُوَ أَيْضًا مِمَّا يَكُونُ صَيْدًا فَيَمْتَعُ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ وَيُرَادُ لَهُذِهِ اللَّذَّةُ.

وَالْخَفَافُ أَمْرَطٌ، وَهُوَ جَيْدُ الطَّيْرِانِ، وَالدَّيْكُ كَاسٍ وَهُوَ لَا يَطِيرُ. وَأَيُّ شَيْءٍ أَعْجَبُ مِنْ ذِي رِيشٍ أَرْضِيٍّ، وَمَنْ ذِي جِلْدَةٍ هَوَائِيٍّ.

وَأَجْمَعُ الْخَلْقَ لَخِصَالِ الْخَيْرِ الْإِنْسَانَ، وَلَيْسَ الزَّوْاجُ إِلَّا فِي الْإِنْسَانِ وَفِي الطَّيْرِ، فَلَوْ كَانَ الدَّيْكُ مِنْ غَيْرِ الطَّيْرِ ثُمَّ كَانَ مِمَّنْ لَا يَزَاجُ، لَقَدْ كَانَ قَدْ مُنِعَ هَذِهِ الْفَضِيلَةَ وَعَدِمَ هَذِهِ الْمَشَاكَلَةَ الْغَرِيبَةَ، وَحُرِّمَ هَذَا السَّبَبَ الْكَرِيمَ وَالشَّبَهَ الْمَحْمُودَ. فَكَيْفَ وَهُوَ لَا يَزَاجُ، وَهُوَ مِنَ الطَّيْرِ الَّذِي لَيْسَ الزَّوْاجُ وَالْإِلْفُ وَثَبَاتُ الْعَهْدِ، وَطَلَبُ الذَّرْعِ وَحُبُّ النَّسْلِ، وَالرَّجُوعُ إِلَى السَّكَنِ وَالْحَنِينُ إِلَى الْوَطَنِ - إِلَّا لَهُ وَلِلْإِنْسَانِ. وَكُلُّ شَيْءٍ لَا يَزَاجُ فَإِنَّمَا دَخَلَهُ النِّقْصُ وَخَسِرَ هَذِهِ الْفَضِيلَةَ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ، وَقَدْ دَخَلَ الدَّيْكُ النِّقْصَ مِنْ جِهَتَيْنِ. وَوَصَفَ أَبُو الْأَخْزَرِ الْحِمَائِيَّ الْحَمَارَ وَعَبَّرَ الْعَانَةَ خَاصَّةً، فَإِنَّهُ أُمِثِلُ فِي بَابِ الْمَعْرِفَةِ مِنَ الْأَهْلِيِّ، فَذَكَرَ كَيْفَ يَضْرِبُ فِي الْأُتُنِّ، وَوَصَفَ اسْتَبْهَامَهُ عَنْ طَلَبِ

(١) ١٩: الذاريات/٥١.

(٢) ورد في تفسير ابن كثير ٤/٢٥١ أن المقصود بالمحروم من لا مال له في المال؛ ولا كسب له ولا حرفة. أو الذي لا يسأل الناس شيئاً. أو الذي ذهب ماله.

(٣) المستقصى ١/٢١٢.

(٤) الدباسي: طائر صغير من أنواع الحمام البري، قيل هو ذكر اليمام. حياة الحيوان ١/٤٦٦

(٥) الشفنين: هو اليمام. حياة الحيوان ١/٦٠١.

(٦) التدرج: طائر كالدراج يكون بأرض خراسان. حياة الحيوان ١/٢٣٠.

الولد، وجهله بموضع الذرء، وأن الولد لم يجئ منه عن طلب له، ولكن النطفة البريئة من الأسقام، إذا لاقت الأرحام البريئة من الأسقام حدث النتاج على الخلقة، وعلى ما سويت عليه البنية. وذكر أن نزوه على الأتان، من شكل نزوه على العير، وإنما ذلك على قدر ما يحضره من الشبق، ثم لا يلتفت إلى دبر من قبل، وإلى ما يلحق من مثله ممّا لا يلحق فقال: [من الرجز]

* لا مُبتَغِي الضنء ولا بالعازل *

يقول: هو لا يريد الولد ولا يعزل.

والأشياء التي تالف الناس ولا تريد سواهم، ولا تحن إلى غيرهم، كالعصفور والخطاف والكلب والسنور. والديك لا يالف منزله ولا ربه ولا ينزع إلى دجاجته ولا طروقته، ولا يحن إلى ولده، بل لم يدر قط أن له ولداً؛ ولو درى لكان على درايته دليل، فإذا قد وجدناه لبيضه وفراريجه الكائنة منه، كما نجد له لما لم يلد له ولماً ليس من شكله ولا يرجع إلى نسبه، فكيف تُعرف الأمور إلا بهذا وشبهه. وهو مع ذلك أبله لا يعرف أهل داره، ومبهوت لا يثبت وجه صاحبه، وهو لم يخلق إلا عنده وفي ظله، وفي طعامه وشرابه، وتحت جناحه.

والكلب على ما فيه يعرف صاحبه، وهو والسنور يعرفان أسماءهما، ويألفان موضعهما، وإن طردا رجعا، وإن أجيعا صبرا، وإن أهينا احتملا.

والديك يكون في الدار من لدن كان فرجاً صغيراً إلى أن صار ديكاً كبيراً، وهو إن خرج من باب الدار، أو سقط على حائط من حيطان الجيران. أو على موضع من المواضع، لم يعرف كيف الرجوع، وإن كان يرى منزله قريباً، وسهل المطلب يسيراً، ولا يذكر ولا يتذكر، ولا يهتدي ولا يتصور له كيف يكون الاهتداء، ولو حن لطلب، ولو احتاج لالتمس. ولو كان هذا الخبر في طباعه لظهر، ولكنها طبيعة بلهاء مستبهمة، طامحة وذاهلة، ثم يسفد الدجاجة ولا يعرفها، هذا مع شدة حاجته إليها وحرصه على السفاد، والحاجة تفتق الحيلة، وتدل على المعرفة، إلا ما عليه الديك؛ فإنه مع حرصه على السفاد، لا يعرف التي يسفد، ولا يقصد إلى ولد، ولا يحضن بيضاً ولا يعطفه رحم، فهو من ها هنا أحق من الحباري^(١) وأعق من الضب^(٢).

وقال عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه: «كل شيء يحب ولده حتى

(١) من الامثال في المستقصى ٧٤/١، والذرة الفاخرة ١٣٣/١.

(٢) من الامثال في المستقصى ٢٥٠/١، ومجمع الامثال ٤٧/٢، وجمهرة الامثال ٦٩/٢.

الحُبَارَى»^(١). فَضَرَبَ بِهَا الْمَثَلَ كَمَا تَرَى فِي الْمَوْقِ وَالْغَفْلَةِ، وَفِي الْجَهْلِ وَالْبَلَه. وَتَقُولُ الْعَرَبُ: «أَعَقُّ مِنَ الضَّبِّ»؛ لِأَنَّهُ يَأْكُلُ حُسُولَهُ.

١٥٥ - [أكل الهرة أولادها]

وَكُرِّمَ عِنْدَ الْعَرَبِ حِظُّ الْهَرَّةِ، لِقَوْلِهِمْ: أَبْرُّ مِنْ هَرَّةٍ^(٢)، وَأَعَقُّ مِنْ ضَبٍّ. فَوَجَّهُوا أَكْلَ الْهَرَّةِ أَوْلَادَهَا عَلَى شِدَّةِ الْحَبِّ لَهَا، وَوَجَّهُوا أَكْلَ الضَّبِّ لَهَا عَلَى شِدَّةِ الْبَغْضِ لَهَا، وَلَيْسَ يَنْجُو مِنْهُ شَيْءٌ مِنْهَا إِلَّا بِشُغْلِهِ بِأَكْلِ إِخْوَتِهِ عَنْهُ، وَلَيْسَ يَحْرُسُهَا مِمَّا يَأْكُلُهَا إِلَّا لِیَأْكُلَهَا. وَلِذَلِكَ قَالَ الْعَمَلْسُ بْنُ عَقِيلٍ، لِأَبِيهِ عَقِيلِ بْنِ عُلْفَةَ: [مِنَ الْوَافِرِ]

أَكَلْتُ بَنِيكَ أَكْلَ الضَّبِّ حَتَّى

وَجَدْتَ مَرَارَةَ الْكَلَا الْوَبِيلِ^(٣)

فَلَوْ أَنَّ الْأَلَى كَانُوا شُهُودًا

مَنْعَتْ فِنَاءَ بَيْتِكَ مِنْ بَجِيلِ

وَقَالَ أَيْضًا: [مِنَ الْوَافِرِ]

أَكَلْتُ بَنِيكَ أَكْلَ الضَّبِّ حَتَّى

تَرَكْتَ بَنِيكَ لَيْسَ لَهُمْ عَدِيدٌ^(٤)

وَشَبَّهُ السَّيِّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْحَمِيرِيُّ، عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا فِي نَصْبِهَا الْحَرْبَ يَوْمَ الْجَمَلِ لِقِتَالِ بَنِيهَا، بِالْهَرَّةِ حِينَ تَأْكُلُ أَوْلَادَهَا، فَقَالَ: [مِنَ السَّرِيعِ]

جَاءَتْ مَعَ الْأَشْقِيْنَ فِي هَوْدَجٍ

تُرْجِي إِلَى الْبَصْرَةِ أَجْنَادَهَا^(٥)

كَأَنَّهَا فِي فِعْلِهَا هَرَّةٌ

تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَ أَوْلَادَهَا

١٥٦ - [رعاية الذئبة لولد الضبع]

وَتَقُولُ الْعَرَبُ أَيْضًا: «أَحْمَقُ مِنْ جَهِيْزَةٍ»^(٦)، وَهِيَ عِرْسُ الذَّئْبِ؛ لِأَنَّهَا تَدْعُ وَلَدَهَا وَتَرْضَعُ وَلَدَ الضَّبْعِ.

(١) مِنَ الْأَمْثَالِ فِي مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ ١٤٦/٢، وَالْمُسْتَقْصَى ٢٢٧/٢.

(٢) مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ ١١٦/١، وَالذَّرَّةُ الْفَاخِرَةُ ٧٥/١، ٨٢، وَالْمُسْتَقْصَى ١٧/١، وَجَمْهْرَةُ الْأَمْثَالِ ٢٠٤/١، ٢٤٣.

(٣) الْبَيْتَانُ لِعَمَلْسِ بْنِ عَقِيلٍ أَوْ لِارْطَاةَ بْنِ سَهْيَةَ فِي نَوَادِرِ الْمَخْطُوطَاتِ ٣٥٩/١، (الْعَقِيقَةُ)، وَارْطَاةُ ابْنِ سَهْيَةَ فِي الْإِغَانِيِّ ١٢/٢٦٩.

(٤) الْعَقْدُ الْفَرِيدُ ٤٩/٦.

(٥) الْبَيْتَانُ فِي دِيْوَانِهِ ١٧٣.

(٦) مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ ٢١٨/١، وَجَمْهْرَةُ الْأَمْثَالِ ٣٩٣/١، وَالذَّرَّةُ الْفَاخِرَةُ ١٣٣/١، ١٥١، وَالْمُسْتَقْصَى ٧٧/١.

قال: وهذا معنى قول ابن جَذَل الطَّعَان . [من الطويل]
 كَمْرُضِعَةٍ أَوْلَادٌ أُخْرَى وَضِيَّتْ
 بَنِيهَا فَلَمْ تَرَقَّعْ بِذَلِكَ مَرَقَعًا^(١)

١٥٧ - [رعاية الذئب لولد الضبع]

ويقولون: إن الضبع إذا صيدت أو قُتلت، فإن الذئب يأتي أولادها باللحم.
 وأنشد الكُميت: [من الطويل]

كما خَامَرَتْ فِي حِضْنِهَا أُمَّ عَامِرٍ لَدِي الْحَبِلِ حَتَّى عَالَ أَوْسٌ عِيَالَهَا^(٢)

وأوس هو الذئب. وقال في ذلك: [من مجزوء الكامل]

فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ ذُوَالِهِ ضَغْثٌ يَزِيدُ عَلَيَّ إِبَالَهُ^(٣)
 فَلَاحْشَانُكَ مِشْقَصًا أَوْسًا أَوْيسُ مِنَ الْهَبَالِ

الأوس: الإعطاء، وأويس هو الذئب. وقال في ذلك الهذلي: [من الرجز]

يَا لَيْتَ شَعْرِي عَنْكَ وَالْأَمْرُ أَمَمٌ مَا فَعَلَ الْيَوْمَ أَوْيسٌ فِي الْغَنَمِ^(٤)

وقال أمية بن أبي الصلت: [من الكامل]

وَأَبُو الْيَتَامَى كَانَ يُحْسِنُ أَوْسَهُمْ وَيُحَوِّطُهُمْ فِي كُلِّ عَامٍ جَامِدًا^(٥)

١٥٨ - [حمق بعض الطيور]

ويقولون: «أَحْمَقُ مِنْ نَعَامَةٍ»^(٦) كما يقولون: «أَشْرَدُ مِنْ نَعَامَةٍ»^(٧) قالوا ذلك

-
- (١) البيت لابن جذل الطعان في اللسان والتاج (جهاز)، وثمار القلوب ٣١٣، والحماسة البصرية ٦٥/١، والمعاني الكبير ٢١٢.
- (٢) ديوان الكمي ٨٠/٢، واللسان والتاج (جهاز، عول، حزن)، والمستقصى ٧٧/١، وتهذيب اللغة ١٩٦/٣، ٣٥/٦، ١٣٧/١٣، وعيون الأخبار ٧٩/٢، وبلا نسبة في اللسان والتاج (أوس).
- (٣) البيتان لأسماء بن خارجة في اللسان والتاج (حشا، أوس، إبل، ذال، هبل)، وبلا نسبة في المخصص ٦٦/٨، وتهذيب اللغة ١٣٨/٥. وفي البيت الأول مثل، هو «ضغث على إبالة»، وهو في جمهرة الأمثال ٦/٢، والمستقصى ١٤٨/٢، ومجمع الأمثال ٤١٩/١، والأمثال لابن سلام ٢٦٤.
- (٤) الرجز لعمرؤ ذي الكلب الهذلي في شرح أشعار الهذليين ٥٧٥، واللسان والتاج (لجب، مرخ، رخم، عمم)، وللهمذلي في اللسان والتاج (أوس)، وبلا نسبة في المخصص ٦٦/٨، والجمهرة ٢٣٨، والمقاييس ١٥٧/١.
- (٥) ديوان أمية بن أبي الصلت ٣٨٤.
- (٦) الدررة الفاخرة ١٥٢/١، والمستقصى ٨٥/١، ومجمع الأمثال ٢٢٥/١، وفصل المقال ٤١٧/١، وجمهرة الأمثال ٣١٢/١، ٣٤٣، ٣٩٤.
- (٧) لم أجد في كتب الأمثال، بل وجدت «أشرد من ظليم» وهذا المثل في المستقصى ١٩٥/١، والدررة الفاخرة ٢٣٦/١، وجمهرة الأمثال ٥٣٨/١.

لأنها تدعُ الحَضْنَ على بيضها ساعة الحاجة إلى الطعم، فإن هي في خروجها ذلك رأت بيضَ أخرى قد خرجت للطعم، حضنت بيضها ونسيت بيضَ نفسها، ولعلَّ تلك أن تُصادَ فلا ترجعُ إلى بيضها بالعرَاء حتى تهلك. قالوا: ولذلك قال ابن هرمة: [من المتقارب]

فإنِّي وتركي ندى الأكرمين وقدحي بكفي زئداً شحاحاً^(١)
كتاركة بيضها بالعرَاء وملبسة بيضَ أخرى جناحا

وقد تحضن الحمام على بيض الدجاج، وتحضن الدجاجة بيض الطاووس، فأمَّا أن يدع بيضه ويحضن بيض الدجاجة، أو تدع الدجاجة بيضها وتحضن بيض الطاووس فلا. فأمَّا فروج الدجاجة إذا خرج من تحت الحمامة؛ فإنه يكون أكيس^(٢). وأمَّا الطاووس الذي يخرج من تحت الدجاجة فيكون أقل حسناً وأبغض صوتاً.

١٥٩ - [الفرخ والفروج]

وكلُّ بيضة في الأرض فإن اسم الذي فيها والذي يخرج منها فرخ، إلا بيض الدجاج فإنه يسمى فروجاً. ولا يسمى فرخاً، إلا أن الشعراء يجعلون الفروج فرخاً على التوسع في الكلام. ويجوزون في الشعر أشياء لا يجوزونها في غير الشعر، قال الشاعر: [من الطويل]

لعمري لأصوات المكاكي بالضحي وسود تداعي بالعشي نواعبه^(٣)
أحب إلينا من فراخ دجاجة ومن ديك أنباط تنوس غباغه

وقال الشماخ بن ضرار: [من الوافر]

ألا من مبلغ خاقان عني تأمل حين يضربك الشتاء^(٤)
فتجعل في جنابك من صغير ومن شيخ أضر به الفناء
فراخ دجاجة يتبعن ديكاً يلذن به إذا حمس الوغاء

- (١) البيتان في ديوان إبراهيم بن هرمة ٨٧، والحماسة الشجرية ٢٦٩، وحماسة البحري ٧٠، والحماسة البصرية ٢/٢٧٧، وشرح الحماسة للمرزوقي ٧٣٧، وعيون الأخبار ٢/١٠٢، واللسان (شحح، جهز، هنيق).
- (٢) ربيع الأبرار ٥/٤٤٤.
- (٣) ورد البيت الثاني بلا نسبة في المخصص ٨/١٦٧.
- (٤) ديوان الشماخ بن ضرار ٤٢٧.

١٦٠ - [حوار في الكلب والديك]

فإن قلت: وأي شيء بلَغ من قدر الكلبِ وفضيلة الديك، حتَّى يتفرَّغ لذكر محاسنهما ومساويهما، والموازنة بينهما والتنوية بذكرهما، شيخان من عليَّة المتكلِّمين، ومن الجلة المتقدمين. وعلى أنَّهما متى أبرما هذا الحكمَ وأفصحا بهذه القضية، صار بهذا التدبير بهما حظٌّ وحكمة وفضيلة وديانة، وقلدهما كلُّ مَنْ هو دونهما، وسيعودُ ذلك عذراً لهما إذا رأيتهما يوازيان بين الذَّبَّانِ وبناتِ وِرْدَانَ، وبين الخنافس والجعلان، وبين جميع أجناس الهمج وأصناف الحشرات، والخشاش، حتَّى البعوض والفراش والديدان والقردان^(١) فإن جاز هذا في الرأي وتمَّ عليه العمل، صار هذا الضربُ من النظر عوضاً من النظر في التوحيد، وصار هذا الشكلُ من التمييز خلفاً من التعديل والتجويز، وسقط القولُ في الوعد والوعيد، ونُسي القياسُ والحكم في الاسم، وبطلَ الردُّ على أهل الملل، والموازنةُ بين جميع النحل، والنظرُ في مرشد الناس ومصالحهم، وفي منافعهم ومرافقهم؛ لأنَّ قلوبهم لا تتسع للجميع، وألسنتهم لا تنطق بالكلِّ. وإنما الرأيُّ أن تبدأ من الفتق بالأعظم، والأخوف فالأخوف.

وقلت: وهذا بابٌ من أبواب الفراغ وشكل من أشكال التطرُّف وطريق من طرق المزاح، وسبيلٌ من سبيل المضاحك. ورجالُ الجدِّ غير رجال الهزل، وقد يحسُن بالشَّبَابِ ويقبُح مثله من الشيخ، ولولا التحصيلُ والموازنة، والإبقاء على الأدب، والديانة بشدَّة المحاسبة، لما قالوا: لكلِّ مقامٍ مقال^(٢)، ولكلِّ زمانٍ رجال^(٣)، ولكلِّ ساقطةٍ لاقطة^(٤)، ولكلِّ طعامٍ أكلة^(٥).

١٦١ - [تنوع الملكات وقوتها وضرورة ظهورها]

قد زعم أناسٌ أن كلَّ إنسانٍ فيه آلةٌ لمرفقٍ من المرافق، وأداةٌ لمنفعةٍ من المنافع، ولا بدُّ لتلك الطبيعة من حركةٍ وإنَّ أبطأت، ولا بدُّ لذلك الكامن من ظهور، فإنَّ أمكنه ذلك بعته، وإلَّا سرى إليه كما يسري السمُّ في البدن، ونمى كما ينمي العرق، كما أنَّ البزور البريَّة، والحبة الوحشيَّة الكامنة في أرحام الأرضين، لا بدُّ لها من حركةٍ

(١) القردان: جمع قراد، وهو دويبة تنتشر في أعطان الإبل. اللسان: قرد.

(٢) مجمع الأمثال ٢/١٩٨، والمستقصى ٢/٢٩٣، والفاخر ٣١٤.

(٣) في مجمع الأمثال ٢/٢٠٢ «لكل دهر رجال».

(٤) مجمع الأمثال ٢/١٩٣، وفصل المقال ٢٣، والمستقصى ٢/٢٩٢، والفاخر ١٠٩.

(٥) لم أجده في كتب الأمثال، بل وجدت: «لكل غد طعام» في مجمع الأمثال ٢/٢٠٢.

عندَ زمان الحركة، ومن التفتُّق والانتشار في إِيَّان الانتشار. وإذا صارت الأمطارُ لتلك الأرحام كَالنُّطْفَةِ، وكان بعضُ الأرضِ كالأُمِّ الغاذية فلا بدُّ لكلِّ ثديٍ قوِيٌّ أن يُظهِر قُوَّتَهُ، كما قال الأولُ: [من الطويل]

* ولا بدُّ للمصدور يوماً من النَّفْثِ * (١)

وقال: [من الطويل]

* ولا بدُّ من شكوى إذا لم يكن صبرٌ * (٢)

ولذلك صارَ طلبُ الحسابِ أخفَّ على بعضهم، وطلبُ الطَّبِّ أحبُّ إليِّ بعضهم. وكذلك النزاعُ إلى الهندسة، وشغفُ أهلِ النُّجومِ بالنُّجوم. وكذلك أيضاً ربَّما تحركَ له بعد الكِبَرَةِ، وصرفَ رغبته إليه بعد الكهولة، على قدر قوَّةِ العرقِ في بدنه، وعلى قدرِ الشَّواغلِ له وما يعترضُ عليه، فتجد واحداً يلهج بطلبِ الغناءِ واللحن، وآخر يلهج بشهوة القتال، حتى يَكْتَتِبَ مع الجُنْدِ، وآخر يختار أن يكون وراقاً، وآخر يختارُ طلبَ الملك، وتجدُ حرصَهُم على قدر العللِ الباطنة المحركة لهم، ثمَّ لا تَدْرِي كيف عرضَ لهذا هذا السَّببُ دونَ الآخرِ إلاَّ بجملة من القول، ولا تجدُ المختارَ لبعضِ هذه الصناعاتِ على بعضٍ يَعْلَمُ لم اختارَ ذلك في جملةٍ ولا تفسير، إذ كان لم يَجِرْ منه على عرق، ولا اختارَه على إرث.

١٦٢ - [من سار على غير طبعه]

وليس العجبُ من رجلٍ في طباعه سببٌ يَصِلُ بينه وبين بعضِ الأمور ويحرِّكه في بعض الجهات، ولكنَّ العجبُ ممَّن يموت مغنياً وهو لا طبعَ له في معرفة الوزن، وليس له جرمٌ حسنٌ (٣)، فيكون إن فاته أن يكون معلماً ومغنياً خاصةً أن يكون مطرباً ومغنياً عامَّةً، وآخر قد مات أن يُذكرَ بالجود، وأن يسخى على الطعام، وهو أبخلُ الخلقِ طبعاً. فتراه كلفاً باتِّخاذِ الطيباتِ ومستَهْتِراً بالتكثيرِ منها. ثمَّ هو أبداً مفتضحٌ وأبداً منتقض الطباع، ظاهرُ الخطأ، سيئُ الجزع عندَ مؤاكلةٍ من كان هو الداعي له، والمرسلُ إليه، والعارفُ مقدارَ لقمته ونهايةَ أكله.

فإن زعمتم أن كلَّ واحدٍ من هؤلاء إنما هو رهنٌ بأسبابه. وأسيرٌ في أيدي عِلِّله،

(١) مجمع الأمثال ٢/٢٤١.

(٢) عجز بيت لمالك بن حذيفة في حماسة البحترى ١٩٧، وصدرة: (وما كثرة الشكوى بأمر حزامه)،

والبيت بلا نسبة في البيان ٣/٢٢٠، ٤/٦٣، وعجزه في رسائل الجاحظ ١/١٤٤.

(٣) الجرم: الصوت أو الحلق.

عذرتهم جميع اللغام وجميع المقصرين، وجميع الفاسقين والضالين. وإن كان الأمر إلى التمكين دون التسخير. أفليس من أعجب العجب ومن أسوأ التقدير التمثيل بين الديكة والكلاب.

قَدْ عَرَفْنَا قَوْلَكَ، وَفَهَمْنَا مَذْهَبَكَ.

فأما قولك: «وما بلغ من خطر الديك وقدر الكلب» فإن هذا ونحوه كلام عبد لم يفهم عن ربه، ولم يعقل عن سيده، إلا بقدر فهم العامة أو الطبقة التي تلي العامة. كأنك، فهّمك الله تعالى، تظن أن خلق الحيّة والعقرب، والتدبير في خلق الفراش والذباب، والحكمة في خلق الذئب والأسد وكل مبغض إليك أو محقر عندك، أو مسخر لك أو واثب عليك، أن التدبير فيه مختلف أو ناقص، وأن الحكمة فيه صغيرة أو ممزوجة.

١٦٣ - [امتزاج الخير بالشر من مصلحة الكون]

اعلم أن المصلحة في أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مدتها امتزاج الخير بالشر، والضار بالنافع، والمكروه بالسار، والضعفة بالرفعة، والكثرة بالقلّة. ولو كان الشر صرفاً هلك الخلق، أو كان الخير محضاً سقطت المحنة وتقطعت أسباب الفكرة، ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة، ومتى ذهب التخير ذهب التمييز، ولم يكن للعالم تثبت وتوقف وتعلم، ولم يكن علم، ولا يعرف باب التبين، ولا دفع مضرة، ولا اجتلاب منفعة، ولا صبر على مكروه ولا شكر على محبوب، ولا تفاضل في بيان، ولا تنافس في درجة، وبطلت فرحة الظفر وعز الغلبة، ولم يكن على ظهرها محق يجد عز الحق، ومبطل يجد ذلة الباطل، وموقن يجد برد اليقين، وشاك يجد نقص الحيرة وكرب الوجوم؛ ولم تكن للنفوس آمال ولم تتشعبها الاطماع. ومن لم يعرف كيف الطمع لم يعرف اليأس، ومن جهل اليأس جهل الأمن، وعادت الحال من الملائكة الذين هم صفوة الخلق، ومن الإنس الذين فيهم الأنبياء والأولياء، إلى حال السبع والبهيمة، وإلى حال الغباوة والبلادة، وإلى حال النجوم في السخرة؛ فإنها أنقص من حال البهائم في الرتعة. ومن هذا الذي يسره أن يكون الشمس والقمر والنار والثلج، أو برجاً من البروج أو قطعة من الغيم؛ أو يكون المجرة بأسرها، أو مكياً من الماء أو مقداراً من الهواء؟! وكل شيء في العالم وإنما هو للإنسان ولكل مختبر ومختار، ولأهل العقول والاستطاعة، ولأهل التبين والروية.

وأين تقع لذّة البهيمة بالعلوفة، ولذّة السبع بلطع الدّم وأكل اللحم - من سرور الظفر بالأعداء؛ ومن انفتاح باب العلم بعد إدمان القرع؟ وأين ذلك من سرور السودد ومن عزّ الرياضة؟ وأين ذلك من حال النبوّة والخلافة، ومن عزّها وساطع نورهما. وأين تقع لذّة درك الحواسّ الذي هو ملاقاته المطعم والمشرب، وملاقاة الصوت المطرب واللون المونق، والملمسة اللينة - من السرور بنفاذ الأمر والنهي، وبجواز التوقيع، وبما يُوجب الخاتم من الطاعة ويلزم من الحجّة؟!.

ولو استوت الأمور بطلّ التمييز، وإذا لم تكن كلفة لم تكن مَثوبة، ولو كان ذلك لبطلت ثمرة التوكّل على الله تعالى، واليقين بأنّه الوزر والحافظ، والكالي والدافع، وأنّ الذي يحاسبك أجود الأجودين، وأرحم الراحمين، وأنه الذي يقبل اليسير ويهب الكثير، ولا يهلك عليه إلا هالك. ولو كان الأمر على ما يشتهي الغرير والجاهل بعواقب الأمور، لبطل النظر وما يشحذ عليه^(١)، وما يدعو إليه، ولتعطلت الأرواح من معانيها، والعقول من ثمارها، ولعدمت الأشياء حظوظها وحقوقها.

فسبحان من جعل منافعها نعمةً، ومضارّها ترجع إلى أعظم المنافع، وقسمها بين مُلذٍّ ومؤلّم، وبين مؤنسٍ وموحش، وبين صغيرٍ حقيرٍ وجليلٍ كبير، وبين عدوٍ يرصدك وبين عقيلٍ يحرسك، وبين مُسالمٍ يَمْنَعُك، وبين مُعينٍ يعضدك، وجعل في الجميع تمام المصلحة، وباجتماعها تتم النعمة، وفي بطلان واحد منها بطلان الجميع، قياساً قائماً وبرهاناً واضحاً. فإنّ الجميع إنّما هو واحدٌ ضمّ إلى واحدٍ وواحدٌ ضمّ إليهما، ولأنّ الكلّ أبعاض، ولأنّ كلّ جُثّة فمن أجزاء، فإذا جوزت رفع واحدٍ والآخر مثله في الوزن وله مثلُ علته وحظّه ونصيبه، فقد جوزت رفع الجميع؛ لأنّه ليس الأوّل بأحقّ من الثاني في الوقت الذي رجوت فيه إبطال الأوّل، والثاني كذلك والثالث والرابع، حتّى تأتي على الكلّ وتستفرغ الجميع. كذلك الأمور المضمّنة والأسباب المقيّدة؛ ألا ترى أنّ الجبل ليس بادلّ على الله تعالى من الحصاة، وليس الطاوسُ المستحسنُ بادلّ على الله تعالى من الخنزير المستقبح. والنارُ والثلج وإنّ اختلفا في جهة البرودة والسُخونة، فإنّهما لم يختلفا في جهة البرهان والدلالة.

وأظنّك ممّن يرى أنّ الطاوسَ أكرمُ على الله تعالى من الغراب، وأنّ التدرج^(٢)

(١) شحذته: سقته سوقاً شديداً. اللسان: شحذ.

(٢) التدرج: طائر كالدرج يغرد في البساتين بأصوات طيبة، يكون بأرض خراسان، حياة الحيوان

أعزُّ على الله تعالى من الحِدَاةِ، وأنَّ الغزالَ أحبُّ إلى الله تعالى من الذئبِ . فإنَّما هذه أمورٌ فرَّقها الله تعالى في عيُونِ الناسِ، وميَّزها في طبائعِ العبادِ، فجعلَ بعضها بهم أقربَ شَبهاً، وجعلَ بعضها إنسيّاً، وجعلَ بعضها وحشيّاً، وبعضها غاذياً، وبعضها قاتلاً . وكذلك الدُّرَّةُ وَالخَرَزَةُ وَالتَّمْرَةُ وَالجَمْرَةُ .

فلا تَذْهَبْ إلى ما تريك العينُ واذْهَبْ إلى ما يريك العقلُ .

١٦٤ - [الحكم الظاهر والحكم الباطن]

وللأمور حكمان: حكم ظاهرٌ للحواس، وحكم باطنٌ للعقول . والعقل هو الحجَّة . وقد علمنا أنَّ خَزَنَةَ النارِ من الملائكة، ليسوا بدون خَزَنَةِ الجنَّةِ؛ وأنَّ ملك الموت ليس بدون ملكِ السُّحابِ، وإنَّ أتاناً بالغَيْثِ وجلب الحياءِ^(١)؛ وجبريلُ الذي يَنْزِلُ بالعذابِ، ليسَ بدونِ ميكائيلِ الذي ينزِلُ بالرحمةِ؛ وإنَّما الاختلاف في المطيعِ والعاصي، وفي طبقاتِ ذلك ومواقفه . والاختلاف بين أصحابنا أنَّهم إذا استووا في المعاصي استووا في العقابِ، وإذا استووا في الطاعة استووا في الثوابِ، وإذا استووا في عدم الطاعة والمعصية استووا في التفضل . هذا هو أصلُ المقالة، والقُطْبُ الذي تدورُ عليه الرُحى .

١٦٥ - [التين والزيتون]

وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالتَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾^(٢) فزعم زيدُ بنُ أسلم أنَّ التَّيْنَ دمشق، والزيتونُ فلسطين^(٣) . وللغالية في هذا تأويلٌ أرغبُ بالعترة عنه وذكره . وقد أخرجَ الله تبارك وتعالى الكلامَ مُخرَجَ القسم . وما تُعرَفُ دِمَشقُ إلا بدمشق، ولا فلسطين إلا بفلسطين . فإن كنتَ إنَّما تقف من ذكرِ التين على مقدارِ طعامِ يابسه ورطبه، وعلى الاكتنانِ بورقه وأغصانه، والوقودِ بعيده، وأنَّه نافعٌ لصاحبِ السُّلِّ، وهو غذاءٌ قويٌّ ويصلحُ في مواضعٍ من الدواء، وفي الأضمدة، وأنَّه ليس شيءٌ حلواً إلا وهو ضارٌّ بالأسنانِ غيره، وأنَّه عند أهلِ الكتابِ الشَّجَرَةُ التي أكلَ منها آدمُ عليه السلام، وبورقها سترَ السَّوءَةَ عند نزولِ العقوبة، وأنَّ صاحبَ البواسيرِ يأكله لِيُزَلِّقَ عنه الثفل، ويسهلَ عليه مخرجَ الزُّبْلِ؛ وتقف من الزيتون على زيتِه والاصطباحِ به، وعلى

(١) الحياء: الخصب والمطر

(٢) ١: التين / ٩٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤ / ٥٦٣ .

التأدُّم بهما والوقود بشجرهما، وما أشبه ذلك من أمرهما - فقد أسأتَ ظناً بالقرآن، وجهلتَ فضلَ التأويل. وليس لهذا المقدارِ عظمهما الله عزَّ وجلَّ، وأقسَمَ بهما ونوّه بذكرهما.

١٦٦ - [التأمل في جناح البعوضة]

ولو وقفتَ على جناحِ بعوضةٍ وقوفَ معتبرٍ، وتأمَّلته تأمُّلاً متفكِّراً بعد أن تكونَ ثاقبَ النَّظَرِ سليمَ الآلة، غواصاً على المعاني، لا يعتريك من الخواطرِ إلا على حسبِ صحَّةِ عقلك، ولا من الشواغلِ إلا ما زادَ في نشاطك، لملاّت ممّا تُوجدك العبرةُ من غرائبِ الطواميرِ الطُّوالِ، والجلودِ الواسعةِ الكبارِ، ولرأيتَ أنَّهُ له من كثرةِ التصرُّفِ في الأعاجيبِ، ومن تقلُّبه في طبقاتِ الحكمةِ، ولرأيتَ له من الغرزِ والرَّبعِ، ومن الحلبِ والدرِّ ولتَبَجَّسَ عليك من كوامنِ المعانيِ ودفائنِها، ومن خَفِيَّاتِ الحكمِ وبنابيعِ العلمِ، ما لا يشتدُّ معه تعجُّبُك ممَّنْ وقَفَ على ما في الدِّيكِ من الخصالِ العجيبيَّةِ، وفي الكلبِ من الأمورِ الغريبةِ، ومن أصنافِ المنافعِ، وفنونِ المرافقِ؛ وما فيهما من المِحنِ الشُّدادِ، ومع ما أودعا من المعرفةِ، التي متى تجلَّتْ لك تصاعَرَ عندك كَبيرُ ما تستعظم، وقلَّ في عينك كثيرُ ما تستكثر. كأنَّكَ تظنُّ أنَّهُ شيئاً وإنَّ حَسَنَ عندك في ثمنه ومنظره، أنَّ الحكمةَ التي هي في خلقه إنَّما هي على مقدارِ ثمنه ومنظره.

١٦٧ - [كلمات الله]

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾^(١) والكلماتُ في هذا الموضوعِ، ليس يُريدُ بها القولَ والكلامَ المؤلَّفَ من الحروفِ، وإنَّما يريدُ النِّعمَ والأعاجيبَ، والصفاتِ وما أشبه ذلك، فإنَّ كلاً من هذه الفنونِ لو وقَفَ عليه رجلٌ رقيقُ اللسانِ صافيِ الذهنِ، صحيحُ الفِكرِ تامُّ الأداةِ، لما برِحَ أن تحسره المعاني وتغمره الحِكَم.

١٦٨ - [الموازنة والمقابلة بين نوعين]

وقد قال المتكلمون والرؤساءُ والجلَّةُ العُظماءُ في التمثيلِ بين الملائكةِ والمؤمنين، وفي فرق ما بين الجنِّ والإنسِ. وطباعُ الجنِّ أبعدُ من طباعِ الإنسِ، ومن طباعِ الديكِ، ومن طباعِ الكلبِ. وإنَّما ذهبوا إلى الطاعةِ والمعصيةِ. ويخيَّلُ إليَّ أنك لو كنت سمعتَهما يمثِّلان ما بين التدرُّجِ والطاؤسِ، كما اشتدَّ تعجُّبُك. ونحن نرى أنَّ

(١) ٢٧: لقمان / ٣١.

تمثيل ما بين خصال الدرّة والحمامة، والفيل والبعير، والثعلب والذئب أعجب، ولسنا نعني أنّ للدرّة ما للطاوس من حسن ذلك الريش وتلاوينه وتعاريجه، ولا أنّ لها غناء الفرس في الحرب والدفع عن الحريم؛ لكننا إذا أردنا مواضع التدبير العجيب من الخلق الخسيس، والحس اللطيف من الشيء السخيف، والنظر في العواقب من الخلق الخارج من حدود الإنس والجنّ والملائكة، لم نذهب إلى ضخّم البدن وعظم الحجم، ولا إلى المنظر الحسن ولا إلى كثرة الثمن. وفي القرد أعاجيب وفي الدبّ أعاجيب، وليس فيهما كبير مرفق إلا بقدر ما تتكسّب به أصحاب القردة، وإنما قصدنا إلى شيئين يشيع القول فيهما، ويكثر الاعتبار ممّا يستخرج العلماء من خفي أمرهما. ولو جمعنا بين الديك وبين بعض ما ذكرت، وبين الكلب وبين بعض ما وصفت، لانقطع القول قبل أن يبلغ حدّ الموازنة والمقابلة.

وقد ذكرت أنّ بعض ما دعاك إلى الإنكار عليهما والتعجب من أمرهما، سقوط قدر الكلب ونذالته، وبكّه الديك وغباوته، وأنّ الكلب لا بهيمة تامّة ولا سبع تامّ، وما كان ليخرجه من شيء من حدود الكلاب إلى حدود الناس، مقدار ما هو عليه من الأنس بهم، فقد يكون في الشيء بعض الشبه من شيء ولا يكون ذلك مخرجاً لهما من أحكامهما وحدودهما.

١٦٩ - [تشبيه الإنسان بالقمر والشمس ونحوهما]

وقد يشبه الشعراء والعلماء والبلغاء الإنسان بالقمر والشمس، والغيث والبحر، وبالأسد والسيف، وبالحيّة والنجم، ولا يخرجونه بهذه المعاني إلى حدّ الإنسان. وإذا ذموا قالوا: هو الكلب والخنزير، وهو القرد والحمّار، وهو الثور، وهو التيس، وهو الذئب، وهو العقرب، وهو الجعل، وهو القرني؛ ثم لا يدخلون هذه الأشياء في حدود الناس ولا أسمائهم، ولا يخرجون بذلك الإنسان إلى هذه الحدود وهذه الأسماء. وسموا الجارية غزلاً، وسموها أيضاً خشفاً، ومهراً، وفاخته، وحمامة، وزهرة، وقضيباً، وخيزراناً، على ذلك المعنى. وصنعوا مثل ذلك بالبروج والكواكب، فذكروا الأسد والثور، والحمل والجدي، والعقرب والحوت، وسموها بالقوس والسنبلة والميزان، وغيرها. وقال في ذلك ابن عسلة الشيباني: [من الكامل]

فصحوت والنمريّ يحسبها عمّ السّماكِ وخالّة النّجمِ

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «نعمت العمّة لكم النخلة خلقت من فضلة

طينة آدم»^(١) وهذا الكلام صحيح المعنى، لا يعيبه إلا من لا يعرف مجاز الكلام. وليس هذا ممّا يطرد لنا أن نقيسه، وإنما نُقدِّم على ما أقدموا، ونُحجِّم عمّا أحجموا، وننتهي إلى حيث انتهوا.

ونراهم يسمون الرجلَ جملاً ولا يسمونه بعيراً، ولا يسمون المرأةَ ناقةً؛ ويسمون الرجلَ ثوراً ولا يسمون المرأةَ بقرةً، ويسمون الرجلَ حماراً ولا يسمون المرأةَ أتاناً؛ ويسمون المرأةَ نعجةً ولا يسمونها شاة. وهم لا يضعون نعجةً اسماً مقطوعاً، ولا يجعلون ذلك علامةً مثل زيد وعمرو، ويسمون المرأةَ عنزاً.

١٧٠ - [تسمية الإنسان بالعالم الأصغر]

أو ما علمت أنّ الإنسان الذي خلقت السموات والأرض وما بينهما من أجله كما قال عز وجل: ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾^(٢) إنّما سمّوه العالمَ الصغيرَ سليلَ العالمِ الكبير، لما وجدوا فيه من جمع أشكال ما في العالم الكبير، ووجدنا له الحواس الخمس ووجدوا فيه المحسوسات الخمس، ووجدوه يأكل اللحم والحب، ويجمع بين ما تقتاته البهيمة والسبع، ووجدوا فيه صولة الجمل ووثوب الأسد، وغدر الذئب، وروغان الثعلب، وجبن الصفر^(٣)، وجمع الذرّة، وصنعة السرفة^(٤) وجود الديك، وإلف الكلب، واهتداء الحمام. وربما وجدوا فيه ممّا في البهائم والسباع خلقتين أو ثلاثة، ولا يبلغ أن يكون جملاً بأن يكون فيه اهتداؤه وغيرته، وصولته وحقده، وصبره على حمل الثقل، ولا يلزم شبه الذئب بقدر ما يتهيأ فيه من مثل غدره ومكره، واسترواحه وتوحشه، وشدة نكره. كما أن الرجل يصيب الرأي الغامض المرّة والمرتين والثلاث، ولا يبلغ ذلك المقدار أن يقال له داهية وذو نكراء أو صاحب بزلاء، وكما يخطئ الرجل فيفحش خطأه في المرّة والمرتين والثلاث، فلا يبلغ الأمر به أن يقال له غبيّ وأبله ومنقوص.

وسمّوه العالمَ الصغيرَ لأنهم وجدوه يصور كل شيء بيده، ويحكي كل صوت بفمه^(٥). وقالوا: ولأن أعضاءه مقسومة على البروج الاثني عشر والنجوم السبعة، وفيه

(١) الحديث في النهاية ٣/٣٠٣.

(٢) الجاثية / ٤٥.

(٣) الصفر: طائر من خساس الطير تسميه العامة أبا مليح، حياة الحيوان ١/٦١٨.

(٤) السرفة: دويبة سوداء الرأس وسائرهما أحمر، تتخذ لنفسها بيتاً مربعاً من دقائق العيدان، تضم بعضها إلى بعض بلعابها على مثال الناموس ثم تدخل فيه وتموت. حياة الحيوان ١/٥٥٥.

(٥) البيان والتبيين ١/٧٠.

الصفراء وهي من نتاج النار، وفيه السوداء وهي من نتاج الأرض، وفيه الدّم وهو من نتاج الهواء، وفيه البلغم وهو من نتاج الماء. وعلى طبائعه الأربع وضعت الأوتاد الأربعة. فجعلوه العالم الصغير، إذ كان فيه جميع أجزائه وأخلاقه وطبائعه. ألا ترى أن فيه طبائع الغضب والرضا، وآلة اليقين والشك، والاعتقاد والوقف وفيه طبائع الفطنة والغباوة، والسلامة والمكر، والنصيحة والغش، والوفاء والغدر، والرياء والإخلاص، والحب والبغض، والجد والهزل، والبخل والجود، والاقتصاد والسرف، والتواضع والكبر، والأنس والوحشة، والفكرة والإمهال، والتمييز والخبط، والجبن والشجاعة، والحزم والإضاعة، والتبذير والتقتير، والتبذل والتعزز، والأدخار والتوكل، والقناعة والحرص، والرغبة والزهد، والسخط والرضا، والصبر والجزع، والذكر والنسيان، والخوف والرجاء، والطمع والياس، والتنزه والطبع، والشك واليقين، والحياء والقحة، والكتمان والإشاعة، والإقرار والإنكار، والعلم والجهل، والظلم والإنصاف، والطلب والهرب، والحقّد وسرعة الرضا، والحدة وبُعد الغضب، والسُرور والهَم، واللذة والألم، والتأمل والتمني، والإصرار والندم، والجماح والبداوات، والعي والبلاغة، والنطق والخرس، والتصميم والتوقف، والتغافل والتفاطن، والعفو والمكافأة، والاستطاعة والطبيعة، وما لا يحصى عدده، ولا يُعرف حدّه.

فالكلبُ سبع وإن كان بالناس أنيساً، ولا تخرجهُ الخصلة والخصلتان ممّا قارب بعض طبائع الناس، إلى أن يخرجهُ من الكلبية. قال: وكذلك الجميع. وقد عرفت شبه باطن الكلب بباطن الإنسان، وشبه ظاهر القرد بظاهر الإنسان: ترى ذلك في طرفه وتغميض عينه، وفي ضحكته وفي حكايته، وفي كفه وأصابعه، وفي رفعها ووضعها، وكيف يتناولُ بها، وكيف يجهز اللقمة إلى فيه وكيف يكسر الجوز ويستخرج لبه وكيف يلقن كل ما أخذ به وأعيد عليه، وأنه من بين جميع الحيوان إذا سقط في الماء غرق مثل الإنسان، ومع اجتماع أسباب المعرفة فيه يغرق، إلا أن يكتسب معرفة السباحة، وإن كان طبعه أوفى وأكمل فهو من هاهنا أنقص وأكل. وكل شيء فهو يسبح من جميع الحيوانات، ممّا يوصف بالمعرفة والفطنة، وممّا يوصف بالغباوة والبلادة؛ وليس يصير القردُ بذلك المقدار من المقارنة إلى أن يخرج من بعض حدود القروء إلى حدود الإنسان.

١٧١ - [عود إلى الحوار في شأن الكلب والديك]

وزعمت أن ممّا يمنع من التمثيل بين الديك والكلب أنه حارسٌ محترسٌ منه. وكلُّ حارسٍ من الناس فهو حارسٌ غيرُ مأمونٍ تبدّله.

ولقد سأل زيادٌ ليلةً من الليالي: مَنْ على شُرطتكم؟ قالوا: بلج بن نُشْبَةَ الجُشمي. فقال: [من الطويل]

وساعٍ مع السلطانِ يَسعى عليهمُ
ومحتَرَسٍ من مثله وهو حارس
ويقال: إن الشاعر قال هذا الشعرَ في الفلافس النهشلي، حين ولي شُرطة
الحارث بن عبد الله فقال: [من الطويل]

أقلي عليّ اللوم يا ابنة مالك
وذُمي زماناً ساد فيه الفلافس^(١)
وساعٍ مع السلطانِ يَسعى عليهمُ
ومُحتَرَسٍ من مثله وهو حارسُ

وليس يُحكَم لصغار المضارِّ على كبارها بل الحكم للغامر على المغمور
والقاهر على المقهور. ولو قد حكينا ما ذكر هذا الشيخُ من خصال الكلب وذكر
صاحبه من خصال الديك، أيقنت أن العجلة من عمل الشيطان، وأن العُجب بئس
الصاحب.

وقلت: وما يبلغ من قدر الكلب ومن مقدار الديك، أن يتفرغ لهما شيخان من
جَلَّة المعتزلة، وهم أشراف أهل الحكمة؛ فأي شيء بلغ، غفر الله تعالى لك، من قدر
جزء لا يتجزأ من رمل عالج، والجزء الأقل من أول قطع الذرة للمكان السحيق،
والصحيفة التي لا عمق لها، وأي شيء يُعنون بذلك، وما يبلغ من ثمنه وقدر
حجمه، حتى يتفرغ للجدال فيه الشيوخ الجلة، والكهول العلية، وحتى يختاروا النظر
فيه على التسبيح والتهليل، وقراءة القرآن وطول الانتصاب في الصلاة؛ وحتى يزعم
أهله أنه فوق الحج والجهاد، وفوق كل بر واجتهاد. فإن زعمت أن ذلك كله سواء،
طالت الخصومة معك، وشغلتنا بهما عما هو أولى بنا فيك. على أنك إذا عممت
ذلك كله بالذم، وجللته بالعب، صارت المصيبة فيك أجلاً، والعزاء عنها أعسر. وإن
زعمت أن ذلك إنما جاز لأنهم لم يذهبوا إلى اثمان الأعيان في الأسواق، وإلى عظم
الحجم، وإلى ما يروق العين ويلائم النفس، وأنهم إنما ذهبوا إلى عاقبة الأمر فيه، وإلى
نتيجته، وما يتولد عنه من علم النهايات، ومن باب الكل والبعض، وكان ويكون،
ومن باب ما يحيط به العلم أو ما يفضل عنه، ومن فرق ما بين مذاهب الدهرية
ومذاهب الموحدين. فإن كان هذا العذر مقبولاً، وهذا الحكم صحيحاً، فكذلك
نقول في الكلب، لأن الكلب ليس له خطرٌ ثمين ولا قدرٌ في الصدر جليل؛ لأنه إن

(١) البيتان في عيون الاخبار ٥٧/١، والشعر والشعراء ٤١٢. وانظر مجمع الامثال ٣٢١/٢،
والمستقصى ٣٤٢/٢، وفصل المقال ٩٤.

كان كلبٌ صيد فديته أربعون درهماً، وإن كان كلبٌ ضرعٌ فديته شاة، وإن كان كلبٌ دارٍ فديته زنبيلٌ من ترابٍ، حُقَّ على القاتل أن يؤدِّيَه، وحُقَّ على صاحب الدار أن يقبلَه، فهذا مقدارُ ظاهرِ حاله ومُفتَّشه، وكوامنُ خِصاله، ودفائنُ الحكمةِ فيه. والبرهاناتُ على عَجيبِ تدبيرِ الربِّ تعالى ذكْرُه فيه، على خلافِ ذلك؛ فلذلك استجازوا النَّظَرَ في شأنه، والتمثيلَ بينه وبين نظيره.

وتعلم أيضاً مع ذلك أن الكلبَ إذا كان فيه، مع خموله وسقوطه، من عَجيبِ التدبيرِ والنعمةِ السابغةِ والحكمةِ البالغةِ، مثلُ هذا الإنسانِ الذي له خلقُ الله السمواتِ والأرضِ وما بينهما، أحقُّ بأن يُفكرَ فيه، ويُحمَدَ اللهُ تعالى على ما أودَعَه من الحكمةِ العجيبةِ، والنعمةِ السابغةِ.

وقلت: ولو كان بدلُ النَّظَرِ فيهما النَّظَرَ في التوحيدِ، وفي نفي التشبيهِ، وفي الوعدِ والوعيدِ، وفي التعديلِ والتجويزِ، وفي تصحيحِ الأخبارِ، والتفضيلِ بين علمِ الطبائعِ والاختيارِ، لكان أصوبَ.

١٧٢ - [دفاع عن المتكلمين]

والعجبُ أنَّكَ عَمَدتَ إلى رجالٍ لا صناعةَ لهم ولا تجارةَ إلاَّ الدعاءَ إلى ما ذكرت، والاحتجاجُ لما وصفت، وإلاَّ وُضِعَ الكُتُبُ فيه والولايةُ والعداوةُ فيه، ولا لهم لَذَّةٌ ولا همٌّ ولا مذهبٌ ولا مجازٌ إلاَّ عليه وإليه؛ فحين أرادوا أن يُقسِّطُوا بينَ الجميعِ بالحصصِ، ويعدلوا بينَ الكلِّ بإعطاءِ كلِّ شيءٍ نصيبه، حتَّى يقعَ التعديلُ شاملاً، والتقسيطُ جامعاً، ويظهرَ بذلك الخفيُّ من الحكمِ، والمستورُ من التدبيرِ، اعترضتَ بالتعنُّتِ والتعجُّبِ، وسطرتَ الكلامَ، وأطلتَ الخطبَ، من غيرِ أن يكونَ صوبَ رأيك أديبٌ، وشايَعك حكيمٌ.

١٧٣ - [نسك طوائف من الناس]

وسأضربُ لك مثلاً قد استوجبتَ أغلظَ منه، وتعرَّضتَ لأشدَّ منه ولكننا نستأني بك ومنتظرٌ أوبتِكَ. وجدنا لجميعِ أهلِ النقصِ، ولأهلِ كلِّ صِنْفٍ منهم نُسكاً يعتمدون عليه في الجمالِ، ويحتسبون به في الطاعةِ وطلبِ المثوبةِ، ويفزعون إليه، على قدرِ فسادِ الطَّبَاعِ، وضعفِ الأصلِ، واضطرابِ الفرعِ، مع خبثِ المنشأ، وقلةِ الثبُتِ والتوقُّفِ، ومع كثرةِ التقلُّبِ والإقدامِ معَ أوَّلِ خاطرٍ^(١): فنُسكُ المريبِ

(١) تقدم القول على نسك طوائف من الناس في الفقرة (١٣٩).

المرتاب من المتكلمين أن يتحلَّى برمي الناس بالرَّيبة، ويتزيَّن بإضافة ما يجدُ في نفسه إلى خصمه، خوفاً من أن يكونَ قد فطنَ له، فهو يسترُّ ذلك الداءَ برمي الناس به .

ونُسكُ الخارجي الذي يتحلَّى به ويتزيَّن بجماله، إظهارُ استعظامِ المعاصي، ثم لا يلتفت إلى مجاوزة المقدارِ وإلى ظلمِ العباد، ولا يقف على أن الله تعالى لا يحب أن يظلمَ أظلمَ الظالمين، وأن في الحق ما وسع الجميع .

ونسكُ الخراساني أن يُحجَّ ويَنام على قفاه، ويعقد الرِّياسة، ويتهيأ للشَّهادة، ويبسطُ لسانه بالحسبة . وقد قالوا: إذا نسكُ الشريفُ تواضع، وإذا نسكُ الوضيعُ تكبر . وتفسيره قريبٌ واضح .

ونسكُ البَنوي والجنديُّ طرحُ الديوان، والزرايةُ على السلطان . ونسكُ دهاقين السَّواد تركُ شربِ المطبوخ . ونسكُ الخَصبيُّ لزومُ طرسوس وإظهارُ مجاهدةِ الروم . ونسكُ الرافضيُّ تركُ النبيذ . ونسكُ البستانيُّ تركُ سرقةِ الثمر . ونسكُ المغنيِّ الصلاةُ في الجماعة وكثرةُ التسبيح، والصلاةُ على النبي ﷺ .

ونسكُ اليهوديِّ التشدُّدُ في السَّبِّ وإقامته .

والصوفيُّ المظهرُ النسكُ من المسلمين، إذا كان فسلاً يبغض العمل تطرف وأظهر تحريمَ المكاسب، وعاد سائلاً، وجعل مسأله وسيلةً إلى تعظيم الناس له .

وإذا كان النصرانيُّ فسلاً ندلاً مبغضاً للعمل، وترهَّب ولبس الصُّوف؛ لأنَّه واثقٌ أنَّه متى لبس وتزيَّن بذلك الزيِّ وتحلَّى بذلك اللباس، وأظهر تلك السِّما، أنَّه قد وجبَ على أهلِ اليسرِ والثروة منهم أن يعولُّوه ويكفُّوه، ثم لا يرضى بأن ربحَ الكفايةَ باطلاً حتى استطال بالمرتبة .

فإذا رمى المتكلمُ المريبُ أهلَ البراءة، ظنَّ أنَّه قد حوَّل ريبته إلى خصمه، وحوَّل براءةَ خصمه إليه . وإذا صار كلُّ واحدٍ من هذه الأصناف إلى ما ذكرنا، فقد بلغ الأمانة، ووقفَ على النهاية . فاحذر أن تكونَ منهم واعلم أنَّك قد أشبهتهم في هذا الوجه، وضارعتهم في هذا المذهب .

باب مما قدّمنا ذكره، وبينه وبين ما ذكرنا بعض الفرق

[طائفة من الأمثال] - ١٧٤

يقال: أجزأ من الليث^(١)، وأجبن من الصفر^(٢)، وأسخى من لافضة^(٣). وأصبر على الهون من كلب، وأحذر من عقق^(٤)، وأزهى من غراب^(٥)، وأصنع من سُرقة^(٦) وأظلم من حية^(٧)، وأغدر من الذئب^(٨)، وأخبث من ذئب الحمز^(٩) وأشدّ عداوة من عقرب^(١٠)، وأروغ من ثعلب^(١١)، وأحمق من حباري^(١٢)، وأهدى من قطاة^(١٣)، وأكذب من فاختة^(١٤)، وألأم من كلب على جيفة^(١٥)، وأجمع من ذرة^(١٦)، وأضل

-
- (١) المثل برواية: «أجزأ من ليث بخفان» في مجمع الأمثال ١/١٨٩، والمستقصى ١/٤٨، وجمهرة الأمثال ١/٣٢٩.
- (٢) مجمع الأمثال ١/١٨٥، والمستقصى ١/٤٥، وجمهرة الأمثال ١/٣٢٥، والدرّة الفاخرة ١/١١٣.
- (٣) الدرّة الفاخرة ١/٢١٨.
- (٤) المستقصى ١/٦٢، وجمهرة الأمثال ١/٣٤٣، ٣٩٦، والدرّة الفاخرة ١/١٣٣.
- (٥) مجمع الأمثال ١/٣٢٧، والمستقصى ١/١٥١، والأمثال لابن سلام ٣٦٠، وجمهرة الأمثال ١/٥٠٧.
- (٦) مجمع الأمثال ١/٤١١، وجمهرة الأمثال ١/٥٨٣.
- (٧) مجمع الأمثال ١/٤٤٥، والمستقصى ١/٢٣٢، وفصل المقال ٤٩٢، وجمهرة الأمثال ٢/٢٩.
- (٨) مجمع الأمثال ٢/٦٧، وجمهرة الأمثال ١/١٦٧، والمستقصى ١/٢٥٨، والدرّة الفاخرة ١/٣٢١.
- (٩) مجمع الأمثال ١/٢٥٩، والمستقصى ١/٩٢، وجمهرة الأمثال ١/٤١٢، ٤٣٨، ٤٦٢.
- (١٠) الدرّة الفاخرة ٢/٤٣٨.
- (١١) جمهرة الأمثال ١/٤٧٣، ٥٠٠، والدرّة الفاخرة ٢/٤٤١.
- (١٢) المستقصى ١/٧٤، والدرّة الفاخرة ١/١٣٣.
- (١٣) مجمع الأمثال ٢/٤٠٩، جمهرة الأمثال ١/١٦٧، ١٦٧/٢، ٣٥٣/٢، والمستقصى ٢/٤٢٩، ٤٤١.
- (١٤) مجمع الأمثال ٢/١٦٧، وجمهرة الأمثال ٢/١٣٧، ١٧٣، والمستقصى ١/٢٩٢.
- (١٥) لم يرد المثل بهذه الرواية، بل برواية: «ألأم من كلب على عرق» والمثل في مجمع الأمثال ٢/٢٥٦، والمستقصى ١/٣٠١، وجمهرة الأمثال ٢/١٨٠.
- (١٦) مجمع الأمثال ١/١٨٨، والمستقصى ١/٥١، والدرّة الفاخرة ١/١٠٧، ١٢١.

من حمار أهلي، وأعقُّ من ضَبِّ^(١)، وأبرُّ من هرة^(٢)، وأنقر من الظليم^(٣)، وأضل من ورل^(٤) وأضل من ضب^(٥)، وأظلم من الحية^(٦).

فيعبرون عن هذه الأشياء بعبارة كالعبارة عن الناس، في مواضع الإحسان والإساءة، حتى كأنهم من الملمومين والمشكورين، ثم يعبرون في هذا الباب الآخر بدون هذا التعبير، ويجعلون خيرهم مقصوراً على ما في الخلقة من الغريزة والقوى فيقولون: أبصر من عقاب^(٧)، وأسمع من فرس^(٨)، وأطول ذمماً من ضب^(٩)، وأصح من الظليم^(١٠).

والثاني يشبه العبارة عن الحمد والذم، والأول يشبه العبارة عن اللائمة والشكر. وإنما قلنا ذلك، لأن كل مشكور محمود، وليس كل محمود مشكوراً؛ وكل ملموم مذموم وليس كل مذموم ملموماً. وقد يحمدون البلدة ويذمون الأخرى، وكذلك الطعام والشراب، وليس ذلك على جهة اللوم ولا على جهة الشكر؛ لأن الأجر لا يقع إلا على جهة التخير والتكلف، وإلا على ما لا يُنال إلا بالاستطاعة والأول إنما يُنال بالخلقة وبمقدار من المعرفة، ولا يبلغ أن يسمى عقلاً، كما أنه ليس كل قوة تسمى استطاعة. والله سبحانه وتعالى أعلم.

-
- (١) مجمع الأمثال ٤٧/٢، والمستقصى ٢٥٠/١، وجمهرة الأمثال ٦٩/٢، والدرة الفاخرة ٢٩٧/١.
 - (٢) مجمع الأمثال ١١٦/١، وجمهرة الأمثال ٢٠٤/١، ٢٤٣، والمستقصى ١٧/١.
 - (٣) لم يرد المثل بهذه الرواية، بل برواية: «أنقر من ظبي»، «أنقر من نعامة» في المستقصى ٣٩٧/١، وجمهرة الأمثال ٣٩٨/٢، والدرة الفاخرة ٣٩١/٢.
 - (٤) مجمع الأمثال ٤٢٦/١، وجمهرة الأمثال ١١/٢، والمستقصى ٢١٨/١، وفصل المقال ١٦٣.
 - (٥) المستقصى ٢١٧/١، ومجمع الأمثال ٤٢٦/١، وفصل المقال ١٦٣.
 - (٦) الأمثال لابن سلام ٣٦، ومجمع الأمثال ٤٤٥/١، والمستقصى ٢٣٢/١، وفصل المقال ٤٩٢.
 - (٧) جمهرة الأمثال ٢٠٤/١، ٢٣٩، والدرة الفاخرة ٧٥/١، ٧٧.
 - (٨) الدرّة الفاخرة ٢١٨/١، ومجمع الأمثال ٣٤٩/٢، والأمثال لابن سلام ٣٦٠.
 - (٩) مجمع الأمثال ٤٣٧/١، والمستقصى ٢٢٧/١، وجمهرة الأمثال ٢٠/٢.
 - (١٠) مجمع الأمثال ٤١٧/١، وجمهرة الأمثال ٥٦٨/١، والمستقصى ٢٠٥/١.

باب ما ذكر صاحبُ الديك من ذمِّ الكلابِ

وتعداد أصناف معاييبها ومثالبها، من لؤمها وجبنها وضعفها وشرها، وغدرها وبذائها، وجهلها وتسرعها، وفتنها وقدرها، وما جاء في الآثار من النهي عن اتخاذها وإمسакها، ومن الأمر بقتلها وطردها، ومن كثرة جنائياتها وقلة ردها ومن ضرب المثل بلؤمها ونذالتها، وقبحها وقبح معاظلتها ومن سماجة نباحها وكثرة أذاها، وتقذر المسلمين من دنوها، وأنها تأكل لحوم الناس، وأنها كالخلق المركب والحيوان الملقق: كالبيغل في الدواب والراعي في الحمام، وأنها لا سبع ولا بهيمة، ولا إنسيّة ولا جنيّة، وأنها من الجنّ دون الجنّ، وأنها مطايا الجنّ ونوع من المسخ، وأنها تنبش القبور وتأكل الموتى، وأنها يعترها الكلب من أكل لحوم الناس.

فإذا حكينا ذلك حكينا قول من عدد محاسنها، وصنف مناقبها، وأخذنا من ذكر أسمائها وأنسابها وأعرافها، وتفدية الرجال إياها واستهتارهم بها، وذكر كسبها وحرصتها، ووفائها وإلفها وجميع منافعها، والمرافق التي فيها، وما أودعت من المعرفة الصحيحة والفظن العجيبة والحس اللطيف والأدب المحمود. وذلك سوى صدق الاسترواح وجودة الشم، وذكر حفظها ونفاذها واهتدائها، وإثباتها لصور أربابها وجيرانها، وصبرها، ومعرفتها بحقوق الكرام، وإهانتها للغام، وذكر صبرها على الجفا، واحتمالها للجوع، وذكر ذمامها وشدة منعها معاقد الذمار^(١) منها، وذكر يقظتها وقلة غفلتها وبعدها أصواتها، وكثرة نسلها وسرعة قبولها وإلقاحها وتصرف أرحامها في ذلك، مع اختلاف طبائع ذكورها والذكور من غير جنسها، وكثرة أعمامها وأخوالها، وترددها في أصناف السباع، وسلامتها من أعراف البهائم، وذكر لقنها وحكايتها، وجودة ثقافتها ومهنتها وخدمتها، وجدّها ولعبها وجميع أمورها؛ بالأشعار المشهورة والأحاديث الماثورة، وبالكتب المنزلة والأمثال السائرة، وعن تجربة الناس لها وبرايتهم فيها، وما عاينوا منها؛ وكيف قال أصحاب الفال فيها، وبإخبار المتطيرين

(١) الذمار: هو كل ما يلزمك حفظه والدفع عنه. اللسان: ذمر.

عنها، وعن أسنانها ومنتهى أعمارها وعدد جرائها، ومدّة حملها، وعن أسمائها والقبابها، وسمايتها وشياتها، وعن دوائها وأدوائها وسياستها، وعن اللاتي لا تلقن منها وعن أعرافها والخارجي منها وعن أصول مواليدها ومخارج بلدانها.

١٧٥ - [أكل الكلاب للحوم الناس]

وذكر صاحبُ الديك ما يحفظ من أكلِ الكلابِ للحومِ النَّاسِ فقال: قال الجارود بن أبي سبرة في ذلك: [من الطويل]

الم تر أن الله ربّي بحوله وقوته أخزى ابنَ عمرة مالكا
فمن كانَ عنه بالمغيّب سائلاً فقد صارَ في أرض الرُصافة هالكا
تظللُ الكلابُ العادياتُ ينشئه إذا اجتنبن مُسوداً من الليل حالكا

وقال نُفيع بن صفار المحاربي من ولد مُحارب بن خُصفة في حرب قيسٍ وتغلب: [من الكامل]

أفنت بني جشم بن بكر حربنا حتى تعادلَ ميلُ تغلب فاستوى
أكل الكلاب أنوفهم وخصاهم فلتبك تغلب للأنوف وللخصى

وقال أبو يعقوب الخريمي، وهو إسحاق بن حسّان بن قوهي في قتلى حربٍ ببغداد: [من المنسرح]

وهل رأيت الفتیان في باحة المع رك معفورة مناخرها^(١)
كل فتى مانع حقيقته يشقى به في الوعى مساعرها
باتت عليه الكلاب تنهشه مخضوبة من دمٍ أظافرها

وقال أبو الشمقمق (وهو مروان بن محمد، مولى مروان بن محمد، ويكنى أبا محمد): [من مجزوء الرمل]

يوسفُ الشاعرُ فرخٌ وجدوه بالأبله^(٢)
حلقي قد تلقى كامناً في جوف جله
خيّطوها خشية الكلد سب عليه بمسله

وذكر لي عن أبي بكر الهذلي، قال: كنّا عند الحسن إذ أقبل وكيع بن أبي سود

(١) الأبيات في ديوان الخريمي ٣٤ - ٣٥.

(٢) الأبيات في ديوانه ١٤٩.

فجلس، فقال يا أبا سعيد: ما تقولُ في دمِ البراغيث يُصيب الثوب: أَيْصَلِي فِيهِ؟
فقال: يا عجباً مَمَّنْ يَلْغُ فِي دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُ كَلْبٌ، ثُمَّ يَسْأَلُ عَنِ دَمِ الْبِرَاغِيثِ!!
فقام وكَيْعٌ يَتَخَلَّجُ فِي مِشِيَّتِهِ كَتَخَلَّجَ الْمَجْنُونُ، فقال الحسن: إِنَّ لِلَّهِ فِي كُلِّ عَضْوٍ
مِنهُ نِعْمَةٌ فَيَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى الْمَعْصِيَةِ، اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنَا مَمَّنْ يَتَقَوَّى بِنِعْمَتِكَ عَلَى
مَعْصِيَتِكَ!!

١٧٦ - [ما أضيف من الحيوان إلى خبث الرائحة]

وقال صاحب الديك: أشياء من الحيوان تُضافُ إلى نَتْنِ الْجُلُودِ وَخُبْثِ
الرَّائِحَةِ، كَرِيحِ أَيْدَانِ الْحَيَّاتِ، وَكَنْتَنِ الْتُبُوسِ وَصَنَّانِ عَرَقِهَا، وَكَنْتَنِ جِلْدِ الْكِلَابِ إِذَا
أَصَابَهُ مَطَرٌ. وَضُرُوبٌ مِنَ النَّتْنِ فِي سِوَى ذَلِكَ، نَحْنُ ذَاكُرُوهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وقال رُوحُ بْنُ زَنْبَاعِ الْجُدَامِيِّ فِي امْرَأَتِهِ، وَضَرَبَ بِالْكَلْبِ الْمِثْلَ: [من البسيط]

رِيحُ الْكِرَائِمِ مَعْرُوفٌ لَهُ أَرْجٌ وَرِيحُهَا رِيحُ كَلْبٍ مَسَّهُ مَطَرٌ

قال: وكانت امرأة رُوحِ بْنِ زَنْبَاعِ أُمُّ جَعْفَرِ بِنْتِ النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ، وَكَانَ عَبْدُ
الْمَلِكِ زَوْجَهُ إِيَّاهَا، وَقَالَ: إِنَّهَا جَارِيَةٌ حَسَنَاءٌ، فَاصْبِرْ عَلَى بَدَأِ لِسَانِهَا.

وقال الآخر: [من الرجز]

وَرِيحٌ مَجْرُوبٍ وَرِيحٌ جُلَّةٌ وَرِيحُ كَلْبٍ فِي غَدَاةٍ طَلَّةٌ

وَأَنشَدَ أَبُو زَيْدٍ فِي ذَلِكَ: [من البسيط]

كَانَ رِيحُهُمْ مِنْ خُبْثِ طُعْمَتِهِمْ رِيحُ الْكِلَابِ إِذَا مَا بَلَّهَا الْمَطَرُ (١).

ومما ذُكِرَ بِهِ الْكَلْبُ فِي أَكْلِهِ الْعَذْرَةَ، قَوْلُ الرَّاجِزِ: [من الرجز]

* أَحْرَصُ مِنْ كَلْبٍ عَلَى عِقْيِ صَبِيٍّ (٢) *

وقال مثل ذلك حَنْظَلَةُ بْنُ عَرَادَةَ فِي ذِكْرِه لَابْنِهِ السَّرْنَدِيُّ: [من البسيط]

مَا لِلسَّرْنَدِيِّ أَطَالَ اللَّهُ أَيْمَتَهُ خَلَّى أَبَاهُ بِقَفْرِ الْبَيْدِ وَأَدْلَجَا (٣)

مِجْعٌ خَبِيثٌ يُعَاطِي الْكَلْبَ طُعْمَتَهُ وَإِنْ رَأَى غَفْلَةً مِنْ جَارِهِ وَلَجَا (٤)

(١) البيت لحسان بن ثابت في ديوانه ٢٨٢.

(٢) الرجز في المستقصى ٦٤/١.

(٣) الأبيات في العققة والبررة ٣٥٥-٣٥٦ «نوادير المخطوطات». والبيت الأول بلا نسبة في أساس

البلاغة (أيم)، والثاني لحنظلة في التاج (مجمع).

(٤) المجمع الأحقق والجاهل.

رَبَّيْتَهُ وَهُوَ مِثْلُ الْفَرْخِ أَصْرَبُهُ

والكلبُ يلحسُ من تحتِ استِه الرَّدْجَا^(١)

يقال للذي يخرج من بطن الصبي حين يخرج من بطن أمه عقي بكسر العين، ويقال عقى الصبي يعقي عقياً، فإذا شد بطنه للسمن قيل قد صرب ليسمن. والعقي وهو العقية الغيبة، وإياه عنى ابن عمر حين قيل له: هلاً بايعت أخاك ابن الزبير؟ فقال: إن أخي وضع يده في عقية ودعا إلى البيعة. إنني لا أنزع يدي من جماعة وأضعها في فرقة.

وفي الحديث المرفوع: «الراجع في هبته كالراجع في قيئه»^(٢). وهذا المثل في الكلب.

ويقال: «أبخل من كلب على جيفة»^(٣). وقال بعضهم في الكلب: الجيفة أحب إليه من اللحم الغريض، ويأكل العذرة ويرجع في قيئه، ويشغر ببوله فيصير في جوف فيه وأنفه، ويحذفه تلقاء خيشومه.

وقال صاحب الكلب: إن كنتم إنما تستسقطون الكلب وتستسفلونه بهذا وأشباهه، فالجيفة أتن من العذرة، والعذرة شر من القيء، والجيفة أحب إلى أشرف السباع ورؤسائها من اللحم العبيط الغريض الغض.

١٧٧ - [مأكل السبع]

والأسد سيد السباع، وهو يأكل الجيفة، ولا يعرض لشرائع الوحش وافتراس البهائم، ولا للسابلة من الناس، ما وجد في فريسته فضلة. ويبدأ بعد شرب الدم فيبقر بطنه ويأكل ما فيه من الغثيثة والثفل والحشوة والزبل، وهو يرجع في قيئه، وعنه ورث السنور ذلك.

(١) الردج: أول ما يخرج من بطن الصبي.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب ٥٨، حديث ١٤١٨، ١٤١٩، ومسلم في الهبات برقم ١٦٢٠.

(٣) ورد المثل برواية «أبخل من كلب» في مجمع الأمثال ١/١١٤، وجمهرة الأمثال ١/٢٤٧، والدرة الفاخرة ١/٧٥، ٩٠. وبرواية «الأم من كلب على عرق» في مجمع الأمثال ٢/٢٥٦، وجمهرة الأمثال ٢/١٨٠، والمستقصى ١/٣٠١. وبرواية «الأم من كلب على جيفة» في البخلاء ١٦٠. وبرواية «أحرص من كلب على جيفة» في مجمع الأمثال ١/٢٢٨، والمستقصى ١/٦٤، والدرة الفاخرة ١/١٦١.

١٧٨ - [ما قيل في السبع من الأمثال]

وهو المضروبُ به المثلُ في النجدة والبسالة، وفي شدة الإقدام والصولة، فيقال: « ما هو إلا الأسد على برائه »^(١) و « هو أشدُّ من الأسد »^(٢) و « هو أجرأ من الليث العادي »^(٣) و « فلان أسدُ البلاد »^(٤) و « هو الأسد الأسود »^(٥). وقيل لحمزة بن عبد المطَّلَب أسدُ الله. فكفَّاك من نُبِّل الأسد أنه اشتقَّ لحمزة بن عبد المطَّلَب من اسمه. ويقال للملك أصيِّد إذا أرادوا أن يصفوه بالكِبَرِ وبقلَّة الالتفات^(٦)، وبأنَّ أنفه فيه أسلوب^(٧) ولأنَّ الأسد يلتفت معاً لأنَّ عنقه من عظم واحد. وقال حاتم: [من البسيط]

هَلَّا إِذَا مَطَرَ السَّمَاءُ عَلَيْكُمْ وَرَفَعْتَ رَأْسَكَ مِثْلَ رَأْسِ الْأَصِيْدِ^(٨)

وقال الآخر: [من الطويل]

يَذُودُونَ كَلْباً بِالرَّمَا حٍ وَطِيئاً وَتَغْلِبَ وَالصَّيْدَ النَّوَظِرِ مِنْ بَكَرٍ

وقال الآخر: [من المتقارب]

وكم لي بها من أبٍ أصيِّدٍ نَمَاهُ أَبٌ مَا جَدُّ أَصِيْدٍ

وبعدُ فإنَّ الذي يأكل الجيفة لم يبعد من طبع كثير من الناس؛ لأنَّ من الناس من يشتهي اللحم الغاب، ومنهم من يشتهي النَّمَكْسُود. وكَيْسَ بَيْنَ النَّمَكْسُودِ وَبَيْنَ المصلوب اليابس كبيرُ فرق، وإنما يذبحون الدِّيَكَةَ وَالْبَطَّ وَالِدَّجَاجَ وَالدَّرَاجَ مِنْ أَوَّلِ الليل، ليسترخي لحمها، وذلك أول التَّجْيِيفِ.

فالأسد أجمع لهذه الخصال من الكلب، فهلاً ذكرتم بذلك الأسد وهو أنبهُ ذكراً وأبعدُ صيتاً.

(١) لم أجده في كتب الأمثال.

(٢) مجمع الأمثال ٣٩١/١، وجمهرة الأمثال ٥٣٨/١، والمستقصى ١٩٣/١، والدررة الفاخرة ٤٤٦/٢، ٢٣٦/١.

(٣) ورد المثل برواية « اجرا من ليث بخفان » في مجمع الأمثال ١٨٩/١، والمستقصى ٤٨/١، وجمهرة الأمثال ٣٢٩/١. والدررة الفاخرة ١٠٧/١، ١١٦.

(٤) (٥) لم يردها في كتب الأمثال.

(٦) في الأمثال « أصيد من ليث عفرين » وهذا المثل في مجمع الأمثال ٤١٧/١، وجمهرة الأمثال ٥٦٨/١، والمستقصى ٢١٣/١.

(٧) في الأمثال « أنفه في أسلوب » والمثل في جمهرة الأمثال ٩٩/٢.

(٨) البيت في ديوان حاتم الطائي ٢٤٤، والأغاني ٣٧٣/١٧.

وأما ما ذكرتم من نتن الجلد ومن استنشاق البول، فإنَّ للتيس في ذلك ما ليس للكلب، وقد شاركه في الحذف ببوله تلقاء أنفه، وبأينه بشدة الصنن؛ فإنَّ الأمثال له أكثر ذكراً. وفي العنز أيضاً عيوب.

وفي توجيه التيس ببوله إلى حاق خيشومه قال الشاعر لبعض من يهجوّه: [من

الطويل]

دُعيتَ يزيدَ كي تَزيدَ فلم تَزدْ فعادَ لك المُسمي فأسماك بالقحر
وما القحْرُ إلَّا التيسُ يَعتكُ بولُه عَلِيه فيمذِي في لَبانٍ وفي نحر

وقال آخر في مثل ذلك: [من الوافر]

أعثمانُ بنُ حَيانَ بنِ لؤم عتودٌ في مفارقِه يبولُ
ولو أني أشافُه لَشالت نعامتُه ويفهم ما يقول

وبعد: فما يُعلم من صنيع العنز في لبنها وفي الارتضاع من خلفها إلا أقبح.

وقال ابن أحمر الباهلي في ذلك: [من البسيط]

إنَّا وجدنا بني سَهْمٍ وجاملهم كالعنز تعطفُ روقِها وترتضعُ^(١)

وقلتم: هَجَا ابنُ غادية السلمي بعضَ الكرام، حينَ عَزَل عن يَبْع، فقال لمن ظنَّ أنه إنَّما عَزَل لمكانه: [من الكامل]

رَكبوك مُرتَحلاً فظَهركُ منهمُ دَبِرُ الحراقِبِ والفَقارِ موقِعُ
كالكلبِ يَتَّبِعُ خانِقِيهِ وينتحي نحوَ الذينَ بهم يَعرُ ويمنعُ

وقال ابن هرمة الفهري: [من الوافر]

فما عادَت لذي يمنِ رؤوساً ولا ضَرَّت بفرقتِها نزاراً^(٢)
كعنزِ السوءِ تَنطَحُ من خَلاها وترأَمُ من يحدُّ لها الشِّفاراً

وما نعلم الرجوع في الجرّة، وإعادة الفرث إلى الفم ليستقصى مضغهُ إلا أسمع وأقدر من الرجوع في القيء. وقد اختار الله عزَّ وجلَّ تلك الطبيعة للأنعام، وجعل

(١) البيت في ديوان ابن أحمر ١٢٠، وعيون الأخبار ٧٥/٢، واللسان والتاج وأساس البلاغة (رضع).

(٢) ديوان ابن هرمة ١١٨.

الناس ليسوا لشيء من اللّحمان أشدَّ أكلاً ولا أشدَّ عَجَباً به منكم، ولا أصلح لأبدانهم ولا أغذى لهم من لُحوم هذه الأنعام أفتائها ومسائتها.

١٨٠ - [عود إلى القول في الديك والكلاب]

وقال صاحبُ الديك: ما يشبه عَوْدُ الماشية في الجِرَّة، ورجوعها في الفرث تطحنه وتُسيغه، الرجوع في القيء. وقد زعمتم أن جِرَّة البعير أنتن من قيء الكلاب لطول غبوبها في الجوف، وانقلابها إلى طباع الزبل، وأنها أنتن من الثلث. وإنما مثل الجِرَّة مثل الرِّيق الذي ذكره ابنُ أحرمر فقال: [من البسيط]

هذا الثناءُ وأجدرُ أن أصحابه وقد يدومُ ريقُ الطامعِ الأملُ^(١)

فإنَّما مثلُ القيءِ مثلُ العَدْرَةِ؛ لأنَّ الرِّيقَ الذي زعمتم، ما دام في فم صاحبه، ألدُّ من السلوى، وأمتع من النسيم، وأحسنُ موقِعاً من الماء البارد من العطاش المسهوم. والرِّيقُ كذلك ما لم يزايل موضعه، ومتى زايل فَم صاحبه إلى بعض جلده اشتدَّت نتنه وعاد في سبيل القيء.

فالرِّيقُ والجِرَّةُ في سبيل واحد، كما أن القيء والعَدْرَةَ في سبيل واحد. ولو أن الكلبَ قَلَسَ حتَّى يمتلئ منه فمه، ثم رجع فيه من غير مباينة له، لكان في ذلك أحقُّ بالنظافة من الأنعام في جرثها، وحشيتها وأهليتها، وإنَّ الأرنابَ لتَحِيضُ حيضاً نتناً، فما عاف لحمها أصحابُ التَّقْدِيرِ لمشاركتها الأنعام في الجِرَّة.

فقال صاحب الكلب: أمَّا ما عبتموه من أكل العَدْرَةَ، فإنَّ ذلك عامٌ في الماشية المتخيرة لحمها على اللّحمان، لأنَّ الإبل والشياه كلها جاللة وهنَّ على يابس ما يخرج من الناسٍ أحرص؛ وعلى أنها إذا تعودت أكل ما قد جفَّ ظاهره وداخله رطباً، رجع أمرها إلى ما عليه الكلب. ثم الدجاج لا ترَضَى بالعَدْرَةَ، وبما يَبْقَى من الحبوب التي لم يأت عليها الاستمراء والهضم، حتَّى تلتمس الديدان التي فيها، فتجمع نوعين من العَدْرَةَ لأنها إذا أكلت ديدان العَدْرَةَ فقد أتت على النوعين جميعاً. ولذلك قال عبد الرحمن بن الحَكَم في هجائه الأنصار بخبيث الطعام، فضرب المثل بالدجاج من بين جميع الحيوان، وترك ذكر الكلاب وهي له مُعْرِضَةٌ فقال: [من الوافر]

وللأنصارَ أكلُ في قرأها لخبثِ الأطعماتِ مِنَ الدَّجَاجِ

(١) ديوان ابن أحرمر ١٣٦، والبيان ١/ ١٨٠، وسمط اللآلي ١٢٧، والبرصان والعرجان ١٩٥، والمعاني الكبير ١٢٥٨.

ولو قال: [من الوافر]

وللأنصارَ أكلُ في قراها
لكان الشعرُ صحيحاً مرضياً.

وعلى أن الكلاب متى شبت، لم تعرض للعدرة. والانعام الجلالة وكذلك الحافر، قد جعلت ذلك كالحمض إذا كانت لها خلّة؛ فهي مرة تتغذى به مرة تتحمض. وقد جاء في لحوم الجلالة ما جاء.

١٨١ - [رغبة الملوك والأشراف في الدجاج]

وملوكننا وأهل العيش مناً، لا يرغبون في شيء من اللحمان رغبتهم في الدجاج، وهم يقدمونها على البط والنواهض، والقبج والدراج. نعم وعلى الجداء والأعنتي الحمر من بنات الصفايا. وهم يعرفون طبعها وسوء قوتها، وهم مع ذلك يأكلون الرواعي كما يأكلون المسمنات.

١٨٢ - [الشبوط أجود السمك]

وأطيب ما في الأنهار من السمك، وأحسنها قدوداً وخرطاً، وأسبها سبوطاً، وأرفعها ثمناً وأكثرها تصرفاً في المالح والطري، وفي القريس^(١) والنشوط^(٢) الشبوط، وليس في الماء سمكة رقيقة الذكر ولا ذات خمول، إلا وهي أحرص على أكل العذرة منها، وإنما في ذلك لأشد طلباً لها من الخنزير في البر، والجري في البحر.

١٨٣ - [لحم الخنزير]

وقد علم الناس كيف استطابة أكل لحوم الخنازير، وأكل الخنازير لها، وكيف كانت الأكاسرة والقيصرة يقدمونها ويفضلونها. ولولا التعب لجرى عندنا مجراه عند غيرنا.

وقد علم الناس كيف استطابة أكل الجري لأذناها.

١٨٤ - [فائدة الجري]

وفي الجري قال أبو كلدة: هو أدم العميان، وجيد في الكوشان^(٣) ودواء

(١) يقال: أصبح الماء قريساً؛ أي جامداً، ومنه سمي قريس السمك. اللسان: قرس ١٧١/٦.

(٢) النشوط: ضرب من السمك؛ وليس بالشطوط. اللسان: نشط ٤١٥/٧.

(٣) كوشان: طعام لاهل عمان من الارز والسمك. القاموس المحيط: كوش.

للكليتين، وصالحٌ لوجع الظهر وعَجَبِ الذَّنْبِ، وخلافٌ على اليهود، وغيظٌ على الروافض؛ وفي أكله إحياءٌ لبعض السنن، وإماتةٌ لبعض البدع، ولم يُفْلَجْ عليه مُكثَرٌ منه قطُّ، وهو محنةٌ بين المبتدع والسنِّي، هلك فيه فِتْنَتَانِ مَذْكَانَتِ الدنْيَا: محلَّلٌ ومحرمٌ.

وقال أبو إسحاق: هو قبيح المنظر، عاري الجلد، ناقص الدماغ، يلتهم العذرة ويأكل الجرذان صحاحاً والفار، وزهيمٌ لا يُسْتَطَاعُ أَكْلُهُ إِلَّا مُحْسِيًّا وَلَا يَتَصَرَّفُ تَصَرَّفَ السَّمَكِ، وقد وقع عليه اسم المسخ، لا يَطْبِيبُ مَمْلُوحاً وَلَا مَمْقُوراً، وَلَا يُؤْكَلُ كِبَاباً، وَلَا يُخْتَارُ مَطْبُوحاً، وَيُرْمَى كُلُّهُ إِلَّا ذَنْبُهُ.

والأصناف التي تعرض للعذرة كثيرة، وقد ذكرنا الجلالات من الأنعام والجرى والشبوط من السمك. ويعرض لها من الطير الدجاج والرخم والهداهد.

١٨٥ - [الأنوق وما سمي بهذا الاسم]

وقد بلغ من شهوة الرخمة لذلك، أن سموها الأنوق، حتى سمو كل شيء من الحيوان يعرض للعذرة بأنوق، وهو قول الشاعر: [من الرجز]
 حَتَّى إِذَا أَضْحَى تَدْرَى وَاکْتَحَلْ لَجَارْتِيهِ ثُمَّ وَلَّى فَنَثَلْ
 رِزْقَ الْأَنْوَقَيْنِ الْقَرْنَبِيِّ وَالْجُعَلِ

١٨٦ - [ما قيل من الشعر في الجعل]

ولشدة طلب الجعل لذلك قال الشاعر: [من البسيط]
 يَبِيْتُ فِي مَجْلِسِ الْأَقْوَامِ يَرَبُّوهُمْ كَأَنَّهُ شُرْطِيٌّ بَاتَ فِي حَرَسِ
 وَكَذَلِكَ قَالَ الْآخَرُ: [من الرجز]
 إِذَا أَتَوْهُ بِطَعَامٍ وَأَكَلُ بَاتَ يَعِشِي وَحَدَهُ الْفِي جُعَلِ
 هَذَا الْبَيْتُ يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ مِقْدَارِ النَّجْوِ، فَهَجَاهُ بِذَلِكَ، وَعَلَى أَنَّ الْجُعَلَ يَقْتَاتُ الْبَرَّازَ.

وفي مثل ذلك يقول ابن عبدل - إن كان قاله - وإنما قلت هذا لأن الشعر يرتفع عنه. والشعر قوله: [من الخفيف]

نَعْمَ جَارُ الْخَنْزِيرَةِ الْمَرْضَعُ الْغَرُّ نَى إِذَا مَا غَدَا أَبُو كَلْثُومٍ^(١)

(١) الأبيات في البيان ٣/٣١١، باستثناء البيت الرابع. الفرثي: الجائعة.

ثاويًا قد أصابَ عندَ صديقٍ من تَرِيدٍ مَلْبَقٍ مَأْدُومٍ
ثم أنحى بجعره حاجبَ الشمسِ من فآلَقَى كَالْمِعْلَفِ الْمَهْدُومِ^(١)
بضريطٍ ترى الخنازير منه عامداتٍ لتلَّهُ المَرْكُومِ

وقال الراجز في مثل ذلك: [من الراجز]

قد دَقَّهُ ثَارِدُهُ وَصَوْمَعَا^(٢) ثُمَّتَ أَلْبَانَ الْبَخَاتِي جَعَجَعَا
جَعَجَعَةَ الْعَوْدِ ابْتَغَى أَنْ يَنْجَعَا ثُمَّتَ خَوَى بَارِكَا وَاسْتَرْجَعَا
عَنْ جَائِمٍ يُحْسَبُ كَلْبًا أَبْقَعَا

وفي طلب الجُعَلِ للزُّبَيْلِ قال الراجز (وهو أبو الغُصْنِ الأَسَدِي): [من الراجز]

ماذا تَلَاقي طَلَحَاتُ الْحَرْجِ مِنْ كُلِّ ذَاتِ بُخْنٍ غَمَلَّجِهِ
ظَلَّ لَهَا بَيْنَ الْحَلَالِ أَرْجَهُ مِنْ الضَّرَاطِ وَالْفُسَاءِ السَّمَجِهِ
فَجَعَّتْهَا قَاعِدَةٌ مَنْشَجِهِ تَعْطِيهِ عَنْهَا جَعَلًا مُدْحَرْجِهِ

وقال يحيى الأغر: تقول العرب «سَدَكَ بِهِ جُعَلُهُ»^(٣). وقال الشاعر: [من

البيسيط]

إِذَا أُتِيْتُ سُلَيْمِي شَبَّ لِي جُعَلٌ إِنَّ الشَّقِيَّ الَّذِي يُغْرَى بِهِ الْجُعَلُ^(٤)
يَضْرِبُ هَذَا الْمَثْلَ لِلرَّجُلِ إِذَا لَصِقَ بِهِ مِنْ يَكْرِهِ، وَإِذَا كَانَ لَا يَزَالُ يِرَاهُ وَهُوَ يَهْرُبُ
منه .

قال يحيى: وكان أصله ملازمة الجُعَلِ لمن بات في الصحراء، فكلَّمَا قام لِحَاجَةِ
تَبِعِهِ؛ لِأَنَّهُ عِنْدَهُ أَنَّهُ يَرِيدُ الْغَائِطَ .

١٨٧ - [القرنبي]

وفي الْقَرْنَبِيِّ يقول ابن مقبل: [من الطويل]

وَلَا أُطْرُقُ الْجَارَاتِ بِاللَّيْلِ قَابِعًا قُبُوعَ الْقَرْنَبِيِّ أُخْلَفْتُهُ مَجَاعِرُهُ^(٥)

(١) الجعر: ما يبس من النجو .

(٢) ثريدة مصومعة: مدققة الرأس .

(٣) مجمع الأمثال ١/٣٤٢، والذرة الفاخرة ٢/٣٧١ .

(٤) البيت في مجمع الأمثال ١/٣٤٢ .

(٥) البيت في ديوان ابن مقبل ١٥٤، واللسان والتاج (قبح)، وتهذيب اللغة ١/٢٨٣ .

والقُبوع: الاجتماع والتقبض. والقرنبي: دويبةٌ فوق الخُنْفَسَاءِ ودونَ الجعل، وهو والجعل يتبعان الرجلَ إلى الغائط.

١٨٨ - [خبث ريح الهدهد]

ومن الطير الذي يضارع الرّخمة في ذلك الهدهد، منتنُ البدن وإن لم تجده ملطخاً بشيءٍ من العذرة؛ لأنّه يبني بيته ويصنع أفحوصه من الزبل، وليس اقتيائه منه إلا على قدر رغبته وحاجته في ألا يتخذ بيتاً ولا أفحوصاً إلا منه، فخامرته ذلك التنتن فعَلِقَ ببدنه وجرى في أعراق أبويه؛ إذ كان هذا الصنيع عامّاً في جنسه.

وتعتري هذه الشهوة الذبان، حتّى إنّها لو رأت عسلاً وقذراً، لكانت إلى القدر أسرع. وقال الشاعر: [من الطويل]

قفاً خَلْفَ وَجْهِ قَدْ أُطِيلَ كَأَنَّهُ قفا مالك يُقْصِي الهُمومَ عَلَيَّ بَثْقِ (١)
وأعظمُ زهواً من ذبابٍ على خِراً وأبخلُ من كَلْبٍ عَقُورٍ على عَرَقِ (٢)

ويزعمون أنّ الزُّنْبورَ لهجٌ بصيد الذبان، ولا يكاد يصيده إلا وهو ساقطٌ على عذرة لفرط شهوته لها ولاستفراغها، فيعرف الزُّنْبور ذلك، فيجعل غفلته فرصة ونهزة. قالوا: وإِنَّمَا قلنا ذلك لأنّا لم نجدّه يرومُ صيده وهو ساقطٌ على ثمرة، فما دونها في الحلاوة.

١٨٩ - [شعر في الهجاء]

وقال أبو الشَّممَقْت في ذلك: [من الخفيف]

الطَّرِيقَ الطَّرِيقَ جَاءَكُمْ الأحـ حقُّ رأسِ الأنتانِ والقَدْرَه (٣)
وإبنُ عمِّ الحِمَارِ في صورة الفـ لـ وخالُ الجَامُوسِ والبَقْرَه
يمشي رويداً يريد حَلَقْتَكُمْ كمشي خِنْزِيرَةٍ إلى عَدْرَه

وقال حمّادُ عَجْرَد في بشارِ بن بُرْدِ العُقَيْلِي: [من السريع]

ما صَوَّرَ اللّهُ شِبْهاً لَهُ مِنْ كُلِّ مَنْ مِنْ خَلْقِهِ صَوِّراً (٤)

(١) البيتان لأبي نواس في ديوانه ٥١٩، والبيان ٣/٣٥٤، والعرجان ٢١٨، وعيون الأخبار ١/٢٧٣.

البثق: منبعث الماء.

(٢) العرق: العظم بلحمه.

(٣) الأبيات في ديوان أبي الشَّممَقْت ١٣٩، ضمن (شعراء عباسيون).

(٤) الأغاني ١٤/٣٣١.

أَشْبَهَ بِالْخَنْزِيرِ وَجْهًا وَلَا
بِالْكَلْبِ أَعْرَاقًا وَلَا مَكْسِرًا^(١)
وَلَا رَأِينَا أَحَدًا مِثْلَهُ
أَنْجَسَ أَوْ أَطْفَسَ أَوْ أَقْدَرًا^(٢)
لَوْ طَلَيْتُ جِلْدَتُهُ عَنَبْرًا
لَنْتَنَتِ جِلْدَتُهُ الْعَنَبْرَا
أَوْ طَلَيْتُ مِسْكًَا ذَكِيًّا إِذْنُ
تَحَوَّلَ الْمِسْكُ عَلَيْهِ خِرًا

وقال أبو نواس في هجاء جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي: [من المتقارب]

إِذَا مَا مَدَحْتُ فَتَى مِنْ خِرًا
أَلَيْسَ جَزَائِي أَنْ أُعْطِيَ الْخِرَا

وقال أعرابيٌّ يهجو رجلاً يقال له جلمود بن أوس، كان مُنتنَ العرق: [من

الرجز]

إِنِّي إِذَا مَا عَارِضِي تَأَلَّقَا
وَرَعَدْتَ حَافَتَهُ وَبَرَقَا
أَهْلَكْتُ جُلْمُودَ بَنِ أَوْسٍ عَرَقَا
كَانَ لِحَمَقَاءَ فَصَارَ أَحْمَقَا
أَخْبَثَ شَيْءٍ عَرَقًا وَخِرَقَا

وقال حمادُ عَجْرَدٍ فِي بَشَارٍ: [من الخفيف]

يَا ابْنَ بُرْدٍ أَحْسَا إِلَيْكَ فَمِثْلُ الْـ
كَلْبِ فِي الْخَلْقِ أَنْتَ لَا الْإِنْسَانَ^(٣)
بَلْ لَعَمْرِي لَأَنْتَ شَرُّ مِنَ الْكَلْبِ
سَبِّ وَأَوْلَى مِنْهُ بِكُلِّ هَوَانٍ
وَكْرِيحِ الْخَنْزِيرِ أَطِيبُ مِنْ رِيـ
حِكِ يَا ابْنَ الطَّيَّانِ ذِي التُّبَّانِ

وقال بعض الشعراء في عبد الله بن عمير: [من الطويل]

عَزَا ابْنَ عُمَيْرٍ غَزْوَةً تَرَكْتُ لَهُ
ثَنَاءَ كَرِيحِ الْجَوْرِبِ الْمُتَخَرِّقِ^(٤)

وقال حمادُ عَجْرَدٍ فِي بَشَارٍ: [من السريع]

قُلْ لَشَقِيٍّ الْجَدُّ فِي رَمْسِهِ
وَمَنْ يَفِرُّ النَّاسُ مِنْ رَجْسِهِ^(٥)
لَلْقَرْدِ بَشَارُ بْنُ بُرْدٍ وَلَا
تَحْفَلُ بِرَغْمِ الْقَرْدِ أَوْ تَعْسِهِ
لَلْقَرْدِ بِاللَّيْثِ اغْتَرَارٌ بِهِ
فَمَا الَّذِي أَدْنَاكَ مِنْ مَسِّهِ
يَا ابْنَ اسْتِهَا فَاصْبِرْ عَلَى ضَعْمَةٍ
بَنَابِهِ يَا قَرْدُ أَوْ ضَرْسِهِ

(١) المَكْسِر: الأصل.

(٢) الطَّفَس: قدر الإنسان.

(٣) الأغانى ١٤/٣٦١.

(٤) البيت بلا نسبة في الوساطة ٤٠٠، وثمار القلوب ٤٨٦ (٨٦٧) والمستقصى ٣٨٢/١، وسياتي في الجزء الرابع فقرة (١٢٢٦).

(٥) الأغانى ١٤/٣٣٠، وربع الأبرار ٤٤١/٢، وأمالى المرتضى ٩٣/١.

نهاره	أخبثُ	من	ليله
وليس	بالمقلعِ	عن	غِيَّه
ما	خَلَقَ	اللَّهَ	شَبِيهاً
له	واللَّهَ	ما	الْخَنِزِيرُ
في	نَتْنِه	بل	رِيحُه
أطيبُ	من	رِيحِه	ووجهُه
أحسنُ	من	وَجْهِه	وعودُه
أكرمُ	من	عُودِه	
ويومُه	أخبثُ	من	أَمْسِه
حتى	يُدَلِّي	الْقَرْدُ	فِي
رَمْسِه	من	جِنِّه	طَرًّا
ومن	إِنْسِه	من	رُبْعِه
بِالْعُشْرِ	أَوْ	خَمْسِه	
ومسُه	أَلْيَنُ	مِن	مَسِه
ونفسُه	أَنْبَلُ	مِن	نَفْسِه
وجنِسُه	أَكْرَمُ	مِن	جِنْسِه

وأنا حفظك الله تعالى أستظرف وضعه الخنزير بهذا المكان وفي هذا الموضع، حين يقول: وعوده أكرم من عوده.

وأى عود للخنزير؟! قبَّحه الله تعالى، وقبح من يشتهي أكله. وقال حمادُ عجرد

في بشار بن برد: [من البسيط]

إنَّ ابنَ بُرْدٍ رَأَى رُؤْيَا فَاوْلَهَا
رَأَى الْعَمَى نِعْمَةً لِلَّهِ سَابِغَةً
وَقَالَ: لَوْ لَمْ أَكُنْ أَعْمَى لَكُنْتُ كَمَا
أَكَدُّ نَفْسِي بِالتَّطْبِيبِ مَجْتَهِدًا
أَوْ كُنْتُ إِنْ أَنَا لَمْ أَفْعَعْ بِفَعْلِ أَبِي
كَإِخْوَتِي دَائِبًا أَشْقَى شَقَاءَهُمْ
فَقَدْ كَفَانِي الْعَمَى مِنْ كُلِّ مَكْسَبَةٍ
فَصَرْتُ ذَا نَشَبٍ مِنْ غَيْرِ مَا طَلَبَ
أَضْمُ شَيْئًا إِلَى شَيْءٍ فَاذْخِرْهُ
مَنْ كَانَ يَعْرِفُنِي لَوْ لَمْ أَكُنْ زَمِنًا
فَقُلْ لَهُ لَا هَدَاهُ اللَّهُ مِنْ رَجُلٍ
لَقَدْ فَطِنْتَ إِلَى شَيْءٍ تَعِيشُ بِهِ
يَا ابْنَ الَّتِي نَشَرْتَ عَنْ شَيْخِ صَبَبَتِهَا
أَمَا يَكْفُكَ عَنْ شَتْمِي وَمَنْقَصَتِي
نَفْتِكَ عَنْهَا عُقَيْلٌ وَهِيَ صَادِقَةٌ
يَا عَبْدَ أُمَّ الطَّبَّاءِ الْمَسْتَطَبِّ بِهَا

بلا مَشُورَةَ إِنْسَانٍ وَلَا أَثَرَ
عَلَيْهِ، إِذْ كَانَ مَكْفُوفًا عَنِ النَّظَرِ
قَدْ كَانَ بُرْدٌ أَبِي فِي الضِّيْقِ وَالْعُسْرِ
إِمَّا أَجِيرًا وَإِمَّا غَيْرَ مُؤْتَجِرٍ
قَصَّابَ شَاءَ شَقِيَّ الْجَدِّ أَوْ بَقْرٍ
فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْإِدْلَاجِ وَ الْبَكْرِ
وَالرُّزْقُ يَأْتِي بِأَسْبَابٍ مِنَ الْقَدَرِ
إِلَّا بِمَسْأَلَتِي إِذْ كُنْتُ فِي صِغَرِي
مِمَّا أَجْمَعُ مِنْ تَمْرٍ وَمِنْ كَسْرِ
أَوْ كَانَ يَبْذُلُ لِي شَيْئًا سِوَى الْحَجَرِ؟!
فَإِنَّهَا عُرَّةٌ تُرْبِي عَلَى الْعُرْرِ
يَا ابْنَ الْخَبِيثَةِ قَدْ أَدَقَّقْتَ فِي النَّظَرِ
لَأَيْرِ ثُوبَانَ ذِي الْهَامَاتِ وَالْعُجْرِ
مَا فِي حِرَامِكَ مِنْ نَتْنٍ وَمِنْ دَقْرِ
فَسَلِ أَسِيدًا وَسَلْ عَنْهَا أَبَا زُفْرِ
مِنَ اللَّوِيِّ، لَسْتَ مَوْلَى الْغُرِّ مِنْ مُضَرِّ

بل أنت كالكلب ذُلاً أو أذلٌ وفي
وَأنتَ كالقردِ في تشويهِ منظريه
نَدَاةُ النفسِ كالخنزيرِ واليَعْرَ (١)
بل صورةُ القردِ أبهى منك في الصُّورِ

ووصف ابن أبي كريمة حُشاً له، كان هو وأصحابه يتأذون بريحه فقال: [من

البسيط]

ولي كَنيفٌ بِحَمْدِ اللهِ يطرقني
له بدائعُ نَتْنٍ لَيْسَ يَعْرِفُهَا
إِذَا أَتَانِي دَخِيلٌ زَادَنِي بَدْعاً
قَدْ اجْتَوَانِي لَهُ الْخُلَانُ كُلَّهُمْ
فَمَنْ أَرَادَ مِنَ الْبِرْسَامِ أَقْتَلَهُ
اسْتَكْشَفَ النَّتْنَ فِي أَنْفِي لِكثْرَتِهِ
أرواحِ وادي خبالٍ غيرِ فَنَارٍ
من البريةِ إِلَّا خَازِنِ النَّارِ
كَأَنَّهُ لَهَجٌ عَمْداً بِإِضْرَارِي
وباعَ مَسْكَنَهُ من قُرْبِهِ جَارِي
أو الصُّدَاعِ فَمَرَهُ يَدْخُلُنْ دَارِي
فليس يوجِدُنِيهِ غيرُ إِضْمَارِي (٢)

وقيل للمحلول: ويلك، ما حفظت بيتَ شعرٍ قط؟ فقال: بيتاً واحداً اشتهيته
فحفظته. فقيل له: فهاته. قال: أما إنِّي لا أَحْفَظُ إِلَّا بيتاً واحداً. قيل: فكيف رزق
منك هذا البيت؟ فَأَنْشُدُهُ، فَأَنْشُدَهُم: [من السريع]

كَأَنَّمَا نَكَهْتَهَا مِدَّةً تَسِيلُ مِنْ مَخْطَةِ مَجْدُومٍ

١٩٠ - [نتن إبط الإنسان]

وزعم أصحابنا أن رجلاً من بني سعد - وكان أُنْتَنَ الناسِ إبطاً - بلغه أن ناساً
من عبد القيس يتحدوونه برجلٍ منهم، فمضى إليهم شداً، فوافاهم وقد أزيَدَ إبطاه،
وهو يقول: [من الرجز]

أَقْلَتُ مِنْ جَلْهَةِ نَاعَتِينَا
يَزُوي لَهُ مِنْ نَتْنِهِ الْجَبِينَا
بِذِي حُطَاطٍ يُعْطَسُ الْمَخْنُونَا (٣)
حَتَّى تَرَى لَوَجْهِهِ غُضُونَا
نُبِئْتَ عَبْدَ الْقَيْسِ يَا بَطُونَا

قال: ومتح أعرابيٌ على بعيرٍ وهو يقول: [من الرجز]

يَا رِيْهَا إِذَا بَدَا صُنَانِي
كَأَنَّي جَانِي عَبِيثْرَانِ (٤)

(١) اليعر: الشاة تشد عند زبية الأسد.

(٢) يوجدنيه: يجعلني أشعر بوجوده.

(٣) الحطاط: الرائحة الخبيثة، المخنون: الإبل الذي أصابه زكام.

(٤) العبيثران: نبات كالقيصوم طيب للاكل؛ له قضبان دقاق. اللسان: عبثر ٣/٥٣٣.

وقال آخر: [من الرجز]

كَانَ إِبْطِيًّا وَقَدْ طَالَ الْمَدَى نَفْحَةُ خُرْءٍ مِنْ كَوَامِيخِ الْقَرَى^(١)
ويقال إنه ليس في الأرض رائحة أنتن، ولا أشدُّ على النفس، من بخر فمٍ أو نتنٍ
حِرٍّ، ولا في الأرض رائحة أعصم لروح من رائحة التفاح.

١٩١ - [فوائد العذرة]

وقال صاحب الكلب: فما نرى النَّاسَ يَعَافُونَ تَسْمِيدَ بُقُولِهِمْ قَبْلَ نُجُومِهَا
وتفتق بزورها ولا بعد انتشار ورقها وظهور موضع اللب منها حتى ربما ذروا عليها
السَّمَادَ ذَرًّا، ثُمَّ يُرْسَلُ عَلَيْهَا الْمَاءُ حَتَّى يَشْرَبَ اللَّبُّ قُوَى الْعَذْرَةِ، بَلْ مَنْ لَهُمْ
بِالْعَذْرَةِ؟! وَعَلَى أَنَّهُمْ مَا يَصِيبُونَهَا إِلَّا مَغْشُوشَةٌ مُفْسَدَةٌ. وَكَذَلِكَ صَنِعُهُمْ فِي
الرَّيْحَانِ. فَأَمَّا النَّخْلُ فَلَوْ اسْتَطَاعُوا أَنْ يَطْلُوا بِهَا الْأَجْدَاعَ طَلِيًّا لَفَعَلُوا. وَإِنَّهُمْ لَيُوقِدُونَ
بِهَا الْحَمَامَاتِ وَأَتَاتِينَ الْمَلَالِ^(٢)، وَتَنَانِيرَ الْخَبِيزِ. وَمَنْ أَكْرَمَ سَمَادِهِمُ الْأَبْعَارُ كُلَّهَا
وَالْإِخْتَاءَ^(٣) إِذَا جَفَّتْ. وَمَا بَيْنَ الثَّلَطِ^(٤) جَافًا وَالْإِخْتَاءَ يَابِسًا، وَبَيْنَ الْعَذْرَةِ جَافَةً وَيَابِسَةً
فَرَقٌ. وَعَلَى أَنَّهُمْ يَعَالِجُونَ بِالْعَذْرَةِ وَبِخُرْءِ الْكَلْبِ، مِنَ الذُّبْحَةِ وَالْخَانُوقِ^(٥) فِي أَقْصَى
مَوَاضِعِ التَّقْرِزِ وَهُوَ أَقْصَى الْحَلْقِ، وَمَوَاضِعِ اللَّهَاءِ، وَيَضْعُونَهَا عَلَى مَوَاضِعِ الشُّوكَةِ،
وَيَعَالِجُونَ بِهَا عُيُونَ الدَّوَابِّ.

١٩٢ - [أقوال لمسبح الكناس]

وقال مسبح الكناس: إِنَّمَا اشْتَقُّ الْخَيْرَ مِنَ الْخُرْءِ. وَالْخُرْءُ فِي النَّوْمِ خَيْرٌ. وَسَلْحَةٌ
مُدْرِكَةٌ أَلْدُّ مِنْ كَوْمِ الْعُرُوسِ لَيْلَةَ الْعُرْسِ. وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَى بَعْضِ الْمُلُوكِ لِبَعْضِ
الْأَسْبَابِ، وَإِذَا بِهِ قُعَاصُ^(٦) وَزَكَامٌ وَثَقْلُ رَأْسٍ، وَإِذَا ذَلِكَ قَدْ طَاوَلَهُ، وَقَدْ كَانَ بَلْغَنِي أَنَّهُ
كَانَ هَجَرَ الْجُلُوسِ عَلَى الْمَقْعَدَةِ وَإِتْيَانِ الْخَلَاءِ، فَأَمَرْتُهُ بِالْعَوْدِ إِلَى عَادَتِهِ، فَمَا مَرَّتْ بِهِ
أَيَّامٌ حَتَّى ذَهَبَ ذَلِكَ عَنْهُ.

وزعم أن الدنيا مُنْتَنَةٌ الْحَيْطَانِ وَالتُّرْبَةِ، وَالْأَنْهَارِ وَالْأَوْدِيَةِ، إِلَّا أَنَّ النَّاسَ قَدْ

(١) الكامخ: نوع من الأدم معرب.

(٢) الاتاتين: جمع أتون، وهو الموقد. الملال: جمع مليل، وهو اللحم والخبز.

(٣) الإختاء: روث الإبل.

(٤) الثلَط: الرقيق من الرجيع؛ وأكثر ما يقال للإبل والبقر والفيلة.

(٥) الخانوق: الذبحة.

(٦) القعاص: داء يأخذ في الصدر، كأنه يكسر العنق.

غمرهم ذلك النتن المحيط بهم، وقد مَحَقَّ حَسَمٌ له طولُ مُكْثِه في خياشيمهم. قال: فمن ارتابَ بخبري، فليقفْ في الرَّدِّ إلى أن يمتحنَ ذلك في أوَّل ما يخرجُ إلى الدنيا، عَن بيت مطَّيَّب؛ وليتَشَمَّمْ تشمُّمَ المتشَبِّث. عَلى أن البقاعَ تتفاوت في النتن. فهذا قولُ مَسْبَحِ الكُنَّاس.

١٩٣ - [أنتن الجيف]

وزعم لي سَلَمَوِيه وابن ماسَوِيه مُتَطَبِّبا الخلفاء، أَنه ليس على الأرض جيفةً أنتنُ نَتْنًا ولا أَثَقَبُ ثَقوبًا من جيفةٍ بعير، فظننتُ أن الذي وهَمهما ذلك عَصَبِيَّتُهُمَا عليه، وبغَضُّهُمَا لأربابه، ولأنَّ النبي ﷺ وعلى آله، هو المذكورُ في الكتبِ بِرَأْكَبِ البعير. ويقال إن الحجاج قال لهم: أي الجيفِ أنتن؟ فقبل: جيف الكلاب. فامتحنَتُ فقبل له: أنتن منها جيف السنانير، وأنتن جيفها الذكورُ منها. فصلب ابن الزبير بين جيفتي سنورين ذكرين^(١).

١٩٤ - [أطيب الأشياء رائحة وأنتها]

وأنا أقول في النتن والطيب شيئاً، لعلك إن تفقدته أن توافقني عليه وترضى قولي. أما النتن فإني لم أشم شيئاً أنتن من ريح حُشٍّ مقيِّر، يبول فيه الخصيان ولا يُصَبُّ عليه الماء؛ فإنَّ لأبوالهَمِ المترادفة المتراكبة ولريح القار وريح هواءِ الحشِّ وما ينفصل إليه من ريح البالوعة - جهةً من النتن ومذهباً في المكروه، ليس بينه وبين الأبدان عمل، وإنما يقصد إلى عين الروح وصميم القلب، ولا سيما إذا كان الخلاء غير مكشوف، وكان مغموماً غير مفتوح. فأما الطيب فإني لم أشم رائحة قطُّ أحياء للنفس ولا أعصم للروح، ولا أفتق ولا أغنج، ولا أطيّب خمرة من ريح عروس، إذا أحكمت تلك الأخلاط، وكان عَرَفَ بَدَنها ورأسها وشعرها سليماً. وإن كانت بمدينة الرسول ﷺ، فإنك ستجد ريحاً تعلمُ أَنه ليس فوقها إلا ريحُ الجنة.

١٩٥ - [ما قيل في الظربان]

ومما قالوا في النتن، وفي ريح جُحْرِ الظَّرْبَانِ خاصَّة، قول الحكم بن عبدل: [من الكامل]

أَلْقَيْتَ نَفْسَكَ فِي عَرُوضٍ مَشَقَّةٍ وَلِحَصْدُ أَنْفِكَ بِالْمَنَاجِلِ أَهْوَنُ^(٢)

(١) في المعارف لابن قتيبة ٢٢٥ صلب حيث أصيب.

(٢) الأغانى ٤٢٤/٢؛ والبيتان الأخيران في عيون الأخبار ٦٢/٤. العروض: الطريق في عرض الجبل في مضيق.

أنت امرؤ في أرضِ أمك فلفلٌ جمٌ وفلقلنا هناك الدندن^(١)
فبحقِ أمك وهي منك حقيقةً بالبرِّ واللطف الذي لا يخزنُ
لا تُدنِ فاك من الأمير ونحوه حتى يُداوي ما بأنفك أهرنُ
إن كان للظربانِ جُحرٌ مُنتنٌ فلجُحرِ أنفك يا محمدُ أنتنُ

وقال الربيع بن أبي الحقيق - وذكر الظربان - حين رمى قوماً بأنهم يفسون في مجالسهم، لأن الظربان أنتن خلق الله تعالى فسوة^(٢). وقد عرف الظربان ذلك فجعله من أشدِّ سلاحه، كما عرفت الحباري ما في سلاحها من الآلة، إذا قرب الصقر منها^(٣). والظربان يدخل على الضب جُحره وفيه حُسوله أو بيضه، فيأتي أضيّق موضع في الجُحر فيسده بيديه، ويحول استه فلا يفسو ثلاث فسوات حتى يُدار بالضب فيختر سكران مفشيّاً عليه، فيأكله، ثم يقيم في جُحره حتى يأتي على آخر حُسوله.

وتقول العرب: إنّه ربّما دخل في خلال الهجمة فيفسو، فلا تتم له ثلاث فسوات حتى تتفرّق الإبل عن المبرك، تتركه وفيه قردان فلا يردها الراعي، إلا بالجهد الشديد^(٤).

فقال الربيع، وهجاهم أيضاً بريح الثيوس: [من المتقارب]

قليلٌ غناؤهم في الهياج إذا ما تنادوا لامرٍ شديد^(٥)
وأنتم كلابٌ لدى دوركهم تهرُّ هريراً العقور الرصود
وأنتم ظرابيُّ إذ تجلسون وما إن لنا فيكم من نديد
وأنتم ثيوسٌ وقد تعرفون بريح الثيوس وقبح الخدود

قال: ويقال: «أفسى من الظربان» ويسمى مفرق النعم، يريدون من نثن ربيع فسائه. ويقال في المثل - إذا وقع بين الرجلين شرٌّ فتباينا وتقاطعا - : «فساً بينهما»

(١) الدندن: ما بلي واسود من النبات والشجر، وقيل: هي اصول الشجر البالي.

(٢) ربيع الأبرار ٥/٢٨٣.

(٣) ربيع الأبرار ٥/٤٤٨.

(٤) ربيع الأبرار ٥/٢٨٣، وثمار القلوب ٣٣٣ (٦١٧).

(٥) الأبيات في ثمار القلوب ٣٣٣ (٦١٨).

ظَرَبَانَ». ويقال: «أنتن من ظربان»^(١) لأن الضب إنما يخذع في جُحره ويُوغل في سرِّبه لشدة طلب الظربان له. وقال الفرزدق في ذلك: [من الطويل]

ولو كنتُ في نارِ الجحيم لأصبحتُ ظرَّابِي من حِمَّانٍ عني تثيرها^(٢)
وكان أبو عبيدة يُسمي الحِمَّانيَّ صاحبَ الأصمِّ: الظربان، يريد هذا المعنى،
كما يسمي كل حِمَّانيٍّ ظرَّابانا.

وقال ابن عبدل: [من الكامل]

لا تُدْنِ فاكَ من الأميرِ ونحوه
إن كانَ للظربانِ جُحرٌ مُنتنٌ
في شعره الذي يقول:

حتى يداوي ما بأنفك أهرن^(٣)
فلجُحر أنفك يا محمد أنتن

ليتَ الأميرَ أطاعني فشفيتُه
متكورٌ يحثو الكلام كأنما
وبنى لهم سجنًا فكنتُ أميرهم
قل لابنِ أكلة العفَّاصِ محمدٍ
القيتَ نفسك في عروضِ مشقةٍ
أنتَ امرؤٌ في أرضِ أمك فلفلٌ
فبحقِّ أمك وهي منك حقيقةٌ
لا تُدْنِ فاكَ من الأميرِ ونحوه
إن كانَ للظربانِ جُحرٌ مُنتنٌ
فسلِّ الأميرَ غيرُ موقفي
وسلِّ ابنَ ذكوانِ تجدهُ عالمًا
إذ أنتَ تجعلُ كلَّ يومٍ عفصةً
أشبهتَ أمكَ غيرَ بابٍ واحدٍ

من كلِّ من يُكفي القصيدَ ويلحنُ
باتتَ مناخرهُ بدهنٍ تُعرنُ
زمنًا فأضربُ منْ أشاءَ وأسجنُ
إن كنتَ من حبِّ التقربِ تجبنُ
ولحصدُ أنفك بالمناجلِ أهونُ
جمٌّ وفلفلنا هناك الدندنُ
بالبرِّ واللطفِ الذي لا يُخزنُ
حتى يداوي ما بأنفك أهرنُ
فلجُحر أنفك يا محمد أنتنُ
وبنو أبيه للفضاحة معدنُ
بسليقة العرب التي لا تحزنُ
فتجيدُ ما عملت يداك وتحسنُ
أن قد حُتنتَ وأنها لا تُحتنُ

(١) المثل في الدررة الفاخرة ٢/٣٩١، ومجمع الامثال ٢/٨٥، وجمهرة الامثال ٢/٢٩٨.

(٢) البيت للفرزدق في شرح شواهد الإيضاح ٥٩٣، ولم أجده في ديوانه. وبلا نسبة في اللسان (ظرب)، ونوادر أبي زيد ٢١١.

(٣) الاغانى ٢/٤٢٤، وعيون الاخبار ٤/٦٢.

وَقُتِنْتُ فِيهَا، وَابْنُ آدَمَ يُفْتَنُ
إِذْ ذَاكَ تَقْصِفُ فِي الْقِيَانِ وَتَزْفَنُ
بَيْضَاءُ مُغْرَبَةٌ عَلَيْهَا السَّوْسَنُ

فَلَمَنْ أَصَبْتَ دَرَاهِمًا فَدَفَنْتَهَا
فَبِمَا أَرَاكَ وَأَنْتَ غَيْرُ مَدْرَهَمٍ
إِذْ رَأْسُ مَالِكٍ لُعْبَةٌ بَصْرِيَّةٌ

وقال ابن عبدل أيضاً: [من الوافر]

كِرِيحِ الْجَعْرِ فَوْقَ عَطِينِ جِلْدٍ (١)
كِرِيمٍ يَطْلُبُ الْمَعْرُوفَ عِنْدِي
وَذَلِكَ بَعْدَ تَقْرِيطِي وَحَمْدِي
أَكَلَمُ صَخْرَةً فِي رَأْسِ صَمْدٍ (٢)
فَمَا يَزْدَادُ مِنِّي غَيْرَ بَعْدُ
أَبَا بَحْرٍ لَتَتَخَمَّنُ رَدِّي
لَخَفْتُ مَلَامَتِي وَرَجَوْتُ حَمْدِي
كِرِيحِ الْكَلْبِ مَاتَ قَرِيبَ عَهْدٍ
سَيَبْلُغُ إِنْ سَلَمْنَا أَهْلَ نَجْدٍ
قَرْنَتْ دُونَهُ مِنِّي بَعْدُ
بَخَلَعْتَهَا وَلَمْ تَرْجِعْ بَزْدُ
وَكَانَتْ عِنْدَهُ كَأَسِيرٍ قَدْ
قَتَلْتُ بِذَلِكَ نَفْسِي غَيْرَ عَمْدٍ
وَلَوْ طَلَيْتُ مَشَافِرُهُ بِقَنْدٍ (٣)
زَعَافًا إِنْ هَمَمْنَا لَهُ بَوْرَدٍ (٤)
بِمِثْلِ غَثِيئَةِ الدَّبْرِ الْمَغْدِ (٥)
فَمَا هَذَا بِرِيحِ قُتَارِ رَنْدٍ (٦)
يَفُوحُ خِرَاكَ مِنْهُ غَيْرَ سَرْدٍ (٧)

نَجَوْتُ مُحَمَّدًا وَدَخَانُ فِيهِ
رَكِبْتُ إِلَيْهِ فِي رَجُلٍ أَتَانِي
فَقَلْتُ لَهُ وَلَمْ أَعْجَلْ عَلَيْهِ،
فَأَعْرَضَ مُكَمِّحًا عَنِّي كَأَنِّي
أَقْرَبُ كُلِّ آصِرَةٍ لِيَدُنِي
فَأَقْسَمُ غَيْرَ مُسْتَشْنٍ يَمِينًا
فَلَوْ كُنْتُ الْمَهْدَبَ مِنْ تَمِيمٍ
نَجَوْتُ مُحَمَّدًا فَوَجَدْتُ رِيحًا
وَقَدْ أَلْدَعْتَنِي ثَعْبَانٌ نَتْنٍ
وَأَدْنَى خَطْمِهِ فَوَدِدْتُ أَنِّي
كَمَا افْتَدَتِ الْمَعَاذَةُ مِنْ جَوَاهِ
وَفَارَقَهَا جَوَاهِ فَاسْتَرَاخَتْ
وَقَدْ أَدْنَيْتُ فَاهُ إِلَيَّ حَتَّى
وَمَا يَدُنُو إِلَيَّ فِيهِ ذُبَابٌ
يَذُقْنَ حَلَاوَةَ وَيَخْفَنَ مَوْتًا
فَلَمَّا فَاحَ فُوهَ عَلَيَّ فَوْحًا
فَقَلْتُ لَهُ: تَنْحُ بِفِيكَ عَنِّي
وَمَا هَذَا بِرِيحِ طَلٍّ وَلَكِنْ

(١) الاغاني ٢/٤١٢-٤١٣، ومعجم الادباء ١٠/٢٣٢-٢٣٣.

(٢) أكمح الرجل: رفع رأسه من الزهو، الصمد: المكان المرتفع.

(٣) القند: عصاره قصب السكر إذا جمد.

(٤) الزعاف؛ ومثله الذعاف: السم القاتل.

(٥) الغثيئة: القيح. المغد: الذي أصابه الطاعون.

(٦) الرند: نبات طيب الرائحة.

(٧) الطلأ: الخمر.

لبابِ الحقِّ من كذبٍ وجحدٍ
 فأعلمُ أمَّ أتكَّ به مُغْدِي^(١)
 شتيمٍ أعصلِ الأنبياءِ وردِ
 فإني كالذي أهديتَ أهدي
 تكونُ فنونها من كلِّ فند^(٢)
 رواها النَّاسُ من شيبٍ ومردٍ
 جوى إني إذن لسعيدٍ جدٍ
 فقال أصابني من جوفٍ مهدي
 فتعذر فيه آمالاً بجهدٍ
 فتسديه لنا فيما ستسدي
 له فيما أسرُّ له وأبدي
 ومثلي ذاك من نونٍ كنعدي
 وعودي حرملٍ ودماغٍ فهدي^(٣)
 ووزن شعيرةٍ من بزرٍ فقدي^(٤)
 ومثقالين من صوانٍ رقدي^(٥)
 ببولٍ آجنٍ وبجعريٍ قردٍ
 وترقبه فلا يبدو لبردٍ
 ولا يعجن بأظفارٍ وندي^(٦)
 أراك الله غيكَ أمرَ رشدٍ
 متى رمتَ التكلمَ أيَّ زردٍ
 ببلعومٍ وشدقٍ مُسمعد^(٧)
 كان دويبه إرزامٍ رعدٍ

فحدثنني فإنَّ الصدقَ أدنى
 أباتَ يجولُ في عَفَجِ طحورٍ
 نكهتَ عليَّ نكهةً أخذري
 فإنَّ أهديتَ لي من فيك حفتي
 لكم شرداً يسرن مغنياتٍ
 أما تخزي خزيتَ لها إذا ما
 لأرجو إن نجوت ولم يُصنبي
 وقلتُ له: متى استطرفتَ هذا
 فقلتُ له: أما داويتَ هذا
 فقال: أما علمتَ له رقاءً
 فقلتُ له: ولا آلوه عيا
 عليك بقيئةٍ وبجعريٍ كلبٍ
 وحلتيتٍ وكراثٍ وثومٍ
 وحنجرةٍ ابن آوى وابن عرسٍ
 وكفٍّ ذُرْحَرِحٍ ولسانٍ صقرٍ
 يدقُّ ويعجن المنخولُ منه
 وتدفنه زماناً في شعيرٍ
 فدخلن فاك ما عتقت منه
 فإنَّ حضرَ الشتاءُ وأنتَ حيٌّ،
 فدرجها بنادقٍ وازدردها
 فتقذف بالمصلِّ على مصلِّ
 وويلك ما لبطنك مذقعدنا

(١) العفج: الامعاء. الطحور: السريع.

(٢) الفند: الفقة.

(٣) الحلتيت: نبات يخرج من وسطه قصبه، وهو مما يؤكل.

(٤) الفقد: نبات ينبذ في العسل فيقويه؛ ويجيد إسكاره.

(٥) الذرحر: دويبة أعظم من الذباب شيئاً، مبرقش بسواد وحمرة وصفرة. وهو سم قاتل. الرقد: جبل تنحت منه الأرحية.

(٦) الأظفار والند: نوعان من الطيب.

(٧) المسمعد: المنتفخ وربما.

فإنَّ لحكَّةَ الناسورِ عندي دواءً إن صبرتَ له سيَّجدي
يُميت الدودَ عنكَ وتشتيهيه إن انت سننته سنَّ المقدِّي^(١)
به، وطليته باصولِ دقلى وشيءٍ من جنى لصفِ ورند^(٢)
أظني ميئاً من نتنٍ فيه أهان الله من نجاهُ بعدي

١٩٦ - [أشعار العرب في هجاء الكلب]

وقال صاحب الديك: سنذكر أشعار العرب في هجاء الكلب مجرداً على وجهه، ثم نذكر ما ذموا من خلاله وأصناف أعماله، وأموراً من صفاته، ونبدأ بذكر هجائه في الجملة. قال بشر بن بُرد: [من الطويل]

عددت سويداً إذ فخرت وتولباً وللكلبُ خيرٌ من سويدٍ وتولب^(٣)

وقال بشرٌ أو غيره: [من الطويل]

أتذكرُ إذ ترعى على الحيِّ شاءهم وأنت شريكُ الكلبِ في كلِّ مطعمٍ
وتلحسُ ما في القعبِ من فضلِ سُوره وقد عاثَ فيه باليدينِ وبالفمِ

وقال ابن الذئبية: [من الرجز]

من يجمع المال ولا يتبُّ به ويترك المالَ لعامٍ جدبه^(٤)
يهنُ على الناسِ هوانَ كلبه

وقال آخر: [من الطويل]

إنَّ شريبي لا يغبُّ بوجهه كلومي كأن كلباً يُهارشُ أكلباً
ولا أقسمُ الأعطانِ بيني وبينه ولا أتوقاه وإن كان مُجرباً

وهجا الأحوص ابناً له فشبَّهه بجرِّو كلبٍ فقال: [من الرجز]

أقبحُ به من ولدٍ وأشقى مثل جرِّي الكلبِ لم يُفقىح^(٥)

(١) سننته: صيبته. المقدِّي: شراب غليظ.

(٢) اللصف: نبات له ورق كورق لسان الحمل. والرند: نبات طيب الرائحة.

(٣) ديوان بشر ٤/١٩٣.

(٤) الرجز في كتاب البخلاء ١٨٤، وعميون الأخبار ١/٢٤٣.

(٥) الرجز في الاغاني ٤/٢٣٢.

إِنْ يَرِ سُوْءًا مَا يَقُمْ فَيَنْبِغُ بِالْبَابِ عِنْدَ حَاجَةِ الْمُسْتَفْتَحِ

وقال أبو حُزَابَةَ: [من السريع]

يا ابنَ عليٍّ بَرِحَ الحَفَاءُ أَنْتَ لغيرِ طَلْحَةَ الفِدَاءِ^(١)
قد علمَ الأشرافُ والأكفاءُ أَنْتَ أَنْتَ الناقِصُ اللِّفَاءِ^(٢)
حَبَلْتُ جَدَّه الرِّعَاءُ يَغْمُهُ المِعْزُرُ والرِّدَاءُ^(٣)
بنو عليٍّ كلُّهمُ سواءُ كَأَنَّهُمُ زَيْنِيَّةُ جِرَاءِ^(٤)

وقال عبدُ بني الحَسْحَاسِ، وذَكَرُ قُبْحَ وجهِهِ فقال: [من الطويل]

أَتَيْتُ نساءَ الحارِثِيِّينَ غُدُوَّةً بوجهِ بَرَأهَ اللّهُ غيرِ جَمِيلِ^(٥)
فشَبَّهَنِي كَلْبًا وَلَسْتُ بِفوقِهِ ولا دُونَهُ إِنْ كانَ غيرَ قَلِيلِ

وقال أبو ذَبَابِ السَّعْدِيِّ فِي هَوَانِ الكَلْبِ: [من الوافر]

لِكَسْرِي كانَ أَعْقَلَ من تَمِيمِ لِياليَ فَرَّ من أرضِ الضَّبَّابِ^(٦)
وَأَسْكَنَ أهْلَهُ ببلادِ ريفِ وَأَشجارِ وَأَنْهارِ عَذابِ
فصارَ بَنُو بَنِيهَ لَهَا مُلوَكًا وَصَرنا نَحْنُ أمثالَ الكَلابِ
فلا رَحِمَ الإلهُ صَدَى تَمِيمِ فَقَدَ أَرزَى بنا في كَلِّ بابِ

واراد اللّعين هجاءَ جَرِيرٍ - وَجَرِيرٌ من بني كُليب - فاشتقَّ هجاءَهُ من نسبِهِ

فقال: [من الوافر]

ساقُضِي بينَ كَلْبِ بني كُليبِ وبينَ القَيْنِ قَيْنِ بني عِقالِ^(٧)
فإنَّ الكَلْبَ مَطْعَمُهُ خَبِيثٌ وإنَّ القَيْنَ يَعمَلُ في سَفالِ
كَلّا العَبْدِين - قد عَلِمْتُ مَعَدُّ لثِيمِ الأَصْلِ من عَمِّ وَخالِ

(١) الأبيات في الأغاني ٢٢/٢٦١. وابن علي هو: عبد الله بن علي بن عدي، وكان شحيحاً. الأغاني ٢٦١/٢٢.

(٢) اللفاء: الحقيق.

(٣) حبلت: غنم صغار.

(٤) الزينية: كلاب قصيرة القوائم

(٥) البيتان في ديوان سحيم عبد بني الحسحاس ٦٩، والأغاني ٢٢/٣٠٦، وعميون الأخبار ٤/٣٥.

(٦) الأبيات للفرزدق في رسائل الجاحظ ٢/٤١١، وليست في ديوانه.

(٧) الأبيات في الوحشيات ٦٣، وطبقات ابن سلام ٤٠٢، والخزانة ١/٥٣١ (بولاق). والبيت الأخير ورد في ديوان لبيد ٦٥٨.

فما بَقِيَا عَلَيَّ تَرَكْتُمَانِي وَلَكِنْ خَفْتُمَا صَرَدَ النَّبَالُ

وقال رجلٌ من همدان، يقال له الضَّحَّاكُ بن سعد، يهجو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، واشتقُّ له اسماً من الكلب فجعله كلباً فقال: [من البسيط]

لَجَّ الْفَرَارُ بِمَرْوَانَ فَقُلْتُ لَهُ عَادَ الظُّلُومَ ظَلِيماً هَمُّهُ الْهَرَبُ^(١)
أَيْنَ الْفَرَارُ وَتَرَكَ الْمَلِكُ إِنْ قَبِلْتُ مِنْكَ الْهُوَيْنَى فَلَا دِينَ وَلَا أَدَبُ
فَرَأْسَةُ الْحَلَمِ فِرْعَوْنَ الْعَذَابِ، وَإِنْ يُطَلِّبُ نَدَاهُ فَكَلْبٌ دُونَهُ كَلْبُ

وقال آخر وجعل الكلب مثلاً في اللُّوم: [من الطويل]

سَرَّتْ مَا سَرَّتْ مِنْ لَيْلِهَا ثُمَّ عَرَّسَتْ عَلَى رَجُلٍ بِالْعَرَجِ الْأَمِّ مِنْ كَلْبِ^(٢)

وكذلك قول الأسود بن المنذر، فإنه قال: [من المتقارب]

فَإِنَّ أَمْرًا أَنْتُمْ حَوْلَهُ تَحْفُونَ قُبَّتَهُ بِالْقَبَابِ^(٣)
يُهَيِّنُ سَرَاتِكُمْ جَاهِداً وَيَقْتُلِكُمْ مِثْلَ قَتْلِ الْكَلَابِ

وقال سحيمة بن نعيم: [من الطويل]

أَلَسْتَ كَلْبِيًّا لِكَلْبٍ وَكَلْبِي لَهَا عِنْدَ أَطْنَابِ الْبُيُوتِ هَرِيرُ

وقال النُّجْرَانِيُّ فِي ذَلِكَ: [من الرجز]

مِنْ مَنزِلِي قَدْ أَخْرَجْتَنِي زَوْجَتِي تَهَرُّ فِي وَجْهِ هَرِيرِ الْكَلْبِي
زُوجَتُهَا فَفَقِيرَةٌ مِنْ حَرِيقَتِي قَلَّتْ لَهَا لَمَّا أَرَاكَ جَرَّتِي
أُمَّ هِلَالٍ أَبْشِرِي بِالْحَسْرَةِ وَأَبْشِرِي مِنْكَ بِقُرْبِ الضَّرَّةِ

١٩٧ - [الفلحس والأرشم]

ويقال للكلب «فلحس» وهو من صفات الحرص والإلحاح. ويقال: «فلان أسأل من فلحس»^(٤). و«فلحس»: رجلٌ من بني شيبان كان حريصاً رغبياً، ومُلِحِفاً مُلِحاً. وكلُّ طَفِيلِي فهو عندهم فُلْحَسٌ.

(١) نسبت الأبيات إلى سعيد بن العاصي في ديوان المعاني ١/١٩٦، والبيت الثالث بلا نسبة في الدرر ٥/٢٩٣، وجمع الهوامع ٢/١٠١.

(٢) البيت بلا نسبة في البخلاء ١٦١.

(٣) البيتان للقيط بن زرارة في الأغاني ٢٢/١٩٣، وبلا نسبة في عيون الأخبار ١/٢٩٢.

(٤) مجمع الأمثال ١/٣٤٧، وجمهرة الأمثال ١/٥٣٢، والمستقصى ١/١٥٢.

والأرشم^(١): الكلب والذئب، وقد اشتق منه للإنسان إذا كان يتشمم الطعام ويتبع مواضعه. قال جرير في بعضهم: [من الطويل]

لَقَى حَمَلْتَهُ أُمُّهُ وَهِيَ ضَيْفَةٌ فَجَاءَتْ بَيْتِنَ لِلضَّيْفَةِ أُرْشَمًا^(٢)

وقال جرير في استرواح الطعام: [من الكامل]

وَبَنُو الْهَجِيمِ سَخِيفَةٌ أَحْلَامُهُمْ
لَوْ يَسْمَعُونَ بِأَكْلَةٍ أَوْ شَرِبَةٍ
مُتَابِطِينَ بَنِيهِمْ وَبِنَاتِهِمْ
تُطُّ اللَّحَى مُتَشَابَهُهُ الْأَلْوَانِ^(٣)
بُعْمَانٌ أَضْحَى جَمْعُهُمْ بُعْمَانٍ
صُعْرَ الْخُدُودِ لِرِيحِ كُلِّ دُخَانٍ

وقال سَهْمُ بْنُ حَنْظَلَةَ الْغَنَوِيُّ فِي ذَلِكَ: [من المتقارب]

وَأَمَّا كِلَابٌ فَمِثْلُ الْكِلَا
ب لَا يُحْسِنُ الْكَلْبُ إِلَّا هَرِيرًا^(٤)
وَأَمَّا نُمِيرٌ فَمِثْلُ الْبِغَا
ل أَشْبَهْنَ آبَاءَهُنَّ الْحَمِيرَا
وَأَمَّا هِلَالٌ فَعَطَّارَةٌ
تَبِيعَ كِبَاءٌ وَعِطْرًا كَثِيرَا

١٩٨ - [بين جرير والراعي]

ومر جرير يوماً بالمربد، فوقف عليه الراعي وابنه جندل، فقال له ابنه جندل: إنته قد طال وقوفك على هذا الكلب الكلبي، فإلى متى؟ وضرب بغلته، فمضى الراعي وابنه جندل، فقال جرير: والله لأثقلن رواحلك! فلما أمسى أخذ في هجائه، فلم يأت ما يريد، فلما كان مع الصبح انفتح له القول فقال: [من الوافر]

فَغَضُّ الطَّرْفِ إِنَّكَ مِنْ نُمِيرٍ
فَلَا كَعْبًا بَلِغْتَ وَلَا كِلَابًا^(٥)
وَلَوْ جُعِلَتْ فِقَاحُ بَنِي نُمِيرٍ
عَلَى حَبَّتِ الْحَدِيدِ إِذَا لَذَابَا

(١) الأرشم: من يحرص على الطعام ويتشممه.

(٢) البيت لجرير في اللسان (نزر، لقا)، والتاج (نزر)، والعين ٦/٢٦٢. وللبعث في اللسان والتاج (رشم، يتن). وبلا نسبة في اللسان والتاج (نزل)، والمخصص ٣/٦٦، ١٧/٣٠، والمقاييس ٣٩٦/٢، ٣٨٢/٣.

(٣) الأبيات لجرير في ديوانه ٥٨١، والأغاني ٨/٥٢، وعيون الأخبار ٣/٢٢٥، وبلا نسبة في البيان ٣٢١/٣.

(٤) البيتان ١-٢ في رسائل الجاحظ ٢/٣٤٣ (كتاب البغال).

(٥) انظر خبر الشعر في الأغاني ٨/٢٩، ٢٤/٢٠٦-٢٠٩، والشعر في ديوانه ٦٤-٧٩ ضمن قصيدة طويلة.

ثم وقف في موقفه، فلماً مرُّ به جندلاً قبض على عنان فرسه، فأنشده قوله،
حتى إذا بلغ إلى هذا البيت :

أجندلُ ما تقول بنو نميرٍ إذا ما الأيرُ في استِ أبيك غابا
قال : فادبرَ وهو يقول : يقولون والله شرّاً.

وقال الشاعر - وضرب بالكلب المثلَ في قُبْح الوجه - : [من الكامل]
سَفَرْتُ فقلتُ لها هَجٍ فَتَبَرَّقَعْتُ فَذَكَرْتُ حِينَ تَبَرَّقَعْتُ ضَبَّاراً^(١)
وضَبَّار : اسم كلب له .

١٩٩ - [أمثال في الكلاب]

وقال كعب الأحبار لرجل وأراد سفرأ: **إِنَّ لِكُلِّ رُقْفَةٍ كَلْبًا، فَلَا تَكُنْ كَلْبَ أَصْحَابِكَ**^(٢).

وتقول العرب : « **أَحَبُّ أَهْلِي إِلَيَّ كَلْبُهُمُ الظَّاعِنُ** »^(٣). ومن الأمثال « **وَقَعَ الكَلْبُ عَلَى الذُّئْبِ لِيَأْخُذَ مِنْهُ مِثْلَ مَا أَخَذَ** »^(٤). ومن أمثالهم : « **الكلابَ عَلَى البَقَرِ** »^(٥).
ومن أمثالهم في الشؤم قولهم : « **عَلَى أَهْلِهَا دَلَّتْ بَرَأَقِشُ** »^(٦). وبراقش : كلبه قوم نبحت على جيشٍ مروا ليلاً وهم لا يشعرون بالحي، فاستباحوهم واستدلوا على مواضعهم بنباحها.

قال الشاعر : [من الوافر]

الم تَرَأَنَّ سَيِّدَ آلِ ثَوْرٍ نُبَاتَةَ عَضَّةِ كَلْبٍ فَمَاتَا

٢٠٠ - [قتيل الكبش وقتيل العنز]

وقال صاحب الكلب : **قد يموت الناسُ بكلِّ شيءٍ، وقد قال عبد الملك بن**

(١) البيت بلا نسبة في اللسان (هجج، ضبر، هبر) وشرح المفصل ٧٥/٤.

(٢) ثمار القلوب (٥٨٧)، وعيون الأخبار ١٣٦/١، والامالي ٢٣٤/٢.

(٣) في الأمثال : « أحب أهل الكلب إليه الظاعن »، والمثل في مجمع الأمثال ٢٠١/١، والمستقصى ٢٥٩/١، وجمهرة الأمثال ١٣٦/٢، ١٦٥.

(٤) مجمع الأمثال ٣٧٣/٢.

(٥) مجمع الأمثال ١٤٢/٢، وجمهرة الأمثال ١٦٩/٢، والمستقصى ٣٤١/١، وفصل المقال ٤٠٠.

(٦) جمهرة الأمثال ٥٢/٢، والمستقصى ١٦٥/٢، والمثل برواية « على أهلها تجني براقش » في مجمع الأمثال ١٤/٢، وفصل المقال ٤٥٩، والأمثال لابن سلام ٣٣٣.

مروان: ألا تتعجبون من الضحَّاك بن قيس يطلب الخلافة ونطح أباه كبش فوجد ليس به حبَّضٌ ولا نَبْضٌ^(١). وقال عَرَفْجَة بن شريك يهجو أسلم بن زُرْعَة - ووطئتُ أباه عنزٌ بالمرِيد فمات - فقال: [من الطويل]

ولم أستطع إذ بانَ منِّي معشري
مكانَ قتيلِ العنزِ أنْ أتكلِّمًا
فيما ابنُ قتيلِ العنزِ هل أنت نائرٌ
بزُرْعَة تيساً في الزَّرْبِيَّةِ أزنمًا

٢٠١ - [شعر في الهجاء]

وقال أبو الهول يهجو جعفر بن يحيى: [من السريع]

أصبحتُ محتاجاً إلى الضَّرْبِ
قد وُقِحَ السَّبُّ له وجهه
إِذَا شَكَا صَبًّا إِلَيْهِ الهَوَى
أعني فتى يُطعنُ في دينه
فِي طَلَبِ العُرْفِ إِلَى الكَلْبِ^(٢)
فصارَ لا يَنحاشُ للسَّبِّ
قالَ لَهُ مالي وللصَّبِّ
يَشِبُّ مَعَهُ خَشْبُ الصُّلْبِ

قال: وقلتُ لأبي عبيدة: أليس بُقِعَ الكلابُ أمثلها؟ قال: لا. قلت: ولم قال:

[من الوافر]

وخيْتُ هجاءهم لما تَوَاصَوْا
قال: ليس هكذا قال، إنما قال:

* كَخَوْفِ الذُّئْبِ مِنْ سُوْدِ الكِلَابِ *

ألا ترى أَنه حين أراد الهجاء قال: [من الوافر]

كأنك بالمباركِ بعدَ شهرٍ
تَخُوْضُ عُموْرَهُ بُقِعُ الكِلَابِ^(٣)

ويدل على ذلك قول الجدلي: [من الطويل]

لَعَمْرِي لَجَوُّ مِنْ جِوَاءِ سُوَيْقَةِ
أَسَافِلُهُ مَيْثُ وَأَعْلَاهُ أَجْرَعُ^(٤)

(١) قوله: «ليس به حبض ولا نبض» يعني: لا حراك به. وهو مثل في مجمع الأمثال ٢/٢٧٠،

والمستقصى ٢/٣٣٠. وهذا القول يعرف بما يسمى «الإتباع» انظر الإتباع والمزاوجة ٩١.

(٢) الأبيات في البيان ٣/٣٥١، والعمدة ١/٦٩، والبيتين ١-٢ لإسماعيل بن بشر اللاحقي في أخبار الشعراء المحدثين ٧٣.

(٣) البيت للمفرج بن المرفع؛ أو للفرزدق في معجم البلدان (٥/٥١: المبارك). والمبارك: نهر بالبصرة؛ احتفراه خالد بن عبد الله القعسري. وقيل: نهر وقرية فوق واسط.

(٤) الأبيات لغطمش الضبي في معجم البلدان (٢/١٨٤: جوسق).

أحبُّ إلينا أن نجاورَ أهله
 من الجوسقِ الملعونِ بالرِّيِّ لا يني
 يقولون لي صبراً فقلتُ: لَطَّالَمَا
 فليتَ عطائي كانَ قُسمَ بينهمُ
 وكان لهم أجري هنيئاً وأصبحتُ
 أجعلُ نفسي عدلَ علاجِ كأنما
 ويصبحَ منَّا وهو مرأى ومسمعُ
 على رأسه داعي المنيةِ يلمعُ
 صبرتُ ولكن لا أرى الصبرَ ينفعُ
 وكان لي الصمَّانُ والحزنُ أجمعُ
 بي البازلُ الكوماءِ بالرمْلِ تَضْبَعُ
 يموتُ به كلبٌ إذا ماتَ أبقعُ

قال: فقد بين كما ترى أن الأبقع شرها.

قال: وقلت: فلم قال الشاعر: [من البسيط]

أرسلتُ أسداً على بُقعِ الكلابِ فقد أمسى شريدُهُمُ في الأرضِ فُلاًلاً^(١)

قال: فكيف يقول ذلك وهو يمدحهم؟ وإذا صغر شأن من هزموا فقد صغر شأن الممدوح. بل إنما قال: «أرسلت أسداً على سود الكلاب».

قال: وإنما جاء الحديثُ في قتلِ سُودِ الكلابِ، لأنَّ عقرها أكثرُ ما تكون سوداً، وذلك من غلبةِ أنفسها.

وليس في الأرضِ حيوانٌ من بقرةٍ وثورٍ وحمارٍ وفرسٍ وكلبٍ وإنسانٍ، إلا والسودُ أشدُّها أسراً وعصباً، وأظهرها قوَّةً وصبراً.

وقال أبو سعد المخرومي في هجائه دعبلاً: [من الكامل]

يا ثابتَ بنِ أبي سعيدٍ إنَّها دُولٌ وأحرِبُ بها بأنَّ تتنقلاً^(٢)
 هلاً جعلتَ لها كحرمةِ دِعبِلِ في استِ أمِّ كلبٍ لا يساوي دِعبِلاً

وقال ابن نوفل: [من الطويل]

وجئتَ على قِصواءَ تنقلُ سِوءَةً إلينا وكم من سِوءةٍ لا تهابُها^(٣)
 وترعَمُ أنْ لم تخزِ سلمُ بنُ جندلِ وقد خزيتَ بعدَ الرِّجالِ كلابُها

وقال الحسن بن هانئ يهجو جعفر بن يحيى: [من الطويل]

قفاً خلفَ وجهِ قد أطيلَ كأنه قفا مالكِ يقضي الهومِ على بثق^(٤)

(١) قوم فل: منهزمون. والجمع فلول وفلال.

(٢) البيتان في ديوانه ٥٠، وديوان المعاني ١/١٨١.

(٣) القِصواء: اسم ناقة.

(٤) ديوان أبي نواس ٥١٩، والبيان ٣/٣٥٤، والبرصان ٢١٨، وعيون الأخبار ١/٢٧٣.

وأعظم زهواً من ذباب على خيراً وأبخل من كلبٍ عقورٍ على عرقٍ

وقال أبو الشمقمق: [من الخفيف]

غلبوا الناسَ بالندى والعطية^(١)
وتلقى بمرحَبٍ وتحيةً
مِ شبيهِ الكَلْبِيَّةِ القَلْطِيَّةِ
مثلَ إعراضِ قحبةِ سوسيةٍ
غابَ في دُبُرِ بَغْلَةٍ مِصرِيَّةِ

أهلُ جودٍ ونائلٍ وفعالٍ
جنته زائراً فادنى مكاني
لا كمثلِ الأصمِّ حارثةِ اللؤ
جنته زائراً فاعرضَ عني
وتولَّى كائنه أير بغلٍ

وقال أيضاً: [من الوافر]

ووجه الكلبِ والتيسِ الضروط^(٢)
ودُبُرٌ مثلُ راقودِ النشوط^(٣)
كدورِ سفينةٍ في بئقِ روط^(٤)
مُوصَلَّةِ الجوانبِ بالخيوطِ
مُرْقَعَةٍ جوانبهِ بقوطِ
تَرَى سَرَّانَ يَسْفَلُ فِي هَبُوطِ

ألا قولاً لسرَّانِ المخازي
له بطنٌ يضلُّ الفيلُ فيه
وأيرٌ عارمٌ لا خيرَ فيه
ولحيةٌ حائكٌ من بابِ قلبِ
له وجهٌ عليه الفقرُ بادٍ
إذا نهَضَ الكِرَامُ إِلَى المَعَالِي

وقال أيضاً في ذلك: [من البسيط]

والطيرِ والوحشِ في يهماءِ دويةٍ^(٥)
حتى تُقَرَّ بتلكِ الحالِ عينيهِ

يا رازقَ الكلبِ والخنزيرِ في سعةٍ
لو شمتَ صيرتهِ في حالِ فاقتهِ

وقال جرير بن عطية، يهجو الصلَّتان العبدِيَّ: [من الطويل]

أقول لها والدَّمعِ يغسلُ كحلها متى كان حكمُ اللهِ في كَرَبِ النخلِ^(٦)

(١) ديوان أبي الشمقمق ٢٥٣.

(٢) ديوان أبي الشمقمق ٢٤٠.

(٣) الراقود: دُنْ طويل الاسفل يُسَيِّعُ داخله بالقار. أو هو إناء خزف مستطيل مقير. النشوط: نوع من السمك.

(٤) الروط: النهر، معرب.

(٥) ديوان أبي الشمقمق ٢٥٠.

(٦) ديوان جرير ٤٢٩، ورواية صدر البيت: «أقول ولم أملك سوابق عبرتي». والبيت في اللسان (كرب، متى)، وأساس البلاغة (كرب).

فأجابه الصَّلْتَانُ فقال: [من الطويل]

تُعِيرْنَا أَنْ كَانَتْ النَّخْلُ مَالْنَا وودَّ أبوك الكلبُ لو كان ذا نَخْلٍ
يَعِيرُهُ جَرِيرُ بَأْنَهُ كَانَ هُوَ وَأَبُوهُ مِنْ أَصْحَابِ النَّخْلِ .

وقال وضاحُ اليمَن: [من البسيط]

وأَكْتَمَ السَّرَّ غَضْبَانًا وَفِي سَكْرِي حَتَّى يَكُونَ لَهُ وَجْهٌ وَمَسْتَمِعٌ^(١)
وَأَتْرَكَ الْقَوْلَ عَنْ عِلْمٍ وَمَقْدَرَةٍ حَتَّى يَكُونَ لَذَاكَ النَّجْدِ مُطْلَعٌ
لَا قُوَّتِي قُوَّةَ الرَّاعِي رِكَابِهِ يَبِيتُ يَاوِي إِلَيْهِ الْكَلْبُ وَالرَّبْعُ
وَلَا الْعَسِيفِ الَّذِي تَشْتَدُّ عُقْبَتُهُ حَتَّى يَثُوبَ وَيَاقِي نَعْلَهُ قَطْعُ

وقال محمد بن عبَّاد الكاتب مولى بجيلة، وأبوه من سبي دابق وكاتب زهير،
وصديق ثمامة، يهجو أبا سعد دعي بني مخزوم، وبعد أن لقي منه ما لقي: [من
مجزوء الكامل]

فَعَلْتُ نَزَارُ بِكَ الَّذِي اسـ تَاهَلَّتْهُ نَفِيًّا وَضَرْبًا^(٢)
فَهَجَوْتُ قَحْطَانًا لَأَهـ جَوْهَمَ مَكَايِدَةً وَإِرْبَا
وَأَرَدْتُ كَيْمَا تَشْتَفِي بِهِجَائِهِمْ مِنْهُمْ فَتَرَبَّا
وَوَثِقْتُ أَنَّكَ مَا سَبَبِ سَتَ، حَمَاكَ لَوْمُكَ أَنْ تُسَبَّا
كَالْكَلْبِ إِنْ يَنْبِجُ فليـ سِ جَوَابِهِ إِلَّا أَحْسَنَ كَلْبَا
خَفَضَ عَلَيْكَ وَقَرَّ مَكَا نَكَ لَا تَطْفُ شَرْقًا وَغَرْبَا
وَكَشِفَ قِنَاعَ أَبِيكَ فَالـ آبَاءُ لَيْسَ تُنَالُ غَضْبَا

وقال آخر يصف كلباً: [من الطويل]

وَلَدُّ كَطْعَمِ الصَّرْخَدِيِّ تَرَكْتَهُ بَارِضِ الْعَدَا مِنْ خَشْيَةِ الْحَدَثَانِ^(٣)
وَمُبْدِي لِي الشُّحْنَاءَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ دَعَوْتُ وَقَدْ طَالَ السَّرَى فِدْعَانِي

(١) الأبيات في الحماسة بشرح التبريزي ٢٦١/١ بلا نسبة، والمرزوقي ٦٤٥-٦٤٧، وهي لوضاح اليمَن في ديوانه ٥٦.

(٢) الأبيات الأربعة الأخيرة في أخبار أبي تمام ٤٦، والبيت الأول في ديوان المعاني ١٧٩/١ بلا نسبة.

(٣) البيت الأول بلا نسبة في أساس البلاغة واللسان والتاج (لذذ)، ومجمل اللغة ٤/٢٤٥، وتهذيب

اللغة ١٤/٤٠٩. ولم أجد البيت الثاني، بل وجدت ما يشبهه في ديوان زهير ٢٦٩:

وأشعث قد طالت قنازع رأسه دعوت على طول الكرى فدعاني

فوصفه كما ترى أنه يبدي له البغضاء .

وقال آخر: [من الطويل]

سَرَتْ ما سَرَتْ من ليلها ثم عرَّست على رجلٍ بالعَرَجِ الأَم من كَلْبٍ (١)

وقال راشد بن شهاب اليشكري: [من الطويل]

فلستُ إذا هبَّتْ شمالٌ عَرِيَّةٌ بكلِّبٍ على لحم الجزورِ ولا بَرَمٍ

وقال كثير بن عبد الرحمن، وهو يصف نعلًا من نعال الكرام: [من الطويل]

إذا طَرِحَتْ لم يَطْبِ الكلبَ ريحُها وإن وُضِعَتْ في مجلسِ القومِ شُمَّتِ (٢)

وقال اللعين في بعض أضيافه، يخبر أنه قرأه لحم كلب . وقد قال ابن الأعرابي:

إنما وصف تيساً: [من الطويل]

فقلتُ لِعَبْدِي أَقْتَلَا داءَ بطنه وأعفاجه اللائي لهنَّ زوائدُ (٣)

فجاءَ بأخْرِشاوِي شَعيرِ عليهما كَراديسُ من أوصالِ أعقَدِ سافِدِ

وقال خُلَيْد عَيْنين وهو يهجو جرير بن عطية ويردّ عليه: [من الطويل]

وعيرتُنا بالنخل أن كان مالنا وودُّ أبوك الكلب لو كان ذا نخل

وقال دِعْبِل بن علي: [من المتقارب]

ولو يُرْزَقُ الناسُ عن حيلةٍ لما نال كَفًّا من التُّرْبَةِ

ولو يشربُ الماءُ أهلُ العفا ف لما نال من مائهم شَرِبَهُ

ولكنَّهُ رزقُ مَنْ رَزَقَهُ يعمُّ به الكلبُ والكلبةُ

(١) البيت بلا نسبة في كتاب البخلاء ٢٦١، وتقدم في الفقرة ١٩٦ .

(٢) البيت لكثير عزة في ديوانه ٣٢٤، والبيان ٣/١٠٩، ١١٢، واللسان (نعل)، والتاج (شمت) .

(٣) البيتان في معجم البلدان ٢/٢٨١ «حَلَمات» .

باب ذكر من هُجِيَ بِأَكْلِ لَحْمِ الْكِلَابِ وَلَحْمِ النَّاسِ

٢٠٢ - [شعر في أكل لحوم الكلاب]

قال سالم بن ذارة الغطفاني: [من الرجز]
يَافِقْعَسِيَّ لِمَ أَكَلْتَهُ لَمَهُ لو خَافَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَرَّمَهُ (١)
فَمَا أَكَلْتَ لَحْمَهُ وَلَا دَمَهُ

وقال الفرزدق في ذلك: [من الطويل]
إِذَا أَسَدِيٌّ جَاعَ يَوْمًا بِبِلْدَةٍ وكان سميناً كلبه فهو آكله (٢)

وقال مساور بن هند: [من المتقارب]
إِذَا أَسَدِيَّةٌ وُلِدَتْ غُلَامًا فبشرها بلومٍ في الغلام (٣)
يَخْرُسُهَا نِسَاءُ بَنِي دُبَيْرٍ بأخبث ما يجدن من الطعام
تَرَى أَظْفَارَ أَعْقَدَ مُلَقِيَاتٍ برائنها على وَضَمِ الثَّمَامِ
فهذا الشعر وما أشبهه يدلُّ على أنَّ اللعين إنما قراهم كلباً ولم يَقْرِهِمْ تيساً،
وَأَنَّ الصَّوَابَ خِلافُ ما قال ابنُ الأعرابيِّ.

وقال مساور بن هند أيضاً: [من الطويل]
بَنِي أَسَدٍ أَنْ تُمَحَلَّ الْعَامَ فُقْعَسَ فهذا إذن دهر الكلابِ وعامها (٤)

(١) الرجز في كتاب البخلاء ٢٣٤.

(٢) البيت في كتاب البخلاء ٢٣٥، وبيع الأبرار ٥/٥١٥.

(٣) الشعر في كتاب البخلاء ٢٣٤.

(٤) البيت في كتاب البخلاء ٢٣٥.

وقال شريح بن أوس يهجو أبا المهوش الأسدي: [من الطويل]
وعيرتنا تمر العراق وبره وزادك أير الكلب شيطه الجمر^(١)

٢٠٣ - [شعر في أكل لحوم الناس]

وقال معروف الدبيري في أكلهم لحوم الناس: [من الوافر]

إذا ما ضفت يوماً فقعسياً فلا تطعم له أبداً طعاماً^(٢)
فإن اللحم إنسان فدعه وخير الزاد ما منع الحراما

وقد هجيت هذيل وأسد وبلعنبر وباهلة بأكل لحوم الناس، قال حسّان بن ثابت

يذكر هذيلاً: [من البسيط]

إن سرّ الغدر صرفاً لا مزاج له فات الرجيع وسل عن دار لحيان^(٣)
قوم تواصلوا بأكل الجار بينهم فالكلب والشاة والإنسان سيان

وقال الشاعر في مثل ذلك في هذيل: [من الطويل]

وانتم أكلتم شحمة بن مخدّم زباب فلا يأمنكم أحد بعد^(٤)
تداعوا له من بين خمس وأربع وقد نصل الاظفار وانسياً الجلد
ورفعتم جردانه لرئيسكم معاوية الفلحاء يالك ماشكّد

وقال الشاعر في ذلك في باهلة: [من الرجز]

إن غفاقاً أكلته باهله تمششوا عظامه وكاهله^(٥)

* وأصبحت أم غفاق تأكله *

وهجا شاعر آخر بلعنبر، وهو يريد ثوب بن شحمة، وكان شريفاً وكان يقال له مجير الطير. فأما مجير الجراد فهو مدلج بن سويد بن مرشد بن خبيري فعير الشاعر ثوب بن شحمة بأكل الرجل العنبري لحم المرأة إلى أن أتى ثوب من الجبل فقال:

[من الرجز]

عجلتُم ما صادكم علاج من العنوق ومن النعاج^(٦)
حتى أكلتم طفلة كالعاج

(١) البخلاء ٢٣٥، والخزانة ٨٦/٣ (بولاق).

(٢) البخلاء ٢٣٧.

(٣) البخلاء ٢٣٥، وديوانه ٤٧٦.

(٤) البخلاء ٢٣٥. الزباب: ضرب من الفار.

(٥) البخلاء ٢٣٦.

(٦) البخلاء ٢٣٥.

فلما عيَّره قال ثوب: [من البسيط]

يا بنت عمي ما أدراك ما حسبي
إني لذو مرة تُخشى بوادره
إذ لا تجنُّ خبيثَ الزاد أضلاعي^(١)
عند الصياح ينصل السيف قرأع

ومن ظريف الشعر قول أبي عدنان: [من الطويل]

فما كلبة سوداءُ تفري بناها
أتيح لها كلبٌ فضنت بعرقها
عراقاً من الموتى مراراً وتكدمُ
فهارشها وهي على العرق تعدمُ
فقف على هذا الشعر فإنه من أعاجيب الدنيا.

وقال سنيح بن رباح شار الزنجي: [من الكامل]

مأبال كلب بني كليب سبنا
أن لم يوازن حاجباً وعقالاً^(٢)

٢٠٤ - [قتيل الكلاب]

وتنازع مالك بن مسمع وشقيق بن ثور، فقال له مالك: إنما رفعك قبرٌ بتستر
فقال شقيق: حين وضعك قبراً بالمشقر، يا ابن قتيل النساء وقتيل الكلاب!!

قال^(٣): وكان يقال لمسمع بن شيبان قتيلاً الكلاب، وذلك أنه لجأ في الردة
إلى قوم من عبد القيس، فكان كلبهم ينبح عليه فخاف أن يدل على مكانه فقتله
فقتل به.

٢٠٥ - [أمثال أخرى في الكلب]

قال: والعرب تقول: «أسرع من لحسة كلب أنفه»^(٤). ويقال: «أحرص من
لعوة»^(٥) وهي الكلبة، وجمعها لعاء. وفي المثل: «الأم من كلب على عرق»^(٦)،
و«نعم كلب في بؤس أهله»^(٧). وفي المثل: «اصنع المعروف ولو مع الكلب»^(٨).

(١) البخلاء ٢٣٦.

(٢) البيت في رسائل الجاحظ ١/١٩٠، والحامسة البصرية ١/١٨١، واللسان (طول).

(٣) الخبر في ربيع الأبرار ٥/٤٢٢، وثمار القلوب ٣١٨ (٥٩٢).

(٤) مجمع الأمثال ١/٣٥٥، والمستقصى ١/١٦٥، والذرة الفاخرة ١/٢١٧.

(٥) لم يرد في كتب الأمثال، ووجدت: «أجوع من لعوة» في مجمع الأمثال ١/١٨٦، والمستقصى

١/٥٨، وجمهرة الأمثال ١/٢٩٨، ٣٣١. وثمة مثل هو «أحرص من كلب» في المستقصى

١/٦٤، ومجمع الأمثال ١/٢٢٨، وجمهرة الأمثال ١/٣٤٣، ٤٠٢.

(٦) مجمع الأمثال ٢/٢٥٦، وجمهرة الأمثال ٢/١٨٠، والمستقصى ١/٣٠١.

(٧) مجمع الأمثال ٢/٣٣٦، وجمهرة الأمثال ٢/٢٩٧، ٣٠٦، وفصل المقال ٢٧٨.

(٨) المستقصى ١/٢١٢.

٢٠٦ - [تأويل رؤيا الكلب]

وقال ابن سيرين: الكلبُ في النوم رجلٌ فاحش، فإن كان أسودَ فهو عربيٌّ، وإن كان أبقعَ فهو عجميٌّ^(١).

وقال الاصمعيّ عن حمّاد بن سلمة عن ابنِ أُختِ أبي بلالِ مردّاسِ بنِ أُديّة قال: رأيتُ أبا بلالٍ في النومِ كلباً تذرِفُ عيناه، وقال: إنا حوّلنا بعدكم كلاباً من كلابِ النار.

قال^(٢): ولما خرج شمر بن ذِي الجَوْشَن الضُّبابي لقتالِ الحسينِ بنِ عليّ رضي اللهُ تعالى عنهما، فرأى الحسينُ فيما يرى النَّائمُ أنَّ كلباً أبقعَ يلبِغُ في دمائهم، فأوَّلَ ذلكَ أنَّ يقتلهم شمر بن ذِي الجَوْشَن. وكان مُنسلخاً برّصاً.

قال: والمسلمون كلُّهم يسمُّون الخوارجَ: كلابَ النار.

٢٠٧ - [شعر في تشبيه الفرس بضروب من الحيوان ليس بينها الكلب]

وقال صاحب الديك: صاحب الكلب يصفه بالسرعة في الحضر، وبالصبر على طول العدو، وبسعة الإهاب، وأنه إذا عدا ضبّع وبسط يديه ورجليه حتى يمس قصصه الأرض، وحتى يشرط أذنيه بشباً^(٣) أظفاره، وأنه لا يحتشي ريحاً مع ما يصيب الكلاب من اللهث. فإن كان كما تقولون فلم وصفتم الشعراء الفرس وشبهته بضروب من الخلق، وكذلك الأعضاء وغير ذلك من أمره، وتركوا الكلب في المنسأ لا يلتفت أحدٌ لفته؟!!

وقال أبو دؤاد الإيادي في ذلك: [من الخفيف]

عن لسانِ كجئةِ الورلِ الاحـ سمرِ مجِّ النديِّ عليه العرارُ^(٤)

ولم يذكره في شيء. وقال خالد بن عجرة الكلابي: [من الوافر]

كان لسانه ورلٌ عليه بدار مضية مج العرار^(٥)

(١) حياة الحيوان ٢/٢٩٧-٢٩٨.

(٢) البرصان ٨٢.

(٣) شبا الشيء: حده وطرّفه.

(٤) البيت لابي دؤاد في ديوانه ٣١٨، ولعدي بن الرقاع في ديوانه ٧٤، واللسان (ورل).

(٥) البيت بلا نسبة في نوادر أبي زيد ١١٦، ورواية عجزه: (بدار مضنة مج العرارا).

وقال امرؤ القيس: [من الطويل]

وَخَدُّ أَسِيلٍ كَالْمِسْنِ وَبِرْكَةٍ كَجُوجُو هَيْقٍ دَقُّهُ قَد تَمُورًا

ولم يذكره في شيء. وقال عَقْبَةُ بن سابق: [من الهزج]

عَرِيضُ الْخَدِّ وَالْجَبِّ هَمَةٌ وَالصَّهْوَةُ وَالْجَنْبُ (١)

ولم يذكره في شيء. وقال امرؤ القيس: [من الطويل]

وَسَامِعَتَانِ تَعْرِفُ الْعَتَقَ فِيهِمَا كَسَامِعَتِي مَذْعُورَةٌ وَسَطٌّ رِبْرِبٌ

ولم يذكره في شيء من ذلك. وقال عَقْبَةُ بن سابق: [من الخفيف]

وَلَهَا بَرِكَةٌ كَجُوجُو هَيْقٍ وَلَبَانٌ مُضْرَجٌ بِالْخِضَابِ

ولم يذكره في شيء. وقال خُفَافُ بن نَدْبَةَ: [من السريع]

عَبْلُ الذَّرَاعِينَ سَلِيمُ الشَّظَا كَالسَّيْدِ يَوْمَ الْقِرَّةِ الصَّارِدِ (٢)

ولم يذكره في شيء من ذلك. وقال امرؤ القيس: [من الطويل]

سَلِيمُ الشَّظَا عَبْلُ الشَّوَى شَنِجُ النَّسَا أَقْبٌ كَتَيْسِ الْحَلْبِ الْعَذْوَانِ (٣)

ولم يذكره في شيء من ذلك. وقال عَقْبَةُ بن سابق: [من الهزج]

وَأَرْسَاغٌ كَأَعْنَاقٍ ظِبَاءٌ أَرْبَعٌ غُلْبِ (٤)

ولم يذكره في شيء من ذلك. وقال الْجَعْدِيُّ: [من المتقارب]

كَانَ تَمَائِيلٌ أَرْسَاغِهِ رِقَابٌ وَعُؤُولٌ لَدَى مَشْرَبِ (٥)

ولم يذكره في شيء من ذلك. وقال امرؤ القيس: [من المتقارب]

لَهَا مَتْنَتَانِ خَطَّاتَا كَمَا أَكْبُ عَلَى سَاعِدِيهِ النَّمْرِ (٦)

(١) البيت لأبي دؤاد في ديوانه ٢٨٩، ولم يرد في قصيدة عقبة بن سابق في الأصمعيات حيث فيها قصيدة يتنازع نسبتها أبو دؤاد وعقبة.

(٢) البيت في الأصمعيات ص ٢٩.

(٣) ديوانه ٨٧.

(٤) البيت لأبي دؤاد في ديوانه ٢٨٩.

(٥) البيت للناطقة الجعدي في ديوانه ١٩، والخزانة ١/٥١٠ (بولاق).

(٦) البيت في ديوانه ١٦٤ والخزانة ٧/٥٠٠، ٥٧٣، وسر صناعة الإعراب، واللسان (متن، خطأ)، وبلا نسبة في شرح الحماسة للمرزوقي ٨٠.

ولم يذكره في شيء من ذلك . وقال أبو دؤاد : [من مجزوء الكامل]

يمشي كمشي نعامتين تُتابعانِ أشتقُ شاخص^(١)

ولم يذكره في شيء من ذلك . وقال ابن الصعق : [من مجزوء الكامل]

بمحنّبٍ مثلِ العقابِ بِ تخالهُ للضميرِ قدحا^(٢)

ولم يذكره في شيء من ذلك . وقال ربيعة بن جشم النمري ، ويروى لامرئ

القيس : [من المتقارب]

وساقانِ كعابهما أصمعا نِ لحمٍ حماتيهما منبترا^(٣)

ولم يذكره في شيء من ذلك . وقال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت

الانصاري : [من المتقارب]

كانَ حماتيهما أرنبانِ تقبضتا خيفةً الأجدل^(٤)

ولم يذكره في شيء من ذلك . وقال خالد بن عبد الرحمن في مثل ذلك : [من

الوافر]

كانَ حماتها كردوس فحلر مقلصةً على ساقِي ظليم^(٥)

ولم يذكره في شيء من ذلك . وقال الأعشى : [من الكامل]

أما إذا استقبلته فكأنه جذعٌ سَمَا فوقَ النّخيلِ مشدّب^(٦)
وإذا تصفّحه الفوارسُ معرضاً فتقولُ سرحانُ الغضّاءِ المتصوّبُ
أما إذا استدبرته فتسوقه ساقٌ يقمصها وظيفٌ أحذبُ
منه وجاعة كانَ حماتها لما كشفت الجُلّ عنه أرنب

ولم يذكره في شيء من ذلك . وقال الأسعر الجعفي : [من الكامل]

أما إذا استقبلته فكأنه بازٍ يكفكفُ أن يطيرَ وقد رأى^(٧)

(١) ديوان أبي دؤاد ٣٢٢ ، واللسان والتاج (مصص) .

(٢) البيت لابن الصعق في الخزانة ١ / ٣٨٨ (بولاق) ، ونسبه الجاحظ في كتاب البخلاء ١٦٩ إلى قيس ابن زهير .

(٣) البيت لامرئ القيس في ديوانه ١٦٣ ، واللسان والتاج (صمع) ، وتهذيب اللغة ٢ / ٦٠ .

(٤) البيت لعبد الرحمن بن حسان في المعاني الكبير ١ / ١٦٤ ، والأنوار ١ / ٢٩٧ .

(٥) البيت لخالد بن الصقعب في كتاب الجيم ٣ / ١٧٠ .

(٦) البيت الأول لانيب بن جبلة في اللسان (أول) .

(٧) الأبيات في الأصمعيات ١٤١-١٤٢ ، والخزانة ٤ / ٢٢ (بولاق) .

أما إذا استعرضته متمطراً فتقول هذا مثل سرحان الغضا
أماً إذا استدبرته فتسوقه ساق قموص الوقع عارية النساء

ولم يذكره في شيء. وقال أبو داؤد: [من الكامل]

كالسيد ما استقبلته وإذا ولئى تقول مَلَمَّمٌ ضَرْبٌ (١)
لأَمٌ إذا استعرضته ومشى متتابعاً ما خانهُ عَقْبُ
يمشِي كمشي نعامه تَبِعْتُ أخرى إذا هي راعها خَطْبُ

ولم يذكره في شيء من ذلك. وقال امرؤ القيس: [من الطويل]

له أَيْطَلًا ظبي وساقاً نعامه وإرخاء سرحانٍ وتقريبُ تَنْفُلٍ (٢)

ولم يذكره في شيء من ذلك. وقال ابن سنان العبدى: [من الكامل]

أما إذا ما أقبلت فمطاراً كالجدع شدبه نفي المنجل
أما إذا ما أعرضت فنبيلة ضخم مكان حزامها والمركل
أما إذا تشددت فهي نعامه تنفي سناكبها صلاب الجنادل

٢٠٨ - [قول أبي عبيدة في تشبيه الفرس بضروب من الحيوان]

قال أبو عبيدة: ومما يشبه خلقه من خلق النعام طولٌ وظيفها وقصر ساقها
وعُرِي نَسِيها. ومما يشبه من خلقه خلق الأرنب صغر كعبيها. ومما يشبه من خلقه
خلق الحمار الوحشي غلظ لحمه، وظما فصوصه وسرته، وتمحص عصبه، وتمكن
أرساغه، وعرض صهوته.

قال صاحب الكلب: قد قال أبو عبيدة: إن مما يشبه من خلقه خلق الكلب
هزت شدقه، وطول لسانه، وكثرة ريقه، وانحدار قصه (٣)، وسبوغ ضلوعه، وطول
ذراعيه، ورطب جلده، ولحوق بطنه. وقال طفيل الغنوي، يصف الخيل: [من
الطويل]

تباري مَراخِيها الزجاج كأنها ضبراً أحست نبأه من مكلب (٤)

(١) ديوانه ٢٨٤.

(٢) ديوانه ٢١، واللسان (غور، تفل، رخا)، والتاج (أطل، تفل)، والمقاييس ١/١١٢، وبلا نسبة في
(سرح، أطل)، وشرح المفصل ٦/١١٢.

(٣) القص: الصدر.

(٤) ديوان طفيل الغنوي ٢٤، والمعاني الكبير ١/٤٢، والمخصص ١٦/٣٠.

وقال طُفَيْلٌ أَيْضاً: [من الطويل]

كَأَنَّ عَلَيَّ أَعْطَافِهِ ثَوْبٌ مَائِحٌ وَإِنْ يَلِقُ كَلْبٌ بَيْنَ لَحْيَيْهِ يَذْهَبُ^(١)

وقال صاحب الديك: وأين يقع البيتُ والبيتان والثلاثة، من جميع أشعار

العرب!؟

وقال صاحب الكلب: لعلنا إن تتبعنا ذلك وجدناه كثيراً، ولكنك تقدمت في أمر ولم تُشعر بالذي تعني، فنلتقط من الجميع أكثر مما التقتط. والإنسان شريف الأعضاء وقد تشبه مواضع منه مواضع من الفرس العتيق. وما حضرنا من الأشعار إلا قوله: [من مجزوء الكامل]

وترى الكميتَ أمامه وكأته رجلٌ مغاضِبٌ

وقال الشاعر في ذلك: [من الكامل]

خُوصٌ تَرَّاحٌ إِلَى الصَّرَاحِ إِذَا غَدَتِ فِعْلَ الضَّرَّاءِ تَرَّاحٌ لِلْكَالِبِ^(٢)

وقد شبهوا بالكلب كل شيء

وكان اسم فرس عامر بن الطفيل، الكلب، والمزنوق، والورد.

٢٠٩ - [شعر في وصف الناقة]

قال صاحب الديك: قد قال أوس بن حجر، ووصف الناقة ونشاطها والذي

يَهيجها فقال: [من البسيط]

كَأَنَّ هَرًّا جَنِيْباً عِنْدَ مَغْرَضِهَا وَالتَفُّ دَيْكٌ بَرَجْلِيهَا وَخَنْزِيرُ^(٣)

فهلأ قال: والتف كلبٌ كما قال: والتف ديك!! وقال أبو حية^(٤): [من

الكامل]

و تَزَاوَرَتْ عَنْهُ كَأَنَّ بَدْفُهَا هَرًّا يَنْشَبُ ضَبْعَهَا بِالْأظْفَرِ

وقال الأعشى: [من الكامل]

بِجَلَالَةِ سُرْحٍ كَأَنَّ بَدْفُهَا هَرًّا إِذَا انْتَعَلَ الْمَطِيُّ ظِلَالَهَا^(٥)

(١) ديوان طفيل الغنوي ٢٧، والمعاني الكبير ١٦/١، والامالي ٣٥/٢. والمائح: الذي ينزل البثر فيملا الدلو.

(٢) البيت بلا نسبة في اللسان والتاج (روح).

(٣) ديوان أوس بن حجر ٤٢.

(٤) لم يرد البيت في ديوان أبي حية النميري.

(٥) ديوان الأعشى ٧٧، واللسان والتاج (سرح)، وتهذيب اللغة ٣٠١/٤.

وقال عنتره بن شداد العَبَسِيّ: [من الكامل]

وكأثما ينأى بجانب دَفِّها الـ
هرٌّ جَنِيْبٌ كلِّما عَطَفْتُ له
سوحشيّ من هزج العشيّ مؤوم^(١)
غَضَبِي اتقاها باليدين وبالضم

وقال المثقّب العبديّ: [من الوافر]

فسلّ الهَمُّ عنك بذات لَوثٍ
بصادقةِ الوجيفِ كانَّ هراً
عُذافرةٌ كَمَطْرَقَةِ القِيُونِ^(٢)
يُباريها ويأخذُ بالوَضِينِ

قال صاحب الكلب: إنما يذكرون في هذا الباب السباع المنعوتة بالمخالب وطول الأظفار، كما ذكر الهَرُّ وابن آوى. والكلبُ ليس يوصف بالمخالب، وليس أن الهَرُّ أقوى منه. ألا ترى أوس بن حجر قال في ذلك: [من البسيط]

* كانَّ هراً جَنِيْباً عِنْدَ مَغْرَضِها *^(٣)

فذكر الموضع الذي يوصف بالخلب والخذش والخمش والتظفير، فلما أراد أن يفرِّعها ويثورها حتى تذهب جافلة في وجهها، أو نادة، أو كأنها مجنونة من حاق المرح والنشاط قال: [من البسيط]

* والتفّ ديكٌ برجليها وخنزير *^(٤)

وقال أبو النجم: [من الرجز]

لو جرّ شَنٌّ وسطها لم تحفيل
من شهوةِ الماءِ ورزٌّ معضل^(٤)

ولو قال أوس:

* والتفّ شَنٌّ برجليها وخنزير *

لكان جائزاً، لولا يُبَسُّ الشنِّ وقحوله، وأنه ليس مما يلتوي على رجليها. وقال

آخر: [من الطويل]

كانَّ ابن آوى مؤثّقٌ تحت غرِّها
إذا هو لم يكلم بنابيه ظفراً

(١) البيتان من معلقته في ديوانه ٢١، والأول في اللسان (هزج، وحش، دقف، أوم)، والتاج (هزج، أوم).

(٢) البيتان في ديوان المثقّب العبدي ٣٤، والمفضليات ٢٩٠، والمراثي للبيزدي ٢٣٦.

(٣) الأول صدر البيت، والثاني عجزه، وهما لأوس بن حجر في ديوانه ٤٢.

(٤) الرجز في ديوانه ١٩٩، والطرائف الأدبية ٦٦.

٢١٠ - [الرجوع في الهبة]

وقال صاحب الديك: حديث عمرو بن شعيب عن عبد الله بن عمر وعبد الله ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحلُّ لرجلٍ أن يُعطيَ عطيَّةً ويرجعَ فيها، إلا الوالد فيما يعطي ولده. ومثل الذي يُعطي العطيَّة ثم يرجعُ فيها كمثل الكلب ياكل، حتى إذا شَبِعَ قَاءً ثم عاد في قيئه»^(١).

وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرجع في هبته إلا الوالد من ولده. والعائد في هبته كالعائد في قيئه».

وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن عبد الله بن جعفر، أن أبا بكرٍ أمر بقتل الكلب. قال عبد الله بن جعفر: وكانت أمي تحت أبي بكر، وكان جرو لي تحت سريره فقلت له: يا أبت، وكلبي أيضاً؟ فقال: لا تقتلوا كلب ابني، ثم أشار بإصبعه إلى الكلب - أي خذوه من تحت السرير - وأنا لا أدري، فقتل.

وإسماعيل بن أمية قال: أمتان من الجن مُسَخَّتا، وهما الكلاب والحيئات. ابن المبارك قال: إذا عرف الرجلُ قدرَ نفسه صار عند نفسه أذلَّ من الكلب.

٢١١ - [لؤم الكلب]

قال صاحب الديك - وذَكَرَ الكلب فقال - : من لؤمه أنه إذا أَسْمَنَتْه أكلك^(٢)، وإن أجمعتَه أنكرك. ومن لؤمه اتباعه لمن أهانه، وإلفه لمن أجاعه؛ لأنه أجهل من أن يأنس بما يؤنس به وأشره وأنهم وأحرص وألج من أن يذهب بمطعمته ما يذهب بمطامع السباع.

ومن جهله أيضاً أنا لم نجدَه يحرس المحسنين إليه بنباحه، وأربابه الذين ربّوه وتبنّوه إلا كحراسته لمن عرفه ساعة واحدة، بل لمن أذله وأجاعه وأعطشه. بل ليس ذلك منه حراسة، وإنما هو فيه من فضل البذاء أو الفُحْش، وشدة التحرش والتسرّع. وقد قال الشاعر في ذلك: [من الرجز]
إذا تخازرتُ وما بي من خزرٍ ثم كسرت العين من غير عور^(٣)

(١) أخرجه البخاري في الزكاة، باب ٥٨، حديث ١٤١٨، ١٤١٩، ومسلم في الهبات برقم ١٦٢٠.

(٢) قيل في الأمثال: «سمن كلبك ياكلك». والمثل في مجمع الأمثال ١/٣٣٣، وفصل المقال ٤١٩، والفاخر ٧٠، والمستقصى ١٢١/٢.

(٣) الرجز لعمرو بن العاص؛ أو لارطاة بن سهية في التنبيه والإيضاح ٢/٢٠٥، واللسان والتاج (مرر)، وبلا نسبة في أساس البلاغة (قزح)، ومجالس ثعلب ٩، وأمالى القالي ١/٩٦، والأغاني ٢٠/٢٦٣.

أبذى إذا بُوذيت من كلبٍ ذكْرٍ أَسودَ قَرَّاحٍ يُعويُّ في السُّحْرِ
وإنَّما ذلك شكل من شكل الجبن، وكالذي يعتري نساء السفلة من الصخب.

٢١٢ - [جبن الكلب]

والكلب جبانٌ وفيه جراءة ولؤم. ولو كان شجاعاً وفيه بعض التهيب كان أمثل.
ومن فرط الجبن أنه يفرع من كل شيء وينبحه.

والبرذون ربُّما رَمَحَ البرذونَ مبتدئاً، وقلق وصهل صَهِيلاً في اختلاط، وليس ذلك من فضل قوَّة يجدها في نفسه على المرموح، ولكنَّه يكون جباناً، فإذا رأى البرذون الذي يظنُّ أنه يعجز عنه أراه الجبنُ أنه واقعٌ به، فعندها يقلقُ وإذا قلق رَمَحَ. وهذه العلَّة تعرض للمجنون؛ فإنَّ المجنون الذي تستولي عليه السُّوداء، ربما وثب على من لا يعرفه. وليس ذلك إلا لأنَّ المرَّة أوهمته أنه يريد بسوء، وأنَّ الرأي أن يبدأه بالضرب. وعلى مثل ذلك يرمي بنفسه في الماء والنار.

٢١٣ - [نفي اللحن عن النظام]

فأما الذي شهدت أنا من أبي إسحاق بن سيَّار النظام، فإنَّا خرجنا ليلةً في بعض طرقات الأبلَّة، وتقدَّمته شيباً، وألح عليه كلبٌ من شكل كلاب الرُّعاء، وكره أن يعدو فيغريه ويضريه^(١)، وأنف أيضاً من ذلك - وكان أنفاً شديد الشكيمة أباءً للهزيمة - وكره أن يجلس مخافة أن يشغره عليه أو لعله أن يعضه فيهرت ثوبه، وألح عليه فلم ينله بسوء. فلما جُرنا حدَّه وتخلَّصنا منه، قال إبراهيم في كلامٍ له كثير، يعدد خصاله المذمومة، فكان آخر كلامه أن قال: إن كنت سبَّع فاذهب مع السباع، وعليك بالبراري والغياض، وإن كنت بهيمة فاسكت عنَّا سكوت البهائم!

ولا تنكر قولِي وحياتي عنه بقولٍ ملحون. من قولِي: «إن كنت سبَّع» ولم أقل «إن كنت سبعا»!

٢١٤ - [الإعراب واللحن]

وأنا أقول: إن الإعراب يفسد نوادر المولدين، كما أن اللحن يُفسد كلام الأعراب^(٢)؛ لأنَّ سامع ذلك الكلام إنَّما أعجبته تلك الصورة وذلك المخرج، وتلك

(١) يضره: يغيره.

(٢) انظر البيان ١/١٤٥-١٤٦.

اللغة وتلك العادة؛ فإذا دَخَلت على هذا الأمر - الذي إنما أضحك بسُخْفه وبعض كلام العجمية التي فيه - حروف الإعراب والتحقيق والتثقيب وحولته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء، وأهل المروءة والنجابة انقلب المعنى مع انقلاب نظمه، وتبدلت صورته.

٢١٤ - [عود إلى الحديث عن الكلب]

ثم قال أبو إسحاق: إن أظعمه اللصُّ بالنهار كسرة خُبزٍ خلاه، ودارَ حوله ليلاً. فهو في هذا الوجه مرتشٍ وأكلٌ سُحت^(١)؛ وهو مع ذلك أسمعُ الخلقِ صوتاً، وأحمق الخلقِ يقظةً ونوماً، وينام النهار كله على نفس الجادة، وعلى مدق الحوافر، وفي كل سوقٍ وملتقى طريق، وعلى سبيل الحمولة وقد سهر الليل كله بالصياح والصخب، والنصب والتعب، والغیظ والغضب، وبالمجيء والذهاب، فيركبه من حب النوم على حسب حاجته إليه، فإن وطئته دابةً فأسوأ الخلقِ جزعاً وألامه لوماً، وأكثره نباحاً وعواءً، فإن سلم ولم تطأه دابةٌ ولا وطئه إنسان، فليست تتم له السلامة؛ لأنه في حال متوقع للبلية. ومتوقع البلية في بلية. فإن لم يسلم فليس على ظهرها مبتلى أسوأ حالاً منه؛ لأنه أسوأهم جزعاً، وأقلهم صبراً، ولأنه الجاني ذلك على نفسه، وقد كانت الطرق الخالية له معرضة، وأصول الحيطان مباحة.

وبعد فإن كلَّ خلقٍ فارق أخلاق الناس فإنه مذموم. والناس ينامون بالليل الذي جعله الله تعالى سكناً، وينتشرون بالنهار الذي جعله الله تعالى لحاجات الناس مسرّحاً.

قال صاحب الكلب: لو شئنا أن نقول: إن سهره بالليل ونومه بالنهار خصلةٌ ملوكيةٌ لقلنا، ولو كان خلاف ذلك ألدّ لكانت الملوك بذلك أولى. وأما الذي أشرتُم به من النوم في الطرق الخالية، وعبتموه به من نومه على شوارع الطرق والسكك العامرة وفي الأسواق الجامعة، فكلُّ امرئٍ أعلم بشأنه. ولولا أن الكلب يعلم ما يلقي من الأحداث والسفهاء وصبيان الكتاب، من رضٍ عظامه بالواهم إذا وجدوه نائماً في طريق خالٍ ليس بحضرته رجالٌ يهابون، ومشیخة يرحمون ويزجرون السفهاء، وأن ذلك لا يعتريه في مجامع الأسواق - لقلّ خلافه عليك، ولما رقد في الأسواق. وعلى أن هذا الخلق إنما يعتري كلاب الحُرّاس، وهي التي في الأسواق ماواها ومنازلها.

(٢) السحت: المال الحرام.

وبعد فمن أخطأ وأظلم ممن يكلف السباع أخلاقَ الناس وعادات البهائم!!
وقد علمنا أن سباع الأرض عن آخرها إنما تهيج وتسرح وتلتمس المعيشة وتتلاقى
على السفاد والعظام ليلاً؛ لأنها تبصر بالليل.

٢١٥ - [سبب اختيار الليل للنوم]

وإنما نام الناس بالليل عن حوائجهم، لأن التمييز والتفصيل والتبيين لا يمكنهم
إلا نهاراً، وليس للمتعب المتحرك بد من سكون يكون جَمَاماً له. ولولا صرفهم
التماس الجَمَام إلى الوقت الذي لو لم يناموا فيه والوقت مانع من التمييز والتبيين،
لكانت الطبائع تنتقض. فجعلوا النوم بالليل لضربين: أحدهما لأن الليل إذ كان من
طبعه البرد والرُكود والخُثورة، كان ذلك أنزع إلى النوم وما دعا إليه، لأنه من شكله.
وأما الوجه الآخر فلأن الليل موحش مخوف الجوانب من الهوام والسباع، ولأن الأشياء
المبتاعة والحاجات إلى تمييز الدنانير، والدراهم، والحبوب، والبزور، والجواهر،
وأخلاق العطر، والبربهار^(١) وما لا يحصى عدده، فقادتهم طبائعهم وساقتهم غرائزهم
إلى وضع النوم في موضعه، والانتشار والتصرف في موضعه على ما قدر الله تعالى من
ذلك وأحبه. وأما السباع فإنها تتصرف وتبصر بالليل، ولها أيضاً علل أخرى يطول
ذكرها.

٢١٦ - [نوم الملوك]

وأما ما ذكرتموه من نوم الملوك بالنهار وسهرهم بالليل، فإن الملوك لم تجهلوا
فضل النوم بالليل والحركة بالنهار، ولكن الملوك لكثرة أشغالها فضلت حوائجها عن
مقدار النهار ولم يتسع لها، فلما استعانت بالليل ولم يكن لها بد من الخلوة بالتدبير
المكتوم والسر المخزون، وجمعت المقدار الفاضل عن اتساع النهار إلى المقدار
الذي لا بد للخلوة بالأسرار منه؛ أخذت من الليل صدراً صالحاً. فلما طال ذلك عليها
أعانها المران، وخف ذلك عليها بالدربة.

وناس منهم ذهبوا إلى تناول من الشراب وإلى أن سماع الصوت الحسن مما
يزيد في المنة^(٢)، ويكون مادة للقوة. وعلموا أن العوام إذا كانت لا تتناول الشراب

(١) البربهار: أدوية من الحشيش تجلب من الهند.

(٢) المنة: القوة.

ولا تتكَلَّف السماع على هذا المعنى، أن ظنَّها سيَّسوءُ، وقولها سيكثُرُ؛ فَرَأوا أنَّ الليل
أستُرُّ وأجدرُ أن يتمَّ به التدبير، وقال الراجز: [من الراجز]

* اللَّيْلُ أَخْفَى وَالنَّهَارُ أَفْضَحُ * (١)

وقالوا في المثل: «اللَّيْلُ أَخْفَى لِلَّيْلِ» (٢).

٢١٧ - [تلهي المحزون بالسماع]

وما زالت ملوك العجم تلهي المحزون بالسماع، وتعلل المريض، وتشغله عن
التفكير، حتَّى أخذت ذلك ملوك العرب عن ملوك العجم. ولذلك قال ابن عسلة
الشييباني: [من الكامل]

وسماع مُدجِنَةٌ تَعَلَّلْنَا حَتَّى نَنَامَ نَنَامَ تَنَاوَمَ الْعُجْمِ (٣)

فصحوت والنمريُّ يحسبُها عَمَّ السَّمَاكِ وَخَالَةَ النُّجْمِ

النجم: واحد وجمع، وإنما يعني في البيت الثرياً. ومدجنة: يعني سحابة
دائمة.

٢١٨ - [قول أم تابط شراً في ولدها]

وفيما يحكى عن امرأة من عقلاء نساء العرب - وإذا كان نساء العرب في
الجملة أعقل من رجال العجم، فما ظنك بالمرأة منهم إذا كانت مقدمة فيهم - فرووا
جميعاً أن أم تابط شراً قالت: «والله ما وكلدته يتناً، ولا سقيته غيلاً ولا أبته على
مأقة» (٤).

فأما اليتن فخروج رجل المولود قبل رأسه، وذلك علامة سوء، ودليل على
الفساد. وأما سقي الغيل، فارتضاع لبن الحبل، وذلك فساداً شديداً.

(١) الراجز بلا نسبة في البيان ١/١٥١، وقبله: «إنك يا ابن جعفر لا تفلح». وانظر مجمع الامثال
١/٢٥٥، والمستقصى ١/٣٤٣.

(٢) مجمع الامثال ٢/١٩٣، وجمهرة الامثال ٢/١٨١، والمستقصى ١/٣٤٣، وفصل المقال ٦٥،
٦٦.

(٣) البيتان في المفضليات ٢٧٩، والبيان ١/٢٢٩، ونوادير المخطوطات ١/٩٤.

(٤) ورد قولها في العقد الفريد ٦/١١٨، وإصلاح المنطق ١١، ونسب إلى فاطمة بنت خرشب في
مجمع الامثال ٢/٣٥٠، والاغاني ١٧/١٨٠.

٢١٩ - [ما ينبغي للأمم في سياسة رضيعها حين بكائه]

وأما قولها في المأفة، فإنَّ الصبيَّ يبكي بكاءً شديداً متعباً موجعاً، فإذا كانت الأمُّ جاهلةً حرَّكته في المهد حركةً تورثه الدُّوار، أو نوَّمتَه بأنَّ تضربَ يدها على جنبه. ومتى نام الصبيُّ وتلك الفرعةُ أو اللُّوعةُ أو المكروه قائمٌ في جوفه، ولم يعللُ ببعض ما يلهيه ويضحكه ويسرُّه، حتى يكون نومه على سرور، فيسرِّي فيه ويعملُ في طباعه، ولا يكون نومه على فرعٍ أو غيظٍ أو غمٍّ؛ فإنَّ ذلك ممَّا يعملُ في الفساد. والأمُّ الجاهلةُ والمرقصةُ الخرقاء، إذا لم تعرف فرقاً ما بين هاتين الحالتين، كثر منها ذلك الفساد، وتراذف، وأعان الثاني الأوَّل والثالث الثاني حتى يخرج الصبيُّ مائثاً. وفي المثل: «صاحبي متق وأنا تقق»^(١)، يضرب هذا المثل للمسافر الأحق الرقيق والزميل، وقد استفرغه الضُّجر لطول السفر فقلبه ملآن، فأوَّل شيءٍ يكون في ذلك المتق من المكروه لم يحتمله بل يفيض ضجره عليه، لامتلأته من طول ما قاسى من مكروه السفر.

٢٢٠ - [القول في الصوت]

فاحتاج حذاقُ الملوك وأصحابُ العنايات التامة، أن يداووا أنفسهم بالسماع الحسن، ويشدُّوا من متهم بالشراب، الذي إذا وقع في الجوف حرَّك الدَّم، وإذا حرَّك الدَّم حرَّك طباعَ السرور، ثمَّ لا يزالُ زائداً في مكيال الدم، زائداً في الحركة المولدة للسرور. هذه صفةُ الملوك. وعليه بنوا أمرهم، جهل ذلك من جهله، وعلمه من علمه.

وقال صاحب الكلب: أمَّا تركُّه الاعتراضَ على اللصِّ الذي أطعمه أياماً وأحسنَ إليه مراراً، فإنَّما وجب عليه حفظُ أهله لإحسانهم إليه، وتعاهدهم له. فإذا كان عهده ببيِّر اللصِّ أحدث من عهده ببيِّر أهله، لم يكلف الكلبُ النظرَ في العواقب، وموازنة الأمور. والذي أضمر اللصُّ من البيات غيبٌ قد ستر عنه؛ وهو لا يدري أجراء لياخذ أم جاء ليعطي، أو هم أمره أو هو المتكلف لذلك؛ ولعلَّ أهله أيضاً أن يكونوا قد استحقُّوا ذلك منه بالضرب والإجاعة، وبالسبِّ والإهانة.

وأما سماجة الصُّوت فالبغلُ أسمعُ صوتاً منه، كذلك الطاووس على أنَّهم يتشاءمون به. وليس الصُّوت الحسنُ إلا لأصناف الحمام من القماريِّ والدبَّاسيِّ،

(١) البخلء ٢٠٧.

وأصناف الشفانين والوراشين. فأمّا الأسد والذئب؛ وابن آوى والخنزير، وجميع الطير والسياب والبهائم فكذلك. وإنّما لك أن تدمّ الكلب في الشيء الذي لا يعم. والناس يقولون: ليس في الناس شيء أقلّ من ثلاثة أصناف: البيان الحسن، والصوت الحسن، والصورة الحسنة؛ ثمّ الناس بعد مختلطون ممتزجون. وربّما كان من الناس بل كثيراً ما تجده وصوته أقبح من صوت الكلب، فلم تخصّص الكلب بشيء عامّة الخلق فيه أسوأ حالاً من الكلب؟!

وأما عواؤه من وطء الدابة وسوء جزعه من ضرب الصبيان، فجزع الفرس من وقع عذبة السوط، أسوأ من جزعه من وقع حافر بردون. وهو في هذا الموضع للفرس أشدّ مناسبة منه للحمار.

على أنّ الديك لا يُذكر بصبرٍ ولا جزع.

٢٢١ - [نوادير ديسيموس اليوناني]

قال صاحب الديك: حدثني العُتبي قال: كان في اليونانيين ممرور له نوادرٌ عجيبة، وكان يسمّى ديسيموس^(١)، قال: والحكماء يروون له أكثر من ثمانين نادرة ما منها إلا وهي غرّة؛ وعين من عُيون النوادر: فمنها أنّه كان كلّما خرج من بيته مع الفجر إلى شاطئ الفرات للغائط والطهور، ألقي في أصل باب داره وفي دُورته حجراً، كي لا ينصفق الباب، فيحتاج إلى معالجة فتحه، وإلى دفعه كلّما رجع من حاجته، فكان كلّما رجع لم يجد الحجر في موضعه، ووجد الباب منصفقاً. فكمن له في بعض الأيام ليرى هذا الذي يصنع ما يصنع. فبينما هو في انتظاره إذ أقبل رجلٌ حتّى تناول الحجر، فلماً نحاه عن مكانه انصفق الباب، فقال له: ما لك ولهذا الحجر؟ وما لك تأخذه؟ فقال لم أعلم أنّه لك. قال: فقد علمت أنّه ليس لك!

قال: وقال بعضهم: ما بال ديسيموس يعلم الناس الشّعراً ولا يقول الشعر؟ قال: ديسيموس كالمسنّ الذي يشحد ولا يقطع.

ورآه رجلٌ يأكل في السُّوق فقال: أتناكل في السوق؟ فقال: إذا جاع ديسيموس في السُّوق أكل من السوق.

قال: وأسمعه رجلٌ كلاماً غليظاً وسطاً عليه، وفحش في القول، وتحلّم عنه فلم يجبه، فقيل له: ما منعك من مكافاته وهو لك مُعرض؟ قال: رأيت لو رمحك حماراً

(١) انظر البخلاء ١٨٨، ٣٩٤.

أكنت ترمحُه؟ قال: لا. قال: فإن ينبح عليك كلب تنبح عليه؟ قال: لا، قال: فإن السفيه إما أن يكون حماراً، وإما أن يكون كلباً؛ لأنه لا يخلو من شرارة تكون فيه أو جهل، وما أكثر ما يجتمعان فيه.

٢٢٢ - [أمثال أخرى في الكلب]

وقال صاحب الديك: يقال للسفيه إنما هو كلب، وإنما أنت كلبٌ نباح، وما زال ينبح علينا منذُ اليوم، وكلبٌ من هذا؟ ويا كلب ابن الكلب، وأخساً كلباً.

وقالوا في المثل: «احتاج إلى الصوف من جز كلبه»^(١)، و «أجع كلبك يتبعك»^(٢)، و «أحب شيء إلى الكلب خانقه»^(٣)، و «سمن كلبك ياكلك»^(٤)، و «أجوع من كلبة حومل»^(٥)، و «كالكلب يبيض في الآري فلا هو يأكل ولا يدع الدابة تعتلف».

٢٢٣ - [براقش]

وفي أمثالهم في الشؤم: «على أهلها دلت براقش»^(٦).

وبراقش: كلبة نبحت على جيش مروا في جوف الليل وهم لا يشعرون بموضع الحي، فاستدلوا عليهم بنباح الكلبة فاستباحوهم.

٢٢٤ - [الجن والحن]

وقال صاحب الديك: روى إسماعيل المكي عن أبي عطاء العطاردي قال: سمعت ابن عباس يقول: السود من الكلاب الجن، والبقع منها الحن. ويقال إن الحن ضعفة الجن، كما أن الجنى إذا كفر وظلم وتعدى وأفسد، قيل شيطان؛ وإن قوي على البنيان والحمل الثقيل، وعلى استراق السمع قيل مارد، فإن زاد فهو عفريت، فإن زاد فهو عبقرى. كما أن الرجل إذا قاتل في الحرب وأقدم ولم يحجم فهو الشجاع،

(١) مجمع الأمثال ١/٢٣٠.

(٢) مجمع الأمثال ١/١٦٥، وجمهرة الأمثال ١/١١١، والمستقصى ١/٥٠، وفصل المقال ٤٨٩.

(٣) مجمع الأمثال ١/٢٠١، والمستقصى ١/٩٥.

(٤) مجمع الأمثال ١/٣٣٣، وجمهرة الأمثال ١/٥٢٥، والمستقصى ٢/١٢١، وفصل المقال ٤١٩.

(٥) مجمع الأمثال ١/١٨٦، وجمهرة الأمثال ١/٢٩٨، ٣٣١، والمستقصى ١/٥٧، وفصل المقال

٤٩٦.

(٦) مجمع الأمثال ٢/١٤، وجمهرة الأمثال ٢/٣٢، ٥٢.

فإن زاد فهو البطل، فإن زاد قالوا: بهمة، فإن زاد قالوا: أليس. فهذا قول أبي عبيدة.
 وبعض الناس يزعم أن الحنّ والجنّ صنفاً مختلفان، وذهبوا إلى قول الأعرابي
 حين أتى بعض الملوك ليكتتب في الزمّنى، فقال في ذلك: [من الرجز]
 إن تكتبوا الزمّنى فإنني لزمّن
 من ظاهر الداء وداءٍ مُستكنّ^(١)
 أبيت أهوي في شياطين تُرنّ
 مختلف نجارهم حين وجنّ

٢٢٥ - [ما ورد من الحديث والخبر في الكلاب]

[١ - قتل الكلاب]

وعن أبي عنبسة عن أبي الزبير عن جابر: قال: أمرنا رسول الله ﷺ بقتل الكلاب، حتى أن المرأة لتقدم بكلبها من البادية فنقتله، ثم نهانا عن قتلها وقال: «عليكم بالأسود البهيم ذي النكتتين على عينيه؛ فإنه شيطان».

وعن أبي الزبير عن جابر قال: أمرنا رسول الله ﷺ بقتل الكلاب، فكنا نقتلها كلها حتى قال: «إنها أمة من الأمم؛ فاقتلوا البهيم الأسود ذا النكتتين على عينيه؛ فإنه شيطان».

وعبد الله وأبو بكر ابنا نافع عن ابن عمر، ونافع عن أبي رافع قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقتل الكلاب، فكُنّا نقتلها؛ فانتهيت إلى ظاهر بني عامر، وإذا عجوز مسكينة معها كلب وليس قربها إنسان فقالت: ارجع إلى النبي ﷺ فأخبره أن هذا الكلب يؤنسني، وليس قربي أحد. فرجع إليه فأخبره، فأمر أن يقتل كلبها فقتله. وقال في حديث آخر: إنه لما فرغ من قتل كلاب المدينة وقتل كلب المرأة قال: الآن استرحت. قالوا: فقد صحّ الخبر عن قتل جميع الكلاب، ثم صحّ الخبر بنسخ بعضه وقتل الأسود البهيم منها، مع الخبر بأنها من الجنّ والحنّ، وأنّ أمتين مُسختا، وهما الحيات والكلاب.

ثم روى الأشعث عن الحسن قال: ما خطب عثمانُ خطبةً إلا أمر بقتل الكلاب وذبح الحمام.

وعن الحسن قال: سمعت عثمان بن عفان يقول: اقتلوا الكلاب واذبحوا الحمام.
 قال: وقال عطاء: في قتل كلب الصيد إذا كان صائداً أربعون درهماً، وفي كلب الزرع شاة.

(١) الرجز للمهاضر بن المحل في اللسان والتاج (دفن).

[٢ - دية الكلب]

والحسن بن عمارة عن يعلى بن عطاء عن إسماعيل بن حسان عن عبد الله بن عمر قال: قضى رسول الله ﷺ في كلب الصيد بأربعين درهماً، وفي كلب الغنم بشاة، وفي كلب الزرع بفرق من طعام، وفي كلب الدار بفرق من تراب، حق على القاتل أن يؤدّيه، وحق على صاحب الدار أن يقبضه.

قالوا: والتراب لا يكون عقلاً إذا كان في مقدار الفرق.

وفي قوله: وحق على صاحب الدار أن يقبضه، دليل على أنه عقوبة على اتخاذه وأن ذلك على التصغير لأمر الكلب وتحقيره، وعلى وجه الإرغام لمالكه. ولو كان عوضاً أو ثواباً، أو كان في طريق الأموال المحروص عليها، لما أكره على قبضه أحد، ولكان العفو أفضل.

[٣ - شأن الكلاب]

قال: وسئل عن الكلب يكون في الدار وفي الدار من هو له كاره.

ابن أبي عروبة عن قتادة عن أبي الحكم: أن ابن عمر سئل عن ذلك فقال: لمأثم على رب الدار الذي يملكها.

وعن ابن عمر قال: من اتخذ كلباً ليس بكلب زرع ولا ضرع ولا صيد نقص من أجره كل يوم قيراط. فقال رجل: فإن اتخذه رجلاً وهو كاره؟ قال: إنما إثمه على صاحب الدار.

وصدقة بن طيسلة المازني قال: سألت الحسن قلت: إن دورنا في الجبان وهي معورة وليس عليها أبواب، أفترى أن نتخذ فيها كلاباً؟ قال: لا لا.

وعن ابن أبي أنيسة عن سالم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتنى كلباً إلا كلب صيد أو كلب ماشية، نقص من أجره كل يوم قيراطان».

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «من اقتنى كلباً فإنه ينقص من عمله كل يوم قيراط».

ويونس عن أبيه عن إسحاق قال: حدثنا هنيذة بن خالد الخزاعي قال: انطلقت مع نفر من أصحاب النبي ﷺ، نعود رجلاً من الأنصار، فلما انتهوا إلى باب الدار ثارت أكلب في وجوه القوم، فقال بعضهم لبعض: ما يبقي هؤلاء من عمل فلان شيئاً، كل كلب منها ينقص قيراطاً في كل يوم.

هشام بن حسان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « من اتخذ كلباً ليس بكلب صيدٍ ولا زرعٍ ولا ضرعٍ، فإنه ينقص من أجره كل يوم قيراطٌ، والقيراطُ مثلُ جبلِ أحدٍ ».

يونس عن أبي إسحاق عن مجاهد قال: أقبل عبد الله بن عمرو بن العاص حتى نزل ناحية مكة، وكانت امرأة عم له تهاديه، فلما كانت ذات يوم قالت له: لو أرسلت إلي الغنم فاستأنست برعائها وكلابها فقد نزلت قاصية! فقال: لولا كلابها لفعلت؛ إن الملائكة لا تدخل داراً فيها كلب.

الثوري عن سماك بن حرب، أن ابن عباس قال على منبر البصرة: إن الكلاب من الحن وإن الحن من ضعف الجن، فإذا غشيكم منها شيء فلقوا إليها شيئاً أو اطرده، فإن لها أنفُسَ سوء.

وهشيم عن المغيرة عن إبراهيم قالوا: لم يكونوا ينهوننا عن شيء من اللعب ونحن غلمان إلا الكلاب.

قال صاحب الديك: روى إبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي، عن محمد بن المنكدر، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال: تقامر رجلان على عهد عمر بديكين، فأمر عمر بالديكة أن تقتل فاتاه رجل من الأنصار فقال: أمرت بقتل أمة من الأمم تسبح الله تعالى؟! فأمر بتركها.

وعن قتادة أن أبا موسى قال: لا تتخذوا الدجاج في الدور فتكونوا أهل قرية، وقد سمعتم ما قال الله تعالى في أهل القرى: ﴿ أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ (١).

وهذا عندي من أبي موسى ليس على ما يظنه الناس، لأن تأويله هذا ليس على وجه، ولكنه كره للفرسان ورجال الحرب اتخاذ ما يتخذ الفلاح وأصحاب التعيش، مع حاجته يومئذ إلى تفرغهم لحروب العجم، وأخذهم في تأهب الفرسان وفي دربة رجال الحرب. فإن كان ذهب إلى الذي يظهر في اللفظ فهذا تأويل مرغوب عنه.

وقال صاحب الكلب لصاحب الديك: فقد أمر عمر بقتل الديكة ولم يستثن منها شيئاً دون شيء، ونهى أبو موسى عن اتخاذ الدجاج ولم يستثن منها شيئاً دون شيء، والديكة تدخل في هذا الاسم، واسم الدجاج يجمعها جميعاً. ورويتم في قتل الحمام مثل روايتكم في قتل الكلاب، ولم أركم رويتم أن الحمام مسخ، ولا أن بعضه من الجن وبعضه من الحن، ولا أن أمتين مسختا وكان أحدهما الحمام.

(١) ٩٧: الأعراف/٧.

وزعمتم أن عمر إنما أمر بقتل الديكة حين كره الهراش بها والقمار بها. فلعل كلاب المدينة في تلك الأيام كثر فيها العقور وأكثر أهلها من الهراش بها والقمار فيها. وقد علمتم أن ولاية المدينة ربما دَمروا على صاحب الحمام إذا خيف قبله القمار وظنوا أنه الشرف^(١). وذكروا عنه الرمي بالبندق وخديعة أولادهم بالفراخ. فما بالكم لم تُخرجوا للكلاب من التأويل والعذر، مثل الذي خرّجتم للحمام والديكة.

٢٢٦ - [المسخ من الحيوان]

ورويتم في الجري^(٢) والضباب أنهما كانتا أمتين مُسختا. وروي بعضهم في الإربانة أنها كانت خيطة تسرق السلوك، وأنها مُسخت وترك عليها بعض خيوطها لتكون علامة لها ودليلاً على جنس سرقتها. ورويتم في الفأرة أنها كانت طحانة^(٣)، وفي سهيل أنه كان عشّاراً باليمن^(٤) وفي الحية أنها كانت في صورة جمل، وأن الله تعالى عاقبها حتى لاطها بالأرض، وقسم عقابها على عشرة أقسام، حين احتملت دخول إبليس في جوفها حتى وسوس إلى آدم من فيها. وقلتم في الوزغة وفي الحكاة^(٥) ما قلتم. وزعمتم أن الإبل خلقت من أعنان الشياطين^(٦)، وتأولتم في ذلك أقبح التأويل. وزعمتم أن الكلاب أمة من الجن مُسخت. والذئب أحق بأن يكون شيطاناً من الكلب، لأنه وحشي وصاحب قفار، وبه يُضرب المثل في التعدي، والكلب ألوف وصاحب ديار، وبه يُضرب المثل. والذئب خثور غدار، والكلب وفي مناصح. وقد أقام الناس في الديار الكلاب مقام السنانير للفأر. والذئب مضرة كلّه، والكلب منافع فاضلة على مضاره، بل هي غالبية عليها وغامرة لها، وهذه صفة جميع هذه الأشياء النافعة.

والناس لم يطبقوا على اتخاذها عبثاً ولا جهلاً، والقضاة والفقهاء والعباد والولاة والنسك، الذين يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر، والمحتسبة وأصحاب التكلف والتسليم جميعاً، لم يطبقوا على ترك النكير على ما يشاهدونه منها في دور من لا يعصيه ولا يمتنع عليهم إلا وقد علموا أنه قد كان لقتل الكلاب بأعيانها في

(١) الشرف: الإشفاء على خطر من خير أو شر. (اللسان: شرف).

(٢) الجري: ضرب من السمك.

(٣) ورد القول في ربيع الأبرار ٥ / ٤٧١.

(٤) العشار: الذي يأخذ العشر.

(٥) الحكاة: عطاء مخططة بخمسة خطوط سود.

(٦) في النهاية ٣ / ٣١٣ (لا تصلوا في أعطان الإبل لأنها خلقت من أعنان الشياطين)، الأعنان النواحي، كانه قال: إنها لكثرة آفاتها كأنها من نواحي الشياطين في أخلاقها وطبائعها.

ذلك الدهر، معنى. وإلا فالتَّاسُ في جميع أقطار الأرض لا يُجمعون على مسالمة أصحاب المعاصي، الذين قد خلعوا عُدْرَهُمْ وأبرزوا صَفْحَتَهُمْ. بل ما ترى خصماً يظعن على شاهد عند قاضٍ بأن في داره كلباً، ولا ترى حكماً يردُّ بذلك شهادة. بل لو كان اتَّخَذَ الكلابَ مأموراً به، كما كان إلا كذلك.

ولو أنكم حملتم حكم جميع الهداهد على حكم هدهد سليمان^(١)، وجميع الغريان على حكم غراب نوح^(٢)، وجميع الحمام على حكم حمامة السفينة^(٣)، وجميع الذئب على حكم ذئب أهبان بن أوس، وجميع الحمير على حكم حمار عَزِير^(٤) - لكان ذلك حكماً مردوداً.

٢٢٧ - [أمور حدثت في دهر الأنبياء]

وقد نعرض لخصائص الأمور أسباباً في دهر الأنبياء ونزول الوحي، لا يعرض مثلها في غير زمانهم^(٥): قد كان جبريل عليه السلام يمشي في الأرض على صورة دحية الكلبي، وكان إبليس يتراءى في السُّكَّ في صورة سُرَّاقَة المُدْلِجِي، وظهر في صورة الشيخ النَّجْدِي. ومثل هذا كثير.

٢٢٨ - [ما يسمى شيطانياً وليس به]

فإن زعمتم أن النبي ﷺ نظرَ إلى رجلٍ يتبع حماماً طياراً فقال: «شيطانٌ يتبع شيطانياً»، فخبرونا عن يتخذ الحمام من بين جميع سكان الآفاق ونازلة البلدان من الحرميين والبصريين ومن بني هاشم إلى من دونهم، أتزعمون أنهم شياطينٌ على الحقيقة، وأنهم من نجل الشياطين؛ أو تزعمون أنهم كانوا إنساً فمُسَّخُوا بعدُ جنّاً؛ أم يكون قوله لذلك الرجل شيطان، على مثل قوله ﴿شَيَاطِينُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ وعلى قول عمر: لأنزَعَنَّ شيطانه من نُعْرَتِهِ^(٦)، وعلى قول منظور بن رواحة: [من الطويل]

فلما أتاني ما تقولُ تَرَقَّصْتُ شياطينَ رأسي وانتشيتُ من الخمرِ^(٧)

-
- (١) في ثمار القلوب (٧٠٦): هدهد سليمان: يضرب مثلاً للإنسان الحقير يُدَلُّ على الملك الخطير.
 - (٢) في ثمار القلوب (١٠٠): غراب نوح: يضرب مثلاً للرسول الذي لا يعود.
 - (٣) في ثمار القلوب (٦٧٨): ويقال لها أيضاً: حمامة السفينة.
 - (٤) في ثمار القلوب (١٢٨): حمار عَزِير: يضرب مثلاً للمنكوب الذي ينتعش.
 - (٥) الخبر في ثمار القلوب (١٣٨).
 - (٦) النهاية ٨٠/٥: أي حتى أزيل نخوته، وأخرج جهله من رأسه.
 - (٧) البيت في ثمار القلوب (١٤٩)، وحاشية معجم الشعراء ٢٨٢.

وقد قال مرّةً أبو الوجيه العُكّلي: «وكان ذلك حين ركبني شيطاني»^(١) قيل له: وأي الشياطين تعني؟ قال: الغضب.

والعرب تسمي كل حية شيطاناً. وأنشد الأصمعي: [من الطويل]
تلاعب مثنى حَضْرَمِيٍّ كأنه تعمج شيطانٍ بذي خِرْوَعٍ قَفْرٍ^(٢)

وقالت العرب: ما هو إلا شيطان الحماطة^(٤). ويقولون: «ما هو إلا شيطان»^(٣)
يريدون القبح؛ و«ما هو إلا شيطان»، يريدون الفطنة وشدة العارضة.

وروي عن بعض الأعراب في وقعة كانت: والله ما قتلنا إلا شيطاناً برصاً، لأن
الرجل الذي قاتلهم كان اسمه شيطان، وكان به برص.

وفي بني سعد بنو شيطان. قال طفيل الغنوي: [من الطويل]
* وشيطان إذ يدعوهم ويثوب *^(٥)

وقال ابن ميادة: [من الطويل]
فلما أتاني ما تقول محاربٌ تغنت شياطيني وجنّ جنونها^(٦)

وقال الراجز: [من الرجز]
إني وإن كنت حديث السنّ وكان في العين نبؤ عني^(٧)
فإن شيطاني كبير الجنّ

وقال أبو النجم: [من الرجز]
إني وكلّ شاعرٍ من البشّر شيطانه أنثى وشيطاني ذكراً^(٨)

(١) ورد قوله في أساس البلاغة (شطن).

(٢) البيت بلا نسبة في اللسان (حب، عمج، خرع، شطن، ثنى)، والتاج (حب، خرع، ثنى)،
والمقاييس ٢/٢٨، ٣/١٤٨، ٤/١٣٧، والمجمل ٢/٣٠، والمخصص ٧/١١٠، ٨/١٠٩،
وديوان الأدب ٢/٦٠، ٤٤٠.

(٣) المستقصى ٢/٢٠٢، ومجمع الأمثال ١/٣٦٢، وانظر ثمار القلوب (٦١٤، ٦٢٣).

(٤) مجمع الأمثال ١/٥٠.

(٥) صدر البيت: (وقد منت الحدواء منّا عليهم)، وهو في ديوان طفيل الغنوي ٤٩، واللسان (شيط،
شطن، خذا)، والتاج (شيط)، وبلا نسبة في التاج (خذا).

(٦) ديوان ابن ميادة ٢٣١، وأساس البلاغة (شطن)، وثمار القلوب (١٤٩).

(٧) الرجز لامية بن كعب في الوحشيات ١١٩، وبلا نسبة في الخصائص ١/٢١٧، وثمار القلوب ٥٦
(١٤٨).

(٨) ديوان أبي النجم ١٠٤ - ١٠٥، والأغاني ١٠/١٥٣، وثمار القلوب (١٤٨)، والحماسة البصرية
٨٠/١، ومحاضرات الأدباء ٢/٣٧٠.

وهذا كلُّه منهم على وجه المثل، وعلى قول منظور بن رَوَاحَةَ: [من الطويل]
 أتاني وأهلي بالدمَّاخِ فَعَمْرَةٌ مسبُّ عُويْفِ اللُّؤْمِ حَيٌّ بَنِي بَدْرِ (١)
 فلما أتاني ما يقولُ تَرَقَّصْتُ شياطينُ رَأْسِي وانتشَيْنَ من الخَمْرِ

٢٢٩ - [خرافات عن الجن]

[١] وقد رويتم عن عبد الله بن فايد بإسناد له يرفعه قال: خرافة رجل من بني عذرة استهوته الشياطين، فتحدّث رسول الله ﷺ يوماً بحديث فقالت امرأة من نسائه: هذا من حديث خُرافة قال: «لا وَخُرافة حقٌّ» (٢).

[٢] ورويتم أنّ شريك بن خُبَاسة دخلَ الجَنَّةَ وخرجَ منها ومعه ورقةٌ من وَرَقِها (٣)، وأنَّ عمر سأل الرجلَ المفقود الذي استهوته الجنُّ فقال: ما كان طعامهم؟ قال: الفول والرَّمَّة. وسأل عن شربهم فقال: الجَدَف (٤). وقال الأعشى: [من الطويل]

وإني وما كلّفتُموني وربُّكم لأعلمُ من أمسى أَعقُّ وأحوباً (٥)
 لكالثورِ والجنِّي يَضربُ ظَهْرَهُ وما ذنبه أن عَافَتِ الماءَ مَشْرَباً

[٣] وزعمتم أنّ الجنَّ خنقت حربَ بن أمية، وخنقت مرداسَ بن أبي عامر، وخنقت الغريض المغني، وأنها قتلت سعد بن عبادة، واستهوت عمرو بن عدي واستهوت عمارة بن الوليد، فأنتم أملياءُ بالخرافات (٦) أقوياءُ على ردِّ الصحيح وتصحيح السقيم، وردُّ تأويل الحديث المشهورِ إلى أهوائكم. وقد عارضناكم وقابلناكم وقارضناكم.

٢٣٠ - [فضل الكلاب]

وقالوا: في الحديث أن «من اقتنى كلباً ليسَ بكلِّب زرعٍ ولا ضرعٍ ولا قنص

(١) معجم الشعراء ٢٨٢، وثمار القلوب (١٤٩).

(٢) مسند أحمد ١٥٧/٦، وانظر الفاخر ١٦٨، والمستقصى ٣٦١/١، والنهاية ٢٥/٢، والاشتقاق ٤٢٨، ومجمع الأمثال ١٩٥/١.

(٣) ورد الخبر في المصدر السابق، ومعجم البلدان ٣٨٦/٤ (القلت).

(٤) ورد الخبر في النهاية ٢٤٧/١، وفيه: الجَدَف بالتحريك: نبات يكون باليمن لا يحتاج آكله معه إلى شرب ماء، وقيل: هو كل ما لا يغطى من الشراب وغيره.

(٥) ديوان الأعشى ١٦٥.

(٦) انظر مروج الذهب ٢/٢٩٧ (الباب الخمسون في ذكر قول العرب في الهواتف والجان).

فقد أثم». فها توار شيئاً من جميع الحيوان يصلح للزرع والضرع والقنص. وبعد فهل اتخذوا كلب الضرع إلا ليحرس الماشية وأولادها من السباع؟ وهل عند الكلب عند طروق الأسد والنمر والذئب وجميع ما يقتات اللحمان من رؤساء السباع، إلا صياحه ونباحه وإنذاره ودلالته، وأن يشغلها بعض الشغل، ويهجهج بها بعض الههجة، إلى أن يلحق بها من يحميها، ويتوافى إليها من يذود عنها، إذ ليس في هذا القياس أنا متى وجدنا دهرأ تكثر فيه اللصوص ويفشو فيه السرّاق، وتظهر فيه النُّقوب، ويشيع فيه التسلُّق، ممَّن إذا أفضى إلى منزل القوم لم يرض إلا بالحريبة^(١) ليس دونها شيء، أو يأتي على الأنفس، وهو لا يصل إلى ما يريد حتى يمر على النساء مكشفات، ومَن عسى إذا أخذ المرأة أخذ يد الأ يرضى أن يتوعَّد بذبح الأولاد وأن يتقى بالمال، حتى يذبح، ومن عسى إن تمكَّن شيئاً أو أمن قليلاً، أن يركب الحرَم بالسوءة العظمى وبالتالي لا شوى لها. فهذا الحال أحق بالحراسة من تلك الأحوال.

وبعد فلم صار نساء الحرَمين يتزاورن ليلاً، ونساء المصرين يتزاورن نهاراً، ونساء الحرَمين لا يرين نهاراً، ونساء المصرين لا يُرين ليلاً؛ إلا للمكابرات ولمكان كثيرة من يستقفي ويتحوب للنقب والتسلُّق. وإذا كان الأمر كذلك فأي الأمور أحق بالتحصين والحياطة، وأيهما أشبه بالتغريب والإضاعة: اتخاذ الكلاب التي لا تنام عند نوم من قد دأب نهاره، أو ترك اتخاذها؟ ويقظة السُّراق على قدر المسروقين.

وعلى أنا لو حلنا بين حرس الأسواق وما تشتمل عليه من حرائب الناس، وبين اتخاذ الكلاب، لامتنعوا من ضمان الحراسة، ولا تمتنع كل محروس من إعطائهم تلك الأجرة، ولوجد اللصوص ذلك من أعظم الغنم وأجود القُرص. أو ما تعلمون أن هذا الحرِم، وهذه الحرمات وهذه العقائل من الأموال، أحق بالمنع والحراسة والدفع عنها بكل حيلة، من حفظ الغنم وحرِم الراعي وحرمة الأجير؟!!

وبعد فإن الذئب لا تجتمع على قطيع واحد، والذي يُخاف من الذئب السَّلَّة والخطفة، والاستلاب والاختلاس. والأموال التي في حوانيت التجار وفي منازل أهل اليسار يأتيها من العدد والعدة، ومن نُجب أصحاب النجدة، من يحتملها بحذافيرها، مع ثقل وزنها وعظم حجمها، ثم يجالدون دون ذلك بسيوف الهند وبالأذرع الطوال. وهم من بين جميع الخليقة لولا أنهم قد أحسوا من أنفسهم الجراءة وثبات العزيمة، بما ليس من غيرهم، لكانوا كغيرهم، ولولا أن قلوبهم أشد من قلوب الأسد لما

(١) الحريبة: المال الذي يسلب من الإنسان.

خَرَجُوا، عَلَى أَنْ جَمِيعَ الْخَلْقِ يَطَالِبُونَهُمْ، وَعَلَى أَنْ السُّلْطَانَ لَمْ يُؤَلِّ إِلَّا لِمَكَانِهِمْ.
وَالكَلَابَ لَمْ تُتَّخَذْ إِلَّا لِلْإِنْدَارِ بِهِمْ، وَعَلَى أَنَّهُمْ إِذَا أُخِذُوا مَاتُوا كِرَامًا.

ولعلَّ المدينةَ قد كانت في ذلك الدهر مأموناً عليها من أهل الفساد وكان أكثرُ
كلابها عَقُوراً، وأكثرُ فِتْيَانِهَا من بين مُهَارِشٍ أو مِقَامِرٍ. وَالكَلْبُ الْعَقُورُ وَالكَلْبُ
الْكَلْبُ أَشَدُّ مُضِرَّةً مِنَ الذئبِ الْمَأْمُورِ بِقَتْلِهِ.

وقد يعرض للكلاب الكلب والجنون لأمر: منها أن تَأْكَلَ لحوم الناس، ومنها
كالجنون الذي يعرض لسائر الحيوان.

٢٣١ - [قتل العامة للوزغ]

وَجُهَالُ النَّاسِ الْيَوْمَ يَقْتُلُونَ الْوَزْغَ، عَلَى أَنْ آبَاءَهَا وَأُمَّهَاتُهَا كَانَتْ تَنْفُخُ عَلَى نَارِ
إِبْرَاهِيمَ، وَتَنْقُلُ إِلَيْهَا الْحَطْبَ. فَحَسَبَ أَنْ آبَاءَهَا وَأُمَّهَاتُهَا قَدْ كُنَّ يَعْرِفْنَ فَضْلَ مَا بَيْنَ
النَّبِيِّ وَالْمُتَنَبِّئِي، وَأَنَّهُنَّ اعْتَقَدْنَ عِدَاوَةَ إِبْرَاهِيمَ، عَلَى تَقْصِيرٍ فِي أَصْلِ النَّظَرِ، أَوْ عَنِ
مَعَانِدَةٍ بَعْدَ الْإِسْتِبَانَةِ حَتَّى فَعَلْنَ ذَلِكَ - كَيْفَ جَازَ لَنَا أَنْ تَزِرَ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى؟! إِلَّا
أَنْ تَدْعُوا أَنْ هَذِهِ الَّتِي نَقْتُلُهَا هِيَ تِلْكَ الْجَاهِدَةُ لِلنَّبُوَّةِ، وَالْكَافِرَةُ بِالرَّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّهَا لَا
تَتَنَاقَحُ وَلَا تَتَوَالِدُ.

وقد يستقيم في بعض الأمر أن تقتل أكثر هذه الأجناس، إمّا من طريق المحنة
والتعبُد وإمّا إذ كان الله عزَّ وجلَّ قد قضى على جماعتها الموت، أن يجري ذلك
المجرى على أيدي الناس، كما أجرى موت جميع الناس على يد ملك واحد، وهو
ملك الموت.

وبعد فلعلَّ النبيَّ ﷺ قال هذا القول إن كان قاله، على الحكاية لأقاويل قوم.
ولعلَّ ذلك كان على معنى كان يومئذ معلوماً فترك النَّاسُ الْعِلَّةَ وَرَوُوا الْخَبَرَ سَالِمًا مِنْ
الْعِلَلِ، مَجْرَدًا غَيْرَ مُضْمَنٍ.

ولعلَّ مَنْ سَمِعَ هَذَا الْحَدِيثَ شَهِدَ آخَرَ الْكَلَامِ وَلَمْ يَشْهَدْ أَوَّلَهُ، وَلَعَلَّهُ عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَصَدَ بِهَذَا الْكَلَامِ إِلَى نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ قَدْ كَانَ دَارَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ فِيهِ
شَيْءٌ. وَكُلُّ ذَلِكَ مُمْكِنٌ سَائِعٌ غَيْرَ مُسْتَنَكَّرٍ وَلَا مَدْفُوعٍ.

٢٣٢ - [قتل الفواسق]

وقد رويتم في الفواسق ما قد رويتم في الحية والحدأة والعقرب والفأرة

والغراب، ورويتهم في الكلب العقور، وكيف يُقتلَن في الحِلِّ والحرم. فإن كنتم فقهاءً فقد علمتم أن تسمية الغراب بالفسق، والفارق بالفويسقة؛ أن ذلك ليس من شكل تسمية الفاسق، ولا من شكل تسمية إبليس.

وقد قالوا: ما فجرها إلا فاجر، ولم يجعلوا الفاجر اسماً له لا يفارقه. وقد يقال للفاسق من الرجال: خبيث. وقد قال ﷺ: «من أكل من هذه الشجرة الخبيثة فلا يقربن مصلانا» وهو على غير قوله عز وجل ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾^(١). وقد قال بعض الرُّجَاز وذكر ذئباً: [من الرجز]

أما أتاكَ عني الحديثُ إذ أنا بالغايطِ أستغيثُ
والذئبُ وَسَطُ غَنَمِي يعيْتُ وصحْتُ بالغايطِ يا خبيثُ

وهذا الباب كثير، وليس هذا موضعه، وقد ذكرناه في كتاب الاسم والحكم.

وقد يشبه الاسم الاسم في صورة تقطيع الصوت، وفي الخط في القرطاس، وإن اختلفت أماكنه ودلائله. فإذا كان كذلك فإنما يعرف فضله بالمتكلمين به، وبالحالات والمقالات، وبالذين عنوا بالكلام. وهذه جملة، وتفسيرها يطول.

وقالوا: قد أمرنا بقتل الحية والعقرب، والذئب والأسد، على معنى ينتظم معنيين: أحدهما الامتحان والتعبد بفكر القلب وعمل الجارحة، لا على وجه الانتقام والعقوبة. وأمرنا بضرب الباغي بالسيف إذا كانت العصى لا تُغني فيه على جهة الدفع وعلى جهة العقاب، ولم نُؤمر بالقصد إلى قتله، وإنما الغاية في دفع بأسه عنا، فإن أتى إلى ذلك المقدار عليه، كان كسارق مات من قطع يده، وقاذف مات عن جلد ظهره. وقد أمرنا بالقصد إلى قتل الحيات والعقارب وإن لم تعرض لنا في ذلك الوقت؛ لأن جنسها الجنس المتلف متى هم بذلك. وليس لنا أن نضرب الباغي بالسيف إلا وهو مقبلٌ غير مدبر، ولنا أن نقتل الحية مقبلةً ومدبرة، كما يُقتل الكافر مقبلاً ومدبراً؛ إلا أن قتل الكافر يجمع الامتحان والعقوبة، وليس في قتل الحية إلا الامتحان. وقد كان يجوز أن تمتحن بحبسها والاحتياط لمنعها، دون قتلها. وإذا ولى الباغي من غير أن يكون يريد الرجوع إلى فئة، فحكمه الأسر والحبس أبداً إلى أن يؤنس منه النزوع. وسبيل الأحناس والسباع وذوات السموم من الهمج والحشرات، القتل مقبلةً ومدبرة. وقد أبيع لنا قتلُ ضروب من الحيوان عندما يبلغ من جنایاتها علينا الخدش، فضلاً من الجرح والقتل، كالبعوض والنمل، والبراغيث والقمل.

والبعيرُ قتلُهُ فسادٌ، فإنَّ صالَ على الناسِ كانَ قتلُهُ صلاحاً. والإنسانَ قتلُهُ حرامٌ،
فإنَّ خيفَ منه كانَ قتلُهُ حلالاً.

٢٣٣ - [طائفة من المسائل]

والحديث عن مسخ الضَّبِّ والجَرِيِّ، وعن مسخ الكلاب والحُكَاةِ وأنَّ الحمامَ
شيطان، من جنس المُرَّاح الذي كُنَّا كتبنا به إلى بعض إخواننا ممن يدَّعي علمَ كلِّ
شيءٍ، فجعلنا هذه الخرافاتِ وهذه الفطنَ الصغارَ، من باب المسائل.

فقلنا له: ما الشَّنَقَانُ والشَّيْصَبَانُ وتنكوير ودر كاذاب ومَن قاتل امرأة ابن
مقبل؟ ومن خانق الغَرِيضِ؟ ومن هاتف سعد؟ وخبرنا عن بني أقيش وعن بني لبنى،
ومَن زَوَّجُهَا؟ وعن بني غَزْوَانِ ومَن امرأته؟ وعن سملقة وزوبعة، والميدعان، وعن
النقار ذي الرقبة وعن آصف، ومن منهم أشار بأصفر سليم^(١)، وعن أطيقس اسم كلب
أصحاب الكهف^(٢)، وكيف صارت الكلابُ لا تنبح من سماء؟ وأين بلغ كتابُ
شَرطهم؟ وكيف حدَّثوا عن ابن عباسٍ في الفأر والقرد والخنزير والفيل والأرنب
والعنكبوت والجَرِيِّ، أنهنَّ كلهنَّ مسخ؛ وكيف خُصَّت هذه بالمسخ؟ وهل يحلُّ لنا
أن نُصدِّق بهذا الحديث عن ابن عباس؟ وكيف صارت الظباءُ ماشيةً الجنِّ؟ وكيف
صارت الغيلان تُغيِّر كلَّ شيءٍ إلَّا حوافرها؟ ولم ماتت من ضربةٍ وعاشت من
ضربتتين^(٣)؟ ولم صارت الأرنب والكلاب والنعامُ مراكبَ الغيلان؟ ولم صارت
الرواقيد مطايا السَّواحِر؟ وبأي شيءٍ زوَّجَ أهلُ السَّعْلاةِ ابنَ يربوع^(٤)؟ وما فرق ما بينه
وبين عبد الله بن هلال؟ وما فعلت الفتاة التي كانت سميت بصبر على يد حرمي
وأبي منصور؟ ولم غضِب من ذلك المذهب؟ ولم مضى على وجهه شفشف؟ وما
الفرق بين الغيلان والسَّعْالي، وبين شيطان الخضرَاء وشيطان الحَمَاطة؟ ولم عُلق
السَّمك المالح بأذنايه والطريَّ بأذانه، وما بالُ الفَراخِ تُحمَلُ بأجنحتها والفراريح

(١) أصفر سليم: كان سليم صيدلانياً بالبصرة، وقد عجن دواءً أصفر بكل ما شُرِب له، فكان يستشفى
به كل مبرود ومحرور، فسار مثلاً في البركة. ثمار القلوب ١١٩ (٢٦٤)، وانظر المعارف ٦١٤،
وطبقات ابن المعتز ٣١٠.

(٢) انظر قول الدميري في اسم كلب أصحاب الكهف، حياة الحيوان ٢/٢٦٢، والسيوطي في كتابه
مفحمت الاقران ص ١٣٧.

(٣) انظر حياة الحيوان ٢/١٣٠.

(٤) حياة الحيوان ١/٥٥٥.

بأرجلها؟ وما بال كل شيء أصل لسانه ممّا يلي الحلق وطرّفه ممّا يلي الهواء، إلّا لسان الفيل؟ ولم قالت الهند: لولا أنّ لسانه مقلوب لتكلّم^(١)؟ ولم صار كل ما ضغ واكل يُحرّك فكّه الأسفل، إلّا التماسيح فإنه يحرك فكّه الأعلى^(٢)؟ ولم صار لأجفان الإنسان الأشفار، وليس ذلك للدواب إلّا في الأجفان العالية؟ وما بال عين الجرادة وعين الأفعى لا تدوران؟ وما بيضة العُقر^(٣) وما بيضة الديك^(٤)؟ ولم امتنع بيض الأنوق؟ وهل يكون الأبلق العقوق؟ وما بال لسان سمك البحر عديماً؟ وما بال الغريق من الرجال يطفو على قفاه، ومن النساء على وجهه؟ ولم صار القتيل إذا قُتل يسقط على وجهه ثم يقلبه ذكره؛ وأين تذهب شقشقة البعير وغُرمول الحمار والبغل وكبد الكوسج بالنهار، ودّم الميت؟ ولم انتصب خلق الإنسان من بين سائر الحيوان؟ وخبرني عن الضفادع، لم صارت تنق بالليل وإذا أوقدت النار أمسكت؟.

وقالوا: قد غارضاكم بما يجري مجرى الفساد والخُرافة. لنردكم إلى الاحتجاج بالخبر الصحيح المخرج للظاهر.

فإن أعجبتك هذه المسائل، واستطرفت هذا المذهب، فاقرا رسالتي إلى أحمد ابن عبد الوهاب الكاتب، فهي مجموعة هناك.

٢٣٤ - [كثرة أصناف الكلاب]

والكلاب أصناف لا يحيط بها إلّا من أطال الكلام. وجملة ذلك أنّ ما كان منها للصيد فهي الضراء، وواحدة ضرورة، وهي الجوارح والكواسب، ونحن لا نعرفها إلّا السلوقية؛ وهي من أحرار الكلاب وعتاقها، والخلاسية هجنها ومقاريفها. وكلاب الرعاء من زينيها وكرديها فهي كرادتها.

(١) ربيع الأبرار ٥/٤٣٠.

(٢) ربيع الأبرار ٥/٤٣٩.

(٣) بيضة العقر: اختلفوا فيها؛ فمن قائل: إنها البيضة التي تستبرأ بها المرأة؛ أبكر هي أم تُيب. ومن قائل: إنها بيضة الديك ولا ثانية لها قط. ومن قائل: إنها آخر بيضة تكون للدجاجة، ولا بيضة لها بعدها. انظر ثمار القلوب (٧٢١)، ومجمع الأمثال ١/٩٦، وجمهرة الأمثال ١/٢٢٤، والمستقصى ٢/٢١١.

(٤) بيضة الديك: مثل يضرب في الشيء يكون مرة واحدة لا ثانية لها، والذي يعطي عطية لا يعود لمثلها. انظر ثمار القلوب (٧٢٠)، والمستقصى ٢/٢١١، وفصل المقال ٤٣٧، ومجمع الأمثال ٢/١٣١.

وقد تصيد الكلابُ غيرُ السُّلوقيَّة، ولكنَّها تقصِّرُ عن السُّلوقيَّة بعيداً. وسلوق من أرض اليمن كان لها حديدٌ جيِّد الطبع، كريم العنصر حرُّ الجوهر. وقد قال النابغة: [من الطويل]

تَقْدُ السُّلُوقِيَّ المِضَاعَفَ نَسْجُهُ وتوقد بالصُّفَّاحِ نارَ الحُبَّاحِ^(١)

وقال الأصمعي: سمعتُ بعضَ الملوك وهو يركض خلفَ كلبٍ وقد دنا خطمه من عَجَبِ ذنبِ الظبي وهو يقول: إيه فدتك نفسي!!
وأنشد لبعض الرجاز: [من الرجز]

* مفديّات وملعنات *

قال صاحب الديك: فلماً صار الكلبُ عندهم يجمع خصالَ اللؤم والنذالة، والحرصِ والشُّره، والبذاء والتسرُّعِ وأشباه ذلك، صاروا يشتقُّون من اسمه لمن هجوه بهذه الخصال. وقال بشرار: [من الكامل]

واستغْنِ بالوجِبَاتِ عن ذَهَبِ لم يبقَ قبلكَ لامرئٍ ذَهَبُهُ^(٢)
يردُّ الحريصُ على متالفه والليثُ يبعثُ حينه كَلْبُهُ

٢٣٥ - [ما اشتق من اسم الكلب]

قال صاحب الكلب: لَمَا اشتقُّوا من اسمه للأشياء المحمودة أكثر؛ قال عامر بن الطفيل: [من الكامل]

ومدججٌ يسعى بشِكَّتِه محمرةٌ عيناهُ كالكلبِ^(٣)

ومن ولد ربيعة بن نزار كلب بن ربيعة، وكلاب بن ربيعة، ومكالب بن ربيعة، ومكلبة بنو ربيعة بن نزار. وفيهم من السباع أسد، وضبيعة، وذئب، وذؤيب، وهم خمسة عشر رجلاً؛ ثمانية من جميع السباع، ومن الثمانية أربعة مشتقة من اسم

(١) ديوان النابغة الذبياني ٤٦. المضاعف: الذي نسج حلقتين حلقتين، الصفاح: حجارة عراض، الحباحب: دوية تضيء بالليل كالنار، وقيل: نار الحباحب هو أن تسيّر الإبل في الليل في الأرض ذات الحجارة، فنصكها بأخفافها، فيقرع بعضها بعضاً؛ فتندح منها النار.

(٢) ديوان بشرار ٢٥٢/١.

(٣) البيت ليس لعامر بن الطفيل، بل للحارث بن طفيل في الأغاني ٢٢٤/١٣، وبلا نسبة في اللسان والتاج (دجج)، والمقاييس ٢٦٥/٢، والمجمل ٢٥٨/٢، والعين ١١/٦، والمخصص ٩٥/٨، وتهذيب اللغة ٤٦٧/١٠.

الكلب. ومن هذا الباب كليب بن يربوع، وكلاب بن ربيعة، وكلب بن وبرة. ومنه بنو الكلبة، قال الشاعر: [من الطويل]

سَيَكْفِيكَ مِنْ ابْنِي نَزَارٍ لِرَاغِبٍ
بَنُو الْكَلْبَةِ الشَّمُّ الطَّوَالُ الْأَشَاجِعُ^(١)

والكلبة لقب مية بنت علاج بن شحمة العنبري. وبنوها بنو الكلبة الذين سمعت بهم - تزوجها خزيمة بن النعمان من بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار، فهي أمهم. وفيها يقول شبيل بن عزة الضبعي صاحب الغريب - وكان شيعياً من الغالية، فصار خارجياً من الصُفْرية -: [من الطويل]

بَنُو كَلْبَةٍ هَرَّارَةٌ وَأَبُوهُمْ
خُزَيْمَةُ عَبْدٌ خَامِلٌ الْأَصْلُ أَوْكَسُ^(٢)

وفي مية الكلبة يقول أبوها، وهو علاج بن شحمة: [من الطويل]

إِنْ تَكُ قَدْ بَانَتْ بِمِيَّةٍ غَرِيْبَةٍ
فَقَدْ كَانَ مِمَّا لَا يُمَلُّ مَزَارُهَا
دَعْتَهَا رِجَالٌ مِنْ ضُبَيْعَةٍ كَلْبَةٌ
وَمَا كَانَ يُشْكِي فِي الْمَحُولِ جَوَارُهَا

ومما اشتق له من اسم الكلب من القرى والبلدان والناس وغير ذلك، قولهم في الوقعة التي كانت بإرم الكلبة^(٣). ومن ذلك قولهم: حين نزلنا من السراة صرنا إلى نجد الكلبة.

وكان سبب خروج مالك بن فهم بن غنم بن دوس إلى أزد شنوءة من السراة أن بني أخته قتلوا كلباً لجاره، وكانوا أعداً منه فغضب ومضى. فسمي ذلك النجد الذي هبط منه نجد الكلبة.

وبطسوج بأدوريا نهر يقال له: نهر الكلبة.

ويقولون: كان ذلك عند طلوع كوكب الكلب. ومن ذلك قولهم: عباد بن أنف الكلب. ومن ذلك أبو عمر الكلب الجرمي النحوي، وكان رجلاً من العلية عالماً، عروضياً نحويّاً فرضياً. وعلويه كلب المطبخ، وكان أشرب الناس للنبيد، وقد راهنوا بينه وبين محمد بن علي.

(١) البيت بلا نسبة في الاشتقاق ٣١٩.

(٢) البيت في أساس البلاغة (وكس)، وشعر الخوارج ٢٠٨.

(٣) إرم الكلبة: موضع بين البصرة والحجاز، والكلبة اسم امرأة ماتت ودفنت هناك، فنسب إليها الإرم، ويوم إرم الكلبة من أيام العرب، قُتل فيه بجير بن عبد الله القشيري. انظر معجم البلدان ١٥٧/١ (إرم الكلبة).

والكلب: كلب الماء، وكلب الرحي والضبة التي يقال لها الكلب. وكذلك الكلبة والكلبتان، والكلاب والكلوب.

وقال راشد بن شهاب في ذلك المعنى: [من الطويل]

أمكن كلاب القنا من ثغورها وأخضب ما يبدو من استاهها بدم^(١)

وقال:

فسوف يرى الأقوم ديني ودينكم إذا كلبتا قينٍ ومقراضه أزم

وقال الراجز: [من الراجز]

ما زال مذ كان غلاماً يستتر له على العير إكاف وثفر

والكلبتان والعلاة والوتر

وقال أشهب بن ربيعة، وكان أول من رمى بني مجاشع بأنهم قيون: [من الراجز]

يا عجباً هل يركب القين الفرس وعرق القين على الخيل نجس^(٢)

وإنما أداته إذا جلس الكلبتان والعلاة والقبس

وكان اسم المزنوق فرس عامر بن الطفيل: الكلب.

وقد زعمت العلماء أن حرب أيام هراميت^(٣) إنما كان سببه كلب^(٤).

قال صاحب الديك: قد قيل للخوارج: كلاب النار، وللنوائح: كلاب النار.

وقد قال جندل بن الراعي لأبيه في وقوفه على جرير: ما لك تطيل الوقوف على

كلب بني كليب^(٥)!

وقال زفر بن الحارث: [من الكامل]

يا كلب قد كلب الزمان عليكم وأصابكم منّا عذاب مرسّل^(٦)

(١) انظر المفضليات ص ٣٠٨.

(٢) ديوان الأشهب بن ربيعة ٢٣٥.

(٣) يوم الهراميت: كان بين الضباب وجعفر بن كلاب، معجم البلدان ٣٩٦/٥، وانظر أيام العرب في الجاهلية ٣٠٤.

(٤) في معجم البلدان (كان القتال بسبب بئر).

(٥) انظر الأغاني ٢٤/٢٠٧، وانظر ما تقدم في الفقرة (١٩٨).

(٦) الأبيات لزفر بن الحارث في الأغاني ١٩/١٩٩.

إِنَّ السَّمَاءَ لَا سَمَاوَةَ فَالْحَقِي
وَبَارِضِ عَكٍّ فِي السَّوَاهِلِ إِنَّهَا
بِمَنَابِتِ الزَّيْتُونِ وَأَبْنِي بَحْدَلُ
أَرْضٌ تَذُوبُ بِهَا اللَّقَاحُ وَتَهْزَلُ
وقال حُصَيْنُ بْنُ الْقَعْقَاعِ يَرِثِي عُنْتِيَةَ بْنِ الْحَارِثِ: [من الكامل]

بَكَرَ النَّعْيُ بِخَيْرِ خِنْدِفٍ كُلِّهَا
قَتَلُوا ذُؤَابَأً بَعْدَ مَقْتَلِ سَبْعَةٍ
بُعْتِيَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ شِهَابٍ (١)
فَشَقَى الْغَلِيلَ وَرِيْبَةَ الْمِرْتَابِ
يَوْمَ الْحَلِيسِ بِذِي الْفَقَّارِ كَأَنَّهُ
كَلْبٌ بِضَرْبِ جَمَاجِمِ وَرِقَابِ
وقال آخر: [من البسيط]

لِلَّهِ دَرُّ بَنِي الْحَدَاءِ مِنْ نَفَرٍ
إِذَا عَدُوا وَعَصِيَّ الطَّلْحِ أَرْجُلُهُمْ
وَكُلُّ جَارٍ عَلَيَّ جِيرَانِهِ كَلْبٌ (٢)
كَمَا تَنْصَبُ وَسَطَ الْبَيْعَةِ الصُّلْبُ
وَإِذَا كَانَ الْعُودُ سَرِيعَ الْعُلُوقِ فِي كُلِّ زَمَانٍ أَوْ كُلِّ أَرْضٍ، أَوْ فِي عَامَّةِ ذَلِكَ قَالُوا:
مَا هُوَ إِلَّا الْكَلْبُ.

وقالوا: قال النبي ﷺ في وَزْرِ بْنِ جَابِرٍ حِينَ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ وَاسْتَأْذَنَهُ إِلَى أَهْلِهِ:
«نَعَمْ إِنْ لَمْ تَدْرُكْهُ أُمَّ كَلْبَةَ» يَعْنِي الْحَمَى.

ومما ذكروا به العضو من أعضاء الكلب والكلبة والخلق منهما أو الصفة
الواحدة من صفاتها، أو الفعل الواحد من أفعالهما، قال رؤبة: [من الرجز]

* لَأَقِيْتُ مَطْلَأً كُنُعَاسِ الْكَلْبِ * (٣)

يقول: مَطْلَأً مُقَرَّمَطاً دَائِماً. وقال الشاعر في ذلك: [من الوافر]

يَكُونُ بِهَا دَلِيلَ الْقَوْمِ نَجْمٌ
كَعَيْنِ الْكَلْبِ فِي هُبِّي قِبَاعِ

قال: هذه أرض ذات غبرة من الجذب لا يبصر القوم فيها النجم الذي يهتدى به
إلا وهو كأنه عين الكلب، لأن الكلب أبداً مُغْمِضٌ غير مطبق الجفون ولا مفتوحها.
والهَبِّي: الظلمة واحدها هابٍ، والجمع هَبِّي مثل غازٍ وَغَزَّى. والقِبَاع: التي قُبعت في

(١) انظر رغبة الأمل ٢/١٥٥، ٦/٩٢.

(٢) الأبيات لبشر بن أبي خازم في ملحق ديوانه ٢٢٧، والبيان والتبيين ٣/٧٥، والبرصان والعرجان ٢٢٩.

(٣) ديوان رؤبة ١٧، وثمار القلوب ٣١٦ (٥٨٨)، ومجمع الأمثال ٢/٣٠٢، ٣٥٥، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٢/١٠٦.

القتام، واحداها قابع، كما يقبَع القنفذ وما أشبهه في جُحره. وأنشد لابن مقبل: [من الطويل]

ولا أطرُقُ الجاراتِ بالليلِ قابعاً قُبُوعَ القَرْنَبِيِّ أخلفته مجاعره^(١)
والقبوع: الاجتماع والتقبُّض. والقَرْنَبِيُّ: دُوَيْبَّةٌ أعظم من الخنفساء.

٢٣٦ - [شعر له سبب بالكلب]

وقال الآخر في صفة بعض ما يعرض له من العيوب: [من الكامل]
ما ضَرَّ تغلبَ وائلُ أهجوتها أم بُلَّتْ حيثُ تناطَحَ البحران^(٢)
إنَّ الأراقم لا ينالُ قديمها كلبٌ عَوَى متهمم الأسنان

وقال الشاعر في منظور بن زبَّان: [من البسيط]

لبئس ما خَلَّفَ الآباءُ بعدهمُ في الأمهاتِ عجانُ الكلبِ منظورُ
ومن هذا الضرب قول الأعرابي: [من الطويل]

لقد شَانَ صغري والياها وزيننا لصغري فتى من أهلها لا يزينا
كلاب لعاب الكلب إن ساق هجمة يعذبُ فيها نفسه ويُهينها

وقال عمرو بن معدٍ يكرب: [من الطويل]

لحا الله جرماً كلما ذرَّ شارقُ وجوه كلابٍ هارشتُ فازبأرت^(٣)

وقال أبو سفيان بن حرب: [من الطويل]

ولو شئتُ نجتني كُमितُ طِمرةً ولم أجعل النعماء لابن شعوب
وما زال مهري مزجر الكلب منهمُ لدنْ غدوةً حتى دنتُ لغروب^(٤)

وقال عبد الرحمن بن زياد: [من الطويل]

دعته بمسروق الحديث وظالعٍ من الطرف حتى خاف بصبصة الكلب

(١) ديوان ابن مقبل ١٥٤، وتقدم البيت في الفقرة (١٨٧).

(٢) البيتان للفرزدق في ديوانه ٨٨٢، والبيان والتبيين ٣/٢٤٨.

(٣) ديوانه ٧٢، والخزانة ٢/٤٣٦، والسمط ١/٣٦٦، وشرح الحماسة للمرزوقي ١٦٠.

(٤) البيت لأبي سفيان في الدرر ٣/١٣٨، وبلا نسبة في اللسان (لندن)، والمقاصد النحوية

٣/٤٢٩، وهمع الهوامع ١/٢١٥، وشرح الأشموني ٢/٣١٨.

وقال شريح بن أوس: [من الطويل]

وعيرتنا تمر العراق ونخله وزادك أير الكلب شيطه الجمر^(١)

وقال آخر وهو يهجو قوماً: [من الطويل]

فجاء بخرشاوي شعير عليهما كراديس من أوصال أعقد سافد^(٢)

وقال الحارث بن الوليد: [من الكامل]

ذهب الذين إذا رأوني مقبلاً هسوا وقالوا: مرحباً بالمقبل
وبقيت في خلف كان حديثهم ولغ الكلاب تهارشت في منهل

وقال سبرة بن عمرو الفقعسي، حين ارتشى ضمرة النهشلي، ونفر عليه عباد بن

أنف الكلب الصيداوي فقال سبرة: [من الكامل]

يا ضمر كيف حكمت أمك هابل^٣ والحكم مسؤل به المتعمد^(٣)
أحفظت عهداً أم رعيت أمانة أم هل سمعت بمثلها لا ينشد
شعاع فاقرة تجلل نهشلاً تغور به الرفاق وتوجد
إن الرفاق أمال حكمك حبها فلك اللقاء وراكب متجرد
فضح العشيرة واستمر كأنه كلب يبصص للعظال ويطرُد
لا شيء يعدلها ولكن دونها خرط القتاد تهاب شوكتها اليد
جوعان يلحس أسكتنا زيفية غلم يثور على البرائن أعقد

وقال مزرد بن ضرار: [من الطويل]

وإن كناز اللحم من بكراتكم تهر عليها أمكم وتكالب^(٤)
وليت الذي ألقى فناؤك رحله لتقره بالت عليه الثعالب

وهذان البيتان من باب الاشتقاق لا من باب الصفات وذکر الأعضاء. وقال:

[من الرجز]

يا سبر يا عبد بني كلاب يا أير كلب موقق بباب
أكان هذا أول الثواب يا ورلاً رقرق في سراب
لا يعلقنكم ظفري ونابي

(١) البيت لشريح بن أوس في البخلاء ٢٣٥، والمخرانة ٣/٨٦ (بولاق) وهو لأوس بن حجر في ديوانه ٣٨. وتقدم في الفقرة (٢٠٢).

(٢) البيت للعين المنقري في معجم البلدان (حلامات). وتقدم في نهاية الفقرة (٢٠١).

(٣) انظر أمالي المرتضى ٣/٤٠، والمعمرون والوصايا ٥٥.

(٤) البيت الأول لحرام بن وابصة الفزاري في أساس البلاغة (هر).

وقال الآخر: [من الوافر]

كَانَ بَنِي طَهِيَّةَ رَهْطَ سَلَمَى حَجَارَةٌ خَارِيٌّ يَرْمِي الْكِلَابَا^(١)

وقال صاحب الكلب: ومما اشتق من اسم الكلب في موضع النباهة، كليب بن ربيعة، هو كليب وائل. ويقال إنه قيل في رجلين من بني ربيعة ما لم يُقَلَّ في أحد من العرب، حتى ضرب بهما المثل، وهو قولهم: «عز من كليب وائل»^(٢)، والآخر: «لا حر بوادي عوف»^(٣).

قالوا: وكانت ربيعة إذا انتجعت معه لم توقد ناراً ولم تحوض حوضاً، وكان يحمي الكلاً ولا يتكلم عنده إلا خفضاً، ويجير الصيد ويقول: صيد أرض كذا وكذا في جوارى لا يباح. وكان له جرو كلب قد كتته^(٤) فربما قذف به في الروضة تعجبه، فيحميها إلى منتهى عوائه، ويلقيه بحریم الحوض فلا يردُّه بعير حتى تصدر إبله^(٥).

٢٣٧ - [ما قيل من الشعر في كليب]

وفي ذلك يقول معبد بن شعبة التميمي: [من الطويل]

أظنَّ ضِرَارُ أُنِّي سَأطِيعه	وَأُنِّي سَأطِيعه الَّذِي كُنْتُ أَمْنَعُ
إِذْ اغرورقت عيناه واحمرَّ وجهه	وقد كادَ غِيظاً وجهه يتبضع
تقدَّم في الظلم المبيِّن عامداً	ذراعاً إذا ما قُدِّمَتْ لك إصبع
كفعل كُليبٍ كنت أنبئت أنه	يخلط أكلاء المياه ويمنع
يُجير على أفناء بكر بن وائل	أرانب ضاح والظباء فترتع

وقال دريد بن الصمة: [من الوافر]

لعمرك ما كُليبٌ حين دلى بحبلٍ كلبه فيمن يميح^(٦)

(١) البيت لجرير في ديوانه ٨١٤ (طبعة نعمان طه)، والبيان والتبيين ٢/٢٥٠، وجمهرة اللغة ١٠٩٦.

(٢) مجمع الأمثال ٢/٤٢، والفاخر ٩٣، والدرة الفاخرة ١/٣٠٠، وجمهرة الأمثال ٢/٣٣، ٦٥، والمستقصى ١/٢٤٦، والأمثال لابن سلام ٢٦٢.

(٣) مجمع الأمثال ٢/٣٢٦، والدرة الفاخرة ٢/٤١٩، والفاخر ٢٣٦، وجمهرة الأمثال ٢/٣٤٦، ٤٠٦، ٤١٤، والمستقصى ٢/٢٦٢، وفصل المقال ١٢٩، والأمثال لابن سلام ٩٤.

(٤) كتته: بمعنى شد قوائمه.

(٥) ثمار القلوب (١٩٠-١٩١) والأغاني ٥/٣٤-٣٥. وانظر الحاشية قبل السابقة.

(٦) ديوان دريد بن الصمة ٤٤.

بأعظم من بني سفيان بغيًّا وكلُّ عدوِّهم منهم مريح

وقال العباس بن مرداس: [من الطويل]

كما كان يبغيها كليبٌ بظلمه من العزِّ حتى طاح وهو قَتيلُها^(١)
على وائلٍ إذ يُنزل الكلب مائحاً وإذ يُمنع الأكلاء منها حلولُها

وقال عباس أيضاً لكليب بن عهمة الظفري: [من الكامل]

أَكْلِبُ إِنَّكَ كُلُّ يَوْمٍ ظالمٍ والظلمُ أنكدُ وجْهُه ملعونُ^(٢)
تبغي بقومك ما أرادَ بوائِلِ يومَ الغديرِ سَمِيكَ المطعونُ
وإخالُ أنكَ سوفَ تَلْقَى مثلَها في صَفْحَتَيْكَ سَنَانُه المسنون

وقال النابغة الجعدي: [من الطويل]

كليبٌ لعمري كان أكثرَ ناصراً وأيسرَ ذنباً منك ضُرَجَ بالدمِ^(٣)
رمى ضرع نابٍ فاستمر بطعنةٍ كحاشيةِ البُردِ اليماني المسهمِ

وقال قَطِران العبشمي، ويقال العبشي: [من الطويل]

ألم تر جَسَّاسَ بن مُرَّةٍ لم يردْ حمىً وائلٍ حتَّى احتداه جهولُها
أجرٌ كليباً إذ رمى النابَ طعنةً جدت وائلًا حتَّى استخفت عقولُها
بأهون مما قلت إذ أنت سادرٌ وللدَّهرِ والأَيَّامِ والِ يُدِيلُها

وقال رجل من بني هلال بن عامر بن صعصعة: [من الطويل]

نحن أبسنا تغلبَ ابنةً وائلٍ بقتل كليبٍ إذ طغى وتخيلاً^(٤)
أباناه بالنابِ التي شقَّ ضرعها فأصبحَ موطوءَ الحمى متذلاً^(٥)

وقال رجل من بني سدوس: [من الطويل]

وأنت كليبيُّ لكليبٍ وكلبةٍ لها حولَ أطنابِ البيوتِ هَرِيرُ

(١) ديوان العباس بن مرداس ١٣٨ .

(٢) ديوان العباس بن مرداس ١٥٦، والوحشيات ٢٣٨، والحامسة البصرية ١/١٠، والأغاني ٣٨/٥ .

(٣) ديوان النابغة الجعدي ١٤٣، والأغاني ٣٣/٥ .

(٤) البيتان في الأغاني ٣٨/٥ وفيه (وقال رجل من بني بكر بن وائل في الإسلام، وهي تنحل

للأعشى)، والبيت الأول بلا نسبة في كتاب الجيم ١/٥٧. أبسنا: أذللنا وقهرنا. تخيل: تكبر.

(٥) أباناه: جعلناه عدلاً فقتلناه بها.

وقال ابن مقبل العجلاني: [من الطويل]

بكت أم بكرٍ إذ تبدد رهطها وأن أصبحوا منهم شريدٌ وهالكٌ^(١)
وإن كلاً حبيك فيهم بقية لو أن المنايا حالها متماسكٌ
كلاب وكعب لا يبيت أخوهم ذليلاً ولا تُعبي عليه المسالك^(٢)

وقال رجل من بني كلاب من الخوارج، لمعاوية بن أبي سفيان: [من البسيط]

قد سرت سيرَ كليبٍ في عشيرته لو كان فيهم غلامٌ مثلُ جساس^(٣)
الطاعن الطعنة النجلاء عاندها كطرة البرد، أعيافتها الآسي^(٤)

٢٣٨ - [أهون من تبالة على الحجاج]

وقال أبو اليقظان في مثل هذا الاشتقاق: كان أول عمل وليه الحجاج بن يوسف تبالة^(٥)، فلما سار إليها وقرب منها قال للدليل: أين هي، وعلى أي سمت هي؟ قال: تسترك عنها هذه الأكمة. قال: لا أراني أميراً إلا على موضع تسترني منه أكمة، أهون بها علي؟! وكرراً راجعاً، ف قيل في المثل: «أهون من تبالة على الحجاج»^(٦).

والعامة تقول: لهو أهون علي من الاعراب على عركوك.

٢٣٩ - [احتضار الحجاج وقول المنجم]

قال^(٧): ولما حضرت الحجاج الوفاة وقد ولي قبل ذلك ما ولي، وافتتح ما افتتح، وقتل من قتل، قال للمنجم: هل ترى ملكاً يموت؟ قال: نعم ولست به، أرى ملكاً يموت اسمه كليب، وأنت اسمك الحجاج قال: فأنا والله كليب، أمي سمّني به وأنا صبي. فمات، وكان استخلف على الخراج يزيد بن أبي مسلم، وعلى الحرب يزيد بن أبي كبشة.

(١) ديوان ابن مقبل ٢٠٠ (ط ١)، ١٥٤ (دار الشرق).

(٢) كلاب وكعب: حيّان من أحياء عامر بن صعصعة.

(٣) البيتان لبشير بن أبي العباسي في نوادر أبي زيد ١٥١.

(٤) العاند: العرق يسيل فلا يرقا.

(٥) تبالة: بلدة مشهورة من أرض تهامة في طريق اليمن. معجم البلدان ٩/٢ (تبالة).

(٦) المثل في مجمع الأمثال ٤٠٨/٢، والذرة الفاخرة ٤٢٩/٢، ٤٣١، وجمهرة الأمثال ٣٥٣/٢، ٣٧٣، والمستقصى ٤٤٥/١. وانظر معجم البلدان ٩/٢ (تبالة).

(٧) الخبر في المعارف ٣٩٧، وشذرات الذهب ١٠٦/١.

قال^(١): والعرب إنما كانت تسمي بكلب، وحمار، وحجر، وجعل، وحنظلة، وقرد، على التفاؤل بذلك. وكان الرجل إذا ولد له ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفال، فإن سمع إنساناً يقول حجراً، أو رأى حجراً سمى ابنه به وتفاءل فيه الشدة والصلابة، والبقاء والصبر، وأنه يحطم ما لقي. وكذلك إن سمع إنساناً يقول ذئباً أو رأى ذئباً، تأول فيه الفطنة والخب والمكر والكسب. وإن كان حماراً تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد. وإن كان كلباً تأول فيه الحراسة واليقظة وبُعد الصوت، والكسب وغير ذلك.

ولذلك صور عبید الله بن زياد في دهليزه كلباً وأسداً، وقال: كلب نابح، وكبش ناطح، وأسد كالح. فتطير إلى ذلك فطارت عليه.

وقال آخر: لو كان الرجل منهم إنما كان يسمي ابنه بحجر وجبل، وكلب، وحمار، وثور، وخنزير، وجعل، على هذا المعنى فهلاً سمى ببرذون، وبغل، وعقاب، وأشباه ذلك؛ وهذه الأسماء من لغتهم.

قال الأول: إنما لم يكن ذلك، لأنه لا يكاد يرى بغلاً وبرذوناً، ولعله لا يكون رآهما قط، وإن كانت الأسماء عندهم عتيدة لأمور لعلهم يحتاجون إليها يوماً ما.

قالوا: فقد كان يسمع بفرس وبعير، كما كان يسمع بحمار وثور، وقد كان يستقيم أن يشتق منهما اشتقاقاً محمودة. بل كيف صار ذلك كذلك ونحن نجده يسمي بنجم ولا يسمي بكوكب! إلا أن بعضهم قد سمى بذلك عبداً له، وفيه يقول:

[من مخلع البسيط]

كوكبٌ إن مُتْ فُهَيَ مِيتَتِي لا مُتَّ إلا هَرِمًا يا كوكبُ

ووجدناهم يسمون بجبل وسند، وطود، ولا يسمون بأحد ولا بشبير وأجا وسلمى ورضوى، وصندد وحميم، وهو تلقاء عيونهم متى أطلعوا رؤوسهم من خيامهم. ويمسون ببرج ولا يسمون بفلك، ويسمون بقمر وشمس على جهة اللقب أو على جهة المديح، ولم يسموا بأرض وسماء، وهواء وماء، إلا على ما وصفنا. وهذه الأصول في الزجر أبلغ، كما أن جبلاً أبلغ من حجر، وطوداً أجمع من صخر. وتركوا أسماء جبالهم المعروفة.

(١) انظر الاشتقاق ٤-٦.

وقد سمّوا بأسد وليث وأسامة وضرغامة. وتركوا أن يسمّوا بسبع وسبعة. وسبع هو الاسم الجامع لكلّ ذي ناب ومخلب.
قال الأول: قد تسمّوا أيضاً بأسماء الجبال، فتسمّوا بأبان وسلّمى.

قال آخرون: إنّما هذه أسماء ناس سمّوا بها هذه الجبال، وقد كانت لها أسماء تركت لثقلها، أو لعلّة من العلل؛ وإلّا فكيف سمّوا بسلمى وتركوا أجاً ورضوى.

وقال بعضهم: قد كانوا ربّما فعلوا ذلك على أن يتفق لواحد وكودٍ ولمعظمٍ جليل، أن يسمع أو يرى حماراً، فيسمّي ابنه بذلك؛ وكذلك الكلب والذئب، ولن يتفق في ذلك الوقت أن يسمع بذكر فرس ولا حجر أو هواء أو ماء؛ فإذا صار حماراً، أو ثوراً، أو كلب اسم رجل معظّم، تتابعت عليه العرب تطييراً إليه، ثم يكثر ذلك في ولده خاصّة بعده. وعلى ذلك سمّت الرعية بنيتها وبناتها بأسماء رجال الملوك ونسائهم، وعلى ذلك صار كلُّ عليّ يكنى بأبي الحسن، وكلُّ عمّر يكنى بأبي حفص، وأشباه ذلك. فالأسماء ضروب، منها شيء أصليّ كالسمّاء والأرض والهواء والماء والنار، وأسماءٍ آخر مشتقّات منها على جهة الفأل، وعلى شكل اسم الأب، كالرجل يكون اسمه عمر فيسمى ابنه عميراً، ويسمّي عمير ابنه عمران، ويسمّي عمران ابنه معمراً. وربّما كانت الأسماء بأسماء الله عزّ وجلّ مثل ما سمى الله عزّ وجلّ أبا إبراهيم آزر، وسمّى إبليس بفاسق، وربّما كانت الأسماء مأخوذةً من أمورٍ تحدث في الأسماء؛ مثل يوم العروبة سمّيت في الإسلام يوم الجمعة^(١)، واشتقّ له ذلك من صلاة يوم الجمعة.

٢٤١ - [الألفاظ الجاهلية المهجورة]

وسنقول في المتروك من هذا الجنس ومن غيره، ثم نعود إلى موضعنا الأول إن شاء الله تعالى.

ترك الناسُ مما كان مستعملاً في الجاهلية أموراً كثيرة، فمن ذلك تسميتهم للخراج إتاوة، وكقولهم للرشوة ولما يأخذه السلطان: الحُمْلان والمكس. وقال جابر ابن حنّي: [من الطويل]

أفي كلِّ أسواقِ العراقِ إتاوةٌ وفي كلِّ ما باع امرؤُ مكسٌ درهم^(٢)

(١) انظر مبادئ اللغة ١٠، ففيه ذكر لآيام الاسبوع في الجاهلية (الأول؛ والأهون؛ وجبار؛ ودبار؛ ومؤنس؛ والعروبة؛ وشيار).

(٢) البيت لجابر بن حني في المفضليات ٢١١، واللسان (مكس)، والناج (مكس، أتو)، وأساس =

وكما قال العبدِيُّ في الجارود: [من الطويل]

أيا ابن المعلَى خِلْتَنَا أم حَسْبَتَنَا صَرَارِي نُعْطِي الماكسِين مُكوساً^(١)

وكما تركوا أنعمَ صباحاً، وأنعمَ ظلاماً، وصاروا يقولون: كيف أصبحتم؟
وكيف أمسيتم؟

وقال قيس بن زهير بن جذيمة، ليزيد بن سنان بن أبي حارثة: أنعمَ ظلاماً أبا
ضمرة! قال: نعمتَ فمن أنت؟ قال: قيس بن زهير.

وعلى ذلك قال امرؤ القيس: [من الطويل]

ألا عمَّ صباحاً أيُّها الطلُّ البالي وهل يعمنَ من كان في العَصْرِ الخالي^(٢)

وعلى ذلك قال الأول: [من الوافر]

أتوا ناري فقلتُ منونَ قالوا سرّاة الجنّ قلتُ عموا ظلاماً^(٣)

وكما تركوا أن يقولوا للملك أو السيّد المطاع: أبيت اللعن، كما قيل: [من

الرجز]

* مهلاً أبيتَ اللعن لا تأكلُ معهُ *^(٤)

وقد زعموا أن حذيفة بن بدر كان يُحياً بتحية الملوك ويقال له: أبيت اللعن.
وتركوا ذلك في الإسلام من غير أن يكون كفراً.

وقد ترك العبد أن يقول لسيدهِ ربّي، كما يقال ربُّ الدار، وربُّ البيت.

- = البلاغة (أتي)، ولحني بن جابر في اللسان (أتي)، وبلا نسبة في المخصص ٧٧/٣، ١٢/٢٥٣،
والعين ٣١٧/٥، ومجمل اللغة ١/١٦٤، ٤/٣٤٣، وتهذيب اللغة ١٠/٩٠، ١٤/٣٥٢.

(١) البيت ليزيد بن الخذاق في المفضليات ٢٩٨، وبلا نسبة في أساس البلاغة (مكس).

(٢) ديوان امرئ القيس ٢٧، والخزانة ١/٦٠، ٣٢٨، ٣٣٢، ٣٧١/٢، ٤٤/١٠، والتاج (طول)،
والكتاب ٣٩/٤، وشرح شواهد المغني ١/٣٤٠، وبلا نسبة في الخزانة ٧/١٠٥، وأوضح
المسالك ١/١٤٨، وهمع الهوامع ٢/٨٣.

(٣) البيت لشمر بن الحارث في الخزانة ٦/١٦٧، والتاج (حسد)، واللسان (حسد، منن)، ونوادير أبي
زيد ١٢٣، والدرر ٦/٢٤٦، ولسمير الضبي في شرح أبيات سيويه، ولشمر أو لتأبط شراً في شرح
المفصل ٤/١٦، وشرح التصريح ٢/٢٨٣، ولاحدهما أو لجذع بن سنان في المقاصد النحوية
٤/٤٩٨، وبلا نسبة في اللسان (انس، سرا)، والخصائص ١/١٢٨، وأوضح المسالك ٤/٢٨٢،
والكتاب ٢/٤١١، والدرر ٦/٣١٠، وهمع الهوامع ٢/١٥٧، ٢١١، والمقتضب ٢/٣٠٧.

(٤) الرجز للبيد في ديوانه ٣٤٣، وأمالي المرتضى ١/١٣٦، والفاخر ١٤٢، وسمط اللآلي ٨٨٢،
واللسان والتاج وأساس البلاغة (لمع).

وكذلك حاشية السيد والملِك تركوا أن يقولوا ربنا. كما قال الحارث بن حلزة: [من الخفيف]

ربنا وابننا وأفضل من يم شي ومن دون ما لديه الثناء^(١)

وكما قال لبيد حين ذكر حذيفة بن بدر: [من الطويل]

وأهلكن يوماً رب كندة وابنه ورب معد بين حبت وعرعر^(٢)

وكما عير زيد الخيل حاتماً الطائي في خروجه من طيء ومن حرب الفساد^(٣)،

إلى بني بدر، حيث يقول: [من الطويل]

وفر من الحرب العوان ولم يكن بها حاتم طياً ولا متطبباً^(٤)

وريب حصناً بعد أن كان آبياً أبوة حصن فاستقال وأعتباً

أقم في بني بدر ولا ما يهمنا إذا ما تقضت حربنا أن تطربا

وقال عوف بن محلم، حين رأى الملك: إنّه ربي ورب الكعبة. وزهجه أم أناس

بنت عوف.

وكما تركوا أن يقولوا لقوام الملوك السدنة وقالوا الحجة.

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى عن أبي عبد الرحمن يونس بن حبيب النحوي

حين أنشدّه شعر الأسدي: [من الوافر]

ومركضة صريحي أبوها تُهان لها الغلام والغلام^(٥)

قال: فقلت له: فتقول: للجارية غلام؟ قال: لا، هذا من الكلام المتروك

وأسماءه زالت مع زوال معانيها، كالمرباع والنشيطه وبقي الصفايا؛ فالمرباع: ربع

جميع الغنيمه الذي كان خالصاً للرئيس، وصار في الإسلام الخمس، على ما سنّه الله

(١) البيت هو رقم (٢٨) من معلقته في شرح القصائد السبع الطوال ٤٦٣، وشرح القصائد العشر ٣٨٤.

(٢) ديوان لبيد ٥٥، والمخصص ١٧/١٥٤.

(٣) حرب الفساد: من أيام العرب في الجاهلية بين جديلة والغوث من طيء، وفيها انهزمت جديلة هزيمة قبيحة. الأغاني ١٣/١٠، وأيام العرب في الجاهلية ٦٠-٦١.

(٤) ديوان زيد الخيل ١٥٥.

(٥) البيت للأسدي في شرح شواهد الإيضاح ٤١٥، ولأوس بن خلفاء في اللسان والتاج (صرح، ركض، غلم)، وشرح المفصل ٩٧/٥، وعمدة الحفاظ (ركض). الصريحي: اسم فحل منجب.

تعالى . وأما النسيطة فإنه كان للرئيس أن ينشط عند قسمة المتاع العلقَ النفيسَ يراه إذا استحلّاه . وبقي الصفيّ وكان لرسول الله ﷺ من كل مَعْنَمٍ، وهو كالسيف اللّهْذَم والفرس العتيق، والدرع الحصينة، والشيء النادر .

وقال ابن عَنَمَة الضبيّ حليف بني شيبان، في مرثيته بسطام بن قيس: [من الوافر]

لك المرباعُ منها والصفايا وحكُمك والنسيطةُ والفضولُ^(١)
والفضول: فضول المقاسم، كالشيء إذا قسم وفضلت فضلةً استهلكت،
واللؤلؤة، والسيف، والدرع، والبيضة، والجارية، وغير ذلك .

٢٤٢ - [الألفاظ الإسلامية المشتقة]

وأسماءٌ حدثت ولم تكن، وإنما اشتقت لهم من أسماءٍ متقدّمة، على التشبيه، مثل قولهم لمن أدركَ الجاهليّة والإسلام مُحْضَرَمٌ كأبي رجاءٍ العطارديّ، بن سالمه، وشقيق بن سالمه؛ ومن الشعراء النابغة الجعديّ وابن مقبل، وأشباههم من الفقهاء والشعراء . ويدلُّ على أن هذا الاسم أحدث في الإسلام، أنهم في الجاهليّة لم يكونوا يعلمون أن ناساً يسلمون وقد أدركوا الجاهليّة، ولا كانوا يعلمون أن الإسلام يكون .

ويقال إنَّ أوَّلَ من سَمَّى الأرضَ التي لم تُحْفَرْ قطُّ ولم تُحْرَثْ إذا فعل بها ذلك مظلومة، النابغةٌ حيث يقول: [من البسيط]

إلا الأوراريَّ لأياً ما أبينها والنويّ كالحوضِ بالمظلومةِ الجلدِ^(٢)

ومنه قيل سقاءٌ مظلوم إذا أعجل عليه قبل إدراكه . وقال الحادرة: [من الكامل]

ظلم البطحَ له انهلالٌ حريصةٍ فصفاً النطافُ له بُعيدَ المقلعِ^(٣)

-
- (١) البيت لابن عنمة الضبي في الأصمعيات ٣٧، والبيان والتبيين ٢٩٢/١، واللسان (نشط، فضل، صفا)، والتهذيب ٣٦٩/٢، ٣١٤/١١، ٤١/١٢، ٢٤٩، والتاج (نشط، ريع، فضل، صفا)، والمقاييس ٤٧٩/٢، ٢٩٢/٣، ٤٢٧/٥، وجمهرة اللغة ٨٦٧، ١٢٤١ (٣/٥٨، ٤١٨)، وبلا نسبة في أمالي القالي ١٤٤/١، والمخصص ٢٧٤/١٢، واللسان (ريح) .
- (٢) ديوان النابغة الذبياني ١٥، والأغاني ٣١/١١، واللسان والتاج (جلد، ظلم، بين)، والكتاب ٣٢١/٢، والخزانة ١٢٢/٤، ٣٦/١١، والمقاصد النحوية ٣١٥/٤، ٥٧٨، والمقتضب ٤١٤/٤ .
- (٣) البيت في ديوان الحادرة ٤٨، وشرح اختيارات المفضل ٢١٧، والمفضليات ٤٤، واللسان (حرص، ظلم)، والتاج (حرص، قلع، ظلم)، وأساس البلاغة (حرص)، وتهذيب اللغة ٣٨٤/٦٤، وبلا نسبة في المقاييس ٤٠/٢ .

وقال آخر: [من الرجز]

قالت له ميُّ بأعلى ذي سلمٍ
لو ما تزورنا إذا الشعبُ ألمٌ
ألا بلَى يا ميِّ واليومُ ظلمٌ^(١)

يقول ظلم حين وضع الشيء في غير موضعه . وقال الآخر: [من الرجز]

* أنا أبو زينب واليومُ ظلمٌ *

وقال ابن مقبل: [من البسيط]

عادَ الأذلةُ في دارٍ وكان بها
هرتُ الشَّقَاشِقَ ظَلامُونَ للجزر^(٢)

وقال آخر: [من الطويل]

وصاحبِ صدقٍ لم تنلني أذاته
ظلمتُ وفي ظلمي له عامداً أجزر^(٣)

وقال آخر: [من البسيط]

لا يظلمون إذا ضيفوا وطابهمُ
وهم لجودهم في جزرهم ظلمُ
وظلم الجزور: أن يعرقبوها، وكان في الحق أن تنحر نحرأ. وظلمهم الجزر أيضاً
أن ينحروها صباحاً سماناً لا علة بها.

قال: ومن ذلك قولهم: «الحرب غشوم»^(٤)؛ وإنما سميت بهذا لأنها تنال غير
الجاني .

قال: ومن ذلك قولهم: «من أشبه أباه فما ظلم»^(٥)، يقول: قد وضع الشبه في
موضعه .

ومن المحدثِ المشتقُّ، اسم منافق لمن رأى بالاسلام واستسرَّ بالكفر أخذ

(١) الرجز بلا نسبة في اللسان (ظلم).

(٢) ديوان ابن مقبل ٨١ (ط ١)، ٧٤ (دار المشرق)، واللسان (هرت، دور، شقق، ظلم)، والتاج
(هرت، دور، ظلم)، وأساس البلاغة (ظلم، هرت)، والسمط ٧٣٣، وأمالي القالي ١٠١/٢،
والتهذيب ٢٣٥/٦، ٢٤٧/٨، ٣٨٤/١٤، وبلا نسبة في المقاييس ٤٦٩/٣، والمجمل ٣٦٤/٣ .

(٣) البيت بلا نسبة في اللسان والتاج وأساس البلاغة (ظلم).

(٤) من الأمثال في مجمع الأمثال ٢٠٦/١، والمستقصى ٣١١/١، وجمهرة الأمثال ٣٥٨/١، وأمثال
ابن سلام ٢٥٩ .

(٥) مجمع الأمثال ٣٠٠/٢، وجمهرة الأمثال ٢٤٤/٢، والفاخر ١٠٣، ٢٧٧، وفصل المقال ١٨٥،
وأمثال ابن سلام ١٤٥، ٢٦٠، والممتدة ص ٣٥٢/٢ .

ذلك من النافقاء والقاصعاء والداماء^(١)، ومثل المشرك والكافر، ومثل التيمم. قال الله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾^(٢) أي تحرّوا ذلك وتوخّوه. وقال: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾^(٣) فكثُر هذا في الكلام حتّى صار التيمم هو المسح نفسه^(٤). وكذلك عادتهم وصنيعهم في الشيء إذا طالت صُحبتهم وملايستهم له.

وكما سمّوا رَجِيع الإنسان الغائط، وإنّما الغيطان البطون التي كانوا ينحدرون فيها إذا أرادوا قضاء الحاجة للستر^(٥).

ومنه العذرة، وإنّما العذرة الفناء، والأفنية هي العذرات، ولكن لما طال إلقاؤهم النجّو والزبل في أفنيتهم، سمّيت تلك الأشياء التي رمّوا بها، باسم المكان الذي رميت به^(٦). وفي الحديث: «أَنْقُوا عَذْرَاتِكُمْ»^(٧).

وقال ابن الرقيّات: [من الخفيف]

رَحِمَ اللَّهُ أَعْظَمًا دَفَنُوهَا بِسِجِسْتَانَ طَلْحَةَ الطَّلْحَاتِ^(٨)
كان لا يحجّبُ الصديقَ ولا يع تَلُّ بِالْبِخْلِ طَيْبَ الْعَذْرَاتِ

ولكنّهم لكثرة ما كانوا يلقون نجوهم في أفنيتهم سموها باسمها.

ومنه النّجو: وذلك أنّ الرجل كان إذا أراد قضاء الحاجة تستر بنجوة^(٩).

والنّجو: الارتفاع من الأرض، قالوا من ذلك: ذهب ينجو، كما قالوا ذهب يتغرّط إذا ذهب إلى الغائط لذلك الأمر، ثمّ اشتقوا منه فقالوا إذا غسل موضع النجو قد استنجى.

(١) هي من أسماء جحرة اليربوع انسبع. انظر اللسان (دم).

(٢) ٤٣ / النساء: ٤، ٦ / المائدة: ٥.

(٣) ٤٣ / النساء: ٤.

(٤) انظر أدب الكاتب ٦٧، باب تأويل كلام من كلام الناس.

(٥) أدب الكاتب ٦٧.

(٦) أدب الكاتب ٦٧.

(٧) النهاية ١٩٩/٣.

(٨) ديوان ابن قيس الرقيّات ٢٠، والبيت الأول في اللسان والتاج (طلح، نضر)، وعمدة الحفاظ

(نضر)، والخزّانة ١٠/٨، ١٤، وشرح المفصل ٤٧/١، وبلا نسبة في المقتضب ١٨٨/٢،

٧/٤، وهمع الهوامع ١٢٧/٢، والإنصاف ٤١.

(٩) أدب الكتاب ٦٦

وقالوا: ذهب إلى المخرَج، وإلى المتوضأ، وإلى المذهب، وإلى الخلاء، وإلى الحش، وإنما الحش القطعة من النخل وهي الحشان^(١). وكانوا بالمدينة إذا أرادوا قضاء الحاجة دخلوا النخل؛ لأن ذلك أستر، فسموا المتوضأ الحش، وإن كان بعيداً من النخل؛ كل ذلك هرباً من أن يقولوا ذهب لخرء، لأن الاسم الخراء، وكل شيءٍ سواه من [نجو] ورجيع وبراز وزبل وغائط فكله كناية.

ومن هذا الباب الملة، والملة موضع الخبزة، فسموا الخبزة باسم موضعها. وهذا عند الأصمعي خطأ.

ومن هذا الشكل الراوية، والراوية هو الجمل نفسه، وهو حامل المزايدة فسميت المزايدة باسم حامل المزايدة^(٢). ولهذا المعنى سموا حامل الشعر والحديث راوية.

ومنه قولهم: ساق إلى المرأة صداقها. قالوا: وإنما كان يقال ذلك حين كانوا يدفعون في الصداق إبلاً، وتلك الإبل يقال لها النافجة. وقال شاعرهم: [من الطويل]
وليس تلامي من وراثه والدي ولا شاد مالي مستفاد النوافج^(٣)
وكانوا يقولون: تهنيك النافجة. قال: فإذا كانوا يدفعون الصداق عيناً وورقاً فلا يقال ساق إليها الصداق.

ومن ذلك أنهم كانوا يضربون على العروس البناء، كالقبة والخيمة والخيام، على قدر الإمكان، فيقال بني عليها، اشتقاقاً من البناء، ولا يقال ذلك اليوم. والعروس إما أن تكون مقيمة في مكانها أو تتحول إلى مكان أقدم من بنائها.

قال^(٤): ومن ذلك قولهم في البغي المكتسبة بالفجور: قحبة، وإنما القحَاب السعال. وكانوا إذا أرادوا الكناية عن من زنت وتكسبت بالزنى، قالوا قحبت أي سعلت، كناية. وقال الشاعر: [من مجزوء الكامل]
* إنَّ السُّعالَ هوَ القُحَاب *

وقال: [من الرمل]

وإذا ما قحبت واحدة جاوب المبعد منها فخصف^(٥)

(١) أدب الكاتب ٦٧.

(٢) أدب الكاتب ٦٥-٦٦.

(٣) البيت بلا نسبة في أساس البلاغة (نفع).

(٤) انظر النص التالي في البرصان والعرجان ٧٤.

(٥) البرصان والعرجان ٧٤، خصف: شرط.

وكذلك كان كنايةهم في انكشاف عورة الرجل، يقال^(١): كشف علينا متاعه وعورته وشواره. والشوار: المتاع. وكذلك الفرج وإنما يعنون الأير والحِرَ والاسْت.

٢٤٣ - [كلمات للنبي ﷺ، لم يتقدمه فيهن أحد]

وكلمات النبي ﷺ، لم يتقدمه فيهن أحد^(٢): من ذلك قوله: «إذا لا ينتطح فيها عنزان»^(٣). ومن ذلك قوله: «مات حتف أنفه»^(٤). ومن ذلك قوله: «يا خيل الله اركبي»^(٥) ومن ذلك قوله: «كل الصيْدِ في جوفِ الفِرا»^(٦)، وقوله: «لا يُلسعُ المؤمنُ من جُحرٍ مرتين»^(٧).

٢٤٤ - [شئنة أعرفها من أخزم]

وقال عمر رضي الله تعالى عنه: «شئنة أعرفها من أخزم»^(٨)، يعني شبه ابن العباس بالعباس. وأخزم: فحل معروف بالكرم.

٢٤٥ - [ما يكره من الكلام]

وأما الكلام الذي جاءت به كراهية من طريق الروايات، فروي عن رسول الله

-
- (١) البرصان والعرجان ٧٣، وأدب الكاتب ٦٣-٦٤.
 - (٢) رسائل الجاحظ ٢/٢٢٣، والبيان والتبيين ٢/١٥-١٦.
 - (٣) النهاية ٥/٧٤، والحديث من الأمثال في المستقصى ٢/٢٧٧، والفاخر ٣١٢، ومجمع الأمثال ٢/٢٢٥، وجمهرة الأمثال ٢/٤٠٣.
 - (٤) تمام الحديث في النهاية ١/٣٣٧ «من مات حتف أنفه في سبيل الله فهو شهيد»، والحديث من الأمثال في المستقصى ٢/٣٣٨، ومجمع الأمثال ٢/٢٦٦.
 - (٥) النهاية ٢/٩٤ «أراد: يافسان خيل الله اركبي، وهذا من أحسن المجازات والطفها» وهو من الأمثال في مجمع الأمثال ٢/١٨٢.
 - (٦) هذا مثل يضرب لمن يفضل أقرانه، وهو في مجمع الأمثال ٢/١٣٦، وجمهرة الأمثال ١/١٦٥، ٢/١٣٦، ١٦٢، والمستقصى ٢/٢٢٤، وفصل المقال ١٠-١١، وأمثال ابن سلام ٣٥، والأغاني ٢/٣٤٤-٣٤٥ في أخبار أبي سفيان.
 - (٧) أخرجه البخاري في الأدب برقم ٥٧٨٢، ومسلم في الزهد والرقائق برقم ٢٩٩٨. وهو من الأمثال في مجمع الأمثال ٢/٢١٥، والمستقصى ٢/٢٧٦، وجمهرة الأمثال ٢/٣٨٦، وأمثال ابن سلام ٣٨، والفاخر ٣٠٣.
 - (٨) النهاية ٢/٥٠٤. الشئنة: السجية والطبيعة، وأول من قاله أبو أخزم الطائي. وذلك أن أخزم كان عاقاً لأبيه، فمات وترك بنين عقوا جدهم وضربوه، وهذا القول من الأمثال في مجمع الأمثال ١/١٦١، وفصل المقال ٢١٩، والمستقصى ٢/١٣٤، وأمثال ابن سلام ١٤٤، وجمهرة الأمثال =

ﷺ أَنَّهُ قَالَ: « لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ خَبَثَ نَفْسِي وَلَكِنْ لِيَقُلْ لَقِسْتَ نَفْسِي »^(١)، كَأَنَّهُ كَرِهَ ﷺ أَنْ يَضِيفَ الْمُؤْمِنُ الطَّاهِرُ إِلَى نَفْسِهِ الْخُبْثَ وَالْفَسَادَ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوَجْهِهِ.

وَجَاءَ عَنْ عُمَرَ وَمُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِمَا النَّهْيُ عَنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِفُلَانٍ، بَلْ يُقَالُ مَاتَ فُلَانٌ. وَيُقَالُ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِ الْغَيْبِ وَاسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِكَذَا وَكَذَا.

قَالَ النَّخَعِيُّ: كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يُقَالَ: قِرَاءَةُ عَبْدِ اللَّهِ، وَقِرَاءَةُ سَالِمٍ، وَقِرَاءَةُ أَبِي، وَقِرَاءَةُ زَيْدٍ. وَكَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَقُولُوا سَنَّةُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ، بَلْ يُقَالُ سَنَّةُ اللَّهِ وَسَنَّةُ رَسُولِهِ، وَيُقَالُ فُلَانٌ يَقْرَأُ بِوَجْهِهِ كَذَا، وَفُلَانٌ يَقْرَأُ بِوَجْهِهِ كَذَا.

وَكَرِهَ مُجَاهِدٌ أَنْ يَقُولُوا مُسَيِّجِدٌ وَمُصَيِّحِفٌ، لِلْمَسْجِدِ الْقَلِيلِ الذَّرْعِ، وَالْمَصْحَفِ الْقَلِيلِ الْوَرَقِ. وَيَقُولُ: هُمْ وَإِنْ لَمْ يَرِيدُوا التَّصْغِيرَ فَإِنَّهُ بِذَلِكَ شَبِيهٌ.

٢٤٦ - [تصغير الكلام]

وَرَبَّمَا صَغَّرُوا الشَّيْءَ مِنْ طَرِيقِ الشَّفَقَةِ وَالرَّقَّةِ^(٢)، كَقَوْلِ عُمَرَ: أَخَافُ عَلَى هَذَا الْعَرِيبِ. وَلَيْسَ التَّصْغِيرُ بِهِمْ يَرِيدُ. وَقَدْ يَقُولُ الرَّجُلُ: إِنَّمَا فُلَانٌ أَحْيِيٌّ وَصُدَيْقِي؛ وَلَيْسَ التَّصْغِيرُ لَهُ يَرِيدُ. وَذَكَرَ عُمَرُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: « كُنَيْفٌ مُلْمِئٌ عَلَمًا »^(٣). وَقَالَ الْحُبَابُ بْنُ الْمَنْذَرِ يَوْمَ السَّقِيْفَةِ: « أَنَا جُدَيْلِيهَا الْمَحْكُوكُ، وَعُدَيْقِيهَا الْمَرْجَبُ »^(٤). وَهَذَا كَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِعَائِشَةَ: « الْحُمَيْرَاءُ »^(٥)، وَكَقَوْلِهِمْ لِأَبِي قَابُوسَ الْمَلِكِ: أَبُو قُبَيْسٍ. وَكَقَوْلِهِمْ: دَبَّتْ إِلَيْهِ دُونَهِيَةَ الدَّهْرِ، وَذَلِكَ حِينَ أَرَادُوا لَطَافَةَ الْمُدْخَلِ وَدَقَّةَ الْمَسْلُوكِ.

وَيُقَالُ إِنَّ كُلَّ فُعِيلٍ فِي أَسْمَاءِ الْعَرَبِ فَإِنَّمَا هُوَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، كَقَوْلِهِمْ

= ٥٤١/١، وَهُوَ مِنَ الرَّجَزِ لِأَبِي أَخْزَمِ الطَّائِي فِي اللِّسَانِ (رَمَلٌ، خَزَمٌ، شَنْنٌ)، وَالتَّاجِ (رَمَلٌ، خَزَمٌ)، وَمَجْمَلِ اللُّغَةِ ١٨٣/٢، وَلَعْقِيلِ بْنِ عُلْفَةَ فِي نَوَادِرِ الْمَخْطُوطَاتِ ٣٥٨/٢، وَجَمْهَرَةَ اللُّغَةِ ٥٩٦، وَبَلَا نِسْبَةَ فِي الْمَخْصَصِ ٩٤/٦، وَالتَّاجِ (نَشْشٌ)، وَتَهْذِيبِ اللُّغَةِ ٢١٨/٧، ٢٨١/١١، وَالتَّعَارُزِيِّ وَالْمَرَاثِيِّ ١٣١.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ بِرَقْمِ ٥٨٢٥، ٥٨٢٦، وَمُسْلِمٌ فِي الْأَلْفَاظِ مِنَ الْأَدَبِ بِرَقْمِ ٢٢٥٠، ٢٢٥١.

(٢) انْظُرِ الْكِتَابَ لِسَبْيُوهِ ٤١٥/٣-٤٩٦.

(٣) النِّهَايَةُ ٢٠٥/٤، الْكِنْفُ: الْوَعَاءُ.

(٤) النِّهَايَةُ ٢٥١/١، ٤١٨، ١٩٧/٢، ١٩٩/٣، ٢٠٥/٤، وَهُوَ مِنَ الْأَمْثَالِ فِي مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ ٣١/١، وَالْمُسْتَقْصَى ٣٧٧/١، وَأَمْثَالُ ابْنِ سَلَامٍ ١٠٣، وَالدَّرَةُ الْفَاخِرَةُ ٣٦٨/٢.

(٥) تَمَامُ الْحَدِيثِ فِي النِّهَايَةِ ٤٣٨/١ « خَذُوا شَطْرَ دِينِكُمْ مِنَ الْحُمَيْرَاءِ » يَرِيدُ: الْبَيْضَاءَ.

المُعَيْدِيّ، وكنحو: سُليم، وضمير، وكليب، وعُقير، وجُعيل، وحُميد، وسُعيد، وجُبير؛ وكنحو عُبيد، وعُبيد الله، وعُبيد الرماح. وطريق التحقير والتصغير إنّما هو كقولهم: نُجيل ونُدِيل. قالوا: ورُبّ اسمٍ إذا صغرتَه كان أملاً للصّدْر، مثل قولك أبو عبيد الله، هو أكبر في السماع من أبي عبد الله، وكعب بن جُعيل، هو أفخم من كعب بن جعل. وربّما كان التصغير خلقةً وبنيةً، لا يتغيّر، كنحو الحُميّا والسُكيت، وجُنيدة، والقطيعة، والمريطاء، والسُميراء، والمليساء - وليس هو كقولهم القُصيرى، وفي كبيدات السماء والثريا.

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: دَققت البابَ على رسول الله ﷺ، فقال: من هذا؟ فقلت: أنا. فقال: أنا! كأنه كره قولِي أنا^(١).

وحدّثني أبو عليّ الأنصاري، وعبد الكريم الغفاريّ قالاً: حدّثنا عيسى بن حاضر قال: كان عمرو بن عبّيد يجلس في داره، وكان لا يدعُ بابَه مفتوحاً، فإذا قرعه إنسان قام بنفسه حتّى يفتحه له. فأتيتُ الباب يوماً فقرعته فقال: من هذا؟ فقلت: أنا. فقال: ما أعرف أحداً يسمّى أنا. فلم أقلُ شيئاً وقيمتُ خلفَ الباب، إذ جاء رجلٌ من أهل خراسان فقرعَ الباب، فقال عمرو: من هذا؟ فقال: رجلٌ غريبٌ قدم عليك، يلتمس العلم. فقام له ففتح له الباب، فلمّا وجدتُ فرجةً أردتُ أن ألجَ الباب، فدفعَ البابَ في وجهي بعنف، فاقمتُ عنده أياماً ثم قلتُ في نفسي: والله إنّي يومَ أتغضبُ على عمرو بن عبّيد، لغيرِ رشيدِ الرأي. فأتيتُ البابَ فقرعته عليه فقال: من هذا؟ فقلت: عيسى بن حاضر. فقام ففتح لي الباب.

وقال رجل عند الشّعبيّ: أليس الله قال كذا وكذا! قال: وما علّمك؟ وقال الربيع بن خثيم: اتّقوا تكذيبَ الله، ليتّق أحدكم أن يقولَ قال الله في كتابه كذا وكذا، فيقول الله كذبتَ لم أقله.

وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: لا يقل أحدكم أهريقُ الماء ولكن يقول أبول.

وسأل عمرُ رجلاً عن شيءٍ، فقال: الله أعلم. فقال عمر: قد خزينا إن كُنّا لا نعلم أنّ الله أعلم؛ إذا سئل أحدكم عن شيءٍ فإن كان يعلمه قاله، وإن كان لا يعلمه قال: لا أعلم لي بذلك.

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان برقم ٥٨٩٦، ومسلم في الآداب برقم ٢١٥٥.

وسمعَ عمر رجلاً يدعو ويقول؛ اللهم اجعلني من الأقلين! قال: ما هذا الدعاء؟ قال: إني سمعت الله عز وجل يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾^(١) وقال: ﴿وَمَا أَمِنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٢). قال عمر: عليك من الدعاء بما يعرف.

وكره عمر بن عبد العزيز قولَ الرجل لصاحبه: ضعه تحت إبطك، وقال: هلاً قلت تحت يدك وتحت منكبك! وقال مرة - وراث فرس بحضرة سليمان - فقال: ارفعوا ذلك النثيل^(٣). ولم يقل ذلك الروث.

وقال الحجَّاج لأم عبد الرحمن بن الأشعث: عمَدتُ إلى مال الله فوضعتَه تحتَ. كأنه كره أن يقول على عادة الناس: تحت استك، فتلجج خوفاً من أن يقول قذعاً أو رقتاً، ثم قال: تحت ذيلك.

وقال النبي ﷺ: «لا يقولن أحدكم لمملوكه عبدي وأمتي، ولكن يقول: فتاي وفتاتي، ولا يقول المملوكُ ربِّي وربَّتِي، ولكن يقول سيدي وسيدي»^(٤).

وكره مطرف بن عبد الله، قولَ القائل للكلب: اللهم أخزه.

وكره عمران بن الحصين، أن يقول الرجل لصاحبه: «أنعم الله بك عيناً»؛ و«لا أنعم الله بك عيناً».

وقد كرهوا أشياء مما جاءت في الروايات لا تُعرف وجوهها، فرأي أصحابنا: لا يكرهونها. ولا نستطيع الرد عليهم، ولم نسمع لهم في ذلك أكثر من الكراهة. ولو كانوا يروون الأمور مع عللها وبرهاناتها خفت المؤنة، ولكن أكثر الروايات مجردة، وقد اقتصرنا على ظاهر اللفظ دون حكاية العلة، ودون الإخبار عن البرهان. وإن كانوا قد شاهدوا النوعين مشاهدةً واحدةً واحدةً.

قال ابن مسعود وأبو هريرة^(٥): «لا تسموا العنب الكرم؛ فإن الكرم هو الرجل المسلم»^(٦).

(١) ١٣/سبأ: ٣٤.

(٢) ٤٠/هود: ١١.

(٣) النهاية ١٦/٥.

(٤) أخرجه البخاري في العتق برقم ٢٤١٤، ومسلم في الألفاظ من الادب برقم ٢٢٤٩.

(٥) النهاية ١٦٧/٤.

(٦) أخرج البخاري في الادب برقم ٥٨٢٨: «لا تسموا العنب الكرم، ولا تقولوا: خيبة الدهر، فإن الله

هو الدهر»، وأخرجه مسلم في الألفاظ من الادب برقم ٢٢٤٧، وأخرج البخاري برقم ٥٨٢٩

«ويقولون الكرم، إنما الكرم قلب المؤمن».

وقد رفعوا ذلك إلى النبي ﷺ .

وأما قوله: « لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ الدَّهْرَ هُوَ اللَّهُ »^(١) فما أحسن ما فسّر ذلك عبد الرحمن بن مهديّ قال: وجهُ هذا عندنا، أنَّ القوم قالوا: ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾^(٢) فلما قال القوم ذلك، قال النبي ﷺ: « ذلك الله ». يعني أن الذي أهلك القرون هو الله عزّ وجلّ، فتوهم منه المتوهم أنه إنما أوقع الكلام على الدهر.

وقال يونس: وكما غلطوا في قول النبي ﷺ لحسان: « قُلْ وَمَعَكَ رُوحُ الْقُدُسِ »^(٣) فقالوا: قال النبي ﷺ لحسان: قُلْ وَمَعَكَ جبريل^(٤)؛ لأنَّ روح القدس أيضاً من أسماء جبريل. ألا ترى أن موسى قال: « لَيْتَ أَنَّ رُوحَ اللَّهِ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ » وهو يريد العصمة والتوفيق. والنصارى تقول للمتنبّي: معه روح دكالا، ومعه روح سيفرت. وتقول اليهود: معه روح بعلزبول، يريدون شيطانا. فإذا كان نبياً قالوا: روحه روح القدس، وروحه روح الله، وقال الله عزّ وجلّ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ﴾^(٥)، يعني القرآن.

وسمع الحسن رجلاً يقول: طلع سهيل وبرد الليل. فكره ذلك وقال: إن سهيلاً لم يأت بحر ولا ببرد قط. ولهذا الكلام مجاز ومذهب، وقد كره الحسن كما ترى.

وكره مالك بن أنس أن يقول الرجل للغيم والسحابة: ما أخلقها للمطر! وهذا كلام مجازه قائم، وقد كرهه ابن أنس. كأنهم من خوفهم عليهم العود في شيء من أمر الجاهلية، احتاطوا في أمورهم، فمنعواهم من الكلام الذي فيه أدنى متعلّق.

وروا أن ابن عباس قال: لا تقولوا والذي خاتمته على فمي، فإنما يختم الله عزّ وجلّ على فم الكافر. وكره قولهم: قوس قزح. وقال: قزح شيطان^(٦)، وإنما ذهبوا إلى

(١) أخرج البخاري في الأدب برقم ٥٨٢٧، وفي التوحيد برقم ٧٠٥٣ « قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر ». وانظر الحاشية السابقة.

(٢) ٢٤ / الجاثية: ٤٥.

(٣) أخرج البخاري في المساجد برقم ٤٤٢، وفي بدء الخلق برقم ٣٠٤٠، وفي الأدب ٥٨٠٠، ومسلم في فضائل الصحابة برقم ٢٤٨٥ « اللهم أيده بروح القدس ». وانظر الاغاني ٤ / ١٣٧، ١٤٣، ١٤٨.

(٤) أخرج البخاري في بدء الخلق برقم ٣٠٤١، وفي الأدب برقم ٥٨٠١، ومسلم في فضائل الصحابة برقم ٢٤٨٦ « اهجهم - أو هاجهم - وجبريل معك ».

(٥) ٥٢ / الشورى: ٤٢.

(٦) النهاية ٤ / ٥٧، وثمار القلوب (٧٨).

التعريض والتلوين، كأنه كره ما كانوا عليه من عادات الجاهلية. وكان أحب أن يقال قوس الله، فيرفع من قدره، كما يقال بيت الله، وزوار الله، وأرض الله، وسماء الله، وأسد الله^(١).

وقالت عائشة رضي الله عنها: «قولوا لرسول الله ﷺ خاتم النبيين، ولا تقولوا: لا نبي بعده» فالأ تكمن ذهباً إلى نزول المسيح فما أعرف له وجهاً إلا أن تكون قالت لا تغيروا ما سمعتم، وقولوا كما قيل لكم، والفظوا بمثله سواء.

وكره ابن عمر رضي الله عنهما قول القائل: أسلمت في كذا وكذا، وقال: ليس الإسلام إلا لله عز وجل. وهذا الكلام مجازه عند الناس سهل، وقد كرهه ابن عمر، وهو أعلم بذلك.

وكره ابن عباس رضي الله عنهما قول القائل: أنا كسلان.
وقال عمر: لا تسموا الطريق السكّة.

وكره أبو العالية قول القائل: كنت في جنازة، وقال: قل تبعت جنازة. كأنه ذهب إلى أنه عنى أنه كان في جوفها، وقال قل تبعت جنازة. والناس لا يريدون هذا، ومجاز هذا الكلام قائم، وقد كرهه أبو العالية، وهي عندي شبيهة بقول من كره أن يقول: أعطاني فلان نصف درهم. وقال: إذا قلت: كيف تكيل الدقيق؟ فليس جوابه أن تقول: القفيز بدئنيير، ولكن يتناول القفيز ثم يكيل به الدقيق، ويقول: هكذا الكيلة وهذا من القول مسخوطاً!

وكره ابن عباس قول القائل: الناس قد انصرفوا، يريد من الصلاة، قال بل قولوا: قد قَضَوْا الصلاة، وقد فرغوا من الصلاة، وقد صلُّوا؛ لقوله: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ﴾^(٢)، قال: وكلام الناس: كان ذلك حين انصرفنا من الجنازة، وقد انصرفوا من السوق، وانصرف الخليفة، وصرف الخليفة الناس من الدار اليوم بخير، وكنت في أوّل المنصرفين. وقد كرهه ابن عباس. ولو أخبرونا بعلته انتفعنا بذلك.

وكره حبيب بن أبي ثابت، أن يقال للحائض طامث، وكره مجاهد قول القائل: دخل رمضان، وذهب رمضان، وقال: قولوا شهر رمضان، فلعل رمضان اسم من أسماء الله تعالى.

(١) انظر ثمار القلوب (٥٧-٩٦) «الباب الأول فيما يضاف إلى اسم الله تعالى عز ذكره».

(٢) ١٢٧ / التوبة: ٩.

قال أبو إسحاق: إنما أتى من قبل قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (١) فقد قال الناس يوم التروية، ويوم عرفة ولم يقولوا عرفة.

٢٤٧ - [رأي النظام في بعض المفسرين]

كان أبو إسحاق يقول: لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين، وإن نصبوا أنفسهم للعامة، وأجابوا في كل مسألة؛ فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية على غير أساس، وكلما كان المفسر أعرب عندهم كان أحب إليهم، وليكن عندكم عكرمة، والكلبي، والسدي، والضحاك، ومقاتل بن سليمان، وأبو بكر الأصم، في سبيل واحدة. فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلي صوابهم، وقد قالوا في قوله عز وجل: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ (٢): إن الله عز وجل لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التي نصلي فيها، بل إنما عنى الجبابة وكل ما سجد الناس عليه: من يد ورجل، وجبهة وأنف وثفنة.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (٣): إنه ليس يعني الجمال والنوق، وإنما يعني السحاب (٤).

وإذا سئلوا عن قوله: ﴿وَطَلْحَ مَنْضُودٍ﴾ (٥) قالوا: الطلح هو الموز.

وجعلوا الدليل على أن شهر رمضان قد كان فرضاً على جميع الأمم وأن الناس غيره، قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (٦).

وقالوا في قوله تعالى: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (٧) قالوا: يعني أنه حشره بلا حجة.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (٨): الويل واد في جهنم. ثم قعدوا

-
- (١) ١٨٥ / البقرة: ٢.
 - (٢) ١٨ / الجن: ٧٢.
 - (٣) ١٧ / الفاشية: ٨٨.
 - (٤) عمدة الحفاظ (إبل).
 - (٥) ٢٩ / الواقعة: ٥٦.
 - (٦) ١٨٣ / البقرة: ٢.
 - (٧) ١٢٥ / طه: ٢٠.
 - (٨) ١ / المطففين: ٨٣.

يصفون ذلك الوداي. ومعنى الوديل في كلام العرب معروف، وكيف كان في الجاهلية قبل الإسلام، وهو من أشهر كلامهم!

وسئلوا عن قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾^(١) قالوا: الفلق: وادٍ في جهنم، ثم قعدوا يصفونه. وقال آخرون: الفلق: المقطرة بلغة اليمن.

وقال آخرون في قوله تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾^(٢) قالوا: أخطأ من وصل بعض هذه الكلمة ببعض. قالوا: وإنما هي: سَلُّ سَبِيلًا إِلَيْهَا يا محمد. فإن كان كما قالوا فإين معنى تسمى، وعلى أي شيء وقع قوله تسمى فتسمى ماذا، وما ذلك الشيء؟

وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾^(٣) قالوا الجلود كناية عن الفروج. كأنه كان لا يرى أن كلام الجلد من أعجب العجب!

وقالوا في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّا يَا كُلَّانَ الطَّعَامِ﴾^(٤): إن هذا إنما كان كناية عن الغائط. كأنه لا يرى أن في الجوع وما ينال أهله من الذلّة والعجز والفاقة، وأنه ليس في الحاجة إلى الغذاء - ما يكتفى به في الدلالة على أنهما مخلوقان، حتى يدعى على الكلام ويدعى له شيئاً قد أغناه الله تعالى عنه.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَتِيَابِكَ فَطَهَّرُ﴾^(٥): إنه إنما عنى قلبه.

ومن أعجب التاويل قول اللّحياني: (الجبار) من الرجال يكون على وجوه: يكون جباراً في الضخّم والقوّة، فتأول قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾^(٦) قال: ويكون جباراً على معنى قتالاً، وتأول في ذلك: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾^(٧)، وقوله لموسى ﷺ: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾^(٨) أي قتالاً بغير حق. والجبار: المتكبر عن عبادة الله تعالى، وتأول قوله عز وجل: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا

(١) الفلق: ١١٣.

(٢) الإنسان: ٧٦.

(٣) فصلت: ٤١.

(٤) المائدة: ٥٥.

(٥) المدثر: ٧٤.

(٦) المائدة: ٥٥.

(٧) الشعراء: ٢٦.

(٨) القصص: ٢٨.

عَصِيًّا ﴿١﴾، وتَأَوَّلَ فِي ذَلِكَ قَوْلَ عَيْسَى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ ﴿٢﴾ أَي لَمْ يَجْعَلْنِي مُتَكَبِّرًا عَنْ عِبَادَتِهِ، قَالَ: الْجَبَّارُ: الْمَسْلُطُ الْقَاهِرُ، وَقَالَ: وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ ﴿٣﴾ أَي مَسْلُطٌ فَتَقَهَّرَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ. وَالْجَبَّارُ: اللَّهُ.

وتَأَوَّلَ أَيْضًا (الخوف) عَلَى وَجْهِهِ، وَلَوْ وَجَدَهُ فِي أَلْفِ مَكَانٍ لَقَالَ: وَالْخَوْفُ عَلَى أَلْفِ وَجْهِ، وَكَذَلِكَ الْجَبَّارُ. وَهَذَا كَلَّمَهُ يَرْجِعُ إِلَى مَعْنَى وَاحِدٍ؛ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُوَصَّفَ بِهِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

٢٤٨ - [تكلف بعض القضاة في أحكامهم]

وقال رجل لعُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ الْقَاضِي: إِنَّ أَبِي أَوْصَى بِثُلُثِ مَالِهِ فِي الْحَصُونِ. قَالَ: أَذْهَبُ فَاشْتَرِ بِهِ خَيْلًا، فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنَّهُ إِنَّمَا ذَكَرَ الْحَصُونَ! قَالَ: أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الْأَسْعَرِ الْجُعْفِيِّ: [من الكامل]

ولقد علمت على تجنبي الردى أن الحصون الخيل لا مدر القرى (٤)

فِينْبَغِي فِي مِثْلِ هَذَا الْقِيَاسِ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، أَنَّهُ مَا قِيلَ لِلْمَدَنِ وَالْحَصُونِ حَصُونَ إِلَّا عَلَى التَّشْبِيهِ بِالْخَيْلِ.

وَخَبَّرَنِي النَّوْشِرَوَانِيُّ قَالَ: قُلْتُ لِلْحَسَنِ الْقَاضِي: أَوْصَى جَدِّي بِثُلُثِ مَالِهِ لِأَوْلَادِهِ، وَأَنَا مِنْ أَوْلَادِهِ. قَالَ: لَيْسَ لَكَ شَيْءٌ. قُلْتُ: وَلَمْ؟ قَالَ: أَوْ مَا سَمِعْتَ قَوْلَ الشَّاعِرِ: [من الطويل]

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد (٥)

قال: فشكوت ذلك إلى فلان فزادني شراً.

وَقَالُوا فِي قَوْلِهِ ﴿٦﴾: مَا سَاءَكَ وَنَاءَكَ: نَاءَكَ، أَبْعَدَكَ. قَالُوا: وَسَاءَكَ أُبْرَصَكَ. قَالَ: لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ ﴿٧﴾. وَيُسُّ التَّكْلُفَ.

(١) ١٤ / مريم: ١٩.

(٢) ٣٢ / مريم: ١٩.

(٣) ٤٥ / ق: ٥٠.

(٤) البيت في الأصمعيات ١٤١، والوحشيات ٤٣، واللسان والتاج وأساس البلاغة (حصن)، وتهذيب اللغة ٤ / ٢٤٧.

(٥) البيت للفرزدق في ديوانه ٢١٧ (الصاوي)، والخزانة ١ / ٤٤٤، وبلا نسبة في الإنصاف ١ / ٦٦، وشرح المفصل ١ / ٩٩، ١٣٢ / ٩، ومغني اللبيب ٢ / ٤٥٢، والدرر ٢ / ٢٤، وجمع الهوامع ١ / ١٠٢.

(٦) ورد القول في أساس البلاغة (سوء).

(٧) ١٢ / النمل: ٢٧، ٣٢ / القصص: ٢٨.

وقال ابن قميئة: [من الطويل]

وحمال أثقال إذا هي اعرضت على الأصل لا يسطيعها المتكلف^(١)

وقال الله وهو يخبر عن نبيه ﷺ: ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾^(٢).

وليس يؤتَى القوم إلا من الطمع، ومن شدة إعجابهم بالغريب من التأويل.

٢٤٩ - [رأي في فقه أبي حنيفة]

وسئل حفص بن غياث، عن فقه أبي حنيفة، فقال: أعلم الناس بما لم يكن،

وأجهل الناس بما كان^(٣)!

وقالوا في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾^(٤) قالوا: النعيم: الماء

الحار في الشتاء، والبارد في الصيف.

٢٥٠ - [الصرورة]

ومن الأسماء المحدثة التي قامت مقام الأسماء الجاهلية، قولهم في الإسلام

لمن لم يحج: صرورة.

وأنت إذا قرأت أشعار الجاهلية وجدتهم قد وضعوا هذا الاسم على خلاف هذا

الموضع. قال ابن مقروم الضبي: [من الكامل]

لو أنها عرّضت لأشمط راهبٍ عبد الإله صرورة متبتل^(٥)

لدنا لبهجتها وحسن حديثها ولهم من تأموره بتنزل

والصرورة عندهم إذا كان أرفع الناس في مراتب العبادة، وهو اليوم اسم للذي لم

يحج إما لعجزه، وإما لتضييعه، وإما لإنكاره. فهما مختلفان كما ترى.

٢٥١ - [ألفاظ القرآن الكريم]

فإذا كانت العرب يشتقون كلاماً من كلامهم وأسماءً من أسمائهم، واللغة

(٢) ديوان عمرو بن قميئة ٨٠، والبيان والتبيين ١٨/٢.

(٣) ٨٦ / ص: ٣٨.

(٤) ورد الخبر في البيان والتبيين ٢/٢٥٣، والبرصان والعرجان ٣-٤.

(٥) ٨ / التكاثر: ١٠٢.

(٦) ديوان ربيعة بن مقروم ٢٦٧، والأغاني ١٠٢/٢٢، والأول في اللسان (بتل)، وتهذيب اللغة

٢٩١/١٤، وبلا نسبة في العين ٨/١٢٤، والثاني في اللسان (تمر).

عارية في أيديهم ممن خلقهم ومكّنهم وألهمهم وعلمهم، وكان ذلك منهم صواباً عند جميع الناس؛ فالذي أعارهم هذه النعمة أحق بالاشتقاق وأوجب طاعة. وكما أن له أن يبتدئ الأسماء؛ فكذلك له أن يبتدئها مما أحب.. قد سمي كتابه المنزل قرآناً، وهذا الاسم لم يكن حتى كان، وجعل السجود للشمس كفراً، فلا يجوز أن يكون السجود لها كفراً إلا وترك ذلك السجود بعينه يكون إيماناً، والترك للشيء لا يكون إلا بالجراحة التي كان بها الشيء، وفي مقداره من الزمان، وتكون بدلا منه وعقبا. فواحدة أن يسمى السجود كفراً، وإذا كان كفراً كان جحوداً وإذا كان جحوداً كان شركاً، والسجود ليس بجحد، والجحد ليس بإشراك إلا أن تصرفه إلى الوجه الذي يصير به إشراكاً.

٢٥٢ - [ما اشتق من نباح الكلاب]

وقال طفيل الغنوي: [من الطويل]

عَوَازِبُ لَمْ تَسْمَعْ نُبُوحَ مَقَامَةٍ ولم تَرَنَارًا تَمَّ حَوْلِ مَجْرَمٍ (١)
وإنما أخذ ذلك للجميع من نباح الكلاب.

وذكروا أن الظبي إذا أسنَّ ونبتت لقرونه شُعبٌ نبح، وهو قول أبي دؤاد: [من

الهجج]

وَقَصْرَى شَنْجِ الْأَنْسَاءِ نَبَاحٍ مِنَ الشَّعْبِ (٢)

يعني من جهة الشعب؛ وأنشد بعضهم: [من الطويل]

وَيَنْبَحُ بَيْنَ الشَّعْبِ نَبْحًا كَأَنَّهُ نُبَاحُ سَلُوقٍ أَبْصَرَتْ مَا يُرِيبُهَا (٣)
وَبَيضُهَا الْهَزْلُ الْمَسُودُ غَيْرَهَا كَمَا أبيضٌ عَنِ حَمَضِ الْمَرَا حِمٍ نَيْبُهَا

لأن الظبي إذا هزل أبيض، والبعير يشيب وجهه من أكل الحمض. وكذلك قال

ابن لجأ: [من الرجز]

* شَابَتْ وَلَمَّا تَدُنْ مِنْ ذَكَائِهَا (٤) *

(١) ديوان طفيل الغنوي ٧٧، وأمالي القالي ٨٣/٢، وأساس البلاغة (تمم، نبح).

(٢) البيت لابي دؤاد في ديوانه ٢٨٨، واللسان (شعب، شنج، نبح، قصر)، والمعاني الكبير ١٤٢، ولعقبة بن سابق في الأصمعيات ٤١، وبلا نسبة في همع الهوامع ١٢٠/٢، والمقرب ١/٢٢٨. قصرى: أسفل الأضلاع. شنج: متقبض. الشعب: الظباء التي طالت قرونها وتشعبت.

(٣) البيتان بلا نسبة في المعاني الكبير ٦٩٥، والأول في اللسان (نبح، عجل)، وتهذيب اللغة ١١٨/٥.

(٤) ديوان عمر بن لجأ ١٥٢، والبرصان والعرجان ٤٣، والمعاني الكبير ٦٩٥، ٧٩٠.

كما قال الآخر: [من الرجز]

أكلن حمضاً فالوجوه شيبُ شربن حتى نزع القلب^(١)

وقد تصير الناقة الحمراء إذا أتمت حبشية. ولذلك قال الشاعر: [من الكامل]

* حمراء لا حبشية الإتمام *

وما أشبه ذلك بقول العبدى: [من الطويل]

وداويتها حتى شتت حبشيةً كأن عليها سندساً وسدوساً^(٢)

والدواء: اللبن، فلذلك تصير الفرس إذا ألفت شعرها وطرت، تستديل هذا

اللون.

وقال خالد بن الصقعب النهدي: [من الوافر]

هبطنا بعد عهدك بطن خبتِ تظل حمامه مثل الخصوم^(٣)

كان عرين أيكته تلاقى به جمعان من نبط وروم

نباح الهدهد الحولي فيه كنبج الكلب في الأنس المقيم

ويقال إن الهدهد ينبج. وربما جعلوا الهدهد، الذي ينبج، الحمام الذكر. قال

الشاعر - وهو يصف الحمام الذكر كيف يصنع فيها: [من الكامل]

وإذا استترن أرناً فيها هدهد مثل المداك خضبتة بجساد^(٤)

وقال طفيل في النُبوح والمجاعات: [من الطويل]

وأشعث تزهاه النُبوح مدفع عن الزاد مما جلف الدهر محتل^(٥)

(١) البيت الأول بلا نسبة في اللسان، والتاج (علاج، هرم)، والمقاييس ٤/١٢٢، وجمهرة اللغة ٨٠٤.

(٢) البيت ليزيد بن الخدّاق في المفضليات ٥٩٧، وشرح اختيارات المفضل ١٢٨٢، واللسان والتاج

(سدس)، وبلا نسبة في المخصص ٤/٧٨، ٦/١٨٧، وتهذيب اللغة ١٤/٢٢٧، واللسان

(دوا)، وأساس البلاغة (دوي)، وجمهرة اللغة ٢٣٣.

(٣) الأبيات لخالد بن الصقعب في الحماسة الشجرية ٢٨٩، والبيتان الثاني والثالث في أساس البلاغة

(نبط).

(٤) المداك: حجر يسحق عليه الطيب. الجساد: الزعفران.

(٥) ديوان طفيل الغنوي ٧٠، والتاج (دفع)، والعين ٢/٤٦، ٣/٢٠٦، ٢٥٢، وبلا نسبة في اللسان

(حتل)، والمخصص ٢/١٣٦.

وقال الجعدي: [من المتقارب]

وَلَا نَبْصِرُ الْحَيَّ إِلَّا التَّمَاثَا^(١)

فلما دَنَوْنَا لَصَوْتِ النَّبَاحِ

وقال ابن عبدل: [من الكامل]

ورَفَعْتُ صَوْتًا مَا بِهِ بَحْحُ
فِي الشَّعْرَانِ سَكَّتُوا وَإِنْ نَبَّحُوا

أَلَيْتُ إِذْ أَلَيْتُ مُجْتَهِدًا
لَا يُدْرِكُ الشَّعْرَاءُ مَنْزِلَتِي

وقال عمرو بن كلثوم: [من الوافر]

وَشَدُّ بِنَا قَتَادَةَ مَنْ يَلِينَا^(٢)

وَقَدْ هَرَّتْ كِلَابُ الْحَيِّ مِنَّا

وقال بعض العلماء: كلاب الحي شعراؤهم، وهم الذين ينبحون دونهم، ويحمون أعراضهم. وقال آخرون: إن كلاب الحي كل عقور، وكل ذي عيون أربع.

وأما قوله: [من الوافر]

رِمَاحَ بَنِي مَقِيدَةَ الْحِمَارِ^(٣)
رِمَاحَ الْجَنِّ أَوْ إِيَّاكَ حَارِ

لَعَمْرُكَ مَا خَشِيتُ عَلَى أَبِي
وَلَكِنِّي خَشِيتُ عَلَى أَبِي

فالتَّوَاعِينُ هِيَ عِنْدَ الْعَرَبِ رِمَاحُ الْجَنِّ. وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ الطَّاعُونَ وَخَزْمَ الشَّيْطَانِ»^(٤).

وقال أبو سلمى: [من الرجز]

لَا بَدَّ لِلسُّودِّدِ مِنْ أَرْمَاحِ وَمَنْ سَفِيهِ دَائِمِ النَّبَاحِ
وَمَنْ عَدِيدٍ يُتَّقَى بِالرَّاحِ^(٥)

وقال الأعشى: [من الرمل]

مِثْلَ أَيَّامٍ لَنَا نَعْرِفُهَا
هَرَّ كَلْبُ النَّاسِ فِيهَا وَتَبَّحُ^(٦)

(١) ديوان النابغة الجعدي ٨٠، والاقْتَضَابُ ٤٠٧، والأغاني ٦/٥.

(٢) البيت لعمر بن كلثوم في شرح القصائد السبع ٣٩٠، وشرح القصائد العشر ٣٣٣، وجمهرة أشعار العرب ١/٣٩٥، والتاج (هقق).

(٣) البيتان لفاخته بنت عدي في الأغاني ١١/٢٠٠، والحماسة البصرية ١/٢٧٠، وشرح أبيات سيبويه ٢/١٩٨، وبلا نسبة في مجالس ثعلب ٥٧٤، والكتاب ٢/٣٥٧، وأساس البلاغة (رمح)، واللسان (رمح، قيد، حمر)، والتاج (رمح، قيد)، ومجالس ثعلب ٥٣ (١٤٣). بنو مقيدة الحمار: العقارب.

(٤) الحديث لعمر بن العاص في النهاية ٥/١٦٣.

(٥) الرجز بلا نسبة في البيان والتبيين ٣/٣٣٥، وأساس البلاغة (هرر).

(٦) ديوان الأعشى ٢٩١، ٢٩٣.

رُزْنُ الْأَحْلَامِ فِي مَجْلِسِهِمْ

كَلَّمَا كَلَّبٌ مِنَ النَّاسِ نَبَحٌ

وقال: [من الطويل]

سَيَبِيحُ كَلْبِي جَاهِداً مِنْ وِرَائِكُمْ

وَأَغْنِي غَنَائِي عَنْكُمْ أَنْ أُؤَنِّبَا^(١)

وقال أبو ذؤيب: [من الطويل]

وَلَا هَرَّهَا كَلْبِي لِيَبْعِدَ تَعْرِهَا

وَلَوْ نَبَحْتَنِي بِالشُّكَاةِ كَلَابِهَا^(٢)

كلابها: شعراؤها، وهو قول بشر بن أبي خازم: [من الوافر]

وَأِنِّي وَالشُّكَاةَ لَأَلِ لَأَمٍ

كَذَاتِ الضُّغْنِ تَمْشِي فِي الرَّفَاقِ^(٣)

وقال أبو زبيد: [من الطويل]

أَلَمْ تَرْنِي سَكَنْتُ لَأِيًّا كَلَابَهُمْ

وَكَفَكَفْتَ عَنْكُمْ أَكْلِي وَهِيَ عُقْرُ^(٤)

٢٥٣ - [هجاء ضروب من الحيوان]

قال صاحب الكلب: قد علمنا أنكم تتبعتم على الكلب كل شيء هجبي به، وجعلتم ذلك دليلاً على سقوط قدره وعلى لؤم طبعه؛ وقد رأينا الشعراء قد هجوا الأصناف كلها، فلم يفتل منهم إنسان ولا سبع، ولا بهيمة ولا طائر ولا هَمَج ولا حشرة، ولا رفيع من الناس ولا وضيع، إلا أن يسلم بعض ذلك عليهم بالخمول، فكفكف بالخمول دقة ولؤماً وقلة ونذالة. وقال أمية بن أبي عائذ لإياس بن سهم: [من الطويل]

فَأُبْلِغُ إِيَاساً أَنْ عَرَضَ ابْنَ أُخْتِكُمْ

رِدَاؤُكَ فَاصْطَنُ حَسَنَهُ أَوْ تَبَدَّلِ^(٥)

فَإِنْ تَكُ ذَا طَوْلٍ فَإِنِّي ابْنُ أُخْتِكُمْ

وَكَلُّ ابْنِ أُخْتٍ مِنْ نَدَى الْخَالِ مَغْتَلِي

فَكَنْ أَسْداً أَوْ ثَعْلَباً أَوْ شَبِيهَهُ

فَمَهْمَا تَكُنْ أَنْسَبُ إِلَيْكَ وَأُشْكَلِ

(١) ديوان الأعشى ١٦٧.

(٢) ديوان الهذليين ٨١/١.

(٣) ديوان بشر بن أبي خازم ١٦٣، واللسان والتاج (رفق، ضغن)، وتهذيب اللغة ١١٣/٩، والمعاني الكبير ٥٩٠، وبلا نسبة في المقاييس ٤١٨/٢، ومجمل اللغة ٤٠١/٢، وكتاب الجيم ٤١، ١٤/٢.

(٤) ديوان أبي زبيد ٦١٤، واللسان والتاج (كفف)، وبلا نسبة في أساس البلاغة (كلب).

(٥) شرح أشعار الهذليين ٥٣٠، وعيون الأخبار ٨٩/٣-٩٠. اصطن: صن واحفظ. تبدل: امتهن.

فما ثعلبٌ إلا ابنُ أختِ ثُعَالَةٍ وإنَّ ابنَ أختِ اللَّيْثِ رِيْبَالُ أَشْبَلِ
ولن تجد الآسَادَ أخْوَالَ ثُعَلْبِ إذا كانت الهيجا تَلوُذُ بمدخلِ

فهذا من الثعلب. وقال مزرد بن ضرار: [من الطويل]

وإنَّ كِنَازَ اللَّحْمِ مِنْ بَكَرَاتِكُمْ تَهْرُ عَلَيْهَا أُمُكُمُ وَتَكَالِبُ (١)
وَلَيْتَ الَّذِي أَلْقَى فَنَاؤُكَ رَحْلَهُ لَتَقْرِيهِ بِأَلْتٍ عَلَيْهِ الثُّعَالِبُ

فقد وضع الثعلب كما ترى بهذا الموضع الذي كفاك به نذالة. قال ابن هرمة:

[من الوافر]

فما عادت بذي يَمَنَ رُؤوساً ولا ضَرَّتْ لفرقتها نزاراً (٢)
كعنزِ السَّوءِ تنطحُ من خلاها وترأْمُ من يُحدُّ لها الشُّفَارَا

وهذا قول الشاعر في العنز. وقال ابن أحمر: [من البسيط]

إنا وجدنا بني سَهْمٍ وَجَامِلِهِمْ كالعنزِ تَعَطِّفِ رَوقيها فترتضع (٣)

وقال الفرزدق: [من الطويل]

على حينَ لم أتركْ على الأرضِ حَيَّةً ولا نابحاً إلا استقرَّ عَقُورُهَا
وكان نُفيعٌ إذ هجاني لأهله كباحثةٍ عن مُدِيَّةٍ تستثيرُها (٤)

فهذا قولهم في العنز. ولا نعلم في الأرض أقلَّ شراً ولا أكثر خيراً من شاة.

وقال الخريمي: [من البسيط]

يا لكرجال لقومٍ قد مللتهم أرى جوارهم إحدى البليّات (٥)
ذئبٌ رضيعٌ وخنزيرٌ تُعارضُها عَقَارِبٌ وَجُنَّتْ وَجَنُأٌ بِحَيَّاتِ
ما ظننكم باناس خيرٌ كسبهم مُصْرَحِ السُّحْتِ سَمُوهُ الْأَمَانَاتِ

(١) تقدم البيتان في الفقرة ٢٣٦.

(٢) ديوان ابن هرمة ١١٨.

(٣) ديوان عمرو بن أحمر ١٢٠، واللسان والتاج (رضع)، والمعاني الكبير ٦٨٩، وعيون الاخبار

٧٥/٢، والعقد الفريد ٢٣٦/٦، ٢٥٧/٤، وبلا نسبة في أساس البلاغة (رضع)، وديوان الادب

٤١٠/٢.

(٤) في هذا البيت إشارة إلى المثل: «لا تكن كالعنز تبحث عن المدية»، والمثل في أمثال ابن سلام

٣٣٠، وفصل المقال ٤٥٥، وثمة مثل «كالباحث عن المدية» في مجمع الأمثال ١٥٧/٢، وأمثال

ابن سلام ٢٥٠، وفصل المقال ٣٦٢.

(٥) ديوان الخريمي ٢٠.

فهذا قولهم في العقارب والحيات والضباع والخنازير.

وقال حماد عَجْرَدٍ فِي بَشَّارٍ: [من الكامل]

قد كان في حُبِّي غزَالَةٌ شَاغِلٌ للقرد عن شَتْمِي وفي ثوبَانِ
أو في سَمِيعَةٍ أُخْتِهَا وَشِرَادِهَا لمجونها مع سِفْلَةِ الْمُجَانِ
أو بيت ضيق عرسه وركوبها شرَّ البغَاءِ باوْكَسِ الاثْمَانِ

هذا قول حماد في القرد. وقال حماد في بَشَّارِ بْنِ بَرْدٍ أيضاً: [من الطويل]

ولكنْ مَعَاذَ اللَّهِ لَسْتُ بِقَاذِفٍ بَرِيئاً لِسَوَاقِ لِقَوْمٍ نَوَاحِ
وما قلتُ في الأعمى لَجْهَلٍ وَأَمَةٍ ولكنْ بامرٍ بَيْنَ لِيٍّ وَاضِحِ
سَأَعْرِضُ صَحْفًا عَنْ حُصَيْنٍ لَأُمَّه ولست عن القرد ابن بَرْدٍ بِصَافِحِ

وقال الآخر: [من الطويل]

لما أتيت ابني يزيد بن خثعم أرى القرد والخنزير مُحْتَبِيَانِ
أمام بيوت القوم من آل خثعم وراء قبيحات الوجوه بَطَانِ

وقال العتابي: [من الرجز]

اسجدْ لِقَرْدِ السُّوءِ فِي زَمَانِهِ وَإِنْ تَلَقَّاكَ بِخَنْزَوَانِهِ

لا سيما ما دام في سلطانه^(١)

وقال أبو الشمقمق: [من الرجز]

إِنْ رِيَّاحَ اللَّؤْمِ مِنْ شَحْهِ لا يَطْمَعُ الْخَنْزِيرُ فِي سَلْحِهِ^(٢)
كفاه قفل ضلّ مفتاحه قد يئس الحداد من فتحه

وقال خلف بن خليفة: [من المتقارب]

فسبحان من رزقه واسع يعمُّ به القرد والقردة

وهذا كثير. ولعمري لو جُمع كلُّه لكان مثل هجاء الناس للكلب، وكذلك لو جمع جميع ما مدح به الأسد فما دونه، والأمثال السائرة التي وقعت في حمد هذه الأشياء، لما كانت كلها في مقدار مديح الكلب. فهذه حجتنا في مرتبة الكلب على جميع السباع والبهائم.

(١) الرجز بلا نسبة في اللسان والتاج (قرا) برواية مختلفة. الخنزوان: القرد، وذكر الخنازير.

(٢) ديوان أبي الشمقمق: ١٥٤.

ولما قال معبدٌ في قتل الكلب، وتلا قول الله عز وجل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَكُو شئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾^(١)، قال أبو إسحاق: وإن كنت إنما جعلت الكلب شر الخلق بهذه العلة، فقد قال علي نسق هذا الكلام: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾^(٢)، فالذي قال في الإبل والبقر والغنم أعظم، فأسقط من أقدارها بقدر معنى الكلام. وأدنى ذلك أن تشرك بين الجميع في الدم فإنك متى أنصفت في هذا الوجه، دعاك ذلك إلى أن تُنصِفها في تتبع ما لها من الأشعار والأمثال والأخبار والآيات، كما تتبعت ما عليها.

٢٥٤ - [الشرف والخمبول في القبائل]

وقال صاحب الكلب: سنضرب مثلاً بيننا يكون عدلاً: إذا استوى القبيلان في تقادم الميلاد ثم كان أحد الأبوين كثير الذرة^(٣) والفُرسان والحكماء والأجواد والشعراء، وكثير السادات في العشائر، وكثير الرؤساء في الأرحاء^(٤) وكان الآخر قليل الذرة والعدد، ولم يكن فيهم خير كثير ولا شر كثير، خملوا أو دخلوا في غمار العرب، وغرقوا في معظم الناس، وكانوا من المغمورين ومن المنسيين، فسلموا من ضروب الهجاء ومن أكثر ذلك، وسلموا من أن يُضربَ بهم المثل في قلة ونذالة إذا لم يكن شرٌّ، وكان محلُّهم من القلوب محلّ من لا يغبط الشعراء، ولا يحسدهم الاكفاء؛ وكانوا كما قال حميد بن ثور: [من الطويل]

وقولا إذا جاوزتما أرضَ عامرٍ وجاوزتما الحيين نهداً وخثعماً^(٥)

نزيعان من جرّم بن ربانٍ إنهم أبوا أن يُريقوا في الهزاهز محجماً

وإذا تقادم الميلاد ولم يكن الذرة وكان فيهم خيرٌ كثيرٌ وشرٌّ كثيرٌ، ومثالب

(١) ١٧٥-١٧٦ / الاعراف: ٧.

(٢) ١٧٩ / الاعراف: ٧.

(٣) الذرة: النسل.

(٤) الأرحاء: جمع رحي، وهي القبيلة المستقلة.

(٥) ديوان حميد بن ثور ٢٨.

ومناقب، ولم يَسَلَمُوا من أن يُهَجَّوْا وَيُضْرَبَ بِهِم المثل، ولعلَّ أيضاً أن تتفق لهم أشعار تتصل بمحبة الرواة، وأمثال تسير على السنة العلماء، فيصيرُ حينئذٍ من لا خير فيه ولا شرٌّ، أمثلَ حالاً في العامة، ممَّن فيه الفضلُ الكثيرُ وبعضُ النقص، ولا سيَّما إذا جاؤروا من يأكلهم وحالفوا من لا ينصفهم، كما لقيت غنيَّ أو باهلة.

ولو أنَّ عَبْساً أقامت في بني عامر ضعفاً ما أقامت؛ لذهب شَطْرُ شرفها؛ ولكنَّ قيسَ بن زُهَيرٍ لمَّا رأى دلائلَ الشَّرِّ قال لأصحابه: الذلُّ في بني غَطَفَانَ خير من العزِّ في بني عامر!

وقد يكون القوم حُلُولاً مع بني أعمامهم، فإذا رأوا فضلهم عليهم حسدوهم وإن تركوا شيئاً من إنصافهم اشتدَّ ذلك عليهم وتعاضمهم، بأكثر من قدره، فدعاهم ذلك إلى الخروج منهم إلى أعدائهم. فإذا صاروا إلى آخرين نهكهم وحملوا عليهم، فوقَ الذي كانوا فيه من بني أعمامهم، حتى يدعُوهم ذلك إلى الندم على مفارقتهم، فلا يستطيعون الرجوع، حميةً واتقاءً، ومخافةً أن يعودوا لهم إلى شيء مما كانوا عليه، وإلى المقام في حلفائهم الذين يرون من احتقارهم، ومن شدة الصولة عليهم.

٢٥٥ - [بكل واد بنو سعد]

وقد خرج الأضبط بن قُريع السَّعْدِيُّ من بني سعد، فجاوَزَ ناساً، فلما رأى مذهبهم وظلمهم ونهكهم، قال: «بكلِّ وادِ بنو سعد!»^(١)، فأرسلها مثلاً.

وقد كان عَبَّاسُ بن ربيعة الرُّعَلِيُّ سيِّدَ بني سُلَيْمٍ، وقد ناله ضيم في بعض الأمر، فأبى الضَّيْمَ، فلما حاول مفارقتهم إلى بني غنم عزَّ عليه فقال في كلمة له: [من الطويل]
وأمُّكم تُزجِي التَّوَامَ لِبَعْلِهَا
وأُمُّ أُخِيكُمْ كَرَّةُ الرَّحْمِ عَاقِرُ

وزعموا أنَّ أبا عمرو أنشد هذا الشعر، وخبر عن هذه القصة في يومٍ من أيامه، فدمعت عينه، فحلف شُبَيْلُ بن عَزْرَةَ بالطلاق: إِنَّهُ لَعَرَبِيٌّ فِي الْحَقِيقَةِ لَغِيَّةٌ أَوْ لَرِشْدَةٌ!

٢٥٦ - [قبائل في شطرها خير كثير وفي

الشطرا الآخر شرف وضعة]

فمن القبائل المتقدمة الميلاد التي في شطرها خير كثير، وفي الشطر الآخر شرف وضعة، مثل قبائل غطفان وقيس عيلان، ومثل فزارة ومرة وثعلبة. ومثل عبس

(١) البخلاء ١٨٩، ومجمع الأمثال ١/١٠٥، وجمهرة الأمثال ٦١.

وعبد الله بن غطفان، ثم غنيّ وباهلة، واليعسوب والطفافة فالشرف والخطر في عبس وذبيان، والمبتلى والملقى والمحروم والمظلوم، مثل باهلة وغنيّ، ممّا لقيت من صوائب سهام الشعراء، وحتىّ كأنهم آلة لمدارج الأقدام، ينكب فيها كلُّ ساعٍ، ويعثرُ بها كلُّ ماشٍ. وربّما ذكروا اليعسوب والطفافة، وهاربة البقعاء^(١) وأشجع الخنثى ببعض الذّكر. وذلك مشهور في خصائص العلماء ولا يجوز ذلك صدورهم. وجلُّ معظم البلاء لم يقع إلاّ بغنيّ وباهلة، وهم أرفع من هؤلاء وأكثر فضولاً ومناقب، حتى صار من لاخير فيه ولا شرّ عنده أحسن حالاً ممّن فيه الخير الكثير وبعض الشرّ، وصار مثلهم كما قال الشاعر: [من البسيط]

اضرب ندى طلحة الطلحات مبتدئا

بيخل أشعث واستثبت وكُن حكما^(٢)

تخرج خُزاعة من لؤم ومن كرم
ولا تعدّ لها لؤماً ولا كرماً

وقد ظرف في شعره فظلم خُزاعة ظلماً عبقرياً.

وقال في مثل ذلك الأشعر الرّقبان الأسديّ: [من المتقارب]

بحسبك في القوم أن يعلموا بأنك فيهم غنيّ مضر^(٣)
وأنت مليخ كلحم الحورار فلا أنت حلوّ ولا أنت مرّ

وكما قال الشاعر في علباء بن حبيب حيث يقول: [من الهزج]

أرى العلباء كالعلباء لا حلوّ ولا مرّ
شبيخ من بني الجارو دلا خير ولا شر^(٤)

فهذا ونحوه من أشدّ الهجاء.

(١) في معجم البلدان ٣٨٨/٥ (الهارية): «مويهبة لبني هاربة بن ذبيان». وانظر المعارف ٨٢.

(٢) البيتان لدعبل الخزاعي في الأغاني ١٥٢/٢٠، ١٦١.

(٣) البيتان في عيون الاخبار ١٩٥/٢، ٢٦٨/٣، وأمالى القالي ٢٢١/٢، وديوان المعاني ٣٥/١،

واللسان والتاج (مسخ، ضرر)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٤٦٩، ونوادر أبي زيد ٧٣،

والبيت الأول في الخصائص ٢٨٢/٢، ١٠٦/٣، والمعاني الكبير ٤٩٦، وشرح المفصل

١١٥/٢، ٢٣/٨، ١٣٩، واللسان (با)، والثاني في أساس البلاغة (حور، مسخ)، والتنبيه

والإيضاح ٢٨٩/١، والعين ٢٠٦/٤، والتاج (حور).

(٤) البيت بلا نسبة في ديوان المعاني ٣٥/١.

والخمول اسمٌ لجميع أصناف النقص كلها أو عامتها، ولكنه كالسرو عند العلماء. وليس ينفعك العامة إذا ضربتك الخاصة.

ومن هذا الضرب تميم بن مرّ، وثور وعُكل، وتيم ومزينة. ففي عُكل وتيم ومزينة من الشرف والفضل، ما ليس في ثور، وقد سلم ثور إلا من الشيء اليسير، مما لا يرويه إلا العلماء، ثم حلت البلية وركد الشر، والتحف الهجاء على عُكل وتيم، وقد شعثوا بين مزينة شيئاً، ولكنهم حبيبهم إلى المسلمين قاطبة ما تهيأ لهم من الإسلام، حين قلّ حظّ تيم فيه. وقد نالوا من ضبّة، مع ما في ضبّة من الخصال الشريفة؛ لأنّ الأب متى نقص ولده في العدد عن ولد أخيه فقد ركبهم الآخرون بكلّ عظمة، حتى يروا تسليم المرباع إليهم حظاً، والسير تحت اللواء، والحمل على أموالهم في النوائب؛ حتّى ربّما كانوا كالعضاريط والعُسفاء، والاتباع، وفي الاتباع والدخلاء، ثم لا يجدون من ذلك بدءاً؛ كأنهم متى امتنعوا خذلوهم، فاستباحوهم، فراوا أنّ النعمة أربح لهم.

وقد أعان غيلان على الأحنف بكلمة، فقال الأحنف: عبيدٌ في الجاهلية، أتباعٌ في الإسلام.

فإن هربوا تفرّقوا فصاروا أشلاءً في البلاد، فصار حكمهم حكم من درج، وحكم أبيهم كحكم من لم يُعقب. وإذا هم حالفوا القرباء فذلك حيث لا يرفعون رؤوسهم من الذلّ والغرم.

٢٥٧ - [الحلف عند العرب]

والحلف ضربان: فأحدهما كانضمام عيس وضبّة، وأسد وغطفان فإنّ هؤلاء أقوياء لم يُنْهَكوا كما نُهكت باهلة وغني، لحاجة القوم إليهم، ولخشونة مسهم إن تذكروا على حال؛ فقد لقيت ضبّة من سعد، وعيس من عامر، وأسد من عيينة بن حصن ما لقوا.

وقد رأيت مشقّة ذلك على النابغة، وكيف كره خروج أسد من بني ذبيان.

وعيينة بن حصن وإن كان أسود من النابغة وأشرف، فإنّ النابغة كان أحزم وأعقل.

وقد سلمت ثور وابتليت عُكل وتيم، ولولا الربيع بن خُثيم وسُفيان الثوري، لما علمت العامة أنّ في العرب قبيلة يُقال لها ثور. وكشريف واحدٌ ممّن قبلت تيم أكثر من ثور وما ولد.

وكذلك بلعنير، قد ابتليت وظلمت وبُخست، مع ما فيها من الفُرسان والشُعراء، ومن الزُّهاد، ومن الفقهاء، ومن القضاة والوُلاة، ومن نوادر الرُّجال إسلاميين وجاهليين.

وقد سلمت كعب بن عمرو؛ فإنه لم ينلها من الهجاء إلا الخمش والتنف. ورب قوم قد رضوا بخمولهم مع السلامة على العامة، فلا يشعرون حتى يصب الله تعالى على قمم رؤوسهم حجارة القذف، بابيات يسيرها شاعر، وسوط عذاب يسير به الراكب والمثل، كما قال الشاعر: [من الرجز]

إِنْ مَنَافًا فَفَقَّحَةً لِدَارِمٍ كَمَا الظَّلِيمُ فَفَقَّحَةً البَرَاجِمِ^(١)

وقال الشاعر: [من الوافر]

وَجَدْنَا الحُمْرَ مِنْ شَرِّ المَطَايَا كَمَا الحَبِطَاتُ شَرُّ بني تَمِيمِ^(٢)

فما الميسم في جلد البعير، بأعلق من بعض الشعر.

٢٥٨ - [أثر الشعر في نباهة القبيلة]

وإذا كان بيت واحد يربطه الشاعر في قوم لهم النباهة والعدد والفعال، مثل نمير، يصير أهله إلى ما صارت إليه نمير وغير نمير، فما ظنك بالظلم وبمناف وبالحبطات، وقد بلغ مضرة جرير عليهم حيث قال: [من الوافر]

فَغُضُّ الطَّرْفِ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَعْبًا بَلِغْتَ وَلَا كَلَابًا^(٣)

إلى أن قال شاعر آخر وهو يهجو قومًا آخرين: [من الوافر]

وَسَوْفَ يَزِيدُكُمْ ضِعَّةً هِجَائِي كَمَا وَضَعَ الهِجَاءُ بَنِي نُمَيْرِ^(٤)

وحتى قال أبو الرُّدَيْنِي: [من الوافر]

أَتُوْعِدُنِي لِتَقْتُلَنِي نُمَيْرٌ مَتَى قَتَلْتَ نُمَيْرَ مَنْ هَجَاهَا^(٥)

(١) الرجز بلا نسبة في البيان والتبيين ٤/ ٣٧.

(٢) البيت لزياد الأعجم في ديوانه ١٧٠، والأزهية ٧٧، والخزانة ١٠/ ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٣، والمقاصد النحوية ٣/ ٣٤٦، وشرح شواهد المغني ٥٠١، والبيان والتبيين ٤/ ٣٧.

(٣) البيت في الاغانى ٣٠/ ٨، ٢٤/ ٢٠٦-٢٠٩ ضمن خير طويل، وهو في ديوان جرير ٧٩، والبيان والتبيين ٤/ ٣٦.

(٤) البيت بلا نسبة في البيان والتبيين ٤/ ٣٥.

(٥) البيت في الاغانى ٢٤/ ٢٤٦، والبيان والتبيين ٤/ ٣٥.

ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء، وهذا من أول كرمها، كما بكى مخارق بن شهاب، وكما بكى علقمة بن علاثة، وكما بكى عبد الله بن جدعان من بيت لخداش^(١) بن زهير. وما زال يهجو من غير أن يكون رآه، ولو كان رآه ورأى جماله وبهاءه ونبله والذي يقع في النفوس من تفضيله ومحبته ومن إجلاله والرقه عليه أمسك. ألا ترى أن النبئت وغسان بن مالك بن عمرو بن تميم^(٢)، ليس يعرفهم بالعجز والقلة إلا دغفل بن حنظلة، وإلا النخار العذري وإلا ابن الكيس النمري، وإلا صحرار العبدي، وإلا ابن شربة وأبو السطاح وأشباههم ومن شابه طريقهم والاقبتاس من مواريثهم، وقد سلموا على العامة وحصلوا نسب العرب فالرجل منهم عربي تميمي، فهو يعطي حق القوم في الجملة ولا يقتضي ما عليه وعلى رهطه في الخاصة. والحرمان أسوأ حالاً في العامة من هذه القبائل الخاملة وهم أعد وأجلد.

٢٦٠ - [سبب خمول القبائل]

وبلية أخرى: أن يكون القبيل متقادماً الميلاد، قليل الذلة قليل السيادة، وتهاياً أن يصير في ولد إخوتهم الشرف الكامل والعدد التام، فيستبين لمكانهم منهم من قلتهم وضعفهم لكل من رآهم أو سمع بهم، أضعاف الذي هم عليه لو لم يكونوا ابتلوا بشرف إخوتهم.

ومن شؤم الإخوة أن شرفهم ضعة إخوتهم، ومن يُمن الأولاد أن شرفهم شرف من قبلهم من آبائهم ومن بعدهم من أولادهم: كعبد الله بن دارم وجرير بن دارم. فلو أن الفقيم لم يناسب عبد الله بن دارم وكان جاراً، كان خيراً له.

ولقد ضعفت قريش - لما جاءت به من الخصال الشريفة التامة؛ من أركان كنانة - سنام الأرض وجبلها وعينها التي تبصر بها، وأنفها التي بها تعطس، فما ظنك بمن أبصر بني زيد بن عبد الله بن دارم، وبني نهشل بن دارم، وبني مجاشع بن دارم، ثم رأى بني فقيم بن جرير بن دارم؟!]

وكذلك كل أخوين إذا برع أحدهما وسبق وعلا الرجال؛ في الجود والإفضال،

(١) لم أجد البيت الذي هجا به خداش بن زهير، وفي الأغاني ٢٠/١٠-٢١ خبر يفيد أن دريد بن الصمة هجا عبد الله بن جدعان، ولم يكن دريد يعرفه.

(٢) انظر الاشتقاق ٢٠٢-٢٠٣، وجمهرة أنساب العرب ٢١١-٢١٣.

أو في الفُرُوسَة أو في البيان، فإن كان الآخر وسطاً من الرجال، قصدوا بحسن مآثره في الطبقة السفلى لتبيين البراعة في أخيه، فصارت قرابته التي كانت مفخرة هي التي بلغت به أسفل السافلين. وكذلك عَنَزَة بن أسد في ربيعة. ولو كان سودد ربيعة مرة في عَنَزَة ومرة في ضَبَّيعة أضجَمَ، لكان خيراً لهم اليوم، ولو دُ كثير من هؤلاء القبائل التي سلمت على الشعراء أو على العوام أن يكون فيهم شَطْرٌ ما للعنزيين من الشرف، ولو أن الناس وازنوا بين خصال هذه القبائل خيرا وشرها لكانوا سَوَاءً.

وقال صاحب الكلب: ذكرت عيوب الكلب فقلت: الكلب إذا كان في الدار مَحَقَّ أُجُور أهل الدار حتى يأتي على أقصاها، لأن الأجر إذ أخذ منها كل يوم وزن قيراط، والقيراط مثل أحد، لم يلبث على ذلك أن يأتي على آخرها. وقلت: في الكلب أشد الأذى على الجار والضيف والدخيل، يمنعه النوم ليلاً والقائلة نهاراً، وأن يسمع الحديث. ثم الذي على سامع النباح من المؤنة من الصوت الشديد.

ولو لم يكن في الكلب ما يؤذي بشدة صوته إلا بإدامة مجاوبة الكلاب لكان في ذلك ممّا يَنغُص العيش، ويمنع من الكلام والحديث.

٢٦١ - [شعر في النباح والاستنباح]

وقال أرطاة بن سُهَيْة في بعض افتخاره: [من الطويل]

وإني لَقَوَّامٌ إلى الضيف موهنا
دعاً فأجابته كلاب كثيرة
وما دون ضيفي، من تلامذ تحوزه

إذا أغدفت الستر البخيل المواكل^(١)
على ثقة مني بما أنا فاعل
يد الضيف، إلا أن تُصان الحلائل

وقال ابن هرمة: [من الطويل]

ومستنبح نبهتُ كلبي لصوته
فجاء خفي الصوت قد مسه الضوى
فرحبت واستبشرت حتى بسطته

وقلت له قم في اليقاع فجأوب^(٢)
بضربة مسنون الغرارين قاضب
وتلك التي ألقى بها كل آتب

وقال آخر: [من الطويل]

هجمنا عليه وهو يكعمُ كلبه
دع الكلب ينبح إنما الكلب نابح^(٣)

(١) الأبيات في عيون الأخبار ٣/٢٣٩، والشعر والشعراء ٣٣٢.

(٢) ديوان ابن هرمة ٧٦-٧٧، والبخلاء ٢٤١.

(٣) البيت بهذه الرواية بلا نسبة في اللسان والتاج (كعم)، وبرواية مختلفة لصخر بن أعبي في الأغاني

١٧٢/٢، والبخلاء ٢٤١، وانظر الوحشيات ٢٤١، وسياتي البيت في الفقرة (٢٦٨).

وقال مزرد بن ضرار: [من الطويل]

نشأتُ غلاماً أتقى الذمَّ بالقرى
فإن أب سارٍ أسمع الكلبَ صوته
إذا ضاف ضيف من فزارة راغبُ
أتى دون نبح الكلبِ، والكلب دائبُ
وقال بشار بن برد: [من الوافر]

سقى الله القباب بتلُّ عبيدي
وأياماً لنا قصرتُ وطالتُ
وبالشرقين أيامَ القباب^(١)
على فُرعان نائمة الكلابِ

وقال رجل من بني عبد الله بن غطفان: [من الطويل]

إذا أنتَ لم تستبقِ ودَّ صحابة
وإني لاستبقي امرأ السوءِ عُدَّة
على دخنٍ أكثرتْ بثَّ المعائبِ^(٢)
لعدوة عريضٍ من الناس جانبِ^(٣)
أخاف كلابَ الأبعدين ونبحها
إذا لم تجاوبها كلابُ الأقاربِ

وقال أحيحة بن الجلاح: [من المنسرح]

ما أحسنَ الجيدَ من مُليكة والذِّ
يا ليتني ليلة إذا هجع الـ
بآت إذ زانها ترائبها^(٤)
نأسُ ونامَ الكلابُ صاحبها

وقلت: وفي الكلب قذارة في نفسه، وإقذاره أهله لكثرة سُلأحه وبوله، على أنه لا يرضى بالسُلأح على السطوح، حتى يحفر ببرائنه وينقب بأظافره، وفي ذلك التخريب.

ولو لم يكن إلا أنه يكون سبب الكوف، وفي الكوف من منع النوم ومن إفساد حرّ المتاع، ما لا يخفى مكانه، مع ما فيه من عضّ الصبيان وتفزع الولدان، وشقّ الثياب، والتعرّض للزورار؛ ومع ما في خلقه أيضاً من الطبع المستدعي للصبيان إلى ضربه ورجمه وتهيجه بالعبث، ويكون سبباً لعقرهم والثوب عليهم.

وقلت: وبئس الشيء هو في الدار، وفيها الحرّم والأزواج، والسّراريّ والحظيّات المعشوقات؛ وذلك أن ذكره أيرُّ ظاهر الحجم، وهو إما مُقبِع وإما قائم، وليس معه ما

(١) ديوان بشار بن برد ١/٢٤٩.

(٢) الأبيات للنعمان بن حنظلة العبدي في حماسة البحري ٣٩٤. الدخن: الحقد.

(٣) العريض: الذي يتعرض للناس بالشر.

(٤) البيتان في الأغاني ١٥/٣٦، والحماسة البصرية ٢/١٨٧، والخزانة ٣/٣٢١ (بولاق).

يواريه، وربما أَشْطَ وَأَنْعَظَ بِحَضْرَتِهِنَّ، وَلَعَلَّهِنَّ يَكُنَّ مُغَيَّبَاتٍ أَوْ مَحْتَاجَاتٍ إِلَى مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النِّسَاءُ عِنْدَ غَيْبَةِ فَحْلِهِنَّ، وَإِذَا عَجَزَ عَنْ أَنْ يَعْمَهُنَّ.

٢٦٢ - [وفد قرحان]

وقد رمى ضابئُ بن الحارثِ البرُّجُمِيَّ أمَّ أناسٍ من العرب، أن الكلب الذي كان يسمَّى قُرْحَانَ^(١)، كان يأتي أمهم، حتَّى استعدوا عليه، وحبسه في ذلك عثمان بن عفَّان رضي الله تعالى عنه. ولولا أن المعنى الذي رماه به كان مما يكون ويجوز ويُخافُ مثله، كما بلغ منه عثمان ما بلغ، حتَّى مات في حبسه. وفي ذلك يقول ضابئُ ابن الحارث: [من الطويل]

تَجَشَّمُ نَحْوِي وَفَدُ قُرْحَانَ شُقَّةً
فَزَوَّدْتُهُمْ كَلْبًا فَرَاخُوا كَأَنَّمَا
فَأَمَّكُمْ لَا تَتْرَكُوهَا وَكَلْبِكُمْ
إِذَا عَثْنَتْ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ دُخْنَةً
تَنْظُلُ بِهَا الْوَجَنَاءُ وَهِيَ حَسِيرٌ^(٢)
حَبَاهُمْ بَتَاجِ الْهَرْمَزَانِ أَمِيرُ
فَإِنَّ عَقُوقَ الْوَالِدَاتِ كَبِيرُ
يَبِيتُ لَهُ فَوْقَ السَّرِيرِ هَرِيرٌ^(٣)

٢٦٣ - [قصص تتعلق بالكلاب]

وزعم اليعقظريُّ أنَّه أبصر رجلاً يَكُومُ كَلْبَةً مِنْ كِلَابِ الرِّعَاءِ، وَمَرَّ بِذَلِكَ الزُّبِّ الْعَظِيمِ فِي ثَفْرَهَا - وَالثَّفْرُ مِنْهَا وَمِنَ السَّبْعِ، كَالْحَرِّ مِنَ الْمَرَاةِ وَالظُّبْيَةِ مِنَ الْأَتَانِ وَالْحَجَرِ، وَالْحِيَاءِ مِنَ النَّاقَةِ وَالشَّاةِ - فزعم أنَّها لم تعقد عليه، ولا ندرى أمكنته أم اغتصبها نفسها.

وَأَمَّا النَّاسُ ففِي مُلْحِ أَحَادِيثِهِمْ: أَنَّ رَجُلًا أَشْرَفَ عَلَى رَجُلٍ وَقَدْ نَاكَ كَلْبَةٌ فَعَقَدَتْ عَلَيْهِ، فَبَقِيَ أَسِيرًا مُسْتَحْزِيًا يَدُورُ مَعَهَا حَيْثُ دَارَتْ. قَالَ: فَصَاحَ بِهِ الرَّجُلُ: اضْرِبْ جَنْبَيْهَا. فَأَطْلَقْتَهُ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَخْزَاهُ اللَّهُ أَيُّ نِيَّاكَ كَلْبَاتٍ هُوَ! وَخَبَّرَنِي مِنْ لَا أَرُدُّ خَبْرَهُ، أَنَّهُ أَشْرَفَ مِنْ سَطْحٍ لَهُ قَصِيرِ الْحَائِطِ، فَإِذَا هُوَ بِسَوَادٍ فِي ظِلِّ الْقَمَرِ فِي أَصْلِ حَائِطٍ، وَإِذَا أَنْيْنُ كَلْبَةٍ، فَرَأَى رَأْسَ إِنْسَانٍ يَدْخُلُ فِي الْقَمَرِ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى مَوْضِعِهِ مِنْ ظِلِّ الْقَمَرِ، فَتَأَمَّلُ فِي ذَلِكَ فَإِذَا هُوَ بِحَارِسٍ يَنْيِكَ كَلْبَةً. قَالَ:

(١) انظر قصة «قرحان» في الشعر والشعراء ٢٠٢-٢٠٣، ومعاهد التنصيص ٦٦/١، والخزانة ٨٠/٤ (بولاق).

(٢) انظر الحاشية السابقة.

(٣) عثنت: دخنت.

فرجمته وأعلمته أنني قد رأيتُه، فصَبَّحني من الغد يقرع الباب عليّ، فقلت له: ما حاجتك؟ وما جاء بك؟ فلقد ظننتُ أنك ستركب البحر أو تمضي على وجهك إلى البراري. قال: جعلتُ فداك، أسألك أن تستر عليّ، سترَ الله عليك، وأنا أتوب على يديك! قال: قلتَ ويحك، فما اشتهيتَ من كلبية؟! قال: جعلتُ فداك، كلُّ رجلٍ حارسٍ ليس له زوجةٌ ولا نجل، فهو ينيكُ إناثَ الكلابِ إذ كُنَّ عظامَ الأجسام. قال: فقلتُ: فما يخاف أن تعضه؟ قال: لو رآم ذلك منها غيرُ الحارسِ التي هي له وقد باتتُ معه فادخلها في كسائه في ليالي البرد والمطر، لما تركته. وعلى أنه إن أراد أن يوعبه كلُّه لم تستقر له. قال: ونسيتُ أن أسأله: فهل تعقد على أيور النَّاسِ كما تعقد على أيور الكلابِ؟ فلقيته بعد ثلاثين سنة، فقال: لا أدري لعلها لا تعقد عليه، لأنه لا يدخله فيها إلى أصله، لعل ذلك أيضاً إنما هو شيءٌ يحدث بين الكلب والكلبة، فإذا اختلفا لم يقع الالتحام. قال: فقلتُ: فطيبٌ هو؟ قال: قد نكثتُ عامَّةَ إناثِ الحيواناتِ فوجدتُهُنَّ كلهنَّ أطيَّبَ من النساء. قلتُ: وكيف ذلك؟ قال: ما ذاك إلا لشدة الحرارة. قال: فطال الحديث حتى أنس فقلتُ له: فإذا دار الماء في صلبك وقرب الفراغ؟ قال: فربما التزمتُ الكلبةُ وأهويتُ إلى تقبيلها. ثم قال: أما إن الكلابَ أطيَّبُ شيءٍ أفواهاً، وأعذبُ شيءٍ ريقاً؛ ولكن لا يمكن أن أنيكها من قدامٍ، ولو ذهبتُ أن أنيكها من خلفٍ وثنيتُ رأسها إلى أن أقبلها، لم آمن أن تظنَّ بي أنني أريدُ غير ذلك فتكدمُ فمي ووجهي. قال فقلتُ: فإنني أسألك بالذي يسترُ عليك، هل نزعْتَ عن هذا العملِ منذُ أعطيتني صفقةَ يدك بالتوبة؟ قال: ربَّما حننتُ إلى ذلك فأحتبسُ بعهدك.

قال: وقلتُ: وإنك لتحنُّ إليها؟ قال: والله إنني لأحنُّ إليها، ولقد تزوجتُ بعدك امرأتين، ولي منهما رجالٌ ونساء، ومن تعود شيئاً لم يكذبُ يصبرُ عنه! قال: فقلتُ له: هل تعرف اليوم في الحُرَّاسِ من ينيك الكلبات؟ قال: نعم، خذ محمويه الأحمر، وخذ يشجب الحارس، وخذ قفا الشاة، وخذ فارساً الحَمَّامِيَّ فإنَّ فارساً كان حارساً وكان قيمَ حَمَّام، وكان حَلَقِيَّاً، فزعم أنه ناك الكلابَ خمسين سنة، وشاخ وهزل وقبح وتشنج، حتى كان لا يُنيكه أحد. قال: فلم يزلُ يحتالُ لكلبٍ عنده حتى ناكه. قال: وكان معه بخير حتى قتله للصوص، ثم أشرفَ على فارسٍ، هذا المحتسبُ الأحذبُ، وهو ينيك كلبه فرماه بحجر فدمغه^(١).

(١) دمغه: أصاب دماغه.

قال: فالكلاب كما ترى تُتَّهَمُ بالنساء، وينيكها الرجال، وتنيك الرجال، وليس شيءٌ أحقَّ بالنفي والإغراب والإطراد وبالقتل منها. ونحن من السباع العادية الوحشية في راحة، إلا في الفِرط^(١) فإن لها غراماً على بعض الماشية، وجناية على شرار العامة وكذلك البهائم. وما عسى أن يبلغ من وطءٍ بغير ونطح كبش، أو خمش سنورٍ أو رَمَحِ حمار، ولعلَّ ذلك يكون في الدهر المرّة والمرتين، ولعلَّ ذلك أيضاً لا ينال إلا عبداً أو خادماً أو سائساً، وذلك محتمل. فالكلاب مع هذه الآفات شركاءُ الناس في دورهم وأهاليهم!!

قال صاحب الكلب: إن كنتم إلى الأذى بالسلاح تذهبون، وإلى قشر طين السطوح بالبرائن تميلون، وإلى نتن السلاح وقذر المأكول والمشروب تقصدون، فالسنور أكثر في ذلك. وقد رويتم عن النبي ﷺ في ذلك أنه قال: «هُنَّ مِنَ الطَّوْأَاتِ عَلَيْكُمْ»^(٢). فإذا كان ذلك في السنابير مغفراً، لانتفاعهم بها في أكل الفأر، فمنافع الكلاب أكثر، وهي بالاعتقاد أحق. وفي إطلاق ذلك في السنور دليلٌ على أنه في الكلاب أجوز.

وأما ما ذكرتم من إنعاضه، فلمعري إنّه ما ينبغي للغيور أن يُقيم الفرسَ ولا البرذونَ والبغلَ والحمارَ والتيسَ في المواضع التي تراها النساءُ. والكلبُ في ذلك أحسنُ حالاً. وقد كره ناسٌ إدخال منازلهم الحمامَ والديكَةَ والدجاجَ والبطَّ خاصة؛ لأنَّ له عند السفاد قضيماً يظهر، وكذلك التيس من الطباء، فضلاً عن تُيوس الصفايا. فهذا المعنى الذي ذكرتم يجري في وجوه كثيرة وعلى أن للحمام خاصةً من الاستشارة^(٣)، والكسَمُ بالذئب، والتقبيل الذي ليس للناس مثله، ثمَّ التقبيل والتغزَلُ والتنفُّشُ، والابتهاج بما يكون منه بعد الفراغ، وركوب الأنثى للذكر وعدم إمكانها لغير ذكرها، ما يكون أهيح للنساء ممَّا ذكرتم. فلم أفردتم الكلبَ بالذكر دون هذه الأمور، التي إذا عاينت المرأة غرُمولَ واحدٍ منها، حقرت بعلها أو سيدها، ولم يزل ظلُّ ذلك الغرُمول يعارضها في النوم، وينهبها ساعة الغفلة، ويُحدث لها التمني لما لا تقدر عليه، والاحتقار لما تقدر عليه، وتركتم ذكر ما هو أجلُّ وأعظمُ إلى ما هو أخسُّ وأصغرُ؟! فإن كنتم تذهبون في التشنيع عليه إلى ما يعقر من الصبيان عند العبث

(١) الفِرط: الندرة.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٩٦/٥، وهو في النهاية ١٤٢/٣.

(٣) الاستشارة: إظهار الحسن.

والتعرض، والتحكك والتهييج والتحريش، فلو أنّ الذي يأتي صبيانكم إلى الكلب، من الإلحاح بأصناف العَبَث - والصبيان أفسى الخلق وأقلهم رحمة - أنزلوه بالأحنف ابن قيس، وقيس بن عاصم، بل بحاجب بن زُرارة وحِصن بن حُذيفة، لخرجوا إلى أقبَح مما يخرج إليه الكلب. ومن ترك منهم الأخذ فوق يدِ ابنه، فهو أحقُّ باللائمة.

وبعد فما وجدنا كلباً وثبَّ على صبيٍّ فعقره من تلقاء نفسه، وإنه ليرتدُّ عليه وهو في المهد، وهو لحمٌ على وضمٍّ، فلا يشمه ولا يدنو منه. وهو أكثرُ خلقِ الله تعالى تشمُّاً واسترواحاً؛ وما في الأرضِ كلبٌ يلقى كلباً غريباً إلا شَمَّ كلُّ واحدٍ منهما استَ صاحبه، ولا في الأرضِ مجوسيٌّ يموت فيحزن على موته ويحمل إلي الناوروس إلا بعد أن يدني منه كلبٌ يشمه، فإنه لا يخفي عليه في شمه عندهم، أحي هو أم ميت؛ للطافة حسه، وأنه لا يأكل الأحياء. فأما اليهود فإنهم يتعرفون ذلك من الميت، بأن يدهنوا استه. ولذلك قال الشاعر وهو يرمي ناساً بدين اليهودية: [من الطويل]

إذا مات منهم ميتٌ مسحوا استه بدهنٍ وحقوا حوكه بقرام^(١)

٢٦٤ - [جنايات الديك]

وقالوا: فإذا ذكرتُم جنايات الكلاب، فواحدٌ من جنايات الديكة أعظمُ من جنايات الكلاب؛ لأنَّ عبد الله بن عثمان بن عفان، ابن بنت رسول الله ﷺ، إنما مات من نقر ديك في دار عثمان، نقر عينه فكان سبب موته^(٢). فقتلُ الديك لعثرة رسول الله ﷺ، أعظمُ من كثيرٍ مما تستعظمونه من جنايات الكلاب.

وقد نقر ديكٌ عينَ ابنِ حسكة بن عتاب، أو عين ابن أخته.

وقد نقر ديك عين ابن الريان بن أبي المسيح وهو في المهد فاعور، ثم ضربته الحُمرة فمات.

ووثبَ ديك فطعن بصيصته عين بنت لثمامة بن أشرس، قال ثمامة: فاتاني الصريخ، فوالله ما وصلتُ إليها حتى كمدَّ وجهها كله واسودَّ الأنفُ والوجنتان وغارت العينان. وكان شأنُ هذا الديك - فيما زعم ثمامة - عجيباً من العجب: ذكر أن رجلاً ذكر أن ديكاً عند بقالٍ لهم، يقاتل به الكلاب، قال: فاتيتُ البقال الذي

(١) البيت لسالم بن دارة في اللسان والتاج (حمم).

(٢) في المعارف ١٤٢: .. وهلك صبيّاً لم يجاوز ست سنين، وكان نقره ديك على عينه فمرض ومات). وانظر جمهرة أنساب العرب ١٦.

عنده فسألته عن الديك، فزعم أنه قد وجّه به إلى قتال الكلاب، وقد تراهنوا في ذلك. فلم أبرح حتى اشتريته؛ وكنت أصونه وجعلته في مكّنة، فخرجت يوماً لبعض مصلحة وأقبلت بنتي هذه لتنظر إليه، فكان هذا جزائي منه!

قال: وديك آخر أقبل إلى رأس زيد بن علي، حتى وطئ في ذؤابته ثم أقبل ينقر دماغه وعينه. فقال رجل من قريش، لمن حضر ذلك من الخدم: [من الخفيف]
اطردوا الديك عن ذؤابة زيد طالما كان لا تطأه الدجاج^(١)

٢٦٥ - [نفع الكلب]

والكلب إن كان كما يقول، فإن له يداً تشجّ وأخرى تأسو، بل ما يدفع الله بحراسته ويجلب من المنافع بصيده أكثر وأغمر، وهو الغامر لا المغمور، والفاضل لا المفضول. والديك يفتق العيون وينقر الأدمغة ويقتل الأنفس، ويشجّ ولا يأسو؛ فشره صرف وخيره ممزوج. إلا أن يزعموا أنه يحرس من الشيطان، فيكون هذا من القول الذي يحتاج إلى البرهان. ومن عارض منافع الكلاب وحراستها أموال الناس من اللصوص، ومنع السباع من الماشية، وموضع نفع الكلب في المزارع - وذلك عيان ونفعه عام وخطبه عظيم - بما يدعى من حراسة الديكة للشيطان، لم يكايل ولم يوازن ولم يعرف المقايسة، ولا وقف قط على معنى المقابلة ودلّ بذلك على أن مبلغ رأيه لا يجوز رأي النساء.

٢٦٦ - [العواء وما قيل من الشعر فيه]

ويكون العواء للكلب والذئب والفصيل. وقال النابغة: [من الوافر]
ألم أك جاركم فتركتموني لكلبي في دياركم عواء^(٢)

وقال الشاعر: [من الطويل]
وإنني امرؤ لا تقشعر ذؤابتي من الذئب يعوي والغراب المحجل^(٣)

وقال الشاعر: [من الطويل]
ومستنبح تستكشط الريح ثوبه ليسقط عنه وهو بالثوب معصم^(٤)

-
- (١) البيت لأحد الشيعة في الكامل ٢/٣١٠ (مطبعة المعارف).
(٢) البيت للحطيثة في ديوانه ٨٣، ومعجم البلدان (قوو)، وليس للنابغة.
(٣) البيت بلا نسبة في البرصان والعرجان ٢٢، واللسان والتاج (حجل).
(٤) الأبيات لإبراهيم بن هرمة في ديوان المعاني ١/٣٣، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٥٨١، وسمط اللآلي ٥٠٠، والفاضل ٣٨، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/١٣٧، وأمالي المرتضى ١١٤.

عَوَى فِي سَوَادِ اللَّيْلِ بَعْدَ اعْتِسَافِهِ
فَجَاوِبُهُ مُسْتَسْمِعُ الصَّوْتِ لِلْقَرَى
يَكَادُ إِذَا مَا أَبْصَرَ الضَّيْفَ مُقْبِلًا

وقال ذو الرمة: [من الطويل]

به الذئب محزوناً كأنَّ عواءه

وقال آخر: [من الرجز]

ومنهل طامسة أعلامه

لِيَنْبَحَ كَلْبٌ أَوْ لِيَفْزَعَ نَوْمٌ
لَهُ مَعَ إِتْيَانِ الْمُهَيَّبِينَ مَطْعَمٌ
يَكَلِّمُهُ مِنْ حَبِّهِ وَهُوَ أَعْجَمٌ

عواءُ فصيل آخر الليل مُحْتَلٍ (٢)

يَعْوِي بِهِ الذَّئْبُ وَتَزُقُو هَامُهُ

وقال عَقِيلُ بْنُ عُلْفَةَ يَهْجُو زَبَانَ بْنِ مَنْظُورٍ: [من البسيط]

لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي قَوْمٍ يَسُودُهُمْ
لَمْ يَبْقَ مِنْ مَازِنٍ إِلَّا شَرَارُهُمْ
ذئبٌ عَوَى وَهُوَ مُشْدُودٌ عَلَى كَوْرٍ (٣)
فَوْقَ الْحَصَى حَوْلَ زَبَانَ بْنِ مَنْظُورٍ

وقال غَيْلَانُ بْنُ سَلَمَةَ: [من الكامل]

ومعُرسٌ حينَ العشاءِ به
قَدْ بَثَّهُ وَهِنًا وَأَرْقَنِي
فَتَرَكْتَهُ يَعْوِي بِقَفْرَتِهِ
لِحَبِّ يَلُوحُ كَأَنَّهُ سَحْلٌ (٤)
الْحَبْسُ فَالْأَنْوَاءُ فَالْعَقْلُ
ذئبُ الْفَلَاةِ كَأَنَّهُ جَذْلُ
وَلِكُلِّ صَاحِبِ قَفْرَةٍ شَكْلُ

وقال مَغْلَسُ بْنُ لَقِيْطٍ: [من الطويل]

عَوَى مِنْهُمْ ذئبٌ فَطَرَّبُ عَادِيًا
إِذَا هُنَّ لَمْ يَلْحَسْنَ مِنْ ذِي قَرَابَةٍ
عَلِي فَعْلِيَّاتٍ مُسْتَتَارٍ سَخِيمَاهَا (٥)
دَمًا هَلِيسَتْ أَجْسَادُهَا وَلِحُومُهَا

وقال الأَحْمِرُ السَّعْدِيُّ: [من الطويل]

عَوَى الذَّئْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذَّئْبِ إِذْ عَوَى

وَصَوَّتَ إِنْسَانٌ فَكِدْتُ أَطِيرُ (٦)

(٢) ديوان ذي الرمة ١٤٨٨، واللسان والتاج (حتل)، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٤/ ٤٧٩، واللسان

والتاج (عوى)، وجمهرة اللغة ٢٤٣، ٩٥٧.

(٣) ورد البيت الأول في البرصان والعرجان ٢٦٦.

(٤) انظر مثل هذا البيت في ديوان المسيب بن علس ٦٢٥، واللسان والتاج (ريع، سحل).

(٥) البيتان في معجم الشعراء ٣٠٩ برواية مختلفة.

(٦) البيت للأحمر في الوحشيات ٣٤، ومروج الذهب ٣/ ٣٨٠، وسمط اللآلي ١٩٦، ومعجم البلدان

(دورق) ٤٨٣/٢.

وقال آخر: [من الطويل]

وعاير عوى والليل مستحلس الندى وقد زحفت للغور تالية النجم^(١)
وذلك أن الرجل إذا كان باغياً أو زائراً، أو ممن يلتمس القرى، ولم ير بالليل
ناراً، عوى ونبح، لتجيبه الكلاب، فيهتدي بذلك إلى موضع الناس.

وقال الشاعر: [من الطويل]

ومستنجح أهل الثرى يلمس القرى إلينا وممساه من الأرض نازح^(٢)

وقال عمرو بن الأهتم: [من الطويل]

ومستنجح بعد الهدوء دعوته وقد حان من ساري الشتاء طروق^(٣)
فهذا من عواء الفصيل والذئب والكلب.

٢٦٧ - [ما قالوا في أنس الكلب وإلفه]

وقال صاحب الكلب: ومما قالوا في أنس الكلب وإلفه، وحبه لأهله ولمن
أحسن إليه قول ابن الطثرية: [من الكامل]

يا أم عمرو أنجزى الموعودا وارعي بذاك أمانةً وعهوداً^(٤)
ولقد طرقت كلاب أهلِكَ بالضحى حتى تركت عقورهن رقوداً
يضرين بالأذنان من فرح بنا متوسداتٍ أذرعاً وخدوداً

وقال الآخر: [من البسيط]

لو كنتُ أحملُ خمرأً يومَ زرتكم لم ينكر الكلبُ أني صاحب الدار^(٥)
لكن أتيتُ وريحُ المسكِ يفعمني والعنبرُ الورْدُ أذكيه على النار

(١) البيت لحميد الأرقط في البخلاء ٢٣٨، وعيون الأخبار ٣/٢٤٤، ولحميد (٢) في أساس البلاغة (ضجع)، وعنه في ديوان حميد بن ثور ١٣٤.

(٢) البيت بلا نسبة في البخلاء ٢٣٨.

(٣) ديوان عمرو بن الأهتم ٩٢، والمفضليات ١٢٦، وعيون الأخبار ١/٣٤٢، ومعجم الشعراء ٢١، والحماسة البصرية ٢/٢٣٧.

(٤) ديوان يزيد بن الطثرية ٦٧، وبلا نسبة في البخلاء ٢٣٩-٢٤٠.

(٥) الأبيات لمالك بن أسماء بن خارجة في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٥٢٣، والأول والثاني له في الحماسة البصرية ٢/٢٩٠، وسمط اللآلي ١٩١، ولبعض الحجازيين في البيان والتبيين ٣/٢١١، وبلا نسبة في البخلاء ٢٤٠.

فانكر الكلب ريحي حين أبصرني وكان يعرف ريح الزُّقِّ والقار
 وقال أبو الطَّمَحان القينيّ في الإلف، وهو يمدح مالك بن حمار الشمخي:
 [من الوافر]

سامدحُ مالكا في كلِّ ركب
 فما أنا والبكارةُ من مخاضٍ
 وقد عرقتُ كلابهُمُ ثيابي
 نمتُ بك من بني شَمخِ زنادُ
 لقيتُهُمُ وأتركُ كلَّ رذُلٍ^(١)
 عظامٍ جَلَّةٍ سُدُسٍ وبُزْلِ
 كأنني منهمُ ونسيتُ أهلي
 لها ما شئتَ من فرعٍ وأصلٍ

وقال الشاعر في أنس الكلاب وإفها، يذكر رجلاً: [من الطويل]
 عنيف بتسواق العشارِ ورعِها
 سَنيد يظلُّ الكلبُ يعضُ ثوبه
 ولكن بتلقام الثريدِ رفيقُ
 له في ديارِ الغانياتِ طريقُ

وقال الآخر: [من الكامل]
 بات الحويرثُ والكلابُ تشمه
 وقال ذو الرمة: [من الطويل]
 وسرت بأبيض كالللال على الطوى^(٢)
 ومُدَّت نُسوج العنكبوت على رحلي^(٣)

رأتني كلابُ الحي حتى أفنني
 وقال حسَّان بن ثابت: [من الكامل]

أولاد جفنة حول قبر أبيهم
 بيض الوجوه نقيَّة حُجراتهم
 يُغشون حتى ما تهرُّ كلابهم
 قبر ابنِ مارية الكريم المفضل^(٤)
 شمُّ الأثوفِ من الطرازِ الأوَّلِ
 لا يسألون عن السوادِ المقبلِ

وفي هذا المعنى قال الشاعر: [من المتقارب]

وبوأت بيتك في معلمٍ
 رحيب المباءة والمسرح^(٥)

(١) الأبيات في الأغاني ١٣/٧-٨.

(٢) البيت بلا نسبة في البخلاء ٢٤٠.

(٣) ديوان ذي الرمة ١٥٩.

(٤) ديوان حسَّان ٣٦٥، وديوان المعاني ٣٧/١، والبخلاء ٢٣٩، وأمالي المرتضى ٣٥/١، وحماسة القرشي ٣٧٣، والبرصان والمرجان ٢٩٤.

(٥) البيتان الأول والثاني بلا نسبة في التاج (بو)، ولعل الأبيات للعماني الراجز، فإن له قصيدة في هذا الوزن والروي يمدح بها عبد الملك بن صالح الهاشمي، وأنشد منها في الأغاني ١٨/٣١٦ بيتين.

كفيت العُفَاءَ طَلَابَ القَرَى
 تَرَى دَعْسَ آثَارِ تَلَكِ المَطِي
 وَنَبَحَ الكَلَابِ لمَسْتَنبِحِ
 أَخَادِيدَ كَاللُّقْمِ الأَفِيحِ
 لَكُنْتُ عَلَى الشَّرِكِ الأَوْضَحِ
 ولو كُنْتُ فِي نَفَقِ زَائِفِ

وفي مثل ذلك، وليس في ذكر إلف الكلاب، ولكنه مما ينبغي أن يكون مجموعاً إلى هذه الأشعار، وبك إلى ذلك حاجة شديدة، قال أمية بن أبي الصلت: [من الخفيف]

لا الغياباتُ مُنتَوَاكَ ولكنْ في ذُرَى مُشْرِفِ القُصُورِ ذُرَاكََا(٢)

وقال البزار الحلبي، في المعنى الأول: [من الرمل]

ألفَ النَّاسَ فَمَا يَنْبَحُهُمْ مِنْ أَسِيفِ يَبْتَغِي الخَيْرَ وَحُرَّ(٣)

وقال عمران بن عصام: [من المتقارب]

لَعَبْدَ العَزِيزِ عَلَى قَوْمِهِ
 فَبَابِكَ أَلَيْنُ أُبُوَابِهِمْ
 وَكَلْبُكَ أَنَسَ بِالمَعْتَفِينَ
 وَكَفُّكَ حِينَ تَرَى السَّائِلِي
 فَمِنْكَ العَطَاءُ وَمِنَّا التَّنَاءُ
 وَغَيْرِهِمْ مِنْ غَامِرَةٍ(٤)
 وَدَارُكَ آهَلَةَ عَامِرَةٍ
 مِنْ الأُمِّ بِابْنَتِهَا الرُّائِرَةِ
 مِنْ أُنْدَى مِنَ اللَّيْلَةِ المَاطِرَةِ
 بِكُلِّ مُحِبَّةٍ سَائِرَةِ

وقال هلال بن خثعم: [من الطويل]

إِنِّي لَعَفُّ عَنْ زِيَارَةِ جَارَتِي
 إِذَا غَابَ عَنْهَا بَعْلُهَا لَمْ أَكُنْ لَهَا
 وَإِنِّي لَمَشْنُوءٌ إِلَيَّ اغْتِيَابُهَا(٥)
 زَوُوراً وَلَمْ تَأْنَسْ إِلَيَّ كَلَابُهَا

(٢) ديوان أمية ٤٢٨ .

(٣) البيت للمرار الحماني في البخلاء ٢٣٩ .

(٤) الأبيات لعمران بن عصام في البخلاء ٢٣٩، ولنصيب في ديوانه ٩٩، والأغاني ٣٣٣/١، وعيون الأخبار ١٩٠/٢، ولعمران أو لنصيب في ديوان المعاني ٣٣/١، ولايمن بن خريم في رسائل الجاحظ ٨١/٢، وللأقبيل القيني أو لنصيب في الوحشيات ٢٦٠، وانظر المزيد من المصادر في ديوان نصيب ١٨٦، والوحشيات ٢٦٠ .

(٥) الأبيات لهلال بن خثعم في أمالي المرتضى ٢٧٩/١، وحماسة القرشي ٤٠٦، والبخلاء ٢٤٠، ولبشار بن بشر في عيون الأخبار ١٨٣/٣ - ١٨٤، والحماسة الشجرية ٤٦٧، ولزياد بن منقذ التميمي في حماسة البحترى ٣٤٢، ولحميد بن ثور في الحماسة المغربية ٦١٩، وبلا نسبة في الحماسة البصرية ١٢/٢، وربع الأبرار ٦٢٣/٣، والبيت الأخير لهلال بن جشم في عيون الأخبار ٢٢١/٣، وعجزه بلا نسبة في رسائل الجاحظ ٢٩/٢ .

وما أنا بالدَّارِي أَحاديثَ سِرِّها ولا عالمٍ مِن أَيِّ حوكٍ ثِيابُها
وإنَّ قَرابَ البطنِ يكفيك ملوهُ ويكفيك سوءاتِ الأمورِ اجتنابُها

وقال حاتم الطائي، وهو حاتم بن عبد الله، ويكنى أبا سَفَّانة، وكان أسره ثوب
ابن شحمة العنبري مجير الطير: [من الطويل]

إذا ما بخيلُ النَّاسِ هَرَّتْ كلابُهُ وشقَّ على الضَّيفِ الغريبِ عَقورُها^(١)
فإنِّي جبانُ الكلبِ بيتي موطاً جواد إذا ما النَّفسُ شَحَّ ضميرُها
ولكن كلابي قد أقرتْ وعودتْ قليل على مَنْ يعترِها هَريرُها

٢٦٨ - [هجو الناس بهجو كلابهم]

وقال صاحب الكلب: إن كثيراً من هجاء الكلب، ليس يراد به الكلب، وإنما
يراد به هجاء رجل، فيجعل الكلب وُصلةً في الكلام ليلبغ ما يريد من شتمه. وهذا
أيضاً مما يرتفق الناسُ به من أسباب الكلاب. ولذلك قال الشاعر: [من الكامل]

مِن دونِ سَيْبِكَ لَوْنُ لَيْلِ مَظْلَمٍ وَحَفِيفِ نَافِجَةٍ وَكَلْبِ مُوسَدٍ^(٢)
وَأخوكَ مُحْتَمَلٍ عَلَيْكَ ضَغِينَةٍ وَمُسَيْفِ قَوْمِكَ لائِمٍ لَا يَحْمَدُ
وَالضَّيْفِ عِنْدَكَ مِثْلُ أَسْوَدِ سَالِحٍ لَا بَلَّ أَحْبَبُهُمَا إِلَيْكَ الْأَسْوَدُ

فهذا قول الشاعر. وقال الآخر: [من الوافر]

وما يكُ فيَّ مِن عَيْبٍ فَإِنِّي جَبَانُ الكَلْبِ مَهزُولُ الفَصِيلِ

فهو لم يرد مدح الكلب بالجبن، وإنما أراد نفسه حين قال: [من الكامل]

* وحفيف نافجة وكلب موسد *

فإن كان الكلبُ إنما أسره أهله، فإنما اللومُ على من أسره. وإنما هذا الضربُ

كقوله: [من البسيط]

قوم إذا استنبح الأضيافُ كلبهم قالوا لأُمَّهم بُولي على النَّارِ^(٣)

(١) ديوان حاتم الطائي ٢٣١، وحماسة القرشي ١٢٠-١٢١، وأمالِي المرتضى ١١١/٢، والفاضل
٤٠-٤١، ونوادِر أبي زيد ١٠٦-١٠٧، والمعاني الكبير ١/٢٣٤.

(٢) الأبيات لحسبل بن عرفطة في نوادر أبي زيد ٧٥، وبلا نسبة في ديوان المعاني ١/١٠٦. النافجة:
الريح تجيء بقوة. أوسد الكلب: أغراه بالصيد.

(٣) البيت للأخطل في ديوانه ٦٣٦، وديوان المعاني ١/١٧٥، واللسان والتاج (ردب، نبج).

ومعلوم أنّ هذا لا يكون، ولكن حَقَّرَ أمرهم وصغَّرَهم.

وقال ابن هرمة: [من الكامل]

وإذا تنورَ طارقٍ مستنبحٍ نبحتَ فدلتُهُ عليّ كلابي^(١)

وقال ابن مهية: [من الوافر]

جلبنا الخيلَ من شعبيّ تشكّي حوافرها الدوابر والنسورا^(٢)
فلما أنّ طلعن بعين جعدي وأهل الجوف أنّ قتلوا غرورا
ولم يكُ كلبهم ليفيق حتّى يُهارشَ كلبهم كلباً عقورا

ومعلوم أنّ هذا لا يكون، إنما هو مثل . وقال أعرابي: [من الطويل]

أخو ثقةٍ قدّ يحسبُ المجدَ فُرصةً إلى أهله أو ذمّةً لا تُخفّرُ
حبيبٌ إلى كلبِ الكريمِ نباحه كريةً إلى الكوماءِ والكلبُ أبصرُ

وقال ابن هرمة: [من البسيط]

وفرحة من كلابِ الحيّ يتبعها شحمٌ يزِفُ به الداعي وترعيبُ

فهذا قول هؤلاء . وقال الآخر: [من الطويل]

هَجَمْنَا عليه وهو يكعمُ كلبه دَع الكلبَ يَنبَحُ إنّما الكلبُ نابحُ^(٣)

وقال الآخر: [من الطويل]

وتكعمُ كلبِ الحيّ من خشيةِ القرى وناركُ كالعذراءِ من دونها سترُ^(٤)

وقال أعشى بني تغلب: [من الوافر]

إذا احتلت معاوية بن عمرو على الأطواءِ خنقتِ الكلابا^(٥)
فالكلب مرّةً مكعوم، ومرّةً مخنوق، ومرّةً مؤسد ومحرش، ومرّةً يجعله جباناً،

(١) ديوان ابن هرمة ٧٣، وأمالي المرتضى ١١٣/٢، والحامسة البصرية ٢٤٤/٢، والخزانة ٥٨٤/٤ (بولاق).

(٢) البيت في البخلاء ٢٤٠، وسمط اللآلي ٥٠٠.

(٣) البيت بلا نسبة في اللسان والتاج (كعم)، وتقدم في الفقرة ٢٦١.

(٤) البيت لزياد الأعجم في ديوانه ١١٠، والبخلاء ٢٣٨، وعيون الأخبار ٢٤٢/٣، وبلا نسبة في اللسان والتاج (كعم).

(٥) البيت للأعشى في عيون الأخبار ٢٦٣/٣، والبخلاء ٢٣٨.

ومرّة وثاباً، كما قال الراعي في الحطيئة: [من الطويل]
الأ قبَحَ الله الحطيئةَ إنّه على كلِّ ضيف ضافه فهو صالح^(١)
وقعنا إليه وهو يخنقُ كلبه دَع الكلبَ ينبَحُ إنَّما الكلبُ نابحُ

وقال أعشى بني تغلب: [من الطويل]
بكيّتَ على زادٍ خبيثٍ قريته الأ كلُّ عبسيُّ على الزادِ نابحُ
وقال الفرزدق: [من الطويل]
ولا تنزع الاضياف إلا إلى فتى إذا ما أبى أن ينبَحَ الكلبُ أوقدا
(وقال الآخر:

* دَع الكلبَ ينبَحُ إنَّما الكلبُ نابحُ *

وقال الآخر:

* الأ كلُّ كلبٍ لا أبا لك نابحُ *

وقال الفرزدق:

* إذا ما أبى أن ينبَحَ الكلبُ أوقدا^(٢) *

ومتى صار الكلب يابى النباح؟! فهذا على أنهم يتشققون بذكر الكلب، ويرتفقون به، لا على أن هذا الأمر الذي ذكروه قد كان على الحقيقة.

وقال الآخر، وهو جرير: [من الطويل]

ولو كنت في نجرانٍ أو بعمامةٍ إذن لأتاني من ربعة ركب^(٣)
يُثير الكلابَ آخرَ الليلِ وطوؤه كضَبُّ العرادِ خطوهُ متقارب^(٤)
فباتَ يُميننا الربيعَ وصوبه وينظرُ من لقاعةٍ وهو كاذب^(٥)

فذكر تقاربَ خطوه، وإخفاءَ حركته، وأنه مع ذلك قد أثار الكلاب من آخر الليل، وذلك وقت نومها وراحتها، وهذا يدلُّ على تيقظها ودقّة حسّها.

(١) الأبيات للراعي في العمدة ١٥١/٢، ولابن أعيان في البلاء ٢٤١، والأغاني ١٧٢/٢-١٧٣، وبلا نسبة في الوحشيات ٢٤١.

(٢) ما بين قوسين هو أعجاز أبيات سابقة.

(٣) ديوان جرير ٤٢ (طبعة الصاوي).

(٤) العراد: شجر صلب العود؛ منتشر الأغصان.

(٥) اللقاعة: الكثير الكلام.

٢٦٩ - [حالة الكلب لسبب القرى من البرد]

وفيما ذكروا من حالة الكلب لسبب القرى من البرد، والذي يلقي، وكيف الشأن في ذلك، قال أعشى باهلة: [من البسيط]

وأَجْحَرَ الكَلْبَ مُبْيَضُ الصَّقِيعِ بِهِ وَأَلْجَأَ الحَيَّ مِنْ تَنْفَاحِهِ الحُجْرُ (١)

وقال الحطيئة: [من الطويل]

إِذَا أَجْحَرَ الكَلْبَ الصَّقِيعُ أَتَقَيَّنَهُ بِأَثْبَاجٍ لَا خُورٍ وَلَا قَفِرَاتٍ (٢)

وقال ابن هرمة: [من الخفيف]

وسل الجارَ والمعصَّبَ والأضدَّ كَيْفَ يَلْقَوْنِي إِذَا نَبَحَ الكَلْبُ وَمَشَى الحَالِبُ المُبْسِ إِلَى النَّأْ لَمْ تَكُنْ خَارِجِيَّةً مِنْ تَرَاثٍ

يَافَ وَهَنًا إِذَا تَحَبَّوْا لَدِيًّا (٣)
بِ وَرَاءِ الكُسُورِ نَبْحًا خَفِيًّا
بِ فَلَمْ يَقْرَ أَصْفَرَ الحَيِّ رِيًّا (٤)
حَادَثٌ، بَلْ وَرِثْتُ ذَاكَ عَلِيًّا (٥)

وقال الأعشى: [من المتقارب]

وَتَبْرُدُ وَتَبْرُدُ بَرْدَ رِداءِ العَرَوِ وَتَسْخُنُ لَيْلَةً لَا يَسْتَطِيعُ

سِ فِي الصَّيْفِ رَفَرَتْ فِيهِ العَبِيرُ (٦)
عُ نَبَاحًا بِهَا الكَلْبُ إِلَّا هَرِيرًا

وقال الهذلي: [من الطويل]

وَلَيْلَةً يَصْطَلِي بِالفَرْتِ جَازِرُهَا يَخْتَصُّ بِالنَّقَرَى المُثْرِينَ دَاعِيهَا (٧)

(١) البيت لأعشى باهلة في الاصمعيات ٨٩، والتعاوي ٦٠، والبيت من قصيدة تنسب أيضاً إلى الدعجاء بنت المنتشر، وليلى بنت وهب الباهلية أخت المنتشر. وانظر حواشي المصدرين السابقين والحماسة البصرية ٢٤١/١.

(٢) ديوان الحطيئة ١١٥. الخور: الرقاق الجلود اللينات الفصوص. القفرات: القليلات اللحم.

(٣) ديوان ابن هرمة ٢٢٧. المعصَّب: الفقير المعدم. تحبوا: جلسوا الحبوة، وهي أن يجمع الجالس بين ظهره وساقه، أو بمعنى لبسوا الحبوة، أي اشتملوا على ثوب أو عمامة.

(٤) الميس: الذي يدعو الناقة للحلب. الناب: الناقة المسنة.

(٥) خارجية: مستحدثة. علي: اسم أبيه.

(٦) ديوان الأعشى ١٤٥، والبيت الأول في اللسان (عبر، رقق، ردى)، وأساس البلاغة (رقق)، والثاني في الخزانة ٦٦/١، والدرر ١٥٢/٣، وبلا نسبة في همع الهوامع ٢١٩/١.

(٧) البيتان لجنوب أخت عمرو ذي الكلب في ديوان الهذليين ١٢٦/٣، وشرح أشعار الهذليين ٥٨٢، والمعاني الكبير ٤١٥، ١٢٤٩، ومجموعة المعاني ١٩٠، ولرقيقة أخت عمرو في نوادر المخطوطات ٢٤٢/٢، ولأبي ذؤيب الهذلي في الحماسة البصرية ٣٥٢/٢، ولبعض هذيل في أمالي المرتضى ٣٥٤/١، والبخلاء ٢١٥، ولعمرو بن الأهم في ديوانه ١٠١، والحماسة الشجرية ١٨٨-١٩٠، ولهبيرة بن أبي وهب في السيرة لابن هشام.

لا يَنْبَحُ الكلبُ فيها غيرَ واحدةٍ من الشِّتاءِ ولا تَسْرِي أفاعيها

وقال الفرزدق: [من الطويل]

إذا احمرَّ آفاقُ السَّماءِ وهتَّكت
وجاءَ قريعُ الشُّولِ قبلَ إفالِها
وهتَّكتِ الأطنابَ كلُّ ذِفْرَةٍ
وباشرَ راعيها الصَّلَى بلبانه
وقاتلَ كلبُ الحيِّ عن نارِ أهله
وأصبحَ مبيضُ الصَّقيعِ كأنه
كُسورَ بيوتِ الحيِّ نكباءُ حرجفُ^(١)
يزِفُ وجاءتْ خلفه وهي زُحفُ^(٢)
لها تامكٌ من عاتقِ النِّيِّ أعرفُ^(٣)
وكفُّ لحرِّ النارِ ما يتحرَّفُ
ليربضَ فيها، والصِّلا متكنَّفُ
على سَرّواتِ النِّيبِ قُطنِ مُندَفُ

تم المصحف الأول ويتلوه المصحف الثاني من كتاب الحيوان

وأوله باب احتجاج صاحب الكلب بالأشعار المعروفة

-
- (١) ديوان الفرزدق ٥٦٠ (الصاوي)، ٢/٢٨ (دار صادر). الحرجف: الريح الباردة الشديدة الهبوب.
(٢) القريع: فحل الإبل. الشول: جمع شائلة، وهي الناقة ترفع ذنبها لللقاح والتي لا لبن لها. قبل إفالها: قبل أن تسمن.
(٣) الذفرة: الناقة النجيبة. التامك: السنم العظيم. الأعراف: المرتفع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

باب

احتجاج صاحب الكلب بالأشعار المعروفة والأمثال السائرة، والأخبار الصحيحة والأحاديث المأثورة، وما أوجد العيان فيها، وما استخرجت التجارب منها من أصناف المنافع والمرافق، وعن مواضع أخلاقها المحمودة وأفعالها المرادة.

ونبدأ بقول العرب: «إِنَّ دِمَاءَ الْمَلُوكِ شِفَاءٌ مِنْ دَاءِ الْكَلْبِ»^(١)، ثُمَّ نذكر الأبواب لما قدّمنا في صدر كلامنا هذا. قال بعض المُرَيِّين: [من الوافر]

أرى الخلالَ بعد أبي عَمِيرٍ	بِحَجْرٍ فِي لِقَائِهِمْ جَفَاءً ^(٢)
مَنْ الْبَيْضُ الْوُجُوهِ بَنِي سِنَانٍ	لَوْ أَنَّكَ تَسْتَضِيءُ بِهِمْ أَضَاؤُوا
لَهُمْ شَمْسُ النَّهَارِ إِذَا اسْتَقَلَّتْ	وَنُورٌ مَا يَغِيْبُهُ الْعَمَاءُ ^(٣)
بُنَاءُ مَكَارِمٍ وَأُسَاةُ كَلَمٍ	دِمَاؤُهُمْ مِنَ الْكَلْبِ الشِّفَاءُ ^(٤)

وقال الفرزدق: [من الطويل]

مِنَ الدَّارِمِيِّينَ الَّذِينَ دِمَاؤُهُمْ	شِفَاءٌ مِنَ الدَّاءِ الْمَجْنَّةِ وَالْخَبْلِ ^(٥)
وقال عبدُ اللهِ بنُ قيسِ الرِّقِيَّاتِ: [من المنسرح]	
عَاوَدَنِي النَّكْسُ فَاسْتَفَيْتُ كَمَا	تَشْفِي دِمَاءَ الْمَلُوكِ مِنْ كَلْبٍ ^(٦)

(١) في مجمع الأمثال ١/٢٧١، والذرة الفاخرة ٢/٤٥٤، ٤٦١ «دماء الملوك أشفى من الكلب؛ ويروى: دماء الملوك شفاء الكلب».

(٢) الأبيات في الحماسة البصرية ١/١٥٤، وديوان المعاني ١/٤٣، وحماسة الخالديين ١/١٦٠، ومحاضرات الراغب ١/١٦٠، والمؤتلف ٦٢، وشرح الحماسة للتبريزي ٤/١٩٧، ومعجم الشعراء ٢١٣، والحماسة المغربية ٣٠٥، وحماسة القرشي ٣٢٢، وشرح الحماسة للمرزوقي ١٦٥٩، والبيت الأخير لامية بن أبي الصلت في ديوانه ٥٤٧.

(٣) استقلت الشمس: ارتفعت. العماء: السحاب المرتفع؛ والكثيف.

(٤) الأساة: جمع آس؛ وهو الطبيب. الكلم: الجرح.

(٥) البيت للفرزدق في العين ٦/٢١، وعيون الأخبار ٢/٩٣، وليس في ديوانه، وللمتللمس في الأغاني ١٥/٣١٨، وملحق ديوانه ٣٠٩، وللبعث في مروج الذهب ٢/٢١٩، وبلا نسبة في اللسان (جنن)، والمقاييس ٥/١٣٣، وتهذيب اللغة ١٠/٤٩٧. المجنة: الجنون.

(٦) لم أجد البيت في ديوان عبيد الله بن قيس الرقييات، ووجدت في ديوانه ص ١٢: فدلتها الحب فاستفيت كما تشفي دماء الملوك من كلبه

وقال ابن عيَّاش الكنديُّ لبني أسدٍ في قتلهم حُجْرَ بنَ عمرو: [من الطويل]
عبيد العصا جئتم بقتلِ رئيسكم تُريقون تاموراً شفاءً من الكلب^(١)

وقال الفرزدق: [من الطويل]

ولو تشربُ الكلبِي المِراضُ دماءنا شَفَتْها وذو الخَبِلِ الذي هو أَدْنَفُ^(٢)
وذاك أَنَّهُم يزعمون أَن دماءَ الأشرافِ والملوكِ تَشْفِي من عَضَّةِ الكلبِ الكلبِ،
وتَشْفِي من الجنونِ أيضاً، كما قال الفرزدق:

ولوتشربُ الكلبِي المِراضُ دماءنا شفتها.....

ثم قال: «وذو الخَبِلِ الذي هو أَدْنَفُ»

وقد قال ذلك عاصم بن القُرَيْبِ، وهو جاهليٌّ: [من الطويل]

وداويتهُ مما بهِ من مَجَنَّةٍ دمَ ابنِ كُهالٍ والنَّطاسِيُّ واقفُ^(٣)
وقلَّدتهُ دهرًا تَمِيمَةً جَدُّهُ وليس لشيءٍ كادَهُ اللهُ صارفُ^(٤)

وكان أصحابنا يزعمون أَن قولهم: «دماء الملوك شفاءً من الكلب»، على معنى
أَنَّ الدَّم الكريم هو الثَّارُ المُنِيم، وَأَنَّ داء الكلب على معنى قول الشاعر: [من الرمل]

كَلْبٌ مِن حِسِّ ما قد مسَّهُ وأفانين فُوادٍ مُخْتَبِلُ^(٥)

وعلى معنى قوله: [من الكامل]

* كَلْبٌ بِضَرْبِ جَمَاجِمِ وِرْقَابٍ *^(٦)

(١) قال ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٣٧ «ليدن»: (مُلْكٌ حجرٌ على بني أسد، فكان يأخذ منهم شيئاً معلوماً، فامتنعوا منه؛ فسار إليهم فاخذ سرواتهم فقتلهم بالعصي، فسَمُوا عبيد العصا). وذكر الثعالبي في ثمار القلوب ٥٠٤ «٨٩٥»: (عبيد العصا: يضرب هذا المثل للقوم إذا استدلُّوا، وهو اسم لكل ذليل وتابع؛ ولزم ذلك بني أسد). وانظر المثل في مجمع الأمثال ١٩/٢، والمستقصى ٣٩٨/٢، والفاخر ١٩٢. والتامور: دم القلب.

(٢) ديوان الفرزدق ٣٠/٢. الكلبِي: جمع كليب، وهو المصاب بداء الكلب. والأدنف: المريض.

(٣) المجنة: الجنون. النطاسي: الطبيب.

(٤) كاده: أَرادَه.

(٥) البيت للنابغة الجعدي في ديوانه ٨٩، والمعاني الكبير ١٢، ١١٣٣، واللسان (حمل)، وبلا نسبة في التاج (كلب).

(٦) عجز بيت للحصين بن القعقاع، وصدرة (يوم الحُلَيْسِ بذِي الفقار كانه)، وقد تقدم في الفقرة (٢٣٥)، وهو بلا نسبة في الاشتقاق ٢١، والتاج (كلب)، وجمهرة اللغة ٥٣٣.

فإذا كَلَبَ من الغيظ والغضب فأدرك ثاره فذلك هو الشفاء من الكَلَب، وليس
أنَّ هناك دماً في الحقيقة يُشربُ

ولولا قول عاصم بن القرية: «والنطاسي واقف». لكان ذلك التأويل جائزاً.
وقول عوف بن الأحوص: [من الوافر]

ولا العنقاء ثعلبة بن عمرو
دماء القوم للكَلَبِي شفاءً^(٢)

وفي الكلب يقول الأعشى: [من الطويل]

أراني وعمراً بيننا دقُّ منشمٍ فلم يبق إلا أن يجنَّ وأكلبا^(٣)

ألا ترى أنه فرَّق بينهما، ولو كان كما قال لبيد بن ربيعة: [من البسيط]

يسعى خزيمة في قومٍ ليهلكهم على الحمالة هل بالمرء من كَلَب^(٣)

لكان ذلك على تأويل ما ذهبوا إليه جائزاً، وقال الآخر: [من الطويل]

وأمر أميرٍ قد أطعتم فأنما كواه بنارٍ بين عينيه مكلب^(٤)

وهذا عندي لا يدخل في الباب الأول، وقد جعلوه منه.

٢٧١ - [طباع الكلب العجيب]

قال صاحب الكلب: وزعمتم أنه يبلغ من فضل قوة طباع الديك في الإلقاح،
أنه متى سفد دجاجة وقد احتشت بيضاً صغاراً من نتاج الريح والتراب، قلبها كلها
حيواناً ولو لم يكن سفدها إلا مرة واحدة، وجعلتموه في ذلك بغاية الفحلة، فطباعُ
الكلب أعجبُ إلقاحاً وأثقب، وأقوى وأبعد، لأن الكلب إذا عض إنساناً، فأول ذلك
أن يحيله نباحاً مثله، وينقله إلى طباعه، فصار ينبح، ثم يحبله ويلقحه بأجراء صغار
يَبُولُها علقاً في صور الكلاب، على بُعد ما بين العنصرين والطبعين والجنسين،
والذي يتولد في أرحام الدجاج، أقرب مشاكلة إلى طباع الديك، فالكلب هو العجب
العجيب، لأنه أحبل ذكراً من خلاف جنسه، ولأنه مع الإحبال والإلقاح، أحاله نباحاً

(١) البيت لعوف بن الأحوص في المفضليات ١٧٥، وشرح اختيارات المفضل ٨٠٩، وبلا نسبة في
المقاييس ٤/١٦٢، والناج (عنق).

(٢) ديوان الأعشى ١٦٧، واللسان (نشم)، وتهذيب اللغة ٣٨٢/١١.

(٣) ديوان لبيد ٣٤٩. الحمالة: الدية التي يحملها قوم عن قوم.

(٤) في اللسان: كدا (كدا: داء يأخذ الجراء خاصة؛ يصيبها منه فيء وسعال، حتى يكون ما بين عينيه
فيذهب. كدي الكلب كدا: إذا نشب العظم في حلقه).

مثله . فتلك الأدراس^(١) وتلك الكلاب الصغار، أولادٌ ونتاج، وإن كان لا يبقى .
وقد تعلمون أن أولادَ البُعَلات من البغال لا تبقى، وأن اللُّقاح قد يقع، وإنما
مُنِع البغل من البغلة بهذه العلة .

٢٧٢ - [دواء الكلب]

قال أبو اليقظان وغيره : كان الأسود بن أوس بن الحُمرة، أتى النجاشيَّ ومعه
امراته، وهي بنت الحارث أحد بني عاصم بن عبيد بن ثعلبة، فقال النجاشيُّ:
لأعطينك شيئاً يشفي من داء الكلب . فأقبلَ حتَّى إذا كان ببعض الطريق أتاه الموت،
فأوصى امرأته أن تتزوج ابنة قدامة بن الأسود، وأن تعلمه دواء الكلب، ولا يخرج
ذلك منهم إلى أحد، فتزوجته نكاح مَقَّت^(٢)، وعلمته دواء الكلب، فهو إلى اليوم
فيهم^(٣) .

فوكَدَ الأسود قُدامة وولد قُدامة المُحِلُّ - وأمه بنت الحارث - فكان المُحِلُّ يُداوي
من الكلب . فولد المُحِلُّ عَقبةَ وعمراً، فدأوى ابنُ المُحِلِّ عَتبيةَ بن مرداس، وهو ابن
فسوة الشاعر، فبال مثلَ أجراء الكلب علقاً، ومثل صور النمل والأدراس فقال ابن
فسوة حين برئ: [من الطويل]

ولولا دواءُ ابنِ المُحِلِّ وعلمُه هَرَّرتُ إذا ما النَّاسُ هَرَّرتُ كلابها^(٤)
وأخرج عبد الله أولاد زارع مَوْلعة^(٥) أكتافها وجنوبها

وأولاد زارع : الكلاب .

وأما قوله :

ولولا دواء ابن المُحِلِّ وعلمه هررتُ

فإنما ذهبَ إلى أن الذي يَعَضُّهُ الكلبُ الكلبُ، ينبح نباح الكلاب ويَهْرُ هريرها .

(١) الأدراس : جمع دَرَص، وهو ولد الهرة والأرنب والفأرة ونحوها .
(٢) نكاح المقت : أن يتزوج الرجل امرأة أبيه بعد وفاته، وكان هذا في الجاهلية، فحرمه الإسلام . وانظر
المعارف لابن قتيبة ١١٢-١١٣ حيث سرد أسماء طائفة ممن تزوجوا زوجات آبائهم .
(٣) انظر الخبر في عيون الأخبار ٢/ ٨٠، والشعر والشعراء ٢١٩ «لیدن» .
(٤) البيتان في عيون الأخبار ٢/ ٨٠، والشعر والشعراء ٢١٩، وأساس البلاغة (زرع)، والبيت الثاني في
تهذيب اللغة ٢/ ١٣٢ .
(٥) المولعة : التي بها سواد وبياض .

وقال محمد بن حفص، وهو أبو عبيد الله بن محمد، ابن عائشة: عضّ رجلاً من بني العنبر كلبٌ كلب فأصابه داءُ الكلب، فبال علقاً في صورة الكلاب، فقالت بنت المستنشر^(١): [من الطويل]

أبا لك أدراصاً وأولادَ زارعٍ وتلكَ لعمري نهيّة المتعجب^(٢)

وحدّثني أبو الصّهباء عن رجال من بني سعد، منهم عبد الرحمن بن شبيب، قالوا: عضّ سنجير الكلب الكلب، فكان يعطشُ ويطلبُ الماء بأشدّ الطلب، فإذا أتوه به صاح عند معاينته: لا، لا أريد!

وهكذا يصيب صاحب تلك العضّة. وذلك أنه يعطش عنها أشدّ العطش ويطلب الماء أشدّ الطلب، فإذا أتوه به هرب منه أشدّ الهرب، فقال دكّم وهو عبد لبني سعد: [من الطويل]

لقد جئت يا سنجير أجلو ملقة إياؤك للشيء الذي أنت طالب

وهي أبيات لم أحفظ منها إلا هذا البيت.

وذكر مسلمة بن محارب، وعلي بن محمد عن رجاله، أن زياداً كتب دواء الكلب، وعلّقه على باب المسجد الأعظم^(٣)، ليعرفه جميع الناس.

وأنا، حفظك الله تعالى، رأيتُ كلباً مرةً في الحيّ ونحن في الكتاب، فعرض له صبيٌّ يسمّى مهدياً من أولاد القصابين. وهو قائمٌ يمحو لوجهه فعضّ وجهه فنقع ثنيتته دون موضع الجفن من عينه اليسرى، فخرق اللحم الذي دون العظم إلى شطر خده، فرمى به ملقياً على وجهه وجانب شذقه؟ وترك مُقلته صحيحة، وخرج منه من الدم ما ظننتُ أنه لا يعيش معه، وبقي الغلامُ مبهوتاً قائماً لا ينبس، وأسكته الفزع وبقي طائر القلب، ثمّ خيط ذلك الموضع، ورأيتُه بعد ذلك بشهر وقد عاد إلى الكتاب، وليس في وجهه من الشتر^(٤) إلا موضع الخيط الذي خيط، فلم ينبح إلى أن برئ، ولا

(١) في عيون الأخبار: «فقلت امرأته».

(٢) البيت في عيون الأخبار ٢/ ٨٠. النهيّة: النهاية، وهي غاية الشيء وآخره.

(٣) هو مسجد البصرة: كان مبنياً باللبن، وهدمه زياد وبناه بالحصص، وسقفه بالساج. انظر ميزان الاعتدال ١/ ٣٥٥، ولسان الميزان ٢/ ٤٩٣.

(٤) الشتر: القطع.

هرّ، ولا دعا بماء، حتّى إذا رآه صاح: رُدّوه ! ولا بال جرّواً ولا علقاً، ولا أصابه ممّاً
يقولون قليل ولا كثير. ولم أجد أحداً من تلك المشايخ، يشكُّ أنّهم لم يروا كلباً قطُّ
أكلبَ ولا أفسدَ طبعاً منه. فهذا الذي عاينت .

وأما الذي بلغني عن هؤلاء الثقات فهو الذي قد كتبتّه لك .

٢٧٤ - [مما قيل في الكلب الكلب]

وفي الكلب الكلب أنشد الأعرابي: [من الرجز]

حيّاكم الله فإنّي منقلبٌ وإنّما الشاعر مجنون كلبٌ
أكثر ما يأتي على فيه الكذبُ

إما أن يكون الشعر لهميان وإما أن يكون للزفیان .

وأنشدني: [من الطويل]

فإن كنتم كلبي فعندي شفاؤكم وفي الجن إن كان اعتراك جنون^(١)

وأنشدني: [من الوافر]

وما أدري إذا لاقيتُ عمراً أكلبي آل عمرو أم صحاحُ

قال: فأما المكلب الذي يصيبُ كلابه داءً في رؤوسها يسمّى الجُحام^(٢)

فتكوى بين أعينها .

٢٧٥ - [مسألة كلامية]

وسنذكر مسألة كلامية، وإنّما نذكرها لكثرة من يعترض في هذا ممّن ليس له
علم بالكلام .

ولو كان أعلمُ الناس باللغة، لم ينفك في باب الدين حتّى يكون عالماً
بالكلام .

وقد اعترض معترضون في قوله عزّ وجل: ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا
فَانسَلَخْ مِنْهَا فَاتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَكُوْشِعْنَا لِرَفْعِنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أُخْلِدَ إِلَى

(١) البيت لجريبر في ديوانه ٥٨٩ «طبعة الصاوي» .

(٢) الجُحام: داء يصيب الإنسان في عينه فترم، وقيل: هو داء يصيب الكلب يكوى منه بين عينيه .

اللسان (جحم) .

الأرض واتبَع هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴿١﴾ فَزَعَمُوا أَنَّ هَذَا الْمَثَلَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُضْرَبَ لِهَذَا الْمَذْكُورِ فِي صَدْرِ هَذَا الْكَلَامِ، لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ (٢). فَمَا يُشَبَّهُ حَالَ مَنْ أُعْطِيَ شَيْئًا فَلَمْ يَقْبَلْهُ - وَلَمْ يَذْكُرْ غَيْرَ ذَلِكَ - بِالْكَلْبِ الَّذِي إِنْ حَمَلَتْ عَلَيْهِ نَبِحَ وَوَلَّى ذَاهِبًا، وَإِنْ تَرَكْتَهُ شَدَّ عَلَيْكَ وَنَبِحَ، مَعَ أَنْ قَوْلَهُ: يَلْهَثُ، لَمْ يَقَعِ فِي مَوْضِعِهِ، وَإِنَّمَا يَلْهَثُ الْكَلْبُ مِنْ عَطَشٍ شَدِيدٍ وَحَرٍّ شَدِيدٍ، وَمِنْ تَعَبٍ، وَأَمَّا النَّبَاحُ وَالصِّيَاحُ فَمِنْ شَيْءٍ آخَرَ.

قلنا له : إِنْ قَالَ ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ (٣)، فَقَدْ يَسْتَقِيمُ أَنْ يَكُونَ الرَّادُّ لَا يَسْمَى مَكْذِبًا، وَلَا يُقَالُ لَهُمْ كَذَبُوا إِلَّا وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ مِنْهُمْ مَرَارًا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فَلَيْسَ بِبَعِيدٍ أَنْ يُشَبَّهُ الَّذِي أُوتِيَ الْآيَاتِ وَالْأَعَاجِيبِ وَالْبُرْهَانَاتِ وَالْكَرَامَاتِ، فِي بَدْءِ حَرْصِهِ عَلَيْهَا وَطَلْبِهِ لَهَا، بِالْكَلْبِ فِي حَرْصِهِ وَطَلْبِهِ، فَإِنَّ الْكَلْبَ يُعْطَى الْجِدَّ وَالْجُهْدَ مِنْ نَفْسِهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ مِنَ الْحَالَاتِ، وَشَبَّهُ رَفْضَهُ وَقَذْفَهُ لَهَا مِنْ يَدَيْهِ، وَرَدَّهُ لَهَا بَعْدَ الْحَرْصِ عَلَيْهَا وَفِرْطِ الرَّغْبَةِ فِيهَا، بِالْكَلْبِ إِذَا رَجَعَ يَنْبِحُ بَعْدَ إِطْرَادِكِ لَهُ. وَوَاجِبٌ أَنْ يَكُونَ رَفْضُ قَبُولِ الْأَشْيَاءِ الْخَطِيرَةِ النَّفِيسَةِ فِي وَزْنِ طَلْبِهِمُ وَالْحَرْصِ عَلَيْهَا.

والكلب إذا أتعب نفسه في شدة النباح مقبلاً إليك ومدبراً عنك، لهث واعتراه ما يعثره عند التعب والعطش.

وعلى أننا ما نرمي بأبصارنا إلى كلابنا وهي رابضة وادعة، إلا وهي تلهث، من غير أن تكون هناك إلا حرارة أجوافها، والذي طبعت عليه من شأنها، إلا أن لهث الكلب يختلف بالشدة واللين !

٢٧٦ - [كرم الكلاب]

وقال صاحب الكلب : ليس الديك من الكلب في شيء، فمن الكلاب ذوات الأسماء المعروفة والألقاب المشهورة. ولكرامها وجوارحها وكواسبها، وأحرارها وعتاقها، أنسابٌ قائمةٌ ودواوينٌ مخلدة، وأعرافٌ محفوظة، ومواليدٌ مُحْصَاة، مثل كلب جدعان، وهو السُّلْهُبُ بن البراق بن يحيى بن وثاب بن مظفر بن مُحَارِش.

(١) ١٧٥-١٧٦ / الأعراف: ٧.

(٢) ١٧٥ / الأعراف: ٧.

(٣) ١٧٦ / الأعراف: ٧.

وقد ذكر العرب أسماءها وأنسابها.

قال مزرد بن ضرار : [من الطويل]

فَعَدَّ قَرِيضَ الشَّعْرِ إِنْ كُنْتَ مُغْزِرًا
لنعت صباحي طويل شقاؤه
بَقِينَ لَهُ مِمَّا يَبْرِي وَأَكْلِبُ
سُخَامٌ، وَمَقْلَاءَ الْقَنِيصِ، وَسُلْهَبٌ
بَنَاتِ سَلُوقِيِّينَ كَانَا حَيَاتِهِ
وَأَيَقِنَ إِذْ مَاتَا بِجُوعٍ وَخَلَّةٍ
فَطُوفَ فِي أَصْحَابِهِ يَسْتَثْبِهِمْ
إِلَى صَبِيَةٍ مِثْلِ الْمَغَالِي وَخَرْمَلٍ
فَقَالَ لَهَا : هَلْ مِنْ طَعَامٍ فَإِنِّي
فَقَالَتْ : نَعَمْ، هَذَا الطَّوْيُ وَمَاؤُهُ
فَلَمَّا تَنَاهَتْ نَفْسُهُ مِنْ طَعَامِهِ
تَغَشَّى، يَرِيدُ النَّوْمَ، فَضَلَّ رَدَائِهِ

ففكّر في هذا الشعر وقف على فصوله، حتى تعرف غناء الكلاب عندهم، وكسبها عليهم، وموقعها منهم.

- (١) الأبيات من قصيدته في المفضليات ص ١٠١-١٠٢، وأرقام الأبيات ٦٣-٧٤.
- (٢) رقميات: سهام منسوبة إلى موضع بالمدينة يعرف بـ «الرقم». صفراء ذابل: قوس قطع عودها وطرحت في الشمس حتى ذبلت.
- (٣) ييري: من بري السهام.
- (٤) في هذا البيت أسماء كلاب الصباحي الستة.
- (٥) السلوقية: كلاب تنسب إلى سلوق، قرية باليمن.
- (٦) الخلّة: الفقر والحاجة. عائل: من «عال يعيل»: افتقر. أو من «عال يعول»: كثر عياله.
- (٧) يستثيبهم: يطلب ثوابهم ونائلهم. أكدت: امتنعت.
- (٨) المغالي: سهام لا نصال لها يغلى بها في الهواء، أي يرمى بها لتبلغ الغاية. خرمل: حمقاء. رواد: الطوافة في بيوت جاراتها ولا تقعد في بيتها لشرها.
- (٩) هابل: من قولهم «هبلته» أي فقدته.
- (١٠) الطوي: البئر. الحائل: الذي أتى عليه حَوْلٌ؛ أو المتغير. قاحل: يابس.
- (١١) الطليح: من الطلاحة، وهو الإعياء والضعف.
- (١٢) تغشى رداءه: تغطى به. البلابل: الهموم.

وقال لبيدٌ في ذكرها وذكر أسماءها: [من الكامل]

لتذودهنَّ وأيقنتُ إن لم تَدُدْ أن قد أحَمَّ من الحتوفِ حمامها^(١)
فتقصَّدتُ منها كَسابٍ وضَرَّجتُ بدمٍ وعودِرَ في المَكْرِ سُخامها^(٢)

ومن عادة الشعراء إذا كان الشعرُ مرثيةً أو موعظةً، أن تكون الكلابُ التي تقتلُ بقرَ الوحشِ، وإذا كان الشعرُ مديحاً، وقال كانَّ ناقتي بقرة من صفتها كذا، أن تكون الكلابُ هي المقتولة، ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها، ولكن الثيران ربَّما جرحت الكلابُ وربَّما قتلتها، وأما في أكثر ذلك فإنَّها تكون هي المصابة، والكلاب هي السالمة والظافرة، وصاحبها الغانم.

وقال لبيدٌ في هذا القول الثاني غير القول الأول، وذلك على معنى ما فسرتُ لك، فقال في ذلك وذكر أسماءها: [من الطويل]

فأصبح وانشقَّ الضَّبَّابُ وهاجِه أخو قفرةٍ يُشلى رِكاهاً وسائلا^(٣)
عوابسَ كالنُشَّابِ تدمي نحرُها يرين دماءَ الهاديات نوافلا^(٤)
ومن أسمائها قولهم: «على أهلها جنتُ براقش»^(٥).

ومن أسمائها قول الآخر: ضَبَّار: [من الكامل]

سَفَرْتُ فقلت لها هَجٍ فتبرَقَعَتْ فذكرتُ حينَ تبرَقَعَتْ ضَبَّارا^(٦)

وقال الكُميت الأسدي: [من المتقارب]

فبات وباتت عليه السَّما ءُ من كلِّ حابيةٍ تَهْطُلُ^(٧)

(١) ديوان لبيد ٣١٢، والبيت الأول في اللسان والتاج (حمم)، والثاني في اللسان والتاج (قصد، سحم)، وديوان الأدب ١/٣٧٥، وما بنته العرب على فعال ١٣.

(٢) كساب: اسم كلبة. سخام: اسم كلب.

(٣) ديوان لبيد ٢٣٩-٢٤٠. أخو قفرة: عنى به الصائد. يشلى: يؤسد ويغرى. ركا ح وسائل: اسمان لكليين.

(٤) عوابس: صفة للكلاب. الهاديات: أوائل الوحش. النوافل: المغانم.

(٥) الأمثال لمجهول ٧٨، والمثل برواية «دلت» في المستقصى ١٦٥/٢، وفصل المقال ٤٥٩، وأمثال ابن سلام ٣٣٣، وبرواية «تجني» في مجمع الأمثال ١٤/٢، وجمهرة الأمثال ٥٢/٢.

(٦) البيت للحارث بن الخزرج في التاج (ضبر)، وله أو للخزرج بن عون بن جميل في التاج (هبر)، وللخزرج بن عوف في الجمهرة ٢٣٠/٣، وبلا نسبة في اللسان (هجع، ضبر، هبر)، والتاج (هجع)، والمقاييس ٧/٦، وشرح المفصل ٧٥/٤.

(٧) ديوان الكُميت ٨-٩، الحبو: امتلاء السحاب بالماء، والحبي من السحاب: المتراكم.

مُكِبًّا كَمَا اجْتَنَحَ الْهَالِكِيَّ عَلَى النَّصْلِ إِذْ طَبَعَ الْمَنْصُلُ^(١)

ثم ذكر أسماء الكلاب فقال: [من المتقارب]

وَفِي ضَبْنٍ حِقْفٍ يَرَى حِقْفَهُ خَطَافٍ وَسَرْحَةً وَالْأَحْدَلُ^(٢)
وَأَرْبَعَةٌ كَقِدَاحِ السَّرَا ءَ لَا عَانِيَاتٌ وَلَا عَبْلُ

وقال الآخر: [من البسيط]

بِتْنَا وَبَاتَ جَلِيدَ اللَّيْلِ يَضْرِبُنَا بَيْنَ الْبَيُوتِ قَرَانًا نَبِحُ دُرُوسِ^(٤)
إِذَا مَلَأَ بَطْنَهُ أَلْبَانَهَا حَلْبًا بَاتَتْ تَغْنِيهِ وَضَرَى ذَاتُ إِجْرَاسِ

ودروس: اسم كلب، والوضرى: استه، وغناؤها: الضراط.

وقال ضابئي بن الحارث في ذلك: [من الكامل]

فَتَرَمَلْتُ بَدْمٍ قَدَامٍ وَقَدْ أَوْفَى اللَّحَاقُ وَحَانَ مَصْرَعِهِ^(٥)

وقال الآخر: [من مجزوء الوافر]

وَلَوْ هَيَّا لَهُ اللَّهُ مِنْ التَّوْفِيقِ أَسْبَابًا^(٦)
لَسَمَى نَفْسَهُ عَمْرًا وَسَمَى الْكَلْبَ وَثَابًا

ومثل هذا كثير.

٢٧٨ - [أحرص الكلاب]

والكلب أشد ما يكون حرصاً إذا كان خطمه يمسّ عجب ذنب الظبي والأرنب والثور وغير ذلك، مما هو من صيده، ولذلك قال الشاعر^(٧): [من المديد]

رَبِّمَا أَعْدُو مَعِيَ كَلْبِي طَالِبًا لِلصَّيْدِ فِي صَحْبِي

(٢) الهالكى: الحداد. وفي أدب الكاتب لابن قتيبة ٦٨ «ليدن»: (الحداد: هالكى، لأن أول من عمل الحديد الهالك بن عمرو بن أسد بن خزيمه).

(٣) الضبن: الناحية. والبيت في ديوان الكميث ٩/٢، وما بنته العرب على فعال ٧٢.

(٤) البيت الأول بلا نسبة في اللسان والتاج (درس، ندل)، والمقاييس ٤/٢٦٠، والثاني في اللسان والتاج وأساس البلاغة (وضر).

(٥) البيت بلا نسبة في اللسان والتاج (قدم).

(٦) البيتان لابن أبي عتيق في محاضرات الأدباء ١٥٣/٢، ولأبي محجن، في محاضرات الأدباء ٢/٢٩٥، ولم يردها في ديوانه.

(٧) هو أبو نواس. والقصيد في ديوانه ٦٣٢.

فَسَمَوْنَا لِلقَنِيصِ مَعًا فَدَفَعْنَاهُ إِلَى أَطْبِ (١)
فَاسْتَدْرَرْتَهُ فَدَرَّ لَهَا يَلْطَمُ الرُّفْعَيْنِ بِالتُّرْبِ (٢)
فَادْرَاهَا وَهِيَ لَاهِيَةٌ فِي جَمِيمِ الحَاجِ وَالعَرَبِ (٣)
فَفَرَى جُمَاعَهُنَّ كَمَا قُدَّ مَخْلُولَانِ مِنْ عَصَبِ (٤)

ثم قال :

غَيْرِ يَعْفُورٍ أَهْلٌ بِهِ جَافَ دَفْيَهُ عَنِ القَلْبِ (٥)
ضَمَّ لَحْيِيهِ بِمَخْطَمِهِ ضَمَّكَ الكَسْرَيْنِ بِالشَّعْبِ
وَانْتَحَى لِلبَاقِيَاتِ كَمَا كَسَرْتَ شَعْوَاءَ مِنْ لَهَبِ (٦)
فَتَعَايَا التَّيْسُ حِينَ كَبَا وَدَنَا قُوَّهُ مِنَ العَجَبِ (٧)
ظَلَّ بِالْوَعْسَاءِ يَنْفُضُهُ آرَمًا مِنْهُ عَلَى الصُّلْبِ (٨)
تَلَكْ لِدَاتِي وَكُنْتُ فَتَى لَمْ أَقُلْ مِنْ لَذَّةِ حَسْبِي

٢٧٩ - [الإهلال والاستهلال]

وأما قوله (٩): « غير يعفور أهل به »، فالإهلال الذي ذكر هو شيء يعتريه في ذلك الوقت، يخرج من جوفه صوت شبيه بالعواء الخفيف، وهو ما بين العواء والأنين، وذلك من حاق الحرص، وشدة الطلب، وخوف الفوات. ويقال: أهلت السماء، إذا صبّت، واستهلت: إذا ارتفع صوت وقعها، ومنه الإهلال بالحج. وقال ابن أحمر: [من السريع]

يُهَلُّ بِالْفِرْقَدِ رُكْبَانُهَا كَمَا يُهَلُّ الرَّاكِبُ المَعْتَمِرُ (١٠)

(١) السامي: الصائد. أظب: جمع ظبي.

(٢) الرفعين: الإبطين.

(٣) جميم الحاج: الشجر الكثير. الغرب: شجرة ضخمة ذات أشواك.

(٤) فرى: شق وفرق.

(٥) يعفور: الظبي. جاف: بلغ بالطعنة الجوف. دفيه: جنبه.

(٦) الشغواء: العقاب. كسرت: ضمت جناحيها. اللهب: ما بين كل جبلين.

(٧) كبا: سقط على وجهه. العجب: الذئب.

(٨) الوعساء: اللين من الرمل. أرم: عض.

(٩) ورد القول نفسه في اللسان (هلال) ٧٠٢/١١، ولم ينسبه إلى الجاحظ.

(١٠) البيت لابن أحمر في ديوانه ٦٦، واللسان (ركب، عمر، رجع)، والتاج (ركب)، وأساس =

ومنه استهلال الصبي، ولذلك قال الأعرابيُّ: رأيت من لا شرب ولا أكل ولا صاح واستهل، أليس ذلك يطلُّ (١)؟

٢٨٠ - [معرفة أبي نواس بالكلاب]

وإذا ضيَع الكلبُ، وهو أن يمدَّ ضبْعُه كلَّهُ، ولا يكون كالحمار الضيق الإبطين - والكلبُ في افتراش ذراعيه وبسط رجليه حتى يصيب قصُّه الأرض، أكثر من الفرس - وعند ذلك ما ينشط أذنيه حتى يدميهما ولذلك قال الحسن بن هانئ، وقد طال ما نعتَ بهما: [من الرجز]

فانصاع كالكوكب في انحداره
شداً إذا أحصفَ في إحضاره
وأول هذه الأرجوزة :

لما غدا الثعلبُ من وِجارِهِ يَلْتَمِسُ الكَسْبَ على صغاره

وأنا كتبتُ لك رجزه في هذا الباب، لأنَّه كان عالماً راوية، وكان قد لعب بالكلاب زماناً، وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب، وذلك موجود في شعره، وصفات الكلاب مستقصاة في أراجيزه، هذا مع جودة الطبع وجودة السبك، والحدق بالصنعة، وإن تأملتَ شعره فضلتَهُ، إلا أن تعترض عليك فيه العصبية، أو ترى أن أهل البدو أبداً أشعر، وأن المولدين لا يقاربونهم في شيء. فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحق من الباطل، مادمت مغلوباً.

٢٨١ - [طرديات أبي نواس]

[١] قال الحسن بن هانئ: [من الرجز]

لما غدا الثعلبُ من وِجارِهِ يَلْتَمِسُ الكَسْبَ على صغاره (٤)
عارضُهُ في سنن امتيَّاره مضمراً يَمُوجُ في صِدارِهِ (٥)

= البلاغة (هلل)، وتهذيب اللغة (هلل)، وبلا نسبة في اللسان والتاج (هلل). الفرقد: نجم في السماء لا يغرب.

(١) يطلُّ: يُهدر. والقول في النهاية ٣/١٣٦، ٥/٢٧١، والبيان ١/٢٨٧.

(٢) ديوان أبي نواس ٦٢٩-٦٣٠، وكتاب الأنوار ومحاسن الأشعار ٢/١٢٢، وديوان المعاني ٢/١٣٣.

(٣) أحصف: اشتد واسرع. الإحضار: شدة العدو.

(٤) ديوان أبي نواس ٦٢٩-٦٣٠، وكتاب الأنوار ومحاسن الأشعار ٢/١٢٢.

(٥) السنن: الطريق. امتار: طلب الميرة، أي الطعام.

منظمة قَصْرَاهُ من إضماره (١)	في حَلَقِ الصُّفْرِ وفي أسياره
من بعد ما كان إلى أصباره (٢)	قد نَحَتَ التَّسْهِيمُ من أقطاره
أيام لا يُحَجَّبُ عن أظْأَرِه (٣)	غَضًّا غَدَّتْهُ الجُورُ من عشاره
في مَنْزِلٍ يُحَجَّبُ عن زُوَّارِه	وهو طَلًّا لم يَدُنْ من إشغاره
حتَّى إذا أَحْمَدَ في اخْتَبَارِه	يُساسُ فيه طَرْفِي نهاره
كأنَّ خَلْفَ ملتقى أشْفارِه (٤)	وَأَضَّ مثلَ القَلْبِ من نُضارِه
كأنَّ لِحْيِيه لَدَى افتتارِه	جَمْرٌ غَضِي يَدْمِنُ في استعارِه
يضمُّ قُطْرِيه من اضطبارِه (٥)	شك مَساميرَ على طَوَّارِه
عَشْرٌ إذا قَدَّرَ في اقتدارِه	وإن تمطى تَمَّ في أشبارِه
إلا بان يُطَلِّقَ من عذارِه (٦)	سَمْعٌ إذا اسْتَرَوَّحَ لم تُمارِه
لَفَتَ المُشِيرِ مُوهِنًا بِنارِه	فانصاعَ كالْكَوكَبِ في انحدارِه
خَرَّقَ أذْنِيه شِبا أظْفارِه	شَدًّا إذا أَحْصَفَ في إحضارِه
عافِرُه أَخْرَقُ في عْفارِه (٧)	حتى إذا ما انساب في غبارِه
وَشَقُّ عَنه جَانِبِي صِدَارِه	فَتَلَّتْ المَفْصِلَ من فقارِه

ما خَيْرَ لِلثَّعْلَبِ في ابتكارِه

[٢] وقال في كلب سليمان بن داود الهاشمي - وكان الكلبُ يسمى زُنْبورا:

[من الرجز]

قد قُلِّدَ الحَلِقَةَ والسِّيورا (٨)	إذا الشياطينُ رأتْ زُنْبورا
أدْفى ترى في شِدْقِه تأخيرا (٩)	دَعَتْ لِحْزَانَ الفِلا نُبورا
خناجراً قد نَبَتَتْ سَطُورا (١٠)	ترى إذا عارضته مفرورا

(١) قصره: أسفل أضلاعه.

(٢) التسهيم: الضمور، أقطاره: نواحيه. أصباره: أي ممتلئ بدين.

(٣) الخور: مفردا خورة؛ وهي الناقة الغزيرة اللبن.

(٤) القلب: السوار.

(٥) طواره: أي حده.

(٦) السمع: ولد الذئب من الضبع.

(٧) عفاره: تراه.

(٨) ديوان أبي نواس ٦٣٣، وكتاب الأنوار ومحاسن الأشعار ١١٨/٢.

(٩) خزان: جمع خزز، وهو الذكر من الأرناب. الثبور: الهلاك. الأدفى: الذي يمشي إلى جانب، وذلك أسرع له.

(١٠) فرّ الدابة: كشف عن أسنانها لينظر ما سنها.

مُشْتَبَكَاتُ تَنْظِمُ السُّحُورَا أَحْسِنَ فِي تَادِيهِ صَغِيرَا^(١)
حَتَّى تَوْفَى السَّبْعَةَ الشُّهُورَا مِنْ سَنِهِ وَبَلَغَ الشُّغُورَا
وَعَرَفَ الْإِيحَاءَ وَالصَّفِيرَا وَالْكَفَّ أَنْ تَوْمَى أَوْ تَشِيرَا
يُعْطِيكَ أَقْصَى حُضْرِهِ الْمَذْخُورَا شَدًّا تَرَى مِنْ هَمْزِهِ الْأُظْفُورَا^(٢)
مُنْتَشِطًا مِنْ أُذُنِهِ سَيُورَا فَمَا يَزَالُ وَالغَا تَامُورَا^(٣)
مِنْ ثَعْلَبِ غَادَرِهِ مَجْزُورَا أَوْ أَرْبِ كُورَهَا تَكْوِيرَا
أَوْ ظَبِيَّةٍ تَقْرُو رَشًّا غَيْرَا غَادَرَهَا دُونَ الطَّلَا عَقِيرَا^(٤)
فَامْتَعَ اللَّهُ بِهِ الْأَمِيرَا رَبِّي، وَلَا زَالَهُ مَسْرُورَا

وقد قال كما ترى :

شَدًّا تَرَى مِنْ هَمْزِهِ الْأُظْفُورَا مُنْتَشِطًا مِنْ أُذُنِهِ سَيُورَا

بإثراقوله :

حَتَّى تَوْفَى السَّبْعَةَ الشُّهُورَا مِنْ سَنِهِ وَبَلَغَ الشُّغُورَا

فإنَّ الكلب إذا شغُر برجله وبال، فذلك دليلٌ على تمام بلوغه للإلقاح، وهو من الحيوان الذي يحتلم^(٥).

وأما احتلام الغلام فيعرف بأمر : منها انفراقُ طرف الأرنبة، ومنها تغيُّر ریح إبطيه، ومنها الأنياب، ومنها غلظ الصوت.

ومن الغلمان من لا يحتلم. وفي الجوّاري جوارٍ لا يحضن، وذلك في النساء عيب، وليس مثله من الرجال عيباً، وقد رأيت رجلاً يوصفون بالقوة على النساء، وبعضهم لم يحتلم إلا مرة أو مرتين، وبعضهم لم يحتلم البتة.

[٣] وقد قال الحسن بن هانئ مثل ذلك، في أرجوزة أخرى : [من الرجز]

يَمْرِي إِذَا كَانَ الْجِرَاءُ عَبْطَا بَرَاثِنَا سَحْمَ الْأَثَافِي مُلْطَا

يَنْشِطُ أُذُنِيهِ بِهِنَّ نَشْطَا

(١) السحور: جمع سحر؛ وهو الرثة.

(٢) الحضر: شدة الجري. الهمز: الضغط والغمز.

(٣) والفا تامورا: شارباً للدم.

(٤) تقرو: تقصد. الرشا: الظبي.

(٥) عيون الاخبار ٢ / ٨٠.

وهذه الاجوزة أولها^(١):

عَدَدَتْ كَلْبًا لِلطَّرَادِ سَلْطَا مَقْلَدًا قَلَائِدًا وَمَقْطَا^(٢)
فهو الجميل والحسيب رهطًا ترى له شديقين حُطًا حُطًا
يمري إذا كان الجراء عَبْطَا برائناً سَحْمَ الأثافي مُلْطَا
ينشط أذنيه بهنَّ نشطًا تخال ما دَمِينَ منها شرطًا
ما إنَّ يقعن الأرض إلا فَرَطَا كأنما يُعجلنَ شيئاً لَقْطَا
أعجلَ من قول قِطَاةِ قَطَا فاجتاح خَزَانَ الصحارى الرُقْطَا^(٣)
يَلْقَيْنَ مِنْهُ حَكْمًا مَشْتَطًا للعظم حَطْمًا والأديم عَطَا

والشعراء إذا أرادوا سرعة القوائم قالوا كما قال: [من البسيط]

يخفي الترابَ بأظلاف ثمانية ومَسْهَنَ إِذَا أَقْبِلنَ تَحْلِيلُ^(٤)

وقال الآخر: [من الكامل]

وكأنما جَهَدَتْ أَلْيَتُهُ أن لا تَمَسَّ الأرضَ أَرْبَعُهُ^(٥)

فأفرط المولِّدون في صفة السرعة - وليس ذلك بأجود - فقال شاعرٌ منهم يصف

كلبة بسرعة العَدْوِ: [من الرجز]

* كأنما تَرْفَعُ ما لم يُوضَعَ^(٦) *

وقال الحسن بن هانئ: [من الرجز]

* ما إنَّ يقعن الأرضَ إلا فَرَطَا *

[٤] وقال الحسن بن هانئ في نعت كلب: [من الرجز]

أُنعتُ كَلْبًا أَهْلُهُ فِي كَدِّهِ قَدْ سَعِدَتْ جِدودُهُمْ بِجَدِّهِ^(٧)

(١) ديوان أبي نواس ٦٢٧، وكتاب الأنوار ١٢٤/٢.

(٢) السلط: الشديد.

(٣) الخزان: جمع خرز، وهو الذكر من الأرناب. الرقط: جمع أرقط؛ وهو الذي يخالط سواده بياض.

(٤) البيت لعبدية بن الطبيب في ديوانه ٧١، وشرح اختيارات المفضل ٦٦٧، ونوادر أبي زيد ٩، واللسان (حلل)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ٦١٨، والخصائص ٨١/٣.

(٥) البيت لخلف الأحمر في ديوان المعاني ١٣٤/٢، وكتاب الأنوار ٣٣٢/١، والتشبيهات لابن أبي

عون ٣٨، والصناعتين ٩٧، ونسب خطأ إلى حميد بن ثور في سرقات أبي نواس ٦٥.

(٦) الرجز في محاضرات الأدباء ٢٨٥/٢، والصناعتين ٧٩.

(٧) ديوان أبي نواس ٦٢٤، وكتاب الأنوار ١١٥/٢، والبيزرة ١٤٩-١٥٠، وحياة الحيوان ٢٦١/٢.

فكلُّ خيرٍ عندهم من عنده
 يبيتُ أدنى صاحبٍ من مهده
 ذو غُرَّةٍ محجَّلٌ بزنده
 يا حُسنَ شذقيه وطولَ خده
 يشربُ كأساً شدها في شده
 يظلُّ مولاه له كعبده
 وإن عري جَلَّه بُبرده
 تلذُّ منه العينُ حُسنَ قدّه
 تلقى الطِّباءَ عنتاً من طرده
 يا لك من كلبٍ نسيحٍ وحده^(١)

[٥] وقال في صفاتها، وأسمائها وسماتها، وأنسابها، وألقابها، وتفدية أربابها

لها كما ذكرنا قبل ذلك - (٢): [من الرجز]

قد اغتدي والطيرُ في مَثَوَاتِهَا
 بأكلبٍ تمرحُ في قَدَاتِهَا
 قد نحتَ التقريحَ وأرياتها
 وأشفقَ القانصُ من حَفَاتِهَا
 وأذن للصيدِ معلَمَاتِهَا
 فجاء يُزجِئها على شِيَاتِهَا
 غُرَّ الوجوهِ ومحجَلَاتِهَا
 قُودَ الخراطيمِ مُخرطَمَاتِهَا
 مُسمِّياتٍ ومُلَقَّبَاتِهَا
 مختبرَاتٍ من سلُوقِيَّاتِهَا
 تَرَى على أفخاذها سمَاتِهَا
 مفروشة الأيدي شَرَنِثَاتِهَا
 لم تُعربَ الأفواهُ عن لُغَاتِهَا
 تُعدُّ عينَ الوَحشِ من أقوَاتِهَا^(٣)
 من شدةِ التسهيمِ واقتيَاتِهَا^(٤)
 وقلتُ قد أحكمتها فهاياتها
 وارتفعَ لنا نسبةُ أمهَاتِهَا
 شَمَّ العراقيبِ مؤنَفَاتِهَا^(٥)
 مُشرفةَ الأكنافِ موفِيَاتِهَا^(٦)
 سوداً وصُفراً وخَلنجِيَّاتِهَا^(٧)
 حُمراً وبيضا ومطوَقَاتِهَا
 كأنَّ أقماراً على لَبَّاتِهَا
 مُفدِيَاتٍ ومُحمَّياتِهَا
 شَمَّ العراقيبِ مؤلفَاتِهَا^(٨)

(١) في أدب الكاتب ٥٣ (يقولون فلان نسيح وحده، وأصله أن الثوب الرفيع النفيس لا ينسج على منواله غيره، وإذا لم يكن نفيساً عُمِلَ على منواله سدَى عدةِ أثواب، فقليل ذلك لكل كريم من الرجال). و«نسيح وحده» من الأمثال في الفاخر ٤٠، ومجمع الأمثال ١/٤٠، والمستقصى ٣٦٧/٢، وجمهرة الأمثال ٣٠٣/٢.

(٢) ديوان أبي نواس ٦٢٨، وكتاب الأنوار ١٢٠/٢، والبيزرة ١٥٢-١٥٣.

(٣) القدوة: سير يقَدُ من جلد غير مدبوغ. العين: البقر.

(٤) الواريات: السمينات. التسهيم: الضمور. اقتيَاتِهَا: طلبها القوت.

(٥) يزجِئها: يسوقها. الشية: العلامة. شم: مرتفع. العرقوب: هو في رجل الدابة بمنزلة الركبة في يدها.

(٦) مشرفة الأكناف: عالية النواحي. الموفيات: المشرفات.

(٧) الخلنجي: أصفر خفيف تعلوه غبرة.

(٨) مفروشة الأيدي: مبسوطتها. الشرنبث: الغليظ.

حيدَ الأظافيرِ مُكعبراتها زُلُّ المآخِرِ عمَلساتها^(١)
تسمعُ في الآثارِ من وحاتها^(٢)

من نهمِ الحرصِ ومن خواتها لتفتأ الأرنبَ عن حياتها^(٣)
إنَّ حياةَ الكلبِ في وفاتها حتى ترى القدرَ على مئفاتها^(٤)
كثيرة الضيفانِ من عُفاتها تقذفُ جالها بجوزي شاتها^(٥)

فقد قال كما ترى :

تسمعُ في الآثارِ من وحاتها من نهمِ الحرصِ ومن خواتها
وهذا هو معناها الأول، وأما قوله^(٦) :

* تعدُّ عينِ الوحشِ من أقواتها *

فعلى قول أبي النجم : [من الرجز]

* تعدُّ عانات اللوى من مالها *

وزعموا أن قوله : [من الرجز]

* كطلعة الأشمط من جلبابه *

هو قول الأول : [من الرجز]

* كطلعة الأشمط من كسائه *

وهو كما قال الآخر : [من الرجز]

* كطلعة الأشمط من بُردِ سَمَلٍ *

[٦] وقال الحسن بن هانئ : [من الرجز]

لما تبدى الصبحُ من حجابه كطلعة الأشمط من جلبابه^(٧)

وانعدل الليلُ إلى مآبه هجنا بكلب طالما هجنا به

(١) الأحياء : المائل . المكعب : الشديد . زل : جمع أزل ؛ وهو الخفيف اللحم . العملىس : القوي السريع .

(٢) الوحاة : الصوت .

(٣) الخوات : الصوت . فتأ : منع .

(٤) المئفأة : موضع الأثافي .

(٥) الجال : الجانب . الجوز : وسط الشيء .

(٦) الشعر والشعراء ٣٨٣ ، وسرقات أبي نواس ٦٣ .

(٧) ديوان أبي نواس ٦٣١ ، وكتاب الأنوار ١١٤/٢ .

خَزَطَهُ القَانِصُ وَاغْتَدَى بِهِ يَعْزُهُ طَوْرًا عَلَى اسْتِصْعَابِهِ
وَتَارَةً يَنْصَبُ لِانْصِبَابِهِ فَانْصَاعَ لِلصَّوْتِ الَّذِي يَعْنِي بِهِ
كَلِمَعَانَ البرقِ مِنْ سَحَابِهِ
كَأَنَّ عَيْنِيهِ لَدَى ارْتِيَابِهِ فَصًّا عَقِيقٍ قَدْ تَقَابَلَا بِهِ
حَتَّى إِذَا عَفَّرَهُ هَاهَا بِهِ بَابًا بِهِ يَا بَعْدَ مَا بَابًا بِهِ
يَنْتَسِفُ المَقْوَدَ مِنْ جَذَابِهِ مِنْ مَرَحٍ يَغْلُو إِذَا اغْلَوْلَى بِهِ (١)
وَمِيعَةً تُعْرَفُ مِنْ شَبَابِهِ كَانَ مَتْنِيهِ لَدَى انْسِلَابِهِ (٢)
مَتَنَا شُجَاعٍ لَجَّ فِي انْسِيَابِهِ كَأَنَّمَا الأُظْفُورُ فِي قَنَابِهِ (٣)
مُوسَى صِنَاعٍ رُدَّ فِي نِصَابِهِ يَثْرُدُ وَجْهَ الأَرْضِ فِي ذَهَابِهِ (٤)
كَأَنَّ نَسْرًا مَا تَوَكَّلْنَا بِهِ يَعْفُو عَلَى مَا جَرَّ مِنْ ثِيَابِهِ
إِلَّا الَّذِي أَثَّرَ مِنْ هُدَابِهِ تَرَى سَوَامَ الوَحْشِ يُحْتَوَى بِهِ
يُرْحَنَ أُسْرَى ظَفْرَهُ وَنَابَهُ (٥)

[٧] وَقَالَ فِي ثَعْلَبٍ كَانَ قَدْ أَفْلَتَ مِنْهُ مَرَارًا: [مِن الرجز]

قَدْ طَالَمَا أَفْلَتَ يَا ثَعْلَابُ وَطَالَمَا وَطَالَمَا وَطَالَمَا (٦)
جُلْتُ بِكَلْبِي يَوْمَكَ الأَجْوَالَا مَا طَلَّتْ مِنْ لَا يَسْأَمُ المَطَالَا (٧)
حَتَّى إِذَا اليَوْمُ حَذَا الأَصَالَا أَتَاكَ حِينَ يُقَدِّمُ الأَجَالَا (٨)

[٨] وَقَالَ أَبُو نَوَاسٍ أَيْضًا: [مِن الرجز]

يَا رَبَّ بَيْتٍ بِفِضَاءٍ سَبَسَبَ بَعِيدَ بَيْنِ السَّمَكِ وَالمَطْنَبِ (٩)
لِفَتِيَةٍ قَدْ بَكَّرُوا بِأَكْلَبِ قَدْ أَدْبَوْهَا أَحْسَنَ التَّادِبِ

(١) يغلو : يزداد ويرتفع . اغلولى : ارتفع .

(٢) ميعة الشباب : أوله .

(٣) الشجاع : الذكر من الحيات . القناب : غطاء الظفر .

(٤) يثرد : يمزق ويشق .

(٥) سقط البيت من ديوانه ، وهو في كتاب الأنوار ١١٥/٢ .

(٦) ديوان أبي نواس ٦٣٤ .

(٧) المطال : المراوغة .

(٨) الحين : الهلاك .

(٩) ديوان أبي نواس ٦٣٤ . السبسب : الأرض المستوية البعيدة . السَّمَك : السقف . المطنب : موضع

الطنب ، وهو حبل يشد به سرادق البيت .

من كل أدفى ميسان المنكب
ينشط أذنيه بجد المخلب
وجلدة مسلوبة من ثعلب
وعير عانات وأم التولب
يشب في القود شباب المقرب^(١)
فما تني وشيقة من أرنب^(٢)
مقلوبة الفروة أو لم تقلب
ومرجل يهدر هدر المصعب^(٣)
يقذف جالاه بجوز القرهب^(٤)

٢٨٢ - [ما يستدل به على فراهية الكلاب وشياتها وسياستها]

قال بعض من خبر ذلك^(٥): إن طول ما بين يدي الكلب ورجليه - بعد أن يكون قصير الظهر - من علامة السرعة.

قال^(٦): ويصفونه بأن يكون صغير الرأس، طويل العنق غليظها، وأن يشبه بعض خلقه بعضاً، وأن يكون أغضف الأذنين مُفرط الغضف، ويكون بعيد ما بينهما، ويكون أزرق العينين، طويل المقلتين، ناتئ الحدقة، طويل الخطم، واسع الشدقين، ناتئ الجبهة عريضها، وأن يكون الشعر الذي تحت حنكه كأنه طاقة ويكون غليظاً، وكذلك شعر خديه، ويكون قصير اليدين، طويل الرجلين، لأنه إذا كان كذلك كان أسرع في الصعود بمنزلة الأرنب.

قالوا: ولا يكاد يلحق الأرنب في الصعود، إلا كل كلب قصير اليدين، طويل الرجلين.

وينبغي أن يكون طويل الصدر غليظاً، ويكون ما يلي الأرض من صدره عريضاً، وأن يكون غليظ العضدين، مستقيم اليدين، مضموم الأصابع بعضها إلى بعض، إذا مشى أو عدا، وهو أجدر ألا يصير بينها من الطين وغير ذلك ما يفسدها، ويكون ذكي الفؤاد نشيطاً، ويكون عريض الظهر، عريض ما بين مفاصل عظامه، عريض ما بين عظمي أصل الفخذين اللذين يصيبان أصل الذنب، وطويل الفخذين

(١) الأدفى: الموعج الخطم. الميسان: التبخر. المقرب: الكريم من الخيل.

(٢) ينشط: يجذب. الوشيقة: لحم يقدد حتى ييبس.

(٣) العير: الحمار الوحشي. العانات: جماعات الحمر الوحشية. أم التولب: الأتان، وهي أنثى الحمار.

المرجل: القدر يطبخ فيها. المصعب: الفحل من الإبل.

(٤) القرهب: الكبير الضخم.

(٥) عيون الأخبار ٢ / ٨٠.

(٦) عيون الأخبار ٢ / ٨٠.

غليظهما شديد لحمهما، ويكون رزين المحزم^(١)، رقيق الوسط طويل الجلدة التي بين أصل الفخذين والصدر، ومستقيم الرجلين، ويكون في ركبته انحناء ويصير قصير الساقين دقيقتها، كأنهما خشبة من صلابتهما. وليس يكره أن تكون الإناث طوال الأذنان، ويكره ذلك للذكور. ولين شعرهما يدل على القوة.

وقد يرغب ذلك في جميع الجوارح من الطير وذوات الأربع، من لين الريش لذوات الريش .

ولين الشعر لذوات الشعر من عتاق الخيل علامة صالحة .

قال: وينبغي أن يكون الكلب شديد المنازعة للمقود والسلسلة، وأن يكون العظم الذي يلي الجنبين من عظام الجنبين صغيراً في قدر ثلاث أصابع . وزعم أنهم يقولون: إنَّ السُّود منها أقلها صبراً على البرد والحر، وإنَّ البيض أفره إذا كنَّ سُوْدَ العيون .

قال^(٢): ومن علامة الفرَّه التي ليس بعدها شيء، أن يكون على ساقيه أو على إحداهما أو على رأس الذنب مخلب، وينبغي أن يُقطع من السَّاقين، لئلا يمنعه من العدو.

٢٨٣ - [خير طعام للكلب]

وذكر أنَّ خير الأشياء التي تُطعمها للكلب الخبز الذي قد يبس، ويكُون الماء الذي يُسقاها يُصبُّ عليه شيء من زيت، فإنَّ ذلك كالقت^(٣) المحض للخيل، ويشتدُّ عليه عدوه .

وقال: خير الطعام في إسمان الكلاب رأس مطبوخ، وأكارع بشعرها، من غير أن تُطعم من عظامها شيئاً، والسَّمْنُ إذا طعم منه قدر ثلاث سَكْرَجَات^(٤) مرتين أو ثلاث مرات فإنَّ ذلك مما يسمِّنه، ويقال إنَّه يُعيدُ الهرم شاباً^(٥)، حتَّى يكون ذلك في الصَّيد وفي المنظر، والعظم والثريد من أردأ ما تأكله للعدو .

(١) المحزم: موضع الحزام من الدابة. الرزين: الثقيل.

(٢) عيون الأخبار ٨١/٢.

(٣) القت: الفصصة، وهو نبات يسمى البرسيم.

(٤) سكرجة: إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم، وهي كلمة فارسية.

(٥) عيون الأخبار ٨١/٢.

٢٨٤ - [من علاج الكلب]

ومما يكونُ غذاءً ومن خير شيء يُداوى به الكلبُ من وجع البطن والديدان، أن يطعم قطعة أليةٍ وصوف شاةٍ معجوناً بسمن البقر، فإنه يُلقي كلُّ دودٍ وقذرٍ في بطنه .
وخير ما يعالج به الحفا^(١) أن يُدهنَ أسنهُ ثلاثة أيام . ويجمَّ فيها ولا يستعمل، أو يمسح على يديه ورجليه القطرانُ .

وذكر عن خزيمة بن طرخان الأسدي، من أهل همدان، أنه قال: ليس من علاج الكلب خير من أن يُحقن .

وقال: يقال كديّ الجروُّ يكدي كدًى وهو داءٌ يأخذ الجراء خاصةً، يصيبها منه قيءٌ وسعال، حتّى تكوى بين عينيها، ويقال أكدي الرجلُ إكداءً: إذا لم يظفر بحاجته . والكدية من الأرض: ارتفاع في صلابة . ويقال في الماء: حفرَ فأكدي .
وزعم صاحبُ المنطق أن الكلاب إذا كان في أجوافها دود، أكلت سنبل القمح فتبرأ .

وزعم أن الكلاب تمرض فتأتي حشيشةً تعرفها بعينها، فتأكل منها فتبرأ .

٢٨٥ - [عداوة بعض الحيوان لبعض]

وزعم صاحب المنطق أن العقاب تأكلُ الحيات، وأنَّ بينهما عداوة؛ لأنَّ الحية أيضاً تطلبُ بيضها وفراخها .

قال: والغداف يقاتل البومة، لأنَّ الغداف يخطف بيض البومة نهاراً . وتشدُّ البومة على بيض الغداف ليلاً فتأكله؛ لأنَّ البومة ذليلةٌ بالنهار رديّة النظر، وإذا كان الليل لم يقوَ عليها شيءٌ من الطير . والطير كلُّها تعرف البومة بذلك وصنيعها بالليل، فهي تطير حول البومة وتضربها وتنتف ريشها . ومن أجل ذلك صار الصيادون ينصبونها للطير .

والغداف يقاتل ابن عرس؛ لأنه يأكل بيضه وفراخه .

قال: وبين الحدأة والغداف قتال؛ لأنَّ الحدأة تخطف بيض الغداف؛ لأنها أشدُّ مخالِبَ وأسرع طيراناً .

(١) الحفا: رقة القدم . وانظر عيون الاخبار ٢ / ٨١ .

وبين الأَطْرغُلَّة^(١) والشَّقْرَاق^(٢) قتال؛ لأنه يقتل الأَطْرغُلَّةَ وَيُطالِبُهَا.

وبين العنكبوت والعظاية^(٣) عداوة، والعظاية تأكل العنكبوت.

وعصفور الشوك يعبثُ بالحمار، وعبثه ذلك قتال له؛ لأنَّ الحمارَ إذا مرَّ بالشوك وكانت به دَبْرَةٌ^(٤) أو جَرَبٌ تحكَّكَ به، ولذلك متى نهق الحمار سقطَ بيضُ عصفور الشوك، وجعلتْ فراخه تخرج من عشها. ولهذه العلة يطيرُ العصفورُ وراءَ الحمار وينقرُ رأسه.

والذئب مخالفٌ للثور والحمارِ والثعلبِ جميعاً، لأنه يأكل اللحم النَّيَّءَ ولذلك يقع على البقر والحمير والثعلبِ.

وبين الثعلبِ والزُرْق^(٥) خلافٌ لهذه العلة؛ لأنهما جميعاً يأكلان اللحم.

والغراب يُخالف الثورَ؛ ويُخالف الحمار جميعاً، ويطير حولهما، وربما نقرَ عيونهما. وقال الشاعر: [من الرجز]

عَادَيْتَنَا لَأَزَلْتَ فِي تَبَابِ عَدَاوَةِ الْحِمَارِ لِلْغُرَابِ

ولا أعرف هذا من قول صاحب المنطق؛ لأنَّ الثعلبَ لا يجوزُ أن يُعاديَ من بين أحرار الطير وجوارحها الزُرْقَ وحده، وغيرُ الزُرْقِ أَكَلُ اللَّحْمِ. وإن كان سببُ عداوته له اجتماعهما على أَكْلِ اللَّحْمِ، فليُغضَّ العقابُ من الطير، والذئبُ من ذوات الأربع؛ فإنها أكلت اللحم. والثعلبُ إلى أن يحسد ما هو كذلك أقرب، وأولى في القياس، فلو زعم أنه يَعْمُ أَكَلَةَ اللَّحْمِ بالعداوة، حتى يُعطي الزُرْقَ من ذلك نصيبه، كان ذلك أجوزاً. ولعل المترجم قد أساء في الإخبار عنه.

قال: والحيَّةُ تقاتل الخنزيرَ، وتقاتل ابنَ عرس، وإنما تقاتلُ ابنَ عرسٍ إذ كان مأواهما في بيت واحد، وتقاتلُ الخنزيرَ لأنَّ الخنزيرَ يأكلُ الحيات. ويزعمون أن الذي يأكلُ الحيات القنفاذُ، والأوعالُ، والخنزيرُ، والعقبان.

(١) الأطرغلة: اسم يقع على القمرية، والفاخنة المطوقة.

(٢) الشقراق: طائر صغير يسمى الاخيل، والعرب تتشاهم به. حياة الحيوان ١/٦٠٥، وأدب الكاتب ٢١٢.

(٣) في حياة الحيوان ٢/٣٢ (هي دويبة ملساء تعدو وتتردد كثيراً؛ تشبه سام أبرص، وتسمى شحمة الأرض؛ وشحمة الرمل).

(٤) الدبرة: قرحة البعير.

(٥) الزرق: طائر بين البازي والباشق يصاد به.

قال: فالحيّة تعرف هذا من الخنزير، فهي تُطالبه.

قال: والغراب مصادقٌ للثعلب، والثعلبُ مصادقٌ للحيّة، والأسد والنمر مختلفان.

قال: وبين الفيلة اختلافٌ شديد، وكذلك ذكورها وإناثها، وهي تستعمل الانيابَ إذا قاتل بعضها بعضاً، وتعتمد بها على الحيطان فتهدمها، وترحمُ النخلةَ بجنبها فتصرعها.

وإذا صعّب من ذكورتها شيء احتالوا له حتى يكومه^(١) ذكرٌ آخر، فإذا كامه خضع أبدأ. وإذا اشتدّ خلّقه وصعّب عصبوا رجله فسكن.

ويقال إن البعير إذا صعّب وخافه القوم، استعانوا عليه فابركوه وعقلوه حتى يكومه فحل آخر، فإذا فعل ذلك به ذل!

وأما أصحابنا فحكوا وجوه العداوة التي بين الفيل والسنور - وهذا أعجب - وذهبوا إلى فزع الفيل من السنور، ولم يروه يفزع ممّا هو أشدّ وأضخم. وهذا الباب على خلاف الأول، كأن أكثر ذلك الباب بُني على عداوة الأكفاء.

والشاة من الذئب أشدّ فرقا منها من الأسد، وإن كانت تعلم أن الأسد يأكلها.

وكذلك الحمام يعتره من الشاهين ما لا يعتره من العقاب والبازي والصقر.

وكذلك الفارة من السنور^(٢)، وقد يأكلها ابنُ عرس. وأكثر ذلك أن يقتلها ولا يأكلها. وهي من السنور أشدّ فرقا.

والدجاجة تأكلها أصناف من السباع، والثعلب يطالبها مطالبةً شديدة، ولو أن دجاجاً على رف مرتفع، أو كُنَّ على أغصان شجرة شاهقة، ثم مرّت تحتها كلُّ صنف ممّا يأكلها، فإنها تكون مستمسكةً بها معتصمةً بالأغصان التي هي عليها. فإذا مرّت تحتها ابن آوى وهنّ ألف، لم تبق واحدةً منهن إلا رمت بنفسها إليه.

٢٨٦ - [ما يباه بعض الحيوان من الطعام]

والسبع لا يأكل الحارّ، والسنور لا يذوق الحموضة، ويجزع من الطعام الحارّ. والله تعالى أعلم.

(١) كام الفرس أنثاه يكومها: إذا نزا عليها.

(٢) ربيع الأبرار ٥/٤٣٥.

ثم رجع بنا القول إلى مفاخر الكلب، ونبدأ بكل ما أشبه فيه الكلب الأسود والإنسان؛ وبشيء من صفات العظام.

قال صاحب المنطق (في كتابه الذي يقال له الحيوان، في موضع ذكر فيه الأسد) قال: إذا ضرب الأسد بمخالبه، رأيت موضع آثار مخالبه في أقدار شرط الحجام أو أزيد قليلاً، إلا أنه من داخلٍ أوسع خرزاً، كأن الجلد ينضم على سم مخالبه، فيأكل ما هنالك. فأمّا عضته فإن دواءها دواء عضّة الكلب.

قال: ومما أشبه فيه الكلب الأسد انطباق أسنانه. ومما أشبه فيه الكلب الأسد النهم، فإن الأسد يأكل أكلاً شديداً، ويمضغ مضغاً متداركاً، ويتلع البضغ^(١) الكبار، من حاق الرغبة^(٢) ومن الحرص، وكالذي يخاف الفتور. ولما نازع السنور من شبهه صار إذا ألقيت له قطعة لحم فإما أن يحملها أو يأكلها حيث لا تراه؛ وإما أن يأكلها وهو يكثر التلفت، وإن لم يكن بحضرته سنور ينازعه، والكلب يعض على العظم ليرضه، فإن مانعه شيء وكان مما يسيغه، ابتلعه وهو واثق بأنه يستمره ويسیغه.

والنهم يعرض للحيات، والحية لا تمضغ، وإنما تبتلع ذوات الرأسات^(٣)، وهي غير ذوات الأنياب، فإنها تمضغ المضغة والمضغتين وإن ابتلعت شيئاً فيه عظم أتت عوداً شاخصاً فالتوت عليه، فحطمت العظم، والحية قوية جداً.

قال: والأسد وإن كان ممماً لا يفارق الغياض ولا يفارق الماء فإنه قليل الشرب للماء، وليس يلقى رجعه إلا مرة في اليوم، وربما كان في اليومين والثلاثة. ورجعه يابس شديد اليبس متعلق، شبيه برجيع الكلب. ويشبهه أيضاً من جهة أخرى وذلك أنهما جميعاً إذا بالاً شغراً^(٤).

والكلب من أسماء الأسد، لقربة ما بينه وبين الكلب.

والكلب يشبه الخنزير، فإن الخنزير يسمن في أسبوع، وإن جاع أياماً ثم شبع شبعة تبين ذلك تبيناً ظاهراً. ألا تراه ينزع إلى محاسن الحيوان، ويشبهه أشرف السباع وكرائم البهائم!؟

(١) البضغ: جمع بضعة، وهي القطعة من اللحم.

(٢) حاق الرغبة: شدتها.

(٣) الرأسات: جمع رأس، وهو جمع غريب أتى به الجاحظ.

(٤) شغراً: رفع إحدى رجله.

ويقال: ليس في الأرض فحلٌ من جميع أجناس الحيوان لذكره حجمٌ ظاهر إلا الإنسان والكلب. وليس في الأرض شيان يتشابكان من فرط إرادة كل واحد منهما لطباع صاحبه، حتى يلتحم عضو الذكر بعضو الأنثى حتى يصير التحامهما التحام الخلقة والبنية، لا كالتحام الملامسة والملازمة، إلا كما يوجد من التحام قضيب الكلب بثفر الكلبة

وقد يلزق القراد، ويغمس العلس^(١) مقاديمه في جوف اللحم، حتى يرى صاحب القراد كأنه صاحب ثؤلول^(٢). وما القراد المضروب به المثل في الالتحام إلا دون التحام الكلبين. ولذلك إذا ضربوا المثل للمتباضيعين بالسيف، والملتقيين للصرع، فالتف بعضهم ببعض، قالوا: «كأنهم الكلاب المتعاضلة»^(٣). وليس هذا النوع من السفاد إلا للكلاب وزعم صاحب المنطق وغيره، أن الذباب في ذلك كالكلب.

٢٨٩ - [إسماعيل بن غزوان وجارية موسى بن عمران]

وكان إسماعيل بن غزوان قد تعشق جارية كانت لمويس بن عمران، وكانت إذا وقعت وقعةً إليه لم تمكث عنده إلا بقدر ما يقع عليها، فإذا فرغ لبست خفها وطارت، وكان إسماعيل يشتهي المعاودة وأن يطيل الحديث، ويريد القرص والشم والتقبيل والتجريد، ويعلم أنه في الكوم الثاني والثالث أجدر أن ينظر، وأجدر أن يشتقي فكان ربما ضجر ويذكرها بقلبه وهو في المجلس، فيقول: يارب امسخني وإياها كلبين ساعة من الليل أو النهار، حتى يشغلها الالتحام عن التفكير في غضب مولانها إن احتبست!!

٢٩٠ - [أعجوبة في الكلبة]

وفي الكلبة أعجوبة أخرى^(٤): وذلك أنه يسفدها كلب أبقع وكلب أسود وكلب أبيض وكلب أصفر، فتؤدّي إلى كل سافد شكله وشبهه، في أكثر ما يكون ذلك.

(١) العلس: القراد الضخمة.

(٢) الثؤلول: بثر صغير مستدير.

(٣) من أيام العرب «يوم العظالي»، سمي بذلك لركوب الناس فيه بعضهم بعضاً. معجم البلدان (عظالي)، ومجمع الأمثال ٤٣٥/٢.

(٤) عيون الأخبار ٨١/٢.

٢٩١ - [تأويل الظالع في شعر الحطيئة]

وأما تأويل الظالع في قول الحطيئة: [من الطويل]

تسدّيئها من بعد ما نام ظالع الـ كلاب وأخبي ناره كل موقد^(١)

قال الأصمعي: يطلع الكلب لبعض ما يعرض للكلاب، فلا يمنعه ذلك من أن يهيج في زمن هيج الكلاب، فإذا رأى الكلبة المستحرمة لم يطمع في معاظلتها والكلاب منتبهة تنبح، فلا يزال ينتظر وقت فترة الكلاب ونومها، وذلك من آخر الليل.

وقال أحيحة بن الجلاح: [من المنسرح]

يا ليتني ليلة إذا هجع الـ سناس ونام الكلاب صاحبها^(٢)

٢٩٢ - [طرديات أخرى لأبي نواس]

[١] ومما قيل في الكلاب: [من الرجز]^(٣):

وفتية من آل ذهل في الذرى	من الرقاشيين في أعلى العلاء ^(٤)
بيض بهليل كرام المنتمى	باتوا يسيرون إلى صوح اللوى ^(٥)
ينفون عن أعينهم طيب الكرى	إلا غشاشاً بعد ما طال السرى ^(٦)
يعدين إبلاء الفتى على الفتى	حتى إذا ما كوكب الصبح بدأ
ماجوا بغضف كاليعاسيب حساً	ثلاثة يقطعن حزان الصوى ^(٧)

(١) ديوان الحطيئة ٧٤، واللسان والتاج (طلع)، والمستقصى ١٢٩/١، ومجمع الأمثال ٢٦/١، والبرصان ١٩٣.

(٢) البيت في الأغاني ٣٦/١٥، والحامسة البصرية ١٨٧/٢.

(٣) يتضح من كلام الجاحظ أن هذه الطردية لأبي نواس، إذ يقول الجاحظ في الطردية التالية «وقال أيضاً»، إلا أن الطردية هذه ليست في ديوانه؟.

(٤) في الأغاني ١٥٥/٢٣: «قال أبو عبيدة: بنو رقاش ثلاثة نفر ينسبون إلى أمهم، واسمها رقاش، وهم: مالك، وزيد مناة، وعامر، بنو شيبان بن ذهل بن ثعلبة...». وانظر جمهرة أنساب العرب ٣١٧، والاشتقاق ٣٥٠.

(٥) بهليل: جمع: بهلول، وهو السيد الجامع لكل خير. صوح: جمع صاحة، وهي أرض لا تنبت شيئاً أبداً. اللوى: ما التوى من الرمل.

(٦) الغشاش: النوم القليل. السرى: السير ليلاً.

(٧) غضف: جمع أغضف، وهو الكلب المنكسر أعلى أذنيه إلى خلفه. اليعاسيب: جمع يعسوب، وهو أمير النحل. حساً: أي فرداً، يقال: حساً أو زكاً: أي فرد أو زوج. حزان: جمع حزيز، وهو الأرض الغليظة. الصوى: الأرض الغليظة المرتفعة.

رحيبة الأشداق غضف في دفا
 سمعمعات الضمر من طول الطوى
 محملج المتنين منحوض الشوى
 تخال منه القص من غير جنا
 يلتهب الغائط منه إن عدا
 حتى إذا استسحر في راد الضحى
 أرابيا من دونها سربا ظبا
 فوضى يدعثرن أفاحيص القطا
 مبالغات في نهيم وصاى
 ثم تطلعن معاً كالبرق لا
 كأنها في شرطها لما انبرى
 يذمرن بالإيساد ذمراً وآيا
 دارت عليهن من الموت رحي
 شوامذ يلعطن معبوط الدما

- (١) الدفا: إقبال إحدى الأذنين على الأخرى. ألوت بأذناها: حركتها. اللحى: ما يحيط بعظم الذنب من اللحم.
- (٢) السمعمع: الخفيف اللحم. الطوى: الجوع. المضبور: المكتنز لحمًا. القرا: الظهر. النساء: عرق يستبطن الفخذين.
- (٣) الشرنبث: الغليظ. البرثن: الكف مع أصابعها. خفاق الحشا: ضامر البطن.
- (٤) القص: الصدر أو عظمه. الجنا: انكباب الصدر إلى الظهر. الصفواء: الملساء. الحيد: ما شخص من الجبل. الصفا: الحجارة الملساء.
- (٥) الغائط: الواسع المطمئن من الأرض. المرو: حجارة بيض توري النار. شذان الحصى: ما تطاير منه.
- (٦) راد الضحى: الوقت بعد انبساط الشمس.
- (٧) نشز من المكان: خرج منه. الانس: الجماعة الكثيرة. الخلا: الخلاء.
- (٨) دعر: هدم وفسد. أفاحيص: جمع أفحوصة، وهي مجثم القطة تضع فيه بيضها.
- (٩) النهيم: الصوت، صاى: صاح. الغضى: شجر ينبت بالرمل دائم الخضرة، وهو معروف ببطء انطفاء جمرة.
- (١٠) اللوح: الهواء بين السماء والأرض.
- (١١) ذمر: حض. الإيساد: إغراء الكلب بالصيد. كهأ: معناها: مثلها.
- (١٢) الشبا: جمع شباة، وهو الحد والطرف.
- (١٣) شوامذ: شمذت الناقة: لَقَحَتْ فشاكت ذنبها لثري اللقاح. لعط: لحس. الدم المعبوط: الطري. الزور: وسط الصدر. الصلا: مكتنفا الذنب.

وبينَ مفريِّ النِّيَاطِ قد شَصَا كأنه مبتهلٌ إذا دَعَا^(١)
ومائلِ الفُودَيْنِ مجلوزِ القفا يُقْفَيْنَ بالاكبادِ منها والكلَى^(٢)
وبالقلوبِ وكراديسِ الطُّلى^(٣)

[٢] وقال أيضاً^(٤): [من الرجز]

لَمَّا تَبَدَّى الصُّبْحُ من حِجَابِهِ وانعدَلَ الليلُ إلى مآبه
خَرَطَهُ القَانِصُ واغْتَدَى به في مقودِ يَرْدَعُ من جَذَابِهِ^(٥)
يَعُزُّهُ طوراً على استصعابه وتارةً يَنْصَبُ لانصبابه
كَأَنَّمَا يَفْتَرُّ من أنيابه عن مرهفاتِ السَّنِّ من حِرَابِهِ^(٦)
يَرْتُمُ أنفَ الأرضِ في ذهابه حتَّى إذا أُشْرِفَ من حِدَابِهِ^(٧)
بعد انحدارِ الطَّرْفِ وانقلابه بروضةِ القاعِ إلى أعجابه^(٨)
أرسله كَالسَّهْمِ إذْ غَالَى به يكادُ أن يَنْسَلَّ من إهابِهِ^(٩)
كَلَمَعَانَ البرقِ في سَحَابِهِ حتَّى إذا ما كَادَ أو حَدَا به
وانصاتَ للصَّوْتِ الذي يُدْعَى به كأنَّما أَدْمَجَ في خِضَابِهِ^(١٠)
مابينِ لحييه إلى أَقْرَابِهِ مشهراً الغُدُوَّ في إِيَابِهِ^(١١)

[٣] وقال أيضاً^(١٢): [من الرجز]

ما البرقُ في ذِي عارضٍ لَمَّاحٍ ولا انقضاضُ الكوكبِ المُنْصَاحِ^(١٣)

(١) مفري: مشقوق. النياط: القلب. شصا: ارتفعت يداه ورجلاه.

(٢) الفوادن: جانبا الرأس. المجلوز: المطوي أو المنزوع.

(٣) الكرديوس: كل عظيمين التقيا في مفصل. الطلى: جمع طلية؛ وهي العنق.

(٤) ديوان أبي نواس ٣٦١.

(٥) خرطه: أرسله.

(٦) المرهف: السيف القاطع.

(٧) رثم أنفه: كسره. ويريد أن الكلب يقشر وجه الأرض من شدة عدوه. الحداب: جمع حدب، وهو ما ارتفع وغلظ من الأرض.

(٨) روضة القاع: الموضع الذي يجتمع إليه الماء فيكثر نبتة. أعجاب القاع: نهاياته.

(٩) غالى بالسهم: رمى به أبعد ما يمكن. ينسل: يخرج. الإهاب: الجلد.

(١٠) انصات: أجاب.

(١١) الأقرب: الخواصر. المشهر: المعروف.

(١٢) ديوان أبي نواس ٦٣٧، وكتاب الأنوار ٢/١١٧-١١٨.

(١٣) العارض: السحاب الذي يعترض الأفق. انصاح: استنار.

ولا انبتات الدلو بالمتاح ولا انسياب الحوت بالمنداح (١)
 حين دنأ من راحة السباح أجد في السرعة من سرياح (٢)
 يكاد عند ثمل المراح إذا سما الخاتل للأشباح (٣)
 يطير في الجو بلا جناح يفتر عن مثل شبا الرماح (٤)
 فكم وكم ذي جدة لياح ونازب أعقر ذي طماح (٥)

غادره مضره الصفاح

-
- (١) انبتات الدلو: انقطاع حبلها. المتاح: الذي ينتزع الدلو. المنداح: البحر الواسع. ورواية الديوان «ولا انبتات الحوآب بالمنداح». والحوآب المنداح: الدلو الواسع.
- (٢) في ديوانه «المشاح» مكان «السباح». سرياح: اسم كلب.
- (٣) الثمل: نشوة السكر. المراح: النشاط. الخاتل: الخادع. وفي ديوانه «سما الخايل» مكان «سما الخاتل».
- (٤) شبا الرماح: أطرافها.
- (٥) الجدة: الخطة السوداء في متن الحمار. اللياح: الابيض. النازب: الطبي. الطماح: الجماح.

باب آخر في الكلب وشأنه

٢٩٣ - [تفسير شعر قيل في الكلاب]

قال طفيل الغنوي: [من الطويل]

أناس إذا ما أنكر الكلبُ أهلهُ حموا جارهم من كل شنعاء مُظلم^(١)
يقول: إذا تكفروا في السلاح لم تعرفهم كلابهم.

ولم يدع جميع أصحاب المعارف إلا أن الكلب أشد ثباتاً، وأصدق حساً. وفي ذلك يقول الآخر: [من الطويل]

فلا ترفعي صوتاً وكوني قصيةً إذا ثوب الداعي وأنكرني كلبني^(٢)
يقول: إياك والصراخ إذا عاينت الجيش.

وقوله: «أنكرني كلبني»، يخبر أن سلاحه تام من الدرع والمغفر والبيضة^(٣).
فإذا تكفر^(٤) بسلاحه أنكره كلبه فنبحه.

وأما قوله: [من المتقارب]

إذا خرس الفحل وسط الحُجورِ وصاح الكلابُ وعق الولد^(٥)

فأما قوله: إذا خرس الفحل، فإن الفحل [الحصان]^(٦) إذا عاين الجيش وبوارق
السيوف، لم يلتفت لفت الحُجورِ.

وأما قوله^(٧): وصاح الكلاب. فإن الكلاب في تلك الحالة تنبح أربابها كما
تنبح سرعان الخيل إليهم؛ لأنها لا تعرفهم من عدوهم.

(١) ديوان طفيل الغنوي ٥٣، وأماله القالي ١/ ٥٥، وسمط اللآلي ٧٥٤، الشنعاء: الداهية المشهورة.

(٢) قصية: بعيدة. الداعي: الذي يدعو إلى القتال. ثوب: دعا مرة بعد مرة.

(٣) المغفر: زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة، أو حلق يتقنع به المتسلح. البيضة: غطاء من حديد للراس.

(٤) تكفر: استتر.

(٥) البيت بلا نسبة في أساس البلاغة والتاج (حجر).

(٦) إضافة من أساس البلاغة (حجر).

(٧) في أساس البلاغة نقلاً عن الجاحظ: «ونبحت الكلاب أربابها لتغير هيئاتهم، وعفت الأمهات أولادهن، وشغلن الرعب عنهم».

وأما قوله: وعُقُّ الولد، فإنَّ المرأةَ إذا صَبَّحتهم الخيل، ونادى الرجال يا صباحاه! ذُهِلت عن ولدها، وشغَلها الرَّعبُ عن كلِّ شيءٍ^(١). فجَعَلَ تركها احتمالَ ولدها والعطفَ عليه في تلك الحالة، عقوقاً منها، وهو قولهم: نزلت بهم أمور لا يُنادَى وليدها^(٢)، وإنما استعاروا هذه الكلمة فصيروها في هذا الموضع من هذا المكان.

وقد ذكر ذلك مزرد بن ضِرَارٍ وغيره، فقال: [من الطويل]

تَبَّرَاتُ مِنْ شَتَمِ الرِّجَالِ بِتَوْبَةٍ إِلَى اللَّهِ مِنْي لَا يُنَادَى وَلِيدُهَا^(٣)

وقال الآخر: [من الطويل]

ظَهَرْتُمْ عَلَى الْأَحْرَارِ مِنْ بَعْدِ ذَلَّةٍ وَشِقْوَةِ عَيْشٍ لَا يُنَادَى وَلِيدُهَا

والذي يُخْرِسه إفراطُ البرد، وإلحاحُ المطر، كما قال الهذليُّ: [من البسيط]

وَلَيْلَةٌ يَصْطَلِي بِالْفَرْتِ جَازِرُهَا يَخْتَصُّ بِالنَّقَرَى الْمُثْرِينَ دَاعِيَهَا^(٤)

لَا يَنْبَحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ مِنْ الصَّقِيعِ، وَلَا تَسْرِي أَفَاعِيهَا

وقال ابن هرمة: [من الخفيف]

وَأَسَالُ الْجَارَ وَالْمَعْصَبَ وَالْأَضْيَا فِ وَهْنًا إِذَا تَحَيَّوْا لَدِيَا^(٥)

كَيْفَ يَلْقَوْنِي إِذَا نَبَحَ الْكَلْبُ بُ وَرَاءَ الْكُسُورِ نَبْحًا خَفِيًّا

وقال آخر: [من المتقارب]

إِذَا عَمِيَ الْكَلْبُ فِي دِيْمَةٍ وَأَخْرَسَهُ اللَّهُ مِنْ غَيْرِ صِرٍّ^(٦)

(١) انظر الحاشية السابقة.

(٢) في مجمع الأمثال ٢/٣٩٠ «هم في أمر لا ينادى وليده»، وفي فصل المقال ٤٧١، وأمثال ابن سلام ٣٤٢ «القوم في أمر لا ينادى وليده»، وانظر الفاخر ٢٨٠، والمستقصى ٢/٣٦١، وجمهرة الأمثال ٢/٣٧٦، ٤٠٧. وفي المثل عدة أقوال منها: أن الصبيان إذا رأوا شيئاً عجيباً تحشدوا له، مثل القراد والحاوي، فلا ينادون؛ ولكن يتركون يفرحون، وقيل: معناه أمر عظيم لا ينادى فيه الصغار، وإنما يدعى فيه الكهول والكبار...

(٣) ديوان مزرد بن ضرار ٥٧، واللسان والتاج (ولد)، وتهذيب اللغة ١٤/١٧٦، وبلا نسبة في مجمع الأمثال ٢/٣٩٠.

(٤) البيتان لجنوب أخت عمرو ذي الكلب في ديوان الهذليين ٣/١٢٦، وشرح أشعار الهذليين ٥٨٢، والمعاني الكبير ٤١٥، ١٢٤٩، ومجموعة المعاني ١٩٠، ولريطة أخت عمرو في نوادر المخطوطات ٢/٢٤٢، ولأبي ذؤيب الهذلي في الحماسة البصرية ٢/٣٥٢، ولبعض هذيل في أمالي المرتضى ١/٣٥٤، والبلاء ٢١٥، ولعمرو بن الأهمم في ديوانه ١٠١، والحماسة الشجرية ١٨٨-١٩٠، ولهبيرة بن أبي وهب في السيرة لابن هشام.

(٥) ديوان ابن هرمة ٢٢٧.

(٦) الديمة: مطر يدوم في سكون بلا رعد وبرق. الصر: البرد الشديد.

يقول: الكلبُ وإنْ أخْرَسَه البرْدُ الذي يكون مع المطر والرَّيح التي تمرُّ بالصَّحارى المطيرة فتبرِّدُ، فإنَّ الكلبَ وإن ناله ذلك فإنَّ ذلك من خِصْبٍ، وليس ذلك من صِرِّ.

٢٩٤ - [سبب نبج الكلاب السحاب]

والكلب إذا ألحَّت عليه السحاب بالأمطار في أيام الشتاء لقي جنة فمتى أبصرَ غيماً نبجه^(١)، لأنَّه قد عرف ما يُلقي من مثله، وفي المثل: «لا يضرُّ السحابُ نباحُ الكلاب»^(٢) فقال الشاعر: [من الطويل]

ومالي لا أغزُّ وللدَّهر كَرَّةٌ وقد نَبحتْ نحو السماءِ كلابها

يقول: قد كنت أدعُ الغزو مخافة العطش على الخيل والأنفس، فما عذري اليوم والغدران كثيرة، ومناقع المياه موفورة.

والكلابُ لا تنبَحُ السحاب إلا من إلحاح المطر وترادُفه^(٣).

وقال الأفوه الأودي، في نبج الكلاب السحاب، وذلك من وصف الغيم: [من الطويل]

له هَيْدَبٌ دانَ ورعدٌ ولجَّةٌ وبرقٌ تراهُ ساطعاً يتبلَّجُ^(٤)
فباتت كلاب الحَيِّ ينبَحُنْ مُزْنُهُ وأضحتْ بناتُ الماءِ فيها تَعْمَجُ^(٥)

٢٩٥ - [قول أبي حية النميري في الكلب]

وقال أبو خالد النميري: وذكروا فرعون ذا الأوتاد عند أبي حية النميري، فقال أبو حية: الكلبُ خير منه وأحزم! قال: فقبل له كيف خصصت الكلبَ بذلك؟ قال: لأنَّ الشاعر يقول: [من الطويل]

ومالي لا أغزُّ وللدَّهر كَرَّةٌ وقد نَبحتْ نحو السماءِ كلابها

وقال الفرزدق: [من الطويل]

فإنَّك إن تهجو حنيفةً سادراً وقبلك قد فاتوا يدَ المتناول^(٦)

(١) الجنة: الجنون.

(٢) المثل في مجمع الأمثال ٢/٢١٥، والمستقصى ٢/٢٧٢، يضرب لمن ينال من إنسان بما لا يضره.

(٣) من الأمثال قولهم «أهون من النباح على السحاب» والمثل في مجمع الأمثال ٢/٤٠٨، والمستقصى ١/٤٤٥، وجمهرة الأمثال ٢/٣٥٣، ٣٧٣، والذرة الفاخرة ٢/٤٢٩، ٤٣٢.

(٤) البيتان في ديوانه ٩. الهيدب: السحاب المتدلي. اللجة: الجلبة.

(٥) بنات الماء: السمك. تعمج: تسيح في الماء.

(٦) لم يرد البيتان في ديوان الفرزدق.

كفِرَعُونَ إِذْ يرمي السَّمَاءَ بِسَهْمِهِ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّهْمَ أَفوقَ ناصِلِي (١)
فهذا يرمي السماءَ بجهله، وهذا ينبح السحابَ من جودَة فطنته.

٢٩٦ - [تعصّب فهد الأحزم للكلب]

وزعم فهدُ الأحزم أنَّ الكلبَ إنَّما عَرَفَ مخرَجَ ذلك الشيء المؤذي له حتَّى نبحه بالقياس، لأنَّه إنَّما نبحه بعد أن توالى عليه الأذى من تلك الجهة. وكان فهد يتعصّب للكلب. فقلت له: وكذلك الحمار إذا رفعت عليه السَّوطَ مرًّا من تحتك مرًّا حثيثاً، فالقياس عَلمُه أنَّ السَّوطَ متى رُفِعَ حُطًّا، ومتى حُطَّ أَصَابَه، ومتى أَصابه ألم. فما فضلُ الكلبُ في هذا الموضع على الحمار، والحمارُ هو الموصوفُ بالجهل؟!!

٢٩٧ - [مما قيل في نباح الكلاب]

قال الفرزدق: [من الطويل]
وقد نَبَحَ الكلبُ السحابَ ودُونَهَا مَهَامُهُ تَعْشِي نَظْرَةَ المَتَامِلِ (٢)

وقال الآخر: [من الرجز]

ما لك لا تَنبِحُ يا كَلْبَ الدَّوْمِ قد كنتَ نَباحاً فما بالُ اليَوْمِ (٣)

قال: كان هذا رجلٌ ينتظر عيراً له تَقَدَّم، فكان إذا جاءت العيرُ نبح، فاحتبست عليه العيرُ، فقال كالتمنّي وكالمنتظر المستبطئ: ما لك لا تنبح؟ أي ما للعير لا تأتي.

٢٩٨ - [فراصة إياس بن معاوية]

وقال (٤): خرج إياس بن معاوية، فسمع نباح كلب فقال: هذا كلبٌ مشدود. ثم سمع نباحه فقال: قد أرسل. فأنتهوا إلى الماء فسألوهم فكان كما قال. فقال له غيلان أبو مروان: كيف علمت أنه موثق وأنه أطلق؟ قال: كان نباحه وهو موثق يُسمَع من مكانٍ واحد، فلما أطلق سمعته يقربُ مرّةً ويبعد مرّةً، ويتصرفُ في ذلك. وقالوا (٥): مرَّ إياس بنُ معاوية ذاتَ ليلةٍ بماء، فقال: أسمعُ صوتَ كلبٍ غريب.

(١) السهم الأفوق: المكسور الفوق، وهو موضع الوتر من السهم.

(٢) ديوان الفرزدق ١٧٧/٢، وأساس البلاغة (فرس).

(٣) الرجز بلا نسبة في رسائل الجاحظ ٣٤٣/١، ومجمع الأمثال ٢٨٨/٢.

(٤) الراوي هو المدائني كما في ثمار القلوب ١٨٢، وأخبار الأذكيا ٦٩.

(٥) الخيري في ثمار القلوب (١٨٣)، وأخبار الأذكيا ٦٩، وبهجة المجالس ٤٢٣/١، والوافي بالوفيات

٤٦٦/٩.

قيل له: كيفَ عرفتَ ذلك؟ قال: بَخضوعِ صوتِهِ وشِدَّةِ نُباحِ الآخرِ. فسألوا فإذا هو غريبٌ مربوطٌ والكلابُ تَنبَحُه.

٢٩٩ - [استطراد لغوي]

وقال بعض العلماء: كلب أبقع، وفرس أبلق، وكبش أملح^(١)، وتيس أبرق، وثور أشيه^(٢).

ويقال كلب وكلاب وكليب، ومَعز وماعز ومَعيز. وقال لبيد: [من الوافر]

فَبِتْنَا حَيْثُ أَمْسَيْنَا قَرِيباً عَلَى جَسَدَاءَ تَنَبَّحْنَا الْكَلِيبُ^(٣)

وقال علقمة بن عبدة: [من الطويل]

وَتُصْبِحُ عَنْ غَبِّ السَّرَى وَكَانَهَا مُوَلَّعَةٌ تَخْشَى الْقَنْيِصَ شُبُوبُ^(٤)

تَعَفَّقَ بِالْأَرطَى لَهَا وَأَرَادَهَا رِجَالٌ فَبَدَّتْ نَبْلَهُمْ وَكَلِيبُ

وقال عبادة بن مْحَبَّر السعدي: [من الوافر]

فَمَنْ لِلْخَيْلِ بَعْدَ أَبِي سَرَّاحٍ إِذَا مَا أَشْنَجَ الصَّرَّ الْكَلِيبَا^(٥)

وهؤلاء كلهم جاهليون.

وقال حمويه الخريبي^(٦) وأنشدوه: [من الوافر]

كَأَنَّكَ بِالْمُبَارَكِ بَعْدَ حَيْنٍ تَخُوضُ غِمَارَهُ بُقْعَ الْكِلَابِ^(٧)

وأنشدوه: [من البسيط]

أرسلت أسداً على سودِ الكلابِ فقدُ أَمْسَى شَرِيدُهُمْ فِي الأَرْضِ فُلألاً

(١) الأملح: الأبيض يخالط لونه سواد. وفي فقه اللغة ٧٥ فصل في تقسيم السواد والبياض على ما يجتمعان فيه «فرس أبلق، تيس أخرج، كبش أملح، ثور أشيه، غراب أبقع، حبل أبرق، آبنوس ملمع، سحاب نمر، أفعوان أرقش، دجاجة رقطاء».

(٢) في اللسان: وشي «الشية سواد في بياض أو بياض في سواد».

(٣) ديوان لبيد ٣٤٩، ونوادر أبي زيد ٦٨، والتنبيه والإيضاح ١٣/٢، واللسان والتاج (ثاد، فرم)، ومعجم البلدان (جسداء).

(٤) ديوان علقمة ٣٨، والمفضليات ٣٩٣، والمقاصد النحوية ١٥/٣، ونوادر أبي زيد ٦٩.

(٥) البيت في نوادر أبي زيد ٦٩. الصر: البرد الشديد.

(٦) الخريبي: نسبة إلى الخريبة، وهو موضع بالبصرة.

(٧) البيت للمفرج بن المرفع أو للفردق في معجم البلدان ٥١/٥ (المبارك). والمبارك: نهر بالبصرة؛ احتفراه خالد القسري، وقيل: نهر وقرية فوق واسط.

فقال : لا خير في بُقَعِ الكلابِ البتة، وسُودِ الكلابِ أكثرها عَقُوراً.

٣٠٠ - [خير الكلاب والسنانير]

وخيرُ الكلابِ ما كان لونه يذهب إلى ألوان الأسد من الصُّفْرَةِ والحُمْرَةِ. والتبقيع هُجْنَةٌ.

وخيرُ السنانيرِ الخَلَنْجِيَّةُ، وخيرُ كلابِ الصَّيْدِ البِيضُ.

قَالُوا: إِنَّ الْأَسَدَ لِلْهَرَّاشِ الْحُمْرِ وَالصُّفْرِ، وَالسُّودُ لِلذَّنَّابِ، وَهِيَ شَرُّهَا، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْلَا أَنَّ الْكَلَابَ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَّمِ لَأَمَرْتُ بِقَتْلِهَا. وَلَكِنْ اقْتَلَوْا مِنْهَا كُلَّ أَسْوَدَ بِهِيمٍ».

وكلُّ شيءٍ من الحيوانِ إذا اسودَّ شعرُهُ أو جلدهُ، أو صوفه، كان أقوى لبدنه ولم تكن معرفته بالمحمودة.

٣٠١ - [خير الحمام]

وزعم أن الحمام الهدأ^(١) إنما هو في الخضر والنمر^(٢)، فإذا اسودَّ الحمام حتى يدخل في الاحتراق صارَ مثلَ الزنجيِّ الشديد البطش. القليل المعرفة. والأسود لا يجيء من البعد، لسود هدايته. والأبيض وما ضرب فيه البياض لا يجيء من الغاية، لضعف قواه. وعلى قدر ما يعتريه من البياض يعتريه من الضعف.

فالكلب هو الأصفر والأحمر، والحمام هو الأخضر والأنمر، والسنور هو الخَلَنْجِيُّ العَسَّالُ، وسائر الألوان عيب.

وقد يكون فيها ومنها الخارجي^(٣) كما يكون من الخيل، ولكنّه لا يكاد ينجب، ولا تعدو الأمور المحمودة منه رأسه، وقد يكون ربّما أشبه وقرب من النجابه، فإذا كان كذلك كان كهذه الأمهات والآباء المنجبة، إلا أن ذلك لا يتم منها إلا بعد بطون عدة.

٣٠٢ - [استطراد لغوي]

وقال أبو زيد: قال رداد: أقول للرجل الذي إذا ركب الإبل فَعَقَرَ ظهورها من

(١) الهداء: جمع الهادي. وفي المخصص ١٧٠/٨ «وهن اللاتي يدرين ويرفن من مرحل إلى مرحل حتى يجئن من البعد من بلاد الروم وعريش مصر؛ ودون ذلك من مواضع كثيرة مسماة».

(٢) النمر: جمع أنمر؛ وهو الذي فيه نمرة بيضاء وأخرى سوداء.

(٣) الخارجي: المجهول النسب.

إتعباه. هذا رجل معقر، وكذلك السرج والقَتَب، ولا يقال للكلب إلا عَقُور. ويقال هو ضرو للكلب الضاري على الصيد، وضروة للكلبة، وهذا ضراء كثيرة، وكلب ضار، وكلاب ضواري. وقد ضربت أشد الضراوة. وقال ذو الرمة: [من البسيط]

مقرع أطلس الأطمار ليس له إلا الضراء وإلا صيدها نشب^(١)

وقال طفيل الغنوي: [من الطويل]

تباري مراخيها الزجاج كأنها ضراء أحست نبأه من مكلب^(٢)

ومنه قيل: إناء ضار^(٣)

وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه: «إياكم وهذه المجازر فإن لها ضراوة كضراوة الخمر»^(٤).

وقال الأصمعي: كلب أبقع وكلبة بقعاء، وفرس أبلق وفرس بلقاء، وتيس أبرق وعنز برقاء، وكذلك جبل أبرق وكساء أبرق وكلب أبرق.

وقال ابن داحية: نزل عندنا أعرابي ومعه ابنان له صغيران، وكان أحدهما مستهترا^(٥) باللعب بالكلاب، وكان الآخر مستهترا بالحملان، فقال الأعرابي لصاحب الكلب: [من الكامل]

مالي أراك مع الكلاب جنيبة وأرى أخاك جنيبة الحملان^(٦)

قال: فرد عليه الغلام: [من الكامل]

لولا الكلاب وهرشها من دونها كان الوقير فريسة الذؤبان^(٧)

(١) ديوان ذي الرمة ١٠٠، واللسان (طلس، قزع، ضرا)، والتاج (قزع)، وأساس البلاغة (ضري)،

والعين ١٣٢/١، والتهذيب ١٨٥/١، وجمهرة أشعار العرب ٩٥٩، وبلا نسبة في المخصص ٣٨/٣.

(٢) ديوان طفيل ٢٤، والمعاني الكبير ٤٢/١، والمخصص ٣٠/١٦. المراخي: جمع مرخاة وهي السهلة العدو. الزجاج: الأسنة. الضراء: أشلاء الكلب على الصيد. النبأ: الصوت. المكلب: صاحب الكلب.

(٣) في النهاية ٢٦٧/٢، ٨٧/٣ «ومنه حديث علي أنه نهى عن الشرب في الإناء الضاري» وهو الذي ضرب بالخمير وعود بها، فإذا جعل فيه العصير صار مسكراً.

(٤) الحديث لعمر بن لخطاب في البخلاء ١٠٨، والنهية ٨٦/٣، وهو لسالم بن عبد الله في حلية الأولياء ١٩٤/٢. وفي النهاية ٢٦٧/٢ «أراد بالمجازر إدمان أكل اللحوم».

(٥) استهتر: أولع، فهو مستهتر.

(٦) الجنبية: الدابة تقاد.

(٧) الهراش: تحريش الكلاب.

والوقير: اسم للغنم الكثيرة السائمة مع ما فيها من الحمير وغير ذلك.

وقال الشماخُ بنُ ضرَّار: [من الوافر]

فأوردَهُنَّ تَقْرِيْباً وَشَدًّا شَرَائِعَ لَمْ يَكْدُرْهَا الْوَقِيرُ^(١)

وقال الشاعر في تثبيت ما قال الغلام: [من البسيط]

تَعْدُو الذَّنَابُ عَلَيَّ مَنْ لَا كِلَابَ لَهُ وَتَتَّقِي صَوْلَةَ الْمُسْتَأْسِدِ الضَّارِي

وقال الآخر: [من البسيط]

إِنَّ الذَّنَابَ تَرَى مَنْ لَا كِلَابَ لَهُ وَتَتَّقِي حَوْزَةَ الْمُسْتَشْفِرِ الْحَامِي^(٢)

٣٠٣ - [عفة عمر بن أبي ربيعة وابن أبي عتيق]

وقال محمد بن إبراهيم: قَدَمَتِ امْرَأَةٌ إِلَى مَكَّةَ، وَكَانَتْ ذَاتَ جَمَالٍ وَعَفَافٍ وَبَرَاعَةٍ وَشَارَةٍ، فَأَعْجَبَتْ ابْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهَا فَخَافَتْ شَعْرَهُ، فَلَمَّا أَرَادَتْ الطَّوْافَ قَالَتْ لِأَخِيهَا: أَخْرِجْ مَعِي. فَخَرَجَ مَعَهَا، وَعَرَضَ لَهَا عُمْرٌ فَلَمَّا رَأَى أَخَاهَا أَعْرَضَ عَنْهَا، فَانْشَدَتْ قَوْلَ جَرِيرٍ^(٣): [من البسيط]

تَعْدُو الذَّنَابَ عَلَيَّ مَنْ لَا كِلَابَ لَهُ وَتَتَّقِي حَوْزَةَ الْمُسْتَأْسِدِ الْحَامِي

هذا حديثُ أبي الحسن، وأما بنو مَخْزُومٍ فيزعمون أن ابن أبي ربيعة لم يحلَّ إزاره على حرام قط، وإنما كان يذهب في نسيبه إلى أخلاق ابن أبي عتيق، فإنَّ ابن أبي عتيق كان من أهل الطهارة والعفاف، وكان من سمع كلامه توهم أنه من أجراً الناس على فاحشة.

وما يُشبهه الذي يقولُ بنو مَخْزُومٍ ما ذكروا عن قريش والمهاجرين؛ فإنهم يقولون: إنَّ عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة إنما سُمِّيَ بعمر بن الخطاب وإنه ولد ليلة مات عمر. فلما كان بعد ذلك ذكروا فساد هذا وصلاح ذلك فقالوا: أيُّ باطلٍ وُضِعَ، وأيُّ حقٍّ رُفِعَ!!

(١) ديوان الشماخ ١٥٦. التقريب: ضرب من العدو. الشد: السرعة في العدو. الشرائع: جمع شريعة وهي مورد الشاربة.

(٢) البيت للنابغة الذبياني في ملحق ديوانه ٢٤٥، واللسان والتاج (نفر)، وتهذيب اللغة ٧٦/١٥، والاغاني ٧٩/١، وهو للزبيرقان بن بدر في ديوانه ٥٢، وبلا نسبة في عيون الاخبار ١٠٩/٤، وبيع الأبرار ٤٢٢/٥، وأساس البلاغة (نفر)، والعين ٢٢١/٨.

(٣) نسبة البيت إلى جرير وهم، انظر الحاشية السابقة، والبيت مع الخبر في الاغاني ٧٩-٧٨/١، وعيون الاخبار ١٠٩/٤.

ومثلُ هذا الكلام لا يقالُ لمن يُوصف بالعفة الثابتة .

٣٠٤ - [وصية شريح لمعلم ولده]

ولُبغض المَزاح في لعب الصبيان بالكلاب واستهتارهم بها . كَتَبَ شريح إلى معلمٍ ولد له كان يدع الكتابَ ويلعب بالكلاب : [من الكامل]

تَرَكَ الصَّلَاةَ لا كَلْبٌ يَلْهُو بِهَا طَلَبَ الهَرَّاشِ مع الغَوَاةِ الرَّجْسِ^(١)
ولِأَتَيْتِكَ غادياً بصحيفة يَغْدُو بِهَا كصحيفة المتلمسِ^(٢)
فإذا خَلوتَ فَعَضَّهُ بِمَلَامَةٍ أو عَظَّهُ موعظةً الأديبِ الأكيسِ
وإذا هممت بضربه فبدره وإذا ضربتَ بها ثلاثاً فاحبسِ
واعلمْ بأنك ما فعلتَ فإنه معَ ما يُجرعُني أعزُّ الأنفسِ

وهذا الشعر عندنا لأعشى بنى سليم في ابن له . وقد رأيتُ ابنه هذا شيخاً كبيراً . وهو يقول الشعر؛ وله أحاديث كثيرةٌ ظريفة .

٣٠٥ - [مما يدل على قدر الكلب]

وقال صاحب الكلب : ومما يدلُّ على قدر الكلب كثرة ما يجري على السنة النَّاسُ من مدحه بالخير والشرِّ، وبالحمد وبالذمِّ، حتَّى ذكر في القرآن مرَّةً بالحمد ومرَّةً بالذمِّ . وبمثل ذلك ذكر في الحديث، وكذلك في الأشعار والأمثال، حتى استعمل في الاشتقاقات، وجرى في طريق الفأل والطَّيرة، وفي ذكر الرؤيا والأحلام، ومع الجنِّ والجنِّ والسُّباعِ والبهائم . فإن كنتم قضيتُم عليه بالشرِّ والنقص، وباللؤمِ وبالسقوطِ لأنَّ ذلك كلُّه قد قيلَ فيه، فالذي قيلَ فيه من الخير أكثرُ، ومن الخصال المحمودة أشهر .

وليسَ شيءٌ أجمعَ لخصالِ النقص من الخُمول، لأنَّ تلك الخصالُ المخالفةُ لذلك، تُعطي من النَّبَاهةِ وتُقيم من الذكر على قدرِ المذكورِ من ذلك . وكما لا تكون الخصال التي تُورث الخُمول مورثة للنباهة، فكذلك خصال النَّبَاهة في مجانبة الخُمول، لأنَّ المعلومَ أفضلُ من الخامل .

(١) الأبيات لشريح في عيون الأخبار ١٦٧/٢، وثمار القلوب ١٧٣ (٣٥٣)، والعقد الفريد ٤٣٦-٣٤٥/٢، وأخبار القضاة ٢٠٧/٢، والمحاسن والمسائى ٤٠٨/٢، والعمدة ٣٩/١، وربيع الأبرار ٤/٤٦٣، وهي لأعشى طرود في الحماسة البصرية ٣٧٥/٢-٣٧٦ .

(٢) صحيفة المتلمس: تضرب مثلاً لمن يحمل كتاباً فيه حتفه . والمثل وقصته في مجمع الأمثال ٣٩٩/١، والفاخر ٧٣، وجمهرة الأمثال ٥٧٩/١، وثمار القلوب (٣٥٢)، وأسماء المفتالين ٢/٢١٢، والمعارف ٦٤٩، والسمط ٣٠١، وعقلاء المجانين ٣٤ .

٣٠٦ - [الترجمان بن هريم والحارث بن شريح]

وسمع الترجمان بن هريم عند يزيد بن عمر بن هبيرة، رجلاً يقول: ما جاء الحارث ابن شريح بيوم خير قط. قال الترجمان: إلا يكن جاء بيوم خير فقد جاء بيوم شر^(١).

٣٠٧ - [سياسة الشدة واللين]

وبعد فأبي رئيس كان خيره محضاً عدم الهيبة. ومن لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة، وقتل في موضع القتل، وأحياناً في موضع الإحياء. وعفاً في موضع العفو، وعاقب في موضع العقوبة، ومنع ساعة المنع، وأعطى ساعة الإعطاء، خالف الرب في تدبيره، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه.

وقد قالوا: بعض القتل إحياء للجميع. وبعض العفو إغراء، كما أن بعض المنع إعطاء، ولا خير فيمن كان خيره محضاً، وشر منه من كان شره صرفاً، ولكن اخلط الوعد بالوعيد، والبشر بالعبوس، والإعطاء بالمنع، والحلم بالإيقاع، فإن الناس لا يهابون ولا يصلحون إلا على الثواب والعقاب، والإطماع والإخافة. ومن أخاف ولم يوقع وعرف بذلك، كان كمن أطمع ولم ينجز وعرف بذلك، ومن عرف بذلك دخل عليه بحسب ما عرف منه. فخير الخير ما كان ممزوجاً، وشر الشر ما كان صرفاً، ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده لكان الله عز وجل أولى بذلك الحكم.

وفي إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة في جميع الأقطار وفي جميع الأعصار على استعمال المكروه والمحبوب، دليل على أن الصواب فيه دون غيره.

وإذا كان الناس إنما يصلحون على الشدة واللين، وعلى العفو والانتقام وعلى البذل والمنع، وعلى الخير والشر، عاد بذلك الشر خيراً وذلك المنع إعطاء وذلك المكروه محبوباً. وإنما الشأن في العواقب، وفيما يدوم ولا ينقطع وفيما هو أدوم، ومن الانقطاع أبعد.

وقال الشاعر، وهو يمدح قوماً: [من البسيط]

إن يسألوا الخير يعطوه وإن جهدوا فالجهد يخرج منهم طيب أخبار^(٢)

(١) ورد الخبر في البيان والتبيين ١/١٩٩.

(٢) البيتان للerenس الكلابي في معجم الشعراء ١٧٣، وأمالى القبالي ١/٢٣٩، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٥٩٣، والحماسة المغربية ٢٩٩، ولعبيد بن العرنس الكلابي في التنبيه للبيكري ٧٢، والسمط ٥٤٦، والكامل ٤٧/١ (مكتبة المعارف)، وبلا نسبة في ديوان المعاني ١/٢٣، ٤١، والحماسة الشجرية ١/٣٥٩، وانظر حاشية الحماسة المغربية.

وَإِنْ تَوَدَدْتَهُمْ لَانُوا وَإِنْ شُهِمُوا كَشَفَتْ أذْمَارَ حَرْبٍ غَيْرِ أَغْمَارٍ (١)

وقال العتبي: [من الطويل]

ولكن بنو خيرٍ وشرٍ كليهما جميعاً ومَعْرُوفٍ أَلْمِ وَمُنْكَرٍ (٢)

وقال بعضُ من ارتجز يومَ جَبَلَةَ (٣): [من الرجز]

أَنَا الْغُلَامُ الْأَعْسَرُ الْخَيْرُ فِيَّ وَالشَّرُّ

وَالشَّرُّ فِيَّ أَكْثَرُ (٤)

وقال عبدُ الملك بن مروان لَزُقْرِ بْنِ الْحَارِثِ؛ وقد دخل عليه في رجالاتِ قيس:

أَلَسْتَ أَمْرًا مِنْ كَنْدَةَ؟ قَالَ: وَمَا خَيْرٌ مَنْ لَا يُتَّقَى حَسَدًا، وَيُدْعَى رَغْبَةً.

وقال ثُمَامَةُ: الشُّهُرَةُ بِالشَّرِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ لَا أُعْرَفَ بِخَيْرٍ وَلَا شَرٍّ.

٣٠٨ - [الاستدلال على نباهة]

وكان يقال: يُسْتَدَلُّ عَلَى نِبَاهَةِ الرَّجُلِ مِنَ الْمَاضِينَ بِتَبَايُنِ النَّاسِ فِيهِ.

وقال: أَلَا تَرَى أَنْ عَلِيًّا - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - قَالَ: يَهْلِكُ فِيَّ فَيْتَانٌ: مُحَبَّبٌ

مُفْرَطٌ، وَمُبْغِضٌ مُفْرَطٌ.

وهذه صفةُ أَنبِيَاءِ النَّاسِ، وَأَبْعَدِهِمْ غَايَةً فِي مَرَاتِبِ الدِّينِ وَشَرَفِ الدُّنْيَا. أَلَا تَرَى

أَنَّ الشَّاعِرَ يَقُولُ: [من الهزج]

أَرَى الْعَلْبَاءَ كَالْعَلْبَاءِ

شَيْخٌ مِنْ بَنِي الْجَارُو

ءِ لَا حُلُوٌّ وَلَا مَرٌّ

دِ لَا خَيْرٌ وَلَا شَرٌّ

وقال الآخر: [من الرجز]

عَيَّرْتَنِي يَا ثَكَلْتَنِي أُمِّي

يَنْطَحُ عُرْضَ الْجَبَلِ الْأَصَمِّ

أَسْوَدَ مِثْلَ الْجُعَلِ الْأَحْمِ (٥)

ليس بذِي الْقَرْنِ وَلَا الْأَجْمِ

(١) الأذمار: جمع ذمر، وهو الشجاع. الأغمار: جمع غمر، وهو الذي لم يجرب الأمور.

(٢) البيت لمسافع بن حذيفة العبسي في الخزائنة ١٧١/٥، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٩٩٠.

(٣) يوم جبلة: أحد الأيام العرب العظيمة؛ وهي ثلاثة: يوم الكلاب، ويوم جبلة، ويوم ذي قار، وكان

قبل الإسلام بأربعين سنة، انظر الاغانى ١١/١٣١-١٦٣، ومعجم البلدان ٢/١٠٤ (جبلة).

(٤) الرجز لمعاوية بن عبادة في الاغانى ١١/١٤٠، وكان أعسر.

(٥) ثكلته أمه: فقدته. الجعل: دويبة.

وإذا كان الرجلُ أبرعَ الناسِ بَرَاعَةً، وأظهرهم فضلاً، وأجمعهم لخصال الشرف، ثم كانت كلُّ خَصْلَةٍ مساويةً لأختها في التَّمَامِ، ولم تغلب عليه خصلة واحدة، فإنَّ هذا الرَّجُلَ لا يكادُ يوصفُ إلا بالسيادة والرياسة خاصَّةً إذا لم يكن له مسندٌ عما يكون هو الغالب عليه.

وقالوا فيما يشبه ما ذكرنا، وإن لم يكن هو بعينه، قال الشاعر: [من البسيط]
هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ أَيَسَارٌ ذُووُ يُسْرِ سُوَاسٍ مَكْرَمَةٌ أَبْنَاءُ أَيَسَارٍ^(١)
مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ تَقَلُّ لَأَقِيْتُ سَيِّدَهُمْ مِثْلُ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِ بِهَا السَّارِي

وقد قال مثل الذي وصَّفنا جعفر الضَّبِّيُّ في الفضل بن سهل: أيُّها الأمير أسكنتني عن وصفك تَسَاوِي أفعالك في السُّودد، وحيرني فيها كثرةٌ عددها، فليس إلي ذكر جميعها سبيل، وإن أردتُ وَصَفَ واحدةً اعترضتُ أختها، إذ لم تكن الأولى أحقُّ بالذكر. ولست أصفها إلا بإظهار العجز عن وصفها.

ولذلك قالوا: «أحلم من الأحنف»^(٢)، و«ما هو إلا في حلم معاوية» و«أحلم من قيس بن عاصم»^(٣)، ولم يقولوا: أحلم من عبد المطلب، ولا هو أحلم من هاشم، لأنَّ الحلم خصلة من خصاله كتمام حلمه، فلما كانت خصاله متساوية، وخلاله مشرفة متوازية، وكلُّها كان غالباً ظاهراً، وقاهراً غامراً، سميَ بأجمع الأشياء ولم يُسمَ بالخصلة الواحدة، فيستدلُّ بذلك على أنَّها كانت أغلب خصال الخير عليه.

٣٠٩ - [هجاء السفهاء للأشراف]

وإذا بلغ السَّيِّدُ في السُّودد الكمالَ، حسده من الأشراف من يُظنُّ أنَّه الأحقُّ به، وفخرت به عشيرته، فلا يزال سَفِيَهُ من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعه على مرتبة سيِّد عشيرته فهجاه. ومن طلب عيباً وجده. فإن لم يجد عيباً وجد بعض ما إذا ذكره، وجد مَنْ يغلط فيه ويحمله عنه. ولذلك هُجِيَ حِصْنُ بِن حذيفة، وهُجِيَ زُرارة ابن عُدس، وهُجِيَ عَبْدُ اللَّهِ بن جُدعان، وهُجِيَ حاجب بن زُرارة.

(١) البيتان للرنديس الكلابي في معجم الشعراء ١٧٣، والحماصة المغربية ٢٩٩-٣٠٠، وأمالي القاضي ٢٣٩/١، وشرح ديوان الحماصة للمرزوقي ١٥٩٣، ولعبيد بن الرنديس الكلابي في السمت ٥٤٦، والكامل ٤٧/١، وبلا نسبة في عيون الأخبار ٢٢٦/١، والبرصان والعرجان ٢٣٦، وديوان المعاني ٢٣/١، ٤١، والحماصة الشجرية ٣٥٩/١. وهما من قصيدة واحدة مع البيتين المتقدمين في الفقرة السابقة.

(٢) المستقصى ٧٠/١، ومجمع الامثال ٢١٩/١، وجمهرة الامثال ٣٤٣/١، والفاخر ٢٩٨.

(٣) وجدت في الامثال قولهم أغدر من قيس بن عاصم، في مجمع الامثال ٦٥/٢، والمستقصى ٢٥٩/١، وقولهم: «أكذب من قيس بن عاصم»، في مجمع الامثال ١٦٩/٢، والمستقصى ٢٣٩/١.

وإنما ذكرتُ لك هؤلاء لأنهم من سؤددهم وطاعة القبيلة لهم، لم يذهبوا فيمن تحت أيديهم من قومهم، ومن حلفائهم وجيرانهم، مذهبَ كليب بن ربيعة، ولا مذهبَ حذيفة بن بدر، ولا مذهبَ عيينة بن حصن، ولا مذهبَ لقيط بن زُرارة، ولأنَّ لقيطاً لم يأمر بسحبِ ضَمْرَةَ بنِ ضَمْرَةَ إلا وهو لو بقي لجاوز ظلم كليب وتهكم عيينة، فإنَّ هؤلاء وإن كانوا سادةً فقد كانوا يظلمون، وكانوا بين أن يظلموا وبين أن يظلموا ظلماً ممن ظلمهم. ولا بدُّ من الاحتمال كما لا بدُّ من الانتصار.

وقد قال عز وجل: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾^(١). وإلى هذا المعنى رجَّع قولُ الحكيمِ الأوَّل: «بعضُ القتلِ إحياءٌ للجميع»^(٢).

وعامةُ هؤلاء السادة لم يكن شأنهم أن يردُّوا الناسَ إلى أهوائهم، وإلى الانسياق لهم بعنفِ السُّوق، وبالحرَبِ في القود، بل كانوا لا يؤثرون الترهيبَ على الترغيب. والخشونة على التليين. وهم مع ذلك قد هجوا بأقبح الهجاء.

ومتى أحبَّ السيِّدُ الجامع، والرئيسَ الكاملَ قومه أشدَّ الحبِّ وحاطهم على حسب حبه لهم، كان بغضُ أعدائهم له على حسب حبِّ قومه له. هذا إذا لم يتوتَّب إليه ولم يعترض عليه من بني عمِّه وإخوته من قد أطمعته الحال باللحاق به. وحسدُ الأقاربِ أشدُّ، وعداوتهم على حسب حسدهم.

وقد قال الأولون: رضا الناس شيء لا ينال.

وقد قيل لبعض العرب: من السيِّدُ فيكم؟ قال الذي إذا أقبل هبناه، وإذا أدبر اغتبناه!

وقد قال الأوَّل: بغضاءِ السُّوقِ^(٣) موصولة بالملوك والسادة، وتجري في

الحاشية مجرى الملوك.

٣١٠ - [صعوبة سياسة العوام]

وليس في الأرض عملٌ أكدرَ لأهله من سياسةِ العوام. وقد قال الهذليُّ يصف

صُعوبة السياسة: [من الوافر]

وإن سياسةِ الأقسامِ فاعلم لها صعداً مطلبها طويل^(٤)

(١) ١٧٩ / البقرة: ٢.

(٢) مجمع الأمثال ١٠٥ / ١.

(٣) السوق: جمع سوقة، وهي الرعية.

(٤) البيت للأعلم الهذلي في شرح أشعار الهذليين ٣٢٣، وللهمذلي في البيان والتبيين ١ / ٢٧٥،

٢ / ٣٥٢، ٢١٨ / ٣، وعيون الأخبار ١ / ٢٢٦، وأساس البلاغة (صعد)، وبلا نسبة في اللسان

والتاج (صعد).

وقال آخرُ في شبهه بهذا المعنى: [من الطويل]
 ودونَ النَّدى في كلِّ قلبٍ نَنِيَّةٌ لها مَصْعَدٌ حَزَنٌ وَمُنْحَدَرٌ سَهْلٌ^(١)
 ووَدَّ الفتى في كلِّ نيلٍ يُنِيلُهُ إذا ما انقضى، لو أن نائله جَزُلٌ

وقال عامر بن الطَّفيل: [من الطويل]

وإني وإن كنتُ ابنَ سيِّدِ عامرٍ وفارسها المشهور في كلِّ موكبٍ^(٢)
 فما سوَّدتني عامر من وراثته أباي الله أن أسمو بأماً ولا أب
 ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمنكبٍ

وقال زياد بن ظبيان لابنه عبید الله بن زياد وزيادٌ يُغرغر بنفسه^(٣): ألا أوصي
 بك الأمير؟ قال: لا. قال: ولم؟ قال: إذا لم يكن للحي إلا وصية الميت، فالحي هو
 الميت^(٤).

وقال آخر في هذا المعنى: [من الكامل]

* والعزُّ لا يأتي بغير تطلُّب *

وقال بشامة بن الغدير في خلاف ذلك، وأن يثبت أن يكون منه كان: [من الطويل]
 وجدتُ أباي فيهم وجدِّي كليهما يُطاعُ ويؤتَى أمره وهو مُحْتَبِي^(٥)
 فلم أتعمَلْ للسيادة فيهم ولكن أتتني طائعا غير متعبٍ

٣١١ - [أسباب السعادة]

ومن الناس من يقول: إن العيشَ كلُّه في كثرة المال، وصحة البدن، وخمول
 الذكر.

وقال من يخالفه: لا يخلو صاحب البدن الصَّحيح والمال الكثير، من أن يكون
 بالأُمور عالماً، أو يكون بها جاهلاً. فإن كان بها عالماً فعلمه بها لا يتركه حتَّى يكون
 له من القول والعمل على حسب علمه، لأنَّ المعرفة لا تكون كعدمها، لأنَّها لو كانت

(١) البيتان للخريمي في ديوانه ٥٠، والبخلاء ١٦٧، والبيان والتبيين ٣٥٢/٢، وبلا نسبة في البيان
 والتبيين ٢٧٤/١.

(٢) ديوان عامر بن الطفيل ٢٨، والحماسة البصرية ٧٢/١، وعيون الأخبار ٢٢٧/١، وأمالي القالي
 ١١٨/٣، وأمالي المرتضى ١٠/١، والعقد الفريد ٢٥٩/٢، والمقاصد النحوية ٢٤٣/١.

(٣) الفرغرة: تردد الروح في الحلق. وغرر: جاد بنفسه عند الموت.

(٤) الخبر في عيون الأخبار ٢٣٥/١، وأمالي المرتضى ٢٠٠/١.

(٥) البيتان لبشامة في الحماسة البصرية ٧٢/١، وأساس البلاغة (عمل).

موجودة غيرَ عاملةٍ لكانت المعرفة كعدمها، وفي القول والعمل ما أوجب النَّبَاهَةَ، وأدنى حالاته أن تُخْرِجَه من حدِّ الخمول، ومتى أخرجته من حدِّ الخمول فقد صار معرضاً لمن يقدر على سلبه.

وكما أن المعرفة لا بدَّ لها من عملٍ، ولا بدَّ للعمل من أن يكون قولاً أو فعلاً، والقول لا يكون قولاً إلا وهناك مَقُول له، والفعال لا يكون فعلاً إلا وهناك مفعول له، وفي ذلك ما أخرج من الخمول وعُرف به الفاعل.

وإذا كانت المعرفة هذا عملها في التنبيه على نفسها، فالمال الكثير أحقُّ بأنَّ عمله الدلالة على مكانه، والسَّعَايَةُ على أهله. والمالُ أحقُّ بالنميمة، وأولى بالشكر، وأخذع لصاحبه، بل يكون له أشدُّ قهراً، ولحيه أشدُّ فساداً.

وإن كانت معرفته ناقصةً فبقدر نقصانها يجهل مواضع اللذة. وإن كانت تامةً فبقدر تمامها يُنْفَى الخمول ويُجلبُ الذِّكْر.

وبعدُ فليس يفهم فضيلة السلامة. وحقائق رُشد العافية، الذين ليس لهم من المعرفة إلا الشَّدْو^(١)، وإلا خلاق^(٢) أوساط الناس. ومتى كان ذلك كذلك، لم يُعرَف المدخل الذي من أجله يكره ذو المال الشهرة. ومن عَرَفَ ذلك على حقه وصدقته، لم يدعه فهمه لذلك حتى يدلَّ على فهمه. وعلى أنه لا يفهم هذا الموضوع حتى يفهم كلُّ ما كان في طبقته من العلم. وفي أقلِّ من ذلك ما يبين به حاله من حال الخامل.

وشروط الأمانِي غيرُ شروط جواز الأفعال وإمكان الأمور. وليس شيء ألدُّ ولا أَسْرُ من عزِّ الأمر والنهي، ومن الظُّفْر بالأعداء، ومن عَقْد المَنِّ في أعناق الرجال، والسرور بالرياسة وبثمرة السيادة، لأنَّ هذه الأمور هي نصيبُ الرُّوح، وحظُّ الذهن، وقِسْمُ النَّفْس^(٣). فأما المطعم والمشرب والمنكح والمشمة، وكلُّ ما كان من نصيب الحواس، فقد علمنا أن كلُّ ما كان أشدَّ نهماً وأرغب، كان أتمَّ لوجدانه الطعم. وذلك قياسٌ على مواقع الطُّعم من الجائع، والشراب من العطشان.

ولكنَّا إذا ميَّلنا بين الفضيلة التي مع السرور، وبين لذة الطعام، وما يحدث الشره له من ألم السهر والالتهاب والقلق وشدة الكلب، رأينا أن صاحبه مفضولٌ غيرُ فاضل. هذا مع ما يُسبُّ به، ومع حمله له على القبيح، وعلى أن نعمته متى زالت لم

(١) الشدو: القليل من كل شيء.

(٢) الخلاق: النصيب.

(٣) القسم: الحصة والنصيب.

يكن أحدُ أشقى منه. هذا مع سرور العالم بما وهبَ اللهُ له من السلامة من آفة الشرِّه،
ومن فسادِ الأخلاط.

وبعدُ فلا يخلو صاحبُ الثروة والصامتِ الكثير^(١)، الخاملُ الذكر من أن يكونَ
ممنَّ يرغب في المركب الفاره، والثوب اللين، والجارية الحسنة، والدار الجيدة،
والمطعم الطيب، أو يكون ممن لا يرغب في شيءٍ من ذلك. فإن كان لا يرغب في
هذا النوع كُله، ولا يعمل في ماله للدَّار الآخرة. ولا يُعجب بالأحدوثة الحسنة،
ويكون ممن لا تعدو لذته أن يكون كثير الصامت، فإن هذا حماراً أو أفسدُ طبعاً من
الحمار، وأجهل من الحمار، وقد رضي أن يكون في ماله أسوأ حالاً من الوكيل.

وبعدُ فلا بُدَّ للمال الكثير من الحراسة الشديدة، ومن الخوف عليه، فإن أعملَ
الحراسة له، وتعب في حفظه وحسب الخوف، خرج عليه فضلٌ. فإن هو لم يخف
عليه - ولا يكون ذلك في سبيل التوكل - فهو في طباع الحمار وفي جهله. والذي
أوجب له الخمول ليؤديه إلى سلامة المال له، قد أعطاه من الجهل ما لا يكون معه إلا
مثل مقدار لذة البهيمة في أكل الخبط^(٢).

وإن هو ابتاع قرَّة الدواب، وقرَّة الخدم والجواري، واتخذ الدار الجيدة، والطعام
الطيب والثوب اللين وأشبه ذلك، فقد دلَّ على ماله. ومن كان كذلك ثمَّ ظهرت له
ضيعة فاشية، أو تجارة مربحة، يحتمل مثل ذلك الذي يظهر من نفقته. وإلا فإنه
سيوجد في اللصوص عند أول من يقطع عليه، أو مكابرة تكون، أو تعب يؤخذ لاهله
المال العظيم.

ولو عنى بقوله الخمول وصحة البدن والمال، فذهب إلى مقدار من المال
مقبولاً ولكن ما لمن كان ماله لا يجاوز هذا المقدار يتهيأ الخمول.

٣١٢ - [طبقات الخمول]

ولعمري إنَّ الخمولَ ليكون في طبقات كثيرة، قال أبو نخيلة: [من الطويل]
شكرتك إنَّ الشكرَ حبلٌ من التقى وما كلُّ من أقرضته نعمة يقضي^(٣)
فأحييت من ذكري وما كان خاملاً ولكنَّ بعض الذكرِ أنبه من بعض

(١) الصامت من المال: الذهب والفضة، والناطق من المال: الإبل.

(٢) الخبط: ورق الشجر؛ يخطط بالعصا فتأكله الدواب.

(٣) البيتان لأبي نخيلة في الاغانى ٣٩٢/٢٠، وطبقات ابن المعتز ٦٤، وعيون الاخبار ٣/١٦٥،
والفاضل ٩٩، وأمالي القاضي ٣٠/١، ونهاية الأرب ٢٤٩/٣.

قالوا: ولسقوط الخامل من عيون الناس، قالت الاعرابية لابنها: إذا جلست مع الناس فإن أحسنت أن تقول كما يقولون فقل، وإلا فخالف تذكراً
 وأما الأصمعي فزعم أنها قالت: فخالف ولو بان تعلق في عنقك أير حمار.
 وليس يقول هذا القول إلا من ليس يعرف شكر الغنى، وتقلب الأموال إلى ما خلقت له، وقطعها عقلها، وخلعها عذرها، وتيه أصحابها، وكثرة خطاهم في حفظها وسترها، وعجزهم عن إماتة حركتها ومنعها من جميع ما تنازع إليه وتحمل عليه.

٣١٣ - [ملحة من الملح]

وقد روينا في الملح أن رجلاً قال لصاحب له: أبوك الذي جهل قدره، وتعدى طوره، فشق العصا، وفارق الجماعة، لاجرم لقد هزم ثم أسر ثم قتل ثم صلب! قال له صاحبه: دعني من ذكر هزيمة أبي، ومن أسره وقتله وصلبه. أبوك هل حدث نفسه بشيء من هذا قط؟!]

٣١٤ - [حكم الأسباب في همم الناس]

وليس إلى الناس بعد الهمم وقصرها، وإنما تجري الهمم بأهلها إلى الغايات، على قدر ما يعرض لهم من الأسباب. ألا ترى أن أبعاد الناس همّة في نفسه، وأشدّهم تلفتاً إلى المراتب، لا تنازعه نفسه إلى طلب الخلافة، لأن ذلك يحتاج إلى نسب، أو إلى أمر قد وطئ له بسبب، كسبب طلب أوائل الخوارج الخلافة بالدين وحده دون النسب. فإن صار من الخوارج فقد حدث له سبب إمكان الطلب، أكدي أم نجح.
 وقد زعم ناس من العلماء أن رجلاً خطبت للسيادة والنباة والطاعة في العشيرة.

٣١٥ - [سلطان الحظ]

وكذلك القبيلة ربّما سعدت بالخط، وربّما حظيت بالجد، وإنما ذلك على قدر الاتفاق، وإنما هو كالمعاقب والمبتلى، وإنما ذلك كما قال زهير: [من الطويل]
 وَجَدْتُ الْمَنَايَا خَبَطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِيبُ تُمْتُهُ وَمَنْ تُخْطِي يَعْمُرُ فِيهِرَمَ^(١)
 وكما تحظى بعض الأشعار وبعض الأمثال، وبعض الألفاظ دون غيرها، ودون ما يجري مجراها أو يكون أرفع منها.

قالوا: وذلك موجود في المرزوق والمحروم، وفي المحارف^(٢) والذي تجوز

(١) ديوان زهير ٣٤، واللسان (خبط، عشا)، والتاج (خبط)، والمقاييس ٤/٣٢٣، والعين ٢/١٨٨،
 وأساس البلاغة (عشو)، وتهذيب اللغة ٣/٥٤، ٧/٢٥١.

(٢) المحارف: المحدود المحروم.

عليه الصَّدَقَةُ. وكم من حاذق بصناعته، وكثير الجَوْلَانِ في تجارته، وقد بلغ فرغانة^(١) مرّة، والاندلس مرّة، ونقّب في البلاد، وربّع في الآفاق^(٢)، ومن حاذق يُشاور ولا يُستعمل، ثمّ لا تجدهما يَسْتَبِينان، من سوء الحال وكثرة الدّين. ومن صاحب حرب منكوب، وهو اللّيثُ على برائته، مع تمام العزيمة وشدة الشّكيمة، ونفّاذ البصيرة، ومع المعرفة بالمكيدة والصّبر الدّائم على الشّدة.

وبعد؛ فكّم من بيت شعر قد سار، وأجود منه مقيم في بطون الدّفاتر، لا تزيده الأيامُ إلاّ خمولاً، كما لا تزيده الذي دونه إلاّ شهرةً ورفعةً. وكم من مثلٍ قد طار به الحظُّ حتّى عرفته الإماءُ، ورواه الصّبيان والنّساء.

وكذلك حظوظ الفرسان. وقد عُرفتُ شهرةً عنتره في العامّة. ونباهة عمرو بن معد يكرب، وضربَ الناسُ المثلَ بعبيد الله بن الحرّ، وهم لا يعرفون، بل لم يسمعوا قطُّ بعُتَيْبَةَ بن الحارث بن شهاب، ولا ببسطام بن قيس، وكان عامرُ بن الطفيل أذكّر منهما نسباً.

ويذكرون عبيد الله بن الحرّ، ولا يعرفون شعبة بن ظهير ولا زهير بن دؤيب، ولا عبّاد بن الحصين. ويذكرون اللسن والبيان والخطيب ابن القرية ولا يعرفون سحبان وائل. والعامّة لم يصل ذكر هؤلاء إليهم إلاّ من قبل الخاصّة، والخاصّة لم تذكّر هؤلاء دون أولئك، فتركتُ تحصيلَ الأمورِ والموازنةَ بين الرجال وحكمتُ بالسّابق إلى القلب، على قدر طباع القلب وهيئته، ثمّ استوت علل العامّة في ذلك وتشابهت. والعامّة والباعة والأغنياء والسّفلة كأنّهم أعدارُ عامٍ واحد. وهم في باطنهم أشدُّ تشابهاً من التوامين في ظاهرهما، وكذلك هم في مقادير العقول وفي الاعتراض والتسرّع، وإن اختلفت الصّور والنّغم^(٣)، والأسنان والبلدان.

٣١٦ - [تشابه طبائع العامّة في كلّ دهر]

وذكر الله عزّ وجلّ ردّ قريشٍ ومُشركي العربِ على النبيّ ﷺ قوله، فذكر ألفاظهم، وجهد معانيهم، ومقادير همهم التي كانت في وزن ما يكون من جميع

(١) فرغانة: مدينة وكورة واسعة متاخمة لبلاد تركستان، على يمين القاصد لبلاد الترك، وقيل: فرغانة؛ قرية من قرى فارس.

(٢) ربع في الآفاق: أقام في مواضع كثيرة.

(٣) أراد بالنغم: اللغات واللهجات.

الامم إلى أنبيائهم، فقال: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾^(١) وقال: ﴿أَتَوَاصُوا بِهِ﴾^(٢) ثم قال: ﴿وَحُضَّتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾^(٣). ومثلُ هذا كثير، ألا ترى أنك لا تجدُ بدءاً في كلِّ بلدةٍ وفي كلِّ عصرٍ للحاكة من أن يكونوا على مقدارٍ واحدٍ وجهةٍ واحدةٍ، من السُّخْطِ والحقِّ، والغبَاوةِ والظلمِ، وكذلك النخَّاسون^(٤) على طبقاتهم. من أصناف ما يبيعون. وكذلك السماكون والقلَّاسون^(٥) وكذلك أصحابُ الخُلُقَانِ^(٦) كلُّهم، في كلِّ دهرٍ وفي كلِّ بلدٍ، على مثال واحد، وعلى جهةٍ واحدةٍ.

وكلُّ حجَّامٍ في الأرض فهو شديد الاستهتار بالنبيد، وإن اختلفوا في البلدان والاجناس والاسنان.

ولا ترى مسجوناً ولا مَضْرُوباً عندَ السُّلْطَانِ إِلَّا وهو يقول: إِنِّي مَظْلُومٌ، ولذلك قال الشاعر: [من البسيط]

لم يَخْلُقِ اللهُ مَسْجُوناً تَسَائِلُهُ ما بالِ سِجْنِكَ إِلَّا قَالَ مَظْلُومٌ^(٧)

وليس في الأرض خَصْمَانِ يتنازعان إلى حاكم، إِلَّا كلُّ واحدٍ منهما يدعي عدمَ الإنصافِ والظلمِ على صاحبه .

٣١٧ - [إعجاب المرء بنفسه]

وليس في الأرض إنساناً إِلَّا وهو يطرب من صوتِ نفسه، ويعتريه الغلَطُ في شعره وفي ولده. إِلَّا أَنَّ النَّاسَ فِي ذَلِكَ على طبقاتٍ من الغلَطِ: فمنهم الغرق^(٨) المغمور، ومنهم من قد نال من الصواب ونال من الخطأ، ومنهم من يكون خطؤه مستوراً لكثرة صوابه، فما أحسن حاله ما لم يُمتَحَنَ بالكشف. ولذلك احتاج العاقل في العُجْبِ بولده، وفي استحسان كتبه وشعره، من التحفظ والتوقِّي، ومن إعادة النظرِ والتَّهْمَةِ إلى أضعاف ما يحتاج إليه في سائر ذلك.

(١) ١١٨ / البقرة: ٢.

(٢) ٥٣ / الذاريات: ٥١.

(٣) ٦٩ / التوبة: ٩.

(٤) النخَّاس: بياع الرقيق.

(٥) القلَّاس: الضارب بالدف.

(٦) أصحاب الخلقان: الذين يبيعون الثياب البالية.

(٧) البيت بلا نسبة في البيان والتبيين ٣/١٦٩، وعميون الأخبار ١/٧٩، ٢/١١٦.

(٨) الغرق: الغريق.

٣١٨ - [كرم حاتم وكعب بن مامة]

والعامّة تحكّم أنّ حاتمًا أجودُ العرب^(١)، ولو قدّمته على هَرَمِ الجَوَادِ لما اعترضته عليهم^(٢). ولكنّ الذي يُحدّثُ به عن حاتم، لا يبلغ مقدارَ ما رَوَوْهُ عن كعب بن مامة، لأنّ كعباً بذلَ نفسه في أعطية الكرم وبذلَ المجهود فساوى حاتمًا من هذه الوجهة^(٣)، وبأيّنه ببذلِ المهجة .

ونحن نقول: إنّ الأشعارَ الصحيحة بها المقدارُ الذي يوجبُ اليقين بأنّ كعباً كان كما وصفوا. فلو لم يكن الأمرُ في هذا إلى الجُدودِ والحظوظِ والاتِّفاقاتِ، وإلى عللِ باطنة تجري الأمورُ عليها، وفي الغوصِ عليها وفي معرفتها بأعيانها عُسْر، لَمَّا جرت الأمورُ على هذه المنجاري، ولو كان الأمرُ فيها مفضّلاً إلى تقديرِ الرأي، لكان ينبغي لغالب بن صعصعة أن يكونَ من المشهورين بالجود، دون هَرَمِ وحاتم.

٢١٩ - [كلف العامة بمآثر الجاهلية]

فإنّ زعمتَ أنّ غالباً كان إسلامياً وكان حاتمٌ في الجاهلية. والناسُ بمآثر العرب في الجاهلية أشدُّ كلفاً، فقد صدقت. وهذا أيضاً ينبئك أنّ الأمور في هذا على خلاف تقديرِ الرأي، وإنّما تجري في الباطن على نسقٍ قائم، وعلى نظرٍ صحيح، وعلى تقديرٍ محكم، فقد تقدّم في تعبّيتهما^(٤) وتسويتهما من لا تخفى عليه خافية، ولا يفوته شيءٌ ولا يُعجزه، وإلا فما بالُ أيامِ الإسلامِ ورجالها. لم تكنْ أكبرَ في النفوس، وأحلَّ في الصدور من رجال الجاهلية، مع قُرب العهدِ وعظُمِ خَطَرِ ما ملكوا، وكثرة ما جادت به أنفسهم، ومع الإسلامِ الذي شملهم، وجعله الله تعالى أولى بهم من أرحامهم.

ولو أنّ جميعَ مآثر الجاهلية وُزنت به، وبما كان في الجماعات اليسيرة من رجالات قريش في الإسلام لأربت هذه عليها، أو لكانت مثلها.

(١) في الامثال: «أجود من حاتم طيء»، وهو في مجمع الامثال ١/١٨٢، والمستقصى ١/٥٣، وجمهرة الامثال ١/٣٣٦.

(٢) في الامثال: «أجود من هرم»، وهو في مجمع الامثال ١/١٨٨، والمستقصى ١/٥٥، وجمهرة الامثال ١/٣٣٨.

(٣) في الامثال: «أجود من كعب بن مامة»، وهو في مجمع الامثال ١/١٨٣، والمستقصى ١/٥٤، وجمهرة الامثال ١/٣٣٨.

(٤) التعبئة: الإعداد والتهيئة، ومنه تعبئة الجيش.

فليس لَقَدْرُ الكلب والذئب في أنفسهما وأثمانهما ومناظرهما ومحلهما من صدور العامة أسلفنا هذا الكلام، وابتدأنا بهذا القول. ولسنا نقف على أثمانهما من الفضة والذهب، ولا إلى أقدارهما عند الناس. وإنما نَتَنظَّرُ^(١) فيما وضع الله عز وجل فيهما من الدلالة عليه، وعلى إتقان صنعه، وعلى عجب تدبيره، وعلى لطيف حكمته، وفيما استخزنهما^(٢) من عجائب المعارف، وأودعهما من غوامض الاحساس^(٣)، وسخر لهما من عظام المنافع والمرافق، ودلَّ بهما على أن الذي البسهما ذلك التدبير، وأودعهما تلك الحكم، يجب أن يفكر فيهما؛ ويعتبر بهما، ويسبح الله عز وجل عندهما. فغشَّى ظاهرهما بالبرهان، وعمَّ باطنهما بالحكم، وهيج على النظر فيهما والاعتبار بهما؛ ليعلم كل ذي عقل أنه لم يخلق الخلق سُدىً؛ ولم يترك الصور هملًا؛ وليعلموا أن الله عز وجل لم يدع شيئاً غفلاً^(٤) غير موسوم، ونشراً غير منظوم، وسُدىً غير محفوظ؛ وأنه لا يخطئه من عجب تدبيره، ولا يعطله من حلِّي تدبيره، ولا من زينة الحكم وجلال قدرة البرهان.

ثم عمَّ ذلك بين الصَّوَابَةِ^(٥) والفراشة، إلى الافلاك السبعة وما دونها من الاقاليم السبعة.

٣٢١ - [تأويل قوله تعالى: ويخلق ما لا تعلمون]

وقد قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٦). وقد يتَّجه هذا الكلام في وجوه: أحدها أن تكون ها هنا ضروب من الخلق لا يعلم بمكانهم كثير من الناس، ولا بد أن يعرف ذلك الخلق معنى نفسه، أو يعلمه صفوة جنود الله وملائكته، أو تعرفه الأنبياء، أو يعرفه بعض الناس، لا يجوز إلا ذلك. أو يكون الله عز وجل إنما عنى أنه خلق أسباباً، ووهب عللاً، وجعل ذلك رِفاً لما يظهر لنا ونظاماً.

وكان بعض المفسرين يقول: من أراد أن يعرف معنى قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا

(١) التنظر: التأمل وإطالة التفكير.

(٢) استخزن: استودع.

(٣) الاحساس: جمع حس.

(٤) الغفل: ما ليس به سمة تميزه.

(٥) الصوابية: بيضة القملة.

(٦) ٨ / النحل: ١٦.

تَعْلَمُونَ ﴿ فَلْيُوقِدْ نَاراً فِي وَسْطِ غَيْضِهِ، أَوْ فِي صَحْرَاءِ بَرِيَّةٍ ثُمَّ يَنْظُرْ إِلَى مَا يَغْشَى النَّارَ مِنْ أَصْنَافِ الْخَلْقِ مِنَ الْحَشْرَاتِ وَالْهَمَجِ فَإِنَّهُ سِيرَى صُوراً، وَيَتَعَرَّفُ خَلْقاً لَمْ يَكُنْ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ. وَعَلَى أَنَّ الْخَلْقَ الَّذِي يَغْشَى نَارَهُ يَخْتَلِفُ عَلَى قَدْرِ اخْتِلَافِ مَوَاضِعِ الْغِيَاضِ وَالْبَحَارِ وَالْجِبَالِ. وَيَعْلَمُ أَنَّ مَا لَمْ يَبْلُغْهُ أَكْثَرُ وَأَعْجَبُ. وَمَا أُرِدُّ هَذَا التَّأْوِيلَ، وَإِنَّهُ لِيَدْخُلُ عِنْدِي فِي جُمْلَةٍ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَةُ. وَمَنْ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ لَمْ يَفْهَمْ عَنِ رَبِّهِ وَلَمْ يَفْقَهُ فِي دِينِهِ.

٣٢٢ - [ديدان الخل والملح] (١)

كأنك لاترى أن في ديدان الخل والملح، والديدان التي تتولد في السموم إذا عتقت وعرض لها العفن - وهي بعد قواتل - عبرة وأعجوبة، وأن التفكير فيها مشحذة للادهان، ومنبهة لذوي الغفلة، وتحليل لعقدة البلدة (٢)، وسبب لاعتیاد الروية وانفساح الصدور، وعز في النفوس، وحلاوة تقئاتها الروح، وثمرة تغذي العقل، وترق في الغايات الشريفة، وتشرف إلى معرفة الغايات البعيدة.

٣٢٣ - [فارة البيش والسمندل]

وكأنك لاترى أن في فارة البيش (٣) وفي السمندل (٤) آية غريبة، وصفة عجيبة، وداعية إلى التفكير، وسبباً إلى التعجب والتعجب.

٣٢٤ - [الجعل والورد]

وكأنك لا ترى أن في الجعل (٥)، الذي متى دفنته في الورد سكتت حركته وبطلت في رأي العين روحه، ومتى أعدته إلى الروث انحلت عقده، وعادت حركته، ورجع حسه - أعجب العجب، وأحكم الحكم!

٣٢٥ - [حصول الخلد على رزقه]

وأى شيء أعجب من الخلد (٦) وكيف يأتيه رزقه، وكيف يهيئ الله له ما

(١) وردت هذه الفقرة في ثمار القلوب (٦٣٧) ٣٤٤.

(٢) في ثمار القلوب «البلادة»، والكلمتان بمعنى واحد.

(٣) فارة البيش: دويبة تغتذي السموم فلا تضرها. ثمار القلوب (٦١١)، وحياة الحيوان ١٣٩/٢.

(٤) السمندل: طائر يدخل في التنور ولا يحترق ريشه. ثمار القلوب (٦١١)، وحياة الحيوان ٥٧٣/١.

(٥) الجعل: دويبة تعض البهائم في فروجها فتهرب، وهو أكبر من الخنفساء. حياة الحيوان ٢٧٨/١.

(٦) الخلد: دويبة عمياء صماء، لا تعرف ما بين يديها إلا بالشم، فتخرج من جحرها وتفتح فاهها؛ فيأتي الذباب فيقع على شدقها، فتدخله جوفها بنفسها. حياة الحيوان ٤٢٣/١.

يقوته وهو أعمى لا يبصر، وأصم لا يسمع، وبليد لا يتصرف، وأبله لا يعرف! ومع ذلك أنه لا يجوز باب جحره، ولا يتكلف سوى ما يجلب إليه رازقه ورازق غيره. وأي شيء أعجب من طائر ليس له رزق إلا أن يخلل أسنان التمساح، ويكون ذلك له.

٣٢٦ - [الطائران العجيبان]

وأي شيء أعجب من طائرين، يراهما الناس من أدنى جُدود البحر^(١) من شق البصرة، إلى غاية البحر من شق السند، أحدهما كبير الجثة يرتفع في الهواء صعداً، والآخر صغير الجثة يتقلب عليه ويعبث به، فلا يزال مرة يرفرف حوله ويرتقي على رأسه، ومرة يطير عند ذنابه، ويدخل تحت جناحه ويخرج من بين رجليه، فلا يزال يغمه ويكربه حتى يتقيه بذرقه، فإذا ذرق شحا له فاه فلا يخطئ أقصى حلقه حتى كأنه دحا به في بئر، وحتى كأن ذرقه مدحاة بيد أسوار^(٢)، فلا الطائر الصغير يخطئ في التلقي، وفي معرفته أنه لا رزق له إلا الذي في ذلك المكان؛ ولا الكبير يخطئ التسيّد^(٣)، ويعلم أنه لا ينجيه منه إلا أن يتقيه بذرقه، فإذا أوعى ذلك الذرق^(٤)، واستوفى ذلك الرزق، رجع شعبان ريان بقوت يومه، ومضى الطائر الكبير لطيبته. وأمرهما مشهور وشأنهما ظاهر، لا يمكن دفعه ولا تهمة المخبرين عنه.

٣٢٧ - [اختلاف طباع الحيوان]

فجعل تعالى وعز بعض الوحوش كسوباً محتالاً، وبعض الوحوش متوكلاً غير محتال، وبعض الحشرات يدخر لنفسه رزق سنته؛ وبعضاً يتكل على الثقة بأن له كل يوم قدر كفايته، رزقاً معداً وأمراً مقطوعاً. وجعل بعض الهمج يدخر، وبعضه يتكسب، وبعض الذكورة يعول وكده، وبعض الذكورة لا يعرف وكده، وبعض الإناث تُخرج^(٥) ولدها، وبعض الإناث تضيع ولدها وتكفل وكدها غيرها، وبعض الأجناس معطوفة على كل ولد من جنسها، وبعض الإناث لاتعرف وكدها بعد استغنائها عنها،

(١) الجدود: جمع جد، وهو الشاطئ، ومنه سميت مدينة «جدة» لوقوعها على شاطئ البحر، والخبر في ثمار القلوب (٨١٧)، وبيع الأبرار ٤٥٦/٥.

(٢) المدحاة: آلة الرمي. والدخو: هو رمي اللاعب بالحجر وغيره. الأسوار: الجيد الرمي بالسهم.

(٣) التسيّد: إصابة الهدف.

(٤) الذرق: نجو الطائر. أوعى: استوعب.

(٥) تخرج: تؤدب وتربي.

وبعض الإناث لا تزال تعرفه وتعطف عليه، وبعض الإناث تاكل ولدها، وكذلك بعض الذكورة. وبعض الأجناس يُعادي كُلَّ ما يكسر بيضها أو ياكل أولادها. وجعل يُتم بعض الحيوان من قِبَل أمهاتها، وجعل يُتم بعضها من قِبَل آبائها، وجعل بعضها لا يلتصق الولد وإن أتاه الولد، وجعل بعضها مستفرغ الهَمِّ في حُبِّ الذرءِ^(١) والتماس الولد؛ وجعل بعضها يُزاوج وبعضها لا يُزاوج ليكون للمتوكل من الناس جهةً في توكله، وللمتكسب جهةً في تكسبه وليُحضر على بالهم أسباب البرِّ والعقوق، وأسباب الحظر والتربية، وأسباب الوحشة من الأرحام الماسئة.

٣٢٨ - [افتراق المعاني واختلاف العلل]

ولمكان افتراق المعاني واختلاف العلل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعضهم: «اعقلها وتوكل»^(٢). وقال لبلال «أنفق بلال، ولا تخش من ذي العرش إقللاً».

فافهموا هذا التدبير، وتعلموا هذه الحكم، واعرفوا مداخلها ومخارجها ومفرقاتها ومجموعاتها؛ فإن الله عز وجل لم يُردد في كتابه ذكر الاعتبار، والحث على التفكير، والترغيب في النظر وفي التثبت والتعرف والتوقف، إلا وهو يريد أن تكونوا علماء من تلك الجهة، حكماء من هذه التعبئة^(٣).

٣٢٩ - [المعرفة والاستدلال والتمييز]

ولولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى، كما أنه لولا الاستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى. لولا تمييز المضار من المنافع، والردي من الجيد بالعيون المجعولة لذلك، لما جعل الله عز وجل العيون المدركة. والإنسان الحساس إذا كانت الأمور المميّزة عنده، أخذ ما يحتاج إليه وترك ما يستغني عنه وما يضرّ أخذه، فياخذ ما يحب ويدع ما يكره، ويشكر على المحبوب ويصبر على المكروه، حتى يذكر بالمكروه كيفية العقاب ويذكر بالمحبوب كيفية الثواب، ويعرف بذلك كيفية التضاعيف، ويكون ما يغمه رادعاً له، وممتحناً بالصبر عليه، وما يسره باسطاً له وممتحناً بالشكر عليه. وللعقل في خلال ذلك مجال، وللرأي تعلق، وتنتشق

(١) الذرء: النسل.

(٢) الجامع الصغير للسيوطي ١١٩١ وفيه أنه حديث ضعيف.

(٣) التعبئة: الإعداد والتهيئة.

للخواطر أسباب، ويتهياً لصواب الرأي أبواب. ولتكون المعارف الحسية والوجدانات الغريزية، وتمييز الأمور بها، إلى ما يتميز عند العقول وتحصره المقاييس. وليكون عمل الدنيا سُلماً إلى عمل الآخرة، وليترقى من معرفة الحواس إلى معرفة العقول، ومن معرفة الروية من غاية إلى غاية؛ حتى لا يرضى من العلم والعمل إلا بما آذاه إلى الثواب الدائم، ونجاه من العقاب الأليم.

٣٣٠ - [ما يحسن الكلب مما لا يحسنه الإنسان]

سندكُر طرفاً ممّا أودَعَ الله - عزَّ وجلَّ - الكلبَ ممّا لاتحسُّه أنت أيُّها الإنسان، مع احتقارك له وظلمك إياه.

وكيف لا تكون تلك الحكم لطيفة، وتلك المعاني غريبة، وتلك الاحساس^(١) دقيقة، ونحن نعلم أن أدق الناس حساً وأرقهم ذهناً وأحضرهم فهماً، وأصحهم خاطراً وأكملهم تجربةً وعلماً، لو رام الشيء الذي يحسنه الكلب في كثير من حالات الكلب لظهر له من عجزه وخرقه، وكلال حده وفساد حسه، ما لا يعرف بدونه إن الأمور لم تقسم على مقدار رأيه، ولا على مبلغ عقله وتقديره، ولا على محبته وشهوته؛ وإن الذي قسم ذلك لا يحتاج إلى المشاورة والمعونة، وإلى مكائفة ومرافدة، ولا إلى تجربة وروية. ونحن ذاكرون من ذلك جملاً إن شاء الله تعالى.

٣٣١ - [خبرة الكلب في الصيد]

اعلم أن الكلب إذا عاين الطباء، قريبة كانت أو بعيدة، عرف المعتل وغير المعتل وعرف العنز من التيس. وهو إذا أبصر القطيع لم يقصد إلا قصد التيس - وإن علم أنه أشد حُضراً، وأطول وثبةً، وأبعد شوطاً - ويدع العنز وهو يرى ما فيها من نقصان حُضرها وقصر قابِ حُطوها، ولكنه يعلم أن التيس إذا عدا شوطاً أو شوطين حَقَبَ ببوله^(٢) ١١.

٣٣٢ - [ما يعرض للحيوان عند الفزع]

وكلُّ حيوانٍ إذا اشتدَّ فزعه، فإنَّه يعرض له إمَّا سَلَسَ البول والتقطير، وإمَّا الأُسْر^(٣) والحَقَب. وكذلك المضروب بالسياط على الأكتاف، وبالعصي على الاستاء. وما أكثر ما يعتريهم البول والغائط.

(١) الاحساس: جمع حس.

(٢) حَقَبَ: تعسر عليه البول، واحتبس.

(٣) الأُسْر: احتباس البول.

وكذلك صار بعضُ الفُرسانِ الأبطالِ إذا عاينَ العدوَّ قَطَرَ إلى أن يذهب عنه، لهولِ الجنانِ .

وإذا حَقَبَ^(١) التَّيسَ لم يستطع البُولُ مع شدَّةِ الحُضْر، ومع النَّفْزِ والزَّمَعِ^(٢)، ووضع القوائم معاً ورَفَعَهَا معاً، في أَسْرَعٍ من الطَّرْفِ فيثقلُ عَدْوُهُ، ويقصرُ مَدَى خُطَاهُ، ويعتريه البُهْرُ حتَّى يلحقه الكلبُ فيأخذه .

والعنز من الطَّباءِ إذا اعتراها البولُ من شدَّةِ الفِرْعِ لم تجمععه، وحذفت به كإيزاغِ المَخَاضِ الضَّوَارِبِ^(٣)، لَسَعَةِ السَّبِيلِ وسهولةِ المخرجِ، فتصير لذلك أدومَ شَدًّا، وأصبرَ على المطاولةِ .

فهذا شيءٌ في طبعِ الكلبِ معرفته، دونَ سائرِ الحيوانِ .

والكلبِ المجرَّبِ لا يحتاجُ في ذلك إلى مُعَاناةٍ، ولا إلى تعلُّمٍ، ولا إلى رويَّةٍ ولا إلى تكلفٍ، قد كفاه ذلك الذي خَلَقَ العَقْلَ والعَاقِلَ والمعقُولَ، والداءَ والدواءَ والمداواةَ والمداوي، وقَسَمَ الأمورَ على الحكمة، وعلى تمامِ مصلحةِ الخليقةِ .

٣٣٣ - [مَهارة الكلبِ في الاحتيالِ للصيدِ]

ومن معرفة الكلبِ، أنَّ المُكَلَّبَ يُخرجه إلى الصيدِ في يومٍ، الأرضُ فيه ملبَّسةٌ من الجليدِ، ومغشاةٌ بالثلجِ، قد تراكم عليها طبقاً على طبقٍ، حتَّى طبَّقها واستفاض فيها، حتَّى ربَّما ضربته الريحُ ببرِّدها، فيعود كلُّ طبقٍ منها وكأنَّه صفاةٌ ملساءٌ، أو صخرةٌ خلقاء^(٤)، حتَّى لا يثبت عليها قَدَمٌ ولا خُفٌّ، ولا حافرٌ ولا ظلفٌ، إلَّا بالثبوتِ الشديدِ، أو بالجهدِ والتَّفريقِ - فيمضي الكلابُ بالكلبِ، وهو إنسانٌ عَاقِلٌ، وصيادٌ مجرَّبٌ، وهو مع ذلك لا يدري أينَ جُحر الأرنبِ من جميعِ بسائطِ الأرضِ، ولا موضعَ كُناسِ ظبيٍّ، ولا مَكْوِ ثعلب^(٥)، ولا غيرَ ذلك من موالج^(٦) وحوشِ الأرضِ؛

(١) حقب: تعسر عليه البول .

(٢) النفز: وثب الظبي خاصة . الزمع: الخوف والدهش .

(٣) الإيزاغ: دفع الناقة ببولها . المخاض: النوق الحوامل . الضوارب: جمع ضارب وضاربة، وهي التي تضرب الفحل بأرجلها إذا أرادها . وكان الجاحظ يريد قول النابغة:

(بضرب يزيل الهام عن سكناته وطعن كإيزاغ المخاض الضوارب)

والبيت في ديوان النابغة ٤٦ .

(٤) صخرة خلقاء: ملساء .

(٥) مكو الثعلب: جحره .

(٦) موالج: مداخل، ولج: دخل .

فيتخرق^(١) الكلب بين يديه وخلفه، وعن يمينه وشماله ويتشمم ويتبصر، فلا يزال كذلك حتى يقف على أفواه تلك الجحرة، وحتى يُثير الذي فيها بتنفيس الذي فيها، وذلك أن أنفاسها وبُخار أجوافها وأبدانها، وما يخرج من الحرارة المستكنة في عمق الأرض - مما يُذيب ما لاقاها من فَم الجُحر، من الثلج الجامد، حتى يرق ويكاد أن يثقبه وذلك خفي غامض، لا يقع عليه قانص^(٢) ولا راع، ولا قائف^(٣) ولا فلاح، وليس يقع عليه إلا الكلب الصائد الماهر.

وعلى أن للكلب في تتبّع الدُّراج^(٤) والإصعاد خَلْف الأرانب في الجبل الشاهق، من الرُفق وحسن الاهتداء والتأني ما يخفى مكانه على البيازرة^(٥) والكلابين.

٣٣٤ - [الانتباه الغريزي في الكلب]

وقد خبرني صديق لي أنه حبس كلباً له في بيت وأغلقَ دونه الباب في الوقت الذي كان طبأخه يرجع فيه من السوق ومعه اللحم، ثم أخذ سكيناً بسكين، فنبح الكلب وقلق، ورام فتح الباب؛ لتوهمه أن الطباخ قد رجع من السوق بالوظيفة^(٦)، وهو يحسد السكين ليقطع اللحم!! .

قال: فلما كان العشي صنعنا به مثل ذلك، لتتعرف حاله في معرفة الوقت، فلم يتحرك!! .

قال: وصنعت ذلك بكلب لي آخر فلم يقلق إلا قلقاً يسيراً، فلم يلبث أن رجع الطباخ فصنع بالسكين مثل صنيعي، فقلق حتى رام فتح الباب!! .

قال فقلت: والله لئن كان عرف الوقت بالرصد^(٧) فتحرك له، فلما لم يشم ريح اللحم عرف أنه ليس بشيء، ثم لما سمع صوت السكين والوقت بعد لم يذهب، وقد جيء باللحم فشم ريح اللحم من المطبخ وهو في البيت، أو عرف فصل ما بين إحدادي السكين وإحدادي الطباخ، إن هذا أيضاً لعجَب .

(١) يتخرق: يشتد عدوه.

(٢) القانص: الصائد.

(٣) القائف: من يعرف الآثار.

(٤) الدراج: طائر أسود باطن الجناحين وظاهرهما؛ أغبر على خلقة القطا؛ إلا أنه ألطف. حياة الحيوان ٤٧٧/١.

(٥) البيازرة: جمع بيزار، وهو الذي يصيد بالبازي.

(٦) الوظيفة: ما يقدر لك في اليوم من طعام أو رزق ونحوه.

(٧) الرصد: الارتقاب.

وإن اللحم ليكون بيني وبينه الذراعان والثلاث الأذرع، فما أجد ربحه إلا بعد أن أدنيه من أنفي. وكل ذلك عجب.

ولم أجد أهل سكة أصطفانوس^(١)، ودار جارية، وباعة مربعة بني منقر^(٢) يشكون أن كلباً كان يكون في أعلى السكة، وكان لا يجوز محرّس الحارس أيام الأسبوع كله، حتى إذا كان يوم الجمعة أقبل قبل صلاة الغداة، من موضعه ذلك إلى باب جارية، فلا يزال هناك مادام على معلق الجزر شيء من لحم. وباب جارية تُنحر عنده الجزر في جميع أيام الجمع خاصة، فكان ذلك لهذا الكلب عادة، ولم يره أحد منهم في ذلك الموضع في سائر الأيام، حتى إذا كان غداة الجمعة أقبل! فليس يكون مثل هذا إلا عن مقدارية بمقدار ما بين الوقتين.

ولعل كثيراً من الناس ينتابون بعض هذه المواضع في يوم الجمعة، إما لصلاة، وإما لغير ذلك، فلا يعدّهم^(٣) النسيان من أنفسهم، والاستذكار بغيرهم. وهذا الكلب لم ينس من نفسه، ولا يستذكر بغيره.

وزعم هؤلاء بأجمعهم أنهم تفقدوا شأن هذا الكلب منذ انتبهوا لصنيعه هذا، فلم يجدوه غادر ذلك يوماً واحداً. فهذا هذا.

٣٣٥ - [قصة في وفاء الكلب]

وأنشده أبو الحسن بن خالويه عن أبي عبيدة لبعض الشعراء: [من الطويل]
يُعدُّ عنه جاره وشقيقه وينبش عنه كلبه وهو ضاربه

قال أبو عبيدة: قيل ذلك لأن رجلاً خرج إلى الجبان ينتظر ركابه فاتبعه كلب كان له، فضرب الكلب وطرده، وكره أن يتبعه، ورماه بحجر، فأبى الكلب إلا أن يذهب معه، فلما صار إلى الموضع الذي يريد فيه الانتظار، ربح الكلب قريباً منه، فبينما هو كذلك إذ أتاه أعداء له يطلبونه بطائلة لهم عنده، وكان معه جار له وأخوه دنياً، فأسلماه وهربا عنه، فجرح جراحات ورُمي به في بئر غير بعيدة القعر، ثم حثوا عليه من التراب حتى غطى رأسه ثم كُمّ فوق رأسه منه، والكلب في ذلك

(١) أصطفانوس: موضع في البصرة، سمى باسم كاتب نصراني كان في أيام زياد؛ أو ما قاربها. معجم البلدان (أصطفانوس).

(٢) مربعة بني منقر: موضع بالبصرة.

(٣) البيت مع الخبر في تأويل مختلف الحديث ١٦٦، وربع الأبرار ٥/٤٢١. التعرید: الفرار.

يَزْجُمُ (١) وَيَهْرِ، فَلَمَّا انصرفوا أتى رأسَ البئر؛ فما زال يَعُوي وينبث عنه ويحشو التُّرَابَ بيده ويكشف عن رأسه حتى أظهر رأسه، فتنفَّسَ ورُدَّتْ إليه الرُّوح؛ وقد كاد يموتُ ولم يبق منه إلا حُشاشة، فبينما هو كذلك إذ مرَّ ناسٌ فانكروا مكان الكلب وراوه كأنه يحفر عن قبر، فنظروا فإذا هم بالرجُل في تلك الحال، فاستشالوه (٢) فأخرجوه حيًّا، وحَمَلوه حتَّى أدَّوه إلى أهلِهِ، فزعم أن ذلك الموضع يُدعى ببئر الكلب. وهو مُتَيَّمين عن النَّجف.

وهذا العملُ يدل على وفاءٍ طبيعي وإلفٍ غريزي ومحاماةٍ شديدة، وعلى معرفةٍ وصبرٍ، وعلى كرمٍ وشكرٍ، وعلى غناءٍ عجيبٍ ومنفعةٍ تفوق المنافع، لأنَّ ذلك كلُّه كان من غير تكلف ولا تصنع.

٣٣٦ - [أسدي يأكل جرو كلب]

وقال مؤمِّل بن خاقان، لأعرابيٍّ من بني أسد، وقد أَكَلَ جَرَوْ كَلْب: أتناكل لحم الكلب وقد قال الشاعر: [من الطويل]

إذا أسديُّ جاعٌ يوماً ببلدَةٍ وكان سميناً كلبه فهو آكله (٣)

أَكَلَ هذا قرماً إلى اللحم؟ قال: فانشأ الأسديُّ يقول: [من الطويل]

وصبَّأ بحظِّ اللَّيْثِ طُعماً وشهوةً فسائل أخا الحلفاء إن كنت لا تدري (٤)

٣٣٧ - [حب الأسد للحم الكلب]

قال: وذلك لأنَّ الأسدَ لا يحرص على شيءٍ من اللُّحمانِ حرصه على لحم الكلب. وأمَّا العامَّةُ فتزعمُ أنَّ لحومَ الشَّاءِ أحبُّ اللُّحمانِ إليه، قالوا: ولذلك يُطيف الأسدُ بجَنَبَاتِ القُرى، طلباً لاغترار الكلب؛ لأنَّ وثبة الأسد تُعجل الكلب عن القيام وهو رابض، حتَّى ربَّما دعاهم ذلك إلى إخراج الكلب من قُراهم؛ إلا أن يكون بقرب ضياعهم خنازير، فليس حينئذٍ شيءٌ أحبُّ إليهم من أن تكثر الأسد عندهم. وإنَّما

(١) يزجم: يصوت.

(٢) شال: رفع.

(٣) البيت للفرزدق في البخلاء ٢٣٥، والمعاني الكبير ٢٥٤، وربيع الأبرار ٤١٥/٥.

(٤) البيت في المعاني الكبير ٢٥٤، وربيع الأبرار ٤١٥/٥. أخو الحلفاء: الأسد، لانه يسكن الحلفاء في الفياض.

(٥) ربيع الأبرار ٤١٥/٥ باختصار.

يُخرجون عنهم في تلك الحالات الكلاب، لأنهم يخافونها على ما هو عندهم أنفسُ من الكلب، وهذه مصلحةٌ في الكلب، ولا يكون ذلك إلا في القرى التي بقرب الغِيضةِ أو المأسدة^(١).

٣٣٨ - [سبب طلب الأسد للكلب]

فزعم لي بعض الدهاقين قولاً لا أدري كيف هو، ذكر أنهم لا يشكون أنه إنما يطلب الكلب لحقته عليه. لا من طريق أن لحمه أحبُّ اللّحمان إليه. وإنَّ الأسدَ ليأتي مَنَاقِعِ المياه. وشطوطَ الأنهار، فيأكل السَّرَاطين والضفادع، والرَّق^(٢) والسلاحف، وإنه أشره من أن يختارَ لحمًا على لحم. قال: وإنما يكون ذلك منه إذا أراد المتطرفَ من حمير القرية وشائها وسائر دوابها. فإذا لَجَّ الكلبُ في النَّباح انتبهوا ونذروا^(٣) بالأسد. فكانوا يَبِينُ أن يحصنوا أموالهم ويَبِينُ أن يهجهجوا^(٤) به. فيرجع خائباً. فإذا أراد ذلك بدأ بالكلب؛ لأنَّ يَأْمَنُ بذلك الإنذار، ثمَّ يستولي على القرية بما فيها. فإنما يطالب الأسدُ الكلابَ لهذه العلة

٣٣٩ - [حيل الأسد في الصيد]

وسمعتُ حديثاً من شيوخ مَلَّاحي الموصل - وأنا هائب له - ورأيتُ الحديثَ يدور بينهم، ويتقبله جميعهم. وزعموا أنَّ الأسدَ ربُّما جاء إلى قَلَسِ السفينة^(٥)، فيتشبَّث به ليلاً، والملاحون يمدون السفينة فلا يشكون أنَّ القَلَسَ قد التفَّ على صخرة، أو تعلق بجذم شجرة^(٦). ومن عاداتهم أن يبعثوا الأول من المدادين ليحلّه. فإذا رجع إليه الملاح ليمدّه تمدد الأسدُ بالأرض، ولزق بها وغمض عينيه كي لا يُبصرَ ويصههما بالليل، فإذا قرب منه وثب عليه فخطفه، فلا يكون للملاحين هم إلا إلقاء أنفسهم في الماء وعبورهم إليه. وربما أكله إلا ما بقي منه، وربما جرَّ فريسته إلى عريسه^(٧) وعرينه، وإلى أجراءه وأشباله، وإن كان ذلك على أميال.

(١) المأسدة: الأرض الكثيرة الأسود.

(٢) الرق: العظيم من السلاحف.

(٣) نذر: علم.

(٤) هجهج بالكلب: صاح به ليبعد فقال له: هج هج.

(٥) القلس: حبل غليظ من حبال السفن.

(٦) جذم الشجرة: أصلها.

(٧) العريس: مأوى الأسد.

٣٤٠ - [سلاح الكلب وسلاح الديك]

قالوا: فليس الديك من بابة الكلب؛ لأنه إن ساوره قهره قهراً ذريعاً. وسلاح الكلب الذي هو في فيه، أقوى من صبيصة^(١) الديك التي في رجله، وصوته أندى وأبعد مدى وعينه أيقظ.

٣٤١ - [دفاع عن الكلب]

والكلب يكفي نفسه ويحمي غيره، ويعول أهله، فيكون لصاحبه غنمه وليس عليه غرمه. وكما يرمح^(٢) الدواب من الناس، وكما يحرن ويجمع، وتنطح وتقتل أهلها في يوم واحد، أكثر ممّا يكون من جميع الكلاب في عام. والكلب ينطح فيعقر ويقتل، من غير أن يهاج ويُعبث به. والبرذون يعض ويرمح من غير أن يهاج به ويُعبث. وأنت لا تكاد ترى كلباً يعض أحداً إلا من تهيج شديد، وأكثر ذلك أيضاً إنما هو النباح والوعيد.

٣٤٢ - [معرفة الكلب صاحبه وفرحه به]

والكلب يعرف وجه ربه من وجه عبده وأمته، ووجه الزائر. حتى ربما غاب صاحب الدار حولاً مجرماً، فإذا أبصره قادماً اعتراه من الفرح والبصبيصة^(٣)، والعواء الذي يدل على السرور، وعلى شدة الحنين ما لا يكون فيه شيء فوقه.

٣٤٣ - [قصة أخرى في وفاء كلب]

وخبرني صديق لي قال: كان عندنا جرو كلب، وكان لي خادم لهج بتقريبه، مولع بالإحسان إليه، كثير المعاينة له، فغاب عن البصرة أشهراً، فقلت لبعض من عندي: أتظنون أن فلاناً (يعني الكلب) يثبت اليوم صورة فلان (يعني خادمه الغائب) وقد فارقه وهو جرو، وقد صار كلباً يشغّر ببوله؟ قالوا: ما نشك أنه قد نسي صورته وجميع بره كان به. قال: فبينما أنا جالس في الدار إذ سمعت من قبل باب الدار نباحه، فلم أر شكلاً نباحه من التأب والتعثيث^(٤)، والتوعد، ورأيت فيه بصبيصة

(١) الصبيصة: شوكة في رجل الديك.

(٢) رمح: رفس.

(٣) البصبيصة: تحريك الكلب ذنبه.

(٤) التعثيث: ترجيع الصوت.

السُرور، وحنين الألف. ثم لم البث أن رأيتُ الخادمَ طالعاً علينا، وإنَّ الكلبَ ليلتَفُّ على ساقيه، ويرتفع إلى فخذيه، وينظر في وجهه، ويصيح صياحاً يستبين فيه الفرح. ولقد بلغ من إفراط سروره أنني ظننتُ أنه عرض^(١). ثم كان بعد ذلك يغيب الشهرين والثلاثة، أو يمضي إلى بغداد ثم يرجع إلى العسكر بعد أيام، فأعرف بذلك الضرب من البصبصة^(٢)، وبذلك النوع من النباح، أنَّ الخادمَ قدم. حتى قلتُ لبعض من عندي: ينبغي أن يكون فلان قد قدم، وهو داخل عليكم مع الكلب.

وزعم لي أنه ربّما أُلقيَ لهذا الجرو إلى أن صار كلباً تاماً، بعضَ الطعام فيأكل منه ما أكل، ثم يمضي بالباقي فيخبؤه. وربّما أُلقيَ إليه الشيء وهو شبعان فيحتمله، حتى يأتي به بعض المخابئ فيضعه هناك، حتى إذا جاع رجع إليه فأكله^(٣).

٣٤٤ - [أدب الكلب]

وزعم لي غلماني وغيرهم من أهل الدرب، أنه كان ينبح على كلِّ راكبٍ يدخل الدرب إلى عراقيب بردونه، سائساً كان أو صاحب دابةٍ إلا أنه كان إذا رأى محمد بن عبد الملك داخلًا إلى باب الدرب أو خارجاً منه، لم ينبح البتة، لا عليه ولا علي دابته، بل كان لا يقف له على الباب ولا على الطريق، ولكنه يدخل الدهليز سريعاً، فسألت عن ذلك فبلغني أنه كان إذا أقبل صاح به الخادم، وأهوى له بالضرب، فيدخل الدهليز، وأنه ما فعل ذلك به إلا ثلاث مرار، حتى صار إذا رأى محمد بن عبد الملك، دخل الدهليز من تلقاء نفسه، فإذا جاوز وثب على عراقيب دواب الشاكرية^(٤). ورأيت هذا الخبر عندهم مشهوراً.

قال: وكُنَّا إذا تغدينا دنا من الخوان فزجرناه مرةً أو مرتين، فكان لا يقربنا، لمكان الزجر، ولا يبعد عن الخوان لعلَّ الطمع، فإن ألقينا إليه شيئاً أكله ثم، ودنا من أجل ذلك بعض الدنو. فكُنَّا نستظهر عليه، فنرمي باللقمة فوق مريضه بأذرع. فإذا أكلها ازداد في الطمع، فقربه ذلك من الخوان، ثم يجوز موضعه الذي كان فيه. ولولا ما كنا نقصد إليه من امتحان ما عنده، ليصير ما يظهر لنا حديثاً، لكان إطعام الكلب والسنور من الخوان خطأ من وجوه: أولها أن يكون يصير له به دربة، حتى إنَّ منها ما يمدُّ يده إلى ما على المائدة حتى ربما تناول بفيه ما عليها، وربّما قاء الذي يأكل

(١) عرض: أصابه الجنون.

(٢) البصبصة: تحريك الكلب ذنبه.

(٣) الخبر في ربيع الأبرار ٥ / ٤٢١.

(٤) الشاكري: الأجير المستخدم.

وهم يروونه، وربما لم يرضَ بذلك حتى يعودَ في قيته. وهذا كله ممَّا لا ينبغي أن يحضرهُ الرئيس، ويشهدهُ ربُّ الدار. وهو على الحاشية أجوز.

٣٤٥ - [الأكل بين أيدي السباع]

فأمَّا علماء الفرس والهند، وأطبَّاء اليونانيين ودُهاة العرب، وأهلُ التجربة من نازلة الأمصار وحُذَّاق المتكلِّمين، فإنهم يكرهون الأكلَ بين أيدي السباع، يخافون نفوسها وأعينها، للذي فيها من الشرِّ والحرص، والطلب والكلب، ولما يتحلَّل عند ذلك من أجوافها من البخار الرديء، وينفصل من عيونها من الأمور المفسدة، التي إذا خالطت طباعَ الإنسان نقضته.

وقد روي مثلُ ذلك عن الثوري عن سماك بن حرب عن ابن عباس أنه قال على منبر البصرة: إن الكلاب من الحنِّ، وإن الحنَّ من ضعفة الجنِّ، فإذا غشيكم منها شيءٌ فآلقوا إليه شيئاً واطردوها، فإن لها أنفُسَ سوء^(١).

ولذلك كانوا يكرهون قيامَ الخدم بالمدابِّ والأشربة على رؤوسهم وهم يأكلون؛ مخافة النفس والعين. وكانوا يأمرُون بأشباعهم قبل أن يأكلوا، وكانوا يقولون في السنور والكلب: إمَّا أن تطرده قبل أن تأكل وإمَّا أن تشغله بشيء يأكله، ولو بعظم. ورأيتُ بعضَ الحكماء وقد سقطت من يده لقمة فرفع رأسه، فإذا عينُ غلامٍ له تحدَّق نحوَ لقمته، وإذا الغلامُ يزدردُ ريقه لتحلُّب فمه من الشهوة. وكان ذلك الحكيمُ جيِّدَ اللَّقم، طيبَ الطعام، ويضيقُ على غلمانه. فيزعمون أن نفوسَ السباع وأعينها في هذا الباب أردأ وأخبث.

٣٤٦ - [إصابة العين]

وبينَ هذا المعنى وبين قولهم في إصابة العين الشيء العجيب المستحسنَ شركةً وقرابةً؛ وذلك أنهم قالوا: قد رأينا رجلاً ينسب ذلك إليهم، ورأيناهم، وفيهم من إصابة العين مقداراً من العدد، لا نستطيع أن نجعل ذلك النسق من باب الاتفاق. وليس إلى ردِّ الخبر سبيل؛ لتواتره وتراذفه، ولأن العيانَ قد حققه، والتجربة قد ضمت إليه.

وفي الحديث المأثور في العين التي أصابت سهل بن حنيف فامر رسول الله ﷺ في ذلك بالذي أمر، وذلك مشهور^(٢).

(١) الحديث في النهاية ٤٥٣/١. أي أنها تصيب بأعينها.

(٢) أخرج البخاري في الطب برقم ٥٤٠٨، ومسلم في السلام برقم ٢١٨٧ (العين حق)، وانظر المستدرک للحاكم ٤١٠/٣، ٤١٥/٤، والموطأ ٣/١١٨.

قالوا: ولولا فاصل ينفصل من عين المستحسن إلى بدن المستحسن، حتى يكون ذلك الداخل عليه هو الناقص لقوَاهُ كما جاز أن يلقى مكروهاً البتة. وكيف يلقى المكروه من انساق في حيزه وموضعه، والذي أصابته العين في حيزه^(١) أيضاً وموضعه، من غير تماس ولا تصادم، ولا فاصل ولا عامل لاقى معمولاً فيه. ولا يجوز أن يكون المعتل بعد صحته يعتل من غير معنى بدنه. ولا تنتقض الأخلاط ولا تنزاييل إلا لأميرٍ يعرض، لأنه حينئذٍ يكون ليس بأولى بالانتقاض من جسمٍ آخر. وإن جاز للصحيح أن يعتل من غير حادث، جاز للمعتل أن يبرأ من غير حادث. وكذلك القول في الحركة والسكون. وإذا جاز ذلك كان الغائب قياساً على الحاضر الذي لم يدخل عليه شيء من مستحسن له. فإذا كان لا بد من معنى قد عمل فيه، فليس لذلك المعنى وجه إلا أن يكون انفصل إليه شيء عمل فيه. وإلا فكيف يجوز أن يعتل من ذات نفسه، وهو على سلامته وتمام قوته، ولم يتغير ولم يحدث عليه ما يغيره. فهو وجسم غائب في السلامة من الأعراض سواءً. وهذا جواب المتكلمين الذين يصدّقون بالعين، ويثبتون الرؤيا.

٣٤٨ - [صفة المتكلمين]

وليس يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً في الصناعة، يصلح للرئاسة، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة. والعالم عندنا هو الذي يجمعهما، والصيب هو الذي يجمع بين تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقائقها من الأعمال.

ومن زعم أن التوحيد لا يصلح إلا بإبطال حقائق الطبائع، فقد حمل عجزه على الكلام في التوحيد. وكذلك إذا زعم أن الطبائع لا تصح إذا قرنتها بالتوحيد. ومن قال فقد حمل عجزه على الكلام في الطبائع.

وإنما يبأس منك الملحد إذا لم يدعك التوفّر على التوحيد إلى بخص حقوق الطبائع؛ لأن في رفع أعمالها رفع أعيانها. وإذا كانت الأعيان هي الدالة على الله فرفعت الدليل، فقد أبطلت المدلول عليه، ولعمري إن في الجمع بينهما لبعض الشدة.

(١) حيزه: مكانه المحدود.

وأنا أعودُ بالله تعالى أن أكون كلما غَمَزَ قناتي باب من الكلام صَعْبُ المدخل،
نقضتُ ركناً من أركان مقالتي! ومن كان كذلك لم يُنتَفِعْ به.

٣٤٩ - [القول في إصابة العين]

فإن قال قائل: وما بلغ من أمر هذا الفاصل الذي لا يشعر به القوم الحضورَ ولا
الذي انفصل منه، ولا المارَّ بينهما، ولا المتلقِّي له ببدنه وليس دونهُ شيء، وكيف لم
يعمَلْ في الأقربِ دون الأبعد، والأقربُ إنسان مثله، ولعلَّه أن يكون طبعه أشدَّ اجتذاباً
للآفات!

وبعد، فكيف يكون شيءٌ يصرعُ الصحيحَ ويضعُ القائم، وينقضُ القوى،
ويمرضُ الأصحاء، ويصدعُ الصخرَ ويهشمُ العظم، ويقتلُ الثور، ويهدُّ الحمار،
ويجري في الجمادِ مجراه في النبات، ويجري في النَّباتِ مجراه في الحيوان، ويجري
في الصَّلابةِ والملاسةِ جريه في الأشياءِ السخيفةِ الرُّخوةِ؛ وهو ممَّا ليس له صدم
كصدم الحجر، أو غَرَبٍ كغَرَبِ السَّيفِ، أو حدٌّ كحدِّ السَّنَانِ؛ وليس من جنسِ السمِّ،
فيحمل على نفوذِ السمِّ؛ وليس من جنسِ الغذاءِ فيحمل على نفوذِ الغذاءِ، وليس من
جنسِ السُّحرِ فيقال إنَّ العُمَارَ (١) عملوا ذلك من طريق طاعتهم للعزائم. فلعلَّ ذلك
إنَّما كان شيئاً وافق شيئاً.

قيل لهم: قد تعلمون كيف مقدارُ سَمِّ الجرَّارةِ (٢) أو سَمِّ الأفعى، وكيف لو
وزنتم الجرَّارةِ (٢) قبل لسعها وبعده لوجدتموها على حالٍ واحدة. وأنت ترى كيف
تفسخُ عقْدَ بدن الفيل، وكيف تنقضُ قوى البعير، من غير صدم كصدم الحجر،
وغربٍ كغربِ السَّيفِ، وحدٌّ كحدِّ السنان.

فإن قلت: فهل نابُ الأفعى وإبرةُ العقربِ إلا في سبيلِ حدِّ السنان؟ قلنا: إنَّ
البعيرَ لو كان إنَّما يتفسخُ لطنَّ العقربِ بإيرتها لما كان ذلك يبلغ منها مقدار النخس
فقط، ولكنه لأبداً أن يكون ذلك لأحد أمرين: إمَّا أن تكون العقربُ تمجَّ فيه شيئاً من
إيرتها، فيكون طبع ذلك وإن قلَّ يفسخ الفيلَ والزُنْدبيلَ (٣)، وإمَّا أن يكون طبع ذلك
الدَّم إذا لاقاه طبع ذلك الناب وتلك الإبرة أن يُجمد فيقتل بالإجماد، أو يذيب فيقتل
بالإذابة. فأيهما كان فإنَّ الأمر فيه على خلاف ما صدرت به المسألة.

(١) العُمَار: سكان البيوت من الجان.

(٢) الجرَّارة: نوع من العقارب إذا مشى على الأرض جر ذنبه.

(٣) الزُنْدبيل: الفيل الكبير. حياة الحيوان ١/ ٥٤٠.

ولا تنازعَ بين الأعراب - والأعرابُ ناسٌ إنَّما وضعوا بيوتَهُم وأبنيتَهُم وسطَ السَّبَّاعِ والأحناشِ والهمَجِ، فهم ليس يعبرون إلاَّ بها، وليس يعرفون سواها - وقد أجمعوا على أن الأفعى إذا هُرمت فلم تَطعمَ - ولم يبقَ في فمها دم أنَّها تنكز^(١) بأنفها، وتطعن به، ولا تعضُّ بفيها، فيبلغ النَّكزُ لها ما كان يبلغ لها قبلَ ذلك اللدغُ. وهل عندنا في ذلك إلا تكذيبُهُم أو الرجوعُ إلى الفاصل الذي أنكرتموه، لأنَّ أحداً لا يموت من تلك النَّخسة، إن كان ليس هناك أكثر من تلك الغمزة.

وقال العجاج، أو ابنه رؤبة: [من الرجز]

كنتم كمن أدخل في جحرٍ يدا فإخطأ الأفعى ولاقى الأسود^(٢)

ثم قال:

* بالشَّم لا بالسَّم منه أقصدا *

وقال الآخر: [من البسيط]

أصمَّ ما شَمَّ من خضراءَ أيبسها أو مسَّ من حجرٍ أوهاه فانصدعا^(٣)

وقد حدَّثني الأصمعيُّ بفرق ما بين النَّكز^(٤) وغيره عند الأعراب^(٥).

وهنا أمثال نضربها، وأمور قد عاينتموها، يدلُّ بها هذا المعنى عندكم ويسهلُ بها المدخل. قولوا لنا: ما بالُ العجينِ يكون في أقصى الدار ويفلق إنسان بطيخة في أدنى الدار، فلا يفلح ذلك العجين أبداً ولا يختمر؟ فما ذلك الفاصل؟

وكيف تقولون بصدمةٍ كان ذلك كصدمة الحجر، أو بغرب كغرب السيف!! وكيف لم يعرض ذلك الفساد في كلِّ معجون هو أقربُ إليه من ذلك العجين.

وعلى أن نكز الحية التي يصفه الشعراء بأن المنكوز مَيَّت لا محالة، في سبيل ما حدَّثني به حاذقٌ من حذاق الأطباء، أن رجلاً يضرب الحية من دواهي الحيات بعصاه فيموت الضارب، لأنهم يرون أن شيئاً فصل من الحية فجرى فيها حتى داخل الضارب فقتله، والأطباء أيضاً والنصارى أجزاً على دفع الرؤيا والعين. وهذه الغرائب التي تُحكى عن الحيات وصرع الشيطان الإنسان، من غيرهم.

(١) تنكز: تلسع.

(٢) الرجز لرؤبة في ديوانه ١٧٣.

(٣) البيت ليحيى بن أبي حفصة في الشعر والشعراء ٤٨٢، والوحشيات ٨٧.

(٤) نكزت الحية: لسعت بفيها.

(٥) ثمة نقص هنا!.

فأما الدهرية فمنكرة للشياطين والجن والملائكة والرؤيا والرقي، وهم يرون أن أمرهم لا يتم لهم إلا بمشاركة أصحاب الجهالات.

وقد نجد الرجل ينقف شحم الحنظل^(١)، وبينه وبين صاحبه مسافة سالحة، فيجد في حلقه مرارة الحنظل، وكذلك السوس إذا عولج به وبينه وبين الإنسان مسافة متوسطة البعد، يجد في حلقه حلاوة السوس. وناقف الحنظل لا تزال عينه تهمل مادام ينقفه، ولذلك قال ابن حذام، قال أبو عبيدة: وهو الذي يقول: [من الطويل] كأنني غداة البين يوم تحمّلوا لذي سمرات الحي ناقف حنظل^(٢).

يخبر عن بكائه، ويصف درور دمعته في إثر الحمول، فشبّه نفسه بناقف الحنظل، وقد ذكره امرؤ القيس في قوله: [من الكامل]

عوجاً على الطلل القديم لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن خذام^(٣)
ويزعمون أنه أول من بكى في الديار.

وقد نجد الرجل يقطع البصل، أو يؤخف الخردل^(٤) فتدمع عيناه. وينظر الإنسان فيديم النظر في العين المحمرة فتعترى عينه حُمرة.

والعرب تقول: «لَهُو أَعْدَى مِنَ الثُّوبَاءِ!»^(٥)، كما تقول: «لَهُو أَعْدَى مِنَ الْجَرَبِ!»^(٥)، وذلك أن من ثأب مراراً، وهو تجاه عين إنسان، اعترى ذلك الإنسان التثاؤب.

ورأيت ناساً من الأطباء وهم فلاسفة المتكلمين، منهم معمر، ومحمد بن الجهم، وإبراهيم بن السندي، يكرهون دنو الطامث^(٦) من إناء اللبن لتسوطه^(٧) أو تعالج منه شيئاً، فكأنهم يرون أن لبدنها ما دام ذلك العرض يعرض لها، رائحة لها حدة وبخار غليظ، يكون لذلك المسوط مفسداً.

(١) شحم الحنظل: ما في جوفه سوى حبه.

(٢) البيت لامرؤ القيس من معلقته في ديوانه ٩. نقف الحنظل: شق الحنظل عن الهبيد، والهبيد: حب الحنظل.

(٣) ديوان امرؤ القيس ١١٤، واللسان والتاج (خدم)، وجمهرة اللغة ٥٨٠، والخزانة ٣٧٦/٤، وشرح المفصل ٧٩/٨.

(٤) أوخفه: صب عليه الماء.

(٥) المثل في المستقصى ٢٣٧/١، وجمهرة الأمثال ٦٧/٢، ومجمع الأمثال ٤٥/٢.

(٦) الطامث: الحائض.

(٧) ساط: خلط ومزج.

ولا تُبْعَدَنَّ هذا من قلبك تباعداً يدعوك إلى إنكاره، وإلى تكذيب أهله. فإنَّ أبيتَ إلاَّ إنكارَ ذلك، فما تقول في فرسٍ تحصَّن^(١) تحتَ صاحبه، وهو في وسط موكبه، وغبارُ الموكبِ قد حالَ بين استبانة بعضهم لبعض، وليس في الموكبِ حجرٌ ولا رمكة^(٢)، فيلتفتُ صاحبُ الحصانِ فيرى حجراً أو رمكة، على قابِ غرضٍ أو غرضين^(٣)، أو غلوة أو غلوتين^(٤). حدثني، كيف شمَّ هذا الفرس ريحَ تلك الفرسِ الأنثى، وما باله يدخل داراً من الدُّورِ، وفي الدَّارِ الأخرى حجراً، فيتحصَّن^(٥) مع دخوله من غير معاينة وسماعٍ سهيل !!

وهذا الباب سيقع في موضعه إن شاء الله تعالى.

وقال أبو سعيد عبد الملك بن قريب: كان عندنا رجلان يعينان الناس، فمرَّ أحدهما بحوضٍ من حجارة، فقال: تالله ما رأيت كاليوم قطاً فتطاير الحوض فلقين، فأخذه أهله فضببوه^(٦) بالحديد، فمرَّ عليه ثانية فقال: وأبيك لقلماً أضرتُّ أهلكَ فيك! فتطاير أربعَ فلقٍ.

قال: وأما الآخر، فإنه سمع صوتَ بولٍ من وراء حائط فقال: إنك لشرُّ الشَّخب^(٧)! فقالوا له: إنه فلانُ ابنك، قال: والانقطاع ظهراه! قالوا: إنه لا بأسَ عليه. قال: لا يبولُ والله بعدها أبداً! قال: فما بال حتى مات.

قال الأصمعي: ورأيتُ أنا رجلاً عيوناً فدُعي عليه فعور. قال: إذا رأيتُ الشيءَ يُعجبني، وجدتُ حرارةً تخرجُ من عيني.

قال: وسمع رجلٌ بقرةً تُحلبُ فأعجبه صوتُ شخبها^(٧)، فقال: أيتها هذه، فخافوا عينه فقالوا: الفلانية - لأخرى ورَّوا بها عنها - فهلكتا جميعاً: المورى بها والمورى عنها.

(١) تحصَّن: ظهر عليه ميل الفحولة.

(٢) الحجر والرمكة: أنثى الخيل.

(٣) الغرض: قدر رمية السهم إلى الهدف.

(٤) الغلوة: قدر ما تصل الرمية بالسهم.

(٥) تحصن: ظهر عليه ميل الفحولة.

(٦) ضببت الخشب ونحوه: ألبسته الحديد.

(٧) الشخب: الدم، أو ما خرج من الضرع من اللبن.

وقد حَمَلَ النَّاسُ كما ترى على العين ما لا يجوز، وما لا يسوغ في شيء من المجازات. وقولُ الذي اعورُ: إذا رأيتُ الشيءَ يعجبني وجدتُ حرارةً تخرج من عيني، من أعظم الحجج في الفاصل من صاحب العين إلى المعين.

قال: ويقال إنَّ فلاناً لَعَيون: إذا كان يتشَوَّف للناس ليصَيِّبهم بعين. ويقال عَنْتُ فلاناً أعينه عينا: إذا أصبته بعين، ورجل مَعين ومعيون: إذا أصيب بالعين. وقال عَبَّاسُ بنِ مردَاسٍ: [من الكامل]

قد كان قومك يحسبونك سيِّداً وإخال أنك سيِّدٌ مَعيون^(١)

ويقال للعيون: إِنَّه لَنفوسٌ، وما أنفسه، أي ما أشدَّ عينه، وقد أصابته نفس أو عين.

٣٥١ - [دفاع عن الكلب]

وأما قول القائل: إنَّ من لؤم الكلب وغدره أن اللصَّ إذا أراد دارَ أهله أطمعَ الكلبَ الذي يحرسهم قَبْلَ ذلك مراراً ليلاً ونهاراً، ودنا منه ومسح ظهره، حتى يثبت صورته، فإذا أتاه ليلاً أسلم إليه الدارَ بما فيها - فإن هذا التأويل لا يكون إلا من نتيجة سوء الرأي، فإنَّ سوءَ الرأي يصوِّر لأهله الباطلَ في صورة الحقِّ. وفيه بعض الظلم للكلب وبعض المعاندة للمحتجِّ عن الكلب، وقد ثبت للكلب استحقاق المدح من حيث أراد أن يهجوَه منه، فإن كان الكلبُ بفرطِ إلفه وشكره كفَّ عن اللصِّ عندَ ذكر إحسانه، وإثبات صورته، فما أكثرَ من يُفرطُ عليه الحياءُ حتَّى ينسب إلى الضَّعف والكرم وحتَّى ينسب إلى الغفلة، وربما شاب الرَّجُلُ بعضَ الفطنة ببعض التَّغافل، ليكون أتمَّ لكرمه، فإنَّ الفطنة إذا تمَّت منعت من أمورٍ كثيرة، ما لم يكن الخيم^(٢) كريماً والعرقُ سليماً.

وإنك أيُّها المتأوِّل، حينَ تكلف الكلبَ - مع ما قد عَجَّلَ إليه اللصُّ من اللطْف والإحسان - أن يتذكَّرَ نعمةً سالفة، وأن يحترس من خديعة المحسن إليه، مخافة أن يكون يريغ^(٣) بإكرامه سوءاً - لحسنُ الرأي فيه، بعيدُ الغاية في تفضيله.

(١) ديوان العباس بن مرداس ١٥٦، والخصائص ٢٦١/١، والوحشيات ٢٣٨، والحامسة البصرية ١٠/١، والأغاني ٣٤٢/٦، وأمالي ابن الشجري ١١١/١، وجمهرة اللغة ٩٥٦، واللسان (عين)، والمقاصد النحوية ٥٧٤/٤.

(٢) الخيم: السجية والطبيعة.

(٣) يريغ: يريد.

ولو كان للكلب آلة يعرف بها عواقب الأمور وحوادث الدهور، وكان يوازن بين عواجلها وأوجلها، وكان يعرف مصادرها ومواردها، ويختار أنقص الشرين وأتم الخيرين، ويتثبت في الأمور، ويخاف العيب ويأخذ بحجة ويعطي بحجة، ويعرف الحجة من الشبهة، والثقة من الريبة، ويتثبت في العلة، ويخاف زيف^(١) الهوى وسرف الطبيعة، لكان من كبار المكلفين ومن رؤوس الممتحنين .

٣٥٢ - [الموازنة بين الأشياء لدى العاقلين]

والعادة القائمة، والنسق الذي لا يتخطى ولا يغادر، والنظام الذي لا ينقطع ولا يختلط، في ذوي التمكين والاستطاعة، وفي ذوي العقول والمعرفة، أن أبدأهم متى أحسست بأصناف المكروه والمحبوب، وازنوا وقابلوا، وعأيروا وميزوا بين أتم الخيرين وأنقص الشرين، ووصلوا كل مضره ومنفعة في العاجل بكل مضره ومنفعة في الآجل وتتبعوا مواقعها، وتدبروا مساقطها، كما يتعرفون مقاديرها وأوزانها، واختاروا بعد ذلك أتم الخيرين وأنقص الشرين. فأما الشر صرفاً والخير محضاً فإنهم لا يتوقفون عندهما، ولا يتكلفون الموازنة بينهما، وإنما ينظرون في الممزوج وفي بعض ما يخشى في معارضته، ولا يوثق بمعراه ومكشفه، فيحملونه على خلاص الذهن، كما يحمل الذهب على الكير^(٢).

وأما ذوات الطباع المسخرة والغريزة المحبولة فإنما تعمل من جهة التسخير والتنبيه، كالسم الذي يقتل بالكمية ولا يغذو، وكالغذاء الذي يغذو ويقتل بالمجازة لمقدار الاحتمال.

وإن هياً الله عز وجل أصناف الحيوان المسخرة لدرك ما لا تبلغه العقول اللطيفة، بلغت غير معاناة ولا روية ولا توقف، ولا خوف من عاقبة.

ومتى تقدمت إلى الأمور التي يعالجها أهل العقول المبسوطه، المتمكنة بطبائعها، المقصورة غير المبسوطه، لم يمكنها أن تعرف من تلك الطبيعة ما كان موازياً لتلك الأمور ببديهة ولا فكرة. وإذا كانت كذلك فليس بواجب أن تكون كلما أحسنت أمراً أمكنها أن تحسن ما كان في وزنه في الغموض والإلطاف، وفي الصنعة التي لا تمكن، إلا بحسن التأني وبعيد الروية، وبمقابلة الأمور بعضها ببعض. وهذا الفن لا يصاب إلا عند من جهته العقل، ويمكنه الاستدلال، والكف عنه والقطع له

(١) الزيف: الميل.

(٢) الكير: رق ينفخ فيه الحداد.

إذا شاء، وإتمامه إذا شاء، وبلوغ غايته، والانصراف عنه إلى عقبيه من الأفعال، ومن جهته تعرف العليل، ويُمكنه إكراه نفسه على المقاييس والتكليف والتأني.

ومتى كانت الآلة موجودة فإنها تُنبئك على مكانها، وإلا كان وجودها كعدمها. وبالحس الغريزي تُشعر صاحبها بمكانها، لا يحتاج في ذلك إلى تلقين وإشارة، وإلى تعليم وتاديب، وإن كان صاحب الآلة أحمق من الحباري^(١)، وأجهل من العقرب^(٢)، والعامل الممكن لا يفضل في هذا المكان على الأشياء المسخرة، ولا ينفصل منها في هذا الباب.

٣٥٣ - [الإلهام في الحيوان]

وليس عند البهائم والسباع إلا ما صنعت له، ونصبت عليه، وألهمت معرفته وكيفية تكليف أسبابها والتعلم لها من تلقاء أنفسها. فإذا أحسن العنكبوت نسج ثوبه^(٣) وهو من أعجب العجب، لم يحسن عمل بيت الزنبور. وإذا صنع النحل خلاياه مع عجيب القسمة التي فيها، لم يحسن أن يعمل مثل بيت العنكبوت. والسُرْفَة - التي يقال: «أصنع من سُرْفَة»^(٤) لا تُحسن أن تُبني مثل بيت الأَرْضَة، على جفاء هذا العمل وغلظه، ودقة ذلك العمل ولطافته.

وليس كذلك العاقل وصاحب التمييز، ومن ملك التصرف، وخول الاستطاعة، لأنه يكون ليس بنجار فيتعلم النجارة، ثم يبدو له بعد الحدق الانتقال إلى الفلاحة. ثم ربما ملها بعد أن حدقها، وصار إلى التجارة.

٣٥٤ - [أسمح من لافظة]

وقال صاحب الكلب: وزعمت أن قولهم «أسمح من لافظة»^(٦) أن اللافظة الديك، لأنه يعرض على الحبة بطرفي منقاره. ثم يحذف بها قدام الدجاجة. وما رأينا

(١) المثل في المستقصى ٧٤/١، والدرة الفاخرة ١٣٣/١.

(٢) المثل في المستقصى ٥٨/١، ومجمع الأمثال ١٨٩/١، وجمهرة الأمثال ٣٣٤/١، والدرة الفاخرة ١٠٧/١.

(٣) الثوي: البيت.

(٤) المثل في مجمع الأمثال ٤١١/١، والمستقصى ١١٣/١، وأمثال ابن سلام ٣٦٣، وجمهرة الأمثال ٥٨٣/١.

(٥) خوله الشيء: ملكه إياه وأعطاه.

(٦) مجمع الأمثال ٣٥٣/١، والمستقصى ١٧١/١، وفصل المقال ٤٩٤، وجمهرة الأمثال ٥٣١/١، والدرة الفاخرة ٢٢٨/١.

أحداً من العلماء ومن الذين رووا هذا المثل يقول ذلك . والناسُ في هذا المثل رجلان :
 زعم أحدهما أن الالافظة العنز؛ لأن العنز ترعى في روضة وتاكل من معلفها وهي
 جائعة . فيدعوها الراعي وصاحبها باسمها إلى الحلب، فتترك ما هي فيه حتى تنهك
 حلباً، وقال الآخر: الالافظة الرحي، لأنها لا تمسك في جوفها شيئاً مما صار في بطنها .

وكيف تكون الالافظة الديك! وليس لنا أن نلحق في هذه الكلمة تاء التانيث
 في الأسماء المذكورة . والالافظة مع هاء التانيث أشبه بالعنز والرحي، وإنما سمينا
 الجمل راوية، وحامل العلم راوية، وعلامة، حين احتج أهل اللغة على ذلك ولم
 يختلفوا فيه، وكيف ولا اختلاف بينهم أن الديك خارج من هذا التأويل، وإن
 اختلافهم بين العنز والرحي .

وبعد فقد زعم ثمامة بن أشرس رحمه الله تعالى : أن ديكاً مرو تطرد الدجاج
 عن الحب، وتنزع الحب من أفواه الدجاج^(١) .

وقال صاحب الديك : قولهم : « أسمح من لافظة » لا يليق بالرحي، لأن الرحي
 صخرة صماء، والذي يخرج ما في بطنها المدير لها، والعرب إنما تمدح بهذه
 الأسماء الإنسان وما جرى مجراه في الوجوه الكثيرة، ليكون ذلك مشحذة للأذهان،
 وداعية إلى السباق وبلوغ الغايات

وأما ترك الشاة للعلف فليس بلفظ للعلف، إلا أن يحملوا ذلك على المجازات
 البعيدة، وقد يكون ذلك عند بعض الضرورة . والشاة ترضع من خلفها حتى تأتي على
 أقصى لبن في ضرعها، وتنثر العلف، وتقلب المحلب^(٢)، وتنطح من قام عليها وأتاها
 بغذائها . وهي من أموق^(٣) البهائم، وزوجها شتيم^(٤) المحييا، منتن الرياح، يبول في
 جوف فيه وفي حاق^(٥) خياشيمه .

وتقول العرب : « ما هو إلا تيس في سفينة »^(٦)، إذا أرادوا به الغباوة و« ما هو إلا
 تيس »، إذا أرادوا به تنن الرياح .

(١) انظر البخلاء ١٨، والعقد الفريد ٦ / ١٧٤، ومعجم البلدان (مرو)، وربع الأبرار ٥ / ٤٤٣ .

(٢) المحلب : إناء يحلب فيه .

(٣) الموق : الحمق .

(٤) الشتيم : الكريه الوجه .

(٥) حاق الشيء : وسطه .

(٦) هذا القول استخدمه أبو الشمقمق في هجاء بشار فقال :

هللينه هللينه طعن قنأة لتينه
 إن بشار بن برد تيس أعمى في سفينه

انظر الأغاني ٣ / ١٩٥، ٢٤٧، ونكت الهميان ١٢٦ .

والعنزُ خرقاءُ، وأبوها وهو التيسُ أخرقُ منها.

وأمرُ الديكِ وشأنه، وكيفَ يلفظُ ما قد صارَ في منقاره، وكيفَ يُؤثرُ به طرُوقته من ذاتِ نفسه - شيءٌ يراهُ الناسُ، ويراهُ جميعُ العبادِ .

وهذه المكرومة، وهذا الغزل، وهذا الإيثار^(١)، شيءٌ يراهُ الناسُ لم يكنْ في ذكرٍ قَطُّ ممنْ يزاولُ إلاَّ الديك، والديكُ أحقُّ بهذا المثل. فإنْ كنتمْ قد صدقتمْ على العربِ في تأويلِ هذا المثلِ فهذا غلطٌ من العربِ وعصبيةٌ للبن، وعشقٌ للدقيق.

والمثلُ إنما يلفظُ به رجلٌ من الأعراب، وليس الأعرابيُّ بقُدوةٍ إلاَّ في الجرِّ والنصبِ والرفعِ وفي الأسماءِ، وأما غير ذلك فقد يخطئُ فيه ويصيبُ فالديكُ أحقُّ بهذا المثلِ الذي ذكرنا، وسائرُ خصاله الشريفة.

والذي يدلُّ على أنَّ هذا الفعلُ في الديك، إنما هو من جهة الغزل لا غير، أنه لا يفعلُ ذلك إذا هريمٌ وعجزَ عن السِّفاد، وانصرفت رغبته عنهنَّ وهو في أيامِ شبابه أنهم وأحرصُ على المأكول، وأضنُّ على الحبِّ، فما له لم يُؤثرهنَّ به عندَ زهده، ويؤثرهنَّ عند رغبته؟! وما بأله لم يفعل ذلك وهو فروجٌ صغير، وصنع ذلك حين أطاق السِّفاد؟! فتركه لذلك في العجز عنهنَّ، وبذله في أوقات القوة عليهنَّ دليل على الذي قلنا، وهذا بين لا يردهُ إلاَّ جاهلٌ أو معاند.

٣٥٥ - [دفاع عن الكلب]

وقال صاحب الكلب: لسنا نُنكرُ خصالَ الديكِ ومناقبه من الأخبارِ المحمودة، ولولا ذلك ما ميَّلنا^(٢) بينه وبين الكلب. ومن يميلُ بين العسلِ والنخلِ في وجه الحلاوة والحموضة؟! وكيف يفضّلُ شيءٌ على شيءٍ وليس في المفضولِ شيءٌ من الفضل؟! والذي قلتم من قدِّه الحبِّ قُدَّامَ الدجاجِ صحيح. وليس هذا الذي أنكرنا، وإنما أنكرنا موضعَ المثلِ الذي صرفتموه إلى حجَّتكم، وتركتم الذين ما زال الناسُ يقلِّدونهم في الشاهد والمثل. وإن جاز لكم أن تردُّوا عليهم هذا المثلَ جاز لكلِّ من كرهَ مثلاً أو شاهداً أن يردَّ عليهم كما رددتم، وفي ذلك إفسادُ أمرِ العربِ كله.

فإن زعمتَ أنَّ الديك، كانَ أحقَّ به، فخصومك كثيرٌ ولسنا نحيط بأوائل

(١) من الامثال قولهم: «أسخى من ديك»، والمثل في المستقصى ١/١٥٩، والدرة الفاخرة ١/٢١٨.

(٢) ميَّل بين الشيئين: رجع ووازن.

كلامهم، على أيِّ مقاديرَ كانوا يضعونها، ومن أيِّ شيء اشتقُّوها، وكيف كان السبب. ورُبَّ شيءٍ أنكرناه فإذا عرفنا سببه أقررنا به.

وقال أبو الحسن: مرَّ إياسُ بنُ معاويةَ بديك ينقرُ حبًّا ولا يفرِّقه، فقال: ينبغي أن يكون هذا هرمًا، فإنَّ الهرمَ إذا ألقى له الحبُّ لم يفرِّقه ليجتمع الدجاجُ حوله. والهرمُ قد فنيته رغبته فيهنَّ، فليس همَّةٌ إلا نفسه.

وروا عنه أنَّه قال: اللافظة الديك الشابُّ، وإنَّه يأخذ الحبةَ يؤثر بها الدجاجَ، والهرمُ لا يفعل ذلك، وإنَّما هو لافظةٌ مادام شابًّا.

وقال صاحب الكلب: وذكر ابن سيرين عن أبي هريرة: «أن كلباً مرَّ بامرأةٍ وهو يلهثُ عند بئر، فنزعتُ خُفَّها فسقته، فغفَّرَ اللهُ تعالى لها»^(١).

وعنه قال: «غفَّرَ اللهُ لبيغيُّ أو لمؤمنة مرَّ بها كلبٌ فنزعتُ خُفَّها فسقته»^(٢).

وقال صاحب الكلب: وقال ابن دأحة: ضرب ناسٌ من السُّلطاء جارا لهم، ولببوه وسحبوه وجروه،، وله كلبٌ قد رباه، فلم يزلُ ينبحُ عليهم ويشقُّ ثيابهم، ولولا أنَّ المضروبَ المسحوبَ كان يكفُّه ويزجره، لقد كان عقر بعضهم أو منعه منهم.

قال إبراهيمُ النُّظَّام: قدَّمتم السنورَ على الكلب، ورويتم أن النبيَّ ﷺ أمرَ بقتل الكلاب واستحياء السنابير وتقريبها وتربيتها، كقوله عند مسألته عنها: «إنَّهنَّ من الطَّوَأَفَاتِ عَلَيْكُمْ»^(٣). وكلُّ منفعة عند السنورِ إنَّما هي أكلُ الفأرِ فقط، وعلى أنكم قلَّما تجدون سنورا يطلُبُ الفأرَ، فإن كان مما يطلُبُ ويأكلُ الفأرَ، لم يعدمكم أن يأكلَ حمامكم وفراخكم والعصافير التي يتلهَّى بها أولادكم، والطائر يتخذُ لحسنه وحسنِ صوته. والذي لأبَدٍ منه الوثوبُ على صغار الفرائج. فإن هو عَفَّ عن أموالكم

(١) أخرج البخاري في المساقاة برقم ٢٢٣٤ (عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فنزل بئرا فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملا خفه ثم أمسكه بفيه، ثم رقي فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له)، وأعاد البخاري في المظالم برقم ٢٣٣٤، وفي الأدب برقم ٥٦٣، وأخرجه مسلم في السلام برقم ٢٢٤٤.

(٢) أخرج البخاري في بدء الخلق برقم ٣١٤٣ (عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: غفر لامرأة مومسة مرَّت بكلب على رأس ركي يلهث، قال: كاد يقتله العطش، فنزعت خفها، فاثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغفر لها بذلك)، وأخرج في الأنبياء برقم ٣٢٨٠ حديثاً مثله، وأخرجه مسلم في السلام برقم ٢٢٤٥.

(٣) مسند أحمد ٢٩٦/٥، وأبو داود في الطهارة ١/١٩، والترمذي في الطهارة ١/١٥٤.

لم يَعْفَ عَنَ أُمُوالِ جِيرانِكُمْ، وَمَنافِعِ الكَلبِ لا يَحْصِيها الطَّواميرُ^(١). والسَّنورُ مع ذلك يَأْكُلُ الأوزاعَ والعقاربَ، والخنافيسَ، وبناتِ وَرْدانٍ^(٢)، والحياتِ، ودخالاتِ الأذانِ^(٣) والفارَ والجُرذانِ، وكلَّ خبيثةٍ وكلَّ ذاتِ سَمٍّ، وكلَّ شيءٍ تعافه النفسُ. ثمَّ قَلتُمْ في سَورِ السَّنورِ وسَورِ الكَلبِ ما قَلتُمْ. ثمَّ لم تَرْضوا به حَتَّى أضفتموه إلى نَبِيِّكُمْ ﷺ !!

٣٥٦ - [أطيب البهائم أفواهاً]

ولا يَشْكُ الناسُ أنْ ليسَ في السَّباعِ أَطيبُ أفواهاً مِنَ الكلابِ^(٤)، وكذلك كُلُّ إنسانٍ سائِلُ الرِيقِ سائِلُ اللعابِ. والخُلوفُ^(٥) لا يَعرِضُ للمجانينَ الذينَ تَسيلُ أفواهِهمُ. وَمَن كانَ لا يَعتَربُه الخُلوفُ فهو مِنَ البَحرِ أبعَدُ. وكَما أنَّ طَولَ انطباقِ الفمِ يُورِثُ الخُلوفَ. فَكَثَرةُ تحلُّبِ الأفواهِ بالرِيقِ تنفي الخُلوفَ. وحَتَّى إنَّ مَن سالَ فُوهَ مِنَ اللعابِ فإنَّما قَضوا لَه بِالسَّلامَةِ مِن فيه، وإنَّ اسْتَنكَهوه مَعَ أشباهه وَجَدُوهُ طَيِّباً، وإنَّ كانَ لا يَقْرَبُ سِواكَاَ عَلى الرِيقِ. وكَذلكَ يُقالُ، إنَّ أَطيبَ النَّاسِ أفواهاً الزُّنْجُ، وإنَّ كانَتِ لا تَعرِفُ سُنُوناً^(٦) ولا سِواكَاَ.

عَلى أنَّ الكَلبَ سَبُعٌ، وسَباعُ الطَيرِ وذِواتُ الأَربَعِ موصُوفَةٌ بِالبَحرِ، والذي يَضْرِبُ به في ذلكَ المِثْلَ الأَسَدُ، وَقَد ذَكَرَهُ الحَكَمُ بنَ عَبدلِ في هِجائِهِ مُحَمَّدَ بنَ حَسانٍ فَقالَ: [مِن الوافرِ]

فَنكَّهتُه كَنكَّهَةَ أَخْدرِيٍّ شَتيمِ شابِكِ الأَنْيابِ وَرَدٍ^(٧)

وقال بِشَّارٌ: [مِن الطويلِ]

وَأَفْسَى مِنَ الظُّرْبانِ في لَيلَةِ الكَرى وَأَخْلَفُ مِنَ صَقَرٍ وإنَّ كانَ قَد طَعِمَ^(٨)
يَهجو بِها حَمادٌ عَجْرَدَ.

(١) الطوامير: جمع طومار، وهو الصحيفة.

(٢) بنات وردان: دويبة تتولد في الأماكن الندية، وهي تألف الحشوش، أي النخل. حياة الحيوان ٤٢٩/٢.

(٣) دخال الأذن: دويبة ذات قوائم كثيرة، تسمى «أم أربعة وأربعين».

(٤) رسائل الجاحظ ١/٢١٥ «فخر السودان على البيضان».

(٥) الخلوف: تغير رائحة الفم.

(٦) السنون: ما يستاك به من دواء مؤلف لتقوية الأسنان وتطريتها.

(٧) البيت للحكم بن عبدل في الأغاني ٢/٤١٣، والبرصان ١٠٧.

(٨) ديوان بشار ٤/١٩٣.

ويقال : ليس في البهائم أطيب أفواهاً من الطباء .

٣٥٧ - [رضيعٌ ملهمٌ]

وزعم علماء البصريين، وذكر أبو عبيدة النحوي، وأبو اليقظان سُحيم بن حفص، وأبو الحسن المدائني، وذكر ذلك عن محمد بن حفص عن مسلمة بن محارب، وهو حديثٌ مشهورٌ في مشيخة أصحابنا من البصريين، أن طاعوناً جارفاً جاء على أهل دار، فلم يشك أهل تلك المحلة أنه لم يبق فيها صغير ولا كبير، وقد كان فيها صبي يرتضع، ويحبو ولا يقوم على رجليه، فعمد من بقي من المطعونين من أهل تلك المحلة إلى باب تلك الدار فسده، فلما كان بعد ذلك بأشهر تحول فيها بعض ورثة القوم، ففتح الباب، فلما أفضى إلى عرصة الدار إذا هو بصبي يلعب مع أجراء كلبة، وقد كانت لأهل الدار، فراعته ذلك، فلم يلبث أن أقبلت كلبة كانت لأهل الدار، فلما رآها الصبي حبا إليها، فأمكنته من أطبائها فمصها، فظنوا أن الصبي لما بقي في الدار وصار منسياً واشتد جوعه، ورأى أجراءها تستقي من أطبائها، حبا إليها فعطفت عليه، فلما سقته مرةً أدامت ذلك له، وأدام هو الطلب .

والذي ألهم هذا المولود مص إبهامه ساعةً يؤلّد من بطن أمه، ولم يعرف كيفية الارتضاع، هو الذي هداه إلى الارتضاع من أطباء الكلبة . وكو لم تكن الهداية شيئاً مجعولاً في طبيعته، لما مص الإهَام وحلمة الثدي، فلما أفرط عليه الجوع واشتدت حاله، وطلبت نفسه وتلك الطبيعة فيه، دعت تلك الطبيعة وتلك المعرفة إلى الطلب والدنو، فسبحان من دبر هذا وألهمه وسواه ودل عليه!!

٣٥٨ - [إلهام الحمام]

ومثل هذا الحديث ما خبر به عن بابويه صاحب الحمام . ولو سمعت قصصه في كتاب اللصوص، علمت أنه بعيد من الكذب والتزويد . وقد رأيتُه وجالسته ولم أسمع هذا الحديث منه، ولكن حدثني به شيخ من مشايخ البصرة، ومن النزول بحضرة مسجد محمد بن رغبان . وقال بابويه : كان عندي زوج حمام مقصوص، وزوج حمام طيار، وفرخان من فراخ الزوج الطيار . قال : وكان في العرصة ثقب في أعلاها وقد كنت جعلت قدام الكوة^(١) رقاً ليكون مسقطاً لما يدخل ويخرج من الحمام، فتقدمت في ذلك مخافة أن يعرض لي عارض فلا يكون للطيار منفذ للتكسب ولورود الماء . فبينما أنا كذلك إذ جاءني رسول السلطان، فوضعتني في

(١) الكوة: الخرق في الحائط، والثقب في البيت ونحوه .

الحبس، فنسيت قدر الزوج الطيَّار والفرخين. وما لهما من الثمن، وما فيهما من الكرم، ومَتَّ من رَحمة الزوج المقصوص، وشغلني الاهتمامُ بهما عن كثير مما أنا فيه، فقلت: أُمَّا الزَّوْجُ الطَّيَّارُ فَإِنَّهُمَا يَخْرُجَانِ وَيَرْجِعَانِ وَيَزُقَّانِ، وَلَعَلَّهُمَا أَنْ يَسْلَمَا وَلَعَلَّهُمَا أَنْ يَذْهَبَا - وقد كنتُ ربيتهما حتى تحصَّنا ووردًا^(١) - فإذا شبَّ الفرخان ونهضا مع أبيهما، وسقطا على المعلاة، فإمَّا أن يثبُتا وإمَّا أن يذهبا، ولكنَّ كيف يكونُ حالُ المقصوصين، ومن أسوأ حالاً منهما؟! فَخُلِّي سَبِيلِي بَعْدَ شَهْرٍ، فلم يكن لي همٌّ إلا النَّظَرُ إِلَى مَا خَلَّفْتُ خَلْفِي مِنَ الْحَمَامِ، وَإِذَا الْفَرَّخَانُ قَدْ ثَبَّتَا وَإِذَا الزَّوْجَانُ قَدْ ثَبَّتَا، وَإِذَا الزَّوْجَانِ الطَّيَّارَانِ ثَبَّتَا عَلَى حَالِهِمَا، إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُهُمَا زَائِقَيْنِ، إِذْ عَلِمْتُ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِ الْغَيْبِ، وَفِي الْقَرِطَمَتَيْنِ^(٢)، وَفِي أَصُولِ الْمَنَاقِيرِ، وَفِي عَيُونِهِمَا، فَقُلْتُ: فَكَيْفَ يَكُونَانِ زَائِقَيْنِ مَعَ اسْتِغْنَاءِ فَرَخَيْهِمَا عَنْهُمَا؟! وَلَا أَشْكُ فِي مَوْتِ الْمَقْصُوصِينَ. ثُمَّ دَخَلْتُ الْغُرْفَةَ فَإِذَا هُمَا عَلَى أَفْضَلِ حَالٍ، فَاشْتَدَّ تَعْجُجِي مِنْ ذَلِكَ، فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ دَنَوْتُ إِلَى أَفْوَاهِ الزَّوْجِ الْكِبَارِ يَصْنَعَانِ كَمَا يَصْنَعُ الْفَرَّخُ فِي طَلْبِ الزَّقِّ، وَرَأَيْتُهُمَا حِينَ زَقَّاهُمَا، فَإِذَا هُمَا لَمَّا اشْتَدَّ جُوعُهُمَا، وَكَانَا يَرِيَانَهُمَا يَزُقَّانِ الْفَرَّخَيْنِ وَيَرِيَانِ الْفَرَّخَيْنِ كَيْفَ يَسْتَطْعِمَانِ وَيَسْتَزِقَّانِ، حَمَلَهُمَا الْجُوعُ وَحُبُّ الْعَيْشِ، وَتَلَهَّبَ الْعَطَشُ، وَمَا فِي طَبْعِهِمَا مِنَ الْهَدَايَةِ، عَلَى أَنْ طَلَبَا مَا يَطْلُبُ الْفَرَّخُ، فَزَقَّاهُمَا ثُمَّ صَارَ الزَّقُّ عَادَةً فِي الطَّيَّارِ، وَالِاسْتَطْعَامُ عَادَةً فِي الْمَقْصُوصِ.

٣٥٩ - [من عجائب الحمام]

ومن الحمام حمامٌ يزُقُّ فراخه ولا يزُقُّ شيئاً من فراخ غيره، وإن دنا منه مع فراخه فرخٌ من فراخ غيره، وشاكل فرخيه في السنِّ واللون طردهما ولم يزقهما، ومن الحمام ما يزُقُّ كلَّ فرخ دنا منه، كما أن من الحمام حماماً لا يزُقُّ فراخه البتة حتى يموت. وإنما تعظم البلية على الفرخ إذا كان الأب هو الذي لا يزُقُّ، لأنَّ الولادة وعمامة الحضن والكفل على الأم، فإذا ظهر الولد فعمامة الزَّقِّ على الأب، كأنه صاحب العيال والكاسب عليهم، وكالأم التي تلد وترضع.

٣٦٠ - [كاسر العظام]

وأعجب من هذا، الطائر الذي يقال له كاسر العظام^(٣)، فإنه يبلغ من برِّ الفراخ

(١) وردت الشجرة: إذا خرج نورها، واستخدم الجاحظ الكلمة بمعنى اكتملا نمواً.

(٢) قرطمتا الحمام: نقطتان على أصلي منقاره، أي أعلاه.

(٣) كاسر العظام: طائر من سباع الطير بين النسر والعقاب، يحمل كل عظم فيه مخ، حتى إذا كان في كبد السماء أرسله على صخرة فينكسر، فيهبط فيأكل مخه. انظر معجم الحيوان ١٤٣-١٤٥.

كأها بعد القيَام بشأن فراخ نفسه، أنه يتعاهد فرخ العُقَاب الثالث، الذي تخرجه من عُشِّها، لأنها أشره وأرغبُ بطناً، وأقسى قلباً وأسوأ خلقاً من أن تحتَمِلَ إطعامَ ثلاثة.

وهي مع ذلك سريعة الجَزَع، فتخرج ما فَضَّلَ عن فرخين. فإذا أخرجته قبله كاسرُ العظام وأطعمه، لأن العُقَاب من اللائي تبيض ثلاث بيضات في أكثر حالاتها.

٣٦١ - [دفاع أسدي عن أكل قومه لحوم الكلاب]

قال: وعير رجل من بني أسد بأكل لحوم الكلاب، وذهب إلى قوله: [من الرجز]

يا فقَعَسِي لِمَ أَكَلْتَهُ لِمَهْ
لو خافك الله عليه حرمة^(١)

فَمَا أَكَلْتَ لِحْمَهُ وَلَا دَمَهُ

قال: فقال الأعرابي: أما علمت أن الشدة والشجاعة، والبأس والقوة من الحيوان، في ثلاثة أصناف: العقاب في الهواء، والتمساح في ساكن الماء، والأسد في ساكن الغياض.

وليس في الأرض لحم أشهى إلى التمساح ولا إلى الأسد من لحم الكلب. فإن شئتم فعدوه عدواً لهما، فإنهما يأكلانه من طريق الغيظ وطلب الثأر، وإن شئتم فقولوا غير ذلك.

٣٦٢ - [بنو أسد أشبه بالأسد]

وبنو أسد أسد الغياض^(٢)، وأشبه شيء بالأسد، فلذلك تشتهي من اللحمان أشهاها إلى الأسد. والدليل على أنهم أسد، وفي طباع الأسد، أنك لو أحصيت جميع القتلى من سادات العرب ومن فرسانهم، لوجدت شطرها أو قريباً من شطرها لبني أسد.

٣٦٣ - [أنفة الكلب]

قالوا: ثم بعد ذلك كله أن الكلب لا يرضى بالنوم والرُبُوض على بياض الطريق، وعلى عفر التراب، وهو يرى ظهراً البساط، ولا يرضى بالبساط وهو يجد الوسادة، ولا يرضى بالمطارح دون مرافق المطارح^(٣) فمن نُبله في نفسه أن يتخير أبداً أنبل موضع

(١) الرجز لسالم بن دارة في اللسان (روح، لوم)، وبلا نسبة في البخلاء ٢٣٤، والمقاصد النحوية ٥٥٥/٤، والمخصص ٤/٣، والإنصاف ٢٩٩.

(٢) في العمدة ١٩٤/٢ «الأزد أسد البأس»، وفي شذرات الذهب ٩٤/١ «الأزد أساس الناس».

(٣) المطارح: جمع مطرح؛ وهو المفرش.

في المجلس، وحيث يدعُه ربُّ المجلس صيانةً له وإبقاءً عليه - إلا أن يتصدَّر فيه من لا يجوز إلا أن يكون صدرًا، فلا يقصِّر الكلب دون أن يرقى عليه.

وقد كان في حُجج معاوية في اتخاذ المقصورة بعد ضرب البرك إياه بالسيف، أنه أبصر كلباً على منبره.

هذا على ما طُبِع عليه من إكرام الرَّجُل الجميل اللباس، حتَّى لا ينبح عليه إن دنا من باب أهله، مع الوُثوب على كل أسود، وعلى كل رث الهيئة، وعلى كل سفیه تشبه حاله حال أهل الريبة.

ومن كبره وشدة تجبره، وفرط حميته^(٣) وأنفته واحتقاره. أنه متى نبح على رجل في الليل، ولم يمنعه حارسٌ ولم يمكنه الفوت، فدواؤه عند الرجل أنه لا ينجيهِ منه إلا أن يقعد بين يديه مستخزياً مستسلماً، وأنه إذا رآه في تلك الحال دنا منه فشعر^(٣) عليه؛ ولم يهجه، كأنه حين ظفر به، ورآه تحت قدرته، رأى أن يسمه بميسم دُل، كما كانت العرب تجز نواصي الأسرى من الفُرسان، إذا رامت أن تخلي سبيلها وتمنَّ عليها، ولو كفَّ العربي عن جز ناصيته، لوسمه الأسير من الشعر والقوافي الخالدات البواقِي، التي هي أبقى من الميسم، بما هو أضرُّ عليه من جز ناصيته، ولعلُّه لا يبلغُ أهله حتَّى تستوي مع سائر شعر رأسه، ولكن دُلَّ الجز لا يزال يلوح في وجهه، ولا يزال له أثر في قلبه.

٣٦٤ - [رأي في الكلب]

وذكر أن مطرف بن عبد الله كان يكره أن يقال للكلب اخساً، وما أشبه ذلك، وفي دعائه على أصحاب الكلب الذي كان أربابه لا يمنعون من دخول مُصلاًه، قال: اللهم امنعهم بركة صيده!! دليل على حسن رأيه فيه.

قالوا: ومرَّ المسيحُ بن مريم في الحواريين بجيفة كلب، فقال بعضهم: ما أشدَّ نتن رِيحه! قال: فهلاً قلت: ما أشدَّ بياض أسنانه!!

قالوا: وقال رجلٌ لكلب: اخساً، ويُنك! فقال همَّام بن الحارث: الويلُ لأهل النَّار.

٣٦٥ - [هراش الحيوان]

والهراش الذي يجري بينها وهو شرٌّ، يكون بين جميع الأجناس المتَّفقة،

(١) الحمية: الأنفة.

(٢) شغر: رفع رجله فبال.

كالبرذون والبرذون، والبعير والبعير، والحمار والحمار، وكذلك جميع الأجناس، فأماً الذي يفرط ويتم ذلك فيه، ويتمتع ناس من الناس، ويقع فيه القمار، ويتمتع لذلك، وينفق عليه، ويغالي به، فالكلب والكلب، والكبش والكبش، والديك والديك، والسُماني والسُماني^(١).

فأماً الجرذ فإنه لا يقاتل الجرذ حتى يشد رجل أحدهما في طرف خيط، ويشد الجرذ الآخر بالطرف الآخر، ويكون بينهما من المساواة والالتقاء، والعض والخمش، وإراقة الدم وفري الجلود، ما لا يكون بين شيئين من الأنواع التي يهارش بها. والذي يحدث للجرذان طبيعة القتال، الرباط نفسه، فإن انقطع الخيط وانحل العقد، أخذ هذا شرقاً وهذا غرباً، ولم يلتقياً أبداً.

وإذا تقابلت جحرة^(٢) الفأر، وخلا لها الموضع، فبينها شر طويل، ولكنه لا يعدو الوعيد والصخب، ولا يلتقي منهما اثنان أبداً...

وحدثني ثمامة بن أشرس قال: كان بقي في الحبس جحر فأر، وتلقاه جحر آخر، فبرى لكل واحد منهما وعيداً وصباحاً ووثوباً، حتى يظن أنهما سيلتقيان ثم لا يحتجزان حتى يقتل كل واحد منهما صاحبه. فبينما كل واحد منهما في غاية الوعيد. إذ مر هارياً حتى دخل جحره، فما زالا كذلك، حتى أتى الله تعالى بالفرج وخلي سبيلي.

٣٦٦ - [الكلاب السلوقية أجود شماً]

وزعم أن السلوقية الطويلة المناخر أجود شماً، والشم العجيب والحس اللطيف من ذلك، إلا أن ذلك في طلب الذكور للإناث والإناث للذكور خاصة. وأما شم المأكول، واسترواح الطعم، فللسباع في ذلك ما ليس لغيرها. وإن الفأر ليس شم، وإن الذر والنمل ليس شم، وإن السنانير لتشم، وكذلك الكلب، وله في ذلك فضيلة، ولا يبلغ ما يبلغ الذئب وقال أعرابي: [من الرجز]

كان أبو الصّحيم من أربابها صبّ عليه الله من ذئابها
أطلس لا ينحاش من كلابها يلتهم الطائر في ذهابها
في الجرية الأولى فلا مشى بها

ألا تراه يجتهد في الدعاء عليها بذئب لا ينحاش من الكلاب.

(١) السمانى: على وزن الحبارى: طائر يلبد بالارض ولا يكاد يطير إلا ان يطار، ويسمى قتيل الرعد؛ من أجل أنه إذا سمع الرعد مات. حياة الحيوان ١/٥٦٣.

(٢) الجحرة: جمع جحر.

باب

مَا يُشَبَّهُ بِالْكَلْبِ وَلَيْسَ هُوَ مِنْهُ

٣٦٧ - [تشبيه قوائم الفرس بقوائم الكلب]

وإذا جرى الفرس المحجَّل شَبَّهوا قوائمه بقوائم الكلب إذا ارتفعت في بطنه،
فيصير تحجيلها كأنه أكلبٌ صغارٌ تعدو، كما قال العُمانيُّ: [من الرجز]

كَأَنَّ تَحْتَ الْبَطْنِ مِنْهُ أَكْلَبًا بِيضًا صِغَارًا يَنْتَهَشْنَ الْمَنْقَبَا^(١)

وقال البدريُّ: [من الرجز]

كَأَنَّ أَجْرَاءَ كِلَابٍ بِيضٍ دُونَ صِفَاقِيهِ إِلَى التَّغْرِيبِ^(٢)

وقال الآخر: [من الرجز]

كَأَنَّ قِطًّا أَوْ كِلَابًا أُرْبَعًا دُونَ صِفَاقِيهِ إِذَا مَا ضَبَعَا^(٣)

ويصفون الطَّلْعَ أَوَّلَ مَا يَبْدُو صِغَارًا بِأَذَانِ الْكِلَابِ الْبِيضِ. وقال في ذلك الرَّاجِزُ:

[من الرجز]

أُنْعَتُ جُمَارًا عَلَى سَحِيضٍ يَخْرِجُ بَعْدَ النَّجْمِ وَالتَّبْعِيضِ

طَلْعًا كَأَذَانِ الْكِلَابِ الْبِيضِ

وَيُوصَفُ صَوْتُ الشَّخْبِ^(٤) فِي الْإِنَاءِ بِهَرِيرِ هِرَاشِ الْكِلَابِ.

وقال أعرابيُّ: [من الرجز]

كَأَنَّ خَلْفِيهَا إِذَا مَا هَرَأَ جَرَوًا كِلَابٍ هُورِشًا فَهَرَأَ^(٥)

(١) البيتان في ديوان المعاني ١١٤/٢، وطبقات ابن المعتز ١١٠، والفاضل ٤٥، والشعر والشعراء ٤٧٦.

(٢) الصفاق: جلد البطن.

(٣) ضبع: أسرع، الضبع: العضد.

(٤) الشخب: ما خرج من الضرع من اللبن.

(٥) الرجز بلا نسبة في اللسان والتاج وأساس البلاغة (هرش)، والمقاييس ١٦٨/٢، وتهذيب اللغة ٧٩/٦.

وقال الآخر: [من الرجز]

كأنَّ صوتَ شَحْبِهَا المسحَنفِرِ بينَ الأباهيمِ وبينَ الخنْصِرِ^(١)
هَراشُ أجْراءٍ ولما تُثَغِرِ^(٢)

وقال أبو دُوَادٍ: [من الهزج]

طَوِيلٌ طامِحِ الطَّرْفِ إلى وَهْوَهِ الكَلْبِ^(٣)

٣٦٨ - [ابن وَوَوْو]

وزعم الهيثم بن عدي قال: كان رجل يُسَمَّى كلباً، وكان له بُنْيٌ يَلْعَبُ في الطريق، فقال له رجلٌ: ابن مَنْ؟ فقال: ابن وَوَوْو وَوَوْو^(٤)!

٣٦٩ - [مايستحبُّ في ذنبِ كلبِ الصيدِ]

ويحبُّونَ أن يكونَ ذنْبُ الكَلْبِ الصَّائِدِ يابِساً، ليس له من اللحمِ قليلٌ ولا كثير، ولذلك قال: [من الرجز]

* تلوي بأذنانِ قليلاتِ اللَّحَا^(٥) *

وقال الشاعر: [من البسيط]

إِنِّي وَطَلَبَ ابنِ غَلَّاقٍ ليقْرِيَنِي

كالغابطِ الكَلْبِ يبغي الطَّرْقَ في الذَّنْبِ^(٦)

الطَّرْقُ: الشحمُ اليسيرُ، يقال: ليس به طَرْقٌ.

(١) المسحنفر: الكثير الغزير. الأباهيم: جمع إبهام.

(٢) تثغر: تبدو أسنانها. ولعلها «تثغر»؛ أي ترفع إحدى رجليها حين البول.

(٣) ديوان أبي دُوَادٍ ٢٨٨، واللسان والتاج (طمح)، والتهديب ٤/٤٠١، والأضداد لابن الأنباري ٣٠٥، والمعاني الكبير ١٢٠، والأمال ٢/٢٥٠، وفي التنبيه للبكري ١٢٦ (هذا الشعر ليس لابي دُوَادٍ ولا وقع في ديوانه، وإنما هو لعقبة بن سابق الهزاني)، قلت: انظر قصيدة عقبة بن سابق في الأصمعيات رقم ٩.

(٤) الخبير في البيان والتبيين ١/٦٤.

(٥) البيت من أرجوزة تقدمت في الفقرة (٢٩٢).

(٦) البيت بلا نسبة في اللسان (غبط، غلق، أتى)، والتاج (غبط)، والمقاييس ١/٥٠، ٤/٤١٠، والمجمل ٤/٣١، والعين ٥/٩٩، ٨/١٤٥، والمخصص ٨/٤، ١٤/١٣٣، ١٧/٢٤، والتهديب ٨/٥٩، ١٤/٣٥٠، والجمهرة ٣٥٨، وإصلاح المنطق ٢٣٩، والمعاني الكبير ٢٤٣. الغابط: الذي يجس الحيوان ليعرف سمنه من هزاله.

٣٧٠ - [طيب لحم أجراء الكلاب]

ويقال: ليس في الأرض فرخٌ ولا جروٌ ولا شيءٌ من الحيوان أسمنَ ولا أرطبَ ولا أطيّبَ من أجراء الكلب. وهي أشبهُ شيءٍ بالحمام، فإنَّ فراخَ الحمام أسمنٌ شيءٌ مادامت صغاراً من غير أن تسمنَ، فإذا بلغتْ لم تقبل الشحم، وكذلك أولادُ الكلاب.

وقال الآخر: [من البسيط]

وَاعْضَفِ الْأَذْنَ طَاوِي الْبَطْنِ مُضْطَمِرٍ لَوْهُوهِ رَذِمِ الْخَيْشُومِ هَرَّارٍ^(١)

الأصمعيّ قال: قال أعرابيٌّ: أصابتنا سنةٌ شديدة، ثم أعقبتهَا سنةٌ تتابعُ فيها الأمطارُ فسمنت الماشية، وكثرت الألبان والأسمان، فسمنَ ولدان الحي، حتّى كأنَّ است أحدهم جرو يتمطى!

٣٧١ - [تدرج أبي دلامة في طلبه]

أبو الحسن قال^(٢): قال أبو العباس أمير المؤمنين لأبي دلامة: سل! قال: كلباً. قال: ويملك! ما تصنع بالكلب؟! قال: قلت أصيدُ به. قال: فلك كلب. قال: ودابةٌ. قال: ودابةٌ. قال: وغلاماً يركب الدابة ويصيد. قال: وغلاماً. قال: وجارية. قال: وجارية. قال: يا أمير المؤمنين! كلبٌ وغلامٌ وجاريةٌ ودابةٌ، هؤلاء عيال، ولا بدُّ من دار. قال: ودار. قال: ولا بدُّ لهؤلاء من غلّة ضيعة. قال: أقطعناك مائةً جريبٍ عامرةً ومائةً جريبٍ غامرة. قال: وأيُّ شيء الغامرة؟ قال: ليس فيها نبات. قال: أنا أقطعك خمسمائةً جريبٍ من فيافي بني أسد غامرة. قال: قد جعلنا لك المائتين عامرتين كلُّها، ثمَّ قال: أبقِي لك شيء؟ قال: نعم، أقبل يدك. قال: أمّا هذه فدعها. قال: ما منعت عيالي شيئاً أهون عليهم فقدأ منه؟!^(٣)

(١) البيت بلا نسبة في البرصان ١٩٦.

الأعضف: المنكسر الأذن. المضطمر: المهزول الضامر البطن. الوهوه: الكلب في صوته جزع. رذم الخيشوم: سائله. الهرار: النباح.

(٢) ورد الخبر في الاغاني ١٠/٢٣٦-٢٣٧، ومعاهد التنصيص ٢/٢١١-٢٢٧، وطبقات ابن المعتز ٥٨-٥٩.

(٣) بعده في الاغاني، ومعاهد التنصيص (قال الجاحظ: فانظر إلى حدقه بالمسألة ولطفه فيها: ابتداءً بكلب فسهل القصة به، وجعل يأتي بما يليه على ترتيب وفكاهة، حتى نال ما لو سأل به بديهة لما وصل إليه).

أبو الحسن عن أبي مريم قال: كان عندنا بالمدينة رجلٌ قد كثر عليه الدَّين حتى توارى من غرمائه، ولزم منزله. فأتاه غريم له عليه شيءٌ يسير، فتلطَّفَ حتى وصل إليه، فقال له: ما تجعلُ لي إن أنا دلتك على حيلةٍ تصيرُ بها إلى الظهورِ والسَّلامة من غرمائك؟ قال: أفضيكَ حقَّك، وأزيدك ممَّا عندي ممَّا تقرُّ به عينك. فتوثقُ منه بالآيمان، فقال له: إذا كان غداً قبلَ الصَّلَاةِ مرَّ خادمك يكنسُ بابك وفناءك ويرشُ، ويبسطُ على دكانك حُصراً، ويضعُ لك متكاً، ثم أمهل حتى تصبَحَ و يمرُّ الناس، ثم تجلس، وكلُّ مَنْ يمرُّ عليك ويسلمُ انبج له في وجهه، ولا تزيدَنَّ على النَّبَاحِ أحداً كائناً مَنْ كان، وَمَنْ كَلَّمك من أهلك أو خدمك أو من غيرهم، أو غريمٍ أو غيره، حتى تصير إلى الوالي فإذا كَلَّمك فانبج له، وإياك أن تزيدَه أو غيره على النَّبَاحِ؛ فإنَّ الوالي إذا أيقنَ أن ذلك منك جدُّ لم يشكَّ أنه قد عرَضَ لك عارض من مَسٍّ فيخلِّي عنك، ولا يغري عليك. قال: ففعل، فمرَّ به بعضُ جيرانه فسلمَ عليه، فنبح في وجهه، ثم مرَّ آخرُ ففعل مثلَ ذلك، حتى تسامعَ غرماؤه فأتاه بعضهم فسلمَ عليه فلم يزيدَه على النَّبَاحِ، ثم آخرُ، فتعلَّقوا به فرفعوه إلى الوالي، فسأله الوالي فلم يزيدَه على النَّبَاحِ، فرفعه معهم إلى القاضي، فلم يزيدَه على ذلك، فأمرَ بحبسه أياماً وجعلَ عليه العيون، ومكَّ نفسه وجعلَ لا ينطقُ بحرفٍ سوى النَّبَاحِ، فلما رأى القاضي ذلك أمرَ بإخراجه ووضعَ عليه العيونَ في منزله، وجعلَ لا ينطقُ بحرفٍ إلاَّ النَّبَاحِ، فلما تقرَّرَ ذلك عند القاضي أمرَ غرماؤه بالكفِّ عنه، وقال: هذا رجلٌ به كَمٌّ^(١). فمكث ما شاء الله تعالى. ثم إنَّ غريمه الذي كان علِّمه الحيلة، أتاه متقاضياً لعدته فلما كلمه جعل لا يزيدُه على النَّبَاحِ، فقال له ويلك يافلان!! وعليَّ أيضاً، وأنا علِّمتك هذه الحيلة؟! فجعل لا يزيدُه على النَّبَاحِ، فلما يئس منه انصرف يائساً مما يطالبه به.

٣٧٣ - [اتحاد المتعاضدين في وجه عدوِّهما المشترك]

قال أبو الحسن عن سلمة بن خطَّاب الأزديّ، قال: لما تشاغل عبدُ الملك بن مروانٍ بمحاربةِ مُصعبِ بنِ الزُّبير، اجتمعَ وجوهُ الرُّومِ إلى ملكهم فقالوا له: قد أمكنتك الفرصةُ من العرب، بتشاغلِ بعضهم مع بعض، لوقوعِ بأسهم بينهم، فالرأيُ لك أن تغزوهم إلى بلادهم، فإنَّك إن فعلتَ ذلك بهم نلتَ حاجتَكَ، فلا تدعهم حتى

(١) اللمم: الجنون.

تنقضي الحرب التي بينهم فيجتمعوا عليك! فنهاهم عن ذلك وخطأ رأيهم، فأبوا عليه إلا أن يغزوا العرب في بلادهم. فلما رأى ذلك منهم أمر بكلبين فحرش بينهما، فاقنتلا قتالاً شديداً، ثم دعا بثعلب فخلأه، فلما رأى الكلبان الثعلب، تركا ماكانا فيه، وأقبلا عليه حتى قتلاه، فقال ملك الروم: كيف ترون؟! هكذا العرب، تقتتل بينها، فإذا رأونا تركوا ذلك واجتمعوا علينا فعرفوا صدقه، ورجعوا عن رأيهم.

٣٧٤ - [كرم الكلاب]

قال: وقال المغيرة لرجلٍ خاصم إليه صديقاً له، وكان الصديقُ توعدهً بصدقة المغيرة، فأعلمه الرجلُ ذلك، وقال: إنَّ هذا يتوعّدني بمعرفتك إياه، وزعم أنَّها تنفعه عندك. قال^(١): أجل! إنَّها والله لتنفع، وإنَّها لتنفعُ عند الكلب العقور^(٢)!

فإذا كان الكلبُ العقورُ كذلك، فما ظنُّك بغيره؟ وأنت لا تصيب من الناس من تنفع عنده المعرفة من ألفٍ واحداً.

وهذا الكرمُ في الكلابِ عامٌ. والكلبُ يحرسُ ربّه، ويحمي حريمه شاهداً وغائباً، وذاكراً وغافلاً، ونائماً ويقظان، ولا يقصرُ عن ذلك وإن جفوه، ولا يخذلهم وإن خذلوه.

٣٧٥ - [نعاس الكلب]^(٣)

والكلبُ أيقظُ الحيوان عيناً في وقت حاجتهم إلى النوم، وإنَّما نومه نهاراً، عند استغنائهم عن حراسة، ثم لا ينام إلا غراراً وإلاً غشاشاً^(٤). وأغلبُ ما يكوم النومُ عليه وأشدُّ ما يكون إسكاراً له أن يكونَ كما قال رؤبة: [من الرجز]

* لا قيت مطلقاً كنعاسِ الكلبِ^(٥) *

يعني بذلك القرمطة في المواعيد.

وكذلك فإنَّه أنوم ما يكونُ أن يفتح عينه بقدر ما يكفيه للحراسة، وذلك ساعة،

(١) ورد قول المغيرة في البيان والتبيين ٣/ ٢٨٠.

(٢) بعده في البيان والتبيين «والجمل الصؤول، فكيف بالرجل الكريم». العقور: الذي يعض ويجرح.

(٣) وردت هذه الفقرة في ثمار القلوب (٥٨٩).

(٤) الغرار والغشاش: النوم القليل.

(٥) ديوان رؤبة ١٧.

وهو في هذا كله [أيقظ من ذئب، و] ^(١) أسمعُ من فرس ^(٢). وأحذرُ من عَقَعَق ^(٣)، مع بُعد صوته.

٣٧٦ - [قول رجل من العرب في الجمال]

وقيلَ لرجلٍ من العرب: ما الجمال؟ فقال: غُور العينين، وإشراف الحاجبين، ورُحْب الأشداق، وبُعدُ الصوت.

٣٧٧ - [علاج الكلب لنفسه]

هذا مع قلة السامة، والصَّبْرِ على الجفوة، واحتمال الجراحات الشداد، وجوائف ^(٤) الطعان ونوافذ السهام. وإذا ناله ذلك لم يزل ينظفه بريقه؛ لمعرفته بأن ذلك هو دواؤه حتى يبرأ، لا يحتاج إلى طبيب، ولا إلى مرهم ولا إلى علاج.

٣٧٨ - [طول ذمء الضب والكلب والأفعى]

وتقول العرب: «الضبُّ أطولُ شيءٍ ذمَاءٌ» ^(٥)، والكلبُ أعجبُ في ذلك منه. وإثما عجبوا من الضبِّ، لأنه يَغْبِر ^(٦) ليلته مذبوحةً مفرياً الأوداج، ساكنَ الحركة، حتى إذا قرب من النار تحرك. كأنهم يظنون أنه قد كان حياً، وإن كان في العين ميتاً. والأفعى تبقى أياً ما تتحرك.

٣٧٩ - [ما يعتريه الاختلاج بعد الموت]

فأما الذي يعتريه الاختلاج بعد جموده ليلة، فلهمُ البقر والجُرُر ^(٧)، تختلج وهي على المعاليق اختلاجاً شديداً.

(١) الزيادة من ثمار القلوب ٥٨٩، والقول من الأمثال في مجمع الأمثال ٤٢٧/٢، والمستقصى ٤٤٩/١، وجمهرة الأمثال ٤٢٠/٢.

(٢) مجمع الأمثال ٣٤٩/٢، وأمثال ابن سلام ٣٦٠، والدرة الفاخرة ٢١٨/١.

(٣) العقق «كثعلب»: طائر على قدر الحمامة، وهو على شكل الغراب. حياة الحيوان ٦٧/٢، والقول «أحذر من عقق» من الأمثال في المستقصى ٦٢/١، وجمهرة الأمثال ٣٤٣/١، ٣٩٦، والدرة الفاخرة ١٣٣/١، ٤٤١/٢.

(٤) الجائفة: طعنة تبلغ الجوف.

(٥) في الأمثال «أطول ذمء من الضب»، والمثل في مجمع الأمثال ٤٣٧/١، والدرة الفاخرة ٢٨٤/١، ٢٨٦، والمستقصى ٢٢٧/١، وجمهرة الأمثال ٢٠/٢. الذمء: بقية الروح في المذبوح.

(٦) يغبر: يمكث.

(٧) الجزر: الإبل المذبوحة، أو الشياه أو الكباش.

والحيَّةُ يُقَطَّعُ ثلثها الأسفل، فتعيش وينبُت ذلك المقطوع.

٣٨٠ - [حياة الكلب مع الجراح]

قال: والكلب أشدُّ الأشياء التي تعيش على الجراح، التي لا يعيش عليها شيء إلا الكلب، والخنزير، والخنفساء.

٣٨١ - [قوة فك الكلب]

والكلبُ أشدُّ الأشياء فكاً، وأرْهفها ناباً، وأطيبُّها فماً، وأكثرها ريقاً، يُرمَى بالعظم المدْمَج^(١)، فيعلم بالغريزة أنه إن عضه رضه، وإن بلعه استمرأه.

٣٨٢ - [إلف بعض الحيوانات للإنسان]

وهو أُلوفٌ للناس، مشاركٌ من هذا الموضع العصافيرَ والخطاطيفَ والحمامَ والسنانير، بل يزيد على ذلك في باب الخاصِّ وفي باب العامِّ. فأمَّا باب الخاصِّ، فإن من الحمام ما هو طوراني^(٢) وحشيٌّ، ومنه ما هو آلفٌ أهلي. والخطاطف من القواطع غير الأوابد، إذا قطع إلى الإنس لم يَبْنِ بيته إلا في أبعدِ المواضع، من حيث لا تناله أيديهم. فهو مقسومٌ على بلاده وبلاد من اضطرَّته إليه الحاجة. والعصافير تكون في القرب حيث تمتنع منهم في أنفسها. والكلاب مخالطةٌ لها ملابسة، ليس منها وحشيٌّ، وكلُّها أهلي. وليس من القواطع ولا من الأوابد ما يكون آنس بالناس - من كثير ممَّا يوصف بالأنس والإلف - من الكلاب دون سواها. وفي السنانير الوحشيَّة والأهليَّة.

وعلى أن إلف الكلب فوق إلف الإنسان الأُلوف، وهو في الكلب أغربُ منه في الحمام والعصفور؛ لأنه سبع، والحمام بهيمة والسبع بالسباع أشبه، فتركها ولم يناسبها، ورغب عنها. وكيف، وهو يصيد الوحوشَ ويمنع جميعَ السباع من الإفساد؟! فذلك أحمدٌ له وأوجبٌ لشكره. ثم يصيرُ في كثيرٍ من حالاته، آنس بالناس منه بالكلابِ دنيَّةً وقُصرة^(٣)، ولا تراه يلاعبُ كلباً مادام إنسانٌ يلاعبه. ثم لم

(١) المدمج: الصلب.

(٢) في اللسان: طور «الطور: الجبل، وطور سيناء: جبل بالشام. والنسب إليه طوري وطوراني. وحمام طوراني وطيوري منسوب إليه، وقيل هو منسوب إلى جبل يقال له طران نسب شاذ» وأضاف في اللسان: «الطيوري: الوحشي من الطير والناس».

(٣) أي الكلاب القريبة إليه في النسب.

يرضَ بهذه القرابة وهذه المشاكلة، وبمقدار ما عليه من طباع الخطأف والحمام والعصفور، وبمقدار ما فضلها الله تعالى به من الأُنس، حتى صار إلى غاية المنافع سُلماً، وإلى أكثر المرافق.

٣٨٣ - [الحاجة إلى الكلاب]

وليس لحارس الناس ولحارس أموالهم بُدٌّ من كلب، وكلّما كان أكبر كان أحبَّ إليه. ولا بدُّ لاقاطيع المواشي من الكلاب، وإلّا فإنّها نهب للذئاب ولغير الذئاب ثمّ كلاب الصيّد، حتى كان أكثر أهل البيت عيالاً على كلِّ كلب.

٣٨٤ - [قبول الكلب للتلقين]

وقد صار اليوم عند الكلب من الحكايات وقبول التلقين، وحُسن التصريف في أصناف اللّعب، وفي فطن الحكايات ما ليس في الجوارح المذلّة لذلك، المصرفة فيه، وما ليس عند الدبّ والقرد والفيل، والغنم المكيّة، والببغاء.

والكلب الزينيّ الصينيّ^(١) يُسرج على رأسه ساعات كثيرة من اللّيل فلا يتحرّك. وقد كان في بني ضبّة كلب زينيّ صينيّ، يُسرج على رأسه، فلا ينبض فيه نابض، ويدعونه باسمه ويرمى إليه ببضعة لحم والمسرجة على رأسه، فلا يميل ولا يتحرّك، حتى يكون القوم هم الذين يأخذون المصباح من رأسه، فإذا زایل رأسه وثب على اللحم فاكله! دُرّب فدرب وثُقّف فنُقّف، وأدّب فقَبِل. وتعلّق في رقبته الزنبلة^(٢) والدوخلة^(٣) وتوضع فيها رقعة، ثم يمضي إلى البقال ويجيء بالحوائج.

٣٨٥ - [تعليم الكلب والقرد]

ثمّ صار القردُ وصاحب الرّياح^(٤) من ثمّ يستخرج فيما بين الكلب والقرد ضروباً من العمل، وأشكالاً من الفطن، حتى صاروا يطحنون عليه، فإذا فرغ من طحنه مضوا به إلى المتعمك^(٥)، فيمعمك كما يمعمك حمار المكارى وبغل الطحان.

(١) الكلب الزينيّ الصينيّ: ضرب من الكلاب قصير القوائم، شديد الذكاء، وانظر ربيع الأبرار ٤٣٥/٥-٤٣٦.

(٢) لعلها الزبيل أو الزنبيل، وهو وعاء يحمل فيه، أو جراب.

(٣) الدوخلة: سفيفة من خوص يوضع فيها التمر والرطب؛ وهي كالزنبيل.

(٤) الرّياح: القرد الذكر.

(٥) المتعمك: مكان تمعك الدابة في التراب.

وقرابةً أخرى بينه وبين الإنسان: أنه ليس شيء من الحيوان لذكره حجماً بادٍ إلا الكلبُ والإنسان .

٣٨٦ - [الكلب أسبح أنواع الحيوان]

والكلبُ بعد هذا أسبحُ من حيّة، ولا يتعلّق به في ذلك الثور، وذلك فضيلةٌ له على القرد، مع كثرة فطن القرد وتشبّهه بالإنسان؛ لأنّ كلّ حيوان في الأرض فإنّه إذا ألقى في الماء الغمر سبح، إلا القردَ والفرسَ الأعسر. والكلب أسبحها كلّها، حتّى إنّه ليقدّم في ذلك على البقرة والحيّة .

٣٨٧ - [أعجوبة في الكلبة]

وفي طباع أرحام الكلاب أعجوبة؛ لأنّها تَلقح من أجناس غير الكلاب، ويلقحها كما يلقح منها، وتلقح من كلابٍ مختلفة الألوان، فتؤدّي شبه كلّ كلب (١)، وتمتلي أرحامها أجراً من سفاذ كلب، ومن مرة واحدة، كما تمتلي من عدّة كلابٍ ومن كلبٍ واحد . وليست هذه الفضيلة إلا لأرحام الكلاب .

٣٨٨ - [فخر قبيلتين زنجيتين]

قالوا: والزنج صنفان، قبيلة زنجية فوق قبيلة، وهما صنفان: النمل والكلاب، فقبيلة هم الكلاب، وقبيلة هم النمل، فخر هؤلاء بالكثرة، وفخر هؤلاء بالشدّة. وهذان الاسمان هما ما اختاراهما لأنفسهما ولم يُكرها عليهما .

٣٨٩ - [كلب الله] (٢)

قال: ويقال إنّ النبي ﷺ قال لعُتْبة بن أبي لهب: «أكلك كلبُ الله» فأكله الأسد . [ففي هذا الخبر فائدتان] (٣). فواحدة: قد ثبت بذلك أنّ الأسد كلبُ الله . والثانية: أنّ الله تبارك وتعالى لا يُضاف إليه إلا العظيم، من جميع [الأشياء من] (٤) الخير والشرّ. فأما الخير فقولك: بيت الله، وأهل الله، وزوّار الله، وكتاب الله، وسماء الله، وأرض الله، وخليقُ الله، وكليمُ الله، وروح الله، وما أشبه ذلك . وأما الشرّ

(١) عيون الاخبار ١/٢ . ٨١ .

(٢) الخبر في ثمار القلوب ١٩ (٧٩)، وانظر الاشتقاق ٢٢، والاغاني ١٦/١٧٥-١٧٦، والمعارف

١٢٥، وبيع الأبرار ٥/٤١٣ .

(٣) الزيادة من ثمار القلوب (٧٩) .

(٤) الزيادة من ثمار القلوب (٨٠) .

فكقولهم: دَعَهُ فِي لَعْنَةِ اللَّهِ وَسَخَطَ اللَّهُ، [وَأَلِيمَ عَذَابَهُ] (١)، ودَعَهُ فِي نَارِ اللَّهِ وَسَعِيرَهُ (٢)، وما أشبه ذلك. وقد يسمِّي المسلمون والنَّاسُ كَلْبًا.

٣٩٠- [تسمية أنواع من الحيوانات بالكلاب]

وقد زعم آخرون: أنَّ بناتِ آوى، والثعالبَ والضُّباعَ، والكلابَ كلَّها كلاب، ولذلك تَسَافَدُ وتَلَاقح.

وقال آخرون: لَعَمْرِي إِنَّهَا الْكِلَابُ إِذَا أُرِدْتُمْ أَنْ تَشْبَهُوهَا، فَأَمَّا أَنْ تَكُونَ كِلَابًا لِعَلَّةٍ أَوْ عَلْتَيْنِ - والوجهُ التي تخالف فيها الكلاب أكثرُ فإنَّ هذا ممَّا لا يجوز.

وقول مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْجَوَامِيسَ بَقْرٌ وَأَنَّ الْخَيْلَ حُمُرٌ، أَقْرَبُ إِلَى الْحَقِّ مِنْ قَوْلِكُمْ، وَقَوْلُ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْجَوَامِيسَ ضَأْنُ الْبَقْرِ. وَالْبَقْرُ ضَأْنٌ أَيْضًا، وَلِذَلِكَ سَمَّوْا بَقْرَ الْوَحْشِ نِعَاجًا، كَانَهُمْ إِنَّمَا ابْتَغَوْا اتِّفَاقَ الْأَسْمَاءِ.

ومابالُ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْأَسَدَ وَالذَّنْبَ وَالضَّبْعَ وَالثَّعْلَبَ وَابْنَ آوَى كِلَابٌ أَحَقُّ بِالصَّوَابِ مِمَّنْ زَعَمَ أَنَّ الْجَوَامِيسَ ضَأْنٌ وَالْبَقْرَ ضَأْنٌ وَالْمَاعِزُ كُلُّهَا شَيْءٌ وَاحِدٌ. وَهَذَا أَقْرَبُ إِلَى الْإِمْكَانِ؛ لِتَشَابُهِهَا فِي الظُّلْفِ وَالْقُرُونِ وَالْكُرُوشِ وَأَنَّهَا تَجْتَرُّ. وَالسُّنُورُ وَالْفَهْدُ وَالنَّمْرُ وَالْبَيْرُ (٣) وَالْأَسَدُ وَالذَّنْبُ وَالضَّبْعُ وَالثَّعْلَبُ إِلَى أَنْ تَكُونَ شَيْئًا وَاحِدًا أَقْرَبُ. وَعَلَى أَنَّنَا لَمْ نَتَّبِعْ إِلَى السَّاعَةِ أَنَّ الضُّبَاعَ وَالْكِلَابَ وَبَنَاتِ آوَى وَالذَّنَابَ تَتَلَاقح؛ وَمَا رَأَيْنَا عَلَى هَذَا قَطُّ سَمْعًا (٤) وَلَا عَسْبَارًا (٥)، وَلَا كُلَّ مَا يَعْدُونَ. وَمَا ذَكَرْهُمْ لِذَلِكَ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ الْإِخْبَارِ عَنِ السَّرْعَةِ، أَوْ عَنِ بَعْضِ مَا يُشْبِهُ ذَلِكَ. فَأَمَّا التَّلَاقحُ وَالتَّرَكيبُ الْعَجِيبُ الْغَرِيبُ، فَالْأَعْرَابُ أَفْظَنُ - وَالْكَلَامُ عِنْدَهُمْ أَرْخَصُ - مَنْ أَنْ يَكُونُوا وَصَفُوا كُلَّ شَيْءٍ يَكُونُ فِي الْوَحْشِ، وَكُلَّ شَيْءٍ يَكُونُ فِي السَّهْلِ وَالْجَبَلِ، مِمَّا إِذَا جَمَعَ جَمِيعَ أَعْرَابِهِ لَمْ يَكُنْ أَظْرَفَ وَلَا أَكْثَرَ مِمَّا يَدْعُونَ مِنْ هَذَا التَّلَاقحِ وَالتَّلَاقحِ وَالتَّرَكيبِ فِي الْاِمْتِزَاجَاتِ. فَكَيْفَ يَدْعُونَ مَا هُوَ أَظْرَفُ، وَالَّذِي هُوَ أَعْجَبُ وَأَرْغَبُ، إِلَى مَا يَسْتَوِي فِي مَعْرِفَتِهِ جَمِيعُ النَّاسِ؟!.

(١) الزيادة من ثمار القلوب (٨٠).

(٢) في ثمار القلوب: «وسقره».

(٣) البير: ضرب من السباع شبيهه ببن آوى، ويقال إنه متولد من الزبرقان واللبوة. حياة الحيوان ١٥٩/١.

(٤) السمع: ولد الذئب من الضبع. حياة الحيوان ١/٥٦٤.

(٥) العسبار: ولد الضبع من الذئب. حياة الحيوان ٢/٢٢.

٣٩١ - [تتمّة القول في حديث: «أكلك كلب الله»]

وقال آخرون: ليس الكلبُ من أسماء الأسد، كما أن ليس الأسد من أسماء الكلب، إلا على أن تمدحوا كلبكم فيقول قائلكم: ماهو إلا الأسد؛ وكذلك القول في الأسد إذا سمّيته كلباً، وذلك عند إرادة التصغير والتحقير، والتأنيب والتقريع؛ كما يقال ذلك للإنسان على جهة التشبيه.

فإن كان النبي ﷺ قال ذلك فإن ذلك على بعض ما وصفنا لك. ويقول أهل حمص: إنهم لا يُغلبون؛ لأن فيها نورَ الله في الأرض. وما كلبُ الله إلا كنور الله. والله، تبارك وتعالى علوّاً كبيراً، لا تضاف إليه الكلابُ والسنانييرُ والضببُ والثعالب. والنبي صلى الله عليه وسلم لم يقل هذا قط. وإن كان قاله فعلى صلة كلامٍ أو على حكاية كلام.

وقال صاحب الكلب: قد وضّح الأمر، وتلقّاه الناس بالقبول، في أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أكلك كلبُ الله» وهو يعني الأسد. ومن دفع هذا الحديث فقد أنكرَ علاماتِ الرسول صلى الله عليه وسلم.

٣٩٢ - [التسمية بمشتقات الكلب]

والنّاسُ قد سمّوا الناسَ بـكلبٍ وكُليبٍ وكِلابٍ وأكلبٍ ومكاليبٍ ومكالبة بنو ربيعة، وكليب بن ربيعة بن عامر. وفي العرب من القبائل كلب، وبنو الكلبة، وبنو كلاب، وأكلب بن ربيعة بن نزار عمارةً ضخمة^(١). وكلب بن وبرة جذم^(٢) من الأجدام وهم نفرٌ جُمجمة، وكلّ سادات فهو يكنى أبا كليب، ومن ذلك عمرو ذو الكلب وأبو عمرو الكلب الجرمي وأبو عامر الكلب النحوي. وكيف لا يجوز مع ذلك أن يسمّى الأسد بالكلب، وكلُّ هؤلاء أرفعُ من الأسد؟!

وقد قالوا: كلب الماء، وكلبُ الرحي. والضببة^(٣) التي في الرحل يقال لها الكلب، والكلب: الخشبة التي تمنع الحائط من السقوط، وتُشخّص في القناطر والمسنّيات^(٤).

(١) العمارة: أصغر من القبيلة، أو الحي العظيم.

(٢) الجذم: الأصل.

(٣) الضبة: حديدة عقفاء تكون في طرف الرحل، تعلق فيها المزاد.

(٤) المسنّات: السد يعترض به الوادي ليحبس الماء.

والكلب الذي في السماء ذو الصُّور.

ويقال: داء الكَلْب، وقد اعتراه في الطعام كلب، وقد كلب عليهم في الحرب، و«دِمَاءُ الْقَوْمِ لِلْكَلْبِيِّ شِفَاءً»^(١).

ومنه الكَلْبَةُ والكَلْبَتَانِ^(٢) والكَلابُ^(٣) والكلُّوبُ^(٤) ثمَّ المكلَّبُ والمكلب^(٥) وهذا مختلف مشتقٌّ من ذلك الأصل. ومنه علُوِيَّةُ كلب المطبخ، وحمويه كلب الجنِّ.

٣٩٣ - [بين أبي علقمة المزني وسوار بن عبد الله]

ولما شهد أبو علقمة المُنْزِيُّ عند سوار بن عبد الله أو غيره من القضاة وتوقَّفَ في قبول شهادته، قال له أبو علقمة: لم توقَّفتَ في إجازة شهادتي؟ قال: بلغني أنَّك تلعب بالكلاب والصُّقور. قال: مَنْ خَبَّرَكَ أَنِّي أَلْعِبُ فَقَدْ أَبْطَلْ، وإذا بلغك أَنِّي أَصْطَادُ بِهَا فَقَدْ صَدَقَكَ مَنْ أَبْلَغَكَ، وَإِنِّي أَخْبَرْتُكَ أَنِّي جَادٌّ فِي الْأَصْطِيَادِ بِهَا غَيْرُ لَاعِبٍ وَلَا هَازِيٍّ، فَقَدْ وَقَفَ الْمَبْلُغُ عَلَى فَرْقٍ مَا بَيْنَ الْجَدِّ وَاللَّعْبِ. قال: مَا وَقَفَ وَلَا وَقَفْتَهُ عَلَيْهِ. فَأَجَازَ شَهَادَتَهُ.

٣٩٤ - [قوله تعالى: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ]

وقد قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ﴾^(٦) فقال لنبيِّه: ﴿قُلْ أُحِلُّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ﴾^(٦). فاشتقَّ لكلِّ صائدٍ وجارحٍ كاسبٍ منُّ بازٍ، وصقْرٍ، وعقَابٍ، وفَهْدٍ، وشاهينٍ، وزرَّقٍ^(٧)، ويؤيُّو^(٨)، وباشقٍ، وعنَّاقِ الأَرْضِ^(٩)، من اسم الكلب. وهذا يدلُّ على أَنَّهُ أَعْمَهَا نَفْعًا، وَأَبْعَدَهَا صِبْتًا،

(١) عجز بيت لعوف بن الأحوص، تقدم في الفقرة ٢٧٠.

(٢) الكلبتان: آلة للحداد يأخذ بها الحديد المحمي.

(٣) الكلاب: الحديدية التي على خف الرائص للدابة، وتسمى المهماز.

(٤) الكلوب: المنشال، أي آلة نشل الشيء ورفع.

(٥) المكلب «بتشديد اللام وكسرهما»: الرجل الذي يعلم الكلاب أخذ الصيد. والمكلب «بفتح

اللام»: الكلب قد علمه صاحبه أخذ الصيد.

(٦) ٤ / المائة: ٥.

(٧) الزرَّق: طائر يصاد به؛ بين البازي والباشق. حياة الحيوان ١ / ٥٣٣.

(٨) اليؤيُّو: طائر من جوارح الطير يشبه الباشق. حياة الحيوان ٢ / ٤٣٣.

(٩) عناق الأرض: دويبة أصغر من الفهد؛ طويل الظهر؛ يصيد كل شيء حتى الطير. حياة الحيوان

٧٩ / ٢.

وأنبئها ذكراً. ثم قال: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ (١) فذكر تعليمهم لها إذ أضاف ذلك إلى نفسه، ثم أخبر عن أدبها وأنها تُمسك على أربابها لأعلى أنفسها. وزعم أصحاب الصيد أن ليس في الجوارح شيء أجدر أن يُمسك على صاحبه ولا يُمسك على نفسه من الكلب.

٣٩٥ - [تأويل آية أصحاب الكهف]

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا. إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا: رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (٢). فخبر كما ترى عن دعائهم وإخلاصهم، ثم قال جل وعز: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيِ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ (٣)، ثم قال عز وجل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى. وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا: رَبَّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ (٤) ثم قال: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْقَبًا. وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْ ذَاتِ الشَّمَالِ﴾ (٥) ثم قال بعد هذه الصفة لحالهم، والتمكين لهم من قلوب السامعين، والأعجوبة التي أتاهم بها: ﴿وَكَذَّبَهُمْ بِأَسْطِ ذُرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ (٦) ثم قال: ﴿لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَ لَمَلَّيْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ (٦) فخبر أنهم لم يستصحبوا من جميع من يالف الناس ويرتفقون به، ويسكنون إليه، شيئاً غير الكلب، فإن مما يالف الناس ويرتفقون به، ويسكنون إليه، شيئاً غير الكلب، فإن مما يالف الناس ويرتفقون به، ويسكنون إليه: الفرس والبعير والحمار والبغل، والثور والشاة، والحمام والديكة، كل ذلك مما يرتفق به ويستصحب في الأسفار، وينقل من بلد إلى بلد.

والناس يصطادون بغير الكلب، ويستمتعون بأمور كثيرة، فخبر عنهم بعد أن جعلهم خياراً أبراراً، أنهم لم يختاروا استصحاب شيء سوى الكلب، وليس يكون ذلك من الموقفين المعصومين المؤيدين، إلا بخاصة في الكلب لا تكون في غيره.

(١) ٤ / المائة: ٥.

(٢) ٩-١٠ / الكهف: ١٨.

(٣) ١١-١٢ / الكهف: ١٨.

(٤) ١٣-١٤ / الكهف: ١٨.

(٥) ١٦-١٧ / الكهف: ١٨.

(٦) ١٨ / الكهف: ١٨.

ثم أعاد ذكر الكلب، ونبأ عن حاله، بأن قال عز وجل: ﴿إِذِ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا. سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ. فَلَا تُمَارَ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَنَفِثْ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾^(١) وفي قولهم في الآية ﴿ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾^(١) دليل على أن الكلب رفيع الحال، نبيه الذكور، إذ جعل رابعهم، وعطف ذكره على ذكرهم، واشتق ذكره من أصل ذكرهم، حتى كأنه واحد منهم، ومن أكفائهم أو أشباههم أو ممًا يقاربهم. ولولا ذلك لقال: سيقولون ثلاثة معهم كلب لهم. وبين قول القائل معهم كلب لهم، وبين قوله ﴿رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾^(١) - فرق بين وطريق واضح.

فإن قلت: هذا كلام لم يحكه الله تعالى عن نفسه، وإنما حكاه عن غيره، وحيث يقول: ﴿ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾^(١) وقد صدقتهم، والصفة على ما ذكرتم؛ لأن الكلام لو كان منكراً لأنكره الله تعالى، ولو كان معيباً لعابه الله، فإذا حكاه ولم يعبه، وجعله قرآناً وعظمه بذلك المعنى، مما لا ينكر في العقل ولا في اللغة، كان الكلام إذا كان على هذه الصفة مثله؛ إذ كان الله عز وجل المنزل له.

٣٩٦ - [الاستطاعة قبل الفعل]

ومثل ذلك مثل بعض المخالفين في القدر، فإنه سأل بعض أصحابنا فقال: هل تعرف في كتاب الله تعالى أنه يُخبر عن الاستطاعة، أنها قبل الفعل؟ قال: نعم، أتى كثير، من ذلك قوله تعالى ﴿قَالَ عَفْرِيْتُ مِنَ الْجِنَّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾^(٢). قال المخالف: سألتك أن تخبرني عن الله، فأخبرتني عن عفرية لو كان بين يدي ليزقت في وجهه! قال صاحبنا: أما سليمان النبي ﷺ، فقد ترك النكير عليه، ولو كان مثل هذا القول كفراً وافتراءً على الله، ومغالبةً وتفويضاً للمشيئة إلى النفس، لكان سليمان ومن حضره من المسلمين من الجن والإنس أحق بالإنكار، بل لم يكن العفرية في هذا الموضع هو الذي يسرع فيه

(١) ٢١-٢٢ / الكهف: ١٨.

(٢) ٣٩ / النمل: ٢٧.

ويذكر الطاعة، ولا يتقرب فيه بذكر سرعة النفوذ، ويبشر فيه بأن معه من القوة المجعولة ما يتهدى لمثله قضاء حاجته، فيكذب ثم لا يرضى بالكذب حتى يقول قولاً مستنكراً، ويدعي قوة لا تجعل له، ثم يستقبل بالافتراء على الله تعالى والاستبداد عليه، والاستغناء عنه— نبياً قد ملك الجن والإنس والرياح والطير، وتسيير الجبال، ونطق كل شيء، ثم لا يزره فضلاً عن أن يضربه، ويسجنه فضلاً عن أن يقتله.

وبعد، فإن الله تبارك وتعالى لم يجعل ذلك القول قرآناً، ويترك التنبيه على ما فيه من العيب، إلا والقول كان صدقاً مقبولاً. وبعد، فإن هذا القول قد سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتلاه على الناس، وما زالوا يتلونه في مجالسهم ومحاربيهم، أفما كان في جميع هؤلاء واحدٌ يعرف معرفتك، أو يغضبُ لله تعالى غضبك؟!.

٣٩٧ - [دفاع عن الكلب]

قال صاحب الكلب: لو اعترضت جميع أهل البدو في جميع الآفاق من الأرض، أن تُصيب أهل خيمة واحدة، ليس عندهم كلبٌ واحد فما فوق الواحد لَمَا وجدته. وكذلك كانوا في الجاهلية، وعلى ذلك هم في الإسلام. فمن رجع بالتخطفة على جميع طوائف الأمم، والتأنيب والاعتراض على جميع اختيارات الناس، فليتهم رأيه؛ فإن رأي الفرد ولاسيما الحسود، لا يفي برأي واحد، ولا يرى الاستشارة حظاً وكيف بأن يفي بجميع أهل البدو من العرب والعجم. والدليل على أن البدو قد يكون في اللغة لهما جميعاً قولُ الله عز وجل: ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾^(١) ولو ابتلي صاحبُ هذا القول بأن ينزل البادية، لتحوّل رأيه، واستبدل به رأي من قد جرب تقريب الكلب وإبعاده. وقد قال أبو عباد النميري: لا يكون البنيان قرية حتى ينبح فيه كلبٌ، ويزقو فيه ديك.

ولما قال أحمد بن الخاركي: لا تصير القرية قرية حتى يصير فيها حائكٌ ومعلمٌ، قال أبو عباد: يا مجنون إذا صارت إلى هذا فقد صارت مدينة.

وللكلب إثباته وجه صاحبه، ونظره في عينيه وفي وجهه، وحبّه له، ودنوه منه، حتى ربما لاعبه ولاعب صبيانه بالعض الذي لا يؤثر ولا يوجع، وهي الأضراس التي لو نشبها في الصخر لنشبت، والأنياب التي لو أنحى بها على الحصى لرضها.

(١) ١٠٠ / يوسف: ١٢.

وقد تراه وما يصنع بالعظم المدمج، وبالفقرة من الصلب القاسي الذي ليس بالنخر البالي، ولا بالحديث العهد بالودك الذي يلين معه بالمضغ ويطيب، فتراه كيف يرضه ويفتته، ثم إن مانعه بعض الممانعة، ووافق منه بعض الجوع، كيف يتلعه وهو واثق باستمرائه وهضمه، أو بإذابته وحلّه .

وله ضروبٌ من النغم، وأشكال من الأصوات، وله نوح وتطريب، ودعاء وخوار، وهريز وعواء، وبصبصة، وشيء يصنعه عند الفرح، وله صوتٌ شبيهٌ بالأنين إذا كان يغشى الصيد، وله إذا لعب أشكاله في غدوات الصيف شيءٌ بين العواء والأنين .

وله وطءٌ للحصى مثله بأن لو وطئ الحصى على أرض السطوح لا يكون مثله وطء الكلب يربى على وزنه مراراً^(١) .

وإذا مرَّ على وادٍ جامدٍ ظاهر الماء، تنكَّب مواضع الخرير في أسفله .

قال الشاعر - ورأى رجلاً اسمه وثأب واسم كلبه عمرو - فقال: [من مجزوء الوافر]
ولو هياً له الله من التوفيق أسباباً^(٢)
لسمي نفسه عمراً وسمي الكلب وثأباً

٣٩٨ - [أطباء الكلبة والخنزيرة والفهدة]

قال: والكلبة كثيرة الأطباء، وكذلك الخنزيرة. وللفهدة أربعة أطباء من لدن صدرها وقرب إبطيها إلى رفغيها^(٣)، وللليل حلمتان تصفران عن جثته. وهما مما يلي الصدر مثل الإنسان، والذكر في ذلك يشبه بالرجل؛ لأن للرجل ثديين صغيرين عن جثته .

٣٩٩ - [واقية الكلاب]

ويقال: إنَّ على الكلاب واقيةً من عبث السُّفهاء والصبيان بها. قال دُرَيْدُ بن الصِّمَّة، حين ضربَ امرأته بالسيف ولم يقتلها: [من الوافر]
أقرَّ العينَ أنْ عصبتَ يداها وما إنْ يُعصبانَ على خضابٍ^(٤)

(١) يبدو السياق غير مستقيم؛ ولعله يريد أن يقول: «وله وطء للحصى مثله بعضهم بأن لو وطئ الحصى على أرض السطوح لا يكون مثل وطؤه مثل وطء الكلب أو وزنه - أي وزن الحصى - يربى على وزنه مراراً. قلت: وقد ذكر الجاحظ في الفقرة (٧٨) شدة وطء الحصى للأرض .

(٢) تقدم البيتان في نهاية الفقرة ٢٧٧ .

(٣) الرفغ: أصل الفخذ .

(٤) ديوان دريد بن الصمة ٣٩، وثمار القلوب ٣١٨ (٥٩١)، والأغاني ١٩/١٠ .

فأبقَاهُنَّ أَنْ لهنَّ جَدًّا وواقية كواقية الكلاب^(١)
 وقال الآخر: [من المتقارب]
 إنَّ يَقَنَا الله من شرِّها فَإِنَّ الكلابَ لها واقيةٌ
 ويروى:

* سينجيه من شرِّها شرُّه *

وقال غيره: [من الكامل]
 ولقد قتلْتُك بالهجاء فلم تَمُتْ إنَّ الكلاب طويلة الأعمار^(٢)
 وقال بشر بن المعتمر: [من السريع]
 الناسُ دأباً في طلاب الثرَا فكُلُّهم من شأنه الختر^(٣)
 كأذوبٍ تنهشها أذوبٌ لها عواءٌ ولها زفرٌ

٤٠٠ - [استطراد لغوي]

قال: ويقال قزح الكلب ببوله يقزح قزحاً، إذا بال . قال: وقال أبو الصمقر: يقزح ببوله حين يبول، وشعر الكلب يشغر إذا رفع رجله، بال أو لم يبيل . ويقال شغرتُ بالمرأة أشغرها شغراً إذا رفعت رجلها للنكاح، قال: ويقال عاظل الكلبُ معاظلةً، يعني السفاد، قال أبو الزحف: [من الرجز]
 كمشية الكلبِ مشى للكلبة يبغي العِظالَ مُصحراً بالسوءة^(٤)
 قال: ويقال كلبٌ عاظلٌ وكلابٌ عُظِّلٌ وعِظَالِي .

وقال حسان بن ثابت الأنصاري: [من الطويل]
 وكست بخيرٍ من يزيدَ وخالدٍ ولست بخيرٍ من معاظلة الكلب^(٥)
 قال مالكُ بن عبد الله الجعدي، يوم فيفِ الرِّيح^(٦): حدَّثني أبي، لقد نظرتُ

(١) واقية الكلاب: يضرب مثلاً للخسيس إذا كان موثقاً لأن الكلب من الحيوانات الطويلة الذماء . ثمار القلوب (٥٩١) .

(٢) البيت لأبي يزيد العبدى في ربيع الأبرار ٢ / ٤٥١ .

(٣) البيتان لبشر بن المعتمر في اللسان (ريح) .

(٤) البيت لأبي الزحف الكلبي في اللسان والتاج (عظل)، الإصحار: المجاهرة .

(٥) ديوان حسان ١١١ (طبعة دار المعارف)، وسر صناعة الإعراب ٧٧٤، والعمدة ١ / ١٧٦ باب التقفية والتصريح .

(٦) يوم فيفِ الرِّيح: كان لمذحج على عامر . وفيفِ الرِّيح: موضع بأعلى نجد . انظر معجم البلدان ٢٨٥ / ٤، وذيل الأمالي ١٤٦، والنقائض ٤٦٩، وأيام العرب في الجاهلية ١٣٢ .

يَوْمَئِذٍ إِلَىٰ بَنِي عَبْدِ الْحَارِثِ بْنِ نَمِيرٍ، فَمَا شَبَّهْتُهُمْ إِلَّا بِالْكِلَابِ الْمُتَعَاظِلَةِ حَوْلَ اللَّوَاءِ .
 وَقَالَ أَبُو بَرَاءٍ عَامِرُ بْنُ مَالِكٍ مَلَاعِبُ الْأَسِنَّةِ – لَاعِبَةُ الْحَارِثِ وَالْيَوْمِ قَالَ فَقَالَ (١)

منذ يومئذ .
 قال: والسَّلْوَقِيَّةُ منسوبةٌ إلى سَلْوَقٍ من بلاد اليمَن، لها سلاحٌ جيِّدٌ وکلاب
 فُرَّه . وقال القَطَامِيُّ: [من الكامل]
 معه ضَوَارٍ مِنْ سَلْوَقٍ لَهُ طَوْرًا تُعَانِدُهُ وَتَنْفَعُهُ (٢)

٤٠١ - [تعفير البهائم والسباع أولادها]

قَالُوا: وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ بِهَيْمَةً وَلَا سَبْعَ أَنْثَى تَرِيدُ فَطَامَ وَلَدَهَا وَإِخْرَاجَهُ مِنَ اللَّبَنِ
 إِلَى اللَّحْمِ، أَوْ مِنَ اللَّبَنِ إِلَى الْعُشْبِ، إِنْ كَانَتْ بِهَيْمَةً إِلَّا وَهِيَ تَعْفِرُ وَلَدَهَا . وَالتَّعْفِيرُ:
 أَنْ تَرْضَعَهُ وَتَمْنَعَهُ حَتَّى يَجُوعَ وَيَطْلُبُ اللَّحْمَ إِنْ كَانَ سَبْعًا، وَالْعُشْبَ إِنْ كَانَ بِهَيْمَةً .
 فَلَا تَزَالُ تَنُوِّلُهُ وَتُمَاطِلُهُ وَكَلِمَا مَرَّتْ عَلَيْهِ الْأَيَّامُ كَانَ وَقْتُ مَنَعِهَا لَهُ أَطْوَلَ، حَتَّى
 إِذَا قَوِيَ عَلَى أَكْلِ اللَّحْمِ أَوْ الْعُشْبِ فَطَمَتَهُ . قَالَ لَبِيدٌ فِي مِثْلِ ذَلِكَ (٣): [من الكامل]
 أَفْتَلِكَ أُمٌّ وَحَشِيَّةٌ مَسْبُوعَةٌ خُذَلَتْ وَهَادِيَةُ الصَّوَارِ قَوَامُهَا (٤)
 خَنْسَاءٌ ضَيَّعَتِ الْفَرِيرَ فَلَمْ يَرِمْ عَرَضَ الشَّقَائِقِ طَوْفُهَا وَبَغَامُهَا (٥)
 لَمُعْفَرٍ قَهْدٌ تَنَازَعَ شَلْوُهُ غَيْسٌ كَوَاسِبٌ لَا يُمَنُّ طَعَامُهَا (٦)
 صَادَقْنَ مِنْهَا غِرَّةً فَأَصَبْنَهَا إِنْ الْمَنِيَا لَا تَطِيْشُ سِهَامُهَا
 لِأَنَّ الْبَقْرَةَ إِذَا كَانَتْ بِحَضْرَةِ وَلَدِهَا لَمْ تَضِيْعُهُ وَمَنْعَتِ السَّبَاعَ مِنْهُ، وَقَاتَلَتْ دُونَهُ
 بِقُرُونِهَا أَشَدَّ الْقِتَالِ، حَتَّى تُنَجِّيَهُ أَوْ تَعْطِبَ .

(١) ثمة اضطراب في النص!

(٢) لم يرد البيت في ديوان القطامي، ووجدت ما يشبهه في ديوانه ٦٢ وهو:

(معهم ضوارٍ من سلوقٍ كانها حصن تجول تجرر الأرسانا)

(٣) ديوان لبيد ٣٠٧ - ٣٠٨ .

(٤) الوحشية: البقرة. مسبوعة: أكل السبع ابنها، هادية الصوار: طليعة القطيع من البقر، وقيل هو الثور وحده .

(٥) الخنساء: فيها خنس: وهو تأخر الأنف وقصره. الفرير: ولد البقرة. الشقائق: الأرض الغليظة بين رملتين. الطوف: الذهاب والمجيء. بغامها: صوتها .

(٦) المعفر: الذي تغطمه أمه على مراحل. قهد: أبيض، أو الصغير الأذن من الضأن تعلوها حمرة. الغيس: الذئب، أو الكلاب ذات اللون الأغر. كواسب: تتعشى من الصيد. يُمنُّ: ينقص .

٤٠٢ - [بعض من كني بالكلاب]

قال: وكان ابنُ لَسَانَ الحُمْرَةَ^(١) يكنى أبا كلابٍ. وكان زوجُ حُبَيْ المدَنِيَّةِ يقال له ابن أمِّ كِلاب، وقال الشَّاعِرُ يذْكَرُها: [من الطويل]

ومَا وَجَدَتْ وَجَدِي بهِ أمُّ واحدٍ ولا وَجَدُ حُبَيْ بَابِنِ أمِّ كِلابِ^(٢)
رَأَتْهُ طَوِيلَ السَّاعِدِينَ شَمْرَدَلًا كما انبَعَثَتْ مِنْ قوَّةِ وَشَبَابِ

٤٠٣ - [صفة عيون الكلاب]

وقال آخر يصفُ عيونَ الكلابِ إذا أبصرت الصَّيْدَ: [من الطويل]
مَجْرَعَةٌ غُضْفٌ كَأَنَّ عيونَهَا إذا آذَنَ القُنَّاصُ بالصَّيْدِ عَضْرَسُ^(٣)
مَجْرَعَةٌ: في أعناقها جَزَعٌ، وهو الودَعُ يُجْعَلُ في القلائد. يقول: تبيضُ عيونُها
حينَ تَخْتَلُ الصَّيْدَ. والعَضْرَسُ هاهنا: البَرْدُ.

وقال الآخر: [من الكامل]
خُوصٌ تَرَّاحٌ إلى الصُّرَّاحِ إذا غَدَّتْ فِعْلُ الضَّرَّاءِ تَرَّاحٌ للكلابِ^(٤)

وقال آخر وذكر الضَّرَّاءَ، وهو يصف الشَّيْخَ وضعْفَه: [من الوافر]
ومنها أن يُقَادَ بهِ بَعِيرٌ ذُلُولٌ حينَ تَهْتَرِشُ الكِلابُ

قال: وهُم عند الحاجة يُعِدُّون الكلبَ والمطِيَّةَ، وأنشد: [من الطويل]
فَاعْقَبَ خَيْرًا كُلَّ أهوجٍ مِهْرَجٍ وَكُلُّ مُفْدَاةِ العُلَّالَةِ صِلْدِمِ^(٥)

(١) في جمهرة أنساب العرب ٣١٥ (لسان الحمرة: واسمه حصن بن ربيعة بن صُعَيْر بن كلاب؛ والنسابة هو عبد الله بن لسان الحمرة). وفي المعارف ٥٣٥ (ومن النسابين: ابن لسان الحمرة النسب، وهو ورقاء بن الأشعر، وكنيته أبو كلاب، وكان أنسب العرب، وأعظمهم بصرًا). وفي الاشتقاق ٣٥٤ (لسان الحمرة: أحد البلغاء في الجاهلية، وورقاء هذا هو لسان الحمرة في قول أبي عبيدة).

(٢) البيتان لهديبة بن الخشرم في ديوانه ٧٣، وتزيين الأسواق ٣٢٠ - ٣٢١، والأغاني ٢١/٢٧١، ومجمع الأمثال ٣٨٧/١، والمستقصى ١/١٨٦، والأول في اللسان والتاج (حب)، والثاني بلا نسبة في أساس البلاغة (نعت)، ونسب لابن هرمة في جمهرة الأمثال ١/٥٦٣.

(٣) البيت للبعيث في اللسان (عضرس)، وبلا نسبة في اللسان والتاج (حرج، أيه)، والتنبيه والإيضاح ١٩٠/٢.

(٤) البيت بلا نسبة في اللسان والتاج (روح).

(٥) البيت لأوس بن حجر في ديوانه ١٢٠، وأمالي القالي ١/١٨٩، والمعاني الكبير ٨٤، والسمط =

وقال الآخر: [من الرجز]

* مُفْدِيَاتٌ وَمَلْقَبَاتٌ *

وأُنشد قول أبي ذؤيب في شبهه بالمعنى الأول: [من الكامل]

شَغَفَ الْكَلَابُ الضَّارِيَاتُ بِهِ فَإِذَا يَرَى الصُّبْحَ الْمُصَدَّقَ يَفْرَعُ^(١)

يقول: هذه الثيران لما قد لُقِّينَ مع الصبح والإشراق من الكلاب، صار أحدها حين يَرَى ساطع الصبح يَفْرَعُ، وذلك أنها تمطرُ ليلتها فتَشْرَقُ في الشمس، فعندها تُرْسَلُ عليها الكلاب.

٤٠٤ - [تعرض الذئب للغنم مع الصبح]

ويقال إن أكثر ما يعرض الذئب للغنم مع الصُّبح، وإنما رَقِبَ فترة الكلب وكلاله، لأنه بات ليلته دائماً يحرس.

وقال أعرابيٌّ وكسَرَ ذئب شاةً له مع الصُّبح، فقال: [من البسيط]

أودى بوردة أمَّ الوردِ ذو عَسَلٍ من الذئاب إذا مارح أو بكرًا^(٢)
لولا أبنها وسليلاتٌ لها غُررٌ ما انفكت العين تذرِي دمعها دررًا
كأنما الذئبُ إذ يعدو على غنمي في الصُّبح طالبٌ وترٍ كان فاترًا^(٣)
اعتامها اعتامه شثنٌ برائنه من الضواري اللواتي تقصمُ القصرًا^(٤)

٤٠٥ - [سبب نزول آية في صيد الكلاب]

ولما قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام لزيد الخيل من الخير ما قال. وسمَّاه زيدَ الخير، ما سألَه زيدٌ شيئاً، ولا ذكر له حاجة، إلا أنه قال: يا رسول الله، فينا رجلان يقال لأحدهما ذريح، والآخر يكنى أبا دُجانة، ولهما أكلب خمسة تصيد الطباء، فما

= ٤٥٩. الأهوج: الذي يركب رأسه فيمضي. المهرج: الكثير الجري. العلالة: الجري الذي بعد

الجري الأول، فيقال لها إذا طلبت عللتها: وبها فداء لك. الصلدم: الشديدة.

(١) البيت لأبي ذؤيب في شرح أشعار الهذليين ٢٦، والمفضليات ٤٢٥، ومحاضرات الراغب ٢٩٦/٢، واللسان (شعف)، والسمط ٩٦٥، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٤٣٩/١.

(٢) عَسَلَ الذئب: اضطرب في عدوه وهز رأسه.

(٣) اتار: أدرك وتره.

(٤) اعتمام: اختار. شثن البرائن: غليظها. تقصم القصر: تقطع الرقاب.

تري في صيدهم؟ فانزل الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ (١).

فاوَّلُ شيءٍ يعظَّمُ في عينك شأن الكلب ، أن هذا الوافد الكريم الذي قيل له ما قيل، وسُمِّي بما لم يسمَّ به أحد - لم يسأل إلا عن شأن الكلب .

وثانية وهي أعظمها: أن الله تعالى أنزل فيه عند ذلك آياً مُحَكِّماً فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ فسُمِّي صيدها طيباً، ثم قال: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ﴾ مخبراً عن قبولها للتعليم والتأديب . ثم قال: ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ ولولا أن ذلك الباب من التعليم والعلم مرضيٌّ عند الله عز وجل، لَمَا أضافه إلى نفسه . ثم قال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فاوَّلُ شيءٍ يعظَّمُ به في عينك إمساكه عليك . وهكذا يقول أصحاب الصيد، إن كل صائدٍ فَإِنَّمَا يَمْسِكُ على نفسه إلا الكلبَ فَإِنَّهُ يَمْسِكُ على صاحبه .

ولو كان الجوابُ لزيد الخيل سُنَّةً من سنن النبي صلى الله عليه وسلم لكان في ذلك الرِّفْعَةُ، فكيفَ والكتابُ فوق السُّنَّةِ .

وقد روى هشام أن ابن عباس سَمَّى كلابَ ذريحٍ هذه وكلاتَ أبي دُجَّانة فقال: المختلس، وغلاب، والقنيص، وسلهب، وسرحان، والمتعاطس (٢).

٤٠٦ - [العلاج برجيع الكلاب]

وزعم الأطباء أن من أجود أدوية الذبحة والخانوق أن ينفخ في حلق من كان ذلك به، ما جفَّ من رجيع الكلاب . وأجود ذلك أن يكون يتفرغ به وربما طلوه على جلد المحموم الحديد الحمى .

وأجود رجيع الكلاب أن يشتدَّ بياضه . وليس يعتره البياض إلا عن أكل الطعام، وذلك رديءٌ للقائض منها .

والجعور قد تبيضُّ إذا كان قوتُ صاحبها اللبن، ولذلك قال أبو كلاب - وهو ابن لسان الحمرة - ومرَّ به رجلٌ من بني أسد فقال: قد علمت العربُ يا معشر بني أسدٍ أنكم أشدُّها بياضَ جُجُور، فعكفَ عليه فضربه بالسيف حتى برد .

(١) ٤ / المائدة: ٥ .

(٢) انظر البيت الرابع من قصيدة مزرد بن ضرار التي تقدمت في الفقرة ٢٧٧ .

وذلك أنه غيره بأنهم لا يعرفون البقل، ولا يعرفون إلا اللبن. وقال الشاعر يهجو
 ناساً منهم: [من الطويل]
 عراجلة بيض الجعور كأنهم بمنعرج الغيطان شهب العناكب^(١)
 والعرب تقول: اللحم أقل الطعام بخرأ.

٤٠٧ - [دفاع عن الكلب]

وقال صاحب الكلب: وما للديك وللكلاب، والكلاب ينزل فيها القرآن
 ويحدث فيها السنن، ويشتق من أسمائها للناس وللأسد، ولها أسماء معروفة وأعراف
 منسوبة، وبلدان مشهورة، وألقاب وسمات، ومناقب ومقامات !!
 وما للديك إلا ما تقول العوام: إنه إذا كان في الدار ديك أبيض أفرق^(٢) لم
 يدخله شيطان. وليس يقوم خير ذلك، ولو كان ذلك حقاً، بشؤمه؛ لأن العوام تقضي
 على من كان في داره ديك أبيض أفرق بالزندقة.

والذين يقولون إن الدار إذا كان فيها ديك أفرق لم يدخلها شيطان، هم الذين
 يقولون من أكل لحم سنور أسود لم يضره سحر^(٣)، وإذا دُخنت الدار بالدخنة^(٤) التي
 سموها بدخنة مريم، أو باللبان، لم يكن عليها لعنار الدار سييل، فإن مرت ساحرة
 تطير سقطت. وهم الذين لا يشكون أن من نام بين البابين تخبطه العمار وخبلته الجن.

٤٠٨ - [ما يقال له: جرو]

قال: ويقال لولد الكلب والذئب والسنور أشباه ذلك: جرو. ويقال للصغير من
 الحنظل على مثل ذلك: جرو. وقال النمر بن توبل: [من الطويل]
 بجرو يلقي في سقاء كانه من الحنظل العامي جرو مفلق^(٥)

٤٠٩ - [كلاب الحووب]

ومما زاد في ذكر الكلب قول السيد بن محمد في شأن عائشة في الحديث

(١) عراجلة: أي جماعة مشاة.

(٢) أفرق: عرفه مفروق.

(٣) ربيع الأبرار ٥/٤٢٨.

(٤) الدخنة: ذريرة تدخن بها البيوت.

(٥) ديوان النمر بن توبل ٣٦١، السقاء: جلد السخلة إذا أجدع ولا يكون إلا للماء. الجرو: ما استدار
 من ثمار الأشجار كالحنظل ونحوه.

الذي رَوَاهُ^(١) - وكان السَّيِّدُ رَافِضِيًّا غَالِيًّا، وليس في ذكره شَرَفٌ، ولكنَّه أجمعُ للفنِّ -: [من الكامل]

تَهْوِي من البَلَدِ الحَرَامِ فَنَبَّهْتُ بَعْدَ الهُدُوِّ كِلَابَ أَهْلِ الحَوَّابِ^(٢)
قال: ويقال صرَّفت الكلبة صرَّافاً وصرُوفاً، وظلَّعت تظَّلَع ظُلُوعاً

٤١٠ - [قولهم : لا أفعل حتى ينام ظالع الكلاب]

قال: ومن الأمثال في ذلك: «لا أفعلُ حتَّى ينامَ ظالعُ الكلابِ»^(٣). قال الأصمعيُّ: هذا باطل، إنَّما ذلك إذا أصابَ الكلبَ ما يظَّلَع منه لم يُطَق سِفاذ الكلبة حتَّى تهدأ الرُّجُل، وحتَّى تملأ الكلابُ النَّبَاحَ وتفتَرِق، وتحتاج إلى النَّوم لطول التعب، وإذا كان في ذلك الوقت يلتمس الظالع ورامَ سِفاذ الكلبة، لم يعرف ظَّلعه إلا الكلبة. وأنشد فقال^(٤): [من الطويل]

تسدِّيتها من بَعْدِ ما نام ظالعُ الـ كِلَابِ وأخْبَى نارَه كلُّ مُوقِدِ

وأنشد غيره لجران العود: [من الطويل]

وكان فؤادي قد صَحَا ثمَّ هاجه حَمائمُ ورُقُّ بالمدائنِ هُتَّفُ^(٥)
كان الهديلُ الظَّالِعَ الرُّجُلِ وَسَطَها من البغي شَرِيبٌ يُغَرِّدُ مُتَرَفُّ

٤١١ - [شعر في إشلاء الكلب على الضيوف]

وقالوا أبياتاً في غير هذا الباب، قال الأعرابي: [من الطويل]

نزلنا بعباد فاشلَى كلابه علينا فكِدنا بين بابيه نُؤكَلُ^(٦)
فقلْتُ لأصحابي أُسرُّ إليهم إذا اليومُ أو يومُ القيامة أطولُ

(١) انظر الحديث في معجم البلدان (حواب).

(٢) البيت في ديوان السيد الحميري ٨٥، ومعجم البلدان (حواب).

(٣) مجمع الأمثال ٢٦/١، والمستقصى ١٢٨/١، ٥٩/٢، وأمثال ابن سلام ٢٤٩.

(٤) ديوان الحطيئة ٧٤، واللسان والتاج (ظلع)، والمستقصى ١٢٩/١، ومجمع الأمثال ٢٦/١، والبرصان ١٩٣، وتقدم البيت في الفقرة (٢٩١).

(٥) ديوان جران العود ١٣.

(٦) البيتان لبلال بن جرير في الوحشيات ٢٢٥، والشعر والشعراء ٢٨٥، وبلا نسبة في البخلاء ٢٣٨،

والأول لزياد الأعجم في اللسان والتاج (شلا)، والمقاييس ٢١٠/٣، وبلا نسبة في المجمل ١٧٤/٣، والخزانة ٢٩٠/٣ (بولاق).

وقال آخر: [من الكامل]

أعددتُ للضيِّفانِ كلباً ضارياً عِنديَ وفضلَ هِراوةٍ مِنْ أَرْزَنِ (١)

وقال في خلاف ذلك مالكُ بن حَرِيمِ الهمدانيُّ: [من الطويل]

وواحدةٌ إِلَّا أبيتَ بَغْرَةً إِذَا ما سَوَّأَ الحَيَّ باتَ مَصْرَعاً (٢)
وثانيةٌ أَلَّا تَفْرُجَ جَارَتِي إِذَا كانَ جَارُ القومِ فيهِمُ مَفْرَعاً
وثالثةٌ أَلَّا أُصمَّتْ كَلْبِنَا إِذَا نَزَلَ الاضْيَافُ حِرْصاً لَتَوْزَعَا

٤١٢ - [استطراد لغوي]

قال: ويقال لَحَزَ الكلبُ الإِنَاءَ، فهو يَلْحِزُه لِحْزاً، ولحسَه فهو يَلْحَسُه لحساً. قال أبو يزيد: وذلك إِذا لَحَسَ الإِنَاءَ من باطنه. والقَرُو: مِيلَغة الكلب، فإذا كان للكلبِ فإِنما هو من أسْفَلِ كُوزٍ أو ما أشبه ذلك، وإلَّا فالقَرُو أسْفَلُ نَخلةٍ يُنَجَّرُ وَيَقُوبُ وَيُنْتَبَدُ فيه.

وقال الاعشى: [من السريع]

أرْمِي بها البِيدَ إِذا أَعْرَضْتَ
فِي مِجْدَلٍ شَيْدٍ بُنْيَانُهُ
وأنتَ بَيْنَ القَرُوِّ والعاصِرِ (٣)
يَزِلُّ عَنْهُ ظَفَرُ الطَّائِرِ (٤)

٤١٣ - [أحجية في الكلب]

وممَّا يُحاجي به النَّاسُ بَعْضُهُم بَعْضاً أن يقولوا: أتعرفون شيئاً إِذا قام كان أقصرَ منه إِذا قعد؟ يريدون الكلب، لأنَّ الكلبَ قعودُه إِقعاؤُه، وهو إِذا أقمَى كان أرفعَ لِسْمَكه، وأرفعَ فِي الهِواءِ طولاً منه إِذا قام. وقال عمر بن لُجأ: [من الرجز]
عليه حِنُوا قَتَبٍ مُسْتَقْدَمٍ مُقْعِ كإِقْعاءِ الكَلْبِ المِعْصِمِ (٥)

(١) البيت لوبرة بن معاوية الاسدي في الحماسة البصرية ٣/٣٧٧، وحماسة البحري ٢٦٣، وبلا نسبة في البخلاء ٢٣٨، والبيان والتبيين ٣/٧٩، وعيون الاخبار ٣/٢٤٢، واللسان (رزن)، وهو بقافية «أزرق» في اللسان (عتد).

(٢) الأبيات في الأصمعيات ٦٤.

(٣) ديوان الاعشى ١٩٧، ٢١١ (وطبعة جابر ص ٢٤٥)، والأول في اللسان والتاج (قرا)، والتهديب ٢٦٧/٩، ٢٦٨، وبلا نسبة في المقاييس ٥/٧٨، والمخصص ١١/٨٣، والثاني في اللسان وأساس البلاغة (جدل)، والتاج (وسط، جدل)، والمجمل ١/٤١٢، وبلا نسبة في المقاييس ٤٣٤/١.

(٤) المجدل: القصر المشرف.

(٥) ديوان عمر بن لُجأ ١٦١، والمعاني الكبير ٢٤٠.

ويقال ألقى الكلبُ إقعاءً، ولا يقال قعد ولا جلس، وفي الحديث: «أَنَّهُ نَهَى أَنْ يُقْعِيَ أَحَدُهُمْ فِي الصَّلَاةِ إِقْعَاءَ الْكَلْبِ»^(١).

٤١٤ - [معرفة فتاء الكلب وهرمه]

قال صاحب الكلب: يُعْرَفُ فِتَاءُ الْكَلْبِ وَهَرْمُهُ بِالْأَسْنَانِ، فَإِذَا كَانَتْ سَوْدَاءَ كَانَتْ دَلِيلًا عَلَى كِبَرِهِ، وَإِذَا كَانَتْ بِيضًا حَادَّةً دَلَّتْ عَلَى الْفِتَاءِ وَالْحَدَاثَةِ. وَقَالَ: أَسْنَانُ الذِّكْرِ أَكْثَرُ.

٤١٥ - [أصناف الحيوان الموصوفة بشدة المماضيغ]

وأصناف الحيوان المشقوقَةُ الأفواه كالكلب والأسد والفهد موصُوفَاتٌ بِشِدَّةِ المماضيغ والفك والخراطيم. كالكلب والخنزير والذئب، فأشبهه الكلبُ الأسدَ في شَحْوِ الفمِ وأتساعه، وعلى أن شَحْوُ فمه على مقدار جسمه، وأشبه الذئبَ والخنزيرَ في طول الخَظْمِ وامتداد الخُرطومِ، ولذلك كان شديد القلب، جيد الاسترواح. فجمع الكلب دون هذه الأصناف ما يصلح للرض والحطم، كما جمع ما يصلح للابتلاع والالتهام والحطم والاستمراء.

٤١٦ - [بعض ما قيل في الأسد]

والأسد حريصٌ واسع الشَّحْوِ، فهو يبتلع البَضْعَةَ التي لو رآها الإنسان لم يظنَّ أن حلَقَه يتَّسَعُ لمرور ذلك. ويقال إنَّ عنقَه عَظْمٌ واحدٌ واللِّقْمُ لا تجول فيه، وهو في ذلك قليلُ الرِّيقِ، فلا يسلسُ في حلَقه ما يمرُّ فيه، بل يبتلع لفرط نهمه وشحْوِ كحييه ضعفي ذلك المقدار.

وقد زعم ناسٌ أن الذي يدلُّ على أن عنق السَّبُعِ عَظْمٌ واحدٌ، ضعفه عن تصريفه عنقَه، فلا يلتفت إلا معاً، فيسمى الأصيد.

٤١٧ - [أسنان الذئب والأفاعي]

وقال جرّان العود في الذئب: [من البسيط]

شَدَّ المماضيغُ منه كلُّ مُلْتَمَتٍ وفي انذراعين والخُرطومِ تسهيل^(٢)

(١) مسند أحمد ٣/٢٣٣، والنهاية ٤/٨٩.

(٢) البيت من قصيدة تنسب إلى أكثر من شاعر، فهو من قصيدة لجران العود في ديوانه ٥٤-٦٠، وهو من قصيدة لابن مقبل في ديوانه ٢٧٠، وفي ديوان جرّان «وتروى لقحيف العقيلي، وقال خالد: هي لحكم الخضري». وانظر تعليق محقق ديوان ابن مقبل. شد المماضيغ: أي شد أضراره على ولد البقرة. كل منصرف: أي من كل ناحية من جانبي ولد البقرة. تسهيل: طول.

وقالوا في أسنان الذئب وفي أسنان بعض الحيات بأنها ممطولة^(١) في الفكين،
يذهبُ إلى أنه عظمٌ مخلوق في الفك، وأنه لا يُثغِر. وأنشدوا: [من السريع]
مُطَلَّنٌ فِي اللَّحْيَيْنِ مَطْلَأٌ إِلَى رَأْسٍ وَأَشْدَاقٍ رَحِيَّاتٍ
وَالْحَيَّاتُ تُوصَفُ بِسَعَةِ الْأَشْدَاقِ، وَالْأَفَاعِي خَاصَّةٌ هِيَ الْمَنْعُوتَةُ بِذَلِكَ.

وقال الشاعر - وهو جاهلي - : [من الكامل]

خُلِقَتْ لَهَا زُمُهُ عَزِيْنٌ وَرَأْسُهُ كَالْقُرْصِ فُلُطْحَ مِنْ طَحِيْنٍ شَعِيْرٍ^(٢)
وَيَدِيْرٌ عَيْنًا لِلوَقَاعِ كَانَهَا سَمْرَاءُ طَاحَتْ مِنْ نَفِيْضِ بَرِيْرٍ^(٣)
وَكَانَ شِدْقِيْهِ إِذَا اسْتَعْرَضْتَهُ شِدْقًا عَجُوْرٍ مَضْمُضَتْ لَطْهُوْرٍ

٤١٨ - [مما أشبه فيه الكلبُ الإنسان والأسد]

ومما أشبه فيه الكلبُ الإنسان والأسد، أن كلَّ واحد من هذه الأجناس إنما له
بطنُّ واحد، وبعدَ البطنِ المعى، إلا أن بعضَ بطنها أعظمُ من بعض، ويناسبها في
الذي ذكرنا الذئبُ والذئبُ، فما أكثرَ ما يناسبان الكلب، فلذلك صارا يتناكحان
ويتلاقحان. وهذا قول صاحب المنطق. قال: وأمعاء الكلب أشبهُ شيءٍ بأمعاء الحية،
وهذا أيضاً مما يزيدُ في قدره، لأنه إما أن يشبه الإنسان، وإما أن يشبه رؤساء السباع
ودواهي الحشرات، وكلما كانت هذه المعاني فيه أكثرَ كان قدره أكبر.

٤١٩ - [احتلام الحيوان]

قال: والكلب يحلمُ ويحتلم، وكذلك الفرس والحمار، والصبيُّ يحلم ولا
يحتلم، والثور في هذا كله كالصبيِّ. ويعرف ذلك في الكلب إذا تفرَّغَ وأنعظ.
وزعم أن الاحتلامَ قد عُويِن من الفرس والبرذون والحمار.

٤٢٠ - [الحيوان الذي يطاول عند السفاد]

قالوا: وليس العظال والتحام الفرجين إلا في الكلب والذئب، ومن أراد أن يُفرِّق
بين الكلاب إذا تعاطلت وتسافتت رامَ أمراً عسيراً.

(١) ممطولة: أي ممتدة داخلية.

(٢) الأبيات أنشدها أبو مهدية في الأصمعيات ١٢٣، ولابن أحمد البجلي في اللسان (فرطح)،
والتنبيه والإيضاح ١/٢٥٨-٢٥٩، والأول له في التاج (فرطح)، واللسان (عزا)، ولرجل من
بلحارث بن كعب في اللسان (فلطح)، والتهذيب ٥/٣٢٩، ولأبي مهدية في الجمهرة ٥٤٩
(٢/١٧١)، والأول والثالث بلا نسبة في ديوان المعاني ٢/١٤٥، والأول بلا نسبة في العين
٢/٢٠٥، وأساس البلاغة (عزو)

(٣) البرير: ثمر الأراك إذا أسود وبلغ.

قالوا: والحيوان الذي يطاول عند السَّفاد معروف، مثل الكلب والذئب والعنكبوت والجمل، وإن لم يكن هناك التحام. وإذا أراد العنكبوت السَّفادَ جَلَبَتِ الأنثى بعض خيوط نسجها من الوسط، فإذا فعلت ذلك فعلَ الذكر مثل ذلك، فلا يزالان يتدانيان حتى يتشابكا فيصير بطنُ الذكر قُبالةَ بطنِ الأنثى. وذلك شبيهٌ بعادات الضفادع.

٤٢١ - [تلاحم الذئب والذئبة عند السَّفاد]

وقال أبو الحسن عن بعض الأعراب، قال^(١): إذا هَجَمَ الرَّجُلُ على الذئب والذئبة وهما يتسافدان، وقد التحمَ الفرجان، قتلهما ذلك الهاجم عليهما كيف شاء، لأنهما قليلاً ما يوجدان كذلك، لأنَّ الذئب وحشيٌّ جداً وشهيٌّ^(٢) جداً، صاحبٌ قفرة^(٣) وخلوة، وانفراد وتباعد، وإذا أراد الذئبة توخى موضعاً من القفار لا يطؤه الأنيس، خوفاً على نفسه، وضناً بالذي يجد في المطاولة من اللذة.

وحدثني أحمد بن المثنى قال: خرجتُ إلى صحراءِ خوخٍ لجنابةٍ جنيتها وخفتُ الطلب، وأنا شابٌ، إذ عرض لي ذئب فكننتُ كلما دُرْتُ من شقِّ استدارِ بي، فإذا دُرْتُ له دارٌ من خلفي، وأنا وسطُ بريةٍ لا أجدُ معيناً إلا بشيء أسند إليه ظهري، وأصابني الدوار، وأيقنتُ بالهلكة. فبينما أنا كذلك وقد أصابني ما أصابني - وذلك هو الذي أراده الذئبُ وقدره - إذا ذئبةٌ قد عرضت، وكان من الصنع وتأخير الأجل أن ذلك كان في زمن احتياجها وتسافدها، فلما عاينها تركني وقصدَ نحوها، فما تلعمت^(٤) أن ركبها. وقد كنتُ قرأتُ في بعض الكتب أنها تلتحم، ففوقتُ سهمي وهما ينظران إليّ، فلما لم أرَ عندهما نكيراً حققَ ذلك عندي ما كان في الكتاب من تلاحمهما، فمشيتُ إليهما بسيفي حتى قتلتهما.

٤٢٢ - [زمان تلاحم الكلاب والخنازير]

قال: ومما يُعدُّ للكلاب أنها كثيراً ما تُلقحُ وتلقحُ لحال الدَّفءِ أو الخصب، والكلبُ والخنزير في ذلك سواء، ولا يكاد غيرهما من الأصناف يتلاقح في ذلك الزمان. فالكلبُ كما ترى يناع أيضاً مواضع الإساءة والمحاسن في جميع الحيوان.

(١) ربيع الأبرار ٥/٤١٨.

(٢) شهبي: شديد الشهوة.

(٣) ربيع الأبرار ٥/٤١٩.

(٤) ما تلعمت: ما لبث.

٤٢٣ - [أسوأ ما يكون الحيوان خلقاً]

قال: وإناث الكلاب تصعب أخلاقها إذا كان لها جراء . وكل شيء له بيض أو جراء أو فراخ فأسوأ ما يكون خلقاً وأنزق وأكثر ما يكون أذى وأعزماً - إذا كان كذلك، إلا إناث البقر.

والكلب كلما كان أسن كان صوته أجهر وأغلظ.

٤٢٤ - [سن تزواج الكلاب]

قال: والكلب ينزو إذا تمت له ستة أشهر، وربما كان ذلك منه وهو ابن ثمانية أشهر . والكلبة الأنثى تحمل واحداً وستين يوماً، أطول ما يكون، ولا تضع قبل أن يتم لحملها ستون يوماً، ولا يبقى الجرو ولا يثربى إذا قصر عن ذلك، والأنثى تصلح أن ينزى عليها بعد ستة أشهر

٤٢٥ - [ولد البكر أصغر جثة]

والكلبة والحجر^(١) والمرأة وغير ذلك، يكون أول نتاجها أصغر جثة، وكذلك البيض إذا كان بكرةً، وكذلك ما يخرج منه من فروج أو فرخ.

٤٢٦ - [سفاد الكلاب]

وذكور الكلاب تهيج قبل الإناث في السن، والإناث تهيج قبلها في وقت حركتها، وكلما تأخر وقت الحدث إلى تمام الشباب كان أقوى لولده . والكلاب لا تريد السفاد عمرها كله، بل إلى وقت معلوم . وهي تلقح إلى أن تبلغ ثماني عشرة سنة، وربما انتدرت الكلبة فبلغت العشرين .

والكلاب أجناس كثيرة: الكلب السلوقي يسفد إذا كان ابن ثمانية أشهر، والأنثى تطلب ذلك قبل الثمانية، وذلك عند شغور الذكر ببوله . والكلبة تحمل من نزو واحد . وقد عرف ذلك الذين عرفوا الكلاب وحضروا ليعرفوا ذلك . قال: والكلبة السلوقية تحمل سدس السنة ستين يوماً، وربما زادت على ذلك يوماً أو يومين . والجرو إذا وضع يكون أعمى اثني عشر يوماً ثم يبصر، والكلبة تسفد بعد وضعها في الشهر الثاني، ولا تسفد قبل ذلك .

(١) الحجر: أنثى الخيل .

ومن إناث الكلاب ما تحمل حُمس السنة، يعني اثنين وسبعين يوماً، وإذا وضعت الجراء تكون عمياء اثنين وعشرين يوماً.

ومن أصناف الكلاب ما يحمل رُبْع السنة، أعني ثلاثة أشهر، وتضع جراء وتبقى كذلك سبعة عشر يوماً، ثم تُرضع جِراءَها على عدد أَيامِها التي لا تبصر فيها.

وزعم أن إناث الكلاب تحيضُ في كلِّ سبعة أيام^(١)، وعلامة ذلك ورم أنفَارِها، ولا تقبلُ السفاد في ذلك الوقت، بل في السبعة التي بعدها ليكون ذلك تمامَ أربعة عشر يوماً أكثرَ ما يكون، وربما كان كذلك لتمام ستَّة عشر يوماً.

قالوا: وإناث الكلاب تُلقِي بَعْدَ وَضْعِ الجِراءِ رُطوبةً غليظةً بلغميةً، وإذا وضعتُها بعدَ الجِراءِ اعتراها هُزال، وكذلك عامةُ الإناث. ولبنها يظهرُ في أطبائها قبل أن تضعَ بخمسة أيام أكثر ذلك. وربما كثر اللبنُ في أطبائها قبل ذلك بسبعة أيام، وربما كان ذلك في مقدار أربعة أيام. ولبنها يظهرُ ويجود إذا وضعتُ من ساعتها. قال: فأما السلوقيةُ فيظهرُ لبنها بعد حملها بثلاثين يوماً، ويكون لبنها أولَ ما تضعُ غليظاً، فإذا أزم من رِقِّ ودقِّ. ولبنُ الكلابِ يخالفُ لبنَ سائرِ الحيوانِ بالغلظ، بعد لبن الخنازير والأرانب.

وقد تكون علامة مبلغُ سفادها مثلَ ما يعرضُ للنساءِ من ارتفاعِ الثديين. ومعرفة ذلك عسيرة، وهذه علاماتُ تظهرُ لإناث الكلاب. وذكورةُ الكلاب ترفعُ أرجلها وتبول لتمام ستَّة أشهر، ومنها ما لا يفعل ذلك إلى أن يبلغ ثمانية أشهر، ومنها ما يعجلُ قبل ذلك. قال: ونقول بقولِ عامٍ إنَّ الذكورَ تفعلُ ذلك إذا قويت، فأما الإناث فهي تبول مُقعيةً، ومنها ما تشغُر.

وأكثرُ ما تضعُ الكلبةُ اثنا عشرَ جرّواً، وذلك في الفَرط، وأكثر ذلك الخمسة والستة، وربما وضعت وأحداً^(٢). فأما إناث السلوقية فهي تضعُ ثمانيةَ أجراء، وإناثها وذكورها تسفد ما بقيت، ويعرضُ للكلاب السلوقية عَرَضٌ خاصٌ: وهي أنها كلما بقيت كانت أقوى على السُفاد.

٤٢٧ - [أعمار الكلاب]

وذكورة السلوقية تعيش عشرَ سنين، والإناث تعيش اثنتي عشرة سنة، وأكثر أجناس الكلاب تعيش أربعَ عشرة سنة. وبعض الأجناس تبقى عشرين سنة^(٣).

(١) ربيع الأبرار ٥/٤٢١.

(٢) ربيع الأبرار ٥/٤٢١.

(٣) ربيع الأبرار ٥/٤٢٢.

قال: وإناث الكلاب أطولُ أعماراً من الذكور، وكذلك هي في الجملة، وليس يُلقِي الكلب من أسنانه سنّاً ما خلا النَّابين، وإِنما يلقىهما إذا كان ابنَ أربعة أشهر.

قال: ومن أجل أن الكلاب لا تُلقِي غيرَ هذين النَّابين يشكُّ بعضُ الناس أنها لا تلقى سنّاً البتّة.

٤٢٨ - [أمراض الكلاب]

قال^(١): وللكلاب ثلاثة أصناف من المرض، وأسمائها: الكلبُ بفتح اللام، والذبحّة، والنقرس. والكلبُ جنون، فإنَّ عَرَضَ لشيء من الحيوان كَلْبٌ أيضاً أماته، ما خلا الإنسان. وهو داءٌ يقتل الكلاب، وتقتل به الكلابُ كلُّ شيء عضّته، إلا الإنسان فإنه يعالج فيسلم.

قال: وداء الكلب يعرض للحمار، فأما الجنون وذهابُ العقل فإنه يصيبُ كلُّ شيء، فمن ذلك ما يصيبُ الدوابَّ، فإنَّ منها ما يُصرَعُ كما يُصرَعُ المجنون. والسائس من الدواب: الذاهب العقل.

٤٢٩ - [صرع أعين الطبيب]

وقد كان شأن أعين الطبيب عَجَباً، وذلك أنه كان يُصرَعُ، واتَّفَقَ أنه كان له بغلٌ يصرَعُ، فكان ربّما اتَّفَقَ أن يُصرَعَا جميعاً^(٢)! وقد رأى ذلك كثير من أصحابنا البصريين.

٤٣٠ - [الصرع عند الحيوان]

والصرعُ عامٌ في الحيوان، ليس يسلم منه صنف منها حتّى لا يعرض له منه شيء. والإنسان فوق جميع الحيوان تعذيباً، وكذلك هو في العقل والمعرفة والاحتيال له، مع دفع المضرة واجتلاب المنفعة، وما أكثر ما يعتريهم ذلك. ومن ذلك ما يذهب، ومن ذلك ما لا يذهب.

٤٣١ - [صرع الفضلاء]

وقد كان بَحْتِيشَوْعُ المتطبِّب عَرَضَ له ذلك، وقد كان عرض لعبد الملك بن قُريب فذهب عنه. وربّما عرض للرجل الذي لا يُظنُّ به ذلك في بيان ولا تبیین، ولا

(١) ربيع الأبرار ٥/٤٢٢.

(٢) رسائل الجاحظ ٢/٢٦٤.

في أدب، ولا في اعتدالٍ من الأخلاط، والصحة من المزاج، ثم لا يعرض من ذلك إلا ما لا حيلة له فيه، كما كان يعرض ليشرب بن أبي عمرو بن العلاء النحوي المازني وكما عرض لعبد الرحمن ومنصور الأسديين، فما زالا كذلك حتى ماتا، ولم يبلغنا أنهما صرعا.

٤٣٢ - [الموتة]

والموتة^(١) جنس من الصرع، إلا أن صاحبه إذا أفاق عاد إلى كمال عقله كالنائم والسكران والمغشي عليه، وإن عاش صاحب الموتة في ذلك مائة عام. وليس يلقي شيء من الحيوان في هذا الباب كما يلقي الورشان.

٤٣٣ - [تباين درجات السكر لدى الحيوان]

وأما السكر فليس شيء من الحيوان إلا وهو يسكر، واختلاف سكره كاختلاف سكر الإنسان، فإن من الناس من تراه يتحدث وهو يشرب فلا تنكر منه شيئاً، حتى يغلب عليه نوم السكر ضربة واحدة، ومنهم من تراه والنبيذ يأخذ منه الأول فالأول، وتراه كيف تثقل حركته، ويغلظ حسه ويتمحق، حتى يطيش عليه السكر بالعبث، ويطبق عليه النوم. ومنهم من يأخذه بالعبث لا يعدوه. ومنهم من لا يرضى بدون السيف، وإلا بأن يضرب أمه ويطلق امرأته. ومنهم من يعتريه البكاء، ومنهم من يعتريه الضحك، ومنهم من يعتريه الملق والتفدية، والتسليم على المجالس، والتقبيل لرؤوس الناس، ومنهم من يرقص ويثب، ويكون ذلك على ضربين: أحدهما من العرض^(٢) وفضل الأشر^(٣)، والآخر تحريك المرارة، وهي علّة الفساد وهيجان الآفة.

وكل هذه الحالات والصور، والنعوت، والأجناس، والتوليد، الذي يختلف في طبائع الناس، وطبائع الأشربة، وطبائع البلدان والأزمان والأسنان، وعلى قدر الأعراق والأخلاق، وعلى قدر القلة والكثرة، وعلى قدر التصريف والتوفيق، قد وجدوه في جميع أصناف الناس والحيوان، إلا أن في الناس واحدة لم توجد في سائر الحيوان قط، فإن في الناس من لا يسكر البتة، كان [منهم] محمد بن الجهم وأبو عبد الله العمي.

(١) الموتة: الغشي والظنون.

(٢) العرض: الجنون وذهاب العقل.

(٣) الأشر: المرع.

وكان بين عقل زبيد بن حميد إذا شرب عشرة أرتال، وبين عقله إذا ابتداء الشرب، مقداراً صالح.

٤٣٤ - [سُكْرُ الْعَمِيِّ]

وإِذَا الْعَمِيُّ فَإِنَّ بَنِي عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَادِيِّينَ دَعَوْنِي مَرَّةً لِيَعَجَّبُونِي مِنْهُ، وَلَمْ يَنْبَهُونِي عَلَى هَذِهِ الْخَاصَّةِ الَّتِي فِيهِ، لِأَكُونَ أَنَا الَّذِي أَنْتَبَهُ عَلَيْهِ، فَدَخَلْتُ عَلَى رَجُلٍ ضَخْمٍ قَدَمٌ^(١) غَلِيظَ اللِّسَانِ، غَلِيظَ الْمَعَانِي، عَلَيْهِ مِنَ الْكَلَامِ أَشْلُ الْمُوْتَةِ، وَفِي مَعَانِيهِ اخْتِلَافٌ، لَيْسَ مِنْهَا شَيْءٌ يَوَاتِي صَاحِبَهُ وَلَا يَعَاوَنُهُ وَلَا يَشَارِكُهُ وَلَا يَنَاسِبُهُ، وَحَتَّى تَرَى أَنَّ أذُنَهُ فِي شِقِّ وَلِسَانِهِ فِي شِقِّ، وَحَتَّى تَظُنَّ أَنَّ كَلَامَهُ كَلَامُ مَحْمُومٍ أَوْ مَجْنُونٍ، وَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَقْطَعُ نِظَامَ الْمَعَانِي، وَيَخْلُطُ بَيْنَ الْأَسْفَلِ وَالْأَعَالِي. فَشَرِبَ الْقَوْمُ شُرْبَ الْهَيْمِ^(٢)، وَكَانَتْ لَهُمْ أَجْسَادٌ مَدْبَرَةٌ، وَأَجْوَابٌ مَنْكَرَةٌ، وَكَانَتْ كَأَنَّي رَجُلٌ مِنَ النَّظَّارَةِ. فَمَا زَالَ الْعَمِيُّ يَشْرَبُ رَطْلًا، وَيِرْقُ لِسَانَهُ، وَيَنْحَلُّ عَقْدَهُ^(٣)، وَيَصْفُو ذَهْنَهُ، وَيَذْهَبُ كَدْرَهُ. وَلَوْ قُلْتُ إِنَّي لَمْ أَرْ مِثْلَهُ حُسْنِ نَفْسٍ كُنْتُ صَادِقًا. فَالْتَفْتُ إِلَيَّ الْقَوْمُ أَجْمَعُهُمْ فَقَالُوا: لَوْلَا هَذَا الْعَجَبُ مَا عَجَبْنَاكَ الْيَوْمَ مَعَ حَدَاثَةِ عَهْدِنَا بِكَ.

وزعم العمي وكان كثير المنازعة عند القضاة، أنه كان إذا قارب العشرة الأرتال ثم نازع الخصوم، كان ذلك اليوم الذي يفوت فيه ذرع الخصوم^(٤) للحن بحجته^(٥)، ويستميل فيه رأي القاضي المنعقد في مجلسه الطويل، القطوب في وجه من نازع إليه.

وقال الشاعر: [من الطويل]

وجدتُ أقلَّ النَّاسِ عَقْلًا إِذَا انْتَشَى أَقْلَهُمْ عَقْلًا إِذَا كَانَ صَاحِبِيَا^(٦)
تَزِيدُ حُسَى الْكَاسِ السَّفِيهِ سَفَاهَةً وَتَتْرُكُ أَخْلَاقَ الرِّجَالِ كَمَا هِيََا^(٧)

قال: وهذا شعر بعض المولدين، والأعاريب لا تُخطئ هذا الخطأ؛ قد رأينا أسفه الناس صاحباً أحلم الناس سكران؛ وهو مرداس صاحب زهير، ورأينا أحسن

(١) القدم: الأحمق.

(٢) الهيم: الإبل العطاش.

(٣) عقدة: بمعنى قوته.

(٤) فات ذرعهم: غلبهم.

(٥) اللحن: أن يفتن المرء لحجته.

(٦) البيتان لأبي نواس في ديوانه ٢١٣، وبلا نسبة في ديوان المعاني ١/ ٣٢٤.

(٧) رواية صدر البيت في الديوان (تزيد سفيه القوم فضل سفاهة). الحسى: جمع حسوة، وهي المرة

من الحسو.

النَّاسَ خُلُقاً وَأَوْزَنَهُمْ حِلْماً، حَتَّى إِذَا صَارَ فِي رَأْسِهِ رِطْلٌ كَانَ أَخْفَّ مِنْ فَرَّاشَةٍ (١)،
وَأَكْثَرَ نَزْواً مِنْ جَرَادَةٍ رَمِيضَةٍ (٢)، فَإِنَّ الْمَثَلَ بِهَا يُضْرَبُ.

٤٣٥ - [سبب ما له عرف المعتزلة سكر البهائم]

وكان سبب ما له عرف أصحابنا سكر البهائم . أن محمد بن علي بن سليمان الهاشمي لما شرب على علويه كلب المطبخ، وعلى الدهمان، وعلى شراب البصريين، وعلى كل من نزع إليه من الأقطار، وتحدها من الشراب الجواد من الشراب، أحب أن يشرب على الإبل من البخاتي والعراب، ثم على الظلف من الجواميس والبقر، ثم على الخيل العتاق والبراذين، فلما فرغ من كل عظيم الجثة واسع الجفرة (٣). صار إلى الشاء والطباء، ثم صار إلى النسور والكلب وإلى ابن عرس، وحتى أتاهم حاور فارغبوه، فكان يحتال لأفواه الحيات حتى يصب في حاق (٤) أجوافها بالأقماع المدنية، وبالمساعط، ويتخذ لكل شيء شكله، وكان ملكاً تواتيه الأمور، وتطيعه الرجال، فأبصروا تلك الاختلافات في هذه الأجناس المختلفة.

٤٣٦ - [نعت النظام]

فخبرني أبو إسحاق إبراهيم النظام، وقد كان جالساً حيناً - وكان إبراهيم مأمون اللسان، قليل الزلل والزبغ في باب الصدق والكذب . ولم أزعم أنه قليل الزبغ والزلل على أن ذلك قد كان يكون منه وإن كان قليلاً، بل إنما قلت على مثل قولك: فلان قليل الحياء، وأنت لست تريد هناك حياء البتة، وذلك أنهم ربما وضعوا القليل في موضع ليس . وإنما كان عيبه الذي لا يفارقه سوء ظنه، وجودة قياسه على العارض والخاطر والسابق الذي لا يوثق بمثله . فلو كان بدّل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذي كان قاس عليه أمره على الخلاص، ولكنه كان يظن ثم يقيس عليه وينسى أن بدء أمره كان ظناً فإذا اتقن ذلك وأيقن، جزم عليه، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه . ولكنه كان لا يقول سمعت، ولا رأيت . وكان كلامه إذا خرج مخرج الشهادة القاطعة لم يشك السامع أنه إنما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه، أو عن معاينة قد بهرته .

(١) مجمع الأمثال ١/٢٥٤، والمستقصى ١/١٠٤، وجمهرة الأمثال ١/٤٢٨ .

(٢) في الأمثال: (أنزى من جرادة) والمثل في المستقصى ١/٣٠٩، وبرواية: (أنزى من جراد) في مجمع الأمثال ٢/٣٥٦، ٣٩٢، وجمهرة الأمثال ٢/٣٢٣ . الرمضة: التي أصابها الرمض، أي شدة الحر .

(٣) الجفرة: جوف الصدر، ومن الفرس وسطه .

(٤) حاق: وسط .

٤٣٧ - [الظبي أملح الحيوان سكرًا]

فحدثني إبراهيم قال: شهدت أكثر هذه التجربة التي كانت منهم في إسكار البهائم وأصناف السباع، ولقد احتال لأسد مقلّم الأظفار يُنادى عليه: العجب العجب!! حتى سقاه وعرف مقداره في الاحتمال، فزعم، أنه لم يجد في جميع الحيوان أملح سكرًا من الظبي. ولولا أنه من الترفه لكنت لا يزال عندي الظبي حتى أسكره وأرى طرائف ما يكون منه .

٤٣٨ - [التعلم والجرأة عند بعض الحيوان]

قال: وإناث الكلاب السلوقية أسرع تعلمًا من الذكورة.

قال: وجميع أصناف السباع ذكورتها أجراً وأمضى وأقوى، إلا الفهدة والذبيبة. والعامّة تزعم أنّ اللبؤة أجراً من الأسد، وليس ذلك بشيء، وهو أنزق وأحد، وأفرق من الهجهجة^(١)، وأبعد من التصميم وشدة الصولة.

٤٣٩ - [بين عروة بن مرثد و كلب حسبه لصاً]

قال بشر بن سعيد^(٢): كان بالبصرة شيخ من بني نهشل يقال له عروة بن مرثد، نزل ببني أخت له في سكة بني مازن، وبنو أخته من قريش، فخرج رجالهم إلى ضياعهم وذلك في شهر رمضان، وبقيت النساء يصلين في مسجدهم، فلم يبق في الدار إلا كلب يعس، فرأى بيتاً فدخل وانصفق الباب، فسمع الحركة بعض الإماء فظنوا أنّ لصاً دخل الدار فذهبت إحداهن إلى أبي الأعز، وليس في الحي رجل غيره، فأخبرته فقال أبو الأعز: ما يبتغي اللص منّا؟! ثم أخذ عصاه وجاء حتى وقف على باب البيت فقال: إيه يا ملامان^(٣)! أما والله إنك بي لعارف، وإنني بك أيضاً لعارف، فهل أنت إلا من لصوص بني مازن، شربت حامضاً خبيثاً، حتى إذا دارت الأقداح في رأسك منتك نفسك الأماني، وقلت دور بني عمرو، والرجال خلف، والنساء يصلين في مسجدهن، فاسرقهن! سوءة والله، ما يفعل هذا الأحرار! لبس والله ما منتك نفسك! فأخرج وإلا دخلت عليك فصرمتك مني العقوبة! لايم الله لتخرجن أو لاهتن هتفة مشؤومة عليك، يلتقي فيها الحيان: عمرو وحظلة، ويصير أمرك إلى

(١) الهجهجة: الصياح.

(٢) ورد الخبر في عيون الاخبار ١/١٦٧-١٦٨، دون ذكر اسم الراوي.

(٣) ملامان: لثيم.

تباب، ويجيء سعدٌ بعددِ الحصى، ويسيل عليك الرجالُ من هاهنا وهاهنا!! ولئن فعلتَ لتكوننَّ أشامَ مولودٍ في بني تميم!! فلما رأى أنه لا يجيبه أخذَهُ باللين وقال: اخرج يا بُنيَّ وأنتَ مستور، إني والله ما أراك تعرفني، ولو عرفتنى لقد قنعتَ بقولي واطمأنتَ إليَّ، أنا عروة بن مرثد أبو الأعزِّ المرثدي، وأنا خالُ القومِ وجلدةٌ ما بين أعينهم لا يعصونني في أمر، وأنا لك بالذمة كفيلٌ خفير، أصيرك بين شحمة أذني وعاتقي لا تُضار، فأخرج فانتَ في ذمتي، وإلا فإنَّ عندي قَوصرتين^(١) إحداهما إلى ابن أختي البارِّ الوصول. فخذُ إحداهما فانتبذها حلالاً من الله تعالى ورسوله ﷺ. وكان الكلبُ إذا سمعَ الكلامَ أطرق، وإذا سكتَ وثبَ يُريغُ المخرج، فتهافت الأعرابيُّ، أي تساقط^(٢)، ثم قال: يا ألامَ الناسِ وأوضعهم، ألا يأتي لك أنا منذُ الليلة في وادٍ وأنتَ في آخر، إذا قلتُ لك السوداءَ والبيضاءَ تسكتُ وتطرق، فإذا سكتُ عنكَ تَريغُ المخرج!؟ والله لتخرجنَّ بالعفو عنك أو لالجنَّ عليك البيتَ بالعقوبة! فلما طال وقوفه جاءتْ جاريةٌ من إماءِ الحيِّ فقالت: أعرابيٌّ مجنون!! والله ما أرى في البيتِ شيئاً!! ودفعت البابَ فخرج الكلبُ شداً، وحادَ عنه أبو الأعزِّ مستلقياً، وقال: الحمدُ لله الذي مسَّخك كلباً، وكفاني منك حرباً!! ثم قال: تالله ما رأيتُ كالثَّيلة، ما أراه إلا كلباً!! أمَّا والله لو علمتُ بحاله لو لجت عليه.

٤٤٠ - [خصال الديك]

قال صاحب الديك: في الديك الشجاعة، وفي الديك الصبرُ عند اللِّقاء، وهم لا يجدون الصبرَ تحت السَّياطِ والعصا، إلا أن يكون ذلك موصولاً بالصبرِ في الحرب على وقع السَّلاح.

وفي الديك الجولان، وهو ضرب من الروغان، وجنسٌ من تدبير الحرب، وفيه الثقافةُ والتسديد^(٣)؛ وذلك أنه يقدرُ إيقاعَ صبيصيته^(٤) بعين الديك الآخر ويتقرب إلى المذبح فلا يخطئ.

وهم يتعجبون من الجزار، ويضربون به المثل إذ كان لا يخطئُ اللَّبَّةَ، ومن اللحامِ إذا كان لا يخطئُ المَفْصِلَ، ولذلك قالوا في المثل: «يطبقُ المحزُّ ولا يخطئُ

(١) القوصرة: وعاء للتمر.

(٢) تساقط: تخاذل.

(٣) الثقافة: الحذق. التسديد: صدق الإصابة.

(٤) الصيصة: شوكة في رجل الديك

المَفْصِلُ!»^(١). وهذا القولُ يذمُّون به ويمدحون. والديك في ذلك أعجب، وله مع الطَّعنة سرعة الوثبة، والارتفاع في الهواء. وسلاحه طرير^(٢)، وفي موضع عجيب، وليس ذلك إلا له، وبه سمى قرن الثور صيصية، ثم سموا الآطام^(٣) التي كانت بالمدينة للامتناع بها من الأعداء صياصي، قال الله عز وجل: ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾^(٤). والعربُ تسمي الدَّارِعَ وذا الجِنَّة^(٥) صاحبَ سلاح، فلما كان اسم سلاح الديك وما يمتنع به صيصية، سموا قرن الثور الذي يجرح صيصية. وعلى أنه يشبهه في صورته بصيصية الديك وإن كان أعظم. ثم لما وجدوا تلك الآطام معاقلهم وحصونهم وجنتهم، وكانت في مجرى الترس والدرع والبيضة، أجروها مجرى السلاح، ثم سموها صياصي. ثم أسموا شوكة الحائك التي بها تهيأ السداة واللحمة صيصية إذ كانت مشبهة بها في الصورة، وإن كانت أطول شيئاً؛ ولأنها مانعة من فساد الحوك والغزل؛ ولأنها في يده كالسلاح، متى شاء أن يجأ بها إنساناً وجاءه به^(٦).

وقال دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ: [من الطويل]

نَظَرْتُ إِلَيْهِ وَالرَّمَا حُ تَنَوَّشُهُ كَوَقَعِ الصِّيَاصِي فِي النَّسِيحِ الْمُمَدَّدِ^(٧)

٤٤١ - [استطراد لغوي]

وقد تسمي العربُ إبرة العقرب شوكة، كما تسمي صيصية الديك شوكة، وهي من هذا الوجه شبيهة بشوك النخل.

ويقال لمن ضربته الحمرة. قد ضربته الشوكة؛ لأنَّ الشوكة إذا ضربت إنساناً، فما أكثر ما تعتريه من ذلك الحمرة.

(١) في مجمع الأمثال ٥٧/١: (إنك لتكثر الحز وتخطئ المفضل).

(٢) سلاح طرير: محدد ماضٍ.

(٣) الآطام: الحصون من الحجارة.

(٤) ٣٦ / الاحزاب: ٣٣.

(٥) الدارع: لابس الدرع، وهو ثوب حديدي. الجنة: ما يحمله المرء ليقى نفسه.

(٦) وجأ: ضرب وطعن.

(٧) ديوان دريد بن الصمة ٤٨، والأصمعيات ١٠٩، واللسان (نوش، صيص، شيق، صيا)، والعين

١٧٦/٧، والتاج (صيص)، والتهذيب ١٢/١٦٦، وبلا نسبة في الجمهرة ٢٤٢، والمخصص

١٢/٢٦٠، وراجع المزيد من مصادر البيت في ديوانه.

وقد قال القَطاميُّ في تسمية إبرة العقرب شوكة: [من الطويل]

سرى في جليد الأرض حتى كأنما تخزم بالأطراف شوك العقارب^(١)
وتُوصف الحجر^(٢) وتشبه بالشوكة؛ لأنَّ الشوكة غليظة المآخر، لطيفة
المقادم. والشوك والسلاء سواء. وقال في ذلك علقمة بن عبدة يصف الحجر: [من
البيسط]

سلاءة كعصا النهدي غل لها ذو فيئة من نوى قران معجوم^(٣)

ومن سمى إبرة العقرب حمة فقد أخطأ. وإنما الحمة سموم ذوات الشعر
كالدبر^(٤) والزنابير، وذوات الأنياب والأسنان كالأفاعي وسائر الحيات، وسموم ذوات
الإبر من العقارب. فأما البيش^(٥) وما أشبهه من السموم، فليس يقال له حمة.

وها هنا أمور لها سموم في خراطيمها، كالذبان والبعوض وأشياء من الحشرات
تعضُ وربما قتلت، كالشبت^(٦) وسام أبرص. والطبوع^(٧) شديد الأذى، والرتيلاء^(٨)
ربما قتلت، والضمج^(٩) دون ذلك، وعقارب طيارة: ولم نرهم يسمون جميع السموم
بالحمة، فقلنا مثل ما قالوا، وانتهينا إلى حيث انتهوا.

وقد يُعرف بعضُ الناس بأنه متى عضَّ قتل، كان منهم صفوان أبو جشم
الثقفي، وداود القراد.

وسيقع هذا الباب في موضعه على ما يمكننا إن شاء الله تعالى.

والناس يسمون الرجل إذا بلغ من حرصه ألا يدع ذكراً، غلاماً كان أو رجلاً،

(١) ديوان القطامي ٤٧، واللسان والتاج (وكع، خزم)، والعين ١٨٢/٢، وأساس البلاغة (شوك).

(٢) الحجر: أنثى الخيل.

(٣) ديوان علقمة ٧٤، واللسان (سلا، قرر، سلل، غلل، عجم)، والتاج (سلا، فيا، قرر، سلل، غلل)،
والمخصص ٥٩/٦، ١٦٢/٨، ٣٨/١٦، وبلا نسبة في التهذيب ٣٩٢/١، والجمهرة ١٠٧٤،
والمقاييس ٣٧٧/٤، والعين ٢٣/٥، والمجمل ٧/٤.

ذو فيئة: ذو رجعة. قران: قرية باليمامة مشهورة بالنخل. معجوم: ممضوغ.

(٤) الدبر: جماعة النحل.

(٥) البيش: نبات سام.

(٦) الشبت: العنكبوت ودوية كثيرة الأرجل.

(٧) الطبوع: صغار القردان.

(٨) الرتيلاء: ضرب من العناكب.

(٩) الضمج: دوية تلسع، وهي ما يعرف بالبق.

وَحَصِيًّا كَانَ أَوْ فَحْلًا، إِلَّا نَكَحَهُ مِنْ فَرَطٍ غُلْمَتِهِ، وَمِنْ قُوَّةِ فَحْلَتِهِ: صَبِيصِيَّةٌ. وَيَقُولُونَ: مَا فُلَانٌ إِلَّا صَبِيصِيَّةٌ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَسْمٌ لِمَنْ اشْتَدَّ لَوَاطُهُ؛ تَشْبِيهًا مِنْهُمْ بِصَبِيصِيَّةِ الدِّيكِ فِي الْحِدَّةِ وَالصَّلَابَةِ.

٤٤٢ - [مزايا الديك]

وللديك انتصابه إذا قام، ومباينته صورة في العين لصورة الدجاجة، وليس هذا الفرق الواضح من جميع الإناث والذكور موجوداً إلا فيه، وليس ذلك للحمام والحمامة، ولا للحمار والحمارة، ولا للبرذون والرَّمْكة^(١) ولا للفرس والحجر^(٢)، ولا للجمل والثاقة؛ وليس ذلك إلا لهذه الفحولة لأنها كالرجل والمرأة، والتيس والظبية، والديك والدجاجة وكالفحل والنخلة المطعمة. ألا ترى أنك لو رأيت ناقة مقبلة لم تدر أناقة هي أم جمل، حتى تنظر إلى موضع الثيل والضرع، وإلى موضع الحيا. وكذلك العنز، وكذلك جميع ما وصفت، إلا أن يدعوا أن للعامة أو لبعض الخاصة في ذلك خصوصية. ولذلك ضربوا المثل بالتيس والنخلة والفحل، فاشتقوا من هذا الفحل. وهذا أيضاً من خصال الديك.

ثم للديك لحية ظاهرة، وليست تكون اللحي إلا للجمل فإنه يوصف بالعثنون، وإلا للتيس وإلا للرجل. وقال الرّاجز في الجمل: [من الرجز]

مختلط العثنون كالتيس الأحمّ سامٍ كان رأسه فيه ودم
إذ ضمّ من قطريه هياج قَطم

ثم للديك بعد صاحب اللحية والفرق^(٣). وقالت امرأة في ولدها وزوجها: [من الرجز]

* أشهبَ ذي رأسٍ كراسِ الديك^(٤) *

أما قولها أشهب، فإنها تريد أن شعر جسده قد ابيض من الكبر، وإنما جعلت شعر رأسه كراس الديك لأنه كان مخضوب الرأس واللحية بالحمر، ثم لم ترض له بشبه الرجال من هذا الوجه حتى جعلت رأسه أفرق، وذلك شيء من الجمال والوقار والفضل، لا يتهيأ للناس مع كمالهم وتمامهم إلا بالتكلف والاحتيال فيه.

(١) الرمكة: أنثى الخيل الاعجمية.

(٢) الحجر: أنثى الخيل.

(٣) الفرق: انفراق العرف.

(٤) الرجز بلا نسبة في اللسان والتاج وأساس البلاغة (حنك)، والمخصص ٢٣/٣.

ثمَّ يبلغ من شدّة تعجله ومن قوّته على السّفاد، وعلى الباب الذي يفخر به الإنسان إذا كان ذا حظٍّ منه وهو ممّا يُذْكي النّفْس - كنعو ما ذكر عن التّيس المراطي، وكنحو ما تراهم يُبركون للّبُختي الفالج عدّة قلاص^(١)، فإذا ضَرَب الأُولى فخافوا عليها أن يحطّمها وهو في ذلك قد رمى بمائه مراراً أفلته الرّجالُ على التي تليه في القرب، حتى يأتي على الثّلاث والأربع على ذلك المثل. وما دعاهم إلى تحويله عن الثّالثة إلى الرّابعة إلاّ تخوفهم من العجز منه.

وزعم أبو عبد الله الأبرص العمّي، وكان من المعتزلين، أن التّيس المراطي قرع في أول يومٍ من أوّل هَيْجَةِ نَيْفًا وثمانين قرعة.

والنّاسُ يحكون ما يكون من العصفور في السّاعة الواحدة من العدّد الكثير. والنّاسُ يُدخلون هذا الشّكل في باب الفضل، وفي باب شدّة العجلة وتظاهر القوّة. والديك يكون له وحده الدّجاج الكثير، فيوسّعها قمطاً وسفاداً.

وقد قلنا في حالة البيض الكثير الترابي وقلبه إيّاه بسفاد إلى الحيوانيّة. وعلى أن الذي يخصيه إنّما يُخرج له من بين الرّمكي^(٢) وموضع القطاة^(٣) بيضتين عظيمتين معروفتين.

وأنا رأيتُ ديكاً هندياً تسنّم دجاجةً هندية فلم يتمكّن منها، فرأيت نطفته حين مجّها - وقد زلقت عن ظهرها - على مدرّة^(٤)، وكانت الدار مثارّة^(٥) لتجعل بُستاناً، فإذا تلك المجة كالبزقة البيضاء، فأخذها بعض من كان معنا فشمّها حين رأى بياضها وخثورتها وكدرتها، ليعلم هل تناسب ريحها ريح نطفة الإنسان، وريح طلع الفحّال، فلم يجد ذلك.

ثمّ معرفة الديك بالليل وساعاته، وارتفاق بني آدم بمعرفته وصوته: يعرفُ آناء الليل وعددَ الليل وعددَ السّاعات، ومقادير الأوقات، ثمّ يقسّط أصواته على ذلك تقسيطاً موزوناً لا يُغادر منه شيئاً. ثمّ قد علمنا أنّ الليل إذا كان خمس عشرة ساعة

(١) البُخت: الإبل الخراسانية. الفالج: الجمل الضخم ذو السنامين يحمل من السند للفحلة. القلاص: جمع قلوص؛ وهي الناقة الشابة.

(٢) الرّمكي: أصل ذنب الطائر.

(٣) القطاة: العجز، أو ما بين الوركين.

(٤) المدرّة: قطعة يابسة من الطين.

(٥) أرض مثارّة: محروثة.

أنه يقسُط أصواته المعروفة بالعدد عليها، كما يقسطها والليل تسع ساعات، ثم يصنع فيما بين ذلك من القسمة وإعطاء الحصاص على حساب ذلك. فليعلم الحكماء أنه فوق الأسطرلاب، وفوق مقدار الجزر والمد على منازل القمر، وحتى كان طبعه فلک على حدة. فجمع المعرفة العجيبة والرعاية العجيبة.

ورب معرفة تكون نبيلة وأخرى لاتكون في طريق النبالة. وإن كانت المعارف كلها مفصلة مقدرة، إلا أنها في منازل ومراتب. وليس في الأرض معرفة بدقيق ولا جليل وهي في نفسها شريفة كريمة.

والمعرفة كلها بصر، والجهل كله عمى، والعمى كله شين ونقص، والاستبانة كلها خير وفضل.

ثم له بعد ذلك ارتفاق الناس بهذا المعنى منه.

ومن ذلك بعد صوته، وأنه يدل على أن موضعه مأهول مانوس، ولذلك قالوا: لا يكون البنيان قرية حتى يصنع فيها ديك.

وليس في الأرض طائر أملح ملحاً من فرُوج، وليس ذلك الاسم إلا لولد الديك، وإلا فكل شيء يخرج من البيض فإنما هو فرخ والفروج حين تنصدع عنه البيضة، يخرج كاسباً عارفاً بموضع لقط الحب وسد الخلة، وهو أصيد للذباب من السوداني^(١)، ويدرج مع الولادة بلا فصل.

وهذا مع ما أعطى من محبة النساء، ورحمة الرجال، وحسن الرأي من جميع الدار، ثم أتباعه لمن دعاه، وإلقه لمن قرّبه. ثم ملاحه صوته وحسن قده، ثم الذي فيه مما يصح له الفروج ويتفرج فيه.

٤٤٣ - [تفضيل الديك على الطاوس]

وكان جعفر بن سعيد، يزعم أن الديك أحمد من الطاوس، وأنه مع جماله وانتصابه واعتداله وتقلعه إذا مشى، سليم من مقابح الطاوس ومن موقه وقبح صورته، ومن تشاؤم أهل الدار به ومن قبح رجليه، ونذالة مرآته. وزعم أنه لو ملك طاوساً لآلبس رجليه خفاً.

وكان يقول: وإنما يفخر له بالتلاوين، وبتلك التعاريج التي لألوان ريشه. وربما

(١) السوداني: طائر من فصيلة الزرازير.

رأيتَ الدَّيْكَ النَّبْطِيَّ وفيه شبيهُ بذلك . إلاَّ إنَّ الدَّيْكَ أَجْمَلُ من التَّدْرُجِ^(١)؛ لمكان الاعتدال والانتصاب والإشراف، وأسلمُ من العيوب من الطاوس .

وكان يقول: ولو كان الطاوس أحسنَ من الدَّيْكَ النَّبْطِيَّ في تلاوين ريشه فقط لكان فضلُ الديك عليه بفضلِ القَدِّ والخَرْطِ، وبفضلِ حُسْنِ الانتصاب وجودة الإشراف أكثرَ من مقدارِ فضلِ حُسْنِ ألوانِه على ألوانِ الديك، ولكانَ السليمُ من العيوب في العين أَجْمَلُ لاعتراض تلك الخصالِ القبيحة على حسن الطاوس في عين الناظر إليه . وأوَّلُ منازل الحمد السلامة من الذَّمِّ .

وكان يزعم أن قول الناس فلانٌ أحسن من الطاوس، وما فلان إلا طاوس، وأن قولَ الشاعر: [من الرجز]

* جلودها مثل طواويس الذهب^(٢) *

وأنهم لما سموا جيشَ ابن الأشعث الطواويس لكثرة من كان يجتمع فيه من الفتيان المنعوتين بالجمال، إنما قالوا ذلك لأن العامة لا تبصر الجمال . وكفرسٌ رائعٌ كريم أحسنُ من كلِّ طاوسٍ في الأرض، وكذلك الرَّجُلُ والمرأة . وإنما ذهبوا من حسنه إلى حسن ريشه فقط، ولم يذهبوا إلى حسن تركيبه وتنصُّبه، كحسن البازي وانتصابه، ولم يذهبوا إلى الأعضاء والجوارح وإلى الشَّياتِ والهيئة، والرأس والوجه الذي فيه .

وكان جعفر يقول: لما لم يكن في الطاوس إلا حسنه في ألوانه، ولم يكن فيه من المحاسن ما يزاحمُ ذلك ويجاذبه وينازعه ويشغل عنه، ذُكِرَ وتبيَّن وظهر . وخصال الديك كثيرة، وهي متكافئة في الجمال . ونقول: لم يكن لعبد المطلب في قريش نظير، وكما أنه ليس للعرب في النَّاسِ نظير؛ وذلك حين لم تكن فيه خصلةٌ أغلبَ من أختها، وتكاملت فيه وتساوت، وتوافت إليه فكان الطَّبْعُ في وزن المعرفة، فقالوا عند ذلك: سيِّدُ الأبطح وسيِّدُ الوادي وسيِّدُ قريش . وإذا قالوا سيِّدُ قريش فقد قالوا سيِّدُ العرب، وإذا قالوا سيِّدُ العرب فقد قالوا سيِّدُ الناس .

ولو كان مثل الأحنف الذي برع في حلمه وبرع في سائر خصاله لذكروه بالحلم؛ ولذلك ذكر قيس بن زهير في الدهاء، والحارث بن ظالم في الوفاء، وعتيبة ابن الحارث في النجدة والثقافة .

(١) التدرج: طائر حسن الصوت، موطنه بلاد فارس . حياة الحيوان ١ / ٢٣٠ .

(٢) الرجز بلانسة في ثمار القلوب (٦٨٩) .

ولو أن الأحنف بن قيس رأى حاجب بن زُرارة، أو زُرارة بن عدس، أو حصن بن حذيفة، لقدّمهم على نفسه. وهؤلاء عيون أهل الوبر لا يُذكرون بشيءٍ دون شيءٍ لاستواءِ خصال الخير فيهم.

وفي منحول شعر النابغة: [من الوافر]

فالفيتُ الأمانة لم تخنُها كذلك كان نوحٌ لا يخونُ^(١)

وليس لهذا الكلام وجهٌ، وإنّما ذلك كقولهم كان داودٌ لا يخون، وكذلك كان موسى لا يخون عليهما السلام. وهم وإن لم يكونوا في حالٍ من الحالات أصحاب خيانةٍ ولا تجوزُ عليهم، فإنّ الناس إنّما يضربون المثلَ بالشيء النادر من فعل الرجال ومن سائر أمورهم، كما قالوا: عيسى ابن مريم رُوح الله، وموسى كليم الله، وإبراهيم خليل الرحمن، صلى الله عليهم وسلم.

ولو ذكر ذاكرُ الصبرِ على البلاءِ فقال: كذلك كان أيوب لا يجزع كان قولاً صحيحاً. ولو قال: كان كذلك نوح عليه السلام لا يجزع لم تكن الكلمة أعطيت حقّها.

ولو ذكر الاحتمال وتجرّع الغيظ فقال: وكذلك كان معاوية لا يسفه، وكان حاتم لا يفحش، لكان كلاماً مصروفاً عن جهته ولو قال: كذلك كان حاتم لا يبخل لكان ذلك كلاماً معروفاً ولكان القول قد وقع موقعه، وإن كان حاتم لا يُعرف بقلّة الاحتمال وبالتسرّع إلى المكافاة.

ولو قال: سألتك فمنعنتني وقد كان الشّعبي لا يمنع، وكان النّخعي لا يقول «لا»، لكان غير محمودٍ في جهة البيان، وإن كان ممّن يُعطي ويختار «نعم» على «لا». ولكنّ لما لم يكن ذلك هو المشهور من أمرهما لم تُصرف الأمثال إليهما، ولم تضرب بهما.

قال جعفر: وكذلك القول في الديك وجماله؛ لكثرة خصاله، وتوازن خلاله، ولأنّ جمال الديك لا يلهج بذكره إلاّ البُصراء بمقادير الجمال والتوسط في ذلك، والاختلاط والقصد، وما يكون ممزوجاً وما يكون خالصاً. وحسن الطاوس حسن لا تعرف العوامّ غيره، فلذلك لهجت بذكره.

(١) ديوان النابغة الذبياني ٢٢٢.

ومن الدجاج الخلاسي^(١) والهنديّ، ومن الدجاج الزنجي ومنها الكسكري^(٢)، ومن الديكة ما يُخصى فلا يبلغه في الطيب والسمن شيء وإن اشتد لحمه. وإن كان غير خصي فقد يمدح ذلك من وجه هو أرد عليه في باب الفخر، من رخاوة اللحم واستطابة الأكل. وعلى أنه لو كان أذناه من بعض سباع الطير، أو عدا خلفه إنساناً، فكان يريد أخذه حتى إذا فسخه البهر ارتد في موضعه لا يبرحه، ثم ذبحه على المكان، لجمع به الخصال كلها.

ولو علّق في عنقه حجرٌ ليلته بعد أن ذبحه، أو أولج بطنه شيئاً من حلتيت^(٣) لجمع به الخصال؛ فإنه أعمل فيه من البورق وقشور البطيخ في اللحم المفصل.

وهو بعدُ غيورٌ يحمي دجاجه. وقال الرّاجز: [من الرّجز]
* يغارُ والغيرةُ خلُقٌ في الذكْر *
وقال الآخر: [من الكامل]

* الفحل يحمي شولهُ معقولاً^(٤) *

٤٤٤ - [مزايا لحم الدجاج]

ولحم الدجاج فوق جميع اللحمان في الطيب والبياض، وفي الحسن. والملوك تقدّمه على جميع الفراخ والنواهض^(٥)، والبطّ، والدراج، وهم للدراج آكلٌ منهم للجداء الرضع، وللعنق الحمر^(٦) من أولاد الصفايا.

والدجاج أكثر اللحوم تصرفاً، لأنها تطيب شواءً، ثم حاراً وبارداً، ثم تطيب في البزماورد^(٧)، ثم تطيب في الهرائس^(٨)، ويحدث لها به نفحة لا تُصاب مع غيرها،

(١) الخلاسي: الديك بين دجاجتين هندية وفارسية. «القاموس: خلس»

(٢) الكسكري: نسبة إلى كسكر وفي ثمار القلوب ٤٢٦ (٧٧٢): «كسكر: إحدى كور السواد من طساسيج دجلة والفرات، ودجاجها موصوف بالجوذة والسمن، وربما بلغت الواحدة منها وزن الجدي والحمل».

(٣) حلتيت: صمغ الأنجدان. «القاموس: حلت». والأنجدان: نبات يقاوم السموم جيد لوجع المفاصل. «القاموس: نجذ»

(٤) الشول: الناقة التي خف لبنها وارتفع ضرعها، وهذا القول من الأمثال في مجمع الأمثال ٧٢/٢، وجمهرة الأمثال ٩١/٢، والمستقصى ٣٣٨/١، وأمثال ابن سلام ١٠٨.

(٥) النواهض: جمع ناهض، وهو الفرخ الذي وقّر جناحه وتهيأ للطيران. «القاموس: نهض».

(٦) العنق: جمع عناق، وهي الأنثى من أولاد المعز. «القاموس: عنق»

(٧) في القاموس (ورد): الزماورد: طعام من البيض واللحم، معرب، والعامّة يقولون بزماورد. وانظر الوصلة إلى الحبيب ٨٧٥ «لقمة القاضي»

(٨) الهرائس: جمع هريسة، وهي نوع من الحلوى معروف. انظر الوصلة إلى الحبيب ٨٩٣ - ٨٩٤.

وتطيب طبيخاً، وتطيب فصوصها، وإن قطعتها مع اللحم دَسِمَ ذلك اللحم. وتصلح للحشاوي، وللملاقسطي، وتصلح في الاسفرجات وسمينها يقدم في السكباجة^(١) على البط، إلا أنها تُطعم المَقْصُودَ وليس ذلك للبط.

٤٤٥ - [لفظ: الدجاج]

قال: والديكة دَجَاج إذا ذكرت في جملة الجنس، وهذا الباب مما تغلب فيه الإناث على الذكورة. وقال آخرون: لا، ولكن الديك نفسه دَجَاجَة، إلا أنهم أرادوا إبانته بأنه ذكر فقالوا: ديك، كما يسمون الذكر والأنثى فرساً بلا هاء، فإذا أرادوا أن يثبتوا إناثها قالوا حجر، وإن كانت حجراً فهي فرس. وقال الأخطل: [من البسيط] نازعته في الدججى الرَّاحَ الشَّمُولَ وقد

صاح الدججج وحانت وقفة الساري^(٢)

وقد بين ذلك القرشي حيث يقول: [من الخفيف]

اطردوا الديك عن ذؤابة زيدٍ كان ما كان لا تطأه الدججج^(٣)

وذلك أنه كان رأى رأس زيد بن علي في دار يوسف بن عمر، فجاء ديك فوطئ شعره ونقره في لحمه ليأكله.

٤٤٦ - [القول في تجاوب الديكة]

قالوا: قد أخطأ من زعم أن الديكة إنما تتجاوب، بل إنما ذلك منها شيء يتوافق في وقت، وليس ذلك بتجاوب كنباح الكلاب؛ لأن الكلب لا وقت له، وإنما هو صامت ساكت ما لم يحس بشيء يفرع منه، فإذا أحس به نبج، وإذا سمع نباح كلب آخر أجاب ثم أجاب ذلك آخر، ثم أجابهما الكلب الأول، وتبين أنه المجاوب جميع الكلاب. والديك ليس إذا من أجل أنه أنكر شيئاً استجاب، أو سمع صوتاً صقع^(٤)، وإنما يصقع لشيء في طبعه، إذا قابل ذلك الوقت من الليل هيجه. فعدد أصواته في الوقت الذي يُظن أنه تتجاوب فيه الديكة، كعدد أصواته في القرية وليس

(١) سكباج: طعام يعمل من اللحم والخل والبصل والكراث، مع توابل وأفوايه، الواحدة سكباجة. الوصلة إلى الحبيب ٨٢٣.

(٢) ديوان الأخطل ١٦٨. نازعته: ناولته. الشمول: الطيبة الريح. الساري: الذي يسير ليلاً.

(٣) البيت لأحد الشيعة في الكامل ٣١٠/٢ (مطبعة المعارف)، ١٣٧١ (طبعة الدالي). وتقدم

البيت في الفقرة (٢٦٤).

(٤) صقع: صاح. «القاموس: صقع».

في القرية ديكٌ غيره، وذلك هو في المواقيت. والعلَّة التي لها يصقَع في وقت بعينه شائعةٌ فيها في ذلك الوقت. وليس كذلك الكلاب! قد تنبح الكلاب في الخُرَيْبَةِ^(١) و كلابٌ في بني سعد غير نابحة، وليس يجوز أن تكون دَيْكَةُ المهالبة تصقَع، ودَيْكَةُ المسامعة^(٢) ساكنة.

فإن أراد مريدٌ بقوله إن الدَيْكَةَ تتجاوب، وعلى مثل قول العرب: هذه الجبال تتناظر، إذا كان بعضها قُبالة بعض، وإذا كان الجبلُ من صاحبه بالمكان الذي لو كان إنسانٌ رآه - جاز ذلك. وعلى هذا المثال قال النبي ﷺ في نارِ المشركين ما قال، حيث قال: «لا تترأى ناراهما»^(٣)، ومع قول الشاعر:

* لا تترأى قبورها *

وقال ابن مُقبلِ العَجَلَانِي: [من الطويل]

سَلِ الدَّارَ من جَنبِي حَبْرٌ فَوَاهِبٌ

وحيثُ يَرَى هَضْبَ القَلْبِ المَضِيحُ^(٤)

وتقول العرب: إذا كانتَ بمكان كذا وكذا، حيثُ ينظُرُ إليك الجبلُ فخذُ عن يسارك أو عن يمينك.

وقال الرَّاجِز: [من الكامل]

* وكما يرى شَيْخُ الجبالِ ثَبِيرًا *

(١) الخريبة: موضع بالبصرة، وعندها كانت وقعة الجمل، وماء قرب القادسية نزلها بعض جيوش أيام القوادس. معجم البلدان (الخريبة).

(٢) المسامعة: محلة بالبصرة تنسب إلى مسمع بن شهاب بن عمرو، كما قالوا في النسبة إلى المهلبين المهالبة. معجم البلدان (المسامعة).

(٣) الحديث عن قيس بن حازم أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى قوم من خثعم، فاستعصموا بالسجود فقتلوا، ف قضى رسول الله ﷺ بنصف العقل، وقال: «إني بريء من كل مسلم مع مشرك»، ثم قال رسول الله ﷺ: «ألا لا تراءى نارهما» أخرجه النسائي ٣٦/٨، وأخرجه أبو داود في الجهاد برقم ٢٦٤٥، (٤٥/٣)، وانظر عارضة الأحوذى ١٠٤/٨، وشرح السنة ٣٧٣/١٠.

التراخي: تفاعل من الرؤية، أي نارهما مختلفتان، هذه تدعو إلى الله، وهذه تدعو إلى الشيطان، فكيف يتفقا. انظر النهاية ١٧٧/٢.

(٤) ديوان ابن مقبل ٣٧ (طبعة دار الشرق)، ومعجم البلدان (حبر، واهب)، ومعجم ما استعجم ٤١٩، ١٢٣٥، ١٣٦٥، واللسان (راي)، والتاج (وهب)، وتهذيب اللغة ٣٢٣/١٥.

حبر وواهب: جبلان في ديار بني سليم. هضيب القلب: موضع لبني قنفذ من بني سليم. المفيح: ماء لبني البكاء. انظر ديوان ابن مقبل ٣٧.

وشيوخ الجبال عنده أبو قبيس .

وقال النبي ﷺ وعلى آله الأخيار: «أنا بريء من كل مسلم مع كل مشرك». قيل: ولم يا رسول الله؟ قال: «لاتراءى ناراهما»^(١).

وقال الكسائي: تقول العرب: داري تنظر إلى دار فلان، ودورنا تتناظر. وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(٢).
وإنما قال القوم في تجاوب الديكة ببيت شعر سمعوه للطرمّاح، جهلوا معناه، وهو: [من الطويل]

فيا صُبْحُ كَمْشٍ غَبَرَ اللَّيْلُ مُصْعِدًا بِبِمٍ وَنَبَهُ ذَا الْعِفَاءِ الْمَوْشِحِ^(٣)
إِذَا صَاحَ لَمْ يُخْذَلْ وَجَاوَبَ صَوْتَهُ حِمَاشُ الشَّوَى يَصْدَحُنْ مِنْ كُلِّ مَصْدَحِ^(٤)
وكذلك غلطوا في قول عبدة بن الطبيب: [من البسيط]

إذ صفق الديك يدعو بعض أسرته إلى الصّباح وهم قوم معازيل^(٥)
وإنما أراد توافي ذلك منها معاً؛ فجعلها دعاء وتجاوبا على ما فسرناه.

٤٤٧ - [تفضيل الحمار على الديك]

قال صاحب الكلب: لولا أننا وجدنا الحمار المضروب به المثل في الجهل^(٦)، يقوم في الصّباح وفي ساعات الليل مقام الديكة، لقد كان ذلك قولاً ومذهباً غير مردود. ولو أن متفقداً يتفقّد ذلك من الحمار لوجده منظوماً يتبع بعضه بعضاً على عدد معلوم؛ ولوجد ذلك مقسوماً على ساعات الليل، ولكان لقائل أن يقول في نهيق الحمار في ذلك الوقت: ليس على تجاوب، إنما ذلك شيء يتوافي معاً، لاستواء

(١) انظر الحاشية قبل السابقة.

(٢) ١٩٨ / الأعراف: ٧.

(٣) ديوان الطرمّاح ٩٧ (٩٤ طبعة دار المشرق)، وربيع الأبرار ٥ / ٤٤٤، والأول في اللسان (وشح)، والعين ٣ / ٢٦٣، والمقاييس ٤ / ٦٠، والتهديب ٥ / ١٤٦، وأساس البلاغة (وشح، كمش)، والمعاني الكبير ٣٠٢، والثاني في العين ٣ / ١٠٠. كَمْشٌ: قَلَصٌ. غير الليل: بقايا ظلامه. مصعداً: مرتفعاً. العفاء: ما كثر من الريش والوبر، وذو العفاء: الديك. الموشح: الموشى.

(٤) حمّاش الشوى: دفاق الأرجل، يريد الديكة.

(٥) ديوان عبدة بن الطبيب ٧٩، والمفضليات ١٤٣، واللسان والتاج (عزل). المعازيل: العزل من السلاح.

(٦) من الأمثال (أجهل من حمار) والمثل في مجمع الأمثال ١ / ١٨٩، والمستقصى ١ / ٥٨، وجمهرة الأمثال ١ / ٢٩٨، ٣٣٤.

العلة، ولم تكن للدُّيك الموصوفِ بآته فوق الأَسْطِرلاب فضيلةً ليست للحمار.

وعلى أن الحمار أبعدُ صوتاً، وقد بلغ من شدة صوتِه ما إن حَلَفَ أحمدُ بن عبد العزيز: إنَّ الحمار ما ينام! قيل له: وما ذاك؟ قال: لأنِّي أجدُ صياحه ليس بصياح شيءٍ انتبه تلك الساعة، ولا هو صياحٌ من يريد أن ينام بعد انقضاء صياحه!

هذا والحمارُ هو الذي ضَرَبَ به القرآنُ المثلَ في بُعد الصوت، وضَرَبَ به المثلُ في الجهل، فقال: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾^(١). فلو كان شيءٌ من الحيوان أجهلَ بما في بطون الأسفار من الحمار، لضَرَبَ الله المثلَ به دونَه.

وعلى أن فيه من الخصال ما ليس في الديك، وذلك أن العربَ وضعت من الأمثال التي هي له في عشرة أماكن، فقال رسول الله ﷺ: «كلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَأِ»^(٢) وكفكافٍ به مثلاً إذا كان لرسول الله ﷺ في تفضيل هداية أبي سفيان.

وقال العرب: «أُنكحُ من الفَرَأِ»^(٣). والفَرَأُ مهموز مفتوحة الفاء مجموعهُ فِرَاءٌ،

قال الشاعر: [من الطويل]

بِضَرْبِ كَأَذَانِ الْفِرَاءِ فُضُوهُ
وَطَعْنِ كَأِيْزَاغِ الْمَخَاضِ تَبُورُهَا^(٤)

وتقول العرب: «العَيْرُ أَوْقَى لِدَمِهِ»^(٥). وقولهم: «مَنْ يَنْكُ الْعَيْرَ يَنْكُ

نِيَّائِكَا»^(٦). وقالوا: «الجَحْشُ إِذَا فَاتَتْكَ الْأَعْيَارُ»^(٧) وقالوا: «أصْبِرْ مِنْ عَيْرِ أَبِي

(١) ٥/الجمعة: ٦٢.

(٢) انظر خبر الحديث في الأغاني ٦/٣٤٥ - ٣٤٦، وهو حديث قاله ﷺ في أبي سفيان، وهو في مجمع الأمثال ٢/١٣٦، وجمهرة الأمثال ٢/١٣٦، ١٦٢، والمستقصى ٢/٢٢٤، وفصل المقال ١٠، وأمثال ابن سلام ٣٥، والبيان ٢/١٦، وتقدم الحديث في الفقرة (٢٤٣)

(٣) في مجمع الأمثال ٢/٣٣٥، وجمهرة الأمثال ١/١٠، ١٦٥ (أنكحنا الفراء فسرى)، وفي المستقصى ١/٤٠٠ (أنكحنا الفراء فسوف نرى).

(٤) البيت لمالك بن زغبة الباهلي في اللسان والتاج (فراء، بور، وزغ)، والتنبيه والإيضاح ١/٢٤، وأساس البلاغة (فرا)، وللباهلي في البرصان ٢٩١، وبلا نسبة في المقاميس ١/٣١٧، والتهذيب ١٦٤/٨، ٢٤٠/١٥، ٢٦٦، والمخصص ٨/٤٦، ١٥/١٤٤، والعين ٤/٤٣٤، ٨/٢٨٦.

(٥) مجمع الأمثال ٢/١٣، والمستقصى ١/٣٣٦، وأمثال ابن سلام ٢١٩، وجمهرة الأمثال ٢/٥٥.

(٦) المثل في مجمع الأمثال ٢/٣٠٥، والمستقصى ٢/٣٦٤، وهو من الرجز في اللسان والتاج (نوك). يضرب مثلاً لمن يغالب الغلاب.

(٧) مجمع الأمثال ١/١٦٥، والمستقصى ١/٣٠٩، وأمثال ابن سلام ٢٣٥، يضرب لمن يطلب الأمر الكبير فيفوته.

سَيَّارَةٌ»^(١)؛ لَأَنَّهُ كَانَ دَفْعَ بَاهِلِ الْمَوْسِمِ عَلَى ذَلِكَ الْحِمَارِ أَرْبَعِينَ عَامًا.

وقالوا: «إِنْ ذَهَبَ عَيْرٌ فَعَيْرٌ فِي الرَّبَاطِ»^(٢). وقالوا في المديح لصاحب الرأي: «جُحَيْشٌ وَحَدَه»^(٣)، و«عَيْرٌ وَحَدَه»^(٤)، و«العَيْرُ يَضْرِبُ وَالمِكْوَاةُ فِي النَّارِ»^(٥)؛ وقالوا: «حِمَارٌ يَحْمِلُ أَسْفَارًا»^(٦)، و«أَضْلُ مِنْ حِمَارِ أَهْلِهِ»^(٧)، و«أَخْزَى اللَّهُ الحِمَارَ مَا لَا يَزْكِي وَلَا يَذْكِي»^(٨)، و«قَدْ حِيلَ بَيْنَ العَيْرِ وَالنَّزْوَانِ»^(٩).

فالذي مُدِح به أكثر؛ فقد وجدنا الحمار أبعَدَ صوتاً، ووجدناه يعرف من أوقات الليل ويميز عدداً معلوماً إلى الصبح، إلا أن له في الأسحار فضيلة.

والحمارُ أجهلُ الخلق، فليس ينبغي للديك أن يُقضى له بالمعرفة والحمار قد ساواه في يسير علمه، ثم بآيته أن الحمار أحسنُ هداية. والديك إن سقط على حائط جاره لم يُحسن أن يهتدي إلى داره، وإن خرج من باب الدار ضلَّ، وضلاله من أسفل كضلاله من فوق.

٤٤٨ - [أحاديث في الديك]

قال صاحب الديك: حدَّثونا عن صالح بن كيسان، عن عبيد الله بن عبد الله

(١) المثل برواية (أصح..) في مجمع الأمثال ١/٤١٠، وجمهرة الأمثال ١/٥٨٨، والمستقصى ١/٢٠٥، والدررة الفاخرة ١/٢٧١، ٥٦٨، وفصل المقال ١/٥٠١، وأمثال ابن سلام ٣٧٣، وثمار القلوب (٥٥٣)، والاشتقاق ٢٦٨، وعيون الأخبار ١/١٦٠، والمعمران والوصايا ٦١، وبرواية (أصبر من حمار) في مجمع الأمثال ١/٤١٧، وجمهرة الأمثال ١/٥٨٨.

(٢) مجمع الأمثال ١/٢٥، وأمثال ابن سلام ٣٢٥، والمستقصى ١/٣٧٢، وجمهرة الأمثال ١/١٠٩. يضرب في الرضا بالحاضر وترك الغائب.

(٣) مجمع الأمثال ٢/١٣، يضرب لمن يعتزل الناس ويستبد برأيه.

(٤) في الأغاني ٩/٥١ «قال مسافر: قد يضرب العير والمكواة في النار» وهو يضرب للرجل يخاف الأمر فيجزع قبل وقوعه فيه.

(٥) مثل قرآني، أصله قوله تعالى في سورة الجمعة، الآية ٥: ﴿كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾.

(٦) لم أجد المثل في كتب الأمثال.

(٧) المثل برواية (شر المال ما لا يزكي ولا يذكي) في مجمع الأمثال ١/٣٦٠، والمستقصى ٢/١٣٠، والدررة الفاخرة ١/١٨١. لا يزكي: لا تجب فيه الزكاة. لا يذكي: لا يُذبح.

(٨) مجمع الأمثال ٢/٩٦، والمستقصى ٢/٦٩، وجمهرة الأمثال ١/٣٧١، وفصل المقال ٧٢، وهو عجز بيت لصخر بن عمر (أخي الخنساء) وصدرة (أهمُّ بامر الحزم لو أستطيعه). والبيت في الأصمعيات ١٤٦، واللسان (نزأ).

ابن عتبة، قال: «صرخ ديكٌ عندَ النبي ﷺ فسبَّه بعضُ أصحابه، فقال: لا تَسبِّهْ فَإِنَّهُ يدعُو إلى الصلاة».

وعن ابن الماجشون، عن صالح بن كيسان، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود، عن يزيد بن خالد الجهني: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ سَبِّ الدِّيكِ وقال: إِنَّهُ يُؤذِّنُ لِلصَّلَاةِ».

الحسن بن عمار، عن عمرو بن مرة، وعن سالم بن أبي الجعد، يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «إِنَّ مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى لَدَيْكَأَ عُرْفَهُ تَحْتَ العَرْشِ وَبَرَأئِنَّهُ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى، وَجَنَاحَاهُ فِي الهَوَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَ ثَلَاثُ اللَّيْلِ وَبَقِيَ ثَلَاثُهُ ضَرَبَ بِجَنَاحِهِ ثُمَّ قَالَ: سَبَّحُوا المَلِكَ القُدُّوسَ، سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ - أَيُّ أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ - فعند ذلك تضرب الطيرُ بأجنحتها وتصيحُ الديكةُ».

وأبو العلاء عن كعب: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى دِيكاً عُنُقُهُ تَحْتَ العَرْشِ، وَبَرَأئِنَّهُ فِي أسْفَلِ الأَرْضِينَ، فَإِذَا صَاحَتِ الدِّيكةُ يَقُولُ: سَبْحَانَ المَلِكِ القُدُّوسِ المَلِكِ الرَّحْمَنِ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ». قال: والديكةُ أكيسُ شيءٍ.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الدِّيكَ الأَبْيَضَ صَدِيقِي، وَعَدُوُّ عَدُوِّ اللَّهِ، يَحْرُسُ دَارَ صَاحِبِهِ وَسَبْعَ دُورٍ».

وكان رسول الله ﷺ يبيتُه معه في البيت.

وروي أن أصحاب النبي ﷺ كانوا يسافرون بالديكة.

٤٤٩ - [ذبح الديك الأفرق]

وزعم أصحابُ التَّجْرِبَةِ أَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَرُونَ الرَّجُلَ إِذَا ذَبَحَ الدِّيكَ الأَبْيَضَ الأفرق^(١)، أَنَّهُ لَا يَزَالُ يُنْكَبُ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ^(٢).

٤٥٠ - [كيف تعرف الديك من الدجاجة إذا كان صغيراً]

وممَّا فِي المِحَاجَةِ أَن يُقَالُ: كَيْفَ تَعْرِفُ الدِّيكَ مِنَ الدَّجَاجَةِ إِذَا كَانَ صَغِيرًا حِينَ يَخْرُجُ مِنَ البَيْضَةِ؟ فَقَالُوا: يعلِّقُ بِمِنقَارِهِ، فَإِنْ تَحَرَّكَ فَهُوَ دِيكٌ وَإِنْ لَمْ يَتَحَرَّكَ فَهُوَ دَجَاجَةٌ.

(١) الأفرق: المفروق العرف.

(٢) الخبير في ربيع الأبرار ٥/٤٤٣.

٤٥١ - [شعر في حسن الدجاجة ونبل الديك]

قال الشاعر في حُسن الدَّجاجة ونَبَل الديك^(١): [من الوافر]

عَدَوْتُ بِشَرِيَّةٍ مِنْ ذَاتِ عَرَقٍ	أَبَا الدُّهْنَاءِ مِنْ حَلَبِ العَصِيرِ ^(٢)
وَأُخْرَى بِالْعَقْنَقْلِ ثُمَّ رَحْنًا	نَرَى العُصْفُورَ أعْظَمَ مِنْ بَعِيرِ
كَأَنَّ الدِّيكَ دِيكَ بَنِي نُمَيْرِ	أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى السَّرِيرِ
كَأَنَّ دَجَاجَهُمْ فِي الدَّارِ رُقْطًا	بَنَاتُ الرُّومِ فِي قُمْصِ الحَرِيرِ ^(٣)
فَبِتُّ أُرَى الكَوَاكِبَ دَانِيَاتٍ	يَنْلَنَ أَنَامِلَ الرَّجُلِ القَصِيرِ
أَدَافِعُهُنَّ بِالكُفَّيْنِ عَنِّي	وَأَسْحَ جَانِبَ القَمَرِ المُنِيرِ

٤٥٢ - [طعن صاحب الكلب في الديك]

وقال صاحب الكلب: الأشياء التي تألف الناس لا تريد سواهم كالعصفور والخطاف والكلب والسنور. والديك مما يتخذها الناس، وليس مما يحن إليهم فيقطع البلاد نزاعاً، فيكون كالقواطع من الطير التي تريدهم كالخطاف، ولا هو من الأوابد كالعصفور الذي حيثما دار رجع إليهم، ولا هو كالكلب الذي لا يعرف سواهم، ولا هو كالأهلي من السنانير التي متى ألفتهم لم تفارقهم، وتغس بالليل، وتطوف في القبائل من دار إلى دار ثم لا يكون مرجعها إلا إليهم. والديك في خلاف ذلك كله، ثم لا يألف منزله ولا يعرف ربعه، ثم لا يحن إلى دجاجة، ثم لا تتوق نفسه إلى طروقتة، ولا يشتاق إلى ولده، ولا يعرف الذين غذوه وربوه، بل لم يدر قط أن له ولداً، ولو كان درى لكان على درايته دليل، فإذا قد وجدناه لفراريجه وبيضه المخلوقة منه ومن نجله، كما نجد له لما لم يلد ولما ليس من شكله أيضاً ولا يرجع إلى نسبه، فكيف لا نقضي عليه بالنقص، إذ كانت الأمور لا تعرف إلا بهذا وشبهه!!

وهو لا يعرف أهل داره، ولا يثبت وجه صاحبه الذي لم يخلق إلا عنده، وفي ظلّه وتحت جناحه، ولم يزل في رزقه وعياله. والحمام ترجع إليه من مائتي فرسخ،

(١) الأبيات بلا نسبة، وهي عدة مصادر، فالثالث في ديوان المعاني ١٣٦/٢، والخامس والسادس فيه ٣٣٠/١، والرابع في البرصان ٧١، واللسان (سرق) وفيه نسب إلى الأخطل وليس في ديوانه، وانظر نهاية الأرب ٢٢٧/١٠، والحماسة الشجرية ٢٧٨، والعقد الفريد ٦/٣٤٧. وانظر الأبيات في الفقرة (٥٤٠).

(٢) ذات: مهمل أهل العراق؛ وهو الحد بين نجد وتهامة. معجم البلدان (العرق). الحلب: الشراب.

(٣) الرقط: جمع رقطاء، وهي ذات اللون الأسود يخالطه بياض. (القاموس: رقط).

ويُصطاد فيتحول عن وطنه عشرَ حَجَجٍ، ثم هو على ثبات عهده وقوة عقده، وعلى حفاظه وإلفه، والنزاع إلى وطنه. فإن وجد فُرْجة ووافق جناحه وافيًا وناه وصار إليه، وإن كان جناحه مقصوصاً جَدَفٌ^(١) إلى أهله، وتكَلَّفَ المضي إلى سكنه، فإمّا بَلَّغَ وإمّا أَعَذَرَ.

والخُطَاف يقطع إليهم من حيث لا يبلغه خبر، ولا يطوئه صاحب سفر؛ على أنا لا نراه يتخذ وكره إذا صار إليهم إلا في أحصن موضع، ولا يحمله الأُنس بهم على ترك التَّحَرُّزِ منهم، والحزم في مُلابستهم، ولا يحمله الخوف منهم على منع نفسه لذة السُّكُونِ إليهم، ولا يبخس الارتفاق بهم حظّه.

والعصافير لا تقيم في دار إلا وهي مسكونة، فإن هجرها الناس لم تُقَمَ فيها العصافير.

والسُّنُور يعرف ربة المنزل، ويألف فرخ الحمام، ويُعبث فراريج الدار. إن سُرِقَ ورُبِطَ شهراً عاد عند انفلاته، وانحلال رباطه.

والهرة تعرف ولدها وإن صار مثلها، وإن أُطعمت شيئاً حملته إليه وآثرته به. وربما أُلقي إليها الشيء فتدنون لتأكله، ويُقبل ولدها فتُمسك عنه، وترضه له. وربما طُرح لها الشيء وولدها غائب عنها - ولها ضروبٌ من النغم، وأشكالٌ من الصياح - فتصيح ضرباً من الصياح يعرف أهل الدار أنه صياح الدُعاء لا غير ذلك. ويقال: «أبرُّ من هرة»^(٢).

ومتى أرادت ما يريد صاحب الغائط، أتت مواضع تراب في زاوية من زوايا الدار فتبحثه، حتى إذا جعلت له مكاناً كهيئة الحفرة جعلته فيها ثم غطته من ذلك التراب، ثم تشممت أعلى ذلك التراب وما ظهر منه، فإن وجدت شيئاً من الرائحة زادت عليها تراباً، فلا تزال كذلك حتى تعلم أنها قد أخفت المرثي والمشموم جميعاً^(٣). فإن هي لم تجد تراباً خمشت وجه الأرض، أو ظهر السطح، حتى تبلغ في الحفر المبلغ، ومن ستر ذلك المجهود.

وزعم ناسٌ من الأطباء أن السُّنُور يعرف وحده ربح رجعه، وإنما يستره لمكان شم الفار له، فإنها تفر من تلك الرائحة. أو يُغطيها لما يكون فيه من خلق من أخلاق

(١) جدف الطائر: طار وهو مقصوص؛ كأنه يرد جناحيه إلى خلفه. «القاموس: جدف».

(٢) مجمع الأمثال ١/١١٦، والمستقصى ١/١٧، وجمهرة الأمثال ١/٢٤٣، والدررة الفاخرة ١/٨٢.

(٣) انظر ربيع الأبرار ٥/٤٧٢.

الأسد. وما يشاكل فيه الأسد في الخُلُق، على قدر ما يشاكله في الخَلْق. وتعداد ذلك كثيرٌ.

٤٥٣ - [سُلاح الديك]

والديكُ لا تراه إلا سالحاً، ثمَّ لا يتوقَّى ثوبَ ربِّ الدار ولا فراشه ولا بساطه. هذا، وحياته التراب، ولذا يدفن نفسه فيه، ويدخله في أصول ريشه.

ثمَّ لا ترى سُلاحاً أنتن من سُلاحه، ولا يشبه ذرُق الحمام، وصوم النَّعام، وجعَر الكلب. ثم مع ذلك لا تراه إلا سائلاً رقيقاً. ولو كان مُدحرجاً كأبعار الشاء والإبل والظباء، أو متعلقاً يابساً كجعَر الكلب والأسد، ثمَّ لو كان على مقدار نتنه لكان أهونَ في الجملة.

وقال أبو نواسٍ في ديكٍ بعض أصحابه: [من الرجز]

أذيتنا بديكك السُّلاح فنجنا من مُنتن الأرواح^(١)

٤٥٤ - [استخدام الخناقين للكلب]

وقال صاحب الكلب: ومن مرافق الكلب أن الخناقين^(٢) يظاهر بعضهم بعضاً، فلا يكونون في البلاد إلا معاً، ولا يسافرون إلا معاً؛ فربما استولوا على درب بأسره، أو على طريق بأسره. ولا ينزلون إلا في طريق نافذ، ويكون خلف دُورهم: إما صحارى وإما بساتين، وإما مزابل وأشباه ذلك. وفي كلِّ دارٍ كلابٌ مربوطة، ودُفوف وطُبول. ولا يزالون يجعلون على أبوابهم معلّم كتاب منهم، فإذا خنق أهلُ دارٍ منهم إنساناً ضربَ النساءُ بالدُفوف، وضربَ بعضهم الكلابُ فسمع المعلّم فصاح بالصبيان: انبَحُوا! وأجابهم أهلُ كلِّ دارٍ بالدُفوف والصنُوج، كما يفعل نساءُ أهلِ القرى، وهيجوا الكلاب. فلو كان المخنوق حماراً لما شعر بمكانه أحد، كما كان ذلك بالرقّة.

وانظر كيف أخذوا أهلَ دَرَبِ بأسره!! وذلك أن بعضهم رغب في ثوبِ كان على حمّال، وفيه دريهمات معه، فالتقى الوهق^(٣) في عنقه فغشي عليه ولم يمت،

(١) لم يرد الرجز في ديوان أبي نواس. الأرواح: جمع ريح.

(٢) الخناقون: جماعة من المنصورية، أصحاب أبي منصور الكسف، الذي سمي «كسفاً» لأنه قال لأصحابه: في نزل قول الله تعالى ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً﴾ [٤٤ / الطور: ٢٥]. انظر المعارف ٦٢٣، وعيون الأخبار ١٤٧/٢.

(٣) الوهق: حبل مفتول يرمى في أنشودة، فتؤخذ به الدابة. «القاموس: وهق».

وتحرك بطنه فأتى المتوضأ وتحرك الحمائل والساجور^(١) في عنقه، فرجعت نفس الحمائل، فلما لم يحسن بأحد عنده، قصد نحو باب الدار، وخرج وزياره^(٢) في عنقه، وتلقته جماعته فاخبرهم الخبر، وتصايح الناس فأخذوا عن آخرهم.

وقد كان بالكوفة شبيهة بذلك، وفي غيرها من البلدان. فقال حماد الراوية، وذكر المرميين بالخنق من القبائل وأصحاب القبائل والنحل، وكيف يصنع الخنق، وسمى بعضهم فقال^(٣): [من الطويل]

إذا سرت في عجلٍ فسِرْ في صحابةٍ وكندةٌ فأحذرْها حذارك للخسْفِ
وفي شيعه الأعمى زيارٍ وغيلةٍ وقشْبٌ وإعمالٌ لجندلة القذْفِ^(٤)
وكلهم شرٌّ على أن رأسهم حميدةٌ والميلاءُ حاضنة الكسْفِ
متى كنت في حبيّ بجيلةٍ فاستمع فإن لهم قصفاً يدلُّ على حتْفِ
إذا اعتزموا يوماً على خنقِ زائرٍ تداعوا عليه بالنباح وبالعزْفِ

وأما ذكره لبني عجل فلمكان ذي الضفرتين وغيره من بني عجل. وأما ذكره كندة، فقد أنشدنا سفيان بن عيينة، وأبو عبيدة النحوي: [من الهزج]

إذا ما سرّك العيشُ فلا تأخذ على كندة^(٥)

ومن كندة أبو قصبه أخذ بالكوفة وقتل وصلب.

وكان بالكوفة ممن يأكل لحوم الناس عديّة المدنية الصفراء. وكان بالبصرة رادويه صاحب قصاب رادويه.

وأما الأعمى في بني ضبة الذي ذكره فهو المغيرة بن سعيد صاحب المغيرة، وهم صنّف ممن يعمل في الخنق بطريق المنصورية.

والمغيرة هذا من موالي بجيلة، وهو الخارج على خالد بن عبد الله القسري، وعند ذلك قال خالد وهو على المنبر: أطعموني ماء!

(١) الساجور: القلادة أو الخشبة توضع في عنق الكلاب. «القاموس: سجر».

(٢) الزيار: شناق يشد به البيطار جحفة الدابة. «القاموس: زير».

(٣) الأبيات لأعشى همدان في عيون الأخبار ٢/١٤٦ - ١٤٧. عدا البيت الثالث.

(٤) القشب: خلط السم بالطعام. «القاموس: قشب». الجندلة: الحجارة. «القاموس: جندل».

(٥) البيت في عيون الأخبار ٢/١٤٧.

وفي ذلك يقول يحيى بن نوفل: [من الوافر]

وقلت لما أصابك أطعموني شراباً ثم بُلِّتَ عَلَى السَّرِيرِ (١)
لأعلاجِ ثمانيةٍ وشيخٍ كبيرِ السنِّ ذي بَصْرِ ضَرِيرِ

وأما حميدة فقد كانت لها رياسة في الغالية، وهي ممن استجاب لليلي السبائية الناعظية، والميلاء حاضنة أبي منصور صاحب المنصورية، وهو الكسف. قالت الغالية: إياه عنى الله تبارك وتعالى ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ (٢). وقد ذكره أبو السري معدان الأعمى الشميطي في قصيدته التي صنّف فيها الرأفة ثم الغالية، وقدم الشميطية على جميع أصناف الشيعة، فقال (٣):

[من الخفيف]

إِنَّ ذَا الْكِسْفِ صَدَّ آلَ كُمَيْلٍ وَكُمَيْلٌ رَذُلٌ مِنَ الْأَرْدَالِ (٤)
تركا بالعراق ذاءً دويًّا ضلُّ فيه تَلَطَّفُ الْمُحْتَالِ
منهم جاعلُ العَسِيبِ إِمَامًا وفريقٌ يرضُ زَنْدَ الشَّمَالِ
وفريقٌ يقولُ إِنَّا بَرَاءٌ من عَلِيٍّ وَجُنْدُبٍ وَبِلَالِ
وبراءٌ من الذي سلّمَ الأَمَّ رَ عَلَيَّ قَدْرَةَ بَغِيرِ قِتَالِ
وفريقٌ يدينُ بالنصِّ حَتْمًا وفريقٌ يدينُ بالإِهْمَالِ

لأن الكميلية لا تجيز الوكالة في الإمامة، وتقول لأبد من إمام صامت أو ناطق، ولا بد من علم يمدُّ الناس إليه أعناقهم. وأبو منصور يقول بخلاف ذلك.

وأما قوله (٥): [من الطويل]

وفي شِيعَةِ الْأَعْمَى زِيَارٌ وَغَيْلَةٌ وَقَشْبٌ وَإِعْمَالٌ لَجُنْدَلَةَ الْقَذْفِ
فقد قال معدان: [من الخفيف]

حبشيٌّ وكافر سبباني حَرَبِيٌّ وَنَاسِخٌ قَتَّالِ
تلك تيميةٌ وهاتيك صمت ثُمَّ دِينَ الْمَغِيرَةِ الْمَغْتَالِ

(١) البيتان في البيان والتبيين ٢/٢٦٧، ٣/٢٠٥.

(٢) ٤٤ / الطور: ٥٢.

(٣) الأبيات من قصيدة أورد الجاحظ منها ثلاثة أبيات أخرى في البيان والتبيين ١/٢٣، ثم أورد في

٣/٧٥ بيتين آخرين، وأورد في ٣/٣٥٦ ستة أبيات أخرى.

(٤) الرذل: الدون الخسيس. «القاموس: رذل»

(٥) تقدم البيت في بداية الفقرة، وهو في عيون الأخبار ٢/١٤٦.

خنق مرّةً وشمّ بخار ثم رضخ بالجنديل المتوالي

لأنّ من الخناقين من يكون جامعاً، وبذلك يسمونه إذا جمع الخنق والتشميم، وحمل معه في سفره حجّرين مستديرين مُدْمَلَكَيْنِ وململمين فإذا خلا برجلٍ من أهل الرُفْقَةِ استديره فرمى بأحدهما قَمَحْدُوتَهُ^(١)، وكذلك إن كان ساجداً. فإن دمه الأول سلبه، وإن هُوَ رَفَعَ رَأْسَهُ طَبَّقَ بِالْآخِرِ وَجْهَهُ. وكذلك إن ألفاه نائماً أو غافلاً.

ولقد صحبَ منهم ناسٌ رجلاً خرج من الرِّيِّ، وفي حقّه هَمِيَانٌ^(٢)، فكان لا يفارق مُعْظَمَ النَّاسِ، فلماً رآه قد قُرِبَ مِنْ مَفْرَقِ الطَّرِيقَيْنِ ورأوا احتراسه، وهم نزولٌ إمّا في صحراءٍ وإمّا في بَعْضِ سَطُوحِ الخَانَاتِ، والناسُ مُتَشَاغِلُونَ بِأُمُورِهِمْ، فلم يشعرُ صاحبُ الهَمِيَانِ نهاراً والناسُ حَوْلَهُ إِلَّا وَالْوَهْقُ^(٣) في عنقه، وطرحه الآخر حين ألقاه في عنقه، ووُتِبَ إِلَيْهِ وَجَلَسَ عَلَى صَدْرِهِ، ومدَّ الآخرُ برجلَيْهِ وألقى عليه ثوباً وأذّنَ في أذنيه فقام إليهم بعضُ أهلِ الرُفْقَةِ كالمعين والمتفجع، فقالوا له: مكانك؛ فإنه إن رآك خجل واستحى. فامسك القومُ عنهم، وارتحل القوم، وأعجلوا بصاحبهم، فلماً خلّوا به أخذوا ما أحبوا، وتركوا ما أحبوا، ثم حملوه على أيديهم، حتى إذا برزوا رموه في بعض الأودية.

٤٥٥ - [شعر أعشى همدان في السبئية]

وقد ذكر أعشى همدان السبئية وشأنهم في كرسي المختار: [من الطويل]

شهدتُ عليكم أنكم سبئية
وأقسمُ ما كرسيكم بسكينة
وإن لبس التابوتُ فتنأ وإن سمّتُ
وإنني امرؤٌ أحببتُ آلَ محمدٍ
وإن شاكرًا طافتُ به وتمسحتُ
ودأنتُ به لابن الزبيرِ رقابنا
وأحسبُ عقبها لآلِ محمدٍ
ويجمعُ ربي أمةً قد تشتتتُ
وإنني بكم يا شرطة الكفر عارفٌ^(٤)
وإن كان قد لفتُ عليه اللغائفُ
حمامٌ حوالبه وفيكم زخارفُ
وآثرتُ وحيأ ضمنتُه المصاحفُ
بأعواد ذاوٍ دبرت لا تساعفُ
ولا غينَ فيها أو تحزُّ السوالفُ
فينصرُ مظلومٌ ويأمن خائفُ
وهاجتُ حروبٌ بينهم وحسائفُ

(١) القمحدوة: الهنة الناشزة فوق الفقا وأعلى الفذال خلف الأذنين ومؤخر القذال. «القاموس: قمحد».

(٢) الحقو: الكشح: وهو مكان عقد الإزار. «القاموس: حقو». الهميان: وعاء للدرهم «القاموس:

همي».

(٣) الوهق: جبل مفتول يرمى في أنشوطه؛ فتؤخذ به الدابة. «القاموس: وهق».

(٤) الأبيات الخمسة الأولى في التاج (خشب)، وأنساب الأشراف ٥/٥٤٢.

أبو عبيدة: الحسيفة الضغينة، وجمعها حسائف

٤٥٦ - [من قتل نفسه بيده]

وما أكثر من قتل نفسه بيده، إماً لخوف المثلة، وإماً لخوف التعذيب والهوان وطول الأسر.

وقد كان الحكمُ بن الطفيل، أخو عامر بن الطفيل، وأصحابه خنقوا أنفسهم في بعض الأيام^(١)، فعيروا بذلك تعبيراً شديداً، فقال خراشة بن عامر بن الطفيل: [من الطويل]

وَقُدَّتْهُمْ لِلْمَوْتِ ثُمَّ خَذَلْتَهُمْ فَلَا وَأَلَتْ نَفْسٌ عَلَيْكَ تَحَاذِرُ
فَهَلْ تَبْلِغُنِي عَامراً إِنْ لَقَيْتَهُ أَسَلَيْتَ عَنْ سَلْمَانَ أَمْ أَنْتَ ذَاكِرُ
فَإِنَّ وِرَاءَ الْحَيِّ غَزْلَانَ أَيْكَةَ مُضْمَخَةً آذَانُهَا وَالْغَدَائِرُ
وَإِنَّكُمْ إِذْ تَخْنُقُونَ نَفُوسَكُمْ لَكُمْ تَحْتَ أَظْلَالِ الْعِضَاءِ جِرَائِرُ

وقال عروة بن الورد في يوم ساحوق، ويذكر خنق الحكم بن الطفيل وأصحابه أنفسهم، فقال^(٢): [من الطويل]

وَنَحْنُ صَبَحْنَا عَامراً فِي دِيَارِهَا وَعِلَالَةٌ أُرْمَاحٍ وَعَضْبَا مُذَكِّراً^(٣)
بِكَلِّ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مَهْنَدٍ وَلَدَنْ مِنَ الْخَطِيءِ قَدْ طَرَّ أَسْمَراً^(٤)
عَجِبْتَ لَهُمْ إِذْ يَخْنُقُونَ نَفُوسَهُمْ وَمَقْتَلَهُمْ عِنْدَ الْوَعْيِ كَانَ أَعْدَارَا
يَشُدُّ الْحَلِيمُ مِنْهُمْ عَقْدَ حَبْلِهِ أَلَا إِنَّمَا يَأْتِي الَّذِي كَانَ حُدْرَا

٤٥٧ - [رثاء أبي زييد الطائي كلباً له]

وقال أبو زييد في كلب له، كان يُساور الأسدَ ويمنعه من الفساد، حين حطمه الأسد، وكان اسمه أكدر، فقال^(٥): [من البسيط]

أَخَالَ أَكْدَرُ مَخْتِلاً كِعَادَتِهِ حَتَّى إِذَا كَانَ بَيْنَ الْحَوْضِ وَالْعَطْنِ^(٦)

(١) في أيام العرب في الجاهلية ٢٧٨ (أما الحكم بن الطفيل فإنه خاف أن يؤسر ويمثل به، فجعل في عنقه حبلاً، وصعد إلى شجرة، وشده ودلّى نفسه فاختنق).

(٢) ديوان عروة بن الورد ٤١.

(٣) علالة كل شيء: ما جاء منه بعدما يمضي أوله. العضب المذكور: السيف القاطع.

(٤) الخطي: الرمح المنسوب إلى مرفأ بالبحرين يدعى «الخط».

(٥) ديوان أبو زييد الطائي ٦٦٦ - ٦٦٨، والأبيات ١ - ٥ في الأغاني ١٢/١٣٣، والأبيات

(٦) في رسائل الجاحظ ٣١١/٢.

(٦) العطن: مبرك الإبل حول الحوض.

لاقى لَدَى ثُلُلِ الْأَطْوَاءِ دَاهِيَةً
 حَطَّتْ بِهِ سُنَّةٌ وَرَهَاءٌ تَطْرُدُهُ
 إِلَى مُقَارَبِ حَظْوِ السَّاعِدِينَ لَهُ
 رِيْبَالُ ظِلْمَاءٍ لَا قَحْمٌ وَلَا ضَرَعٌ
 فَاسْرِيَا وَهَمَا سَنَا هُمُومَهُمَا
 هَذَا بِمَا عَلَقْتَ أَظْفَارَهُ بِهِمْ
 حَتَّى إِذَا وَرَدَ الْعِرْزَالَ وَانْتَبَهْتَ
 بَادِ جَنَاجِنَهَا حِصَاءً قَدْ أَفَلْتَ
 وَظَنَّ أَكْدَرُ أَنْ تَمُوا ثَمَانِيَةً
 فِخَافَ عَزَّتْهُمْ لَمَّا دَنَا لَهُمْ
 بِأَرْبَعِ كُلُّهَا فِي الْخَلْقِ دَاهِيَةً
 الْفَاهَ مَتَّخِذَ الْأَنْيَابِ جُنَّتَهُ

أُسْرَتْ وَأَكْدَرَ تَحْتَ اللَّيْلِ فِي قَرْنٍ (١)
 حَتَّى تَنَاهَى إِلَى الْأَهْوَالِ فِي سَنَنِ (٢)
 فَوْقِ السَّرَاةِ كَذَفَرَى الْقَارِحِ الْعَضِينِ (٣)
 كَالْبِغْلِ خَطَّ بِهِ الْعِجْلَانَ فِي سَكَنِ (٤)
 إِلَى عَرِينِ كُعُشِّ الْأَرْمَلِ الْيَفَنِ (٥)
 وَظَنَّ أَكْدَرَ غَيْرُ الْأَفْنِ وَالْحَتَنِ (٦)
 لِحِسِّهِ أُمَّ أَجْرٍ سِتَّةَ شُرُنٍ (٧)
 لَهُنَّ يَبْهَرْنَ تَعْبِيرًا عَلَيَّ سَدَنِ (٨)
 أَنْ قَدْ تَجَلَّلَ أَهْلُ الْبَيْتِ بِالْيَمِينِ
 فَحَاصُ أَكْدَرٌ مَشْفِيًّا مِنَ الْوَسَنِ (٩)
 عُضْفٌ عَلِيْهِنَّ ضَافِي اللَّحْمِ وَاللَّبَنِ (١٠)
 وَكَانَ بِاللَّيْلِ وَلَأَجًّا إِلَى الْجَنَنِ (١١)

٤٥٨ - [رثاء أعرابي شاة له أكلها ذئب]

وقال صاحب الكلب: قال أعرابيٌّ وأكل ذئبٌ شاةً له تسمى وردة، وكُنيتها أم
 الورد (١٢): [من البسيط]

أودى بوردة أم الورد ذو عسل من الذئاب إذا ما راح أو بكرًا

- (١) المثل: جمع ثلة، وهو ما أخرج من تراب البئر. الأطواء: جمع طوي؛ وهو البئر المطوية بالحجارة. القرن: الحبل.
- (٢) الورهاء: الخرقاء.
- (٣) السرة: أعلى كل شيء. الذفري: ما بين المقذ إلى نصف القذال. والمقذ: ما بين الأذنين من خلف. القارح: الفرس في سن الخامسة.
- (٤) القحم: الكبير السن. الضرع: الصغير السن.
- (٥) فاسريا: الضمير هنا يعود إلى الأسد والكلب. اليفن: الشيخ الكبير.
- (٦) الأفن: ضعف الرأي. الحتن: الباطل.
- (٧) العرزال: ماوى الأسد. أجر: جمع جرو. شرن: الغليظ من الأرض.
- (٨) الجناجن: عظام الصدر. الحصاء: قليلة الشعر.
- (٩) حاص: جال جولة يطلب المهرب والمحيص.
- (١٠) العضف: استرخاء في الأذنين.
- (١١) الجنن: الميت أو القبر.
- (١٢) تقدمت الأبيات في الفقرة (٤٠٤).

لولا ابنها وسليلا ت لها غرر
 كأنما الذئب إذ يعدو على غنمي
 ما انفكت العين تذرني دمعها دررا
 في الصبح طالب وتر كان فاتارا
 من الضواري اللواتي تقصم القصرا
 اعتامها اعتامه شئن برائنه

قال: في هذا الشعر دليل أن الذئب إنما يعدو عليها مع الصبح، عند فتور الكلب عن النباح؛ لأنه بات ليلته كلها دائباً يقظان يحرس، فلما جاء الصبح جاء وقت نوم الكلاب، وما يعترها من النعاس. ثم لم يدع الله على الذئب بأن يأكله الأسد حتى يختاره ويعتاهه، إلا والأسد يأكل الذئب، ويختار ذلك. وإنما استطاب لحم الذئب بفضل شهوته للحم الكلب.

٤٥٩ - [إجازة الشعراء الدجاج]

وقال صاحب الديك: لم نر شريفاً قط أجاز شاعراً بكلب، ولا حبا به زائراً، وقد رأيتهم يجيزون الشعراء بالدجاج^(١). وأعظم من ذلك أن لقيم الدجاج، لما قال في افتتاح خبير، وهو يعني النبي ﷺ: [من الكامل]

رُميت نطاة من النبي بفيلقٍ شهباء ذات مناكب وفقار^(٢)

وهب له دجاج خبير عن آخرها. رواه أبو عمرو، والمدائني عن صالح بن كيسان، وتلك الدجاج قيل: لقيم الدجاج.

٤٦٠ - [زكن إياس]^(٣)

وقال صاحب الكلب: قال أبو الحسن: كان إياس بن معاوية وهو صغير، ضعيفاً دقيقاً دميماً، وكان له أخ أشد حركته منه وأقوى، فكان معاوية أبوه يقدمه على إياس، فقال له إياس يوماً يا أبت! إنك تقدم أخي عليّ، وسأضرب لك مثلي ومثله: هو مثل الفروج حين تنفلق عنه البيضة، يخرج كاسياً كافياً نفسه، يلتقط، ويستخفه الناس، وكلما كبر انتقص، حتى إذا تم فصار دجاجة، لم يصلح إلا للدبح. وأنا مثل فرخ الحمام حين تنفلق عنه البيضة عن ساقط لا يقدر على حركة، فأبواه يغذوانه حتى يقوى ويثبت ريشه، ثم يحسن بعد ذلك ويطير، فيجد به الناس^(٤) ويكرمونه،

(١) انظر الإصابة، ترجمة رقم ٧٥٥٤.

(٢) نطاة: اسم لارض خبير، وقيل: عين بها تسقي بعض نخيل قراها. معجم البلدان (نطاة). والبيت في ربيع الأبرار ٥/٤٤٣.

(٣) ثمار القلوب ٧٢ (١٨١).

(٤) في ثمار القلوب ٧٢ (١٨١): «ويتخذ الناس».

ويرسل من المواضع البعيدة فيجيء، فيُصان لذلك ويُكْرَمُ ، ويُسْتَرَى بالأثمان الغالية^(١). فقال أبوه: لقد أحسنت المثل!! فقدّمه على أخيه، فوجد عنده أكثر مما كان يظن فيه، [وخرج إياس باقعةً منقطع النظير]^(١).

قال صاحب الكلب: وقد أغفل إياس في هذا القول بعضَ مصالح الدجاج، وذلك أن الدجاج من لدن يخرج من حدّ الصغّر والكيس إلى أن يدخل في حدّ الكبير واحتمال اللحم والشحم، يكون أخبثَ حالاً لأنه لا يصلح فيه للذبح، وقد خرج من حدّ الكيس والاستملاح.

وإياس هو الذي يقول^(٢): لستُ بخب^(٣) والخب لا يخدعني، و [قال: الخب]^(٤) لا يخدعُ ابن سيرين؛ وهو يخدعُ أبي ويخدعُ الحسن.

(١) زيادة من ثمار القلوب.

(٢) الخبر في البيان والتبيين ١/١٠١.

(٣) الخب: الخداع. «القاموس: خب».

(٤) إضافة من البيان والتبيين ١/١٠١.

باب ما يحتاج إلى معرفته

٤٦١ - [أسماء الفرج] (١)

يقال فَرَجُ المرأة والجمع فُرُوج ، وهو القُبْل ، والفَرَجُ كناية ، و الاسم الحِرُّ،
وجمعه أحرأح . وقال الفرزدق : [من الرجز]

إِنِّي أَقُودُ جَمَلًا مَمْرَأَحًا فِي قَبَّةٍ مُوقِرَةٍ أَحْرَأَحًا (٢)

قالوا: وإنما جمعه على أحرأح، لأن الواحد حِرْح. هكذا كان أصله. وقد
يستعار ذلك وهو قليل، قال الشاعر (٣): [من الوافر]

تَرَاهَا الضَّبْعُ أَعْظَمَهُنَّ رَأْسًا جُرَاهِمَةً لَهَا حِرَّةٌ وَثِيلٌ (٤)

فلم يرض الاستعارة حتى ألحق فيها الهاء.

وهو الكَعْثَبُ، وقال الفرزدق: [من الطويل]

إِذَا بَطِطِحَتْ فَوْقَ الْأَثَافِي رَفَعْنَهَا بَشْدِييْنَ مَعَ نَحْرِ كَرِيمٍ وَكَعْثَبٍ (٥)

وقال الأغلِب: [من الرجز]

* حَيَاكَةَ عَنِ كَعْثَبٍ لَمْ يَمْصَحْ (٦) *

(١) انظر خلق الإنسان ٢٩٤ - ٣٠٠.

(٢) الرجز للفرزدق في خلق الإنسان ٢٩٤، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في اللسان والتاج (حرح)،
والمخصص ٣٧/٢، وسر صناعة الإعراب ١/١٨٢، والممتع في التصريف: ٦٢٧/٢.

(٣) البيت لحبيب الأعلم في شرح أشعار الهذليين ٣٢٢، وديوان الهذليين ٨٧/٢، والتاج (جعر)،
ولساعدة بن جؤية في التاج واللسان (جرهم، حرهم)، وللهدلي في اللسان (جعر)، وصدر
البيت للهدلي في اللسان (منن)، وعجزه في اللسان والتاج (حرح)، وبلا نسبة في خلق الإنسان
٢٩٤، والمخصص ٧١/٨، ١٦/١٧٧، وصدره بلا نسبة في اللسان (كلم).

(٤) في اللسان «الجراهمة: الضخمة الثقيلة»، وفي شرح أشعار الهذليين «الجراهمة: المغتلمة»، وفي
ديوان الهذليين «الجراهمة: العظيمة الرأس». الثيل: جراب قضيب البعير. يريد أنها خنثى.

(٥) البيت في ديوان المعاني ١/٢٨١. وفيه «يقول: إنها إذا بططحت على وجهها لم يمس الأرض منها
شيء، لأن نهود ثدييها وكبر ركبيها مثل أثافي القدر ليدنها».

(٦) ديوان الأغلِب العجلي ١٥٤، وخلق الإنسان ٢٩٥، وبلا نسبة في المخصص ٤٠/٢. حياكة:
تمشي مفرجة بين رجليها. مصح: أخلق ودرس. وفي خلق الإنسان ٢٩٥ «هو الناتئ الممتلي».

وهو الأجم، وقال الرَّاجز: [من الرجز]
جارية أعظمها أجمها قد سمَّنتها بالسَّويق أمها
بائنة الرَّجلِ فما تَضَمُّها^(١)

وقال: وقد يسمَّى الشُّكر، بفتح الشَّين وإسكان الكاف،

وأنشدوا^(٢): [من الوافر]

وكنتَ كليلة الشَّيْبَاءِ هَبَّتْ بِمَنْعِ الشُّكْرِ اتَامَهَا الْقَبِيلُ^(٣)

اتَامها: أفضاها. وأما قوله^(٤): [من الرجز]

قد أقبَلتُ عَمْرَةً مِنْ عِرَاقِهَا مُلْصَقَةَ السَّرْجِ بِخَاقٍ بَاقِهَا

قال: وهو إن أراد الحِرْفليس ذلك من أسمائه، ولكنه سماه بذلك على المزاح.

قالوا^(٥): والطَّبِيَّةُ اسم الفرَج من الحافر، والجمع الطَّبِيَّات، وقد استعاره أبو

الأخزر فجعله للخُفِّ فقال: [من الرجز]

سَاوَرَهَا عِنْدَ الْقُرُوءِ الْوَحْمُ فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطَّبِيَّاتِ الْجَحْمُ

وقد قال الأوَّل: [من الطويل]

فَجَاءَ بَغْرَمُولٍ وَفَلَكَ مُدْمَلِكٌ فَخَرَّقَ ظَبْيِيهَا الْحِصَانُ الْمُسْبِقُ

وهو من الظَّلْف والخُفِّ الحيا. والجمع أحيية. وهو من السبع تُفْر، وقد

استعاره الأخطل للظَّلْف فقال^(٦): [من الطويل]

جَزَى اللَّهُ عَنَا الْأَعْوَرَيْنِ مَلَامَةً وَعَبَلَةَ تُفْرِ الثَّوْرَةِ الْمُتَضَاجِمِ^(٧)

(١) الرجز بلا نسبة في اللسان (بدد، جمم)، والتاج (جمم)، والتهديب ٥٢٠/١٠، ٨٠/١٤،

والجمهرة ٦٥، والمعاني الكبير ٥١٠، والمخصص ٤٠/٢، وخلق الإنسان ٢٩٦.

(٢) البيت لعروة بن انورد في خلق الإنسان ٣٥، واللسان والتاج (تام، شوب)، وليس في ديوانه، وبلا

نسبة في خلق الإنسان ٢٩٥.

(٣) يقال: «باتت بليلة شبياء» إذا أمكنت زوجها من نفسها ليلة عرسها، أما إذا امتنعت عن زوجها

فيقال: «باتت بليلة حرة». انظر ثمار القلوب (٩٠٥ - ٩٠٦).

(٤) الرجز بلا نسبة في اللسان والتاج (خوق)، والمخصص ١١/٤، والتهديب ٤٥٧/٧.

(٥) انظر أدب الكاتب ١٨٩.

(٦) ديوان الأخطل ٥٠٦، واللسان والتاج (ثفر، ثور، ضجم)، والتهديب ٧٦/١٥، والمجمل

٣٦١/١، والمخصص ١١٢/١٦، وكتاب الجيم ١٠٩/١، وديوان الأدب ١٠٦/١، ٤٧٢/٢،

وبلا نسبة في المقاييس ٣٨١/١، والجمهرة ٤٢٢.

(٧) المتضاجم: المائل.

فلم يرضَ أن استعاره من السَّبْعِ للبقرة حتَّى جعل البقرة ثورة .
وقد استعاره النَّابِغَةُ الجَعْدِيُّ للحنافر، كما استعاره الأخطل للظَّلْف، فقال^(١):

[من الطويل]

بُرَيْدَةٌ بَلَّ الْبَرَادِينَ ثَفْرَهَا وقد شَرِبْتُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ أُيْلًا^(٢)

وقد قالوا بِرْدُونَةَ، وقال الرَّاجِزُ^(٣): [من الرجز]

تَرَحَّزِحِي إِلَيْكَ يَا بَرْدُونَهُ إِنَّ الْبَرَادِينَ إِذَا جَرَيْنَهُ
مَعَ الْجِيَادِ سَاعَةً أَعْيَيْنَهُ

وقد استعاره آخَرُ فَجَعَلَهُ لِلنَّعْجَةِ فقال^(٤): [من الطويل]

وما عمرو إلا نَعْجَةً سَاجِسِيَّةً تَحْرُكُ تَحْتَ الْكَبِشِ وَالثَّفْرِ وَارِمُ
وَالسَّاجِسِيَّةُ: ضَانٌ فِي تَغْلِبِ .

وقد استعاره آخَرُ فَجَعَلَهُ لِلْمَرْأَةِ فقال^(٥): [من الرجز]

نحن بنو عَمْرَةَ فِي انْتِسَابِ بنت سُويْدِ أَكْرَمِ الضُّبَابِ
جَلَدْتَنَا مِنْ ثَفْرِهَا الْمِنْجَابِ

ويقال لجردان الحمار غرمول، وقد يقال ذلك للإنسان وقضيب البعير، وهو لكل شيء، ومِقلَمُ الجمل فقط. ومن السباع العقدة، وأصله للكلب والذئب. وقال جرير: [من البسيط]

إِذَا رَوَيْنَ عَلَيَّ الْخَنْزِيرَ مِنْ سَكْرٍ نَادِينَ يَا أَعْظَمَ الْقَسِينِ جُرْدَانًا^(٦)
ويقال: صرفت الكلبة صرافاً وصرِوفاً، وظلعت تظلع ظلوعاً.

وقالوا في الأمثال: « لا أفعلُ حتَّى ينامَ ظالعُ الكلابِ »^(٧) أي الصارف.

(١) ديوان النابغة الجعدي ١٢٤، والسمط ٢٨٢، والخزانة ٢٣٩/٦، واللسان والتاج (أول)، والمخصص ٩٩/١٦.

(٢) الأيل: جمع آيل، وهو اللبن الخاثر. «القاموس: أيل».

(٣) الرجز بلا نسبة في رسائل الجاحظ ٣٤١/٢، واللسان (عيا).

(٤) البيت بلا نسبة في اللسان والتاج (ثفر)، وفيهما «وارد» مكان «وارم».

(٥) الرجز بلا نسبة في اللسان والتاج (ثفر)، ورواية البيت الثالث فيهما: (جاءت بنا من ثفرها المنجاب).

(٦) ديوان جرير ١٦٧ (طبعة المعارف)، ٥٩٨ (طبعة الصاوي)، واللسان (جرد، سكر) وتهذيب اللغة ٥٨/١٠، وخلق الإنسان ٢٧٧، والمخصص ٣٠/٢.

(٧) المستقصى ١٢٨/١، ٥٩/٢، وأمثال ابن سلام ٢٤٩.

ولم يعرف الأصمعيُّ ظلمت الكلبة بمعنى صرّفت. واستحرمت، وأجعلت
واستجعلت، واستطارت. والذئبة في ذلك كالكلبة.

قال: ويقال في السباع: قد وضعت، وولدت، ورمصت مثل ما يقال للناس
والغنم.

٤٦٢ - [المذكر والمؤنث من الحيوان]

قال: ويقال كلبة وكلب، وذئبة وذئب وبرذون وبرذونة. وأنشد^(١): [من

الطويل]

أرئيتَ إذا ما جالت الخيلُ جَوْلَةً وأنتَ على برذونةٍ غيرِ طائلِ

ويقال رجل ورجال، وامرأة ونساء، وليس لها جمعٌ من واحدها. ويقال بغير
وناقة وجمل، ولا يقال جملة ولا بعيرة، وقد قالوا رجل ورجلة وشيخ وشيخة. ويقال
كباش ونعجة، ولا يقال كبشة^(٢)، كما لا يقال أسدة^(٣)، ويقال أسد ولبوة ولبوات،
ويقال ذئبة وذئب، وقال الشاعر: [من الطويل]

كأنهما ضبَعَانَةٌ في مَفَازَةٍ وذئبٌ محلٌّ أمٌ جرّوينِ تعسل^(٤)

ويقال إنسان وإنسانة، وسبع وسبعة، وحمّام وحمّامة، وحمّار وحمّارة،
وسرحان وسرحانة، وسيدٌ وسيدة، وهقل وهقلة، وإلق وإلقة^(٥)، وقال رؤبة: [من
الرجز]

* جَدٌّ وَجَدَّتْ إِلْقَةٌ مِنَ الْإِلْقِ^(٦) *

وزعم أنه يقال ضبع وضبعة، وثعلب وثعلبة. وأصحابنا لا يقولون هذا
ويضحكون ممن يقولون ضبعة عرجاء. ويقال ثرملة^(٧).

(١) البيت بلا نسبة في اللسان (برذن، رأي)، والتاج (برذن) ورسائل الجاحظ ٣٤١/٢، وشرح
المفصل ٩٨/٥.

(٢) «قال ابن جنبي: كبشة اسم مرتجل؛ ليس بمؤنث الكباش الدال على الجنس، لأن مؤنث ذلك من
غير لفظه؛ وهو نعجة»، اللسان «كباش».

(٣) قلت: إن كلمة «أسدة» وردت في القاموس في مادتي (لبأ، ليو).

(٤) تعسل: تضطرب في عدوها وتهز رأسها. انظر القاموس «عسل».

(٥) السرحان: الذئب، السيد: الذئب. الهقل: الفتى من النعام. الإلق: الذئب.

(٦) ديوان رؤبة ١٠٧، وبلا نسبة في المقاييس ١٣٢/١، والمخصص ١٠/١٨٧..

(٧) ثرملة: أنثى الثعلب. «القاموس: ثرمل».

ويقال من الفراه فرخ وفرخة، ومن النمر نمر ونمرة. قال : ويقال ذبيحٌ وذبيخةٌ^(١)، وضبعان وضبعاثةٌ، وجيال وجيالة^(٢). ويقال عقرب وعقرية. والعقربان الذكر وحده. وقال الشاعر^(٣): [من السريع]

كَانَ مَرَعَى أُمَّكُمْ إِذْ غَدَتَ عَقْرِيَّةٌ يَكُومُهَا عَقْرُبَانٌ^(٤)

ومن الضفادع ضفدع وضفدعة، ومن القنافذ قنفذ وقنفذة، وشيهم وشيمة^(٥)، ومن القروود قرد وقردة.

ويقال إلقة وقشة^(٦)، ولا يقال إلق وقش، ويقال لولد القرد ربّاح والأنثى إلقة. وقال الشاعر^(٧): [من السريع]

وإِلْقَةُ تُرغِثُ رَبَّاحَهَا وَالسَّهْلُ وَالنَّوْفَلُ وَالنَّضْرُ^(٨)

ومن النعام هقل وهقلة. وهيق وهيقة، وصعل وصعلة، وسفنج وسفنجة، ونعام ونعامة، والواحد من فراخها الرال والجمع رئال ورئلان وأرال وأرؤل، والأنثى رالة، وحفانة والجمع حفان، وقد يكون الحفان أيضاً للواحد. ويقال لها قلاص والواحدة قلوص ولا يقال قلوصة، ويقال ظليم ولا يقال ظليمة، ويقال نقتق ولا يقال نقتقة.

ويقال من الأرانب أرنب ولا يقال أرنية، والذكر خُزَز. ويقال للأنثى عكرشة ولولدها خرنق. ويقال هذه أرنب وهذه عقاب، ولا يقال هذا الأرنب ولا هذا العقاب.

وقال الشماخ: [من الوافر]

فَمَا تَنْفَكُ بَيْنَ عَوِيرِيضَاتٍ تَجْرِبِرَاسٍ عِكْرِشَةَ زَمُوعٍ^(٩)

- (١) الذبيح: الذئب الجريء؛ والفرس الحصان؛ وذكر الضباع الكثير الشعر. «القاموس: ذبيح».
- (٢) الجيال: الضبيع. «القاموس: جال».
- (٣) البيت لإياس بن الارت في اللسان والتاج (عقرب، كوم)، والتنبيه والإيضاح ١٢٠/١، ولبعض العربان في معجم البلدان ١٣٥/٤ (العقربة)، وبلا نسبة في المخصص ١٠٥/٨، ١٠٥/١٦، ١١١، وديوان الأدب ٨٢/٢، وأساس البلاغة (كوم).
- (٤) في اللسان «عقرب»: (مرعى: اسم أمهم. روى ابن بري عن أبي حاتم قال: ليس العقربان ذكر العقارب؛ إنما هو دابة له أرجل طوال. ويكومها: ينكحها).
- (٥) الشيهم: ذكر القنافذ «القاموس: شهيم».
- (٦) القشة: القردة أو ولدها الأنثى، ودويبة كالخنفساء. «القاموس: قش».
- (٧) البيت لبشر بن المعتز في اللسان والتاج (ريح، الق)، والتنبيه والإيضاح ٢٣٦/١.
- (٨) ترغث: ترضع «القاموس: رغث». السهل: الغراب «القاموس: سهل». النوفل: البحر «القاموس: نفل». النضر: الذهب «القاموس: نضر».
- (٩) ديوان الشماخ ٢٣١، واللسان والتاج (زعم)، والمقاييس ٢٤/٣، والعين ٣٦٧/١، ٣٠٣/٢، والمجمل ٢٢/٣. زموع: تمشي على زمعتها، وهي الشعرة المدلاة في مؤخر رجلها، وقيل: الزموع من الأرانب: النشيطة السريعة. انظر ديوان الشماخ ٢٣١.

قال ويقال لولد الكلب جروً والأنثى جرورة، وهو درِص والجمع أدراص، ويقال لمن عضه الكلبُ الكلبُ: بال كادراص الكلاب.

٤٦٣ - [بدء الإبصار عند الجرو]

وجرو الكلب يكون أعمى عشرة أيام وأكثر، وقد يعرض شبيهه بذلك لكثير من السباع.

٤٦٤ - [استطراد لغوي]

ويقال بصبص الجرو وفقَّح وجصَّص، إذا فتح عينيه شيئاً، وصاصاً إذا لم يفتح عينيه. ولذلك قال عبید الله بن جحش، والسُّكران بن عمرو، للمسلمين ببلاد الحبشة: «إِنَّا فَقَّحْنَا وَصَاصَاتِم»^(١). قال بعض الرُّجَاز في بعض الصَّبَّيان^(٢): [من الرجز]

أَبِجْ بِهِ مِنْ وَكْدٍ وَأَشْفَحْ مِثْلَ جُرِّيِّ الْكَلْبِ لَمْ يَفْقَحْ
إِنْ يَسْرِ سَارٍ لَمْ يَقُمْ فَيَنْبَحْ بِالْبَابِ عِنْدَ حَاجَةِ الْمَسْتَفْتَحِ

ويقال لولد الأسد جرو وأجراء وجراء، وهي لجميع السباع، ويقال له خاصةً: شِبْل. والجمع أشبال وشبول. وقال زهير: [من الكامل]

وَأَنْتَ أَشْجَعُ حِينَ تَتَّجِهُ الـ أَبْطَالُ مِنْ لَيْثِ أَبِي أَجْرٍ^(٣)

٤٦٥ - [من حيل الثعلب والكلب]

وحدثني صديق لي قال: تعجَّبَ أخُ لنا من خُبثِ الثَّعلبِ. وكان صاحبَ قَنَصٍ، وَقَالَ لي ما أعجب أمر الثعلب! يفصل بين الكلب والكلاب، فيحتال للكلاب بما يعلم أنه يجوز عليه، ولا يحتال مثل تلك الحيلة للكلب، لأن الكلب لا يخفي عليه الميت من المغشي عليه. ولا ينفع عنده التماوت. ولذلك لا يحمل من مات من المجوس إلى النار حتى يدنئ منه كلب، لأنه لا يخفي عليه مغمور الحس أحياً هو أو ميت. وللكلب عند ذلك عمل يستدل به المجوس.

قال: وذلك أني هَجَمْتُ على ثعلب في مضيق، ومعني بُني لي، فإذا هو ميت

(١) في النهاية ٣/٣، ٤٦٢ (في حديث عبید الله بن جحش أنه تنصَّر بعد ما أسلم، فقيل له في ذلك؛ فقال: إنا فحنا وصاصاتم. أي أبصرنا رشدنا ولم تبصروه).

(٢) الرجز للأحوص في الأغاني ٤/٢٣٢.

(٣) ديوان زهير ٨٢، وأساس البلاغة (جرو). أجز: جمع جرو.

منتفخ، فصدّدت عنه، فلم ألبث أن لحقتني الكلاب. فلما أحسّ بها وثب كالبرق، بعد أن تحايّد عن السنن، فسالت عن ذلك فإذا ذلك من فعله معروف، وهو أن يستلقي وينفخ خواصره ويرفع قوائمه، فلا يشكُّ من رآه من الناس أنه ميت منذُ دهر، وقد تزكّر^(١) بالانتفاخ بدنه، فكنت أتعجب من ذلك، إذ مررتُ في الرّفاق الذي في أصل دار العبّاسية ومنفذه إلى مازن، فإذا جرو كلب مهزول سيئ الغذاء، قد ضربه الصبيان وعقروه ففرّ منهم ودخل الرّفاق، فرمى بنفسه في أصل أسطوانة وتبعوه حتّى هجموا عليه، فإذا هو قد تماوت فضربوه بأرجلهم فلم يتحرّك فانصرفوا عنه. فلما جاوزوا تأملت عينه فإذا هو يفتحها ويغمضها، فلما بعدوا عنه وأمنهم عدا، وأخذ في غير طريقهم فأذهب الذي كان في نفسي للثعلب، إذا كان الثعلب ليس فيه إلا الروغان والمكر، وقد ساواه الكلب في أجود حيله.

٤٦٦ - [مفاضلة بين الثعلب والكلب]

ومع الكلب بعد ما ليس معه، إلا أن يفخر بفروته^(٢) في موضع انتفاع الناس به، فجعر الكلب للذئبة أنفع منه، إذ كان في الذئبة الموت وليس يقوم مقامه شيء. وجلد الثعلب منه عوض^(٣).

٤٦٧ - [قول صاحب الديك في الكلاب]

قال صاحب الديك: شرار عباد الله من قتل أولاد رسول الله ﷺ. ولم نجد شعراء الناس شبهوا أولئك القاتلين بشيء سوى الكلاب. قال أبو نضلة الأبار، في قتل سلم بن أحوز المازني، صاحب شرطة نصر بن سيار اللّيثي، يحيى بن زيد وأصحابه، فقال: [من الطويل]

ألم تر ليثاً ما الذي ختمت به
كلاب تعاوت لاهدى الله سبلها
بنفسي وأهلي فاطمي تقنصوا
لقد كشفت للناس ليث عن استها

لها الويل في سلطانها المتخاذل
فجاءت بصيد لا يحل لأكل
زمان عمي من أمة وتخاذل
وغاب قبيل الحق دون القبائل

قال صاحب الديك: وروى هشيم عن المغيرة عن إبراهيم قال: لم يكونوا

ينهوننا عن شيء من اللعب ونحن غلمان إلا الكلاب.

(١) تزكّر بطن الصبي: عظم وحسنت حاله. «القاموس: زكر».

(٢) الضمير هنا يعود إلى الثعلب.

(٣) أي يمكن الاستعاضة بجلد غيره.

وذكر محمد بن عجلان المدني عن زيد بن أسلم، أنه كان لا يرى بأساً بالبيض الذي يتقامر به الفتیان، أن يهدى إليه منه شيء أو يشتريه فيأكله.

وهشام بن حسان قال: سئل الحسن عن البيض يلعب به الصبيان يشتريه الرجل فيأكله، فلم يره بأساً وإن أطمعوه أن يأكل منه. والجوز الذي يلعب به الصبيان.

وحاتم بن إسماعيل الكوفي قال: حدثنا عبد الرحمن بن حرملة، عن سعيد بن المسيب، أنه لم يكن يرى بأساً بالبيض الذي يلعب به الصبيان.

٤٦٩ - [قتل أنواع من الحيات والكلاب]

قال: وحدثني ابن جريج قال، وأخبرني عبد الله بن عبيد بن عمير قال: أخبرني أبو الطفيل أنه سمع علي بن أبي طالب يقول: اقتلوا من الحيات ذا الطفتين^(١)، والكلب الأسود البهيم ذا الغرتين^(٢). قال: والغرة: حوة تكون بعينه.

٤٧٠ - [قول صاحب الكلب في صقاع الديك]

قال صاحب الكلب: قد أخبرني أبو حرب عن منصور القصاب، قال: سألت الحسن عن البيض الذي يتقامرون به، فكرهه.

وما رأينا قط أحداً يريد الأدلاج ينتظر صقاع الديك^(٣). وإنما يوالي الديك بين صياحه قبيل الفجر ثم مع الفجر إلى أن ينبسط النهار، وفيما بين الفجر وامتداد النهار لا يحتاج الناس إلى الاستدلال بأن يصوت الديك. ولها في الأسحار أيضاً بالليل الصيحة والصيحتان، وكذلك الحمار. على أن الحمار أبعد صوتاً، وأجدر أن ينبه كل نائم لحاجة إن كانت له. وما رأينا صاحب سحور يستعمله، وكذلك صاحب الأذان، وما رأيناه يتكلم في وقت أذانه على صياح الديك، لأن صورة صوته ومقدار مخرجه في السحر الأكبر كصياحه قبل الفجر. وصياحه قبل الفجر؛ كصياحه وقد نور الفجر وقد أضاء النهار. ولو كان بين الصيحتين فرقاً وعلامة كان لعمري ذلك دليلاً. ولكنه من سمع هتافه وصقاعه فإنما يفرغ إلى مواضع الكواكب، وإلى مطلع الفجر الكاذب والصادق.

(١) الحديث في النهاية ٣/ ١٣٠، الطفتان: خطان أسودان في ظهر الحية.

(٢) الحديث في النهاية ٣/ ٣٥٤، الغرتان: هما النكتتان البيضاوان فوق عينيه.

(٣) صقاع الديك: صياحه. «القاموس: صقع».

والديك له عدَّةُ أصواتٍ بالنَّهارِ لا يغادر منها شيئاً، وتلك أوقاتٌ لا يحتاج فيها النَّاسُ إليه .

٤٧١ - [طرائق معرفة الأوقات]

وملوكنَّا وعلماؤنا يستعملون بالنَّهارِ الأسطرلابات، وبالليل البنكامات، ولهم بالنَّهارِ سوى الأسطرلاباتِ خطوطٌ وظلٌّ يعرفون به ما مضى من النهار وما بقي . ورأيانهم يتفقَّدون المطالعَ والمجاري . ورأيانا أصحابَ البساتين وكلَّ مَنْ كان بقُرب الرِّياضِ، يعرفون ذلك بريح الأزهار . ورأيانا الرُّومَ ونصارى القرى يعرفون ذلك بحركات الخنازير وببُكورها وغدوُّها وأصواتها، ولذلك قالوا في وصف الرجل: له وثبة الأسد، وروغان الثعلب، وانسلاَّب الذئب^(١) وجمع الذرَّةِ وبُكور الخنزير . والرَّاعي يعرف ذلك في بكور الإبل وفي حنينها وغير ذلك من أمرها .

٤٧٢ - [هديل الحمام]

وللحمامِ أوقاتٌ صباحٍ ودُعاءٍ مع الصُّبحِ وقبيلَ ذلك على نسقٍ واحد، ولكنَّ النَّاسَ إنَّما ذكروا ذلك في الديك والحمار، لامتداد أصواتهما .

وهديلُ الحمامِ ودعاؤه لا يُجوزُ بعيداً، إلَّا ما كان من الوراشرين^(٢) والقواخت في رؤوس النَّخلِ وأعلي الأشجار، فلعمري إنَّ ذلك لما يُسمع من موضعٍ صالحٍ البعد .

٤٧٣ - [ما يصيح من الطير مع السَّحر والصبح]

وللعصافير والخطاطيف وعمامة الطَّيرِ، ممَّا يصرُّ أو يُصرصر^(٣)، ومما يهدل مع الفجرِ إلى بُعيد ذلك - صباحٌ كثير . ثمَّ الذي لا يدع الصُّباح في الأسحار مع الصبح أبداً الضُّوع^(٤)، والصَّدَى^(٥)، والهامة، والبومة وهذا الشَّكلُ من الطَّيرِ . وقد كتبنا في غير هذا الموضوع الأشعارَ في ذلك^(٦) .

(١) انسلب : أسرع في السير . « القاموس : سلب » .

(٢) الوراشرين : جمع رشان ؛ وهو طائر لحمه أخف من الحمام . « القاموس : ورش » .

(٣) صرصر : صوتٌ وضاحٌ شديداً . « القاموس : صر » .

(٤) الضُّوع : طائر من طير الليل، أو الكروان، أو ذكر البوم، أو طائر أسود كالغراب طيب اللحم .

« القاموس : ضوع » .

(٥) الصدى : طائر يصرُّ بالليل . « القاموس : صدى » .

(٦) انظر الفقرة رقم (٤٧٥) فيما سيأتي .

قال: وقد يصيح مع الصُّبحِ البُوم، والصدى والهَام، والضُّوع والخطاطيف،
والعصافير، والحمُر^(١) في ذلك الوقت أكثر من الديكة. قال الوليد بن يزيد في ذلك:
[من الهزج]

سُلِّمى تيكَ في العيرِ قفي إن شئتِ أو سيري^(٢)
فلما أن دنا الصُّبحُ بأصواتِ العَصَافيرِ

وقال كلثوم بن عمرو العتّابي: [من البسيط]

ياليلةً لي بحوَارينَ ساهرة حتّى تكلمَ في الصُّبحِ العَصَافيرِ^(٣)

فالعصافير والخطاطيف والحمُر^(١) والحمام والضُّوعان^(٤) وأصناف البوم كلّها
تقوم مقام الديك. وقال ثعلبة بن صعير المازني: [من الكامل]

أعميرَ ما يُدريكِ أنْ رُبَ فتيةٍ بيضِ الوجوهِ ذوي ندى ومآثر^(٥)
حَسَنِي الفُكاهةِ لا تدمُ لحامهم سَبْطِي الأكَفُ لدى الحروبِ مساعِر^(٦)
باكرتُهُمُ بسِباءِ جَوْنٍ مُترَعٍ قَبْلَ الصُّبْحِ وَقَبْلَ لغوِ الطائرِ^(٧)

٤٧٤ - [صوت الديك وما قيل فيه شعراً]

قال: ويقال لصوت الديكة الدُّعاء. والزقَاء، والهتاف، والصراخ، والصقاع.
وهويتهف ويصقع ويزقو ويصرخ. وقال جرّان العود: [من الطويل]

تميلُ بك الدنيا ويغلبك الهوى كما مالَ حَوَارُ النِّقَا المتقصف^(٨)
ونُلغى كأننا مغمّمٌ قد حويته وترغَبُ عن جَزَلِ العطاءِ وتصدفُ
فمِوعدكُ الشُّطُّ الذي بينَ أهلنا وأهلكِ حتّى تسمعَ الديك يهتِفُ

(١) الحمُر: ضرب من الطير كالعصفور. حياة الحيوان ١/٣٧٦.

(٢) البيتان ليزيد بن ضبة في الأغانى ٧/٩٤، ٩٧، وهما من قصيدة في مدح الوليد بن يزيد.

(٣) البيت بلا نسبة في معجم البلدان ٢/٣١٥ (حوارين)، و «حوارين» بالضم، وتشديد الواو: من قرى حلب، وحصن من ناحية حمص.

(٤) الضوع: طائر من طائر الليل، أو الكروان، أو ذكر البوم. «القاموس: ضوع».

(٥) الأبيات في المفضليات ص ١٣٠.

(٦) اللحم: جمع لحم. السبّط: المسترسل، والمراد أنهم كرام. مساعر: جمع مسعر؛ وهو الذي يوقد الحرب كأنه يسعرها.

(٧) السبَاء: شراء الخمر. الجون: الأسود، أراد به الزق.

(٨) ديوان جرّان العود ١٧. حوَار النِّقَا: الرمل اللين.

وقال الممزق العبدى: [من الطويل]

وقَدْ تَخَذَتْ رَجْلَايَ فِي جَنْبِ غَرْزِهَا
أُنِيخَتْ بِجَوْ يَصْرُخُ الدِيكُ عِنْدَهَا

وقال لبيد: [من الطويل]

لَدُنْ أَنْ دَعَا دِيكَ الصَّبَاحَ بِسُحْرَةٍ
إِلَى قَدْرِ وَرْدِ الخَامِسِ المَتَأَوِّبِ^(٣)

٤٧٥ - [طيور الليل]

ويقال للطائر الذي يخرج من وكره بالليل البومة والصدى والهامة والضوع والوطواط والخفّاش، وغراب الليل، ويصيد بعضها الفأر وسام أبرص والقطا وصغار الحشرات، وبعضها يصيد البعوض والقرّاش وما أشبه ذلك. والبوم يدخل بالليل على كل طائر في بيته، ويخرجه منه ويأكل فراخه ويبيضه. وهذه الأسماء مشتركة.

وقال خزيمة بن أسلم: [من الطويل]

فَلَا تَرْقُونَ لِي هَامَةً فَوْقَ مَرْقَبٍ
فَإِنَّ زُقَاءَ الهَامِ أَخْبَثُ خَابِثٍ

وقال عبد الله بن خازم أو غيره: [من الوافر]

فَإِنَّ تَكُ هَامَةً بِهَرَاةٍ تَرْقُو
فَقَدْ أَرْقَيْتَ بِالْمَرْوِينِ هَامَا^(٤)

وقال توبة بن الحمير: [من الطويل]

وَلَوْ أَنَّ لَيْلَى الأَخْيَلِيَّةَ سَلِمَتْ
عَلَيَّ وَدُونِي جَنْدَالٌ وَصَفَائِحُ^(٥)

(١) البيتان للممزق العبدى في الأصمعيات ١٦٥، والبيت الأول في اللسان (فحص، نسف، طرق)، والمقاصد النحوية ٥٩٠/٤، وبلا نسبة في الجمهرة ٣٨٨، ٥٤١، ٧٥٧، ٨٤٨، ١١٩٢، والخصائص ٢٨٧/٢، والثاني بلا نسبة في المخصص ٢٠٦/١٠، ونسب البيت الأول إلى المنثقب العبدى في اللسان (حدب). الغرز: ركاب من جلد. القاموس: غرز. النسيف: أثر ركض الرجل بجنبى البعير. الأفحوص: مجثم القطة.

(٢) جو: اسم الجمامة. كادى: يقال: كدأ النبات: أصابه البرد فلبده في الأرض. السملق: الأجرد لا شجر فيه.

(٣) ديوان لبيد ٨.

(٤) البيت لعبد الله بن خازم في المخصص ١٦٢/٨، وذيل الأماي ٣١، ولحنظلة أو ربيعة بن عرادة في السمط ١٧/٢، وبلا نسبة في الوحشيات ٨٤، واللسان والتاج (هوم، زقا)، والجمهرة ٨٢٣، والتهذيب ٤٦٩/٦، وأساس البلاغة (زقو).

(٥) البيتان لتوبة بن الحمير في الحماسة البصرية ١٠٨/٢، والحماسة المغربية ٩٣٥، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٣١١، والأغاني ٢٤٤/١١، والسمط ١٢٠، والمقاصد النحوية ٤٥٣/٤، وأماي المرتضى ٤٥٠/١، وتزيين الأسواق ١٨٩.

لَسَلَّمْتُ تَسْلِيمَ الْبَشَاشَةِ أَوْ زَقَا إِلَيْهَا صَدَى مِنْ جَانِبِ الْقَبْرِ صَائِحُ

وقال الرّاجز : [من الرجز]

وَمَنْهَلٌ طَامِسَةٌ أَعْلَامُهُ يَعْوِي بِهِ الذُّئْبُ وَيَزُقُو هَامُهُ

وَأَنْشَدَنِي فِي الصَّدَى : [من الطويل]

تَجَشَّمْتُ مِنْ جَرَاكِ وَالْبُومُ وَالصَّدَى لَهُ صَائِحٌ أَنْ كُنْتُ أُسْرِيَتْ مِنْ أَجْلِي

وقال سويد بن أبي كاهل في الضوع : [من الرمل]

لَنْ يَضْرِبَنِي غَيْرُ أَنْ يَحْسُدَنِي فَهَوَ يَزُقُو مِثْلَ مَا يَزُقُو الضُّوعُ^(١)

قال : في قراءة ابن مسعود : ﴿ إِنَّ كَانَتْ إِلَّا زَقِيَّةً وَاحِدَةً ﴾^(٢) ، ﴿ وَنَفَخَ فِي الزَّقِيَّةِ ﴾^(٣) يريد الصور .

وصوت الدجاجة القوقاة ، تقول هي تقوقئ .

٤٧٦ - [شعر في الدجاج]

وقال أعرابي : [من الطويل]

أَلَيْسَ يَرَى عَيْنِي جُبَيْرَةَ زَوْجُهَا
تَنْجِبُهَا لَا أَكْثَرَ اللَّهُ خَيْرُهُ
لَهَا أَنْفٌ خَنْزِيرٍ وَسَاقًا دَجَاجَةٍ
وَمَحْجَرَهَا، قَامَتْ عَلَيْهِ النَّوَائِحُ
رُمِيصَاءٌ قَدْ شَابَتْ عَلَيْهَا الْمَسَائِحُ^(٤)
وَرُؤَيْتَهَا تَرَحُّ مِنْ الْعَيْشِ تَارِحُ

وقال العجبر السلولي : [من البسيط]

لَا نَوْمَ إِلَّا غَرَارُ الْعَيْنِ سَاهِرَةٌ
إِنْ تَهْجُرُونِي فَقَدْ بَدَلْتُ أَيْكَتِكُمْ
حَتَّى أَصِيبَ بَغِيظَ آلٍ مَطْلُوبٍ^(٥)
ذَرَقَ الدَّجَاجِ بِحَفَازِ الْبِعَاقِبِ^(٦)

(١) البيت لسويد بن أبي كاهل في ديوانه ٢٦ ، وشرح اختيارات المفضل ٨٧٨ ، والمفضليات ١٩٨ ، واللسان والتاج (كنع) .

(٢) ٢٩ / يس : ٣٦ ، وهي قراءة ابن مسعود وعبد الرحمن بن الاسود . المحتسب ٢٠٦ / ٢ .

(٣) ٩٩ / الكهف : ١٨ .

(٤) تنجّب : اختار واصطفي . رميضاء : التي يظهر بعينها القذى . المسائح : جمع مسيحة ؛ وهي الضفيرة .

(٥) البيتان في الاغانى ٥٩ / ١٣ ، ومعجم البلدان ١٥١ / ٥ (مطلوب) ، ١٥٩ (معمل) . مطلوب : ماء لخشتم ، معمل : قرية من أعمال مكة .

(٦) في معجم البلدان « معمل » : (الايكة : جماعة الاراك ، وذلك أنه نزع ووضع مكانه الفسيل) . ذرق الدجاج : نجوه . البيعاقيب جمع يعقوب : وهو ذكر الحجل .

وقال أبو الأسود الدؤلي: [من الطويل]

ألم تعلموا يا ابني دجاجة أنني أغش إذا ما النصح لم يتقبل^(١)

٤٧٧ - [هجاء الدجاج وهجاء من اتخذها]

وقال صاحب الكلب: وسنروي في الدجاج ونذكر كل من هجاها وهجا من اتخذها وأشبهها في وجه من الوجوه، قال الراجز^(٢): [من الراجز]

أقبلن من نير ومن سواج^(٣) بالحي قد مل من الإدلاج

فهم رجاج وعلی رجاج^(٤) يمشون أفواجا إلى أفواج

مشي الفراريج إلى الدجاج

وقال عبد الله بن الحجاج: [من الوافر]

فإن يعرض أبو العباس عني ويركب بي عروضاً عن عروض^(٥)
ويجعل وده يوماً لغيري ويُبغضني فإني من بغيض
فَنَصْرُ اللَّهِ يَأْسُو كُلَّ جُرْحٍ وَيَجْبُرُ كَسْرَ ذِي الْعَظْمِ الْمَهْيُضِ
فَدَى لَكَ مَنْ إِذَا مَا جِئْتُ يَوْمًا تَلْقَانِي بِجَامِعَةِ رَبُوضِ^(٦)
لَدَى جَنْبِ الْخَوَانِ وَذَاكَ فُحْشٌ وَبَسْتِ خُبْرَةَ الشَّيْخِ الْمَرِيضِ
كَأَنِّي إِذْ فَرَعْتُ إِلَى أَحْيِحِ فَزَعْتُ إِلَى مَقْوِقِيَةِ بَيُوضِ^(٧)
إِوزَةَ غَيْضَةٍ لَقِحَتْ كَشَافًا لِفَقْحَتِهَا إِذَا بَرَكْتُ نَقِيضُ^(٨)

(١) البيت في ديوان أبي الأسود الدؤلي ٢٣٨، وثمة بيت في ديوان الفرزدق ٧٠٧ قاله لعوف بن القعقاع، وأخيه، وهو:

(الم تعلموا يا ابني أمانة أنني أغش إذا ما النصح لم يتقبل)

(٢) الراجز بلا نسبة في اللسان والتاج (رجع، نير)، والمقاييس ٣٨٥/٢، والجمهرة ٤٩٠، ٥٧٤، ١٠٤١، والمجمل ٣٦٨/٢، وديوان الادب ٦٣/٣، والعين ١٧/٦، والمخصص ٩٥/٣. ومعجم البلدان (سواج).

(٣) النير: جبل بأعلى نجد. معجم البلدان (نير). سواج: جبل لقبيلة غني. معجم البلدان (سواج).

(٤) الرجاج: الضعفاء من الناس والإبل. «القاموس: رجج».

(٥) ديوان عبد الله بن الحجاج ٣٠٤ - ٣٠٥، والأغاني ١٣/١٦٣، والبيت الأول بلا نسبة في التاج (عرض).

(٦) الربوض: الضخمة الثقيلة. «القاموس: ربض».

(٧) المقوقية: المصوتة، وعنى بها الإوزة.

(٨) الكشاف: أن تُلَقَّح حين تبيض. النقيض: الصوت. وهذا البيت فيه إقواء.

وقالت امرأة في زوجها وهي ترقص ابناً لها منه^(١): [من الرجز]
وُهبتُهُ من سَلْفَعِ أَفوكَ ومن هِبَلٍ قَدْ عَسَا حَنِيكِ^(٢)
أشهبَ ذي رأسٍ كِراسِ الدِّيكِ

تريد بقولها «أشهب» أنه شيخ وشعر جسده أبيض وأن لحيته حمراء.

وقد قال الشاعر، وهو الأعشى: [من الخفيف]

وبني المنذر الأشاهب بالحيد - ره يمشون غُدوةً كالسيوف^(٣)

وإنما أراد الأعشى أن يعظم ويفخم أمرهم وشأنهم، بأن يجعلهم شيوخاً.
وأما قولها: «ذي رأس كراس الديك» فإنما تعني أنه مخضوب الرأس واللحية.

وقال الآخر^(٤): [من البسيط]

حَلَّتْ خويلدُ في حيٍّ مجاورَةً يقارِعُونَ رؤوسَ العُجمِ ضاحيةً
أهلَ المدائنِ فيها الدِّيكُ والفيلُ منهم قوَارِسٍ لا عُزْلٌ ولا ميلُ^(٥)

قال ابن أحرمر: [من البسيط]

في رأسِ خَلْقَاءَ من عَنقَاءَ مُشْرِفةٍ إلاً كمثلك فينا غير أن لنا
لا يُبتَغَى دُونَهَا سَهْلٌ ولا جَبَلٌ^(٦) هِيهاتَ حَيٍّ غَدَاً من ثَجَرَ مَنزِلُهُم
شوقاً وذلك ممَّا كَلَّفَتْ جَلَلٌ حيٌّ بنجرانَ صَاحِ الدِّيكِ فاحتملوا^(٧)

وقال^(٨): [من الطويل]

أبعدَ حُلُولِ بالرِّكَاءِ وَجَامِلٍ غداً سارحاً من حَوْلنا وتَنَشَّرا^(٩)

(١) الرجز بلا نسبة في اللسان والتاج وأساس البلاغة (حنك). والمخصص ٢٣/٣.

(٢) السلفع: الشجاع: هبل: مُسن ثقيل. الحنيك: الشيخ.

(٣) ديوان الأعشى ٣٦٥، واللسان والتاج (شهب)، والتهديب ٨٧/٦، وبلا نسبة في المخصص ٢٠٤/٦.

(٤) البيتان لعبد بن الطبيب في المفضليات ١٣٥، والأغاني ٢٥/٢١.

(٥) العزل: جمع أعزل، وهو من لا سلاح معه. «القاموس: عزل». ميل: جمع أميل، وهو من لا ترس معه؛ أو لا سيف؛ أو لارمع، والجبان؛ ومن يميل على السرج في جانب. «القاموس: مال».

(٦) ديوان عمرو بن أحرمر ١٣٤ - ١٣٥. والأول في اللسان والتاج (عنق)، والجمهرة ٦١٨ (٢/٢٤٠)، والثالث بلا نسبة في اللسان والتاج (ثجر). الخلقاء الصخرة الملساء. العنقاء: أكمة فوق جبل.

(٧) ثجر: ماء قرب نجران. معجم البلدان (ثجر).

(٨) ديوان عمرو بن أحرمر ٨٢ - ٨٣، والثالث في اللسان والتاج (نظر).

(٩) الركاء: موضع، وقيل: وادٍ في ديار بني عجلان. معجم البلدان «ركاء».

تبدلت إصطبلًا وتلاً وجرةً
وبستان ذي ثورين لا لين عنده

وقال أوس بن حجر: [من البسيط]

والتفّ ديكٌ برجلها وخنزيرٌ^(٣)
كان هراً جنيباً عند مغربها

وقال الحكم بن عبدل: [من الطويل]

مررت على بعل تزقك تسعة
تخيرت اثواباً لزينه منظرٍ

وقال النمر بن تولب: [من الوافر]

أعدني رب من حصر وعي
ومن حاجات نفسي فاعصمني
وانت وليها وبرئت منها
وانت وهبتها كوماً جلاداً
وتامرني ربيعة كل يوم
وما تغني الدجاج الضيف عني
أهلكها وقد لاقيت فيها
وتذهب باطلاً غدوات صهبي
جموم الشد شائلة الذنابي
وشدي في الكريهة كل يوم

وقال عبد الرحمن بن الحكم: [من الوافر]

وللأنصار أكل في قرأها
لخبث الأطعمات من الدجاج

(١) الفرفرة: الصياح.

(٢) غشمه: أخذه قهراً، وغشم الرجل: غضب.

(٣) ديوان أوس بن حجر ٤٢.

(٤) البيتان في رسائل الجاحظ ٢/٢٤٩، والاول في اللسان والتاج (زين)، وبلا نسبة في المجلد ٣٦/٣.

(٥) ديوان النمر بن تولب ٣٣٨-٣٤٠، والايات (١، ٢، ٣) في الأغاني ٢٢/٢٨٤، و(١، ٢) في عيون الاخبار ٢/١٦٩. والاول في البيان والتبيين ١/١٨، والفاضل ٦، ومحاضرات الراغب ٢٨/١.

(٦) الكوم: جمع كوما، وهي الناقة العالية السنام. «القاموس: كوم». الجلاد: الصلاب الكبار. «القاموس: جلد».

وقال الآخر لصاحبه: [من الرجز]

آذيتنا بديكك السِّلَاحُ
فَنَجِّنَا مِنْ مُنْتَنِ الْأَرْوَاحِ^(١)

وقالوا: «هو أسلح من حُبَارَى» ساعة الخوف، ومن «دَجَاجَةٌ»، ساعة الأمن.

وقال عقيل بن علفة: [من الطويل]

وَهَلْ أَشْهَدَنْ خَيْلاً كَانَ غُبَارَهَا
بِاسْفَلِّ عِلْكَدِ دَوَاخِنُ تَنْضُبِ^(٢)
تَبَيْتُ عَلَى رَمَضٍ كَانَ عِيُونَهُمْ
فِقَاحُ الدَّجَاجِ فِي الْوَدِيِّ الْمَعْصَبِ^(٣)

٤٧٨ - [كلب الرفقة]

وقال صاحب الديك: حدث الأصمعي قال: أخبرني العلاء بن أسلم قال:

أردت الخروج إلى مكة المعظمة، شرفها الله تعالى، فجاءني هشام بن عقبة - وهو أخو ذي الرمة - فقال لي: يا ابن أخي، إنك تريد سفراً يحضر الشيطان فيه حضوراً لا يحضره في غيره، فاتق الله وصلِّ الصلوات لوقتها فإنك مصليها لا محالة، فصلها وهي تنفعك، واعلم أن لكل رُفقة كلباً ينبح عليهم، فإن كان نهباً شركوه فيه، وإن كان عاراً تقلده دونهم فلا تكن كلب الرُفقة^(٤)!!

وقد رووا شبيهاً بذلك عن تبيع بن كعب .

٤٧٩ - [أم كلبة]

وقال زيد الخيل: [من الكامل]

يَا نَصَرَ نَصَرَ بَنِي قُعَيْنٍ إِنَّمَا
يَتَّبَعْنَ فَضْلَةَ أَيْرِ كَلْبٍ مُنْغِظِ
أَنْتُمْ إِمَاءٌ يَتَّبَعْنَ الْأَشْتَرَا^(٥)
عَضُّ الْكَلَابِ بِعَجْبِهِ فَاسْتَشْفَرَا^(٦)

قال^(٧): فلماً قدم زيد من عند النبي ﷺ قال: «أبرح فتى إن لم تدر كنه أم

كلبة»، يعني الحمى.

(١) الرجز لابي نواس، وتقدم في الفقرة (٤٥٣).

(٢) البيت الاول في اللسان والتاج (نضب).

دواخن: جمع دخان. تنضب: شجر حجازي شوكة كشوك العوسج. «القاموس: نضب».

(٣) الودي المعصب: صغار النخيل.

(٤) انظر مثل هذا الخبر في ثمار القلوب ٣١٥ (٥٨٧)، وعيون الاخبار ١/١٣٦، وأمالى القالي

٢٣٤/٢.

(٥) ديوان زيد الخيل ١٧٧، والبيت الثاني في المعاني الكبير ٢٣٢.

(٦) الاستشفار: إدخال الكلب ذنبه بين فخذيه حتى يلزقه ببطنه. «القاموس: ثفر».

(٧) انظر الخبر في الاغاني ١٧/٢٥٠.

٤٨٠ - [الكلب بين الهجاء والفخر]

وقال جرير في البعيث : [من الطويل]
إذا أنتَ لآقِيتَ البَعِيثَ وجدتهُ أشحَّ على الزَّادِ الخبيثِ من الكلبِ

وقال صاحب الكلب: وقد قال عمرو بن معد يكرب: [من الهزج]
وقد كنتُ إذا ما الحيُّ يوماً كَرِهُوا صلحي (١)
ألفُ الخَيْلِ بالخَيْلِ وأكفي النَّبَحِ بالنَّبَحِ

٤٨١ - [استعارات من اسم الكلب]

قال ومن الاستعارات من اسم الكلب قولُ الرَّجُلِ منهم، إن أوطنَ نفسهُ على شيء: قد ضربتُ جروتِي، وضربتُ عليه (٢). وقال أبو النَّجْمِ: [من الرجز]
حتَّى إذا ما ابيضُّ جرو التتفلُّ وُبدلتُ والدَّهْرُ ذو تَبَدُّلِ (٣)
وقال: [من الطويل]

* من الحنظلِ العاميُّ جرو مفلقُ (٤) *

وقال عتبة الأعرور: [من مجزوء الكامل]

ذهبَ الذين أحبُّهم وبقيت فيمن لا أحبه
إذ لا يزال كريمُ قومي فيهم كلبٌ يسبه

٤٨٢ - [احتقار العرب للصيد]

قال صاحب الديك:

فخرتم علينا بصيْد الكلب، وهجوتم الديك إذ كان مما لا يصيد ولا يُصَاد به، وقد وجدنا العرب يستذلُّون الصيْدَ ويحقِّرون الصيَّادَ، فمن ذلك قولُ عمرو بن معد يكرب: [من الكامل]

ابني زيادٍ أنتم في قومِكُم ذئبٌ ونحنُ فروعُ أصلِ طيِّبٍ (٥)

(١) ديوان عمرو ٧٨، والثاني في المعاني الكبير ٥٣٦.

(٢) الجروة: النفس، والمثل برواية (ضرب عليه جروته)، وهو في مجمع الأمثال ١/٤١٨، والمستقصى ٢/١٤٦، وجمهرة الأمثال ٦/٢، وفصل المقال ٣٣٢.

(٣) ديوان أبي النجم ١٨٠، والطرائف الأدبية ٥٨، والأول في التاج (تفل)، والثاني في الخزانة ٢/٣٩١، والخصائص ١/٣٣٦، وبلا نسبة في اللسان (بدل). الجرو: الشمر. تنفل: نبات أخضر.

(٤) عجز بيت للنمر بن تولب في ديوانه ٣٦١، وتقدم البيت بتمامه في الفقرة (٤٠٨).

(٥) ديوان عمرو ٦٥-٦٦.

نَصِلُ الْخَمِيسِ إِلَى الْخَمِيسِ وَأَنْتُمْ بِالْقَهْرِ بَيْنَ مَرْبِقٍ وَمَكْلَبٍ (١)
 لَا يَحْسَبَنَّ بَنُو طَلِيحَةَ حَرْبِنَا حَيْدٌ عَنِ الْمَعْرُوفِ سَعْيُ أَبِيهِمْ حَتَّى يَكْهَنَ بَعْدَ شَيْبٍ شَامِلٍ
 سَوَّقَ الْحَمِيرَ بِجَابَةِ فَالْكَوْكَبِ (٢)
 طَلَبُ الْوُعُولِ بِوَقْفَنَةِ وَبَاكْلَبِ (٣)
 تَرَحُّأَ لَهُ مِنْ كَاهِنٍ مَتَكْذِبٍ

٤٨٣ - [الاشتفاء بدماء الملوك]

وأما قولُ زهير: [من الطويل]

وإن يُقتلوا فَيُشْتَفَى بِدَمَائِهِمْ وَكَانُوا قَدِيمًا مِنْ مَنَائِهِمُ الْقَتْلُ (٤)
 فهذا البيت نفسه ليس يدلُّ على قولهم أن كلَّ من كان به جنونٌ أو كلبٌ ثمَّ حسًا من دم ملكٍ أو سيِّدٍ كريمٍ أفاقَ وبرئ.

٤٨٤ - [شدة فرار الكلب من الماء]

وقد ضربوا لصاحب الكلب أمثالا في شدة طلبه الماء، وفي شدة فراره منه إذا عاينه.

وقالوا وقتلتم: فالماء المطلوب إذا عاينه من غير أن يمسه، وهو الطالب له ولم يحرص عليه إلا من حاجة إليه. فكيف صار إذا رآه صاح؟!

قالوا: وقد يعتري الناظر إلى الماء، والذي يديم التحديق إليه وهو يمشي على قنطرة أو جرف أو جسر الدوَّار، فإنه ربما رمى بنفسه من تلقاء نفسه إلى الماء، وإن كان لا يحسن السباحة، وذلك إنما يكون على قدر ما يصادف ذلك من المَرَار. ومن الطباع.

فممن فعل ذلك بنفسه أبو الجهجهاه محمد بن مسعود، فكاد يموت حتى استخرج. ومنهم منصور بن إسماعيل التَّمَّار، وجماعة قد عُرِفَتْ حَالُهُمْ.

(١) الخميس: الجيش. المكلب: الصائد بالكلاب.

(٢) في ديوانه (لا تحسبن بني كحيله حربنا)، جابة وكوكب: موضعان من موارد بني الحارث بن كعب.

(٣) الوفضة: جمعة السهام من آدم.

(٤) ديوان زهير ٨٧، وفيه (يقول: هم أشرف، إذا قتلوا رضي بهم من قتلهم، بهم يدركُ ناره ويشتفي. ومن منايهم القتل، أي لا يموتون على فرشهم).

وهذا كما يعتري الذي يصيبه الأسن^(١) من البخار المختنق في البئر إذا صار فيها، فإنه ربما استقى واستخرج وقد تغير عقله . وأصحاب الركايا^(٢) يرون أن دواءه أن يلقوا عليه دثاراً ثقيلاً، وأن يزمل تزميلاً وإن كان في تموز وآب، ثم يحرس وإن كان قريباً من رأس البئر، فإنه إن لم يحل بينه وبينها طرح نفسه في تلك البئر، أتاها سعيًا في أول ما يفتح عينه ويرجع إليه اليسير من عقله، حتى يكفي نفسه فيها من ذات نفسه، في الموضع الذي قد لقي منه ما لقي، وقد كان عنده معلوماً أن القوم لو تركوه طرفة عين لهلك . هكذا كان عنده أيام صحة عقله، فلما فسد أراه الفساد أن الرأي في العود إلى ذلك الموضع .

وكما يعتري الممرور^(٣) حتى يرجم الناس، فإن المرّة تصور له أن الذي رجمه قد كان يريد رجمه، فيرى أن الصواب أن يبداه بالرجم وعلى مثل ذلك تربيّة المرّة أن طرحه نفسه في النار أجود وأحزم .

وليس في الأرض إنسان يذبح نفسه أو يختنق أو يتردى في بئر، أو يرمي نفسه من حلق، إلا من خوف المثلة أو التعذيب أو التعبير وتقريع الشامتين، أو لأن به وجعاً شديداً فيحرك عليه المرّة فيحمي لذلك بدنه ويسخن جوفه، فيطير من ذلك شيء إلى دماغه أو قلبه، فيوهمه ذلك أن الصواب في قتل نفسه، وأن ذلك هو الراحة . وأن الحزم مع الراحة .

ولا يختار الخنق الوادع الراح الرافه، السليم العقل والطباع . وللغيط ربما رمى بنفسه في هذه المهالك، وقذف بها في هذه المهاوي .

وقد يعتري الذي يصعد على مثل سنسيرة أو عقرقوف^(٤) أو خضراء زوج، فإنه يعتريه أن يرمي بنفسه من تلقاء نفسه، فيرون عند ذلك أن يصعد إليه بعض المعاولدين المجربين، ولا يصنع شيئاً حتى يشد عينيه، ويحتال لإنزاله، فهذا المعنى عام فيمن كانت طبيعته تثور عند مثل هذه العلة، وما أكثر من لا يعتريه ذلك .

وقد قال الناس في عذر هؤلاء ولأن فيهم ضروباً من الأقاويل .

(١) في القاموس «أسن»: (أسن: دخل البئر فاصابته ريح منتنة فضشي عليه).

(٢) الركايا: جمع ركية، وهي البئر. «القاموس: ركي».

(٣) الممرور: من غلبت عليه المرّة. «القاموس: مر».

(٤) عقرقوف: قرية بينها وبين بغداد أربعة فراسخ. معجم البلدان (عقرقوف).

وإنما تكلمنا على المغلوب. فأما من كانت هذه العوارضُ لا تُفسد عقله، ولا تنقضُ استطاعته، فليس بيننا اختلافٌ في أنه ملوم. على أن إلزامه اللائمة لا يكون إلا من بعدِ خصومةٍ طويلة، لا يصلحُ ذكرها في هذا الباب.

٤٨٦ - [ضعة الغراب وضعفه]

وقال صاحب الكلب^(١): الغراب من لئام الطير وليس من كرامها، ومن بغائها وليس من أحرارها، ومن ذوات البرائن الضعيفة والأظفار الكليلة، وليس من ذوات المخالب المعقّفة والأظفار الجارحة. ومن ذوات المناقير وليس من ذوات المناسر. وهو مع أنه قويُّ النظر. لا يتعاطى الصيد. وربما راعى العصفور، ولا يصيد الجراد إلا أن يلقاها في سد^(٢) من الجراد. وهو فسّلٌ إن أصاب جيفة نال منها وإلا مات هزلاً، ويتقمّم كما يتقمّم بهائم الطير وضعافها، وليس بيهيمة لمكان أكّله الجيف، وليس بسبع لعجزه عن الصيد.

٤٨٧ - [ألوان الغربان]

وهو مع ذلك يكون حالك السواد شديد الاحتراق، ويكون مثله من الناس الزنج فإنهم شرارُ الناس، وأردأ الخلق تركيباً ومزاجاً، كمن بردت بلاده فلم تطبخه الأرحام، أو سخنت فأحرقته الأرحام. وإنما صارت عقول أهل بابل وإقليمها فوق العقول، وجمالهم فوق الجمال لعلّة الاعتدال.

والغراب إما أن يكون شديد الاحتراق فلا يكون له معرفة ولا جمال، وإما أن يكون أبقع فيكون اختلاف تركيبه وتضاد أعضائه دليلاً على فساد أمره. والبقع الأم من السود وأضعف.

٤٨٨ - [أنواع الغربان]

ومن الغربان غراب الليل، وهو الذي ترك أخلاق الغربان وتشبهه بأخلاق اليوم^(٣).

ومنها غراب البين. وغراب البين^(٤) نوعان: أحدهما غراب صغارٌ معروفة

(١) نقل النويري الخبر في نهاية الأرب ١٠/٢١٠.

(٢) جراد سد: كثير سد الأفق. «القاموس: سد».

(٣) الخبر في ثمار القلوب (٦٧٢).

(٤) الخبر في ثمار القلوب (٦٧٠-٦٧١).

بالضعف واللؤم والآخر: [كُلُّ غُرَابٍ يُتَشَاءُ بِهِ . و] (١) إِنَّمَا لَزِمَهُ هَذَا الْاسْمَ لِأَنَّ الْغُرَابَ إِذَا بَانَ أَهْلُ الدَّارِ لِلنُّجْعَةِ، وَقَعَ فِي مَرَابِضِ بَيْوتِهِمْ يَلْتَمِسُ وَيَتَقَمَّمُ، فَيَتَشَاءُ مِنْهُ وَيَتَطَيَّرُونَ مِنْهُ، إِذْ كَانَ لَا يَعْتَرِي مَنَازِلَهُمْ إِلَّا إِذَا بَانُوا، فَسَمَّوْهُ غُرَابَ الْبَيْنِ . ثُمَّ كَرِهُوا إِطْلَاقَ ذَلِكَ الْاسْمِ لَهُ مَخَافَةَ الزُّجْرِ وَالطَّيْرَةِ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ نَافِذُ الْبَصْرِ صَافِي الْعَيْنِ - حَتَّى قَالُوا: «أَصْفَى مِنْ عَيْنِ الْغُرَابِ» (٢) . كما قالوا: «أَصْفَى مِنْ عَيْنِ الدِّيكِ» (٢) - فَسَمَّوْهُ الْأَعْوَرِ كِنَايَةً، كَمَا كُنُوا طَيْرَةً عَنِ الْأَعْمَى فَكَنُوهُ أَبَا بَصِيرٍ . وَبِهَا اكْتَنَى الْأَعْمَى بَعْدَ أَنْ عَمِيَ . وَلِذَلِكَ سَمَّوْهُ الْمَلْدُوغَ وَالْمَنْهُوشَ سَلِيمًا، وَقَالُوا لِلْمَهَالِكِ مِنَ الْفِيَاْفِي: الْمَفَاوِزُ . وَهَذَا كَثِيرٌ .

وَالغِدْقَانُ (٣) جِنْسٌ مِنَ الْغُرَيَانِ، وَهِيَ لُغَامٌ جَدًّا .

٤٨٩ - [التشاؤم بالغراب]

وَمِنْ أَجْلِ تَشَاؤُمِهِم بِالْغُرَابِ اشْتَقُّوا مِنْ اسْمِهِ الْغُرْبَةَ، وَالْإِغْتِرَابَ، وَالْغُرَيْبَ .
وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ بَارِحٌ وَلَا نَطِيحٌ (٤)، وَلَا قَعِيدٌ، وَلَا أَعْضَبٌ (٥) وَلَا شَيْءٌ مِمَّا يَتَشَاءُ مِنْهُ إِلَّا وَالْغُرَابُ عِنْدَهُمْ أَنْكَدُ مِنْهُ، يَرُونَ أَنَّهُ صِيَّاحُهُ أَكْثَرُ أَخْبَارًا، وَأَنَّ الزُّجْرَ فِيهِ أَعْمٌ . وَقَالَ عَنْتَرَةُ: [مِنَ الْكَامِلِ]

حَرِقَ الْجَنَاحَ كَأَنَّ لَحْيِي رَأْسَهُ جَلَمَانَ، بِالْأَخْبَارِ هَشٌّ مُوَلِّعٌ (٦)

٤٩٠ - [التعابير بأكل لحم الغراب]

هُوَ عِنْدَهُمْ عَارٌ، وَهُمْ يَتَعَايِرُونَ بِأَكْلِ لَحْمِهِ . وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مِنْهُمْ لِأَنَّهُ يَأْكُلُ

(١) الزيادة من ثمار القلوب (٦٧٠) .

(٢) مجمع الأمثال ٤١٧/١، والمستقصى ٢١٠/١، وجمهرة الأمثال ٥٦٧/١، والدرة الفاخرة ٢٦٣/١ .

(٣) غدقان: جمع غُدَاف، وهو الغراب الضخم، أو غراب صغير أسود؛ لونه كلون الرماد. حياة الحيوان ١٠١/٢ .

(٤) البارح: ما مر من الطير من ميامنك إلى مياسرك. «القاموس: برح»، النطيح: ما يأتي إليك من أمامك من الطير. «القاموس: نطح» .

(٥) القعيد: ما أتى إليك من ورائك من طير، أو طائر. «القاموس: قعد». الأعضب: المكسور القرن. «القاموس: عضب» .

(٦) ديوان عنتره ٤٨ (دار صادر) واللسان (حرق، بين)، والتاج (بين)، وأساس البلاغة (حرق)، وبلا نسبة في الجمهرة ٥١٩، والمخصص ٧٣/١ .

اللحوم، ولأنه سبع، لكانت الضَّوَارِي والجوارحُ أحقَّ بذلك عندهم. وقد قال وَعَلَّة الجَرْمِي: [من الوافر]

فما بالعار ما عَيْرْتُمونا شِوَاءَ النَاهِضَاتِ مَعَ الخَبِيصِ^(١)
فما لَحْمُ الغُرَابِ لَنَا بِزَادٍ وَلَا سَرَطَانُ أَنَهَارِ البَرِيصِ^(٢)

٤٩١ - [فسق الغراب وتأويل رؤياه]

قال: والغربانُ جنسٌ من الأجناس التي أمر بقتلها في الحِلِّ والحرم^(٣)، وسميت بالفسق وهي فواسق، اشتق لها من اسم إبليس.

وقالوا: رأى فلان فيما يرى النَّائم أنه يُسْقَطُ أعظمَ صومعة بالمدينة غرابٌ. فقال سعيدُ بن المسيَّب: يتزوج أفسقُ الفاسقين امرأةً من أهل المدينة. فلم يلبثوا إلا أياماً حتى كان ذلك.

٤٩٢ - [غراب نوح]

وقالوا في المثل^(٤): «لا يرجعُ فلانٌ حتَّى يرجعَ غرابُ نوحٍ»^(٥)، وأهل البصرة يقولون: «حتَّى يرجعَ نَشِيطٌ من مَرَوْ»^(٦)، وأهل الكوفة يقولون: «حتَّى يرجعَ مَصْقَلَةٌ من سِجِسْتانٍ»^(٧). [وكما تقول العرب: حتى يؤوب القارظ العنزى]^(٨) فهو مثلٌ في كل موضع من المكروه.

(١) البيتان في نهاية الأرب ١٠/٢١١، والثاني في اللسان والتاج (برص)، وعجزه في معجم البلدان (بريص). الناهض: فرخ الطائر الذي وفر جناحه وتهياً للطيران. «القاموس: نَهَضَ». الخبيص: ضرب من الحلوى؛ يصنع من التمر والسمن. انظر الوصلة إلى الحبيب ٨٠٣.

(٢) البريص: نهر دمشق. معجم البلدان (بريص).

(٣) أخرج البخاري في الإحصار وجزاء الصيد، باب ١٩، حديث ١٧٣٢، ومسلم في الحج، باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب برقم ١١٩٨ (عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: خمس من الدواب، كلهن فاسق، يقتلن في الحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفارة، والكلب العقور).

(٤) وردت هذه الفقرة في ثمار القلوب ٣٠ (١٠٠)

(٥) في مجمع الأمثال ١/١١٩ (أبطاً من غراب نوح عليه السلام).

(٦) مجمع الأمثال ١/٢١٦، وجمهرة الأمثال ١/٣٦١. كان نشيط غلاماً لزياد بن أبيه؛ وكان بناءً،

مرو. مرو: أشهر مدن خراسان وقصبتها. معجم البلدان (٥/٢١١).

(٧) في جمهرة الأمثال ١/٣٦٢، والمعارف ٤٠٣، ومعجم البلدان ٤/١٥ (حتى يرجع مصقلة من طبرستان)، ومصقلة: هو ابن هبيرة من بني شيبان، كان مع علي بن أبي طالب، ثم هرب إلى معاوية، الذي ولاه طبرستان.

(٨) الزيادة من ثمار القلوب (١٠٠)، والمثل في المستقصى ١/١٢٧، ومجمع الأمثال ١/٢١١.

٤٩٣ - [نتن فرخ الغراب والهدهد]

وزعم الأصمعي عن خلف الأحمر، أنه قال: رأيت فرخ غراب فلم أر صورة أقبح ولا أسمع ولا أبغض ولا أقدر ولا أنتن منه. وزعم أن فراخ الغراب أنتن من الهدهد - على أن الهدهد مثل في النتن - فذكر عظم رأس وصغر بدن، وطول منقار وقصر جناح، وأنه أمرط أسود، وساقط النفس، ومُنتن الريح.

وصاحب المنطق يزعم أن رؤية فرخ العقاب أمرٌ صعب، وشيءٌ عسير. ولست أحسن أن أقضى بينهما.

والغراب عندنا بالبصرة أوابدٌ غير قواطع، وهي تفرخ عندنا في رؤوس النخل الشامخة، والأشجار العالية.

٤٩٤ - [خداع الغراب للديك]

فالغرابُ عند العرب مع هذا كله، قد خدع الديك وتلعب به^(١)، ورهته عند الخمار، وتخلص من الغرم، وأغلقه عند الخمار، فصار له الغنم وعلى الديك الغرم، ثم تركه تركاً ضرب به المثل.

فإن كان معنى الخبير على ظاهر لفظه. فالديك هو المغبون والمخدوع والمسخور به، ثم كان المتلعب به أنذل الطير والأمة.

وإن كان هذا القول مهم يجري مجرى الأمثال المضروبة، فلولا أن علياً الديك في قلوبهم دون محل الغراب - على لؤم الغراب ونذالته وموقه وقلة معرفته - كما وضعوه في هذا الموضع.

٤٩٥ - [دهاء أمية بن أبي الصلت]

فإن أردتم معرفة ذلك فانظروا في أشعارهم المعروفة، وأخباره الصحيحة ثم ابدؤوا بقول أمية بن أبي الصلت، فقد كان داهيةً من دواهي ثقيف، وثقيفٌ من دهاة العرب، وقد بلغ من اقتداره في نفسه أنه قد كان هم بادعاء النبوة، وهو يعلم كيف الخصال التي يكون الرجل بها نبياً أو متنبياً إذا اجتمعت له، نعم وحتى ترشح^(٢) لذلك بطلب الروايات، ودرس الكتب، وقد بان عند العرب علامة، ومعروفاً بالجولان في البلاد، راوية.

(١) انظر الفقرة (٤٩٦).

(٢) ترشح الفصيل: قوي على المشي. «القاموس: رشح».

٤٩٦ - [خداع الغراب للديك]

وفي كثيرٍ من الروايات من أحاديث العرب، أَنَّ الديك كان نديماً للغراب، وأنهما شربا الخمر عند خمَّارٍ ولم يعطياه شيئاً، وذهب الغرابُ لِيأتيه بالثمن حين شرب، ورهنَ الديك، فخاس به، فبقي محبوساً.

٤٩٧ - [الغراب والحمامة في سفينة نوح]

وَأَنَّ نوحاً صَلَّى اللهُ عليه وسلم حينَ بقي في اللُّجَّةِ أياماً بعث الغرابَ، فوقع على جيفةٍ ولم يرجع، ثم بعث الحمامة لتنظر هل ترى في الأرض موضعاً يكون للسفينة مرفأً، واستجعلت^(١) على نوح الطُّوق الذي في عنقها، فرشاهَا بذلك - أي فجعلَ ذلك جعلاً لها.

وفي جميع ذلك يقول أمية بن أبي الصلت: [من الوافر]
 بآية قامَ ينطِقُ كلُّ شيءٍ وخانَ أمانةَ الديكِ الغرابُ^(٢)
 يقول: حين تركه في أيديهم وذهب وتركه.
 والعامّة تضرب به المثل وتقول: « ما هو إلا غرابُ نوح »^(٣).

ثم قال: [من الوافر]

وأرسلت الحمامة بعد سبَع	تدلُّ على المهالك لا تهابُ
تلمسُ هل ترى في الأرض عيناً	وغايتها من الماء العبابُ ^(٤)
فجاءت بعد ما ركضت بقطفٍ	عليه الثَّاطُ والطين الكُبابُ ^(٥)
فلما فرسوا الآيات صاعوا	لها طوقاً كما عقد السُّخابُ ^(٦)
إذا ماتت تورثه بنيتها	وإن تقتل فليس لها استلاب ^(٧)

(١) استجعلت: طلبت الجمالة، وهي الرشوة. «القاموس: جعل».

(٢) ديوان أمية ٣٣٨-٣٤٠، ومنه أخذت شرح مفردات الأبيات التالية.

(٣) في مجمع الأمثال ٦٧/٢ (غراب نوح).

(٤) العين: الناحية، أراد ناحية لا ماء فيها. العباب من كل شيء أوله، وعباب الماء: أوله ومعظمه.

(٥) ركض الطائر: أسرع في طيرانه. والقطف: ما قطف من ثمار وسواها. الثَّاط: الطين الأسود المنتن. الكباب: الطين اللازب.

(٦) الآيات: العلامات. السُّخاب: القلادة.

(٧) الاستلاب: الاختلاس.

كذي الأفعى تَرَبَّهَا لديه وذو الجنى أرسله تساباً^(١)
فلا ربُّ المنية يأمَنُها ولا الجنى أصبح يُستتابُ

الجنى: إبليس؛ لذنوبه. والأفعى هي الحية التي كلم إبليس آدم من جوفها. ومن لا علم عنده يروي أيضاً أن إبليس قد دخل جوف الحمار مرة، وذلك أن نوحاً لمّا دخل السفينة تمنع الحمار بعسره ونكده، وكان إبليس قد أخذ بذنبه. وقال آخرون: بل كان في جوفه فلماً قال نوح للحمار: ادخل يا ملعون! ودخل الحمار، دخل إبليس معه، إذ كان في جوفه. قال: فلماً رآه نوح في السفينة قال: يا ملعون من أدخلك السفينة؟ قال: أنت أمرتني. قال: ومتى أمرتك؟ قال: حين قلت، ادخل ياملعون، ولم يكن ثم ملعون غيري.

٤٩٨ - [شعر أمية في الديك والغراب والحمامة]

قال أمية بن أبي الصلت: [من الخفيف]

هو أبدى من كل ما يَأْثُرُ النَّا س أمائيلَ باقيات سُفُورا^(٢)
خَلَقَ النَّخْلَ مُصْعَدَاتٍ تَراها تقصف اليابسات والخضُورا^(٣)
والتَّماسيحَ والثَّياتِلَ والإي يَل شتى والرَّيمَ واليَعْفُورا^(٤)
وَصُوراً من النَّواشِطِ عينا وَنَعاماً خَواضِباً وَحَميرا^(٥)
وَأَسوداً عَوادياً وفِيولاً وذياباً والوَحْشَ والخَنزيرا
وَدُيوكاً تدعو الغرابَ لِصُلحِ وإوزينَ أخرجتْ وصقُورا^(٦)

قال: ثم ذكر الحمامة فقال^(٧): [من الخفيف]

سمع الله لابنِ آدمِ نوحَ ربُّنا ذو الجلال والإفضالِ

- (١) تربيها: ربّاه..
- (٢) ديوان أمية ٤٠٠ - ٤٠٢. ومنه أخذت شرح مفردات الأبيات التالية. سفورا: ظاهرة؛ من أسفرت المرأة وجهها: إذا كشفت عنه النقاب.
- (٣) مصعدات: مرتفعات. تقصف: تلقي. الخضور: الأخضر.
- (٤) الثياتل: مفردها ثيتل؛ وهو الذكر المسن من العول. الإيل: مفردها أيل، وهو ذكر الأوعال، الريم: الطيبي الخالص البياض. اليعفور: الطيبي الذي لونه كلون العفر، وهو التراب.
- (٥) الصوار: القطيع من البقر الوحشي. النواشط: التي تخرج من أرض إلى أرض للمرعى. العين: مفردها عيناء؛ وهي الواسعة العين. الخواضب: مفردها خاضب؛ وهي من النعام ما كان أحمر الساقين.
- (٦) الإوزون: جمع إوزة.
- (٧) ديوان أمية ٤٣٩.

حِينَ أَوْفَى بِذِي الْحَمَامَةِ وَالنَّاسِ جَمِيعاً فِي قَلْبِهِ كَالْعِيَالِ
فَأَتَتْهُ بِالصَّدْقِ لَمَّا رَشَاهَا وَبِقِطْفٍ لَمَّا غَدَا عِشْكَالاً^(١)
ووصف في هذه القصيدة أمر الحمامة والغراب صفة ثانية، وغير ذلك،

وبدأ بذكر السفينة فقال^(٢): [من الطويل]

تَرْفَعُ فِي جَرِيٍّ كَأَنَّ أَطِيطَهُ
عَلَى ظَهْرِ جَوْنٍ لَمْ يُعَدِّ لِرَاكِبٍ
فصارتُ بها أَيَّامَهَا ثُمَّ سَبْعَةٌ
تَشُقُّ بِهِمْ تَهْوِي بِأَحْسَنِ إِمْرَةٍ
وكان لها الجوديُّ نِهياً وَغَايَةً
[ثم قال]:

وما كان أصحابُ الحمامة خيفة
رسولاً لهم والله يُحْكِمُ أمرَهُ
فجاءتُ بقطف آيةً مُسْتَبِينَةً
على خَطْمِهَا واستَوْهَبَتْ ثُمَّ طَوْقَهَا
ولا ذهباً، إِنِّي أَخَافُ نِبَالَهُمْ
وزدني على طوقِي من الحَلِيِّ زينةً
وزدني لَطْرَفِ الْعَيْنِ مِنْكَ بِنِعْمَةٍ
يكون لأولادي جمالاً وزينةً

غَدَاةٌ غَدَتْ مِنْهُمْ تَضُمُّ الْخَوَافِيَا
يُبَيِّنُ لَهُمْ هَلْ يُؤْتَسُّ التَّرْبُ بِأَدْيَا
فأصبحَ منها موضعُ الطَّيْنِ جَادِيَا^(٨)
وقالتُ ألا لا تجعلِ الطُّوقَ حَالِيَا^(٩)
يخالونه مالي وليسَ بِمَالِيَا
تُصِيبُ إِذَا أَتَبَعْتُ طَوْقِي خِضَابِيَا
وأرثُ إِذَا مَا مَتُّ طَوْقِي حَمَامِيَا
وبهوين زيني زينة أن يرانيَا^(١٠)

(١) العشكال: العذق بشماريخه، وهو من النخل بمنزلة العنقود من الكرم.

(٢) ديوان أمية ٥٣٠ - ٥٣٧.

(٣) الأطيعط: الصوت. صريف البكرة: صوتها. محال: مفردها محالة، وهي البكرة العظيمة التي يستقى عليها، الدواليبا: الدلاء العظيمة.

(٤) جون: أسود. أراد به البحر.

(٥) الغواطيا: مفردها غاطية؛ وهي المظلمة التي تغطي ما على الأرض.

(٦) النواتي: الملاحون.

(٧) الجودي: الجبل الذي استقرت عليه سفينة نوح عليه السلام.

(٨) القطف: كل ما يقطف، وأراد به قضيب الزيتون الذي حملته الحمامة إلى نوح دلالة على اليابسة. الجادي: الزعفران.

(٩) في ديوانه (باليا) مكان (حاليا).

(١٠) في ديوانه (ترابيا) مكان (يرانيا).

ثم عادَ أيضاً في ذكر الديك فقال:

ولا غرُّو إلاَّ الديكُ مدمنُ خمرةٍ
ومرهنهُ عن الغرابِ حبيبهُ
أدلُّ عليه الديكُ: إنِّي كما ترى
أمنتك لا تلبثُ من الدهرِ ساعةً
ولا تدركنك الشمسُ عندَ طلوعها
فردَّ الغرابُ والرداءُ يحوزه
بأيةِ ذنبٍ أو بأيةِ حُجَّةٍ
فإنِّي نذرتُ حجةً لن أعوقها
تطيرتُ منها والدُّعاءُ يعوقني
فلا تياسنْ إنِّي مع الصُّبحِ باكرٌ
لحبِّ امرئٍ فأكهتهُ قبلَ حجَّتي
هنالك ظنُّ الديكِ إذ زال زولهُ
فلما أضاءَ الصُّبحُ طربَّ صرخةً
على ودِّه لو كان ثمَّ مجيبه
وأمسى الغرابُ يضربُ الأرضَ كلَّها
فذلك ممَّا أسهبَ الخمرُ لبهُ

٤٩٩ - [ما يلقم فراخه وما يزقها]

قال: ومن الطير ما يلقم فراخه مثل العصفور، لأن العصفور لا يزق. وكذلك أشباه العصفور.

ومن الطير ما يزق فراخه، مثل الحمام وما أشبه ذلك كبهائم الطير الخالصة. لأنَّ الدجاجة تأكل اللحم، وتلغ في الدم، وولدها حين يخرج من البيض يخرج كاسباً

(١) الحواني: الحانات، مفردها الحانية، وهي مثل الحانوت.

(٢) في ديوانه (وخان مسابيا)، وقال محقق الديوان عن رواية الحيوان: إنها غامضة.

(٣) فأكهته: مازحته.

(٤) الزول: الحركة، وزال زوله: أصبح ساكناً هادئاً من الحزن والهم. ظن، هنا: بمعنى علم واستيقن.

(٥) العتيق: الطليق. القد: الغل. العاني: الأسير.

(٦) أسهب لبه: ذهب بعقله. الندمان: النديم. العادي: المعتدي.

مليحاً، كيساً بصيراً بما يُعيشه ويقوته، ولا يحتاج إلى تلقيم سباع الطيرِ والعصافيرِ لاولادها، لأنَّ اولادها إذ لم ترضع ولم تلقط الحبَّ كالفراريحِ أولَّ ما تخرج من البيض ولم تزقَّها الآباءُ ولا الأمهاتُ كأجناس الحمام - فلا بدَّ لها من تلقيم.

٥٠٠ - [طبائع مشتركة في الطير]

والفرُوج مشترك الطبيعة. قد أخذ من طبائع الجوارح نصيباً، وهو أكله للحم، وحسوه للدم، وأكله للديدان وما هو أقدر من الذباب، والعصفور أيضاً مشارك الطباع، لأنَّه يجمع بين أكل الحبوب واللُّحمان، وبين لُقْط الحبوب وصيد أجناس كثيرة من الحيوان، كالنمل إذا طار. وكالجراد، وغير ذلك. وليس في الأرض رأسٌ أشبه برأس الحية من العصفور^(١).

٥٠١ - [هداية العصفور]

والعصفور يتعالى ويطير، ويهتدي ويستجيب. ولقد بلغني أنَّه قد رجع من قريب من فرسخ. وهي تكون عندنا بالبصرة في الدور، فإذا أمكنت الثمار^(٢) لم تجد منها إلاَّ اليسير، فتصير من القواطع إلى قاصي النخل، وذلك أنَّها إذا مرَّت بعصافير القرى وقد سبقت إلى ما هو إليها أقرب، جاوزتها إلى ما هو أبعد، ثمَّ تقرب الأيام الكثيرة إلى ما هو أبعد، ثمَّ تقرب الأيام الكثيرة المقدار، في المسافة إلى أكثر مما ذكرت من الفرسخ أضعافاً.

٥٠٢ - [أشد تعطفاً من عصفور]

والعصافير لا تقيم في دور الامصار إذا شخص أهلها عنها، إلا ما كان منها مقيماً على بيض أو فراخ، فإنَّه ليس في الأرض طائرٌ أحنى على ولده ولا أشدَّ تعطفاً من عصفور. والذي يدل على أنَّ في طبعها من ذلك ما ليس في طبع سواها من الطير الذي تجد من إسعاد بعضهم لبعض، إذا دخلت الحية إلى جحر بعضهم لتاكل فرخاً، أو تبتلع بيضاً، فإنَّ لأبوي الفرخ عند ذلك صياحاً وقلقاً وطيراناً، وتدفيماً وترنيقاً^(٣) فوق الجحر ودونه وحواليه، فلا يبقى عصفورٌ من حيث يسمع صياحهما أو يسمع أصواتهما إلاَّ جفن أرسلأ مسعداتٍ، يصنعن معهما كما يصنعان.

(١) ربيع الأبرار ٥/٥٥٤.

(٢) أمكنت الثمار: نضجت وأمكن أكلها.

(٣) دَفُّ الطائر: حرك جناحيه. رنق الطائر: خفق بجناحيه ورفرف ولم يطر. «القاموس: دف، رنق».

٥٠٣ - [شدة حذر العصفور]

وليس في الأرض أصدقُ حَذراً منه، ويقال إنه في ذلك لأكثر من العَقَق (١) والغراب .

وخبرني من يصيد العصافير قال: ربما كان العصفور ساقطاً على حائط سطح بحذائي، فيغمني صباحه وحادّة صوته، فاصبح وأومئ إليه بيدي، وأشير كأنّي أرميه، فما يطير. حتّى ربّما أهويت إلى الأرض كأنّي أتناول شيئاً، كلّ ذلك لا يتحرّك له. فإنّ مسّت يدي أديبي حصاة أو نواة وأنا أريدُ رميها، طار قبل أن تستمكن منها يدي (٢).

٥٠٤ - [سفاد العصفور] (٣)

وليس في الطير أكثرُ عدَدَ سفاد من العصافير (٤)، ولذلك يقال إنّها أقصر الطير أعماراً. ويقال إنه ليس شيءٌ ممّا يألّفُ النَّاسَ ويعايشهم في دُورهم أقصرَ عمراً منها، يعنون: من الخيل والبغال والحمير، والبقر والغنم، والكلاب والسنانير، والخطاطيف والزراير، والحمام والدجاج.

٥٠٥ - [نقران العصفور]

ولا يقدر العصفور على المشي، وليس عنده إلا النقران (٥)، ولذلك يسمّى النقران، وإنّما يجمع رجليه ثم يثب، وذلك في جميع حركاته، وفي جميع ذهابه ومجيئه. فهي الصغو، والعصافير، والنقايز. وإن هو مشى هذه المشية - التي هي نقران - على سطح وإن ارتفع سمكه، فكأنك تسمع لوطئه وقع حجرٍ لشدة وطئه، ولصلابة مشيه، وهو ضدّ الفيل؛ لأنّ إنساناً لو كان جالساً ومن خلف ظهره فيلٌ لما شعر به، لخفة وقع قوائمه، مع سرعة مشي وتمكين في الخطأ.

٥٠٦ - [سبعية الرّخم والنسر]

والرّخم والنسر سباع، وإنّما قصر بها عدم السلاح. فأما البدن والقوة ففوق جميع الجوارح. ولكنّها في معنى الدجاج، لمكان البرائين ولعدم المخالب.

-
- (١) العقق: طائر على قدر الحمامة، وهو على شكل الغراب، وجناحه أكبر من جناحي الحمامة، إذا باضت الأنثى أخفت بيضها بورق الدلب خوفاً من الخفاش. حياة الحيوان ٦٧/٢. ويقال في الامثال: (أحذر من عقق)، والمثل في المستقصى ٦٢/١، وجمهرة الامثال ٣٩٦/١.
- (٢) من الامثال (أحذر من غراب)، وهو في المستقصى ٦٢/١، وجمهرة الامثال ٣٩٦/١.
- (٣) الفقرة في ثمار القلوب (٧١٤).
- (٤) يقال: (أسفد من عصفور)، وهو مثل في مجمع الامثال ٣٥٦/١، والمستقصى ١٦٩/١.
- (٥) النقران: الوثب. القاموس: نقر.

٥٠٧ - [حب العصفور لفرخه]

ولقد رأيتُ سنوراً وثب على فرخ عصفورٍ فأخطاه فتناولَ الفرخ بعضُ الغلمان فوضعه في البيت، فكان أبوه يجيء حتى يطعمه، فلماً قوي وكاد يطير جعله في قفص، فرأيتُ أباه يجيء يتخرقُ السنانير وهي تهْمُّ به، حتى يدخل إليه من أعلى فتح الباب، وهي تهْمُّ بالوثوب والاختطاف له، حتى يسقط على القفص فينازعه ساعة، فإذا لم يجد إلى الوصول سبيلاً طار فسقط خارجاً من البيت، ثم لا يصبر حتى يعود. فكان ذلك دأبه. فلماً قوي فرخه أرسلوه معه فطارا جميعاً.

وعرفنا أنه الأب دون الأم لسوادِ اللحية.

٥٠٨ - [قبح صوت الديك]

قال: والدليل على أن صوت الديك كرية في السَّماع، غير مطربٍ، قولُ الشاعر^(١): [من الكامل]

ذَكَرَ الصُّبُوحَ بِسُحْرَةٍ فَارْتَاخَا وَأَمَلَهُ دِيكَ الصَّبَاحِ صِيَاخَا
أَوْفَى عَلَى شَعْفِ الْجِدَارِ بِسُدْفَةٍ غَرْدًا يَصْفَقُ بِالْجَنَاحِ جَنَاحَا^(٢)

٥٠٩ - [صغر قدر الدجاج]

قال: ويدل على صغر قدر الدجاج عندهم قولُ بشارِ بن بُردِ الأعمى^(٣): [من

الوافر]

بجدك يا ابن أقرع نلتَ مالاً إلا إنَّ اللئامَ لهم جُدودُ
فمن نذر الزيادة في الهدايا أقمتَ دجاجة فيمن يزيدُ

٥١٠ - [إذا كثر الدجاج قل عدد البيض]^(٤)

قال: وإذا كثر الدجاج في دارٍ أو إصطبلٍ أو قريةٍ، لم يكن عددُ بيضها وفراريجها على حسب ما كان يبيض القليل منهم ويفرخه. يعرف ذلك تجار الدجاج ومن اتخذها للغلة.

وهي بمصر ترعى كما يرعى الغنم، ولها راع وقيم.

(١) البيتان لأبي نواس من خمرياته في ديوانه ١.

(٢) شعف الجدار: أعلاه. السدفة: اختلاط الضوء والظلمة.

(٣) ديوان بشار بن برد ١٨/٣.

(٤) انظر الفقرة (٥١٢).

٥١١ - [فراخ الدجاج وفراخ الحمام]

والموتُ إلى الدَّجَاجِ سَريعٌ جدًّا، العادةُ في صِغارِ فراريجها خلافُ ما عليها نَتوُّ فراخِ الحمامِ، لأنَّ الفَرُوجَ تتصدَّعُ عنه البَيضةُ فهو كَيْسٌ ظَريفٌ، مَليحٌ مقبولٌ، مُحَبٌّ، غَنيٌ بِنفسه، مَكتفٍ بِمَعرفته، بِصيرٍ بِمَوضعِ مَعيشته من لَقَطِ الحَبِّ، ومن صَيَدِ الذُّبَابِ وصِغارِ الطَيرِ من الهَوامِ. ويَخرجُ كَاسياً حَتى كَأَنَّهُ من أولادِ ذَواتِ الأَربَعِ. ويَخرجُ سَريعَ الحَركةِ شَديدَ الصَوتِ حَديدِه، يُدعى بِالنَّقَرِ فَيُجيبُ، ولا يُقالُ لَه: قَرٌّ، قَرٌّ، ثلاثَ مَرَّاتٍ - حَتى يَلقَنَه. فَإِنِ اسْتَدبرَه مَستَدْبِرٌ ودَعاه عَطَفَ عَلَيه، وَتَتَبَعُ الَّذي يَطعمُه وَيَلعبُه، وَإِنِ تَباعدَ من مَكانه الأَوَّلِ. فهو آلفُ شَيءٍ. ثُمَّ كَلما مَرَّتْ عَلَيه الأَيامُ ماقَ وَحَمَقَ، وَنَقَصَ كَيسُه، وَأقبلَ قَبحُه وَأدبرَ مَلحُه. فلا يَزالُ كَذلكَ حَتى يَنسَلخَ من جَميعِ ما كانَ يُحِبُّ لَه إِلى ضِدِّ ذلكَ، وَيَصيرُ من حَالةِ إِلى حَالٍ لَم يَبلِغِ الِانْتِفاعَ بِذَبَحِه وَبَيضِه وَفَراريجِه. وَذهبَ عَنهمُ الِاسْتِمتاعُ بِكَيسِه. وَلا يَكادُ يَقْبَلُ الشَّحْمَ. حَتى يَلحِقَ بِأَبِيه، وَكَذلكَ إِذِ كانَتِ أَنتى، لا تَقْبَلُ السَّمَنَ، وَلا تَحْمَلُ اللَّحْمَ حَتى تَكادَ تَلحِقُ بِأُمِّها فِي الجِثَّةِ.

والفرخ يخرج حارضاً^(١) ساقطاً، أنقصَ من أن يقالَ له مائق، وأقبحَ شيء، وهو في ذلك عاري الجلد مختلف الأوصال متفاوت الأعضاء، ضعيفُ الحوصلة، عظيم المنقار، فكلماً مرَّت به الأيامُ زادت في لحمه وشحمه، وفي معرفته وبصره، حتى إذا بلغَ خَرجَ منه مِنَ الأُمورِ المَحمودَةِ ما عَسى لو أَنَّ وَاصفاً تَتَبَعُ ذلكَ كَمَلاً مِنْهُ الأَجْلاَدُ الكَثيرَةُ. ثُمَّ إِذا جازَ حَدَّ الفِراخِ إِلى حَدِّ النَواهِضِ^(٢)، إِلى حَدِّ العَتَقِ وَالمِخالِبِ^(٣)، قَلَّ لَحْمُه وَذهبَ شَحْمُه عَلى حِسابِ ذلكَ يَنقُصُ. فَإِذا تَمَّ وانتهى لَم تَكُنْ فِي الأَرْضِ دابَّةٌ وَلا طائرٌ أَقلُّ شَحْماً وَلا أَخبَثُ لَحْماً مِنْهُ، وَلا أَجدرُ الأُ يَقْبَلُ شَيْئاً مِنَ السَّمَنِ وَلو تَخَيَّرُوا لَه فَوَّارَةً^(٤) المَسْمِناتِ وَما يَسْمَنُ بِهِ - ما سَمِنَ.

٥١٢ - [علة قلة البيض إذا كثر الدجاج]

وسألت عن السَّببِ الَّذي صارَ لَه الدَّجَاجُ إِذا كَثُرْنَ قَلَّ بَيضُهُنَّ وَفَراخُهُنَّ، فزَعَمُوا أَنَّهُا فِي طَبْعِ النُّخْلِ، فَإِنِ النُّخْلَةُ إِذا زَحَمَتْ أَختها، بَل إِذا مَسَّ طَرَفُ سَعْفِها

(١) الحارض: المريض والمشرف على الهلاك، ومن لا يرجى خيره. «القاموس: حرص».

(٢) الناهض: الفرخ الذي وفر جناحاه ونهض للطيران. «القاموس: نهض».

(٣) العاتق: فرخ الطائر إذا طار. «القاموس: عتق».

(٤) الفؤارة: حلبة وتمر يطبخ للنفساء. «القاموس: فار».

طرف سَعَف الأخرى وجاورتها، وضِيقت عليها في الهواء، وكذلك أطراف العُروق في الأرض - كان ذلك كريباً عليها وغماً.

قالوا: فَتَدَانِيهَا وتضَاعَطُهَا، وأنفاسها وأنفاسُ أبدانها، يُحَدِّثُ لها فساداً.

قال: وكما أن الحمامَ إذا كَثُرَتْ في الكُنَّةِ^(١) والشريحة احتاجت إلى شمس وإلى ماء تغتسل فيه في بعض الأحيان، وإلى أن تكون بيوتها مكنوسة في بعض الأوقات ومرشوشة، والألم لم يكن لها كبيرُ بيض. على أنه إذا كان لها في الصميمين الدَّفءُ في الشتاء والكن في الصيف، لم تُغادرِ الدهر كله أن تبيض.

٥١٣ - [فخر صاحب الديك بكثرة ما اشتق من البيض]

قال صاحب الديك: فخرتم للكلب بكثرة ما اشتق للأشياء من اسم الكلب، وقد اشتق لأكثر من ذلك العدد من البيض، فقالوا لقلانس الحديد: بَيْضٌ، وقالوا: فلان يَدْفَعُ عن بَيْضَةِ الإسلام، وقالوا^(٢): قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنا بَيْضَةُ البَلَدِ. وفي موضع الذم من قولهم^(٣): [من البسيط]

تأبى قضاة أن تدري لكم نَسَباً وابنا نزارٍ وأنتم بَيْضَةُ البَلَدِ

ويسمى رأس الصَّوْمَعَةِ والقَبَةِ بَيْضَةً. ويقال للمجلس إذا كان معموراً غير مطول بَيْضٌ جائمة، ويقال للوعاء الذي يكون فيه الحَبْنُ والخِراج - وهو الذي يجتمع فيه القَيْحُ - بَيْضَةً. وقال الأشر بن عبادة: [من الوافر]

يكفُ غُرُوبُهَا وَيَغْضُ منها
مُظَاهِرُ بَيْضَتَيْنِ على دِلاصٍ
وراء القوم خشية أن يلاموا
به من وقعة أخرى كلام

وقال النابغة: [من الوافر]

فَصَبَّحَهُمْ مَلْمَمَةً رَدَاحاً
كَأَنَّ رُؤُوسَهُمْ بَيْضُ النَعَامِ^(٤)

وقال العُجَيْرُ السَّلُولِي: [من الطويل]

إذا البَيْضَةُ الصَّمَاءُ عَضَّتْ صَفِيحَةً
بحربائها صاحتُ صِياحاً وصلَّتْ

(١) الكُنَّةُ: جناح يخرج من حائط؛ أو سقيفة فوق باب الدار؛ أو مخدع؛ أو رف في البيت. «القاموس: كن».

(٢) ثمار القلوب ٣٩٢ (٧١٩).

(٣) البيت للراعي النميري في ديوانه ٢٠٣، والتاج (بلد، بيض)، واللسان (بيض)، وتهذيب اللغة ٣/١٢٤، ١٢/٨٥، وثمار القلوب ٣٩٢ (٧٢٠)، وبلا نسبة في اللسان والتاج (دعا).

(٤) ديوان النابغة الذبياني ١٣٥.

٥١٤ - [شرط أبي عباد النمري في الخمر]

ولما أنشدوا أبا عباد النمري قول ابن ميادة، وهو الرَّمَّاح^(١): [من الكامل]

ولقد غدوتُ على الفتى في رحله قبل الصُّباحِ بمترعٍ نشاج^(٢)
جَادَ القلالُ له بدرٌ صباية حمراءَ مثل سخينة الأوداج^(٣)
حُبِسَتْ ثلاثةَ أحرسٍ في دارةٍ قوراءَ بينَ جَوَازِلٍ ودجاج^(٤)
تَدَعُ الغويُّ كأنه في نفسه ملكٌ يعصَّبُ رأسُه بالتَّاجِ
ويظَلُّ يحسبُ كلَّ شيءٍ حوله نُجِبَ العراقُ نزلنَ بالأحْداجِ^(٥)

فحين سمعه أبو عباد يقول:

حُبِسَتْ ثلاثةَ أحرسٍ في دارةٍ قوراءَ بينَ جَوَازِلٍ ودجاج

قال: لو وجدتُ خمرًا زيتية ذهبية، أصفى من عين الديك، وعين الغراب، ولعاب الجندب وماء المفاصل، وأحسن حمرةً من النار، ومن نجيع^(٦) غزال، ومن قوة الصَّبَاغ - لما شربتها حتى أعلم أنها من عصير الأرجل، وأنها من نبات القرى، وما لم تكدر في الزقاق، وأن العنكبوت قد نسجت عليها، وأنها لم تصر كذلك إلا وسط دسكرة، وفي قرية سوادية وحولها دجاج وفراريج. وإن لم تكن رقطاء أو فيها رقط فإنها لم تتم كما أريد. وأعجب من هذا أنني لا انتفع بشربها حتى يكون بائعها على غير الإسلام. ويكون شيخاً لا يفصح بالعربية، ويكون قميصه متقطعاً بالقار. وأعجب من هذا أن الذي لا بد منه أن يكون اسمه وإن كان مجوسياً شهريار، ومازيار، وما أشبه ذلك، مثل أدير، واردان، ويزان. فإن كان يهودياً فاسمه مانشا، وأشلوما، وأشبه ذلك، وإن كان نصرانياً فاسمه يوشع وشمعون وأشبه ذلك.

٥١٥ - [استطراد لغوي]

ويقال حمس الشرُّ وأحمس إذا اشتدَّ. ويقال قد احتمس الديكان احتماساً، إذا

(١) ديوان ابن ميادة ٩٠-٩١. ومنه أخذت شرح المفردات.

(٢) المترع النشاج: قدح الخمرة الذي يغلي ما فيه حتى يسمع صوته.

(٣) القلال: جمع قلة، وهي الحرة الكبيرة. الودج: عرق في جانب العنق.

(٤) الأحرس: جمع حرس؛ وهو الدهر. القوراء: الواسعة. الجوازِل: الحمام، أو أصواتها.

(٥) الأحْداج: جمع حدج، وهو مركب من مراكب النساء نحو اليهودج.

(٦) النجيع: الدم الأسود، أو دم الجوف. «القاموس: نجع».

اقتتلا اقتتالاً شديداً، ويقال وَقَعَ الطائر يَقَعُ وَقوعاً. وكلُّ واقعٍ فمصدره الوقوع، ومكانه موقعةً، والجمع مواقع. وقال الرأجز^(١): [من الرجز]
 كأنَّ متنَّيه من النَّفيِّ مواقعُ الطَّيرِ على الصَّنفيِّ^(٢)

يقال صفاً وصفيٌّ. والنَّفيُّ: ما نفى الرُّشاء من الماء، وما تنفيه مشافرُ الإبل من الماء المدِير^(٣). فشبهه مكانه على ظهر الساقى والمستقي بذرق الطَّيرِ على الصَّنفا. ويقال: وقع الشيء من يدي وَقوعاً، وسقط من يدي سُقوطاً. ويقال وقع الربيع بالأرض، ويقال سقط. وقال الراعي: [من الكامل]
 وَقَعَ الربيعُ وَقَدُ تقاربَ خَطْوُهُ ورأى بعَقْرَتِهِ أزلَّ نَسُولا^(٤)

٥١٦ - [لؤم الفروج]

قال: وكان عندنا فروجٌ، وفي الدار سنانييرُ تعابث الحمامَ وفراخه، وكان الفروجُ يهربُ منها إلى الحمام، فجاؤونا بدرأج، فترك الحمامَ وصار مع الدرأج، ثم اشترينا فروجاً كسكريباً للذبح فجعلناه في قفص، فترك الدرأج ولزم قُرب القفص، فجئنا بدجاجة فترك الديك وصار مع الدجاجة، فذكرت قولَ الفزر عبد بني فزارة - وكانت بأذنه خربة^(٥) - : إنَّ الوثام يتنزع في جميع الطَّمش^(٦)، لا يقرب العنز الضَّان ما وجدت المعز، وتنفر [الشاء]^(٧) من المخلب ولا تتأنس بالخف. فجعلها كما ترى تنفر ولا تأنس منزله وكذلك حدثنا الأصمعيُّ قال: قلتُ للمنتجع بن نبهان - وكانت بأذنه خربة^(٨) - أكان تميمٌ مسلماً؟ قال: إن كان هو الذي سمى ابنه زيداً مناةً فما كان

(١) الرجز للأخيل الطائي في اللسان (صفا، نفي)، والتاج (هيص، وقع، نفي)، ولرؤبة في ملحق ديوانه ١٨٨، والتاج (صفا)، وله أو للعجاج في اللسان (هيص)، وليس في ديوان العجاج، وبلا نسبة في الجمهرة ٩٤٥، ٩٧٢، واللسان (هيص، وقع)، والتاج (هيص)، والعين ٧٠/٤، والمخصص ٤١/٤، ٩٠/١٠، والتهديب ٣٧/٣، ٣٦٥/٦، ٤٧٥/١٥، والخصائص ١١٢/٢، وشرح المفصل ٢٢/٥، ومجالس ثعلب ٢٠٧، وأمالي القالي ٨/٢.

(٢) الصفي: جمع صفا، والصفا: جمع صفاة؛ وهي الحجر الصلد.

(٣) الماء المدير: به مدر؛ وهو الطين اليابس. «القاموس: مدر».

(٤) ديوان الراعي: ٢٣٩، واللسان (نهش)، والتاج (نسل).

(٥) الخربة: ثقب شحمة الأذن. «القاموس: خرب». وورد الخبير في رسائل الجاحظ ١٧٧/١-١٧٨، وقد رواه الأصمعي.

(٦) الطمش: الناس.

(٧) إضافة من رسائل الجاحظ ١٧٨/١.

(٨) في رسائل الجاحظ ١٩٨/١ (وكان المنتجع سندياً في أذنه خربة، وقع إلى البادية وهو صبي، فخرج أفصح من رؤبة).

مسلماً، وإلّا يكن هو الذي سُمّاه فلا أدري. ولم يقل: وإلّا يكن هو سُمّاه فقد كان مسلماً.

٥١٧ - [لولا الوثام لهلك الأنام]

الوثام: المشاكلة. وقالوا: تقول العرب: «لولا الوثام لهلك الأنام»^(١). وقال بعضهم: تأويل ذلك: لولا أن بعض الناس إذا رأى صاحبه قد صنع خيراً فتشبه به لهلك الناس، وقال الآخرون: إنما ذهب إلى أنس بعض الناس ببعض، كأنه قال: إنما يتعايشون على مقادير الأنس الذي بينهم، ولو عمّتهم الوحشة عمّتهم الهلكة، وقال قوم بن مالك، في الوثام: [من الوافر]

عَلَامٌ أَوَاتِمُ الْبِخْلَاءِ فِيهَا فاقعد لا أزورُ ولا أزارُ^(٢)

وقال الأخطل^(٣): [من البسيط]

نازعته في الدجى الرَّاحِ الشَّمُولِ وَقَدْ صَاحَ الدَّجَاجُ وَحَانَتْ وَقْفَةُ السَّارِي

وقال جرير^(٤): [من البسيط]

لَمَّا مَرَرْتُ عَلَى الدَّيْرَيْنِ أَرَقْنِي صَوْتُ الدَّجَاجِ وَقَرْعُ الْبَلَوَاقِيسِ^(٥)

٥١٨ - [شعر في الديكة والدجاج]

قالوا: وقد وجدنا الديكة والدجاج وأفعالها، مذكورات في مواضع كثيرة، قال ذو الرمة^(٦): [من البسيط]

كَأَنَّ أَصْوَاتَ مَنْ يُبْغِلُهُنَّ بِنَا أَوَاخِرِ الْمَيْسِ أَصْوَاتُ الْفَرَارِيحِ^(٧)

(١) مجمع الأمثال ١٧٦/٢، وجمهرة الأمثال ١٨٤/٢، والمستقصى ٢٩٩/٢، وأمثال ابن سلام ١٥٦، وفصل المقال ٢٣٧.

(٢) ثمة بيت يشبه هذا الشاهد، وهو بلا نسبة في الدرر ١٤٨/٢، والهمع ١٣٠/١ وهو: (أعاذل توشكين بان ترميني صريعاً لا أزور ولا أزار)

(٣) ديوان الأخطل ١٦٨.

(٤) ديوان جرير ٣٢١ (الصاوي)، ١٢٦ (دار المعارف)، والسمط ٥٤، واللسان والتاج (دجج، نقس)، والمعاني الكبير ٨٧، والخزانة ١٠٧/٣، ومعجم البلدان ٥٢٥/٢ (دير فطرس ودير بولس)، ومعجم ما استعجم ٩٦.

(٥) الديران: هما دير فطرس ودير بولس، وهما بظاهر دمشق في ناحية الغوطة. معجم البلدان ٥٢٥/٢.

(٦) ديوان ذي الرمة ٩٩٦، والخزانة ١٠٨/٤، ٤١٣، ٤١٩، والخصائص ٤٠٤/٢، والكتاب ١٧٩/١، ١٦٦/٢، ٢٨٠، واللسان (نقض)، وبلا نسبة في الجمهرة ٨٦٣، وشرح ديوان الحماسة

للمرزوقي ١٠٨٣، وشرح المفصل ١٠٣/١، ٧٧/٣، ١٣٢/٤، والمقتضب ٣٧٦/٤.

(٧) الميس: شجر تتخذ منه الرجال.

وقال الهذلي^(١): [من المتقارب]

ومن أينها بعد إبدانها
تصيحُ جنادبُهُ رُكُداً
فهو على كلِّ مستوفز
ومن شحم أئباجها الهابط^(٢)
صياحُ المساميرِ في الواسط
سقوط الدجاجِ على الحائط

وقال مروان بن محمد: [من السريع]

ضبيعُ ما ورثته راشدٌ
فربُّ كدسٍ قد علا رمسه
من كيلة الأكداس في صفه
كالدِّيكِ إذ يعلو على رفه

٥١٩ - [بيضة الديك وبيضة العقر]

ويقال في المثل للذي يعطي عطية لا يعود في مثلها: «كأنتُ بيضةُ الديك»^(٣).
فإن كان معروف له قيل: «بيضة العقر»^(٤).

٥٢٠ - [استطراد لغوي]

ويقال دجاجة بيوض في دجاج بيض ويبيض، بإسكان موضع العين من الفعل
من لغة سفلى مضر، وضم موضع العين من نظيره من الفعل مع الفاء من لغة أهل
الحجاز.

ويقال عمد الجرح يعمد عمداً، إذا عُصر قبل أن ينضج فورم ولم يُخرج بيضته
وذلك الورع والغلاف الذي يجمع المدة يسمى بيضة، وإذا خرج ذلك بالعصر من
موضع العين فقد أفاق صاحبه.
ويقال حضن الطائر فهو يحضن حضناً.

٥٢١ - [تقسيم الجماع]

ويقال^(٥): هو التَسافد من الطير، والتعاظل من السباع. ويقال قَمَط الحمام
الحمامة وسفدها، ويقال قعا الفحلُ يقعو قعواً، وهو إرساله بنفسه عليها في ضرابه،

(١) الأبيات لاسامة الهذلي في شرح أشعار الهذليين ١٢٨٩، والاول في اللسان وأساس البلاغة (هبط)،
وبلا نسبة في التهذيب ١٨٢/٦.

(٢) الأئباج: الاعالي.

(٣) مجمع الامثال ١٣١/٢، والمستقصى ٢١١/٢، وأمثال ابن سلام ٣١٥، وفصل المقال ٤٣٧،
وانظر ثمار القلوب ٣٩٢، ٣٩٣ (٧١١، ٧٢٠).

(٤) مجمع الامثال ٩٦/١، والمستقصى ٢١١/٢، والفاخر ٣٤٥، وجمهرة الامثال ٢٢٤/١، وانظر
ثمار القلوب ٣٩٢، ٣٩٣ (٧٢٠).

(٥) انظر مثل هذه الفقرة في أدب الكاتب ١٧٠ - ١٧٢ بعنوان «فروق في السفاد».

والفحل من الخف يَضْرِبُ، وهو القَعْوُ والضَّرَابُ. ومن الظَّلْفِ والحافر ينزو نزوًا، وكذلك السنانير، والظلميم يقعو، وكلّ الطير يقعو قعواً، وأما الخفّ والظَّلْفُ فَإِنَّهُ يَقَعُو بعد التسنم. وهو ضرابٌ كُلُّهُ ما خلا التسنم. وأما الظَّلْفُ خاصّةً فهو قافط، يقال قفط يقفط قفطاً. أو القفط نزوة واحدة. وليس في الحافر إلاّ النزو.

٥٢٢ - [حضن الدجاج بيض الطاوس]

قال^(١): ويوضع بيض الطاوس تحت الدجاجة، وأكثر ذلك لأنّ الذكر يعبث بالأنثى إذا حضنت، قال: ولهذه العلّة كثيرٌ من إناث طير الوحش يهربن بيضهنّ من ذكورتها، ثمّ لا تضعه بحيث يشعر به ذكورتهنّ.

قال: ويوضع تحت الدجاجة بيضتان من بيض الطاوس، لا تقوى على تسخين أكثر من ذلك. علىّ أنهم يتعهدون الدجاجة بجميع حوائجها خوفاً من أن تقوم عنه فيفسده الهواء.

٥٢٣ - [حجم خصي ذكور الطير]

قال: وخصي ذكور أجناس الطير تكون في أوان أوّل السفاد أعظم. وكلّما كان الطير أعظم سفاداً. كانت خصيته أعظم، مثل الديك، والقبج، والحجل. وخصية العصفور أعظم من خصية ما يساويه في الجثة مرتين.

٥٢٤ - [بيض الدجاج]

قال: وكلّ ما كان من الدجاج أصغر جثة يكون أكبر لبيضه. وبعض الدجاج يكون ببيض بيضاً كثيراً، وربما باض بيضتين في يوم واحد؛ وإذا عرض له ذلك كان من أسباب موته^(٢).

٥٢٥ - [شعر في صفة الديك]

وقال آخر^(٣) في صفة الديك: [من البسيط]

ماذا يؤرّقني والنوم يُعجّبني
من صوت ذي رعّات ساكن الدار

(١) ربيع الأبرار ٥/٤٤٤

(٢) ربيع الأبرار ٥/٤٤٤

(٣) البيتان لجران العود في ربيع الأبرار ٥/٤٤٤، والأول للاخطل في اللسان والتاج وأساس البلاغة (رعث) والتنبيه والإيضاح ١/١٨٤، وليس في ديوانه، وهما بلا نسبة في الجمهرة ٥٤٧، والمخصص ٤/٤٣، واللسان (حمض)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٨٨٣، ومحاضرات الراغب ٢/٣٠١، والأول بلا نسبة في الجمهرة ٤٢١، ٥١٨، والمقاييس ٢/٤١٠، والمجمل ٢/٣٩٣، والعين ٢/١٠٦.

كَأَنَّ حُمَاضَةً فِي رَأْسِهِ نَبَتَتْ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَدْ هَمَّتْ بِإِثْمَارِ (١)

وقال الطرمّاح (٢): [من الطويل]

فِي صَبْحٍ كَمَشٍ غُبِرَ اللَّيْلِ مُصْعَدًا بِيَمِّ وَنَبَّةٍ ذَا الْعَفَاءِ الْمَوْشِحِ
إِذَا صَاحَ لَمْ يُخْذَلْ وَجَاوَبَ صَوْتَهُ حَمَاشُ الشَّوَى يَصْدَحْنَ مِنْ كُلِّ مُصْدَحِ

٥٢٦ - [حُضْنُ الْحَمَامِ بِيضِ الدَّجَاجِ]

قال (٣): والفروج إذا خرج من بيضه عن حضن الحمام، كان أكيس له.

٥٢٧ - [بِيضُ الطَّائِرِ]

وبيض الطّائوس إذا لم تحضنه الأنثى التي باضته خرج الفرخ أقماً وأصغر.

٥٢٨ - [بِيضُ الدَّجَاجِ]

قال: وإذا أُهْرِمَتِ الدَّجَاجَةُ فَلَيْسَ لِأَوَاخِرِ مَا تَبْيِضُ صُفْرَةً. وَقَدْ عَايَنُوا لِلْبَيْضَةِ الْوَاحِدَةَ مُحْتَتِينَ، خَبَّرَنِي بِذَلِكَ جَمَاعَةٌ مِمَّنْ يَتَعَرَّفُ الْأُمُورَ. وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْبَيْضَةِ مُحٌّ لَمْ يُخْلَقْ مِنَ الْبَيْضَةِ فَرُوجٌ وَلَا فَرخٌ، لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ يَغْذُوهُ وَيُرِيئُهُ. وَالْبَيْضُ إِذَا كَانَ فِيهِ مُحْتَتَانٌ وَكَانَ الْبَيَاضُ وَافِرًا - وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ لِلْمَسْنَاتِ - فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ خَلْقَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْبَيَاضِ فَرُوجِينَ، وَتَرَبَّى الْفَرُوجَانِ، وَتَمَّ الْخَلْقُ، لِأَنَّ الْفَرخَ إِنَّمَا يَخْلُقُ مِنَ الْبَيَاضِ، وَالصُّفْرَةُ غِذَاءُ الْفَرُوجِ.

٥٢٩ - [اسْتِطْرَادُ لَغْوِي]

قال: ويقال قَفَطُ الطَّائِرِ يَقْفُطُ قَفْطًا، وَسَفْدٌ يَسْفِدُ سَفَادًا، وَهُمَا وَاحِدٌ. وَيَكُونُ السَّفَادُ لِلْكَلْبِ وَالشَّاةِ، وَيَقَالُ قَمَطُ الْحَمَامِ يَقْمُطُ قَمْطًا.

ويقال ذَرَقُ الطَّائِرِ يَذُرُقُ ذَرَقًا، وَخَزَقٌ يَخْزِقُ خَزَقًا، يَقَالُ ذَلِكَ لِلْإِنْسَانِ، فَإِذَا

(١) الحَمَاضُ: مِنَ الْعَشْبِ، وَهُوَ يَطُولُ طَوْلًا شَدِيدًا، وَلَهُ رِقَّةٌ عَظِيمَةٌ وَزَهْرَةٌ حَمْرَاءُ، وَإِذَا دَنَا بَيْسَهُ ابْيَضَتْ زَهْرَتُهُ. اللَّسَانُ (حَمَضُ).

(٢) دِيوَانُ الطَّرْمَاحِ ٩٩ (٩٤ طَبْعَةٌ دَارِ الْمَشْرِقِ)، وَرَبِيعُ الْأَبْرَارِ ٥/٤٤٤، وَالْأَوَّلُ فِي اللَّسَانِ (وَشَحٌّ)، وَأَسَاسُ الْبَلَاغَةِ (كَمَشٌ، وَشَحٌّ)، وَالْعَيْنُ ٣/٢٦٣، وَالْمَقَابِيِسُ ٤/٦٠، وَالتَّهْذِيبُ ٥/١٤٦، وَالْمَعَانِي الْكَبِيرُ ٣٠٢، وَالثَّانِي فِي الْعَيْنِ ٣/١٠٠.

(٣) رَبِيعُ الْأَبْرَارِ ٥/٤٤٤.

(٤) رَبِيعُ الْأَبْرَارِ ٥/٤٤٤.

اشتق له من الحذقة نفسه ومن اسمه الذي هو اسمه قيل خريء، وهو الخرء والخراء. ويقال للحافر راث يروث، وللمعز والشاء: بعر يبعر، ويقال للنعام: صام يصوم، وللطير: نجا ينجو واسم نجو النعام الصوم، واسم نجو الطير العرة. وقال الطرمّاح: [من المديد]

في سَنَاطِي أَقْنٍ بَيْنَهَا عُرَّةُ الطَّيْرِ كَصَوْمِ النِّعَامِ^(١)

ويقال للصبي عقى، مأخوذ من العقي.

ويقال لحمت الطير، ويقال اللحم طائرِك إلحاماً، أي أطعمته لحمأً واتخذ له. ويقال هي لُحمة النَّسب، ويقال ألحمت الثوب إلحاماً، والحمّت الطائر إلحاماً، وهي لحمة الثوب، ولحمة، بالفتح والضم.

٥٣٠ - [القول في عين الديك]

ومن خصال الديك المحمودة قولهم في الشراب: «أصفى من عين الديك» وإذا وصفوا عين الحمام الفقيع بالحمرة، أو عين الجراد قالوا: كأنها عين الديك. وإذا قالوا: «أصفى من عين الغراب» فإنما يريدون حدته ونفاذ البصر.

وفي عين الديك يقول الأعشى: [من الطويل]

وكأسٍ كعينِ الديكِ باكرتُ حدَّها بغرَّتْها إذ غابَ عنها بُغَاتُها^(٢)

وقال آخر: [من الطويل]

وكأسٍ كعينِ الديكِ باكرتُ حدَّها بفتيانِ صدقِ والنواقيسِ تُضربُ^(٣)

وقال آخر^(٤): [من الخفيف]

قَدَّمْتُهُ عَلَى عُقَارِ كَعِينِ الدِّيِّ لكِ صَفِي زُلَالِها الرَّأووقُ

(١) ديوان الطرمّاح ٤٩٥ (طبعة دار المشرق)، واللسان والتاج (شنتط، أقن، قنا)، والتهذيب ٣١٤/٩، ٣٢٤، ٣٣١/١١، والعين ٢٢١/٥، ١٧٢/٧، والجمهرة ١٢٣، وبلا نسبة في

المخصص ١٢٩/٨، والعين ١٨٥/١، والجمهرة ٨٦٩، ٨٩٩.

(٢) ديوان الأعشى ١٣٣. وصدرة (وكأس كماء النبيء باكرت حدها).

(٣) البيت للأعشى في ديوانه ٢٥٣، واللسان (حدد، كأس)، والتهذيب ٤٢٠/٣، والعين ٢٠/٣، والمقاييس ٤/٢، والتاج (حدد)، والمجل ٧/٢، والتنبيه والإيضاح ١٧/٢، وبلا نسبة في المخصص ٩٩/١١.

(٤) البيت لعدي بن زيد في ديوانه ٧٨، والأغاني ٧٧/٦، ٧٨، ٩٢، ٤٥/٧، ٦٦، واللسان (طرق)، والتاج (روق).

وقال الآخر^(١): [من الطويل]
ثلاثة أحوال وشهراً مُجرماً تضيء كعين العتْرِفان المحارب
والعتْرِفان من أسماء الديك، وسماه بالمحارب كما سماه بالعتْرِفان.

٥٣١ - [وصف الماء الصافي]

وإذا وصفوا الماءَ والشَّرَابَ بالصَّافِي قالوا، كأنه الدَّمعُ ، وكأنه ماء قَطْر، وكأنه ماء مَفْصِل، وكأنه لعاب الجندب، إلا أن هذا الشاعر قال: [من الطويل]
مطبقة مَلَانة بَابِلِيَّة كَأَنَّ حُمِيَّهَا عُمُونَ الْجَنَادِبِ

وقال آخر^(٢): [من الطويل]
وما قَرَقَفُ من أَذْرِعَاتِ كَأَنَّهَا إِذَا سُكِبَتْ مِنْ دَنِّهَا ماءُ مَفْصِلِ

٥٣٢ - [المفاصل وماء المفاصل]

والمفاصل: ماء بين السَّهْل والجَبَل، وقال أبو ذؤيب^(٣): [من الطويل]
مَطَافِيلَ أَبْكَارٍ حَدِيثٍ نَتَاجُهَا تَشَابُ بِمَاءِ مِثْلِ ماءِ الْمَفَاصِلِ
وقال ابن نجيم: إنما عَنُوا مفاصل فِقَارِ الجَمَلِ، لأنَّ لِكُلِّ مَفْصِلٍ حُقُاقاً، فيستنقع فيه ماءً أبداً أَصْفَى ولا أَحْسَنَ منه وإن رَقَّ.

٥٣٣ - [حدة بصر الكلب]

وقال مرَّةً قَطْرِبُّ، وهو محمد بن المستنير النحويُّ: «والله لفلان أبصرُّ من كلب، وأسمعُ من كلب، وأشمُّ من كلب». فقيل له: أنشدنا في ذلك ما يُشْبِه قولك. فأنشد قوله^(٤): [من البسيط]
يا رَبَّةَ البَيْتِ قومي غيرَ صاغرة حُطِّي إِلَيْكَ رِحَالِ القَوْمِ فَالقُرْبَا^(٥)

(١) البيت لعدي بن زيد في ديوانه ١١٨، واللسان والتاج (عترف).

(٢) البيت لكثير عزة في ديوانه ٢٩٠، وثمار القلوب ٤٤٦ (٨٠٧).

(٣) البيت لأبي ذؤيب الهذلي في شرح أشعار الهذليين ١٤١، واللسان والتاج (بكر، طفل، فصل)، والتهذيب ١٢/١٩٣، ١٣/٣٤٨، والمقاييس ٤/٥٦، والعين ٧/١٢٦، والمخصص ١/٢٣، ١٦/١٦١، والخزانة ٤٩٠.

(٤) الأبيات لمرة بن محكان السعدي في معجم الشعراء ٢٩٥، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٥٦٢، والأغاني ٣/٣٢٢، ٢٢/٣٢٠، وأشعار اللصوص ١/١١١، والبيت الأول بلا نسبة في الجمهرة ٣٢٤، والمقاييس ٥/٨٢، والثاني في الخصائص ٣/٥٢، ٢٣٧، واللسان (ندی)، والمقتضب ٣/٨١، وبلا نسبة في اللسان (رجل).

(٥) في الأغاني ٢٢/٣٢٢ (سئل أبو عبيدة عن معنى قول مرة بن محكان: «ضمي إليك رحال القوم»

في ليلة من جمادى ذات أندية لا يُبصرُ الكلبُ من ظلمائها الطنبا^(١)
لا ينبعُ الكلبُ فيها غيرَ واحدةٍ حتى يجرَّ على خيشومه الذنبا
وأنشد هذا البيت في ثُقوبِ بصره، والشعر لمرّةٍ بن محكان السعديّ.

ثم أنشد في ثُقوبِ السَّمعِ: [من الطويل]

خَفِيَ السَّرَى لا يَسْمَعُ الكَلْبُ وطأه أتى دُونَ نَبْحِ الكَلْبِ والكلبُ داب

٥٣٤ - [خصال القائد التركي]

قال أبو الحسن: قال نصر بن سيار الليثي: كان عظماءُ التُّركِ يقولون للقائد العظيم القيادة: لا بدُّ أن تكونَ فيه عشرُ خصالٍ من أخلاق الحيوان: سخاءُ الديك، وتحنُّنُ الدجاجة، وقلب الأسد، وحملة الخنزير، وروغان الثعلب، وختلُّ الذئب، وصبر الكلب على الجراحة، وحذر الغراب، وحراسة الكركي، وهداية الحمام^(٢).

وقد كتبنا هذا في باب ما للدجاج والديك، لأنَّ صاحبَ هذا الكلام قسمَ هذه الخصال، فأعطى كلَّ جنسٍ منها خصلةً واحدةً وأعطى جنس الدجاج خصلتين.

٥٣٥ - [ما ورد من الحديث والخبر في الديك]

وعبَّاد بن إبراهيم عن عبد الرحمن بن زيد قال: كان مكحولٌ يسافر بالديك، وعنه في هذا الإسناد عن رسول الله ﷺ: «الديكُ صديقي، وصديقُ صديقي، وعدوُّ عدوِّ الله، يحفظُ داره وأربعُ دُورٍ من حواليه»^(٣).

والمسيب بن شريك عن الأعمش نحسبه عن إبراهيم، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تذبَّحوا الديك، فإنَّ الشيطانَ يُفرِّحُ به»^(٤).

= والقربا، ما الفائدة في هذا؟ فقال: كان الضيف إذا نزل بالعرب في الجاهلية ضموا إليه رحله، وبقي سلاحه معه لا يؤخذ خوفاً من البيان والإغارة، فقال مرة بن محكان يخاطب امرأته: ضمي إليك رحال هؤلاء الضيفان وسلاحهم، فإنهم عندي في عز وأمن من الغارات والبيات، فليسوا ممن يحتاج أن يبني لابساً سلاحه).

(١) الطنب: حبل البيت. «القاموس: طنب».

(٢) الخبر في ثمار القلوب ٣٠٦ (٥٧٠-٥٧١)، والتمثيل والمحاضرة ١٥٣، والفخري ٥٨، والتوفيق للتلفيق ٧٧، والإمتاع والمؤانسة ١/١٤٤.

(٣) ورد الحديث في عيون الأخبار ٨٩/٢، وعلق محققه أنه حديث موضوع؛ وقد نبّه عليه ابن الجوزي والقاري.

(٤) أفرحه: أغمه، وحقيقته: أزلت عنه الفرحة؛ كاشكيتة إذا أزلت شكواه. النهاية ٣/٤٢٤.

٥٣٦ - [وصف جناح الطائر]

قال^(١): وليس جناح إلا وفيه عشرون ريشةً: فأربعٌ قوادم. وأربعٌ مناكب، وأربعٌ أباهر، وأربعٌ كلي، وأربعٌ خوافٍ، ويقال: سبعٌ قوادم، وسبعٌ خوافٍ، وسائرُه لقب.

٥٣٧ - [الرُّكبة والكف لدى الإنسان وذوات الأربع]

قال: وكلُّ شيءٍ من ذوات الأربع فركبته في يديه، وركبته الإنسان في رجليه، قال: والإنسان كفُّه في يده، والطائر كفُّه في رجله.

٥٣٨ - [أسنان الإنسان]

قال^(٢): وفي الفم ثنيتان ورباعيتان ونابان وضاحكان وأربعةٌ أرحاءٍ سوى ضرسِ الحُكْم. والنواجذ والعوارض سواء. ومثلها أسفل.

٥٣٩ - [التفاؤل بالدجاجة]

قال صاحب الديك: والدجاجة يُتفاءلُ بذكرها، ولذلك لما ولد لسعيد بن العاص عنبسةُ بن سعيد، قال لابنه يحيى: أي شيءٍ تنحلُّه؟ قال: دجاجةٌ بفراريجها! يريد احتقاره بذلك، إذ كان ابن أمةٍ ولم يكن ابن حرة. فقال سعيد - أو قيل له -: إن صدقَ الطيرُ ليكوننَّ أكثرهم ولدًا!

فهم اليوم أكثرهم ولدًا^(٣)، وهم بالكوفة والمدينة.

٥٤٠ - [شعر في حسن الدجاجة ونبل الديك]

وقال الشاعر^(٤): [من الوافر]

غدوتُ بشريةٍ من ذات عرقٍ إيا الدهناء من حلب العصيرِ
وأخرى بالعقنقل ثم سرنا نرى العصفورَ أعظمَ من بغيرِ
كانَ الديكُ ديك بني نُمير أميرُ المؤمنين على السريرِ
كانَ دجاجهم في الدار رُقْطاً بناتُ الرُّومِ في قُمصِ الحريرِ

(١) انظر هذه التسمية لأقسام جناح الطائر في أدب الكاتب ١٦٧، ومبادئ اللغة ١٧٠ (باب آخر في النعام ووصف جناح الطائر)، واللسان ٤/ ٨٣، ٨٤ (بهر).

(٢) انظر تفصيل تسمية أسنان الإنسان في كتاب خلق الإنسان ١٦٥ - ١٦٧، وأدب الكاتب ١٦٢ (باب فروق في الأسنان).

(٣) في المعارف ٢٩٦، ٦١٥: (وولد له نحو من عشرين ابناً، وعشرين بنتاً).

(٤) تقدم تخريج الأبيات في الفقرة (٤٥١).

فبتُ أرى الكواكبَ دانياتٍ يَنلَنَ أناملَ الرَّجُلِ القصيرِ
أُدافعهنَّ بالكفينِ عنيَّ وأمسحُ جانبَ القَمَرِ المُنيرِ

٥٤١ - [وصف الدجاج بالدعاء والمنطق]

قال: ويوصف بالدعاء وبالمنطق، قال لبيد بن ربيعة: [من السريع]
وصدَّهُمْ مَنْطِقُ الدَّجَاجِ عَنِ القَصِّ سدَّ وَضْرَبُ النَّاقُوسِ فَاجْتُنِبَا (١)

وقال: [من الطويل]

لَدُنْ أن دَعَا ديكُ الصبَاحِ بِسُحْرَةٍ إلى قَدَرِ وِرْدِ الخَامِسِ المَتَأَوَّبِ (٢)

٥٤٢ - [دعابة أعرابي ، وقسمته للدجاج]

قال أبو الحسن: حدثني أعرابيٌّ كان ينزل بالبصرة قال (٣): قدم أعرابيٌّ من البادية فأنزلته، وكان عندي دجاج كثير، ولي امرأة وابنان وابنتان منها، فقلب لامرأتي: بأدري واشوي لنا دجاجة وقدميها إلينا نتغداها فلما حضر الغداء جلسنا جميعاً أنا وامراتي وابنائي وابنتاي والأعرابي. قال: فدفعنا إليه الدجاجة فقلنا له: اقسّمها بيننا - نريد بذلك أن نضحك منه - فقال: لا أحسن القسمة، فإن رضيتم بقسمتي قسمتها بينكم، قلنا: فإننا نرضى. فأخذ رأس الدجاجة فقطعه فناوكنيه وقال: الرأس للرأس، وقطع الجناحين وقال: الجناحان للابنين. ثم قطع الساقين فقال: الساقان للابنتين. ثم قطع الزمكي وقال: العجز للعجز. [ثم قطع الزور] (٤) وقال: الزور للزائر: قال فأخذ الدجاجة بأسرها وسخر بنا. قال: فلما كان من الغد قلت لامراتي: اشوي لنا خمس دجاجات. فلما حضر الغداء قلت: اقسّم بيننا. قال: إنني أظن أنكم وجدتم في أنفسكم! قلنا: لا! لم نجد في أنفسنا فأقسّم. قال: اقسّم شفعا أو وتراً، قلنا: اقسّم وتراً قال: أنت وامراتك ودجاجة ثلاثة. ثم رمى إلينا بدجاجة. ثم قال: وابناك ودجاجة ثلاثة. ثم رمى إليهما بدجاجة. ثم قال: وابنتاك ودجاجة ثلاثة. ثم رمى إليهما بدجاجة. ثم قال: أنا ودجاجتان ثلاثة. وأخذ دجاجتين وسخر بنا. قال: فرآنا ونحن ننظر إلى دجاجتيه فقال: ما تنظرون! لعلكم

(١) ديوان لبيد ٢٦، والمعاني ٣٠٤، وفي ديوانه: «يقول: الدجاج والناقوس إنما يكون في القرى،

فلما مروا بالقرى كرهوا دخولها، فعدلوا عنها واجتنبوها، وكانت قصداً على الطريق».

(٢) ديوان لبيد ٨، وتقدم في نهاية الفقرة (٤٧٤).

(٣) وردت هذه القصة في نهاية الأرب ١٠/٢٢٣.

(٤) زيادة يقتضيها سياق الكلام.

كرهتم قسَمتي الوتر لا يجيء إلا هكذا، فهل لكم في قسمة الشُّع؟ قلنا: نعم. فضمَّهنَّ إليه، ثم قال: أنت وابنك ودجاجة أربعة. ورمى إلينا بدجاجة، ثم قال: والمعجوز وابنتاها ودجاجة أربعة، ورمى إليهنَّ بدجاجة، ثم قال: أنا وثلاث دجاجات أربعة، وضمَّ إليه الثلاث، ورفع يديه إلى السماء وقال: اللهم الحمد، أنت فهِمْتِنيها!

٥٤٣ - [صاحب الكلب على صاحب الديك]

قال صاحب الكلب: [أما قولهم^(١)]: من أعظم مفاخر الديك والدجاج على سائر الحيوان، إنَّ الفروج يخرج من البيضة كاسيا يكفي نفسه، ثمَّ يجمع كيس الخلقة وكيس المعرفة، وذلك كله مع خروجه من البيضة - فقد زعم صاحب المنطق أن ولد العنكبوت يأخذ في النسيج ساعة يُولد. وعمل العنكبوت عمل شاق ولطيف دقيق، لا يبلغه الفروج ولا أبو الفروج!!

على أن ما مدحوا الفروج به من خروجه من البيضة كاسياً، قد شركه في حاله غير جنسه. وكذلك ذوات الأربع كلها تُلد كواسي كواسب، كولد الشاء. وفراخ القبج والدراج، وفراخ البط الصيني في ذلك كله لائحة بالفرايح، وتزيد على ذلك أنها تزداد حسناً كلما كبرت. فقد سقط هذا الفخر.

٥٤٤ - [شعر هزلي للشمقمق في الديك]

ومن الشعر الذي قيل في الديك، مما يُكتب للهزل وليس للجد والفائدة، قول أبي الشمقمق: [من مجزوء الرمل]

هتفت أم حُصين	ثم قالت: من ينيك
ف تحت فرجاً رحيباً	مثل صحراء العتيك
فيه وز فيه بط	فيه دراج وديك

٥٤٥ - [حديث صاحب الأهواز عن العرب]

قال: ومما فيه ذكر الدجاج وليس من شك ما بنينا كلامنا عليه. ولكنه يُكتب لما فيه من العجب. قال: قال الهامرز. قال^(٢) صاحب الأهواز: ما رأينا قوماً أعجب من العرب! أتيت الأحنف بن قيس فكلمته في حاجة لي إلى ابن زياد، وكنت قد ظلمت في الخراج، فكلمه فاحسن إلي وحط عني، فأهديت إليه هدايا كثيرة فغضب وقال: إننا لا نأخذ على معونتنا أجراً! فلما كنت في بعض الطريق سقطت من رداي

(١) زيادة يقتضيتها المعنى.

(٢) لعل حذف هذه الكلمة يعطي تناسباً في الخبر.

دَجَاجَةٌ فَلِحَقْنِي رَجُلٌ مِنْهُمْ فَقَالَ: هَذِهِ سَقَطَتْ مِنْ رَدَائِكِ. فَأَمَرْتُ لَهُ بِدَرَاهِمٍ، ثُمَّ لِحَقْنِي بِالْأُبُلَّةِ فَقَالَ: أَنَا صَاحِبُ الدَّجَاجَةِ! فَأَمَرْتُ لَهُ بِدَرَاهِمٍ؛ ثُمَّ لِحَقْنِي بِالْأَهْوَازِ فَقَالَ: أَنَا صَاحِبُ الدَّجَاجَةِ! فَقُلْتُ لَهُ: إِنْ رَأَيْتَ زَادِي بَعْدَ هَذَا كُلَّهُ قَدْ سَقَطَ فَلَا تُعَلِّمْنِي، وَهُوَ لَكَ!!

٥٤٦ - [جرو البطحاء]

قال صاحب الكلب: كان يقال لأبي العاصي بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس، وهو زوج زينب بنت رسول الله ﷺ وأخيه كنانة بن الربيع: جرو البطحاء.

٥٤٧ - [أسطورة البازي والديك]

قال صاحب الديك لصاحب الكلب: وسنضرب لك المثل الذي ضرب به المورياتي للديك والبازي: وذلك أن خلاد بن يزيد الأرقط قال: بينما أبو أيوب المورياتي جالس في أمره ونهيه، إذ أتاه رسول أبي جعفر فانتقع لونه، وطارت عصافير رأسه^(١)، وأذن بيوم بأسه، وذعر ذعراً نقض حبوته^(٢)، واستطار فؤاده، ثم عاد طلق الوجه، فتعجبنا من حاله وقلنا له: إنك لطيف الخاصة قريب المنزلة. فلم ذهب بك الذعر واستفرغك الوجل؟ فقال: سأضرب لكم مثلاً من أمثال الناس.

زعموا أن البازي قال للديك: ما في الأرض شيء أقل وفاء منك! قال: وكيف؟ قال: أخذك أهلك بيضة فحضنوك، ثم خرجت على أيديهم فاطعموك على أكفهم، ونشأت بينهم، حتى إذا كبرت صرت لا يدنو منك أحد إلا طرت هاهنا وهاهنا وضججت وصححت. وأخذت أنا من الجبال مسناً فعلموني وألفوني، ثم يخلى عني فأخذ صيدي في الهواء فأجيء به إلى صاحبي. فقال له الديك: إنك لو رأيت من البراة في سفاهيدهم مثل ما رأيت من الديوك لكنت أنفرت مني!

ولكنكم أنتم لو علمتم ما أعلم، لم تتعجبوا من خوفي، مع ما ترون من تمكّن حالي.

٥٤٨ - [أجود الخيل]

قال صاحب الكلب: ذكر محمد بن سلام عن سعيد بن صخر قال: أرسل مسلم بن عمرو، ابن عمه إلى الشام ومصر يشتري له خيلاً، فقال له: لا علم لي

(١) مجمع الامثال ١/٤٣٢، وهو يضرب للمذعور.

(٢) الاحتباء: أن يضم الإنسان رجله إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره ويشده عليها، وهو منهى عنه في الحديث، انظر اللسان (حيا).

بالخيل - وكان صاحبَ قنص - قال: ألسْتَ صاحبَ كلاب؟ قال: بلى. قال فأنظرَ كلَّ شيءٍ تستحسنه في الكلب فاستعمله في الفرس. فقدم بخيلٍ لم يكن في العرب مثلاً.

٥٤٩ - [حاجة الديك إلى الدجاجة]

قال محمد بن سلام: استأذن رجلٌ على امرأةٍ فقالت له: ماله من حاجة. قالت الجارية: يريد أن يذكر حاجة. قالت: لعلها حاجة الديك إلى الدجاجة! (١).

٥٥٠ - [هرب الكميت من السجن متنكراً بثياب زوجه]

محمد بن سلام عن سلام أبي المنذر قال (٢): حبس خالد بن عبد الله الكميت ابن زيد، وكانت امرأته تختلف إليه في ثياب وهيئة حتى عرفها البوابون، فليس يوماً ثيابها وخرج عليهم. فسمى في شعره (٣) البوابين النوايح، وسمى خالداً المشلي: [من الطويل]

خرجت خروجَ القدحِ قدحِ ابنِ مُقبلٍ على الرِّغمِ من تلكِ النوايحِ والمشلي (٤)
عليّ ثيابُ الغانياتِ وتحتها صريمةُ عزمٍ أشبهت سلةَ النصلِ

٥٥١ - [فتيا الحسن في استبدال البيض]

قال: وأخبرنا خشرم قال: سمعتُ فلاناً البقالَ يسأل الحسنَ قال: إن الصبيان يأتونني ببيضتين مكسورتين، يأخذون مني صحيحةً واحدة. قال: ليس به بأس.

٥٥٢ - [أعجوبة في الكلبة]

محمد بن سلام عن بعض أشياخه قال: قال مُصعب بن الزبير على منبر مسجد البصرة، لبعض بني أبي بكره: إنما كانت أمكم مثل الكلبة، ينزو عليها الأعفر والأسود والأبقع، فتؤدي إلى كل كلب شبهه (٥).

هذا في هذا الموضع هجاء، وأصحاب الكلاب يرون هذا من باب النجاسة، وأن ذلك من صفة طباع الأرحام، حين لا تختلط النطف فتجيء جوارح الأولاد مختلفة مختلطة.

(١) في مجمع الأمثال ٢/٢٥٨: (لنا إليه حاجة كحاجة الديك إلى الدجاجة).

(٢) ورد الخبر مفصلاً في الأغاني ١٧/١٧-١٨.

(٣) البيتان في ديوان الكميت ٢/٥٠، والأغاني ١٧/١٨، ومحاضرات الأدباء ٣/١٩٧، ومجموعة المعاني ١٤٨.

(٤) قدح ابن مقبل: يضرب مثلاً في حسن الأثر، ثمار القلوب ١٧٣ (٣٥٤). المشلي: الذي يغري الكلاب بالصيد. «القاموس: شلي».

(٥) انظر عيون الأخبار ٢/١٨، وانظر الفقرة (٢٩٠)، والفقرة (٣٨٧).

٥٥٣ - [وصية عثمان الخياط للشطار]

وقال صاحب الكلب: في وصية عثمان الخياط للشطار اللصوص: إياكم إياكم وحب النساء وسماع ضرب العود، وشرب الزبيب المطبوخ، وعليكم باتخاذ الغلمان؛ فإن غلامك هذا أنفع لك من أخيك، وأعون لك من ابن عمك، وعليكم بنبيد التمر، وضرب الطنبور، وما كان عليه السلف واجعلوا النقل باقلاء، وإن قدتم على الفستق، والريحان شاهسفرم^(١)، وإن قدرتم على الياسمين. ودعوا لبس العمائم وعليكم بالقناع. والقلنسوة كُفر، والخف شرك، واجعل لهوك الحمام، وهارش الكلاب وإياك والكباش واللعب بالصقورة والشواهين، وإياكم والفهود.

فلما انتهى إلى الديك قال: والديك فإن له صبراً ونجدة، وروغاناً وتدبيراً، وإعمالاً للسلاح، وهو يبهر بهر الشجاع.

ثم قال: وعليكم بالنرد ودعوا الشطرنج لأهلها، ولا تلعبوا في النرد إلا بالطويلتين. والودع^(٢) رأس مال كبير، وأول منافعه الحذق باللقف^(٤). ثم حدثهم بحديث يزيد بن مسعود القيسي.

٥٥٤ - [كراهية ما يصيده الكلب الأسود البهيم]

وقال صاحب الديك: ذكر محمد بن سلام عن يحيى بن النضر، عن أبي أمية عبد الكريم المعلم قال: كان الحسن بن إبراهيم يكره صيد الكلب الأسود البهيم.

٥٥٥ - [قصيدة ابن أبي كريمة في صفة صيد الكلب]

وأنشد صاحب الكلب قول أحمد بن زياد بن أبي كريمة في صفة صيد الكلب، قصيدة طويلة أولها^(٤): [من الطويل]

وغب غمام مزقت عن سمائه شامية حصاء جُون السحائب^(٥)
مواجه طلق لم يردد جهامه تذاؤب أرواح الصبا والجنائب

(١) في اللسان «شاهسفرم» ٣٢٩/١٢: (شاهسفرم: ريحان الملك، قال أبو حنيفة: هي فارسية، دخلت في كلام العرب).

(٢) في اللسان «ودع» ٣٨٠/٨: (الودع: خرز بيض جوف؛ في بطونها شق كشق النواة تتفاوت في الصغر والكبر، وقيل: هي جوف في جوفها دوية كالحلمة).

(٣) اللقف: تناول الشيء يرمى به إليك، (اللسان: لقف).

(٤) القصيدة في نهاية الأرب ٢٦٦/٩. والحماسة البصرية ٣٤٤/٢، ٣٤٥.

(٥) الغب: عاقبة الشيء. «القاموس: غب». الحصاء من الرياح: الصافية بلا غبار. «القاموس: حص».

لغرة مشهور من الصبح ثاقب^(١)
لساري الدجى في الفجر قنديل راهب
وإن كان جم الرشد، لوم القرائب^(٢)
مشرطة آذانها بالمخالب^(٣)
طوال الهوادي كالقداح الشواذب^(٤)
عجاجاً وبالكذآن نار الحباب^(٥)
سهام مغال أو رجوم الكواكب
بطامسة الأرجاء مرت المسارب^(٦)
رأت شبحاً لولا اعتراض المناكب^(٧)
مرايض أبناء النفاق الأرائب^(٨)
أنين المكائي أو صرير الجنادب^(٩)
كجم الغضى خزرأ ذراب الأناذب^(١٠)
لهن ضراء أو مجاري المذانب^(١١)
عليه بدون الجهد سبل المذاهب^(١٢)

بعثت وأثواب الدجى قد تقلصت
وقد لاح ناعي الليل حتى كأنه
بهاليل لا يشينهم عن عزيمة
بتجنيب غضف كالقداح لطيفة
تخال سياتاً في صلاها منوطة
إذا افترشت خبتاً أثارت بمتنه
يفوت خطاها الطرف سبقاً كأنها
طراد الهوادي لاحها كل شتوة
تكاد من الأحراج تنسل كلما
تسوف وتوفى كل نشز وقدفد
كان بها ذعراً، يطير قلوبها
تدير عيوناً ركبت في براطل
إذا ما استحثت لم يجن طريدها
وإن باصها صلناً مدى الطرف أمسكت

- (١) الغرة: البياض في الجبهة، وقصد بها أول النهار. «القاموس: غر».
(٢) البهلول: السيد الجامع لكل خير. «القاموس: بهل».
(٣) جنبه: قاده إلى جنبه. «القاموس: جنب». الغضف، جمع أغضف، وهو الكلب المسترخي الأذنين «القاموس: غضف».
(٤) الصلا: الظهر، أو ما انحدر من الوركين، أو الفرجة بين الجاعرة والذنب. «القاموس: صلا».
الهوادي: الأعناق. «القاموس: هدي». الشازب: الخشن والضامر اليابس. «القاموس: شذب».
(٥) الخبت: المتمتع من بطون الأرض. «القاموس: خبت». الكذآن: حجارة رخوة. «القاموس: كذآن». نار الحباب: هي التي توربها الخيل بسنابكها من الجحارة إذا وطقتها. وانظر أقوالاً أخرى في ثمار القلوب (٣٨٢).
(٦) الطامس: البعيد. «القاموس: طمس». المرت: الأرض لا ينبت مرعاها. «القاموس: مرت».
(٧) الأحراج: جمع حرج، وهو قلادة الكلب. «القاموس: حرج».
(٨) تسوف: تشم. «القاموس: سوف». النشز: المكان المرتفع. «القاموس: نشز». الفدقد: الفلاة، «القاموس: فدقد». النفاق: جمع نفق؛ وهو الحجر. «القاموس: نفق».
(٩) المكائي: جمع مكاء؛ طائر يصوت في الرياض، فإذا غرد في غير روضة فإنما يكون ذلك لإفراط الجذب وعدم النبات وعند ذلك يهلك الشاء والحмир. حياة الحيوان ٢/ ٣٢٢.
(١٠) براطل: جمع برطيل؛ وهو حجر أو حديد طويل صلّب خلقه ينقر به الرحي، والمعول. «القاموس: برطل». الخزر: ضيق في العينين. «القاموس: خزر». قوم ذرب: أحداء. «القاموس: ذرب. الأناذب: الأنياب، أي أنيابها حداد».
(١١) المذانب: جمع مذنب، وهو الجدول يسيل عن الروضة بمائها إلى غيرها.
(١٢) باص: سبق. الصلت: الرقص.

نَكَادُ تَفَرَّى الْأُهْبُ عَنْهَا إِذَا انْتَحَت	لِنَبَاةِ شَخْتِ الْجَرْمِ عَارِي الرَّوَّاجِبِ (١)
كَأَنَّ غِصُونَ الْخَيْزِرَانَ مُتُونَهَا	إِذَا هِيَ جَالَتْ فِي طَرَادِ الثُّعَالِبِ (٢)
كَوَاشِرُ عَنِ أَنْيَابِهِنَّ كَوَالِحٌ	مُدْلَقَةُ الْأَذَانِ شَوْسُ الْحَوَاجِبِ (٣)
كَأَنَّ بَنَاتِ الْقَفْرِ حِينَ تَفَرَّقَتْ	عَدَوْنَ عَلَيْهَا بِالْمَنَايَا الشُّوَاعِبِ (٤)
ثُمَّ وَصَفَ الْفَهُودَ:	
بِذَلِكَ أَبْغَى الصَّيْدَ طَوْرًا وَتَارَةً	بِمُخْطَفَةِ الْأَكْفَالِ رُحْبَ التَّرَائِبِ (٥)
مَرْقَقَةَ الْأَذْنَابِ نُمْرٍ ظَهُورُهَا	مَخْطَطَةُ الْأَمَاقِ غُلْبَ الْغَوَارِبِ (٦)
مُدْنَرَةٌ وَرُقٍ كَأَنَّ عَيْونَهَا	حَوَاجِلُ تَسْتَدْمِي مَتُونَ الرَّوَاجِبِ (٧)
إِذَا قَلْبَتِهَا فِي الْفَجَاجِ حَسِبْتُهَا	سَنَا ضَرَمٍ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ثَاقِبِ (٨)
مَوْلَعَةً فَطَحَ الْجَبَاهِ عَوَابِسِ	تَخَالُ عَلَى أَشْدَاقِهَا خَطٌّ كَاتِبِ (٩)
نَوَاصِبِ آذَانِ لَطَافٍ كَأَنَّهَا	مَدَاهِنٌ، لِلْإِجْرَاسِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ (١٠)
ذَوَاتِ أَشَافٍ رُكِبَتْ فِي أَكْفِهَا	نَوَافِذَ فِي صَمِّ الصُّخُورِ نَوَاشِبِ (١١)
ذِرَابِ بِلَا تَرْهِيْفٍ قَيْنٍ كَأَنَّهَا	تَعْقِرُ أَصْدَاغَ الْمَلَاخِ الْكَوَاعِبِ (١٢)
فَوَارِسُ مَالِمٍ تَلَقَّ حَرَبًا، وَرَجَلَةٌ	إِذَا آتَسَتْ بِالْبَيْدِ شُهَبَ الْكُتَائِبِ (١٣)

- (١) فراه: شقه. الأهب: جمع إهاب، وهو الجلد. الشخت: الضامر الدقيق. الرواجب: قصب الأصابع أو مفاصلها.
- (٢) المتن: الظهر.
- (٣) كوالح: عوابس. مدلقة: محددة. حواجب شوس: صغيرة.
- (٤) شواعب: مفرقات.
- (٥) مخطفة: ضامرة. الترائب: عظام الصدر، مفردها تريبة.
- (٦) نمر: جمع أنمر، وهو الذي فيه نمر؛ أي نكت بيضاء وسوداء. الأماق: جمع موق، وهو طرف العين مما يلي الأنف. غلب: كفرح: غلظ عنقه.
- (٧) مدنرة: قبيها نكت كأنها الدنانير. الورق: جمع أورق، وهو الذي في لونه سواد وبياض. الحواجل: جمع حوجلة؛ وهي القارورة الصغيرة الواسعة الرأس. استدمي: تتبع. الرواجب: جمع راجب؛ وهو رأس الجبل.
- (٨) الفجاج: جمع فج، وهو الطريق الواسع بين جبلين.
- (٩) المولعة: المستطيلة البلق، وهو سواد وبياض. الفطح: جمع أفتح وهو العريض.
- (١٠) المداهن: جمع مدهن؛ وهو آلة الدهن أو قارورته، الإجراس: استماع الجرس؛ وهو الصوت.
- (١١) الأشافي: جمع إشفى، وهي مثقب الإسكاف، وعنى بها الأظافر الصخرة الصماء. الصلبة المصمتة.
- (١٢) الترهيف: ترقيق الحد. القين: الحداد. الصدغ: الشعر المتدلي بين العين والأذن. وتعقرب الصدغ: تلويه وتعطفه.
- (١٣) رجلة: جمع راجل، وهو الماشي على رجله. شهب الكتائب: عنى بها جماعة الوحش التي تصيدها هذه الفهود.

تَرَوُ وَتَسْكِينُ يَكُونُ دَرِيئَةٌ
لَهْنٌ بذي الأَسْرَابِ فِي كُلِّ لَاحِبٍ (١)
تَضَاءَلُ حَتَّى لَا تَكَادُ تُبَيِّنُهَا
عُيُونٌ لَدَى الصَّرَاتِ غَيْرَ كَوَاذِبِ
حِرَاصٌ يَفُوتُ الْبِرْقَ أَمَكْتُ جَرِيهَا
ضِرَاءٌ مِبَلَّاتٌ بَطُولُ التَّجَارِبِ (٢)
تَوْسُدُ أَجْيَادَ الْفَرَائِسِ أَذْرَعًا
مَرْمَلَةٌ تَحْكِي عِنَاقَ الْحَبَائِبِ (٣)

٥٥٦ - [سهل بن هارون وديكه]

قال دَعْبَلُ الشَّاعِرُ (٤): أَقَمْنَا عِنْدَ سَهْلِ بْنِ هَارُونَ فَلَمْ نَبْرَحْ، حَتَّى كَدْنَا نَمُوتُ
مِنَ الْجُوعِ، فَلَمَّا اضْطَرَّرْنَا قَال: يَا غَلَامَ، وَيْلَكَ غَدْنَا! قَالَ: فَأَتَيْنَا بِقَصْعَةٍ فِيهَا مَرَقٌ فِيهِ
لَحْمٌ [دِيكٌ عَاسٍ] (٥) هَرَمَ لَيْسَ قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا غَيْرُهَا لَا تَحْزُنُ فِيهِ السَّكِينُ، وَلَا تُؤَثِّرُ فِيهِ
الْأَضْرَاسُ. فَاطَّلَعَ فِي الْقَصْعَةِ وَقَلَّبَ بَصَرَهُ فِيهَا، ثُمَّ أَخَذَ قِطْعَةً خَبِزٍ يَابَسَ فَقَلَّبَ جَمِيعَ
مَا فِي الْقَصْعَةِ حَتَّى فَقَدَ الرَّأْسَ مِنَ الدِّيَكِ وَحَدَهُ، [فَبَقِيَ مَطْرَقًا سَاعَةً] (٥) ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ
إِلَى الْغَلَامِ فَقَالَ: أَيْنَ الرَّأْسُ؟ فَقَالَ: رَمَيْتُ بِهِ. قَالَ: وَلِمَ رَمَيْتَ بِهِ؟ قَالَ: لَمْ أَظْنِكُ
تَاكُلَهُ! قَالَ: وَلَايُ شَيْءٍ ظَنَنْتَ أَنِّي لَا أَكُلُهُ؟ فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَمَقْتُ مَنْ يَرْمِي بَرَجْلِيهِ
[فَكَيْفَ مَنْ يَرْمِي بِرَأْسِهِ] (٥)؟! ثُمَّ قَالَ لَهُ: لَوْ لَمْ أَكْرَهُ مَا صَنَعْتَ إِلَّا لِلطَّيْرَةِ وَالْفَالِ،
لَكَرِهْتَهُ! الرَّأْسُ رَيْسٌ فِيهِ الْحَوَاسُ، وَمِنْهُ يَصْدَحُ الدِّيَكُ، وَلَوْلَا صَوْتُهُ مَا أَرِيدَ؛ وَفِيهِ
فَرْقُهُ الَّذِي يُتَبَرَّكُ بِهِ، وَعَيْنُهُ الَّتِي يَضْرِبُ بِهَا الْمَثَلَ، يُقَالُ: «شَرَابٌ كَعَيْنِ الدِّيَكِ» (٦)،
وَدِمَاغُهُ عَجِيبٌ لَوْجَعِ الْكَلْبِيَّةِ، وَلَمْ أَرِ عَظْمًا قَطُّ أَهْشَ تَحْتَ الْأَسْنَانِ مِنْ عَظْمِ رَأْسِهِ،
فَهَلَّا إِذْ ظَنَنْتَ أَنِّي لَا أَكُلُهُ، ظَنَنْتَ أَنَّ الْعِيَالَ يَأْكُلُونَهُ؟! وَإِنْ كَانَ بَلَّغَ مِنْ نُبْلِكَ أَنَّكَ لَا
تَأْكُلُهُ، فَإِنَّ عِنْدَنَا مِنْ يَأْكُلُهُ. أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ طَرْفِ الْجَنَاحِ، وَمَنْ السَّاقِ
وَالعِنَقِ! انظُرْ أَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَيْنَ رَمَيْتُ بِهِ! قَالَ: لَكِنِّي أَدْرِي أَنَّكَ رَمَيْتَ
بِهِ فِي بَطْنِكَ، وَاللَّهُ حَسْبِيكَ!

كامل المصحف الثاني من كتاب الحيوان بحمد الله تعالى وحسن عونه

ويتلوه في الثالث إن شاء الله ذكر الحمام

(١) الدريئة: ما تستر به من الصيد لتختله. الأسراب: جمع سرب، وهو الطريق. اللاحب: الطريق الواضح.

(٢) ضراء: معتادة الصيد. المبل: الثبت الجريء. يقول: إن سرعة البرق لا تداني أبطأ جرية لهذه الفهود.

(٣) المرملة: المملطخة بالدم. تحكي عنق الحبايب: تحكي صنع المحب يعانق حبيبته.

(٤) الخبر في عيون الأخبار ٣/٢٥٩ نقلًا عن الجاحظ.

(٥) زيادة من عيون الأخبار ٣/٢٥٩.

(٦) انظر ما تقدم في الفقرة (٥٣٠).

فهرس أبواب المصحف الأول

٧ مقدمة الكتاب
٧٢ باب ذكر ما يعتري الإنسان بعد الخضاء
١١٧ باب ذكر ما جاء في خضاء الدواب
١٤٤ باب مما قدمنا ذكره
١٤٦ باب ما ذكر صاحب الديك
١٧٦ باب ذكر من هجي بأكل لحوم الكلاب ولحوم الناس

أبواب المصحف الثاني

٢٦٠ باب احتجاج صاحب الكلب بالأشعار المعروفة
٢٨٩ باب آخر في الكلب وشأنه
٣٣٩ باب ما يشبه من الكلب وليس هو منه
٣٩٨ باب ما يحتاج إلى معرفته